الكامل

في التاريخ

تأليف

المؤرخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد

أبي عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني

المعروف بابن الأثير

(٥٥٥ - ٦٣٠ هـ)

حققه واعتنى به

الدكتور عمر عبد السلام تدمري

أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة اللبنانية

عضو الهيئة العربية العليا لإعادة كتابة تاريخ الامة

في اتحاد المؤرخين العرب

الجزء التاسع

عصر الحروب الصليبية

(من سنة ٥٢١ - الى سنة ٥٨٠ هـ)

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

الكامل في التاريخ

ISBN: 978-9953-27-014-2

الناشر

دار الكتاب العربي

شارع فردان، بناية بنك بيبلوس،
الطابق الثامن، ص. ب. 11-5769
بيروت 1107 2200 لبنان

DAR AL KITAB AL ARABI

Verdun St., Byblos Bank Bldg.,
8th, floor, P.O. Box 11-5769
Beirut 1107 2200 Lebanon

هاتف Tel (+961 1) 800811 - 862905 - 861178
فاكس Fax (+961 1) 805478

بريد إلكتروني **daralkitab@idm.net.lb**
academia@dm.net.lb

www.kitabalarabi.com
www.academiainternational.com




الكامل
في التاريخ



بسم الله الرحمن الرحيم

(٥٢١)
ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وخمسمائة

ذكر ولاية الشهيد أتابك زنكي شحنكيّة العراق

في هذه السنة، في ربيع الآخر، أسند السلطان محمود شحنكيّة العراق إلى عماد الدين زنكي بن آقسنقر.

وكان سبب ذلك: أنّ عماد الدين لمّا أصعد من واسط في التجمّل والجمع الذي ذكرناه، وقام في حِفْظ واسط والبصرة وتلك النواحي القيام الذي عجز غيره عنه، عظُم في صدر السلطان وصدور أمرائه، فلمّا عزم السلطان على المسير عن بغداذ نظر فيمن يصلُح أن يلي شِحنكيّة العراق ويأمن معه من الخليفة، فاعتبر أمراءه، وأعيان دولته، فلم ير فيهم من يقوم في هذا الأمر مقام عماد الدين، فاستشار في ذلك، فكلٌّ أشار به، وقالوا: لا نقدر على رقع هذا[1] الخرْق، وإعادة ناموس هذه الولاية، لا تَقْوى نفس أحدٍ على ركوب هذا الخطر غير عماد الدين زنكي. فوافق ما عنده، فأسند إليه الولاية وفوّضها [إليه]، مُضافة[2] إلى ما له من الأقطاع، وسار عن بغداذ وقد اطمأنّ قلبه من جهة العراق، فكان الأمر كما ظنّ[3].

ذكر عَود السلطان عن بغداذ ووزارة أنوشروان بن خالد

في هذه السنة، في عاشر ربيع الآخر، سار السلطان محمود عن بغداذ[4]، بعد

---

(١) في الأوربية «بهذا».
(٢) في الأوربية «مضافاً».
(٣) المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٨، المنتظم ١٠/ ٥ (١٧/ ٢٤٤)، ذيل تاريخ دمشق ٢٧٨، العبر ٤/ ٤٩، تاريخ الإسلام (٥٢١ هـ.) ص٧، مرآة الجنان ٣/ ٢٢٧.
(٤) المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٨.

تقرير القواعد بها، ولمّا عزم على المسير حمل إليه الخليفة الخلع، والدوابّ الكثيرة، فقبِل ذلك جميعه وسار.

ولمّا أبعد عن بغداذ قبض على وزيره أبي القاسم عليّ بن القاسم الأنساباذيّ في رجب، لأنّه اتّهمه بممالأة المسترشد بالله لقيامه في أمره وإتمام الصُّلح مقاماً ظهر أثره، فسعى به أعداؤه، فلمّا قبض عليه أرسل السلطان إلى بغداذ فأحضر شرف الدين أنوشِروان بن خالد، وكان مُقيماً بها، فلمّا علم بذلك جاءته الهدايا من كلّ أحد، حتّى من الخليفة، وسار عن بغداذ خامس شعبان، فوصل إلى السلطان، وهو بأصبهان، فخلع عليه خِلع الوزارة، وبقي فيها نحو عشرة أشهر، ثم استعفى منها[1]، وعزل نفسه، وعاد إلى بغداذ في شعبان سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة[2].

وأمّا الوزير أبو القاسم فإنّه بقي مقبوضاً إلى أن خرج السلطان سنجَر إلى الريّ سنة اثنتين وعشرين، فأخرجه من الحبس في ذي الحجّة، وأعاده إلى وزارة السلطان محمود، وهي الوزارة الثانية.

ذكر وفاة عزّالدين بن البُرسقيّ وولاية عماد الدين زنكي الموصل وأعمالها

في هذه السنة تُوُفّي عزّالدين بن البُرْسُقيّ، وهو صاحب الموصِل، وكان موته بمدينة الرَّحبْة، وسبب مسيره إليها: أنّه لمّا استقامت أموره في ولايته، وراسل السلطان محموداً[3]، وخطب له ولاية ما كان أبوه يتولاّه من الموصل وغيرها، أجاب السلطان إلى ما طلب، فرتّب الأمور وقرّرها، فكثُر جُنْده، وكان شجاعاً، شهماً، فطمع في التغلّب على بلاد الشام، فجمع عساكره وسار إلى الشام يريد قصد دمشق، فابتدأ بالرَّحبة، فوصل إليها ونازلها، وقام يحاصرها، فأخذه مرض حادٌّ وهو محاصر لها، فتسلّم القلعة ومات بعد ساعة، فندم من بها على تسليمها إليه.

ولمّا مات بقي مطروحاً على بساط لم يُدْفن، وتفرّق عنه عسكره. ونهب بعضهم

---

(١) في الأوربية: «فيها».

(٢) المنتظم ١٠/ ٥ (١٧/ ٢٤٤)، تاريخ حلب ٣٧٧ (٤٢)، الكامل في التاريخ ١٠/ ٦٤٢، تاريخ دولة آل سلجوق ١٤٠ الفخري ٣٠٦، ٣٠٧، تاريخ الإسلام (٥٢١ هـ.) ص٧.

(٣) في الأوربية: «محمود».

بعضاً، فشُغلوا عنه، ثم دُفن بعد ذلك، وقام بعده أخٌ له صغير. واستولى على البلاد مملوك للبرسَقيّ يُعرف بالجاولي، ودبّر أمر الصبيّ، وأرسل إلى السلطان يطلب أن يقرّر البلاد على ولد البرسقيّ، وبذل الأموال الكثيرة على ذلك.

وكان الرسول في هذا الأمر القاضي بهاء الدين أبو الحسن عليُّ بن القاسم الشهرزُوريُّ، وصلاح الدين محمّد أمير حاجب البرسقيّ، فحضرا دركاه السلطان ليخاطبا في ذلك، وكانا يخافان جاولي، ولا يرضيان بطاعته والتصرّف بما يحكم به، فاجتمع صلاح الدين، ونصير الدين جقر الذي صار نائباً عن أتابَك عماد الدين بالموصل، وكان بينهما مصاهرة، وذكر له صلاح الدين ما ورد فيه، وأفشى إليه سرَّه، فخوّفه نصير الدين من جاولي، وقبّح عنده طاعته، وقرّر في نفسه أنّه إنّما أبقاه وأمثاله لحاجته إليهم، ومتى أُجيب إلى مطلوبه لا يبقي على أحدٍ منهم.

وتحدث معه في المخاطبة في ولاية عمادالدين زنكي، وضمن له الولايات والأقطاع الكثيرة، وكذلك للقاضي بهاء الدين الشهرزوريّ، فأجابه إلى ذلك، وأحضره معه عند القاضي بهاء الدين، وخاطباه في هذا الأمر، وضمنا[١] له كلّ ما أراده فوافقهما[٢] على ما طلبا، وركب هو وصلاح الدين إلى دار الوزير، وهو حينئذٍ شَرَف الدين أنوشِروان بن خالد، وقالا له: قد علمتَ أنت والسلطان أن ديار الجزيرة والشام قد تمكّن الفرنج منها[٣]، وقويت شوكتهم بها، فاستولوا على أكثرها، وقد أصبحَتْ ولايتهم من حدود ماردِين إلى عريش مصر، ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين، وقد كان البرسقيّ مع شجاعته، وتجريبه، وانقياد العساكر إليه، يكفّ بعض عاديتهم وشرّهم، فمُذ قُتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفلٌ صغيرٌ، ولا بدّ للبلاد من رجلٍ شهْمٍ، شجاع، ذي رأي، وتجربة، يذبّ عنها ويحفظها ويحمي حوزتها، وقد أنهيْنا الحالَ لئلاّ يجري خللٌ، أو وهنٌ على الإسلام والمسلمين، فيختصّ اللوم بنا، ويقال: ألا[٤] أنهيتم إلينا جليّة الحال؟

فرفع الوزير قولهما إلى السلطان، فاستحسنه، وشكرهما عليه، وأحضرهما،

---

(١) في الأوروبية: «وضمن».

(٢) في الأوربية: «فوافقها».

(٣) في الأوربية: «منه».

(٤) في الأوربية: «لا».

واستشارهما فيمن يصلح للولاية[١]. فذكرا[٢] جماعة منهم عماد الدين زنكي، وبذلا عنه، تقرّباً إلى خزانة السلطان، مالاً جليلاً، فأجاب السلطان إلى توليته، لِما يعلمه من كفايته لِما يليه، فأحضره وولاّه البلاد كلّها، وكتب منشوره بها.

وسار فبدأ بالبوازيـج ليملكها ويتقوّى بها ويجعلها ظهره، لأنه خاف من جاولي أنّه ربّما صدّه عن البلاد، فلمّا دخل البوازيج سار عنها إلى الموصل. فلمّا سمع جاولي بقربه من البلد خرج إلى تلقّيه ومعه جميع العسكر، فلمّا رآه جاولي نزل عن فَرَسه وقبّل الأرض بين يدَيْه، وعاد في خدمته إلى الموصِل، فدخلها في رمضان، وأقطع جاولي الرَّحبة وسيّره إليها، وأقام بالموصِل يُصلح أمورها، ويقرّر قواعدها، فولّى نصير الدين دزداريّة القلعة بالموصِل، وجعل إليه سائر دزداريّة القلاع، وجعل صلاح الدين محمّداً أمير حاجب، وبهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها، وزاده أملاكاً، وأقطاعاً، واحتراماً، وكان لا يصدر إلاّ عن رأيه.

فلمّا فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عُمَر، وبها مماليك البرسقيّ، فامتنعوا عليه، فحصرهم وراسلهم، وبذل لهم البذول الكثيرة إن سلّموا، فلم يجيبوه إلى ذلك، فجدّ في قتالهم[٣]، وبينه وبين البلد دِجلة، فأمر الناس، فألقوا أنفسهم في الماء ليعبروه إلى البلد، ففعلوا، وعبر بعضهم سباحةً، وبعضهم في السفن، وبعضهم في الأكلاك، وتكاثروا على أهل الجزيرة، وكانوا قد خرجوا عن البلد إلى أرض بين الجزيرة والدجلة، تُعرف بالزَّلاّقة، ليمنعوا من يريد عبور دجلة، فلمّا عبر العسكر إليهم قاتلوهم ومانعوهم، فتكاثر عسكر عماد الدين عليهم، فانهزم أهل البلد، ودخلوه، وتحصّنوا بأسواره، واستولى عماد الدين على الزَّلاّقة، فلمّا رأى من بالبلد ذلك ضعفوا، ووهنوا، وأيقنوا أنّ البلد يُملك سلماً، أو عَنْوةً، فأرسلوا يطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك، وكان هو أيضاً مع عسكره بالزَّلاّقة، فسلّموا البلد إليه، فدخله هو وعسكره.

ثم إنّ دجلة زادت تلك الليلة زيادة عظيمة لحِقت سور البلد، وصارت الزَّلاّقة ماء، فلو أقام ذلك اليوم لغرق هو وعسكره، ولم ينج منهم أحد، فلمّا رأى الناس

---

(١) في الأوربية: «فذكر».
(٢) في الأصل: «للوزارة».
(٣) في الأوربية: «قتالها».

ذلك أيقنوا بسعادته، وأيقنوا أنّ أمراً هذا بدايته لعظيم.

ثم سار عن الجزيرة إلى نَصِيبين، وكانت لحسام الدين تمرتاش، صاحب ماردين، فلمّا نازلها سار حسام الدين إلى ابن عمّه ركن الدولة داود بن سُقمان بن أرتُق، وهو صاحب حصن كِيفا وغيرها، فاستنجده على أتابك زنكي، فوعده النجدة بنفسه، وجمع عسكره، وعاد تمرتاش إلى ماردين، وأرسل رقاعاً على أجنحة الطيور إلى نَصِيبين يعرّف مَن بها من العسكر أنّه وابن عمّه سائران في العسكر الكثير إليهم، وإزاحة عماد الدين عنهم، ويأمرهم بحفظ البلد خمسة أيّام.

فبينما أتالك في خيمته إذ سقط طائر على خيمةٍ تقابله، فأمر به فصِيد، فرأى فيه رقعة، فقرأها وعرف ما فيها، فأمر أن يُكتب غيرها، يقول فيها: إنّني قصدتُ ابنَ عمّي ركن الدولة، وقد وعدني النُّصرة وجمع العساكر، وما يتأخّر عن الوصول أكثر من عشرين يوماً، ويأمرهم بحفظ البلد هذه المدّة إلى أن يصلوا. وجعلها في الطائر وأرسله، فدخل نصِيبين، فلمّا وقف من بها على الرقعة سُقط في آيديهم، وعلموا أنّهم لا يقدرون أن يحفظوا البلد هذه المدّة، فأرسلوا إلى الشهيد وصالحوه[1]، وسلّموا البلد إليه، فبطل على تمرتاش وداود ما كان عزما عليه، وهذا من غريب ما يُسْمَع.

فلمّا ملك نصيبين سار عنها إلى سِنجار، فامتنع من بها عليه، ثم صالحوه وسلّموا البلد إليه، وسيّر منها الشحن إلى الخابور، فملكه جميعه. ثم سار إلى حَرّان، وهي للمسلمين، وكانت الرُّها، وسَروج، والبيرة، وتلك النواحي جميعها للفرنج، وأهل حَرّان معهم في ضرّ عظيم، وضِيق شديد، لخلُوّ البلاد من حامٍ يذبّ عنها، وسلطانٍ يمنعها، فلمّا قارب حرّان خرج أهل البلد وأطاعوه وسلّموا إليه، فلمّا ملكها أرسل إلى جوسلين، صاحب الرُّها وتلك البلاد، وراسله، وهادنه مدّةً يسيرةً، وكان غرضه أن يتفرّغ لإصلاح البلاد، وتجنيد[2] الأجناد، وكان أهمّ الأمور إليه أن يعبر الفُرات إلى الشام، ويملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشاميّة، فاستقرّ الصُّلح بينهم، وأمِن الناس[3]، ونحن نذكر ملك حلب، إن شاء الله تعالى.

---

(١) في الأوربية: «وصالحه».

(٢) في الأوربية: «وجند».

(٣) تاريخ حلب للعظيمي (بتحقيق زعرور) ٣٧٧ (وتحقيق سويم) ٤٢، ٤٣، الأعلاق الخطيرة ٣ ق ١٦٥/١، ١٦٦ الدرّة المضية ٥٠٠، تاريخ الإسلام (٥٢١ هـ.) ص٨، الكواكب الدّرية ٩٢، تاريخ =

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قُتل مُعين المُلْك أبو نصر أحمد بن الفضل، وزير السلطان سنجَر، قتلته الباطنيّة، وكان له في قتالهم آثار حسنة، ونيّة صالحة، فرزقه اللّه الشهادة[1].

وفيها ولّى السلطان شحنكية بغداذ مجاهد الدين بهروز، لمّا سرا أتابُك زنكي إلى الموصل[2].

وفيها رُتّب الحسن بن سليمان[3] في تدريس النظاميّة ببغداذ.

وفيها أوقع السلطان سنجَر بالباطنيّة في ألَمُوت، فقتل منهم خلقاً كثيراً، قيل كانوا يزيدون على عشرة آلاف نفس[4].

[الوَفَيات]

وتُوُفّي هذه السنة عليُّ بن المبارك[5] أبو الحسن المقري، المعروف بابن الفاعوس[6]، الحنبليُّ، ببغداذ، في شوّال، وكان صالحاً.

وفي شوّال توفّي محمّد بن عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد بن الحسن بن أبي الفضل الهمذانيُّ الفَرَضِيُّ، صاحب «التاريخ»[7].

= ابن الوردي ٢/٣٣، عيون التواريخ ١٢/١٨٩، النجوم الزاهرة ٥/٢٣٢، المختصر في أخبار البشر ٢/٢٣٨، ٢٣٩.

(١) تاريخ حلب ٣٧٧ (٤٢)، مرآة الزمان ٨ ق١/ ١٢٥ الكواكب الدّرية ٩٢/ النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٢، تاريخ الإسلام (٥٢١ هـ.) ص٧.

(٢) المنتظم ١٠/ ٥ (١٧/ ٢٤٤)، المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٩، تاريخ الإسلام (٥٢١ هـ.) ص٧.

(٣) في المنتظم (١٠/ ٥ (١٧/ ٢٢٤)، «سلمان».

(٤) في المنتظم ١٠/ ٥ (١٧/ ٤٤٢) «قتل من الباطنية اثني عشر ألفاً»، وفي دول الإسلام ٢/ ٤٥ «نحو عشرة آلاف»، وفي تاريخ الإسلام (٥٢١ هـ.) ص٥٦ «اثني عشر ألفاً»، العبر ٤/ ٤٩، مرآة الجنان ٣/ ٢٢٧، الكواكب الدّرية ٩٢.

(٥) في طبعة صادر ١٠/ ٦٤٨ «المبرك».

(٦) أنظر عن (ابن الفاعوس) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٢١ هـ.) ص٦٧ ـ ٦٩ رقم ١٠ وفيه مصادر ترجمته.

(٧) أنظر عن (محمد بن عبد الملك) في: المنتظم ١٠/ ٨ رقم ٦ (١٧ ٢٤٨ رقم ٣٩٤٨)، والبداية والنهاية ١٢/ ١٩٨.

(٥٢٢)

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك أتابك عماد الدين زنكي مدينة حلب

في هذه السنة، أوّل المحرّم، ملك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة حلب وقلعتها، ونحن نذكر كيف كان سبب ملْكها، فنقول: قد ذكرنا مُلك البرسقيّ لمدينة حلب وقلعتها سنة ثماني عشرة [وخمسمائة]، واستخلافه بها ابنه مسعوداً، ولمّا قُتل البرسقيُّ سار مسعود عنها إلى الموصل وملكها، واستناب بحلب أميراً اسمه قومان[1]، ثم إنّه ولّى عليها أميراً اسمه قتلغ أبَه، وسيّره بتوقيع إلى قومانس بتسليمها، فقال: بيني وبين عزّالدين علامة لم أرها، ولا أسلّم إلاّ بها؛ وكانت العلامة بينهما صورة غزال، وكان مسعود بن البرسقي حسن التصوير، فعاد قتلغ أبَه إلى مسعود، وهو يحاصر الرَّحبة، فوجده قد مات، فعاد إلى حلب مُسرعاً.

وعرف الناس موتَه، فسلّم الرئيس فضائل بن بديع البلد، وأطاعه المقدّمون به، واستنزلوا قومان[1] من القلعة، بعد أن صحّ عنده وفاة صاحبه مسعود، وأعطوه ألف دينار، فتسلّم قتلغ القلعة في الرابع والعشرين من جُمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين [وخمسمائة]، فظهر منه بعد أيّام جورٌ شديد، وظلْمٌ عظيم، ومدّ يده إلى أموال الناس، لا سيّما التركات، فإنّه أخذها، وتقرب إليه الأشرار، فنفرت قلوب الناس منه.

وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبّار بن أُرتُق الذي كان قديماً صاحبها، فأطاعه أهلها، وقاموا ليلة الثلاثاء ثاني شوّال فقبضوا على كلّ من كان بالبلد

---

(١) في زبدة الحلب ٢/٢٣٦ «تومان»، ومثله في: مفرّج الكروب ١/٣٧، وفي المختصر في أخبار البشر ٢/٢٣٩ «قوماز كذا رأيته مكتوباً وصوابه قيماز».

من أصحاب قتلغ أبَه، وكان أكثرهم يشربون في البلد صبحة العيد، وزحفوا إلى القلعة، فتحصّن قتلغ أبَه فيها بمن معه، فحصروه، ووصل إلى حلب حسّان صاحب مَنْبج، وحسن صاحب بُزاعة، لإصْلاح الأمر فلم ينصلح.

وسمع الفرنج بذلك، فتقدّم جوسلين بعسكره إلى المدينة، فصونع بمالٍ، فعاد عنها، ثم وصل بعده صاحب أنطاكية في جمْع من الفرنج، فخندق الحلبيّون حول القلعة، فمنع الداخل والخارج إليها من ظاهر البلَد، وأشرف الناس على الخطر العظيم إلى منتصف ذي الحجّة من السنة.

وكان عماد الدين قد ملك الموصل والجزيرة، فسيّر إلى حلب الأميرَ سنقر دراز، والأميرَ حسن قراقوش، وهما من أكابر أُمراء البرسقيّ، وقد صاروا معه في عسكر قويٍّ، ومعه التوقيع من السلطان بالموصل، والجزيرة، والشام، فاستقرّ الأمر أن يسير بدر الدولة بن عبد الجبّار وقتلغ أبَه إلى الموصل إلى عماد الدين، فسارا إليه، وأقام حسن قراقوش بحلب والياً عليها ولاية مستعارة، فلمّا وصل بدر الدولة وقتلغ أبَه إلى عماد الدين أصلح بينهما، ولم يردّ واحداً منهما إلى حلب، وسيّر حاجبَهُ صلاح الدين محمّداً الياغيسيانيّ إليها في عسكر، فصعِد إلى القلعة، ورتّب الأمور، وجعل فيها والياً.

وسار عماد الدين زنكي إلى الشام في جيوشه وعساكره، فملك في طريقه مدينة مَنْبج وبُزاعة، وخرج أهل حلب إليه، فالتقوه، واستبشروا بقدومه، ودخل البلد واستولى عليه، ورتّب أموره، وأقطع أعماله الأجناد والأمراء، فلمّا فرغ من الذي أراده قبض على قتلغ أبَه وسلّمه إلى ابن بديع، فكحله بداره بحلب، فمات قتلغ أبَه، واستوحش ابن بديع، فهرب إلى قلعة جَعْبر واستجار بصاحبها، فأجاره.

وجعل عماد الدين في رئاسة حلب أبا الحسن عليَّ بن عبد الرزّاق، ولولا أنّ اللّه تعالى منّ على المسلمين بملك أتابك ببلاد الشام (لملكها الفرنج لأنّهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشاميّة، وإذا)[1] علم ظهير الدين طُغتِكين بذلك جمع عساكره وقصد بلادهم، وحصرها وأغار عليها، فيضطرّ الفرنج إلى الرحيل لدفعه عن بلادهم، فقدّر اللّه تعالى أنّه توفي هذه السنة، فخلا لهم الشام من جميع جهاته من رجل يقوم

---

(١) ما بين القوسين من نسخة بودليان.

بُنصرة أهله، فلطف اللّه بالمسلمين بولاية عماد الدين[1]، ففعل بالفرنج ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر قدوم السلطان سَنْجَر إلى الرَّيّ

في هذه السنة خرج السلطان سنجَر منْ خُراسان إلى الرَّيّ في جيش كبير، وكان سبب ذلك: أنّ دُبَيْس بن صدقة لمّا وصل إليه هو والملك طُغْرُل، على ما ذكرناه، لم يزل يُطمِعه في العراق ويُسهّل عليه قصده، ويُلقي في نفسه أنّ المسترشد باللّه والسلطان محموداً متّفقان على الامتناع منه، ولم يزل به حتّى أجابه إلى المسير إلى العراق، فلمّا ساروا وصل إلى الرَّيّ، وكان السلطان محمود بهمَذان، فأرسل إليه السلطان سنجَر يستدعيه إليه لينظر هل هو على طاعته أم قد تغيّر على ما زعم دُبَيْس، فلمّا جاءه الرسول بادر إلى المسير إلى عمّه، فلمّا وصل إليه أمر العسكر جميعه بلقائه، وأجلسه معه على التخت، وبالغ في إكرامه، وأقام عنده إلى منتصف ذي الحجّة، ثم عاد السلطان سنجَر إلى خُراسان، وسلّم دُبَيْساً إلى السلطان محمود، ووصّاه بإكرامه وإعادته إلى بلده، ورجع محمود إلى همَذان ودُبَيْس معه، ثم سارا إلى العراق، فلمّا قاربا بغداذ خرج الوزير إلى لقائه، وكان قدومه تاسع المحرّم سنة ثلاثٍ وعشرين [وخمسمائة][2].

وكان الوزير أبو القاسم الأنساباذيّ قد قبض السلطان محمود عليه، فلمّا اجتمع بالسلطان سنجَر أمر بإطلاقه فأطلقه، وقرّره سنجَر في وزارة ابنته التي زوّجها بالسلطان محمود، فلمّا وصل معه إلى بغداذ أعاده محمود إلى وزارته في الرابع والعشرين من المحرّم، وهي وزارته الثانية.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ثامن صفر تُوُفي أتابَك طُغْتِكين، صاحب دمشق، وهو مملوك

---

(١) تاريخ حلب ٣٨١ (٤٣)، التاريخ الباهر ٣٧، ٣٨، تاريخ مختصر الدول ٢٠٣، الروضتين ١/ ٧، و٧٨، زبدة الحلب ٢/ ٢٤١، ٢٤٢، بغية الطلب (قسم تراجم السلاجقة/ ٢٥٢، دول الإسلام ٢/ ٤٥، العبر ٤/ ٥٠، تاريخ الإسلام (٥٢٢ هـ.) ص١٢، الدّرة المضية ٥٠٢، عيون التواريخ ١٢/ ١٩٧، الكواكب الدرّية ٣ (حوادث ٥٢١ هـ.).

(٢) المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٣٩، ٢٤٠، نهاية الأرب ٢٦/ ٣٨١، ٣٨٢، و٢٧/ ٢٨.

الملك تُتُش بن ألب أرسلان، وكان عاقلاً، خيّراً، كثير الغزوات والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيّته، مؤثراً[(١)] للعدل فيهم، وكان لَقَبُه ظهير الدين، ولمّا تُوُفّي ملك بعده ابنه تاج الملوك بوري، وهو أكبر أولاده، بوصيّة من والده له بالملك، وأقرّ وزير أبيه أبا عليّ طاهر بن سعد المزدقانيّ على وزارته[(٢)].

وفيها مستهلّ رجب. توفّي الوزير جلال الدين أبو عليّ بن صَدَقَة[(٣)]، وزير الخليفة، وكان حَسَن السيرة، جميل الطريقة، متواضعاً، مُحِبّاً لأهل العلم، مُكرِماً لهم، وله شِعر حَسَن، فمنه في مدح المسترشد بالله:

وجدت الورى كالماء طعماً ورقة ... وأن أمير المؤمنين زلاله
وجدت معنى العقل شخصاً مصوراً ... وأن أمير المؤمنين مثاله
ولو طريق[(٤)] الدين والشرع والتقى ... لقلت من الاعظام جلّ جلاله[(٥)]

وأقيم في النيابة بعده شرف الدين عليُّ بن طِراد الزينبيُّ[(٦)]، ثم جُعل وزيراً، وخُلع عليه آخر شهر ربيع الآخر من سنة ثلاثٍ وعشرين [وخمسمائة]، ولم يَزِرْ للخلفاء من بني العبّاس هاشميّ غيره.

وفيها هبّت ريح شديدة اسودّت لها الآفاق[(٧)]، وجاءت بتراب أحمر يُشْبه الرمل، وظهر في السماء أعمدة كأنّها نار، فخاف الناس، وعدلوا إلى الدعاء والاستغفار، فانكشف عنهم ما يخافونه.

---

(١) في الأوربية: «مؤثر».
(٢) أنظر عن (طغتكين) في: تاريخ الإسلام (٥٢٢ هـ.) ص٧٤، ٧٥، رقم ١٨ وفيه حشدت عشرات المصادر لترجمته.
(٣) أنظر عن (الوزير ابن صدقة) في: تاريخ الإسلام (٥٢٢ هـ.) ص٧١، ٧٢ رقم ١٥ وفيه مصادر ترجمته.
(٤) في تاريخ الإسلام «مكان».
(٥) في المنتظم البيتان الأول والأخير.
(٦) المنتظم ١٠/ ١١ (١٧/ ٢٥٤).
(٧) المنتظم ١٠/ ٩ (١٧/ ٢٤٩).

(٥٢٣)
ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

ذكر قدوم السلطان محمود إلى بغداذ

في هذه السنة، في المحرّم، قدِم السلطان محمود بغداذ، بعد عَوده من عند عمّه السلطان سنجَر، ومنعه دُبَيْس بن صدقة، ليصلح حاله مع الخليفة المسترشد باللّه. فتأخّر دُبَيْس عن السلطان، ثم دخل بغداذ، ونزل بدار السلطان، واسترضى عنه الخليفة، فامتنع الخليفة من الإجابة إلى أن يُولّى دُبَيْس شيئاً[1] من البلاد، وبذل مائة ألف دينار لذلك[2].

وعلم أتابك زنكي أنّ السلطان يريد أن يولّى دُبَيْس الموصل، فبذل مائة ألف دينار، وحضر بنفسه إلى خدمة السلطان، فلم يشعر به إلاّ وهو عند السِّتر، وحمل معه الهدايا الجليلة، فأقام عند السلطان ثلاثة أيّام، وخلع عليه، وأعاده إلى الموصِل[3].

وخرج السلطان يتصيّد، فعمل له شيخ المَزْرَفة دعوةً عظيمة امتار منها جميع عسكر السلطان، وأدخله إلى حمّام في داره، وجعل فيه عِوَض الماء ماء الورد، فأقام السلطان إلى رابع جُمادى الآخرة، وسار عنها إلى هَمَذان، وجعل بهروز على شِحنكيّة بغداذ، وسُلّمت إليه الحِلّة أيضاً[4].

---

(١) في الأوربية: «تولى دبيس شيء».
(٢) المنتظم ١٠/ ١١ (١٧/ ٢٥٢)، نهاية الأرب ٢٧/ ٢٨.
(٣) المنتظم ١٠/ ١١ (١٧/ ٢٥٢)نهاية الارب ٢٧/ ٢٨.
(٤) المنتظم ١٠/ ١١ (١٧/ ٢٥٢)، زبدة الحلب ٢/ ٢٤٣، ٢٤٤، العبر ٤/ ٥٢، تاريخ الإسلام (٥٢٣ هـ) ص١٣، مرآة الجنان ٣/ ٢٢٩، البداية والنهاية ١٢/ ١٩٩ عيون التواريخ ١٢/ ٢٠٢، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٤.

ذكر ما فعله دُبَيْس بالعراق وعود السلطان إلى بغداذ

لمّا رحل السلطان إلى همَذان ماتت زوجته، وهي ابنة السلطان سنجَر، وهي التي كانت تُعنى بأمر دُبَيْس، وتدافع عنه، فلمّا ماتت انحلّ أمر دُبَيْس.

ثم إنّ السلطان مرض مرضاً شديداً، فأخذ دُبَيْس ابناً له صغيراً وقصد العراق، فلمّا سمع المسترشد بالله بذلك جنّد الأجناد، وحشد، وكان بهروز بالحِلّة، فهرب منها، فدخلها دُبَيْس في شهر رمضان؛ فلمّا سمع السلطان الخبر عن دُبَيْس أحضر الأميرَيْن قزل، والأحمديليّ، وقال: أنتما ضمنتما دُبَيْساً منّي، وأريده منكما. فسار الأحمديليّ إلى العراق، إلى دُبَيْس، ليكفّ شرّه عن البلاد، ويحضره إلى السلطان، فلمّا سمع دُبَيْس الخبر أرسل إلى الخليفة يستعطفه، ويقول: إنْ رضيتَ عنّي فأنا أردّ أضعاف ما أخذتُ، وأكون العبد المملوك، فتردّد الرسل ودُبَيْس يجمع الأموال، والرجال، فاجتمع معه عشرة آلاف فارس، وكان قد وصل في ثلاثمائة فارس، ووصل الأحمديليُّ بغداذَ في شوّال، وسار في أثر دُبَيْس.

ثم إنّ السلطان سار إلى العراق، فلمّا سمع دُبَيْس بذلك أرسل إليه هدايا جليلة المقدار، وبذل ثلاثمائة حصان منعلة بالذهب، ومائتَيْ ألف دينار، ليرضى عنه السلطان والخليفة، فلم يُجِبه إلى ذلك، ووصل السلطان إلى بغداذ في ذي القعدة، فلقيه الوزير الزينبي وأرباب المناصب، فلمّا تيقّن دُبَيْس وصوله رحل إلى البرّيّة، وقصد البصرة وأخذ منها أموالاً كثيرة، وما للخليفة والسلطان هناك من الدخل، فسيّر السلطان إثره عشرة آلاف فارس، ففارق البصرة ودخل البرّيّة[1].

ذكر قتل الإسماعيليّة بدمشق

قد ذكرنا فيما تقدّم قَتْل إبراهيم الأسداباذيّ ببغداذ، وهَرب ابن أُخته بَهرام إلى الشام، ومُلْكه قلعة بانياس، ومسيره إليها، ولمّا فارق دمشق أقام له بها خليفة يدعو الناس إلى مذهبه، فكثروا وانتشروا، وملك هو عدّة حصون من الجبال منها القدموس

---

(١) المنتظم ١٠/١٢، ١٣ (١٧/٢٥٣، ٢٥٤)، تاريخ الزمان ١٤٢، نهاية الأرب ٢٧/٢٨، ٢٩، دول الإسلام، ٢/٤٦، تاريخ الإسلام (٥٢٣ هـ.) ص١٥، تاريخ ابن الوردي ٢/٣٤، البداية والنهاية ١٢/٢٠٠، عيون التاريخ ١٢/٢٠٢.

وغيره، وكان بوادي التَّيم، من أعمال بعلبكّ، أصحاب مذاهب مختلفة من النصيرية، والدرزيّة، والمجوس، وغيرهم، وأميرهم اسمه الضَّحّاكُ، فسار إليهم بهرام سنة اثنتين وعشرين [وخمسمائة] وحصرهم وقاتلهم، فخرج إليه الضحّاك في ألف رجل، وكبس عسكر بَهرام فوضع السيف فيهم، وقتل منهم مقتلة كثيرة، وقُتل بَهرام، وانهزم من سلم، وعادوا إلى بانياس على أقبح صورة.

وكان بَهرام قد استخلف في بانياس رجلاً من أعيان أصحابه اسمه إسماعيل، فقام مقامه، وجمع شمل من عاد إليه منهم، وبثّ دُعاته في البلاد، وعاضده المزدقانيُّ أيضاً، وقوّى نفسه على ما عنده من الامتعاض بهذه الحادثة، والهمّ بسببها.

ثم إنّ المزدقانيّ أقام بدمشق عِوض بهرام إنساناً اسمه أبو الوفاء، فقوي أمره وعلا شأنه وكثُر أتباعه، وقام بدمشق، فصار المستولي على من بها من المسلمين، وحكمه أكثر من حكم صاحبها تاج الملوك. ثم إنّ المزدقانيّ راسل الفرنج ليسلّم إليهم مدينة[1] دمشق، ويسلّموا إليه مدينة صور، واستقرّ الأمر بينهم على ذلك، وتقرّر بينهم الميعاد يوم جمعة ذكروه، وقرّر المزدقانيُّ مع الإسماعيليّة أن يحتاطوا ذلك اليوم (بأبواب الجامع فلا يمكّنوا أحداً من الخروج)[2] منه ليجيء الفرنج ويملكوا البلاد. فبلغ الخبر تاجَ الملوك، صاحب دمشق، فاستدعى المزدقانيُّ إليه، فحضر، وخلا معه، فقتله تاج الملوك، وعلّق رأسه على باب القلعة، ونادى في البلد بقتل الباطنيّة، فقُتل منهم ستّة آلاف نفس، وكان ذلك منتصف رمضان من السنة، وكفى اللّه المسلمين شرّهم، وردّ على الكافرين كيدهم.

ولمّا تمّت هذه الحادثة بدمشق على الإسماعيليّة، خاف إسماعيل والي بانياس أن يثور به وبمن معه الناس فيهلكوا، فراسل الفرنجَ، وبذل لهم تسليم بانياس إليهم، والإنتقال إلى بلادهم، فأجابوه، فسلم القلعة إليهم، وانتقل هو ومن معه من أصحابه إلى بلادهم، ولقوا شدّة وذلّة وهواناً، وتوفّي إسماعيل أوائل سنة أربع وعشرين [وخمسمائة]، وكفى اللّه المؤمنين شرّهم[3].

---

(١) كتب على الهامش: «قلعة».

(٢) في الأوربية: «على أبواب الجامع فلا يمكنون أحداً يخرج».

(٣) تاريخ حلب ٣٨١ (٤٤)، تاريخ دمشق ٢٢٤، المنتظم ١٠/ ١٣ (١٧/ ٢٥٤)، مرآة الزمان ج ٨ =

ذكر حصر الفرنج دمشق وانهزامهم

لمّا بلغ الفرنجَ قتلُ المزدقانيّ والإسماعيليّة بدمشق عظُم عليهم ذلك، وتأسّفوا على دمشق حيث لم يتمّ لهم ملكها، وعمّتهم المصيبة، فاجتمعوا كلّهم: صاحب القدس، وصاحب أنطاكية، وصاحب طرابلس، وغيرهم من الفرنج وقمامصتهم، ومن وصل إليهم في البحر للتجارة والزيارة، فاجتمعوا في خلْقٍ عظيم نحو ألفَيْ فارس، وأمّا الراجل فلا يُحصَى، وساروا إلى دمشق ليحصروها.

ولمّا سمع تاج الملوك بذلك جمع العرب والتركمان، فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس، ووصل الفرنج في ذي الحجّة، فنازلوا البلد، وأرسلوا إلى أعمال دمشق لجمع المِيرة والإغارة على البلاد، فلمّا سمع تاج الملوك أنّ جَمّعا كثيراً قد ساروا إلى حَوْران لنهبه، وإحضار الميرة، سَيّرَ[1] أميراً من أمرائه، يُعرف بشمس الخواصّ، في جمْع من المسلمين إليهم، وكان خروجهم في ليلةٍ شاتية، كثيرة المطر، ولقوا الفرنج من الغد، فواقعوهم، واقتتلوا، وصبر بعضهم لبعض، فظفر بهم المسلمون وقتلوهم، فلم يفلتْ منهم غير مقدّمهم ومعهم أربعون رجلاً، وأخذوا ما معهم، وهي عشرة آلاف دابّة موقَرة، وثلاثمائة أسير، وعادوا إلى دمشق لم يمسَسْهم قَرْح. فلمّا علم من عليها[2] من الفرنج ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب، فرحلوا عنها شبه المنهزمين، وأحرقوا ما تعذّر عليهم حَمْله من سلاح وميرة وغير ذلك، وتبعهم المسلمون، والمطر شديد، والبرد عظيم، يقتلون كلّ من تخلّف منهم، فكَثُر القتلى منهم، وكان نزولهم ورحيلهم في ذي الحجّة من هذه السنة[3].

ذكر ملك عماد الدين زنكي مدينة حماة

في هذه السنة ملك عماد الدين زنكي بن آقسنقَر، صاحب الموصل، مدينة حماة.

= ق ١/ ١٣٠، تاريخ الإسلام (٥٢٣ هـ.) ص١٦، ١٧، ١٩، ٢٠، الكواكب الدرّية ٩٥، عيون التواريخ ١٢/ ٢٠٣، نهاية الأرب ٢٧/ ٨٠. دول الإسلام ٢/ ٤٦ العبر ٤/ ٥٣، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٤، ٣٥، الدرّة المضية ٥٠٣، مرآة الجنان ٣/ ٢٢٩، شذرات الذهب ٤/ ٦٧.

(١) في الأوربية: «فسير».

(٢) في الأوربية: «عليه».

(٣) ذيل تاريخ دمشق ٢٢٥ ـ ٢٢٧، نهاية الأرب ٢٧/ ٨٠، ٨١، دول الإسلام ٢/ ٤٦، العبر ٤/ ٥٣، تاريخ الإسلام (٥٢٣ هـ.) ص٢٠، مرآة الجنان ٣/ ٢٢٩.

وسبب ذلك: أنّه عبر الفرات إلى الشام، وأظهر أنّه يريد جهاد الفرنج، وأرسل إلى تاج الملوكَ بوري بن طُغتكين، صاحب دمشق، يستنجده، ويطلب منه المعونة على جهادهم، فأجاب إلى المراد، وأرسل من أخذ له العهود والمواثيق، فلمّا وصلت التوثقة جرّد عسكراً من دمشق مع جماعة من الأمراء، وأرسل إلى ابنه سونج، وهو بمدينة حَماة، يأمره بالنزول إلى العسكر، والمسير معهم إلى زنكي، ففعل ذلك، فساروا جميعهم، فوصلوا إليه، فأكرمهم، وأحسن لقاءهم، وتركهم أيّاماً.

ثم إنّه غدر بهم، فقبض على سونج ولد تاج الملوك، وعلى جماعة الأمراء المقدّمين، ونهب خيامهم وما فيها من الكراع، واعتقلهم بحلب، وهرب من سواهم، وسار من يومه إلى حماة، فوصل إليها وهي خالية من الجُند الحُماة الذابّين، فملكها واستولى عليها، ورحل عنها إلى حمص، وكان صاحبها قرجان[1] بن قراجة معه في عسكره، وهو الذي أشار عليه بالغدر بولد تاج الملوك، فقبض عليه، ونزل على حمص وحصرها، وطلب من قرجان صاحبها أن يأمر نوّابه وولده الذين فيها بتسليمها، فأرسل إليهم بالتسليم، فلم يقبلوا منه، ولا التفتوا إلى قوله، فأقام عليها محاصراً لها، ومقاتلاً لمن فيها مدّة طويلة، فلم يقدر على ملكها، فرحل عنها عائداً إلى الموصل، واستصحب معه سونج بن تاج الملوك ومن معه من الأمراء الدمشقيّين.

وتردّدت الرسل في إطلاقهم بينه وبين تاج الملوك، واستقرّ الأمر على خمسين ألف دينار، فأجاب تاج الملوك إلى ذلك، ولم ينتظم بينهم أمر[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ملك بيْمُند، صاحب أنطاكية، حصن القَدْمُوس من المسلمين[3].

وفي هذه السنة أيضاً وثب الإسماعيليّة على عبد اللطيف بن الخُجَنْديّ، رئيس الشافعيّة بأصبهان، فقتلوه، وكان ذا رئاسة عظيمة وتحكُّم كثير[4].

---

(١) في الباريسية: «خرخان».
(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/٣.
(٣) المختصر في أخبار البشر ٣/٣.
(٤) تاريخ الإسلام (٥٢٣ هـ.) ص١٦، عيون التواريخ ١٢/٢٠٤ وفيه) «صدر الدين ملك العلماء مسعود =

[الوفيات]

وفي هذه السنة توفّي الإمام أبو الفتَح أسعد بن أبي نصر المِيْهَنيّ[1] الفقيه الشافعيُّ، مدرّس النِّظاميّة ببغداذ، وله طريقة مشهورة في الخلاف، وتفقّه على أبي المظفّر السمعانّي، وكان له قَبُولٌ عظيم عند الخليفة، والسلطان، وسائر الناس.

وفيها توفّي حمزة بن هبة اللّه بن محمّد بن الحسن الشريف العلويّ، الحسنيُّ، النَّيسابوريُّ، سمع الحديث الكثير، ورواه، ومولده سنة تسعٍ وعشرين وأربعمائة، وجمع مع[2] شرف النسب شرف النفس والتقوى، وكان زيديّ المَذهب[3].

= الخجندي».

(١) أنظر عن (أسعد المهيني) في: المنتظم ١٠/ ١٣ رقم ١١ (١٧/ ٢٥٥ رقم ٣٩٥٣)، وتذكرة الحفاظ ١٢٨٨، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٠٠.

(٢) في الأوربية: «من».

(٣) أنظر عن (حمزة بن هبة الله) في تاريخ الإسلام (٥٢٣ هـ.) ص ٨٢ رقم ٢٩.

(٥٢٤)

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وخمسمائة

ذكر ملك السلطان سنجر مدينة سمرقند من محمّد خان وملك محمود بن محمّد خان المذكور

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، ملك السلطان سنجَر مدينة سَمَرْقَنَد.

وسبب ذلك: أنّه كان قد رتّب فيها، لمّا ملكها أوّلاً، أرسلان خان محمّد بن سليمان بن بغراخان دواد، فأصابه فالج، فاستناب ابناً له يُعرف بنصرخان، وكان شهماً، شجاعاً، وكان بسمرقند إنسان علويّ، فقيه، مدرّس، إليه الحلّ والعقد، والحكم في البلد، فاتّفق هو ورئيس البلد على قتل نصرخان، فقتلاه ليلاً، وكان أبوه محمّد خان غائباً، فعظُم عليه واشتدّ، وكان له ابن آخر غائب في بلاد تركستان، فأرسل إليه واستدعاه، فلمّا قارب سَمَرْقَنْد خرج العلويُّ ورئيس البلد إلى استقباله، فقتل العلويَّ في الحال، وقبض على الرئيس.

وكان والده أرسلان خان قد أرسل إلى السلطان سنجَر رسولاً يستدعيه، ظنّاً منه أنّ ابنه لا يتمّ أمره مع العلويّ والرئيس، فتجهّز سنجَر وسار يريد سمرقند، فلمّا ظفر ابن أرسلان خان بهما ندم على استدعاء السلطان سنجَر، فأرسل إليه يعرّفه أنّه قد ظفر بالعلويّ والرئيس، وأنّه وابنه على الطاعة، ويسأله العَود إلى خُراسان، فغضب سنجَر من ذلك، وأقام أيّاماً، فبينما هو في الصيد إذ رأى اثني عشر رجلاً في السلاح التامّ، فقبض عليهم وعاقبهم، فأقرّوا أنّ محمّد خان أرسلهم ليقتلوه، فقتلهم، ثم سار إلى سمرقند فملكها عَنْوةً، ونهب بعضها، ومنع من الباقي، وتحصّن منه محمّد خان ببعض تلك الحصون، فاستنزله السلطان سنجَر بأمان، بعد مّدة، فلمّا نزل إليه أكرمه وأرسله إلى ابنته زوجة السلطان سنجَر، فبقي عندها إلى أن توفّي.

وأقام سنجَر بسَمَرْقَند مدّةً حتّى أخذ المال والسلاح والخزائن، وسلّم البلد إلى

الأمير حسن تكين، وعاد إلى خُراسان، فلم يلبث حسن تكين أن مات، فملّك سنجر بعده عليها محمود بن محمّد خان بن سليمان بن داود، المقدم ذكره[1].

وقيل إنّ السبب غير ما ذكرناه، وسيرِد ذِكره سنة ستّ وثلاثين للحاجة إلى ذكره هناك.

ذكر فتح عماد الدين زنكي حصن الأثارب وهزيمة الفرنج

لمّا فرغ عماد الدين زنكي من أمر البلاد الشاميّة، حلب وأعمالها، وما ملكه، وقرّر قواعده، عاد إلى الموصِل، وديار الجزيرة، ليستريح عسكره، ثم أمرهم بالتجهّز للغزاة، فتجهزّوا وأعدّوا واستعدّوا، وعاد إلى الشام، وقصد حلب، فقوي عزمه على قصد حصن الأثارب، ومحاصرته، لشدّة ضرره على المسلمين.

وهذا الحصن بينه وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ، بينها وبين أنطاكية، وكان من به من الفرنج يقاسمون حلب على جميع أعمالها الغربيّة، حتّى على رحىً لأهل حلب بظاهر باب الجنان، بينها وبين البلد عرض الطريق، وكان أهل البلد معهم في ضرّ شديد، وضيق، كلّ يوم قد أغاروا عليهم، ونهبوا أموالهم، فلمّا رأى الشهيد هذه الحال صمّم العزم على حصر هذا الحصن، فسار إليه ونازله.

فلمّا علم الفرنج بذلك جمعوا فارسهم وراجلهم، وعلموا أنّ هذه وقعة لها ما بعدها، فحشدوا وجمعوا، ولم يتركوا من طاقتهم شيئاً إلاّ استنفدوه، فلمّا فرغوا من أمرهم ساروا نحوه، فاستشار أصحابه فيما يفعل، وكلٌّ أشار بالعَود عن الحصن، فإنّ لقاء الفرنج في بلادهم خطر لا يُدرى على أيّ شيء تكون العاقبة. فقال لهم: إنّ الفرنج متى رأونا قد عُدنا من أيديهم طمعوا وساروا في أثرنا، وخرّبوا بلادنا، ولا بدّ من لقائهم على كلّ حالٍ.

ثم ترك الحصن وتقدّم إليهم، فالتقوا، واصطفّوا للقتال، وصبر كلّ فريق لخصْمه، واشتدّ الأمر بينهم، ثم إن اللّه تعالى أنزل نصره على المسلمين، فظفروا،

---

(١) تاريخ حلب ٢٨٣ (٤٥) نهاية الأرب ٣٨٢/٢٦، تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص ٢٣، البداية والنهاية ٢٠٠/١٢ عيون التواريخ ٢٠٧/١٢.

وانهزم الفرنج أقبح هزيمةٍ، ووقع كثير من فرسانهم في الأسر، وقُتل منهم خلق كثير، وتقدّم عماد الدين إلى عسكره بالإنجاز، وقال: هذا أوَّل مصافٍّ عملناه معهم، فلنُذِقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم؛ ففعلوا ما أمرهم؛ ولقد اجتزت[1] بتلك الأرض سنة أربع وثمانين وخمسمائة ليلاً، فقيل لي: إنّ كثيراً من العظام باقٍ إلى ذلك الوقت.

فلمّا فرغ المسلمون من ظفرهم عادوا إلى الحصن فتسلّموه عَنوةً، وقتلوا وأسروا كلّ من فيه، وأخربه عماد الدين، وجعله دكّاً، وبقي إلى الآن خراباً، ثم سار منه إلى قلعة حارم، وهي بالقرب من أنطاكية، فحصرها، وهي أيضاً للفرنج، فبذل له أهلها نصف دخل بلد حارم، وهادنوه، فأجابهم إلى ذلك، وعاد عنهم وقد استدار المسلمون بتلك الأعمال، وضعفت قُوَى الكافرين، وعلموا أنّ البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في حساب، وصار قُصاراهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع[2].

ذكر ملك عماد الدين زنكي أيضاً مدينة سرجي ودارا

لمّا فرغ من أمر الأثارب وتلك النواحي، عاد إلى ديار الجزيرة، وكان قد بلغه عن حسان الدين تمرتاش بن إيلغازي، صاحب ماردين، وابن عمّه ركن الدولة داود بن سُقمان، صاحب حصن كيفا، قوارص، فعاد إليهم، وحصر مدينة سرجي، وهي بين ماردين ونصِيبين، فاجتمع حسام الدين، وركن الدولة، وصاحب آمِد، وغيرهم، وجمعوا خلقاً كثيراً من التركمان بلغت عدّتهم عشرين ألفاً، وساروا إليه، فتصافّوا بتلك النواحي، فهزمهم عماد الدين وملك سرجي.

فحكى لي والدي قال: لمّا انهزم ركن الدولة داود قصد بلد جزيرة ابن عمر ونهبه، فبلغ الخبر إلى عماد الدين، فسار نحو الجزيرة، وأراد دخول بلد داود، ثم عاد عنه لضيق مسالكه، وخشونة الجبال التي في الطريق، وسار إلى

---

(١) في الأوربية: «اجترت».

(٢) تاريخ حلب ٢٨٣ (٤٥)، التاريخ الباهر ٣٩ ـ ٤٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٣،٤، العبر ٤/ ٥٥، تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٢٣، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٥، مرآة الجنان ٣/ ٢٣٠، الكواكب الدرية ٩٧.

دَارَا[1] فملكها، وهي من القلاع في تلك الأعمال[2].

ذكر وفاة الآمر وخلافة الحافظ العلويّ

في هذه ا لسنة، ثاني ذي القعدة، قُتل الآمر بأحكام اللّه أبو عليّ بن المستعلي العلويُّ، صاحب مصر، خرج إلى متنزه له، فلمّا عاد وثب عليه الباطنيّة فقتلوه، لأنّه كان سيّىء السيرة في رعيّته، وكانت ولايته تسعاً[3] وعشرِين سنة وخمسة أشهر، وعمرُه أربعاً[4] وثلاثين سنة، وهو العاشر من ولد المهديّ عُبيد اللّه الذي ظهر بسِجِلْمَاسةَ وبنى[5] المهَديّة بإفريقية، وهو أيضاً العاشر من الخلفاء العلويّين من أولاد المهديّ أيضاً.

ولمّا قُتل لم يكن له ولد بعده، فوليَ بعده ابن عمّه الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم بن المستنصر باللّه، ولم يبايَع بالخلافة، وإنّما بويع له لينظر في الأمر نيابة، حتى يكشف عن حملٍ إن كان للآمر فتكون[6] الخلافة فيه، ويكون هو نائباً عنه.

ومولد الحافظ بعسَقلان، لأنّ أباه خرج من مصر إليها في الشدّة، فأقام بها، فولد ابنه عبد المجيد هناك، ولمّا وليَ استوزر أبا عليّ أحمد بن الأفضل بن بدر الجماليّ، واستبدّ بالأمر، وتغلّب على الحافظ، وحجر عليه، وأودعه في خزانة، ولا يدخل إليه إلاّ من يريده أبو عليّ، وبقي الحافظ له اسم لا معنى تحته، ونقل أبو عليّ كلَّ ما[7] [كان] في القصر إلى داره من الأموال وغيرها، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن قُتل أبو عليّ سنة ستّ وعشرين [وخمسمائة] فاستقامت أمور الحافظ، وحكم في دولته، وتمكّن من ولايته وبلاده[8].

---

(١) في الباريسية: «برد»، وفي نسخة بودليان: «بهرد».
(٢) الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ٢/ ٥٣٢، تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٢٤.
(٣) في الأوربية: «تسع».
(٤) في الأوربية: «أربع».
(٥) في الأوربية: «وبنا».
(٦) في الأوربية: «فيكون».
(٧) في الأوربية: «كلّما».
(٨) أنظر عن وفاة الآمر بأحكام الله في: تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٢٢، ٢٣ وقد حشدت الكثير من =

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّيت الخاتون ابنة السلطان سنجَر، وهي زوجة السلطان محمود[1].

وفيها قُتل بيمُنْد الفرنجيُّ صاحب أنطاكية[2].

وفيها تُوُفّي نصير الدين محمود بن مؤيّد المُلْك بن نظام المُلْك، في شعبان، ببغداذ، ووقع الحريق في داره بعد وفاته، وفي حظائر الحطب، والسوق التُّتُشيّ، فذهب من الناس أموال كثيرة.

وفيها وَزَر الرئيس أبو الذُّواد المفرّج بن الحسن بن الصوفيّ لصاحب دمشق تاج الملوك[3].

وفيها كان الرصد بالدار السلطانيّة، شرقيّ بغداذ، تولّاه البديع الإصطرلابيّ، ولم يتمّ[4].

وفيها ظهر ببغداذ عقارب طيّارة ذوات شوكتَيْن، فنال الناسَ منها خوف شديد، وأذًى عظيم[5].

وفيها، في ذي الحجّة، خرج الملك مسعود بن محمّد من خُراسان، وكان عند عمّه السلطان سنجَر، ووصل إلى ساوة، ووقع الإرجاف أنّ عَزْمه على مخالفة أخيه السلطان محمود قويّ، وأنّ عمّه سنجَر أمره بذلك، فاستشعر السلطان محمود، وسار

= المصادر.

(١) تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٢٤، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٠.

(٢) تاريخ حلب ٣٨٢ (٤٥)، تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٢٤.

(٣) تاريخ حلب ٣٨٢ (٤٥) العبر ٤/ ٥٥، تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٢٤.

(٤) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤.

(٥) تاريخ مختصر الدول ٢٠٣، مرآة الزمان ٨ ق ١/ ١٣٣، العبر ٤/ ٥٥، تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٢٥ مرآة الجنان ٣/ ٢٣٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٠، عيون التواريخ ١٢/ ٢٠٧، الكواكب الدرية ٩٧، تاريخ الخميس ٢/ ٤٠٤. تاريخ الخلفاء ٤٣٥، شذرات الذهب ٤/ ٦٧، أخبار الدول ٢/ ١٧٢ (الطبعة الجديدة).

عن بغداذ إلى همذان، فلمّا وصل إلى كَرمانْشَاهان وصل إليه أخوه الملك مسعود وخدمه، ولم يظهر للإرجاف أثر، فأقطعه السلطان مدينة كَنْجَةَ وأعمالها وسيّره إليها[1].

وفيها كانت زلزلة عظيمة، في ربيع الأوّل، بالعراق، وبلد الجبل، والموصل، والجزيرة، فخرّبت كثيراً[2].

وفيها ملك السلطان محمود قلعة ألَمُوت[3].

[الوفيات]

وفيها توفّي إبراهيم بن عثمان بن محمّد أبو إسحاق الغَزيّ[4] من أهل غزّة، مدينة بفلسطين من الشام، ومولده سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وهو من الشعراء المُجيدين، فمن قوله من قصيدة يصف فيها الأتراك:

في فِتيةٍ من جُيوشِ التُّركِ[5] ما تركَتْ ... للرعدِ كرّاتُهم[6] صَوتاً ولا صِيتَا

قومٌ إذا قُوبلوا كانوا ملائكةً ... حُسناً، وإن قُوتلوا كانوا عَفاريتَا[7]

وله في الزهد:

إنّما هذه الحياة[8] مَتاعٌ، ... والسّفيهُ الغَوِيُّ مَن يَصْطَفيها

ما مضى[9] فَات والمؤمَّل غَيبٌ ... ولك الساعة التي أنت فيها[10]

---

(١) نهاية الأرب ٢٧/ ٣٠.

(٢) المنتظم ١٠/ ١٤ (١٧/ ٢٥٦)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٣٢، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٠، كشف الصلصلة ١٨٣.

(٣) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤، العبر ٤/ ٥٥، تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٢٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٦،

(٤) أنظر عن (الغزّي) في: تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص ٩٠ ـ ٩٥ رقم ٤٥.

(٥) في تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٩٤ «وفتية من كماة الترك».

(٦) في تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٩٤ «كنا نهم».

(٧) المنتظم ١٠/ ١٥، ١٦ (١٧/ ٢٥٧)، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤، تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص٩٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٦.

(٨) في نسخة من المنتظم: «الدنيا».

(٩) في الأوربية: «مضا».

(١٠) المنتظم ١٠/ ١٦ (١٧/ ٢٥٨).

وفيها توفّي الحسين بن محمدّ بن عبد الوهّاب بن أحمد بن محمّد الدّبّاس[1] أبو عبد اللّه النحْويُّ، الشاعر، المعروف بالبارع، أخو أبي الكرم بن فاخر النحْويّ لأمّه، وُلد سنة سنة ثلاثٍ وأربعين وأربعمائة، وله شِعر مليح، فمنه قوله:

رُدّي عليّ الكَرَى ثم اهجري سَكَني ... فقد قنِعتُ بطَيفٍ منكِ في الوسَنِ

لا تحسبي النَّوم قد أوشَكْتُ[2] أطلبُه، ... إلاّ رجاء خيالٍ منكِ يُؤنسُني

تركتِني والهوى فرداً أُغالِبُهُ، ... ونام ليلُكِ عن همٍّ يُؤرّقني[3]

وهي طويلة.

وفيها توفّي هبة اللّه بن القاسم[4] بن محمّد بن عطا بن محمّد أبو سعد المِهْرَانيُّ[5]، النَّيسابوريُّ، ومولده سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وكان محدّثاً، حافظاً، صالحاً.

---

(١) أنظر عن (الدباس النحوي) في: المنتظم ١٠/١٦ - ١٩ - رقم ١٨ (١٧/٢٥٩ - ٢٦١ رقم ٣٩٦٠)، وتذكرة الحفاظ ١٢٧٤، والبداية والنهاية ١٢/٢٠١، وبغية الوعاة ١/٥٣٩ رقم ١١٢٣، وشذرات الذهب ٤/٦٩، وإنباه الرواة: ١/٣٢٨، ٣٢٩ رقم ٢١٩، وتلخيص ابن مكتوم ٦٣، وخريدة القصر ١/٨٥، ومعجم الأدباء: ١٠/١٤٧ - ١٥٤، وغاية النهاية ١/٢٥١، والنجوم الزاهرة ٥/٢٣٦، وروضات الجنان ٢٤٨، ٢٤٩ وذكر الذهبي وفاته في السنة التالية ٩٢٥ هـ. - ص ٢٧.

(٢) في الأوربية: «أوحشت»، وفي المنتظم: «مذ أوحشت».

(٣) المنتظم ١٠/١٧ (١٧/٢٥٩).

(٤) أنظر عن (هبة الله بن القاسم) في: تاريخ الإسلام (٥٢٤ هـ.) ص١٢٤، ١٢٥ رقم ٦٦ وفيه مصادر ترجمته.

(٥) في طبعة صادر «المهرواني» وهو تصحيف، والتصحيح من الأنساب ١١/٢٣١ فقال: المهراني: بكسر الميم وسكون الهاء وفتح الراء، وفي آخرها النون بعد الألف وهذه النسبة إلى مهران، وهو اسم لجدّ المنتسب.

(٥٢٥)
ثم دخلت سنة خمس وعشرين وخمسمائة

ذكر أسر دُبَيْس بن صدقة
وتسليمه إلى عماد الدين زنكي

في هذه السنة، في شعبان، أسر تاج الملوك بوري بن طُغتِكِين، صاحب دمشق، الأميرَ دُبَيْس بن صَدَقة، صاحب الحِلّة، وسلّمه إلى أتابك الشهيد زنكي بن آقسنقَر.

وسبب ذلك: أنّه لمّا فارق البصرة، على ما ذكرناه، جاءه قاصد من الشام، من صَرْخَد، يستدعيه إليها، لأنّ صاحبها كان خَصِيّاً، فتوفّي هذه السنة، وخلّف جارية سُرّيّة له، فاستولت على القلعة وما فيها، وعلمتْ أنها لا يتمّ لها ذلك إلاّ بأن تتّصل برجلٍ له قوّة ونجدة، فوُصف لها دُبَيْس بن صدقة وكثرة عشيرته، وذُكر لها حاله، وما هو عليه بالعراق، فأرسلت تدعوه إلى صَرْخَد لتتزوّج[1] به، وتسلّم القلعة وما فيها من مالٍ وغيره إليه. فأخذ الأدلاء معه، وسار من أرض العراق إلى الشام، فضلّ به الأدلاء بنواحي دمشق، فنزل بناس من كلب كانوا شرقيّ الغُوطة، فأخذوه وحملوه إلى تاج الملوك، صاحب دمشق، فحبسه عنده.

وسمع أتابك عماد الدين زنكي الخبَر، وكان دُبَيْس يقع فيه وينال منه، فأرسل إلى تاج الملوك يطلب منه دُبَيْساً ليسلّمه إليه، ويُطلق ولدَهُ، ومن معه من الأمراء المأسورين، وإن امتنع من تسليمه سار إلى دمشق وحصرها وخرّبها ونهب بلدها، فأجاب تاج الملوك إلى ذلك، وأرسل أتابك سونَج بن تاج الملوك، والأمراء الذين معه، وأرسل تاج الملوك دُبَيْساً، فأيقن دُبَيْس بالهلاك، ففعل زنكي معه خلاف ما

(١) في الأوربية: «لتزوج».

ظنّ، وأحسن إليه، وحمل له الأقوات، والسلاح والدوابّ وسائر أمتعة الخزائن، وقدّمه حتى على نفسه، وفعل معه ما يفعل أكابر الملوك[1].

ولمّا سمع المسترشد بالله بقبضه بدمشق أرسل سديدَ الدولة بن الأنباريّ، وأبا بكر بن بِشْر الجَزَريّ، من جزيرة ابن عُمر، إلى تاج الملوك يطلب منه أن يسلّم دُبَيْساً إليه، لما كان متحقّقاً به من عداوة الخليفة، فسمع سديد الدولة ابن الأنباريّ بتسليمه إلى عماد الدين، وهو في الطريق، فسار إلى دمشق ولم يرجع وذمّ أتابك زنكي بدمشق، واستخفّ به، وبلغ الخبر عماد الدين، فأرسل إلى طريقه من يأخذه إذا عاد، فلمّا رجع من دمشق قبضوا عليه، وعل ابن بِشر، وحملوهما إليه، فأمّا ابن بشر فأهانه وجرى في حقّه مكروه، وأمّا ابن الأنباريّ فسجنه.

ثم إنّ المسترشد بالله شفع فيه فأُطلق، ولم يزل دُبَيْس مع زنكي حتّى انحدر معه إلى العراق، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود

في هذه السنة، في شوّال، توفّي السلطان محمود ابن السلطان محمّد بهَمَذان، وكان قبل مرضه قد خاف وزيره أبو القاسم الأنساباذيّ من جماعة من الأمراء وأعيان الدولة، منهم: عزيز الدين أبو نصر بن حامد المستوفي، والأمير أنوشتكين المعروف بشيركير، وولده عمر، وهو أمير حاجب السلطان، وغيرهم، فأمّا عزيز الدين فأرسله مقبوضاً عليه إلى مجاهد الدين بهروز بتَكريت، ثم قُتل بها، وأمّا شيركير وولده فقُتلا في جُمادى الآخرة.

ثم إنّ السلطان مرض وتوفيّ في شوّال، وأُقعد ولده الملك داود في السلطنة باتّفاق من الوزير أبي القاسم وأتابكه آقسنقَر الأحمديليّ، وخُطب له في جميع بلاد الجبل وأذربيجان، ووقعت الفتنة بهمَذان وسائر بلاد الجبل، ثم سكنت، فلمّا اطمأنّ الناس وسكنوا سار الوزير بأمواله إلى الرَّيّ، فأَمِن فيها حيث هي للسلطان سنجَر.

وكان عمر السلطان محمود لمّا تُوفيّ نحو سبع وعشرين سنة، وكانت ولايته

---

(١) المنتظم: ١٠/ ٢٠ (١٧/ ٢٦٣)، بغية الطلب (قسم تراجم السلاجقة) ٢٣١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥، دول الإسلام ٢/ ٤٧، تاريخ الإسلام (٥٢٥ هـ.) ص٢٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٢، عيون التواريخ ١٢/ ٢٢٢، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٣٥.

للسلطنة اثنتي عشرة[1] سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، وكان حليماً، كريماً، عاقلاً، يسمع ما يكره ولا يعاقب عليه، مع القدرة، قليل الطمع في أموال الرعايا، عفيفاً عنها، كافاً لأصحابه عن التطرّق إلى شيء منها[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ثارالباطنيّة بتاج الملوك بوري طُغتِكين، صاحب دمشق، فجرحوه جرحَيْن، فبرأ أحدهما، وتنسّر[3] الآخر، وبقي فيه ألمه، إلاّ أنّه يجلس للناس، ويركب معهم على ضَعف فيه[4].

[الوفيات]

وفيها توفّي الأمير أبو الحسن بن المستظهر باللّه أخو المسترشد باللّه في رجب[5]. وفيها، في شوّال، توفّي الحسن بن سلمان[6] بن عبد اللّه أبو عليّ الفقيه الشافعيُّ الواعظ، مدّرس النظاميّة ببغداذ، وأصله من الزَّوْزان[7].

والخطيب أبو نصر أحمد بن عبد القاهر المعروف بابن الطُّوسيّ[8]، خطيب الموصل، توفّي في ربيع الأوّل.

وحمّاد بن مُسلّم[9] الدبّاس الرَّحْبيّ الزاهد المشهور، صاحب الكرامات، وسمع

---

(١) في الأوربية: «عشر».

(٢) المنتظم ١٠/ ٢٠، ٢١ (١٧/ ٢٦٤)، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥، ذيل تاريخ دمشق ٢٣٠، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٣٦.

(٣) في الأوربية: «فتنسّر».

(٤) ذيل تاريخ دمشق ٢٢٩، ٢٣٠، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٣٦.

(٥) المنتظم ١٠/ ٢٣ رقم ٢٦ (١٧/ ٢٦٧ رقم ٣٩٦٩)، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٣.

(٦) أنظر عن (الحسن بن سلمان) في: المنتظم ١٠/ ٢٢ رقم ٢٤، ١٧/ ٢٦٦ رقم ٣٩٦٧، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٠٢، وفيه: «الحسن بن سليمان».

(٧) الزوزان: بفتح أوله وثانيه ثم زاي أخره نون. كورة حسنة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل، وأهلها أرمن، وفيها طوائف من الأكراد. (معجم البلدان ٣/ ١٥٨).

(٨) أنظر عن (ابن الطوسي) في: المنتظم ١٠/ ٢١ ٢٢ رقم ٢٣ (١٧/ ٢٦٥، ٢٦٦، رقم ٣٩٦٦)، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٢، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٣٧، ١٣٨.

(٩) أنظر عن (حمّاد بن مسلم) في: تاريخ الإسلام (٥٢٥ هـ.) ص ١٢٨ ـ ١٣٠ رقم ٧٠ وفيه مصادر =

الحديث، وله أصحاب وتلامذة كثيرون[1] ساروا، ورأيتُ الشيخ أبا الفرج بن الجوزيّ[2] قد ذمّه وثَلَبَه، ولهذا الشيخ أُسوة بغيره من الصالحين، فإنّ ابن الجوزيّ قد صنّف كتاباً سمّاه «تلبيس إبليس» لم يُبقِ فيه على أحدٍ من سادة المسلمين وصالحيهم.

وهبة اللّه بن محمد بن عبد الواحد بن الحُصَين[3] الشيباني الكاتب، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، سمع أبا عليّ بن المهذّب، وأبا طالب بن غَيْلان وغيرهما، وهو راوي «مُسْنَد» أحمد بن حَنْبَل، و«الغيلانيات»[4] وغيرهما.

ومحمّد بن الحسن بن عليّ بن الحسن أبو غالب الماوَرْديُّ[5]. وُلد سنة خمسين وأربعمائة بالبصرة، وسمع الحديث الكثير، وروى «سُنن» أبي داود السِّجِسْتانيّ، وكان صالحاً.

= ترجمته.

(١) في نسخة بودليان: «وتلاميذ كثير».

(٢) في مرآة الزمان ج ٨ ق ١/١٣٨ ـ ١٣٩.

(٣) أنظر عن (ابن الحصين) في: تاريخ الإسلام (٥٢٥ هـ.) ص١٣٧ ـ ١٣٩ رقم ٨٣ وفيه «هبة الله بن محمود» وهو خطأ. وانظر فيه مصادر ترجمته.

(٤) في الأوربية: «والغيلانات».

(٥) أنظر عن «الماوردي» في: تاريخ الإسلام (٥٢٥ هـ.) ص ١٣٥ ـ ١٣٦ رقم ٨٠ وفيه مصادر ترجمته.

(٥٢٦)
ثم دخلت سنة ست وعشرين وخمسمائة

ذكر قتل أبي عليّ وزير الحافظ ووزارة يانس وموته

في هذه السنة، في المحرّم، قُتل الأفضل أبو عليّ بن الأفضل بن بدر الجماليّ وزير الحافظ لدين اللّه العلويّ، صاحب مصر.

وسبب قتله: أنّه كان قد حَجَر على الحافظ، ومنعه أن يحكم في شيء من الأمور، قليل أو جليل، وأخذ ما في قصر الخلافة إلى داره، وأسقط من الدعاء ذِكر إسماعيل الذي هو جدّهم، وإليه تُنسب الإسماعيليّة، وهو ابن جعفر بن محمّد الصادق، وأسقط من الأذان «حيّ على خير العمل»، ولم يخطب للحافظ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له بألقاب كتبها لهم، وهي: السيّد الأفضل الأجلّ، سيّد مماليك أرباب الدول، والمحامي عن حَوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين الأقربين والأبعدين، ناصر إمام الحقّ في حالتَيْ غيبته وحضوره، والقائم بنصرته بماضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين اللّه على عباده، وهادي القُضاة إلى اتّباع شرع الحقّ واعتماده، ومُرشد دُعاة المؤمنين بواضح بيانه وإرشاده، مولى النِعم، ورافع الجور عن الأمم، ومالك[1] فضيلتَيِ السيف والقلم، أبو عليّ أحمد بن السيّد الأجلّ الأفضل، شاهنشاه أمير الجيوش.

وكان إماميّ المذهب، يُكثر ذمّ الآمر، والتناقص به، فنفرت منه شيعة العلويّين ومماليكهم، وكرهوه، وعزموا على قتله، فخرج في العشرين من المحرّم من هذه السنة إلى الميدان يلعب بالكرة مع أصحابه، فكمن له جماعة منهم مملوك فرنجيّ كان للحافظ، فخرجوا عليه، فحمل الفرنجيُّ عليه، فطعنه فقتله، وحزّوا رأسه، وخرج الحافظ من الخزانة التي كان فيها، ونهب الناس دار أبي عليّ، وأُخذ منها ما لا

---

(١) في الأوربية: «وملك».

يُخْصى، وركب الناس والحافظ إلى داره، فأخذ ما بقي فيها وحمله إلى القصر.

وبويع يومئذٍ الحافظ بالخلافة، وكان قد بويع له بولاية العهد، وأن يكون كافلاً لحمل إن كان للآمر، فلمّا بويع بالخلافة استوزر أبا الفتح يانس الحافظيَّ في ذلك اليوم بعينه، ولُقّب أمير الجيوش، وكان عظيم الهيبة، بعيد الغور، كثير الشّر، فخافه الحافظ على نفسه؛ وتخيّل منه يانس، فاحتاط. ولم يأكل عنده شيئاً، ولا شرب، فاحتال عليه الحافظ بأن وضع له فرّاشُه في بيت الطهارة ماء مسموماً، فاغتسل به، فوقع الدود في سفله، وقيل له: متى قمتَ من مكانك هلكتَ، فكان يعالجَ بأن يجعل اللحم الطريّ في المحلّ، فيعلق به الدود فيخرج ويجعل عوضه، فقارب الشفاء، فقيل للحافظ: إنّه قد صلح، وإن تحرّك هلك؛ فركب إليه الحافظ كأنّه يعوده، فقام له ومشى[1] إلى بين يدَيْه، وقعد الحافظ عنده، ثم خرج من عنده، فتوفّي من ليلته، وكان موته في السادس والعشرين من ذي الحجّة من هذه السنة[2].

ولمّا مات يانس استوزر الحافظ ابنه حَسَناً، وخطب له بولاية العهد، وسيرِد ذِكر قتْله سنة تسعٍ وعشرين [وخمسمائة][3].

وإنّما ذكرتُ ألقاب أبي عليّ تعجّباً منها، ومن حماقة ذلك الرجل، فإن وزير صاحب مصر وحدها إذا كان هكذا فينبغي أن يكون وزير السلاطين السلجوقيّة كنظام المُلك وغيره يدّعون الربوبيّة، على أنّ تربة مصر هكذا تولد، ألا ترى إلى فرعون يقول: ﴿أنا ربُّكُمُ الأعْلَى﴾[4]، وإلى أشياء أُخر لا نطيل ذكرها[5].

ذكر حال السلطان مسعود والملكين سلجوقشاه وداود واستقرار السلطنة بالعراق لمسعود

لمّا توفّي السلطان محمود ابن السلطان محمّد، وخُطب، ببلاد الجبل وأَذَرْبِيجان، لولده الملك داود، على ما ذكرناه، سار الملك داود من همَذان في ذي

---

(١) في الأوربية: «ومشا».
(٢) أنظر عن قتل ابن الأفضل في: تاريخ الإسلام (٥٢٦ هـ.) ص١٤٠، ١٤١ رقم ٨٤ وفيه مصادره.
(٣) تاريخ الإسلام (٥٢٥ هـ.) ص١٤١.
(٤) سورة النازعات، الآية ٢٣.
(٥) في الأوربية: «نطول بذكرها».

القعدة من سنة خمسٍ وعشرين [وخمسمائة] إلى زَنْجَان، فأتاه الخبر أنّ عمّه السلطان مسعوداً[١] قد سار من جُرجان ووصل إلى تِبريز واستولى عليها، فسار الملك داود إليه وحصره بها، وجرى بينهما قتال، إلى سلخ المحرّم سنة ستّ وعشرين [وخمسمائة]، ثم اصطلحا.

وتأخّر الملك داود مرحلة، وخرج السلطان مسعود من تِبريز، واجتمعت عليه العساكر، وسار إلى هَمَذان، وأرسل يطلب الخطبة ببغداذ، وكانت رسل الملك داود قد تقدّمت في طلب الخطبة، فأجاب المسترشد باللّه أنّ الحكم في الخطبة إلى السلطان سنجَر من أراد خُطب له، وأرسل إلى السلطان سنجَر أن لا يأذَن لأحدٍ في الخطبة، فإنّ الخطبة ينبغي أن تكون له وحده، فوقع ذلك منه موقعاً حسناً.

ثم إنّ السلطان مسعوداً[٢] كاتب عمّاد الدين زنكي، صاحب الموصل وغيرها، يستنجده، ويطلب مساعدته، فوعده النصر، فقويت بذلك نفس مسعود على طلب السلطنة.

ثم إنّ الملك سَلْجوقشاه ابن السلطان محمّد سار أتابكه قراجة[٣] الساقي، صاحب فارس وخُوزستان في عسكر كثير إلى بغداذ، فوصل إليها قبل وصول السلطان مسعود، ونزل في دار السلطان، وأكرمه الخليفة، واستحلفه لنفسه.

ثم وصل رسول السلطان مسعود يطلب الخطبة، ويتهدّد إنْ منعها، فلم يُجب إلى ما طلبه، فسار حتّى نزل عبّاسيّة[٤]، الخالص، وبرز عسكر الخليفة وعسكر سلجوقشاه وقراجة الساقي نحو مسعود إلى أن يفرغ من حرب أتابك عماد الدين زنكي، وسار يوماً[٥] وليلة إلى المعشوق، وواقع عماد الدين زنكي فهزمه، وأسر كثيراً من أصحابه، وسار زنكي منهزماً إلى تكريت، فعبر فيها دجلة، وكان الدزدار بها حينئذٍ نجم الدين أيّوب، فأقام له المعابر، فلمّا عبر أمِن الطلب، وسار إلى بلاده لإصلاح حاله وحال رجاله، وهذا الفعل من نجم الدين أيّوب كان سبباً لاتّصاله به والمصير في

---

(١) في الأوربية: «مسعود».
(٢) في الأوربية: «مسعود».
(٣) في المنتظم: «قراجا» وكذا في: المختصر لأبي الفداء.
(٤) في الباريسية ونسخة بودليان: «عاسه».
(٥) في الأوربية: «يوم».

جملته، حتّى آل بهم الأمر إلى مُلْك مصر والشام وغيرهما[1] على ما نذكره.

وأمّا السلطان مسعود فإنّه سار من العَبّاسيّة إلى الملكيّة، ووقعت الطلائع بعضها على بعض، ثم لم تزل المناوشة تجري بينه وبين أخيه سلجوقشاه يومَيْن.

وأرسل سلجوقشاه إلى قراجة يستحثّه على المبادرة، فعاد سريعاً وعبر دجلة إلى الجانب الشرقيّ، فلمّا علم السلطان مسعود بانهزام عماد الدين زنكي رجع إلى ورائه، وأرسل إلى الخليفة يعرّفه وصول السلطان سنجَر إلى الرَّيّ، وأنّه عازم [على] قصد الخليفة وغيره، وإن رأيتم أن نتّفق على قتاله ودَفْعه عن العراق، ويكون العراق لوكيل الخليفة، فأنا موافق على ذلك. فأعاد الخليفة الجواب يستوقفه.

وتردّدت الرسل في الصُّلح، فاصطلحوا على أن يكون العراق لوكيل الخليفة، وتكون السلطنة لمسعود، ويكون سلجوقشاه وليّ عهده، وتحالفوا على ذلك، وعاد السلطان مسعود إلى بغداذ، فنزل بدار السلطان، ونزل سلجوقشاه في دار الشِحنكيّة، وكان اجتماعهم في جُمادى الأولى[2].

ذكر الحرب بين السلطان مسعود وعمّه السلطان سنجر

لمّا توفّي السلطان محمود سار السلطان سنجَر إلى بلاد الجبال، ومعه الملك طُغْرُل ابن السلطان محمّد، وكان عنده قد لازمه، فوصل إلى الرَّيّ، ثم سار منها إلى همَذان، فوصل الخبر إلى الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود بوصوله إلى همَذان، فاستقرّت القاعدة بينهما على قتاله، وأن يكون الخليفة معهم، وتجهز الخليفة، فتقدّم قراجة[3] الساقي، والسلطان مسعود، وسلجوقشاه نحو السلطان سنجَر، وتأخّر المسترشد بالله عن المسير معهم، فأرسل إلى قراجة، وألزمه، وقال: إنّ الذي تخاف من سنجَر آجلاً أنا أفعله عاجلاً. فبرز حينئذٍ وسار على تريّث، وتوقّف إلى أن بلغ إلى خانقين وأقام بها.

وقُطعت خطبة سنجَر من العراق جميعه، ووصلت الأخبار بوصول عماد الدين

---

(١) في الأوربية: «وغيرها».

(٢) المنتظم ١٠/ ٢٥ (١٧/ ٢٧٠)، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦.

(٣) في المنتظم، والمختصر: «قراجا».

زنكي ودُبيس بن صدقة إلى قريب بغداذ، فأمّا دُبَيْس فإنّه ذكر أنّ السلطان سنجَر أقطعه الحِلّة، وأرسل إلى المسترشد بالله يضرع ويسأل الرضا عنه، فامتنع من إجابته إلى ذلك.

وأمّا عماد الدين زنكي فإنّه ذكر أنّ السلطان سنجَر قد أعطاه شِحنكيّة بغداذ، فعاد المسترشد بالله إلى بغداذ، وأمر أهلها بالاستعداد للمدافعة عنها، وجنّد أجناداً جعلهم معهم.

ثم إنّ السلطان مسعوداً[1] وصل إلى دادمرج، فلقيتهم طلائع السلطان سنجَر في خلق كثير، فتأخّر السلطان مسعود إلى كَرامانشاهان، ونزل السلطان سنجَر في أسداباذ في مائة ألف فارس، فسار مسعود وأخوه سلجوقشاه إلس جَبَلَيْن يقال لهما: كاو، وماهي، فنزلا بينهما، ونزل السلطان سنجَر كِنكوَر، فلمّا سمع بانحرافهم أسرع في طلبهم، فرجعوا إلى ورائهم مسيرة أربعة أيّام في يوم وليلة، فالتقى العسكران بعُولان، عند الدِّينَوَر، وكان مسعود يدافع الحرب انتظاراً لقدوم المسترشد، فلمّا نازله السلطان سنجَر لم يجدْ بُدّاً من المصافّ، وجعل سنجَر على ميمنته طُغْرلَ ابن أخيه محمّد، وقماج، وأمير أميران، وعلى ميسرته خُوارزمشاه أتسِز بن محمّد مع جمع من الأمراء، وجعل مسعود على ميمنته قراجة الساقي، والأمير قَزل، وعلى ميسرته يرنقش بازدار، ويوسف جاووش، وغيرهما، وكان قزل قد واطأ سنجَر على الإنهزام.

ووقعت الحرب، وقامت على ساقٍ: وكان يوماً مشهوداً، فحمل قراجة الساقي على القلب، وفيه السلطان سنجَر في عشرة آلاف فارس من شجعان العسكر، وبين يدَيْه الفِيَلة، فلمّا حمل قراجة على القلب، رجع الملك طُغْرُل، وخُوارزمشاه إلى وراء ظهره، فصار قراجة في الوسط، فقاتل إلى أن جُرح عدّة جراحات، وقُتل كثير من أصحابه، وأُخذ هو أسيراً وبه جراحات كثيرة، فلمّا رأى السلطان مسعود ذلك انهزم وسلم من المعركة، وقُتل يوسف جاووش، وحسين أزبك، وهما من أكابر الأمراء، وكانت الوقعة ثامن رجب من هذه السنة.

فلمّا تمّت الهزيمة على مسعود نزل سنجَر وأحضر قراجة، فلمّا حضر قراجة سبّه وقال له: يا مفسد أيّ شيء كنتَ ترجو بقتالي؟ قال: كنتُ أرجو أن أقتلك وأُقيم

---

(١) في الأوربية: «مسعود».

سلطاناً أحكم عليه. فقتله صبراً، وأرسل إلى السلطان مسعود يستدعيه، فحضر عنده، وكان قد بلغ خونج، فلما رآه قبّله، وأكرمه، وعاتبه على العصيان عليه، ومخالفته، وأعاده إلى كَنْجَة، وأجلس الملك طُغْرل ابن أخيه محمد في السلطنة، وخطب له في جميع البلاد، وجعل في وزارته أبا القاسم الأنساباذيَّ، وزير السلطان محمود، وعاد إلى خُراسان، فوصل إلى نَيسابور في العشرين من رمضان سنة ستّ وعشرين [وخمسمائة][1].

وأما المسترشد بالله فكان منه ما سنذكره.

ذكر مسير عماد الدين زنكي إلى بغداذ وانهزامه

لمّا سار المسترشد بالله من بغداذ، وبلغه انهزام السلطان مسعود، عزم على العود إلى بغداذ، فأتاه الخبر بوصول عماد الدين زنكي إلى بغداذ، ومعه دُبَيْس بن صدقة، وكان السلطان سنجَر قد كاتبهما، وأمرهما بقصد العراق، والاستيلاء عليه، فلمّا علم الخليفة بذلك أسرع العَود إليها، وعبر إلى الجانب الغربيّ، وسار فنزل بالعبّاسيّة، ونزل عماد الدين بالمَناريّة من دُجَيْل، والتقيا بحصن البرامكة، في السابع والعشرين من[2] رجب، فابتدأ زنكي فحمل على ميمنة الخليفة، وبها جمال الدولة إقبال، فانهزموا منه، وحمل نظر الخادم من ميسرة الخليفة على ميمنة عماد الدين ودُبَيْس، وحمل الخليفة بنفسه، واشتدّ القتال، فانهزم دُبَيْس، وأراد عماد الدين الصبر، فرأى الناس قد تفرّقوا عنه، فانهزم أيضاً، وقُتل من العسكر جماعة، وأُسر جماعة، وبات الخليفة هناك ليلته، وعاد من الغد إلى بغداذ[3].

---

(١) أنظر خبر الحرب في التاريخ الباهر ٤٤، ٤٥، والمنتظم ١٠/ ٢٥، ٢٦ (١٧/ ٢٧٠ ـ ٢٧١)، وزبدة النصرة للبنداري ١٥٨، ١٥٩، وراحة الصدور للراوندي ٢٠١، وزبدة التواريخ ١٩٩، ودول الإسلام ٢/ ٤٧، ٤٨، وتاريخ الإسلام (٥٢٦ هـ.) ص٣٠، ٣١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٧، ٣٨، وعيون التواريخ ١٢/ ٢٥٠، وتاريخ ابن سباط (بتحقيقنا) ١/ ٥١، وشذرات الذهب ٤/ ٧٧، ونهاية الأرب ٢٧/ ٣٥، ٣٧.

(٢) في الأوربية: «في سابع وعشرين».

(٣) المنتظم ١٠/ ٢٥، ٢٦ (١٧/ ٢٧٠ ـ ٢٧١)، التاريخ الباهر ٤٤، ٤٥، زبدة النصرة للبنداري ١٥٨، ١٥٩، راحة الصدور للراوندي ٢٠١، زبدة التواريخ للحسيني ١٩٩، دول الإسلام ٢/ ٤٧، ٤٨، تاريخ الإسلام (٥٢٦ هـ.) ص٣١، العبر ٤/ ٦٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٨، مرآة الجنان ٣/ ٢٥٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٣، عيون التواريخ ١٢/ ٢٥٠، تاريخ ابن سباط ١/ ٥٢.

ذكر حال دُبَيْس بعد الهزيمة

وفيها عاد دُبَيْس، بعد انهزامه المذكور، يلوذ ببلاد الحِلّة وتلك النواحي، وجمع جمعاً، وكانت تلك الولاية بيد إقبال المسترشديّ، فأُمدّ بعسكر من بغداذ، فالتقى هو ودُبَيْس، فانهزم دُبَيْس واختفى في أجمةٍ هناك، وبقي ثلاثة أيّام لم يطعم شيئاً، ولم يقدر على التخلّص منها، حتّى أخرجه جمّاس[1] على ظهره.

ثم جمع جمعاً وقصد واسط، وانضمّ إليه عسكرها، وبختيار وشاق، وابن أبي الجبر، ولم يزل فيها إلى أن دخلت سنة سبعٍ وعشرين [وخمسمائة]، فنفذ إليهم يرنقش بازدار، وإقبال الخادم المسترشديّ، في عسكر، فاقتتلوا في الماء والبرّ، فانهزم الواسطيّون ودُبَيْس، وأُسر بختيار وشاق وغيره من الأمراء[2].

ذكر وفاة تاج الملوك صاحب دمشق

في هذه السنة، في رجب، تُوفّي تاج الملوك بوري بن طُغتِكين، صاحب دمشق.

وسبب موته أنّ الجرح الذي كان به من الباطنيّة، وقد ذكرناه، اشتدّ عليه الآن، وأضعفه، وأسقط قوّته، فتوفّي في الحادي والعشرين من رجب، ووصّى بالمُلْك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل، ووصّى بمدينة بعلبكّ وأعمالها لولده شمس الدولة محمّد.

وكان بوري كثير الجهاد، شجاعاً، مقداماً، سدّ مسدّ أبيه، وفاق عليه، وكان مُمدَّحاً، أكثر الشعراء مدائحه، لا سيّما ابن الخيّاط، وملك بعده ابنه شمس الملوك، وقام بتدبير الأمر بين يدَيْه الحاجب يوسف بن فيروز، شِحنة دمشق، وهو حاجب أبيه، واعتمد عليه، وابتدأ أمره بالرفق بالرعيّة، والإحسان إليهم، فكثُر الدعاء له والقُصّاد عليه[3].

---

(١) في طبعة صادر ١٠/ ٦٧٩ «حمّاس» بالحاء المهملة. والتصحيح من الباريسية وبودليان.

(٢) المنتظم ١٠/ ٢٧ (١٧/ ٢٧١) تاريخ الإسلام (٥٢٦ هـ.) ص ٣٢.

(٣) أنظر عن (بوري) في: ذيل تاريخ دمشق ٢٣٣، ٢٣٤، ونهاية الأرب ٢٧/ ٨١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٦ وفيه «توري» وهو تصحيف، وتاريخ ابن سباط ١/ ٥٢، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٤٣.

ذكر ملك شمس الملوك حصن اللبوة وحصن راس وحصره بعلبكّ

في هذه السنة ملك شمس الملوك إسماعيل، صاحب دمشق، حصن اللّبْوة، وحِصن راس.

وسبب ذلك: أنّهما كانا لأبيه تاج الملوك، وفي كلّ واحدٍ منهما مستحفظ يحفظه[1]، فلمّا ملك شمس الدين بلغه أنّ أخاه شمس الدولة محمّداً[2]، صاحب بعلبكّ، قد راسلهما، واستمالهما إليه، فسلّما الحصنَيْن إليه، وجعل فيهما من الجُند ما يكفيهما، فلم يظهر بذلك أثر بل راسل أخاه بلُطفٍ يقبّح هذه الحال، ويطلب أن يعيدهما إليه، فلم يفعل، فأغضى على ذلك، وتجهّز من غير أن يُعلم أحداً.

وسار هو وعسكره، آخر ذي القعدة، فطلب جهة الشمال، ثم عاد مغرّباً، فلم يشعر مَن بحصن اللّبْوة إلاّ وقد نزل عليهم، وزحف لوقته، فلم يتمكنّوا من نصب[3] منجنيق ولا غيره، فطلبوا الأمان، فبذله لهم، وتسلّم الحصن من يومه وسار من آخر النهار إلى حصن راس، فبغتهم، وجرى الأمر فيه على تلك القضيّة، وتسلّمه، وجعل فيهما من يحفظهما[4].

ثم رحل إلى بَعْلَبَكّ وحصرها، وفيها أخوه شمس الدولة محمّد، وقد استعدّ وجمع في الحصن ما يحتاج إليه من رجال وذخائر، فحصرهم شمس الملوك، وزحف في الفارس والراجل، وقاتله أهل البلد على السور، ثم زحف عدّة مرّات، فملك البلد بعد قتال شديد، وقتلى كثيرة، وبقي الحصن، فقاتله، وفيه أخوه، ونصب المجانيق[5]، ولازم القتال، فلمّا رأى أخوه شمس الدولة شدّة الأمر أرسل يبذل الطاعة، ويسأل أن يُقَرّ على ما بيده، وجعله أبوه باسمه، فأجابه إلى مطلوبه، وأقرّ عليه بعلبكّ وأعمالها، وتحالفوا، وعاد شمس الملوك إلى دمشق وقد استقامت له الأمور[6].

---

(١) في الأوربية: «يحفظها».
(٢) في الأوربية: «محمد».
(٣) في الأوربية: «النصب».
(٤) في الأوربية: «يحفظها».
(٥) في الأوربية: «المناجيق».
(٦) ذيل تاريخ دمشق ٢٣٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٧.

ذكر الحرب بين السلطان طُغرل والملك داود

في هذه السنة، في رمضان، كانت الحرب بين الملك طُغْرل وبين ابن أخيه الملك داود بن محمود، وكان سببها: أنّ السلطان سنجَر أجلس الملك طُغرل في السلطنة، كما ذكرناه، وعاد إلى خُراسان لأنّه بلغه أنّ صاحب ما وراء النهر أحمد خان قد عصى[1] عليه، فبادر إلى العُود لتلافي ذلك الخرق، فلمّا عاد إلى خراسان عصى الملك داود على عمّه طُغْرل، وخالفه، وجمع العساكر بأذَرْبيجان، وبلاد كَنْجَة، وسار إلى هَمَذان، فنزل مستهل رمضان، عند قرية يقال لها وهمان، بقرب همذان.

وخرج[2] إليه طُغرل، وعبّأ كلّ واحد منهما[3] أصحابه ميمنة وميسرة، وكان على ميمنة السلطان طُغْرل بن بُرسق، وعلى ميسرته قزل، وعلى مقدّمته قراسنُقر، وكان على ميمنة داود يرنقش الزكويّ، ولم يقاتل، فلمّا رأى التركمان ذلك نهبوا خِيَمه، وبركه جميعه، ووقع الخُلْف في عسكر داود، فلمّا رأى أتابكه آقسنقَر الأحمديليّ ذلك ولّى هرباً، وتبِعه الناس في الهزيمة، وقبض طُغْرل على يرنقش الزكويّ، وعلى جماعة من الأُمراء.

وأمّا الملك داود فإنّه لمّا انهزم بقي متحيّراً إلى أوائل ذي القعدة، فقدِم بغداذ ومعه أتابكه آقسنقَر الأحمديليّ، فأكرمه الخليفة وأنزله بدار السلطان، وكان الملك مسعود بكَنْجَة، فلمّا سمع بانهزام الملك داود توجّه نحو بغداذ، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى[4].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قبض المسترشد باللّه على وزيره شرف الدين عليّ بن طِراد الزينبيّ، واستوزر أنوشِروان بن خالد، بعد أن امتنع، وسأل الإقالة[5].

---

(١) في الأوربية: «عصا».

(٢) من بودليان.

(٣) في الأوربية: «منه».

(٤) المنتظم ١٠/٢٦ (١٧/٢٧١)، تاريخ دولة آل سلجوق ١٤٥، المختصر في أخبار البشر ٣/٧، نهاية الأرب ٢٧/٣٧، العبر ٤/٦٧، عيون التواريخ ١٢/٢٥٠، البداية والنهاية ١٢/٢٠٢.

(٥) الإنباء في تاريخ الخلفاء ٢١٧، المنتظم ١٠/٢٦ (١٧/٢٧١)، تاريخ الإسلام (٥٢٦ هـ.) ص٣٢، =

وفي هذه السنة قُتل أحمد بن حامد بن محمّد أبو نصر مستوفي السلطان محمود، الملقّب بالعزيز، بقلعة تَكريت[1]، وقد تقدّم سبب ذلك سنة خمسٍ وعشرين [وخمسمائة].

وفي المحرّم منها قُتل محمّد بن محمّد بن الحسين أبو الحسين بن أبي يعلى بن الفرّاء الحنبليّ، مولده في شعبان سنة إحدىٰ وخمسين وأربعمائة، وسمع الحديث من الخطيب أبي بكر، وابن الحسين بن المهتدي، وغيرهما، وتفقّه، قتله أصحابه غيلةً، وأخذوا ماله[2].

وفي جُمادى الأولى توفّي أحمد بن عُبيد اللّه بن كادش[3] أبو العزّ العُكبريُّ، وكان محدّثاً مكثراً.

وتوفّي فيها أبو الفضل عبد اللّه بن المظفّر[4] ابن رئيس الرؤساء، وكان أديباً، وله شِعر حَسَن، فمنه ما كتبه إلى جلال الدين بن صَدَقة الوزير:

أمــولانــا جــلالَ الــديــن، يــا مَــن ... أُذكّــرُهُ بخــدمتــيَ القَــديمَــهْ
ألــم تــكُ قــد عَزَمــتَ على اصطِناعي، ... فمــاذا صَــدَّ عــن تلــكَ العَــزِيمــه

= البداية والنهاية ١٢/٢٠٤، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/١٤٠.

(١) المنتظم ١٠/٢٨ رقم ٣٣ (١٧/٢٧٢ رقم ٣٩٧٦).

(٢) المنتظم ١٠/٢٩ رقم ٣٧ (١٧/٢٧٤ رقم ٣٩٨٠)، البداية والنهاية ١٢/٢٠٤، شذرات الذهب ٤/٧٩.

(٣) أنظر عن (ابن كادش) في: تاريخ الإسلام (٥٢٦ هـ.) ص١٤١ ـ١٤٣ رقم ٨٥ وفيه مصادر ترجمته.

(٤) أنظر عن (عبد الله بن المظفّر) في: المنتظم ١٠/٢٨ رقم ٣٦، وفي الطبعة الجديدة ١٧/٢٧٣ رقم ٣٩٧٩ «عبيد الله».

(٥٢٧)
ثم دخلت سنة سبع وعشرين وخمسمائة

ذكر ملْك شمس الملوك بانياس

في هذه السنة، في صفر، ملك شمس الملوك، صاحب دمشق، حصن بانياس من الفرنج.

وسبب ذلك: أنّ الفرنج استضعفوه وطمعوا فيه، وعزموا على نقض الهدنة التي بينهم، فتعرّضوا إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت وأخذوها، فشكا التجار إلى شمس الملوك، فراسل في إعادة ما أخذوه، وكرّر القول فيه، فلم يردّوا شيئاً، فحملته[1] الأنفَة من هذه الحالة، والغيظ، على أنْ جمع عسكره وتأهّب، ولا يعلم أحد أين يريد.

ثم سار، وسبق خبرَهُ، أواخر المحرّم من هذه السنة، ونزل على بانياس أوّل صفر، وقاتلها[2] لساعته، وزحف إليها[3] زحفاً متتابعاً، وكانوا غير متأهّبين، وليس فيها[4] من المقاتلة من يقوم بها[5] وقرب من سور المدينة، وترجّل بنفسه، وتبعه الناس من الفارس والراجل، ووصلوا إلى السور فنقبوه ودخلوا البلد عَنْوةً، والتجأ من كان من جُند الفرنج إلى الحصن وتحصّنوا به، فقُتل من البلد كثير من الفرنج، وأُسر كثير[6]، ونُهبت الأموال، وقاتل القلعة قتالاً شديداً ليلاً ونهاراً، فملكها رابع صفر

---

(١) في الأوربية: «فحمله».
(٢) في الأوربية: «وقاتله».
(٣) في الأوربية: «إليه».
(٤) في الأوربية: «فيه».
(٥) في الأوربية: «به».
(٦) في الأوربية: «كثيراً».

بالأمان، وعاد إلى دمشق فوصلها سادسه.

وأمّا الفرنج فإنّهم لمّا سمعوا نزوله على بانياس شرعوا يجمعون عسكراً يسيرون به إليه، فأتاهم خبر فتحها، فَبَطَلَ ما كانوا فيه(١).

ذكر حرب بين المسلمين والفرنج

في هذه السنة، في صفر، سار ملك الفرنج. صاحب البيت المقدّس، في خيّالته ورجّالته إلى أطراف أعمال حلب، فتوجّه إليه الأمير أسوار(٢)، النائب بحلب، في مَن عنده من العسكر، وانضاف إليه كثير من التركمان، فاقتتلوا عند قِنَّسْرين، فقُتل من الطائفتَيْن جماعة كثيرة، وانهزم المسلمون إلى حلب، وتردّد ملك الفرنج في أعمال حلب، فعاد أسوار وخرج إليه فيمن معه من العسكر، فوقع على طائفةٍ منهم، فأوقع بهم، وأكثر القتل فيهم والأسر، فعاد من سلم منهزماً إلى بلادهم، وانجبر ذلك المصاب بهذا الظَفر، ودخل أسوار حلب، ومعه الأسرى، ورؤوس القتلى، وكان يوماً مشهوداً(٣).

ثم إنّ طائفة من الفرنج من الرُّها قصدوا أعمال حلب للغارة عليها، فسمع بهم أسوار، فخرج إليهم هو والأمير حسّان البعلبكّيّ، فأوقعوا بهم، وقتلوهم عن آخرهم في بلد الشمال، وأسروا من لم يُقْتَل، ورجعوا إلى حلب سالمين(٤).

ذكر عَود السلطان مسعود إلى السلطنة وانهزام الملك طُغْرُل

قد تقدّم ذكر انهزام السلطان مسعود من عمّه السلطان سنجَر، وعَوده إلى كَنْجَةَ،

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٣٦، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٤٥، نهاية الأرب ٢٧ ـ ٨٣، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٧، دول الإسلام ٢/ ٤٨، العبر ٤/ ٧٠، تاريخ الإسلام (٥٢٦ هـ.) ص ٣٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٨، الدّرة المضية ٥١٠ عيون التواريخ ١٢/ ٢٥٣، الكواكب الدرية ٩٩، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٥٠، تاريخ ابن سباط ١/ ٥٢، ٥٣، الأعلاق الخطيرة ق ٢/ ١٤١.

(٢) في تاريخ الإسلام «سوار»، ومثله في: زبدة الحلب.

(٣) تاريخ حلب للعظيمي ٣٨٥ (٤٨) وفيه قال: ومدحته بقصيدة أولها:

تقلد النصر واشدُد خلفك العذبا ... ولا يرجع الله في شيءٍ إذا وهبا

وانظر الخبر أيضاً في: زبدة الحلب ٢/ ٢٥١، ٢٥٢، والعبر ٤/ ٧٠، وتاريخ الإسلام (٥٢٧ هـ.) ص٣٥، وعيون التواريخ ١٢/ ٢٥٣، وذيل تاريخ دمشق ٢٣٦، ٢٤٠.

(٤) زبدة الحلب ٢/ ٢٥٢، ذيل تاريخ دمشق ٢٤١.

وولاية الملك طُغرل السلطنة، وأنّه تحارب هو والملك داود ابن أخيه محمود، وانهزام داود ودخوله بغداذ، فلمّا بلغ السلطانَ مسعوداً[1] انهزام داود وقصده بغداذ، سار هو إلى بغداذ أيضاً، فلمّا قاربها لقيه داود، وترجّل له وخدمه، ودخلا بغداذ.

ونزل مسعود بدار السلطنة في صفر من هذه السنة، وخاطب في الخطبة له، فأُجيب إلى ذلك، وخُطب له ولداود بعده، وخُلع عليهما، ودخلا إلى الخليفة فأكرمهما، ووقع الاتّفاق على مسير مسعود وداود إلى أذربيجان، وأن يرسل الخليفة معهما عسكراً، فساروا، فلمّا وصلوا إلى مَراغة حمل آقسنقَر الأحمديليُّ مالاً كثيراً، وإقامة عظيمة، وملك مسعودٌ سائر بلاد أذربيجان، وانهزم مَن بها من الأمراء مثل قراسنقر وغيره من بين يدَيْه، وتحصّن منه كثير منهم بمدينة أرْدَبِيل، فقصدهم وحصرهم بها، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وانهزم الباقون.

ثم سار بعد ذلك إلى هَمَذان لمحاربة أخيه الملك طغرل، فلمّا سمع طغرل بقربه برز إلى لقائه، فاقتتلوا إلى الظُّهر، ثم انهزم طغرل وقصد الرَّيّ، واستولى السلطان مسعود على هَمَذان في شعبان؛ ولمّا استقرّ مسعود بهمذان قُتل آقسنقَر الأحمديليُّ، قتله الباطنيّة، فقيل إنّ السلطان مسعوداً وضع عليه مَن قتله.

ثم إنّ طغرل لمّا بلغ قُمَّ عاد إلى أصبهان ودخلها، وأراد التحصّن بها، فسار إليه أخوه مسعود ليحاصره بها، فرأى طُغرل أنّ أهل أصبهان لا يطاوعونه على الحصار، فرحل عنهم إلى بلاد فارس، واستولى مسعود على أصبهان، وفرح أهلُها به، وسار من أصبهان نحو فارس يقتصّ أثر أخيه طُغرل، فوصل إلى موضعٍ بقرب البيضاء، فاستأمن إليه أمير من أمراء أخيه معه أربعمائة فارس، فأمّنه، فخاف طُغرل من عسكره أن ينحازوا إلى أخيه، فانهزم من بين يدَيْه، وقصد الرَّيّ في رمضان، وقُتل وزيره أبو[2] القاسم الأنساباذيُّ في الطريق، في شوّال، قتله غلمان الأمير شيركير الذي سعى في قتله، كما تقدّم ذكره.

وسار السلطان مسعود يتبعه، فلحِقه بموضعٍ يقال له ذكراور[3]، فوقع بينهما

(١) مسعود.
(٢) في الأوربية: «أبا».
(٣) في بودليان: «دكرار».

المصافّ هناك، فلمّا اشتبكت الحرب انهزم الملك طُغرل، فوقع عسكره في أرضٍ قد نضب عنها الماء، وهي وحل، فأُسر منهم جماعة من الأمراء منهم: الحاجب تنكر[١]، وابن بغرا، فأطلقهم السلطان مسعود، ولم يُقْتَل في هذا المصافّ إلاّ نفر يسير، ورجع السلطان مسعود إلى هَمَذَان[٢].

ذكر[٣] حصر المسترشِد باللّه المَوصِل

في هذه السنة (٥٢٧) حصر المسترشد باللّه مدينة الموصل في العشرين من شهر رمضان، وسب ذلك ما تقدّم من قصْد الشهيد زنكي بغداد على ما ذكرناه قبل. فلمّا كان الآن قصد جماعة من الأمراء السلجُوقيّة باب المسترشد باللّه وصاروا معه فقوي بهم.

واشتغل السلاطين السلجُوقيّة بالخُلْف الواقع بينهم، فأرسل الخليفة الشيخ بهاء الدين أبا الفُتُوح الإسْفَرَايينيّ الواعظ إلى عِماد الدين زنكي برسالةٍ فيها خشونة، وزادها أبو الفُتُوح زيادةً ثقةً بقوّة الخليفة وناموس الخلافة، فقبض عليه عماد الدين زنكي وأهانه ولقيه بما يكره، فأرسل المسترشد باللّه إلى السلطان مسعود يعرّفه الحال الذي جرى من زنكي، ويُعلمه أنّه على قصْد الموصل وحصْرها، وتمادت الأيّام إلى شعبان فسار عن بغداذ في النصف منه في ثلاثين ألف مقاتل.

فلمّا قارب الموصل فارقها أتابك زنكي في بعض عسكره، وترك الباقي بها مع نائبه نصير الدين جقر دزدارها والحاكم في دولته وأمرهم بحفظها، ونازلها الخليفة[٤] وقاتلها وضيّق على من بها، وأمّا عماد الدين فإنّه سار إلى سِنجار وكان يركب كلّ ليلة ويقطع الميرة عن العسكر، ومتى ظَفَر بأحد من العسكر أخذه ونكّل به.

وضاقت الأمور بالعسكر أيضاً، وتواطأ جماعة من الجصّاصين بالموصل على تسليم البلد، فسُعي بهم فأُخِذوا وصُلبوا.

---

(١) في هامش الأصل: «تنكش».

(٢) ذيل تاريخ دمشق ٢٣٨، المنتظم ٢٩/١٠ (٢٧٥/١٧)، زبدة التواريخ ٢٠٢، ٢٠٣، تاريخ دولة آل سلجوق ٢٥٨، تاريخ الإسلام (٥٢٧ هـ.) ص ٣٤، تاريخ ابن سباط ٣٥/١.

(٣) من هنا يعود النص في النسخة (أ) المحفوظة بباريس برقم (٧٤٠).

(٤) في (أ) زيادة: «في رمضان».

وبقي الحصار على الموصل نحو ثلاثة أشهر ولم يظفر منها بشيء، ولا بلغه عمّن بها وهنٌ ولا قلّة ميرة وقوت، فرحل عنها عائداً إلى بغداد، فقيل إنّ نَظَر الخادم وصل إليه من عسكر السلطان، وأبلغه عن السلطان مسعود ما أوجب مسيره وعوده إلى بغداد، وقيل بل بلغه أن السلطان مسعوداً عزم على قصد العراق فعاد بالجملة، وأنّه رحل عنها منحدراً في شبّارة في دجلة فوصل إلى بغداد يوم عَرَفَة[1].

ذكر مُلك شمس الملوك مدينة حماة

وفي هذه السنة أيضاً، في شوّال، ملك شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك صاحب دمشق مدينة حماة وقلعتها، وهي لأتابك زنكي بن آقسُنْقَر أخذها من تاج الملوك كما ذكرناه، ولما ملك شمس الملوك قلعة بانياس أقام بدمشق إلى شهر رمضان من هذه السنة، وسار منها إلى حماة في العشْر الأخير منه.

وسبب طمعه أنّه بلغه أنّ المسترشد باللّه يريد [أن] يحصر الموصل[2] فطمع، وكان الوالي بحماة قد سمع الخبر فتحصّن، واستكثر من الرجال والذخائر، ولم يبقَ أحد من أصحاب شمس الملوك إلاّ وأشار عليه بترك قصْدها لقوّة صاحبها، فلم يسمع منهم، وسار إليها وحصر المدينة وقاتَل مَن بها يوم العيد، وزحف إليها من وقته، فتحصنّوا منه وقاتلوه، فعاد عنهم ذلك اليوم.

فلمّا كان الغد بكّر إليهم وزحف إلى البلد من جوانبه فملكه قهراً وعَنوةً، وطلب مَن به الأمان فأمنّهم وحصر القلعة، ولم تكن في الحصانة والعُلوّ على ما هي عليه اليوم، فإنّ تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قطع جبلها وعملها هكذا في سنين كثيرة، فلمّا حصرها عجز[3] الوالي بها عن حفظها فسلّمها إليه، فاستولى عليها وعلى ما بها من ذخائر وسلاح وغير ذلك[4]، وسار منها إلى قلعة شَيزَر وبها صاحبها من بني

(١) المنتظم ١٠/ ٣٠ (١٧/ ٢٧٦)، التاريخ الباهر ٤٧، ٤٨، تاريخ مختصر الدول ٢٠٣، ٢٠٤، الدرة المضية ٥١٠، تاريخ الإسلام (٥٢٧ هـ.) ص٣٦، ٣٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٨، تاريخ ابن سباط ١/ ٥٣.

(٢) في (أ): «يتجهز ليحصر الموصل».

(٣) في (أ): «فعجز».

(٤) في (أ): «في شوال».

مُنقذ، فحصرها ونهب بلدها، فراسله صاحبها وصانعه بمال حمله إليه، فعاد عنه إلى دمشق فوصل إليها في ذي القعدة من السنة المذكورة[١].

ذكر هزيمة صاحب طرابلس الفرنجي

وفي هذه السنة[٢] عبر إلى الشام جمعٌ كثير من التركُمان من بلاد الجزيرة، وأغاروا على بلاد طرابلس وغنِموا وقتلوا كثيراً، فخرج القُمّص صاحب طرابلس في جموعه، فانزاح التركُمان من بين يديه، فتبِعهم فعادوا إليه وقاتلوه فهزموه، وأكثروا القتل في عسكره، ومضى هو ومَن سلم معه إلى قلعة بَعْرين فتحصّنوا فيها وامتنعوا على التركمان، فحصرهم التركمان فيها. فلمّا طال الحصار عليهم نزل صاحب طرابلس ومعه عشرون فارساً من أعيان أصحابه سرّاً فنجوا، وساروا إلى طرابلس، وترك[٣] الباقين في بَعْرين يحفظونها، فلمّا وصل إلى طرابلس كاتب جميع الفرنج فاجتمع عنده منهم خلْق كثير، وتوجّه بهم نحو التركمان ليرحلّهم عن بعرين، فلمّا سمع التركمان بذلك قصدوهم والتقوهم، وقُتل بينهم خلق كثير، وأشرف الفرنج على الهزيمة، فحملوا نفوسهم ورجعوا على حامية إلى رَفَنية، فتعذّر على التركمان اللّحاق بهم إلى وسط بلادهم، فعادوا عنهم[٤].

ذكر عّدة حوادث

في هذه السنة اشترى الإسماعيليّة[٥] بالشام حصن القَدمُوس من صاحبه ابن عمرون، وصعدوا إليه وقاموا بحرب مَن يجاورهم[٦] من المسلمين والفرنج وكانوا

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٣٨، المختصر في أخبار البشر ٣/٧، تاريخ ابن سباط ١/٥٣.

(٢) زاد في (أ): «في ذي الحجة».

(٣) في (أ): «وجعل».

(٤) الخبر في: ذيل تاريخ دمشق ٢٤٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/٨، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (مخطوط) ج ١٦ ق ٢/٢٨٣، وتاريخ الإسلام (٥٢٧ هـ.) ص ٣٥، وعيون التواريخ (مخطوط) ١٢/٢٥٣، ودول الإسلام ٢/٤٨، والعبر ٤/٧٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/٣٨، والبداية والنهاية ١٢/٢٠٤، وتاريخ ابن سباط (بتحقيقنا) ١/٥٤، وكتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (طبعة ثانية) ١/٤٩٥، ٤٩٦.

(٥) في (أ): «الباطنية».

(٦) في (ب): «من يحاربهم».

كلّهم يكرهون مجاورتهم[1].

وفيها وقع الخُلْف بين الفرنج بالشام، فقاتل بعضهم بعضاً، ولم تجرِ لهم بذلك عادة قبل هذه السنة، وقُتل بينهم جماعة[2].

وفيها، في جُمادى الآخرة، أغار الأمير أسوار[3] مُقدّم عسكر زنكي بحلب على ولاية تلّ باشر فغنم الكثير، فخرج إليه الفرنج في جمْع كثير فقاتلوه، فظفر بهم وأكثر القتل فيهم، وكان عدّة القتلى نحو ألف قتيل، وعاد سالماً[4].

وفيها، تاسع ربيع الآخر، وثب على شمس الملوك صاحب دمشق بعض مماليك جدّه طُغدِكين[5]، فضربه بسيفٍ فلم يعمل فيه شيئاً، وتكاثر عليه مماليك شمس الملوك فأخذوه، وقُرّر ما الذي حمله على ما فعل فقال: أردتُ إراحة المسلمين من شرّك وظُلمك، ولم يزل يُضرب حتى أقرّ على جماعة أنّهم وضعوه على ذلك، فقتلهم شمس الملوك من غير تحقيق، وقتل معهم أخاه سونج، فعظُم ذلك على النّاس[6] ونفروا عنه[7].

[الوفيات]

وفيها تُوُفّي الشيخ أبو الوفاء الفارسيُّ[8]، وكان له جنازة مشهودة حضرها أعيان بغداد.

وفيها، في رجب، توفّي القاضي أبو العبّاس أحمد بن سلامة[9] بن عبد اللّه بن مَخْلَدَ المعروف بابن الرّطبي[10] الفقيه الشافعيّ قاضي الكرْخ، وتفقّه على أبي إسحاق، وأبي

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/٨، تاريخ ابن الوردي ٢/٣٨.

(٢) تاريخ حلب ٣٨٥ (٤٧)، تاريخ الإسلام (٥٢٧ هـ) ص ٣٥.

(٣) في المصادر: «سوار».

(٤) تاريخ حلب ٣٨٥ (٤٨)، العبر ٤/ ٧٠، تاريخ الإسلام (٥٢٧ هـ) ص ٣٥، عيون التواريخ ١٢/ ٢٥٣، مرآة الزمان ٨ ق ١/ ١٤٦.

(٥) هكذا في الأصل بالدال. وهو «طغتكين».

(٦) في (أ): «الناس عامة».

(٧) المختصر في أخبار البشر ٣/٨، تاريخ الإسلام (٥٢٧ هـ.) ص ٣٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٨، ٣٩.

(٨) هو أحمد بن إبراهيم الفيروزأبادي. (مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٤٨، ١٤٩).

(٩) أنظر عن (أحمد بن سلامة) في: المنتظم ١٠/ ٣١ رقم ٣٨ (١٧/ ٢٧٧ رقم ٣٩٨١)، وتذكرة الحفاظ ١٢٨٨، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٠٥، وشذرات الذهب ٤/ ٨٠.

(١٠) في (أ): «بابن الفرسي» والمثبت يتفق مع المصادر.

نصر بن الصّبّاغ، وسمع الحديث ورواه، وكان قريباً من الخليفة يُؤدّب أولاده.

وتوفّي أبو الحسن[1] عليّ بن عُبيد[2] اللّه بن نصر المعروف بابن الزاغونيّ[3] الفقيه الحنبليّ الواعظ، وكان ذا فنون؛ توفّي في المحرّم.

وتوفّي عليُّ بن يَعلَى[4] بن عوض بن القاسم الهرويّ العلويّ، كان واعظاً، وله بخراسان قبول كثير، وسمع الحديث الكثير.

ومحمّد بن أحمد بن عليّ أبو عبد اللّه العثماني الديباجي[5]، وهو من أولاد محمّد بن عبد اللّه بن عَمرو بن عثمان بن عفّان. وكان محمّد يلقّب بالديباج لحُسنه، وأصله من مكّة، وهو من أهل نابلس، وكان مُغالياً في مذهب الأشعريّ، (وكان يعِظ)[6] توفّي في صفر.

وفيها توفّي أبو فُلَيْتة[7] أمير مكّة، وولي الإمارة بعده ابنه القاسم.

وفيها[8] توفّي العزيز بن هبة اللّه بن عليّ الشريف العلويّ الحسينيّ فجأةً بنيسابور. وكان جدّه نقيب النقباء بُخراسان. وعُرض على العزيز هذا نقابة العلويّين بنيسابور فامتنع، وعُرض عليه وزارة السلطان[9]، فامتنع، ولزِم الانقطاع والاشتغال بأمر آخرته.

وفيها توفّي قاضي قضاة خُراسان أبو سعيد محمد بن أحمد بن صاعد[10]، وكان خيّراً صالحاً.

---

(١) في طبعة صادر ١١/ ٩ «أبو الحسين»، والتصحيح من مصادر الترجمة.

(٢) في طبعة صادر ١١/ ٩ «عبد». والتصحيح من مصادر الترجمة.

(٣) أنظر عن (ابن الزاغوني) في: تاريخ الإسلام (٥٢٧ هـ.) ص١٥٤، ١٥٥ رقم ١٠٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٤) أنظر عن (علي بن يعلى) في: تاريخ الإسلام (٥٢٧ هـ.) ص١٥٧ رقم ١٠٤ وفيه مصادر ترجمته.

(٥) أنظر عن (الديباجي) في: المنتظم ١٠/ ٣٣ رقم ٤٤ (١٧/ ٢٧٩ رقم ٣٩٨٧)، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٠٥، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٤٤ (٥٢٦ هـ.).

(٦) من (ب).

(٧) تاريخ الإسلام (٥٢٧ هـ.) ص٣٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٨، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٩، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (بتحقيقنا) ج ٢/ ٣١٣.

(٨) في (ب): «وفيها في شعبان».

(٩) في (أ): «السلطان سنجر».

(١٠) انظر عن (ابن صاعد) في: المنتظم١٠/ ٣٣ رقم ٤٦ (١٧/ ٢٨٠ رقم ٣٩٨٩) وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٢٨٨، وشذرات الذهب ٤/ ٨٢.

(٥٢٨)
ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وخمسمائة

ذكر مُلك شمس الملوك شقيف تيرون[١] ونهبه بلد الفرنج

في هذه السنة، في المحرّم، سار شمس الملوك إسماعيل من دمشق إلى شقيف تيرون وهو في الجبل المطلّ على بيروت وصيدا، وكان بيد الضحّاك بن جنَدل رئيس وادي التّيم، قد تغلّب عليه وامتنع به، فتحاماه المسلمون والفرنج، يحتمي[٢] على كلّ طائفة بالأخرى، فسار شمس الملوك إليه في هذه السنة، وأخذه منه في المحرّم، وعظُم أَخْذُه عل الفرنج لأنّ الضحّاك كان لا يتعرّض لشيء من بلادهم المجاورة له؛ فخافوا شمس الملوك، فشرعوا في جمْع عساكرهم، فلمّا اجتمعت ساروا إلى بلد حَوْران، فخرّبوا أمّهات البلد، ونهبوا ما أمكنهم نهبه[٣] نهبةً عظيمةً.

وكان شمس الملوك، لما رآهم يجمعون، جمع هو أيضاً وحشد[٤] وحضر عنده جمْعٌ كثير من التركمان وغيرهم، فنزل بإزاء الفرنج، وجرت بينهم مناوشة عدّة أيّام، ثمّ إنّ شمس الملوك نهض ببعض عسكره، وجعل الباقي قبالة الفرنج، وهو لا يشعرون، وقصد بلادهم طَبَرِيّة، والناصرة، وعكّا، وما يجاورها من البلاد، فنهب وخرّب وأحرق، وأهلك أكثر البلاد، وسبَى النساء والذرّيّة، وامتلأت أيدي مَن معه من الغنائم، واتّصل الخبر بالفرنج، فانزعجوا، ورحلوا في الحال لا يُلوي أخ على أخيه، وطلبوا بلادهم.

وأمّا شمس الملوك فإنّه عاد إلى عسكره على غير الطريق الذي سلكه الفرنج،

---

(١) في (أ): «بيروت»، وهو غلط.

(٢) في (أ): «تحتمي».

(٣) في الأوربية: «ونهبوا أماكنهم نهبة».

(٤) في الأوربية: «وحشدوا».

فوصل[1] سالماً، ووصل الفرنج إلى بلادهم ورأوها خراباً، ففُتّ في أعضادهم وتفرّقوا، وراسلوا في تجديد الهُدنة، فتمّ ذلك في ذي القعدة للسنة[2].

ذكر عود الملك طغرل[3] إلى الجبل وانهزام الملك مسعود

في هذه السنة عاد الملك طُغْرُل بن محمّد بن ملكشاه ملك بلاد الجبل جميعها، وأجلى عنها أخاه السلطان مسعوداً.

وسبب ذلك أنّ مسعوداً لما عاد من حرب أخيه بلغه عصيان داود ابن أخيه السلطان محمود بأَذْربِيجان، فسار إليه وحصره بقلعة روئين دز، وكان قد تحصّن بها واشتغل بحصْره، فجمع الملك طُغرل العساكر، ومال إليه بعض الأمراء الذين مع السلطان مسعود، ولم يزل يفتح البلاد، فكثُرت عساكره وقصد مسعوداً، فلمّا قارب قزوين سار مسعود نحوه، فلمّا تراءى العسكران فارق مسعوداً من أمرائه مَن كان قد استماله طُغرل فبقي في قلّةٍ من العسكر، فولّى منهزماً أواخر رمضان.

وأرسل إلى المسترشد باللّه في القدوم [إلى] بغداد، فأذِن له، وكان نائبه بأصفهان ألبُقْش السلاحيّ، ومعه الملك سلجوقشاه، فلمّا سمع بانهزام مسعود قصد بغداد أيضاً، فنزل سلجوقشاه بدار السلطان، فأكرمه الخليفة، وأنفذ إليه عشرة آلاف دينار، ثمّ قصد مسعود بغداد، وأكثر أصحابه رُكّاب جمال لعدم ما يركبونه، ولقي في طريقه شدّة، فأرسل إليه الخليفة الدوابّ والخيام والآلات وغيرها من الأموال والثياب، فدخل[4] الدار السلطانيّة ببغداد منتصف شوّال وأقام طُغْرُل بهَمذان[5].

ذكر حصر أتابك زنكي آمِد والحرب بينه وبين داود وملك زنكي قلعة الصور

في هذه السنة اجتمع أتابك زنكي صاحب الموصل وتمرتاش صاحب ماردين

---

(١) في (ب): «فعاد».

(٢) ذيل تاريخ دمشق ٢٤٢، ٢٤٣ مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٤٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٨، تاريخ الإسلام (٥٢٨ هـ.) ص٤٣، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٩، تاريخ ابن سباط ١/ ٥٥.

(٣) في الأصل: «طغرك».

(٤) في (أ): «والآلات والفرش والمال فدخل».

(٥) المنتظم ١٠/ ٣٥، ٣٦ (١٧/ ٢٨٤)، نهاية الأرب ٢٧/ ٤٠.

وقصدا مدينة آمِدِ فحصراها، فأرسل صاحبها إلى داود بن سُقْمان بن أُرتُق صاحب حصن كِيفا يستنجده، فجمع مَنْ أمكنه جمْعَه، وسار نحو آمِد ليرحّلهما عنها: فالتقوا على باب آمِد[1] وتصافّوا في جُمادى الآخرة، فانهزم داود، وعاد مفلولاً، وقُتل جماعة من عسكره

وأقام زنكي وتمِرتاش على أمِد محاصرين لها، وقطعا الشجر، وشعّثا البلد، وعادا عنها من غير بلوغ غرض، فقصد زنكي قلعة الصور من ديار بكر وحصرها وضايقها، فملكها في رجب من هذه السنة، واتّصل به ضياء الدين أبو سعيد بن الكفرتُوثيّ فاستوزره زنكي، وكان حَسَن الطريقة، عظيم الرئاسة والكفاية، مُحِبّاً للخير وأهله[2].

ذكر ملك زنكي قلاع الأكراد الحميديّة

في هذه النسة استولى عماد الدين زنكي على جميع قلاع الأكراد الحميديّة منها قلعة العَقْر وقلعة شوش وغيرهما[3].

وكان لما ملك الموصل أقرّ صاحبها الأمير عيسى الحميديّ على ولايتها وأعمالها، ولم يعترضه على شيء ممّا هو بيده؛ فلمّا حصر المسترشد الموصل حضر عيسى هذا عنده وجمع الأكراد عنده فأكثر، فلمّا رحل المسترشد عن الموصل أمر زنكي أن تُحصر قلاعهم فحُصرت مدّة طويلة، وقُوتلت قتالاً شديداً إلى أن مُلكت هذه السنة، فاطمأن إذاً أهل سواد الموصل المجاورون لهؤلاء القوم، فإنّهم كانوا معهم في ضائقة كبيرة من نهب أموالهم وخراب البلاد[4].

ذكر مُلك قلاع الهكّاريّة وكواشى

وحُكي عن بعض العلماء من الأكراد ممّن له معرفة بأحوالهم أن أتابك زنكي لما

---

(١) في (أ): «آمد وتحاربو».

(٢) ذيل تاريخ دمشق ٢٤٣. نهاية الأرب ١٢٩/٢٧.

(٣) في (أ): «وغيرهما وسبب ذلك أنه لما».

(٤) نهاية الأرب ١٢٩/٢٧، ١٣٠، و«العَقْر» بفتح العين المهملة وسكون القاف، قلعة حصينة في جبال الموصل، شرقيّ الموصل. و«الشوش» قلعة عظيمة عالية جداً قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل، قيل هي أعلى من العقر وأكبر ولكنها دونها في القدر. (معجم البلدان ٣٧٢/٣، و١٣٦/٤)، المختصر في أخبار البشر ٨/٣.

ملك قلاع الحميديّة وأجلاهم عنها خاف أبو الهيجاء بن عبد اللّه صاحب قلعة أشَب والجزيرة ونوشى، فأرسل إلى أتابك زنكي من استحلفه له وحمل إليه مالاً؛ وحضر عند زنكي بالموصل، فبقي مدّة ثمّ مات، فدُفن بتلّ توبة[1]. ولما سار عن أشب إلى الموصل أخرج ولده أحمد بن أبي الهيجاء منها خوفاً أن يتغلّب عليها، وأعطاه قلعة نوشى؛ وأحمد هذا هو والد عليّ بن أحمد المعروف بالمشطوب من أكابر أمراء صلاح الدين بن أيّوب بالشام.

ولما أخرجه أبوه من أشب استناب بها كردياً يقال له باو الأرجيّ، فلمّا مات أبو الهيجاء سار ولده أحمد بن نوشى إلى أشب ليملكها، فمنعه باو، وأراد حِفْظها لولد صغير لأبي الهيجاء اسمه عليّ، فسار زنكي بعسكره فنزل على أشب وملكها.

وسبب مُلكها أنّ أهلها نزلوا كلّهم إلى القتال، فتركهم زنكي حتى قاربوه واستجرّهم حتى أبعدوا عن القلعة، ثمّ عطف عليهم فانهزموا، فوضع السيف فيهم، فأكثر القتل والأسر، وملك زنكي القلعة في الحال وأحضر جماعة من مقدّمي الأكراد فيهم باو فقتلهم وعاد عنها إلى الموصل، ثمّ سار عنها، ففي غيبته أرسل نصير الدين جقر نائب زنكي، وخرّب أشب وخلّى كُهَيجّة ونوشى وقلعة الجلاّب، وهي قلعة العِماديّة، وأرسل إلى قلعة الشعبانيّ، وفرح، وكوشر، والزعفران، وألقى، ونيروة، وهي حصوان المِهْرانيّة، فحصرها فملك الجميع، واستقام أمر الجبل والزُّوزان، وأمِنت الرعايا من الأكراد.

وأمّا باقي قلاع الهكّاريّة جلّ صورا، وهَرُور، والملاسي، ومابَرما، ويابوخا، وباكزا، ونِسباس، فإنّ قُراجة صاحب العماديّة فتحها من مدّةٍ طويلة بعد قتل زنكي، وقُراجة هذا كان أميراً قد أقطعه زين الدين عليّ بلد الهكّاريّة بعد قتل زنكي، ولم أعلم تاريخ فتح هذه القلاع فلهذا ذكرتُه ها هنا.

وحكى غير هذا بعض فُضلاء الأكراد وخالف فيه فقال: إنّ زنكي لما فتح قلعة أشب وخرّبها وبنى قلعة العماديّة ولم يبقَ في الهكّارية إلاّ صاحب جلّ صورا وصاحب هرور، ولم يكن لهما[2] شوكة يخاف منها، عاد إلى الموصل، فخافه أصحاب القلاع الجبليّة، فاتّفق أنّ عبد اللّه بن عيسى ابن إبراهيم صاحب الربيّة، وألقى، وفرح،

---

(1) في الأوربية: «توقة».

(2) في الأوربية: لها.

وغيرها توفّي، وملكها بعده ولده عليّ، وكانت والدته خديجة بنت الحسن أخت إبراهيم وعيسى، وهما من الأمراء، مع زنكي، وكانا بالموصل، فأرسلها ولدها عليّ إلى أخويها، وطلبا له الأمان من زنكي، وحلّفاه له ففعل، ونزل إلى خدمة زنكي وأقرّه على قلاعه، واشتغل زنكي بفتح قلاع الهكّاريّة، وكان الشعبانيّ بيد أمير من المهرانيّة اسمه الحسن بن عُمر، فأخذه منه وقرّبه منه لكبره وقلّة أعماله.

وكان نصير الدين جقر يكره عليّاً صاحب الربيّة وغيرها، فحسّن لزنكي القبض عليه، فأذِن له في ذلك، فقبض عليه ثمّ ندم زنكي على قبضه، فأرسل إلى نصير الدين أن يطلقه فرآه قد مات، قيل إنّ نصير الدين قتله. ثمّ أرسل العسكر إلى قلعة الربيّة فنازلوها بغتةً، فملكوها في ساعة، وأسروا كلّ مَن بها من ولد عليّ وإخوته وأخواته، وكانت والدة عليّ خديجة غائبة فلم توجد، فلمّا سمع زنكي الخبر بفتح الربيّة سرّه، وأمر أن تسير العساكر إلى باقي القلاع التي لعليّ، فسارت العساكر، فحصروها، فرأوها منيعة، فراسلهم زنكي ووعدهم الإحسان، فأجابوه إلى التسليم على شرط أن يطلق كلّ مَن في السجن منهم، فلم يُجِبهم إلى ذلك، إلاّ أن يسلّموا أيضاً قلعة كواشى، فمضت خديجة والدة عليّ إلى صاحب كواشى واسمه خول وهرون وهو من المهرانيّة، فسألته النزول عن كواشى، فأجابها إلى ذلك، وتسلّم زنكي القلاع وأطلق الأسرى، فلم يُسمع بمثل هذا، فقال ينزل من مثل كواشى لقول امرأة فإمّا أن يكون أعظم النّاس مروءةً لا يردّ من دخل بيته، وإمّا أن يكون أقلّ النّاس عقلاً؛ واستقامت ولاية الجبال.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أوقع الدانشمند صاحب مَلَطْية بالفرنج الذين بالشام، فقتل كثيراً منهم وأسر كثيراً[١].

وفيها اصطلح الخليفة وأتابك زنكي[٢].

وفيها، في ربيع الأوّل، عُزل شرف الدين أنوشِرْوان بن خالد عن وزارة الخليفة[٣].

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/٨.

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/٨.

(٣) المنتظم ١٠/ ٣٤ (١٧/ ٢٨٢)، تاريخ الإسلام (٧٢٨ هـ.) ص٣٩.

وفيها توفّيت أمّ المسترشد بالله[1].

وفيها سيّر المسترشد عسكراً إلى تَكريت فحصروا مجاهد الدين بهروز، فصانَعَ عنها بمالٍ فعادوا عنه[2].

وفيها اجتمع جمع من العساكر السنجريّة مع الأمير أرغش وحصروا قلعة كردكوه بُخراسان، وهي للإسماعيليّة، وضيّقوا على أهلها وطال حصرها، وعُدمت عندهم الأقوات، فأصاب أهلها تشنّج وكزاز، وعجز كثير منهم عن القيام فضلاً عن القتال، فلمّا ظهرت أمارات الفتح رحل الأمير أرغش[3]. فقيل إنّهم حملوا إليه مالاً كثيراً وأعلاقاً نفيسة، فرحل عنهم.

[الوفيات]

وفيها توفّي الأمير سليمان بن مهارش العقيليّ أمير بني عقيل، وولي الإمارة بعده أولاده مع صِغر سنّهم، وطِيف بهم في بغداد رعايةً لحقّ جَدّهم مُهَارش، فإنّه هو الذي كان الخليفة القائم بأمر الله عنده في الحديثة لما فعل به البساسيريُّ ما ذكرنا.

وفيها، في المحرَّم، توفّي الفقيه أبو عليّ الحسن بن إبراهيم بن فرهون[4] الشافعيُّ الفارقيُّ[5]، ومولده بميافارقين سنة ثلاثٍ وثلاثين وأربعمائة، وتفقّه بها على أبي عبد الله الكازرُوني، فلمّا توفّي الكازروني انحدر إلى بغداد وتفقّه على أبي إسحاق الشيرازي، وأبي نصر الصّبّاغ، ووليَ القضاء بواسط، وكان خيّراً فاضلاً لا يواري ولا يحابي أحداً في الحكم.

وفيها توفّي عبد [الله] بن محمّد بن أحمد بن الحسن أبو محمّد بن أبي بكر[6]

---

(١) المنتظم ١٠/ ٤١ رقم ٥٩ (١٧/ ٢٩٠ رقم ٤٠٠٢)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٥٢.

(٢) المنتظم ١٠ / ٣٥ (١٧/ ٢٨٣).

(٣) في (أ): زيادة «وعنهم».

(٤) في (أ): «ابن برهون الفارقي قاضي واسط».

(٥) أنظر عن (الفارقي) في المنتظم ١٠/ ٣٧ رقم ٥٠ (١٧/ ٢٨٥، ٢٨٦، رقم ٣٩٩٣)، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٠٦.

(٦) أنظر عن (ابن أبي بكر) في: المنتظم ١٠/ ٣٧، ٣٨ رقم ٥١ (١٧/ ٢٨٦، ٢٨٧ رقم ٣٩٩٤)، البداية والنهاية ١٢/ ٢٠٧، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٤٩، ١٥٠.

الفقيه الشافعيّ، تفقّه على أبيه وأفتى وناظر، وكان يعِظ ويُكثر في كلامه من التجانُس، فمن ذلك قوله: أين القدود العالية، والخدود الورديّة، ملئت بها واللّه العالية والورديّة، وهما مقبرتان بنهر المُعَلّى،

ومن شعره:

الـدمـعُ دَمـاً يَسيـلُ مِـنْ أجْفَـانـي ... إن عشـتُ مـعَ البكـا فمـا أجفـانـي

سِجنـي شجَنـي وهَمّنـي سمّـانـي[1] ... العـاذِلُ بـالمَـلامِ قَـد سَمّـانـي[2]

والـذِّكـرُ لَهـم يَـزيـدُ فـي أشجـانـي ... والنّـوْحُ مـعَ[3] الحَمـامِ قـد أشجـانـي

ضَـاقَـتْ ببعـادِ مُنيَتـي[4] أعْطـانـي ... والبَيـنُ يَـدَ[5] الهمـومِ قـد أعطـانـي

وفيها توفّي ابن أبي الصّلت الشاعر، ومن شِعره يذمّ ثقيلاً:

لي صَديق[6] عجبتُ كيفَ استطاعتْ ... هَـذهِ الأرْضُ وَالجبـالُ تُقِلّـهْ

أنـا أرْعـاهُ مُكْـرِمـاً وَبقَلْبـي ... فمنـهُ مـا يَنسِـفُ الجِبـالَ أقَلّـهْ

هـوَ مثـلُ المَشيـبِ أكْـرَهُ رُؤيـا ... هُ وَلَكِـنْ أصُـونُـهُ وأُجلّـهْ

وله أيضاً:

سـادَ صِغـارُ النّـاسِ فـي عصـرِنـا ... لا دامَ مِـنْ عَصـرٍ وَلا كَـانَـا

كـالـدَسْـتِ مهمـا هَـمّ أن يَنقَضـي ... صَـارَ بـهِ البَيـذَقُ فِـرزَانَـا

وفيها توفّي محمّد بن عليّ بن عبد الوهّاب[7] أبو رشيد، الفقيه الشافعيُّ، من أهل طبَرستان، وسمع الحديث أيضاً ورواه، وكان زاهداً عابداً أقام بجزيرةٍ في البحر سنين منفرداً يعبدُ اللّه، سبحانه وتعالى، وعاد إلى آمل فتوفّي فيها وقبره يزار.

---

(١) في المنتظم: «سجاني» وكذا في (أ).

(٢) المنتظم: «شجاني»، وكذا في (أ).

(٣) في (ب): «والنوم مع».

(٤) في المنتظم: «مهجتي».

(٥) في (ب): «مد».

(٦) في (أ): «جليس»، وفي (ب): «ثقيل».

(٧) هكذا في الأصل وطبعة صادر ١١/١٨ وفي (ب) والمنتظم ١٠/٤٠ رقم ٥٧ (١٧(٢٨٩ رقم ٤٠٠٠)، ومرآة الزمان ج ق ١/١٥١، والبداية والنهاية ١٢/٢٠٧ «محمد بن علي بن عبد الواحد».

(٥٢٩)
ثم دخلت سنة تسع وعشرين وخمسمائة

ذكر وفاة الملك طُغْرُل ومُلك مسعود بلد الجبل

قد ذكرنا قدوم السلطان مسعود إلى بغداد منهزماً من أخيه الملك طُغْرُل بن محمد، فلمّا وصل إلى بغداد أكرمه الخليفة وحمل إليه ما يحتاج إليه مثلُه، وأمره بالمسير إلى همذان وجمْع العساكر ومنازعة أخيه طُغْرل في السلطنة والبلاد، ومسعود يَعِد ويدافع الأيّام، والخليفة يحثّه على ذلك، ووعده أن يسير معه بنفسه، وأمر أن تُبرز خيامه إلى باب الخليفة.

وكان قد اتّصل الأمير البَقش السلاحيّ وغيره من الأمراء بالخليفة، وطلبوا خدمته، فاستخدمهم واتّفق معهم. واتّفق أنّ إنساناً أُخذ فوُجد معه مُلطّفاتٌ من طُغْرُل إلى هؤلاء الأمراء وخاتمه بالإقطاع لهم، فلمّا رأى الخليفة ذلك قبض على أمير منهم اسمه أغلبك ونهب ماله، فاستشعر غيره من الأمراء الذين مع الخليفة، فهربوا إلى عسكر السلطان مسعود، فأرسل الخليفة إلى مسعود في إعادتهم إليه، فلم يفعل واحتجّ بأشياء، فعظُم ذلك على الخليفة، وحدث بينهما وحشة أوجبت تأخرّه عن المسير معه، وأرسل إليه يُلزمه بالمسير معه أمراً جزماً، فبينما الأمر على هذا إذ جاءه الخبر بوفاة أخيه طُغْرل، وكانت وفاته في المحرّم من هذه السنة، وكان مولده سنة ثلاثٍ وخمسمائة في المحرّم، وكان خيّراً عاقلاً عادلاً قريباً إلى الرعيّة محسِناً إليها، وكان قبل موته قد خرج من داره يريد السفر إلى أخيه السلطان مسعود، فدعا له الناس، فقال: ادعوا بخيرنا للمسلمين.

ولما توفّي ووصل الخبر إلى مسعود سار من ساعته نحو هَمَذان، وأقبلت العساكر جميعها إليه، واستوزر شرف الدين أنوشروان بن خالد، وكان قد خرج في

صُحبته هو وأهله، ووصل مسعود إلى همذان واستولى عليها، وأطاعته البلاد جميعها وأهلها[1].

ذكر قَتْل شمس الملوك ومُلك أخيه

في هذه السنة، رابع عشر ربيع الآخر، قُتل شمس الملوك إسماعيل بن تاج الملوك بوري بن طُغْدِكِين صاحب دمشق، وسبب قتله أنّه ركب طريقاً شنيعاً من الظُّلم ومصادرات العمّال وغيرهم من أعمال البلد، وبالَغَ في العقوبات لاستخراج الأموال، وظهر منه بُخْلٌ زائد ودناءةُ نفْس، بحيث أنّه لا يأنف من أخذ الشيء الحقير بالعدوان، إلى غير ذلك من الأخلاق الذميمة، وكرهه أهله وأصحابه ورعيّته.

ثمّ ظهر عنه أنّه كاتب عماد الدين زنكي يُسلّم إليه دمشق ويحثّه على سرعة الوصول، وأخلى المدينة من الذخائر والأموال، ونقل الجميع إلى صَرْخَد، وتابع الرسل إلى زنكي يحثّه على الوصول إليه ويقول له: إن أهملتَ المجيء سلّمتها إلى الفرنج؛ فسار زنكي، فظهر الخبر بذلك في دمشق فامتعض أصحاب أبيه وجدّه لذلك وأقلقهم، وأنهوا الحال لوالدته فساءها وأشفقت منه، ووعدتهم بالراحة من هذا الأمر.

ثمّ إنها ارتقبت الفرصة في الخلوة من غلمانه، فلمّا رأته على ذلك أمرت غلمانها بقتله فقُتل، وأمرت بإلقائه في موضع من الدار ليشاهده غلمانه وأصحابه، فلمّا رأوه قتيلاً سُرّوا لمصرعه وبالراحة من شرّه.

وكان مولده ليلة الخميس سابع جمادى الآخرة سنة ستّ وخمسمائة.

وقيل: كان سبب قتله أن والده كان له حاجب اسمه يوسف بن فيروز، وكان متمكناً منه حاكماً في دولته، ثمّ في دولة شمس الملوك بعده، فاتُّهم بأمّ شمس الملوك، ووصل الخبر إليه بذلك فهَمّ بقتل يوسف فهرب منه إلى تدمر، وتحصّن بها، وأظهر الطاعة لشمس الملوك، فأراد قتل أمّه، فبلغها الخبر فقتلته خوفاً منه، والله أعلم.

---

(1) أنظر عن وفاة طغرل في: زبدة التواريخ ٢٠٤، وراحة الصدور ١٧٠، ١٧١، والمختصر في أخبار البشر ٣/٨، وآثار الدول للعباسي ١٠٤، والروضتين ٧٩، ودول الإسلام ٢/٤٩ وفيه «طغربك»، والعبر ٤/٧٥ وفيه «طغربل»، وعيون التواريخ ١٢/٢٩٢، والبداية والنهاية ١٢/٢٠٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/٣٩، وتاريخ ابن سباط ١/٥٦.

ولما قُتل ملك بعده أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري، وجلس في منصبه، وحلف له النّاس كلّهم واستقرّ في المُلك، والله أعلم[١].

ذكر حصر أتابِك زنكي دمشق

في هذه السنة حصر أتابك زنكي دمشق، وكان نزوله عليها أوّل جُمادى الأولى، وسببه ما ذكرنا من إرسال شمس الملوك صاحبها إليه واستدعائه ليسلّمها إليه، فلمّا [وصلت] كُتُبه ورُسُله بذلك سار إليها، فقُتل شمس الملوك قبل وصوله، ولما عبر الفرات[٢] أرسل إليه رسلاً في تقرير قواعد التسليم، فرأوا الأمر قد فات، إلاّ أنّهم أُكرموا وأُحسن إليهم، وأعيدوا[٣] بأجمل جواب، وعرف زنكي قتل شمس الملوك، وأنّ القواعد عندهم مستقرّة لشهاب الدين، والكلمة متّفقة على طاعته، فلم يحفل زنكي بهذا الجواب، وسار إلى دمشق فنازلها، وأجفل أهلُ السواد إلى دمشق، واجتمعوا فيها على محاربته.

ونزل أوّلاً شماليها، ثمّ انتقل إلى ميدان الحصار، وزحف وقاتل. فرأى قوّة ظاهرة وشجاعة عظيمة واتّفاقاً تامّاً على محاربته؛ وقام مُعين الدين أُنُز مملوك جدّه طُغْدِكين في هذه الحادثة بدمشق قياماً مشهوداً، وظهر من معرفته بأمور الحصار والقتال، وكفايته ما لم يُرَ. وما كان سبب تقدّمه واستيلائه على الأمور بأسرها، على ما نذكر إن شاء اللّه تعالى.

فبينما هو يحاصرها وصل رسول الخليفة المسترشد باللّه وهو أبو بكر بن بشر الجَزَريّ من جزيرة ابن عمر بِخلعٍ لأتابك زنكي، ويأمره بمصالحة صاحب دمشق

---

(١) أنظر عن مقتل شمس الملوك في: ذيل تاريخ دمشق ٢٤٥، ٢٤٦ زبدة الحلب ٢/ ٢٥٥، وبغية الطلب (قسم السلاجقة) ٢٢٢،٢٢٣، ومفرّج الكروب ١/ ٥٧، ونهاية الأرب ٢٧/ ١٣٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٩، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٩٣، والدرة المضية ٥١٩، ودول الإسلام ٢/ ٥٠،٥١ والعبر ٤/ ٧٧،٧٨، وعيون التواريخ ١٢/ ٢٩٤،٢٩٥، وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٧٥، ٥٧٦ رقم ٣٢٩، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٠٤، ومرآة الجنان ٣/ ٢٥٥،٢٥٦، والوافي بالوفيات ٩/ ٩٨ ـ ١٠٠، والكواكب الدرية ١٠٣، ومآثر الانافة ٢/ ٢٨ ـ ٢٩ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦ وشذرات الذهب ٤/ ٩٠، ومنتخبات التواريخ لدمشق ٤٤٧، وتاريخ ابن سباط ١/ ٥٦،٥٧.

(٢) في الأوربية: «الفراة».

(٣) في (أ): «وأعيد».

الملك ألب أرسلان محمود الذي مع أتابك زنكي، فرحل عنها لليلتين بقيتا من جُمادى الأولى من السنة المذكورة[1].

ذكر قَتْل حسن بن الحافظ

قد ذكرنا سنة ستّ وعشرين وخمسمائة أنّ الحافظ لدين اللّه صاحب مصر استوزر ابنه حَسَناً، وخطب له بولاية العهد، فبقي إلى هذه السنة ومات مسموماً؛ وسبب ذلك أن أباه الحافظ استوزره، وكان جريئاً على سفك الدماء، وكان في نفس الحافظ على الأمراء الذين أعانوا أبا عليّ ابن الأفضل[2] حقدٌ، ويريد الإنتقام منهم من غير أن يباشر ذلك بنفسه، فأمر ابنه حسناً بذلك، فتغلّب على الأمر جميعه، واستبدّ به، ولم يبقَ لأبيه معه حكمٌ، وقتل من الأمراء المصريّين ومن أعيان البلاد أيضاً حتى إنّه قتل في ليلةٍ واحدة أربعين أميراً.

فلمّا رأى أبوه تغلّبه عليه أخرج له خادماً من خدم القصر الأكابر، فجمع الجموع، وحشد من الرّجالة خلقاً كثيراً، وتقدّم إلى البلد، فأخرج إليهم حسن جماعة من خواصّه وأصحابه، فقاتلوهم، فانهزم الخادم وقُتل من الرجّالة الذين معه خلق كثير؛ وعبر الباقون إلى بر الجزيرة، فاستكان الحافظ، فصبر تحت الحجر. ثمّ إنّ الباقين من الأمراء المصريّين اجتمعوا واتّفقوا على قتل حسن، وأرسلوا إلى أبيه الحافظ وقالوا له: إمّا أنّك تسلّم ابنك إلينا لنقتله، أو نقتلكما جميعاً، فاستدعى ولدَه إليه واحتاط عليه، وأرسل إلى الأمراء بذلك، فقالوا: لا نرضى إلاّ بقتله. فرأى أنّه إن سلّمه إليهم طمعوا فيه، وليس إلى إبقائه سبيل، فأحضر طبيبين كانا له أحدهما مسلم والآخر يهودي، فقال لليهوديّ: نريد سُمّاً نسقيه لهذا الولد ليموت ونخلص من هذه الحادثة. فقال: أنا لا أعرف غير النقوع وماء الشعير وما شاكل هذا من الأدوية. فقال: أنا أريد ما أخلص به من هذه المصيبة. فقال له: لا أعرف شيئاً. فأحضر الطبيب المسلم وسأله عن ذلك، فصنع له شيئاً فسقاه الولد فمات لوقته؛ فأرسل

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٤٧، ٢٤٨، زبدة الحلب ٢/ ٢٥٧، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٩، نهاية الأرب ٢٧/ ١٣٠، الدّرة المضية ٥١٩، تاريخ ابن الوردي. ٢/ ٣٩، عيون التواريخ ١٢/ ١٩٥، ١٩٦، الكواكب الدّرية ١٠٣، تاريخ الإسلام (٥٢٩ هـ.) ص٥٣، تاريخ ابن سباط ١/ ٥٧.

(٢) في (أ): «أعانوا على ابن الأفضل».

الحافظ إلى الجُند يقول لهم: إنّه قد مات. فقالوا: نريد [أن] ننظر إليه؛ فأحضر بعضهم عنده فرأوه وظنّوه قد عمل حيلة، فجرحوا أسافل رِجْلَيه فلم يجر منها دم، فعلموا موته وخرجوا.

ودُفن حسن وأحضر الحافظ الطبيب المسلم وقال له: ينبغي أن تخرج من عندنا من القصر، وجميع ما لك من الإنعام والجامكيّة باقٍ عليك؛ وأحضر اليهوديّ وزاده وقال له: أعلم أنّك تعرف ما طلبته منك ولكنّك عاقل فتقيم في القصر عندنا.

وكان حَسَن سيّء السيرة، ظالماً، جريئاً على سفك الدماء وأخْذ الأموال، فهجاه الشعراء، فمن ذلك ما قال المعتمد بن الأنصاريّ صاحب الترسّل المشهور:

لم تأتِ يا حسنٌ بينَ الورَى حسنَاً ... ولم تَرَ الحَقّ في دنيا وَلا دينِ
قتلُ النّفوسِ بلا جُرْمٍ وَلا سبَبٍ ... وَالجوْرُ في أخذِ أموالِ المَساكينِ
لقد جَمَعتَ بلا عِلمٍ وَلا أدَبٍ ... تِيهَ المُلوكِ وَأخلاقَ المَجانِينِ

وقيل إنّ الحافظ لما رأى ابنه تغلّب على الملك وضع عليه مَن سقاه السمّ فمات[1]، واللّه أعلم.

ولما مات حسن استوزر الحافظ الأميرَ تاج الدولة بهرام، وكان نصرانيّاً، فتحكّم واستعمل الأرمن على النّاس، فاستذلّوا المسلمين[2]، وسيأتي ذكر ذلك سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة إن شاء اللّه تعالى.

ذكر مسير المسترشد إلى حرب السلطان مسعود وانهزامه

في هذه السنة كانت الحرب بين الخليفة المسترشد باللّه وبين السلطان مسعود في شهر رمضان، وسبب ذلك أنّ السلطان مسعوداً لما سافر من بغداد إلى همذان، بعد موت أخيه طُغرُل، وملكها، فارقه جماعة من أعيان الأمراء منهم يرنقش بازدار،

(١) أنظر عن مقتل الحسن بن الحافظ في: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٩، والدّرة المضية ٥١٤، ٥١٥، العبر ٤/ ٧٨، وتاريخ الإسلام (٥٢٩ هـ.) ص١٧٤ رقم ١٣٣، والوافي بالوفيات ١٢/ ٩٤ رقم ٨٠، والمقفى الكبير ٣/ ٤١٥ ـ ٤١٩ رقم ١١٩٤، واتعاظ الحنفا ٣/ ١٥٣ ـ ١٥٥، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٤٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ٨٥.

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٩.

وقزل آخُر[١]، وسُنْقُر الخُمارتكين والي هَمَذان، وعبد الرحمن بن طغايرك، وغيرهم، خائفين منه، مستوحشين، ومعهم عددٌ كثيرٌ وانضاف إليهم دُبيس بن صَدَقة. وأرسلوا إلى الخليفة يطلبون منه الأمان ليحضروا خدمته، فقيل له: إنّها مكيدة لأنّ دُبيساً معهم؛ وساروا نحو خوزستان، واتّفقوا مع برسق بن برسق، فأرسل الخليفة إليهم سديد الدولة ابن الأنباريّ بتوقيعات إلى الأمراء المذكورين بتطييب نفوسهم والأمر بحضورهم.

وكان الأمراء المذكورون قد عزموا على قبض دبيس والتقرّب إلى الخليفة بحمله إليه، فبلغه ذلك فهرب إلى السلطان مسعود. وسار الأمراء إلى بغداد في رجب، فأكرمهم الخليفة وحمل إليهم الإقامات والخِلع، وقُطعت خُطب[٢] السلطان مسعود من بغداد، وبرز الخليفة في العشرين من رجب على عزم المسير إلى قتال مسعود، وأقام في الشفيعيّ[٣] فعصى عليه بكبه[٤] صاحب البصرة فهرب إليها، فراسله وبذل له الأمان فلم يعُد إليه.

وتريّث الخليفة عن المسير وهؤلاء الأمراء يحسّنون له الرحيل، ويسهّلون عليه الأمر، ويضعّفون عنده أمر السلطان مسعود، فسيّر مقدّمتَه إلى حُلوان فنهبوا البلاد، وأفسدوا ولم ينكر عليهم أحد شيئاً؛ ثمّ سار الخليفة ثامن شعبان، ولحِق به في الطريق الأمير برسق بن برسق، فبلغت عدّتهم سبعة آلاف فارس، وتخلّف بالعراق مع إقبال خادم المسترشد باللّه ثلاثة آلاف فارس.

وكان السلطان مسعود بهمذان في نحو ألفٍ وخمس مائة فارس، وكان أكثر أصحاب الأطراف يكاتبون الخليفة ويبذلون له الطاعة، فتريّث في طريقه، فاستصلح السلطان مسعود أكثرهم حتى صاروا في نحو خمسة عشر ألف فارس، وتسلّل جماعة كثيرة من عسكر الخليفة حتى بقي في خمسة آلاف، وأرسل أتابك زنكي نجدةً فلم تلحق[٥].

---

(١) «آخر» من (أ).

(٢) في (أ): «خطبة».

(٣) في النسخة الباريسية رقم ٧٤٠٠ «السفيعي».

(٤) في الباريسية: «بكته»، و«بلته».

(٥) المنتظم ١٠/ ٤٤،٤٥ (١٧/ ٢٩٤،٢٩٥)، تاريخ الإسلام (٥٢٩ هـ.) ص ٤٧، مرآة الجنان ٣/ ٢٥٥.

وأرسل الملك داود ابن السلطان محمود وهو بأذْرَبيجان إلى الخليفة يشير بالميل إلى الدِّينَوَر ليحضر بنفسه وعسكره، فلم يفعل المسترشد ذلك، وسار حتى بلغ دايمرج، وعبّأ أصحابه، فجعل في الميمنة يرنقش بازدار، ونور الدولة سُنقُر، وقزل آخُر، وبرسق بن برسق، وجعل في الميسرة جاولي، وبرسق شراب سلار، وأغلبك الذي كان الخليفة قد قبض عليه وأخرجه من محبسه.

ولما بلغ السلطانَ مسعوداً خبرهم سار إليهم مُجِدّاً، فواقعهم بدايمرج[1] عاشر رمضان، وانحازت ميسرة الخليفة مخامرة عليه إلى السلطان مسعود فصارت معه، واقتتلت ميمنته وميسرة السلطان قتالاً ضعيفاً، ودار به عسكر السلطان وهو ثابت لم يتحرّك من مكانه، وانهزم عسكره وأُخذ هو أسيراً ومعه جمع كثير من أصحابه، منهم الوزير شرف الدين عليُّ بن طِراد الزينبي، وقاضي القُضاة، وصاحب المخزن ابن طلحة، وابن الأنباري والخطباء والفقهاء والشهود وغيرهم، وأُنزل الخليفة في خيمة وغنموا ما في معسكره وكان كثيراً، فحُمل الوزير وقاضي القضاة وابن الأنباري وصاحب المخزن وغيرهم من الأكابر إلى قلعة سرجهان، وباعوا الباقين بالثمن الطفيف، ولم يُقتل في هذه المعركة أحدٌ وهذا من أعجب ما يُحْكى.

وعاد السلطان إلى هَمَذَان وأمر فنودي: مَن تبعنا إلى همذان من البغداديّين قتلناه؛ فرجع النّاس كلّهم على أقبح حالة لا يعرفون طريقاً وليس معهم ما يحملهم، وسيّر السلطان الأمير بك أبه[2] المحموديّ إلى بغداد شِحنةً فوصلها سلْخ رمضان ومعه عبيد، فقبضوا جميع أملاك الخليفة وأخذوا غلّاتها.

وثار جماعة من عامّة بغداد، فكسروا المنبر والشبّاك، ومنعوا من الخطبة، وخرجوا إلى الأسواق يَحْثُون التراب على رؤوسهم ويبكون ويصيحون، وخرجت النساء حاسرات في الأسواق يلطمن، واقتتل أصحاب الشحنة وعامّة بغداد، فقُتل من العامّة ما يزيد على مائة وخمسين قتيلاً، وهرب الوالي وحاجب الباب.

وأمّا السلطان فإنّه سار في شوّال من همذان إلى مراغة لقتال الملك داود ابن

---

(١) من (ب).

(٢) في الباريسية: «بك ابه».

أخيه محمود، وكان قد عصى عليه، فنزل على فرسخَين من مَراغة، والمسترشد معه، فتردّدت الرسل بين الخليفة وبين السلطان في الصلح، فاستقرّت القاعدة على[1] ما نذكره إن شاء اللّه، واللّه الموفّق[2].

ذكر قَتْل المسترشد باللّه وخلافة الراشد باللّه

لما قُبض المسترشد باللّه أبو[3] منصور بن الفضل بن المستظهر باللّه أبي العبّاس أحمد، على ما ذكرناه، أنزله السلطان مسعود في خيمة، ووكّل به مَن يحفظه، وقام بما يجب من الخدمة، وتردّدت الرسل بينهما في الصُّلح وتقرير القواعد على مالٍ يؤدّيه الخليفة، وأن لا يعود يجمع العساكر وأن لا يخرج من داره. فأجاب السلطان إلى ذلك، وأركب الخليفة وحمل الغاشية بين يديه، ولم يبقَ إلاّ أن يعود إلى بغداد. فوصل الخبر أنّ الأمير قرّان خوان قد قدِم رسولاً من السلطان سَنجَر، فتأخّر مسير المسترشد لذلك، وخرج النّاس والسلطان مسعود إلى لقائه، وفارقَ الخليفةَ بعضُ مَن كان موكّلاً به، وكانت خيمته منفردة عن العسكر، فقصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنيّة، ودخلوا عليه فقتلوه، وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة، ومثّلوا به فجدعوا أنفه وأُذُنيه وتركوه عُرياناً، وقُتل معه نفر من أصحابه، منهم أبو عبد اللّه بن سُكينة، وكان قتْله يوم الخميس سابع عشر ذي القعدة على باب مَراغة، وبقي حتى دفنه أهل مَراغة[4].

وأما الباطنيّة فقتُل منهم عشرة، وقيل: بل قُتلوا جميعهم، واللّه أعلم، وكان عمره لما قُتل ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وستّة أشهر وعشرين يوماً. وأُمّه أمّ ولد، وكان شهماً شجاعاً، كثير الإقدام، بعيد الهمّة، وأخباره المذكورة تدلّ[5] على ما ذكرناه. وكان فصيحاً بليغاً حَسَن الخطّ، ولقد رأيتُ خطّه في غاية الجودة، ورأيتُ أجوبته على الرقاع من أحسن ما يُكتب وأفصحه.

---

(١) في (أ): «عليه على».

(٢) المنتظم ١٠/ ٤٥، ٤٦ (١٧/ ٢٩٥)، الإنباء في تاريخ الخلفاء ٢٢٠ الفخري ٣٠٣، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٩، العبر ٤/ ٧٧، تاريخ الإسلام (٥٢٩ هـ.) ص٤٧ ـ ٤٩.

(٣) في الأصل: «أبو أحمد».

(٤) أنظر عن (قتل المسترشد) في: تاريخ الإسلام (٥٢٩ هـ.) ص٥١ وفيه مصادره.

(٥) في الأوربية: «تري».

ولما قُتل المسترشد بالله بويع ولده أبو جعفر المنصور، ولُقّب الراشد بالله، وكان المسترشد قد بايع له بولاية العهد في حياته، وجُدّدت له البيعة بعد قتله يوم الإثنين السابع والعشرين من ذي القعدة؛ وكتب السلطان مسعود إلى بك أبه[1] الشِحنة ببغداد فبايع له، وحضر النّاس البيعة، وحضر بيعته أحدٌ وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء؛ وبايع له الشيخ أبو النجيب، ووعظه، وبالغ في الموعظة. وأمّا جمال الدولة إقبال فإنّه كان ببغداد في طائفة من العسكر، فلمّا جرت هذه الحادثة عبر إلى الجانب الغربيّ، وأصعد إلى تكريت وراسل مجاهد الدين بهروز، وحلّفه وصعد إليه بالقلعة[2].

ذكر مسير السلطان سَنجَر إلى غزنة وعَوده عنها

في هذه السنة، في ذي القعدة، سار السلطان سَنجرَ من خُراسان إلى غَزنَة، وسبب ذلك أنّه نُقل إليه عن صاحبها بَهرام شاه أنّه تغيّر عن طاعته، وأنّه قد مدّ يده إلى ظلم الرّعايا واغتصاب أموالهم.

وكان السلطان سَنجَر هو الذي ملك غَزنة، وقد ذكرناه سنة تسع وخمسمائة، فلمّا سمع هذه الأخبار المزعجة سار إلى غَزْنة ليأخذها أو يصلحه، فلمّا سلك الطريق وأبْعد أدركهم شتاء شديد البرد، كثير الثلج، وتعذّرت عليهم الأقوات والعلوفات، فشكا العسكر إلى السلطان ذلك، وذكروا له ما هم فيه من الضيق وتعذُّر ما يحتاجون إليه، فلم يجدوا عنده غير التقدّم أمامه؛ فلمّا قارب غَزنة أرسل بَهرام شاه رُسلاً يضرع إلى سَنجَر ويسأل الصفح عن جُرمه، والعفو عن ذنبه، فأرسل إليه سنَجر المقرّب جوهراً الخادم، وهو أكبر أمير عنده، ومن جملة أقطاعه مدينة الرّيّ، في جواب رسالته يجيبه عن العفو عنه إن حضر عنده وعاد إلى طاعته، فلمّا وصل إلى بهرام شاه أجابه إلى ما طلب منه من الطاعة وحمل المال والحضور بنفسه في خدمته، وأظهر من

---

(١) في الباريسية رقم ٧٤٠ «بدانه».

(٢) المنتظم ١٠/ ٥٠ (١٧/ ٣٠٠)، التاريخ الباهر ٥٠، تاريخ حلب ٣٨٧ (٥٠)، الإنباء في تاريخ الخلفاء ٢٢٢، زبدة التواريخ ٢٠٩، تاريخ الزمان ١٤٩، تاريخ مختصر الدول ٢٠، الفخري ٣٠٨، مرآة الزمان ج ٨ ق ١٥٨/١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٠، تاريخ الإسلام (٥٢٩ هـ.) ص٥٢،٥٣، الكواكب الدرية تاريخ ابن سباط ١/ ٦٠،٦١.

الطاعة والإنقياد لما يحكم به السلطان سنجر شيئاً كثيراً.

وعاد المقرّب جوهر ومعه بهرام شاه إلى سنجر، فسبقه المقرّب إلى السلطان سنجر وأعلمه بوصول بهرام شاه، وأنّه بُكرة غد يكون عنده، وعاد المقرّب إلى بهرام شاه ليجيء بين يديه، وركب سنجر من الغد في موكبه لتلقّيه، وتقدّم بهرام شاه ومعه المقرّب إلى سنجر، فلمّا عاين موكب سنجر والجتر على رأسه نكص على عقبيْه عائداً، فأمسك المقرّب عنانه وقبّح فعله، وخوّفه عاقبة ذلك، فلم يرجعْ وولّى هارباً ولم[1] يصدق بنجاته ظنّاً منه أنّ سنجر يأخذه ويملك بلده؛ وتبعه طائفة من أصحابه وخواصّه، ولم يعرّج على غَزنة، وسار سنجر إلى غَزنَة فدخلها وملكها، واحتوى على ما فيها، وجبَى أموالها، وكتب إلى بهرام شاه كتاباً يلومه على ما فعله، ويحلف له أنّه ما أراد به سوءاً، ولا له في بلده مطمع، ولا هو ممّن يكدّر صنيعته وتعقب حسنته معه بسيّئةٍ، وإنّما قصده لإصلاحه، فأعاد بهرام شاه الجواب يعتذر ويتنصّل ويقول إنّ الخوف منعه من الحضور، ولا لوم على من خاف مثل السلطان، ويضرع في عَوده إلى الإحسان، فأجابه سنجر إلى إعادة بلده إليه، وفارق غَزنة عائداً إلى بلاده، فوصل إلى بلْخ في شوّال سنة ثلاثين وخمسمائة، واستقرّ مُلك غَزنة لبهرام شاه، ورجع إليها مالكاً لها ومستولياً عليها[2].

ذكر قتل دُبيس بن صدقة بالتاريخ

في هذه السنة قتل السلطان مسعودٌ دُبَيس بن صَدَقة على باب سُرادقه بظاهر خُوَنج، أمر غلاماً أرمنياً بقتله، فوقف على رأسه وهو ينكت الأرض بإصبعه، فضرب رقبته وهو لا يشعر، وكان ابنه صَدَقة بالحِلّة، فاجتمع إليه عسكر أبيه ومماليكه، وكثُر جمْعُه، واستأمن إليه الأمير قتلغ تكين، وأمر السلطان مسعود بك أبه[3] أن يأخذ الحِلّة، فسار بعض عسكره إلى المدائن، وأقاموا مدّة ينتظرون لحاق بك أبه بهم فلم يسر إليهم جبُناً وعجزاً عن قصد الحِلّة لكثرة العسكر بها مع صدقة. وبقي صدقة بالحِلّة إلى أن قدم السلطان مسعود إلى بغداد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة فقصده

---

(١) في الأوربية: «ولا».

(٢) تاريخ الإسلام (٥٢٩ هـ.) ص٥٣.

(٣) في الباريسية، ورقم ٧٤٠ «بدابه».

وأصلح حاله معه ولزم خدمته[1].

ومثل هذه الحادثة تقع كثيراً وهي قرب موت المتعاديين، فإنّ دُبيساً كان يُعادي المسترشد بالله ويكره خلافته، ولم يكن يعلم أنّ السلاطين إنّما كانوا يُبقون عليه ليجعلوه عُدّة لمقاومة المسترشد، فلمّا زال السبب زال المسبّب، والله أعلم بذلك.

ذكر حصر عسكر يحيى المهديّة

في هذه السنة سيّر يحيَى بن العزيز بن حمّاد صاحب بَجاية عسكراً ليحصروا المهديّة، وبها صاحبها الحسن بن عليّ بن تميم بن المعزّ بن باديس، وكان سبب ذلك أنّ الحسن أحبّ ميمون بن زياد أمير طائفة كبيرة من العرب، وزاده على سائر العرب، فحسده العرب فسار أمراؤها إلى يحيَى بن العزيز بأولادهم، وجعلوهم رهائن عنده، وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكراً ليملكوا له المهديّة، فأجابهم إلى ذلك وهو متباطىء، فاتّفق أنّه وصله كتب من بعض مشايخ المهديّة بمثل ذلك، فوثق بما[2] أتاه وسيّر عسكراً كثيفاً، واستعمل عليهم قائداً كبيراً من فقهاء أصحابه يقال له مطرِّف بن حمدون.

وكان يحيَى هذا هو وآباؤه يحسدون أولاد المنصور أبي الحسن هذا، فسارت العساكر الفارس والراجل، ومعهم من العرب جمْع كثير حتى نزلوا على المهديّة، وحصروها برّاً وبحراً، وكان مطرّف يُظهر التقشّف والتورّع عن الدماء، وقال: إنّما أتيتُ الآن لأتسلّم البلد بغير قتال؛ فخاب ظنّه، فبقي أيّاماً لا يُقاتل، ثمّ إنّهم باشروا القتال فظهر أهل المهديّة عليهم وأثّروا فيهم، وتوالى القتال وفي كلّ ذلك الظفر لأهل البلد، وقُتل من الخارجين جمٌّ غفير.

وجمع مطرّف عسكره وزحف برّاً وبحراً لما يئس من التسليم، وقاتل أشدّ قتال، فملكت شوانيه شاطىء البحر، وقربوا من السور، فاشتدّ الأمر، فأمر الحسن بفتح الباب من الشاطىء وخرج أوّل النّاس، وحمل هو ومَن معه عليهم وقال: أنا الحسن! فلمّا سمع مَن يقاتله دعواه سلّموا عليه، وانهزموا عنه إجلالاً له، ثمّ أخرج الحسن

---

(١) أنظر عن مقتل دُبيس بن صدقة في: تاريخ ابن سباط (بتحقيقنا) ج ١/ ٦١ وفيه حشدت عشرات المصادر.

(٢) في الأوربية: «إلى ما».

شوانيه تلك الساعة من الميناء، فأُخذ من تلك الشواني أربع قِطع، وهُزم الباقي.

ثمّ وصلته نجدة من رجّار الفرنجيّ، صاحب صقليّة، في البحر، في عشرين قطعة، فحصرت شواني صاحب بجاية، فأمرهم الحسن بإطلاقها فأطلقوها، ثمّ وصل ميمون بن زياد في جمع كثير من العرب لنُصرة الحسن، فلمّا رأى ذلك مطرّف وأنّ النجدات تأتي الحسن في البرّ والبحر، علم أنّه لا طاقة له بهم، فرحل عن المهديّة خائباً، وأقام رجّار الفرنجيّ مظهِراً للحسن أنّه مهادنه وموافقه، وهو مع ذلك يعمّر الشواني ويُكثر عددها.

ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة جَرْبَة

كانت جزيرة جَرْبَة من بلاد إفريقية قد استوت في كثرة عمارتها وخيراتها، غير أنّ أهلها طَغَوا، فلا يدخلون تحت طاعة السلطان، ويُعرفون بالفساد وقطْع الطريق، فخرج إليها جمع من الفرنج، أهل صَقَلّيّة، في أسطولٍ كثير وجمّ غفير، فيه من مشهوري فرسان الفرنج جماعة فنزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها.

واجتمع أهلها وقاتلوا قتالاً شديداً، فوقع بين الفريقين حرب شديدة، فثبت أهل جربة، فقُتل منهم بشرٌ كثير، فانهزموا وملك الفرنج الجزيرة، وغنموا أموالها وسبوا نساءها وأطفالها، وهلك أكثر رجالها، ومَن بقي منهم أخذوا لأنفسهم أماناً من رجّار ملك صقليّة، وافتكّوا أَسْراهم وسبْيهم وحريمهم، واللّه أعلم بذلك[1].

ذكر مُلك الفرنج حصن روطة[2] من بلاد الأندلس

في هذه السنة اصطلح المستنصر باللّه من هود والسُّليطين الفرنجيّ صاحب طُليطُلة من بلاد الأندلس مدّة عشر سنين، وكان السليطين قد أدمن غزو بلاد المستنصر وقتاله، حتى ضعُف المستنصر عن مقاومته لقلّة جنوده وكثرة الفرنج، فرأى أن يصالحه مدّة يستريحُ فيها هو وجنوده، ويعتدّون للمعاودة، فتردّدت الرسل بينهم، فاستقرّ

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٠، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٠١، تاريخ ابن سباط ١/ ٦٢ و«جَرْبة» بالفتح ثم السكون. جزيرة على مقربة من قابس. (معجم البلدان ٢/ ١١٨).

(٢) في المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٠ «زوطة» بالزاي. والمثبت هو الصحيح كما في (معجم البلدان ٣/ ٩٦).

الصلح على أن يسلّم المستنصر إلى السليطين حصن رُوْطة من الأندلس، وهو من أمنع الحصون وأعظمها، فاستقرّت القاعدة واصطلحوا وتسلّم منه الفرنج الحصن، وفعل المستنصر فِعلةً لم يفعلها قبله أحدٌ[١].

ذكر حصر ابن رُدمير مدينة أفراغة وهزيمته وموته

وفي هذه السنة حصر ابن رُدمير الفرنجي مدينة أفراغة من شرق الأندلس، وكان الأمير يوسف بن تاشفين بن عليّ بن يوسف بمدينة قُرطُبة، فجهّز الزّبير بن عَمرو اللمتُونيّ والي قرطبة ومعه ألفا فارس، وسيّر معه ميرة كثيرة إلى أفراغة.

وكان يحيَى بن غانية، الأمير المشهور، أمير مُرسية وبَلَنْسية من شرق الأندلس ووالي أمرها لأمير المسلمين عليّ بن يوسف، فتجهزّ في خمس مائة فارس، وكان عبد اللّه بن عِياض صاحب مدينة لاردة، فتجهّز في مائتي فارس، فاجتمعوا وحملوا الميرة وساروا حتى أشرفوا على مدينة أفراغة، وجعل الزبير الميرة أمامه، وابن غانية أمام الميرة، وابن عياض أمام ابن غانية، وكان شجاعاً بطلاً وكذلك جميع مَنْ معه.

وكان ابن رُدمير في اثني عشر ألف فارس، فاحتقر جميع الواصلين من المسلمين، فقال لأصحابه: اخرجوا وخذوا هذه الهديّة التي أرسلها المسلمون إليكم؛ وأدركه العُجب، ونفّذ قطعة كبيرة من جيشه. فلمّا قربوا من المسلمين حمل عليهم ابن عياض وكسرهم، وردّ بعضهم على بعض، وقتل فيهم، والتحم القتال، وجاء ابن رُدمير بنفسه وعساكره جميعها مُدلّين بكثرتهم وشجاعتهم، فحمل ابن عانية وابن عياض في صدورهم، واستحرّ الأمر بينهم، وعظُم القتال، فكثُر القتل في الفرنج، وخرج في الحال أهل أفراغة، ذَكَرُهم وأُنثاهم، صغيرهم وكبيرهم، إلى خيام الفرنج، فاشتغل الرجال بقتل مَن وجدوا في المخيم، واشتغل النساء بالنهب، فحُمل جميع ما في المخيّم إلى المدينة من قوت وعُدَد وآلات وسلاح وغير ذلك.

وبينما المسلمون والفرنج في القتال إذ وصل إليهم الزبير في عسكره فانهزم ابن رُدمير وولّى هارباً، واستولى القتل على جميع عسكره، فلم يسلم منهم إلاّ القليل، ولحِق ابن رُدمير بمدينة سَرَقُسطَة، فلمّا رأى ما قُتل من أصحابه مات مفجوعاً بعد

---

(١) المختصر ٣/ ١٠، تاريخ ابن سباط ١/ ٦٢.

عشرين يوماً من الهزيمة، وكان أشدّ ملوك الفرنج بأساً، وأكثرهم تجرّداً لحرب المسلمين، وأعظمهم صبراً، كان ينام على طارقته بغير وطاء، وقيل له: هلاَ تسرّيتَ من بنات أكابر المسلمين اللاتي سبيتَ؟ فقال: الرجل المحارب ينبغي أن يعاشر الرجال لا النساء؛ وأراح اللّه منه وكفى المسلمين شرّه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في شوّال، زُلزلت الأرض بالعراق، والموصل، وبلاد الجبل، وغيرها، وكانت الزلزلة شديدة، وهلك فيها كثير من النّاس[1]، واللّه أعلم.

---

(١) أنظر عن الزلزلة في: المنتظم ١٠/٤٦ (١٧/٢٩٦)، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/١٥٢، ١٥٣، وتاريخ الإسلام (٥٢٩ هـ.) ص٤٩، وعيون التواريخ ١٢/٢٩٦، والبداية والنهاية ١٢/٢٠٨، والكواكب الدرية ١٠٠، وكشف الصلصلة ١٨٣.

(٥٣٠)
ثم دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة

ذكر الحرب بين عسكر الراشد وعسكر السلطان مسعود

في المحرّم من هذه السنة وصل يرنقش[١] الزكويّ من عند السلطان مسعود يطالب الخليفة بما كان قد استقرّ على المسترشد من المال، وهو أربعمائة ألف دينار، فذكر أنّه لا شيء عنده، وأنّ المال جميعه كان مع المسترشد باللّه، فنُهب في الهزيمة المذكورة. ثمّ بلغ الراشد باللّه أنّ يرنقش يريد الهجوم على دار الخلافة وتفتيشها لأخذ المال، فجمع العساكر لمنع داره، وأمّر عليهم كج أبه، وأعاد عمارة السور.

فلمّا علم يرنقش بذلك اتّفق هو وبك أبه شِحنة بغداد، وهو من أمراء السلطان، على أن يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة، فبلغ ذلك الراشد باللّه فاستعدّ لمنعهم، وركب يرنقش ومعه العكسر السُّلطاني والأمراء البكجيّة، ومحمّد بن عكر[٢]، في نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة ومتقدّمهم كج أبه، واقتتلوا قتالاً شديداً، وساعد العامّة عسكر الخليفة على قتال العسكر السُّلطاني حتى أخرجهم إلى دار السلطان، فلمّا جنّهم الليل ساروا إلى طريق خُراسان، ثمّ انحدر بك أبه إلى واسط، وسار يرنقش إلى البَنْدَنِيجين، ونهب أهل بغداد دار السلطان[٣].

ذكر اجتماع أصحاب الأطراف على حرب مسعود ببغداد وخروجهم عن طاعته

في هذه السنة اجتمع كثير من الأمراء وأصحاب الأطراف على الخروج عن طاعة

---

(١) يرد في المصادر: «يرنقش» و«برنقش» و«برتقش»، و «رتقش».

(٢) في (أ): «ابن عكة»، وفي (ب): «ابن عسكر».

(٣) المنتظم ١٠/ ٥٤ (١٧/ ٣٠٥،٣٠٦)، تاريخ الإسلام (٥٣٠ هـ.) ص٥٤، العبر ٤/ ٧٩،٨٠، مرآة الجنان ٣/ ٢٥٧، عيون التواريخ ١٢/ ٣٠٦ الكواكب الدّرية ١٠٤، تاريخ ابن سباط ١/ ٦٣.

السلطان مسعود، فسار الملك داود ابن السلطان محمود في عسكر أَذَرْبيجان إلى بغداد، فوصلها رابع صفر، ونزل بدار السلطان، ووصل أتابك عماد الدين زنكي بعدَه من الموصل؛ ووصل يرنقش[1] بازدار صاحب قزوين وغيرها، والبقش الكبير صاحب أصفهان، وصَدَقة بن دُبيس صاحب الحِلّة، ومعه عنتر بن أبي العسكر الجاواني يدبّره، ويتمّم نقص صباه، وابن برسق، وابن الأحمديلي، وخرج إليهم من عسكر بغداد كج أبه والطرنطاي[2] وغيرهما، وجعل الملك داود في شِحنكية بغداد يرنقش بازدار، وقبض الخليفة الراشد باللّه على ناصح الدولة أبي عبد اللّه الحسن بن جَهِير أستاذ الدار، وهو كان السبب في ولايته، وعلى جمال الدولة إقبال المسترشدي، وكان قد قدِم إليه من تكريت، وعلى غيرهما من أعيان دولته، فتغيّرت[3] نيّات أصحابه عليه وخافوه.

فأمّا جمال الدولة فإنّ أتابك زنكي شفع فيه شفاعة تحتها إلزام، فأُطلق وصار إليه ونزل عنده.

وخرج موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين أبي الرضى بن صَدَقة إلى عماد الدين لتهنئته[4] بالقدوم، فأقام الوزير عنده وسأله أن يمنعه من الخليفة، فأجابه إلى ذلك، وعاد الموكب بغير وزير، وأرسل زنكي مَن حرس دار الوزير من النّهب، ثمّ أصلح حاله مع الخليفة، وأعاده إلى وزارته.

وكذلك أيضاً عبر عليه قاضي القضاة الزينبيُّ، وسار معه إلى الموصل، ثمّ إنّ الخليفة جدّ في عمارة السور، فأرسل الملك داود مَن قلع أبوابه وأخرب قطعة منه، فانزعج النّاس ببغداد، ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة، وقُطعت خطبة السلطان مسعود، وخُطب للملك داود وجَرَتِ الأيمان بين الخليفة والملك داود وعماد الدين زنكي، وأرسل الخليفة إلى أتابك زنكي ثلاثين ألف دينار لينفقها.

ووصل الملك سلجوقشاه إلى واسط فدخلها وقبض على الأمير بك أبه ونهب

(١) في (أ): «برنقش».
(٢) في (أ): «طرنمطاي»، وفي (ب): «الطرنطاري». وفي المختصر لأبي الفداء ٣/ ١١، «طرنطى».
(٣) في (أ): «فنفرت».
(٤) في (أ): ليهنيه».

ماله، وانحدر أتابك زنكي إليه لدفعه عنها واصطلحا، وعاد زنكي إلى بغداد وعبر إلى طريق خُراسان، وحثَ على جمع العساكر للقاء السلطان مسعود.

وسار الملك داود نحو طريق خُراسان أيضاً، فنهب العسكر البلاد وأفسدوا، ووصلت الأخبار بمسير السلطان مسعود إلى بغداد لقتال الملك، وفارق الملك داود وأتابك زنكي، فعاد أتابك زنكي إلى بغداد، وفارق الملك داود، وأظهر له أن يمضي إلى مراغة إذا فارق السلطان مسعود همذان، فبرز الراشد باللّه إلى ظاهر بغداد أوّل رمضان، وسار إلى طريق خُراسان، ثمّ عاد بعد ثلاثة أيّام ونزل عند جامع السلطان، ثمّ دخل إلى بغداد خامس رمضان، وأرسل إلى داود وسائر الأمراء يأمرهم بالعَود إلى بغداد، فعادوا، ونزلوا في الخيام، وعزموا على قتال السلطان مسعود من داخل سور بغداد.

ووصلت رسل السلطان مسعود يبذل من نفسه الطاعة والموافقة للخليفة والتهديد لمن اجتمع عنده، فعرض الخليفة الرسالة عليهم، فكلّهم رأى قتاله، فقال الخليفة: وأنا أيضاً معكم (على ذلك)[1].

ذكر مُلك شهاب الدين حمص

في هذه السنة، في الثاني والعشرين من ربيع الأوّل، تسلّم شهاب الدين محمود، صاحب دمشق، مدينة حمص وقلعتها، وسبب ذلك أنّ أصحابها أولاد الأمير خير خان بن قراجا[2]، والوالي بها من قِبَلهم، ضجروا من كثرة تعرّض عسكر عماد الدين زنكي إليها وإلى أعمالها، وتضييقهم على مَن بها من جنديّ وعاميّ، فراسلوا شهاب الدين في أن يسلّموها إليه، ويعطيهم عِوضاً عنها تدمر، فأجابهم إلى ذلك، وسار إليها وتسلّمها منهم في التاريخ المذكور، وسلّم إليهم تدمر، وأقطع حمص مملوك جدّه معيْن الدين أُنُز، وجعل فيها نائباً عنه[3] ممّن يثق به من أعيان أصحابه، وعاد عنها إلى دمشق.

فلمّا رأى عسكر زنكي الذين بحلب وحماة خروجَ حمص عن أيديهم تابعوا

---

(١) من (أ). والخبر في: المنتظم ١٠/٥٥ (١٧/٣٠٦)، والمختصر في أخبار البشر ٣/١١.

(٢) في (أ): «قراجة».

(٣) في (أ): «عنه يوسف بن فيروز حاجب أبيه وجده وعاد عنها».

الغارات إلى بلدها والنهب له، والاستيلاء على كثير منه، فجرى بينهم عدّة وقائع، وأرسل شهاب الدين إلى زنكي في المعنى، واستقرّ الصلح بينهم، وكفّ كلّ منهم عن صاحبه[1].

ذكر الفتنة بدمشق

في هذه السنة وقعت الفتنة بدمشق بين صاحبها والجُند. وسبب ذلك أنّ الحاجب يوسف بن فيروز كان أكبر حاجب عند أبيه وجدّه، ثمّ إنّه خاف أخاه شمس الملوك، وهرب منه إلى تدمر، فلمّا كانت هذه السنة سأل أن يحضر إلى دمشق، وكان يخاف جماعة المماليك لأنّه كان أساء إليهم وعاملهم أقبح معاملة، فكلّهم عليه حنق، لا سيّما في الحادثة التي خرج فيها شمس الملوك، وقد تقدّمت، فإنّه أشار بقتل جماعة أبرياء وبقتل سونج بن تاج الملوك، فصاروا كلّهم أعداء مبغضين.

فلمّا طلب الآن الحضور إلى دمشق أجيب إلى ذلك، فأنكر جماعة الأمراء والمماليك قربه، وخافوه أن يفعل بهم مثل فعله الأوّل، فلم يزل يتوصّل معهم حتى حلف لهم واستحلفهم، وشرط على نفسه أنّه لا يتولّى من الأمور شيئاً.

ثمّ أنّه جعل يُدخل نفسَه في كثير من الأمور، فاتّفق أعداؤه على قتله، فبينما هو يسير مع شمس الملوك في الميدان وإلى جانبه أمير اسمه بزاوش يحادثه، إذ ضربه بزاوش بالسيف فقتله، فحُمل ودُفن عند تربة والده بالعقيبة[2].

ثمّ إنّ بزاوش[3] والمماليك خافوا شمس الملوك، فلم يدخلوا البلد، ونزلوا بظاهره، وأرسلوا يطلبون قواعد استطالوا فيها، فأجابهم إلى البعض، فلم يقبلوا منه؛ ثمّ ساروا إلى بعلبكّ، وبها شمس الدولة محمّد بن تاج الملوك صاحبها، فصاروا معه، فالتحق بهم كثير من التركمان وغيرهم، وشرعوا في العَيْث والفساد، واقتضت الحال مراسلتهم وملاطفتهم وإجابتهم إلى ما طلبوا، واستقرّت الحال على ذلك، وحلف كلّ منهم لصاحبه، فعادوا إلى ظاهر دمشق ولم يدخلوا البلد.

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٥٢، تاريخ ابن سباط ١/ ٦٢، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٥٨، ١٥٩.

(٢) ذيل تاريخ دمشق ٢٥٣، تاريخ الإسلام (٥٣٠ هـ.) ص٦١، ٦٢.

(٣) يرد «بزاوش» و«بزواش» و«بزواج».

وخرج شهاب الدين، صاحب دمشق، إليهم واجتمع بهم وتجدّدت الأيمان، وصار بزاوش مقدّم العسكر وإليه الحلّ والعقد. وذلك في شعبان، وزال الخلف، ودخلوا البلد، واللّه أعلم[(١)].

ذكر غزاة العسكر الأتابكيّ لبلاد الفرنج

في هذه السنة، في شعبان، اجتمعت عساكر أتابك زنكي، صاحب حلب وحماة، مع الأمير أسوار[(٢)] نائبه بحلب، وقصدوا بلد الفرنج على حين غفلة منهم، وقصدوا أعمال اللاذقيّة بغتة، ولم يتمكّن أهلها من الانتقال عنها والاحتراز، فنهبوا منها ما يزيد عن[(٣)] الوصف، وقتلوا وأسروا، وفعلوا في بلد الفرنج ما لم يفعله بهم غيرهم.

وكان الأسرى سبعة آلاف أسير ما بين رجل وامرأة وصبيّ، ومائة ألف رأس من الدوابّ ما بين فرس وبغل وحمار وبقر وغنم، وأمّا ما سوى ذلك من الأقمشة والعَين والحُليّ فيخرج عن الحدّ، وأخربوا بلد اللاذقيّة وما جاورها، ولم يسلم منها إلاّ القليل، وخرجوا إلى شَيزر بما معهم من الغنائم سالمين، منتصف رجب، فامتلأ الشام من الأسارى والدوابّ، (وفرح المسلمون بذلك فرحاً عظيماً)[(٤)]، ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة، عجْزاً ووهناً[(٥)].

ذكر وصول السلطان مسعود إلى العراق وتفرّق أصحاب الأطراف ومسير الراشد باللّه إلى الموصل وخلعه

لما بلغ السلطانَ مسعوداً[(٦)] اجتماعُ الملوك والأمراء، ببغداد، على خلافه،

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٥٥، تاريخ الإسلام (٥٣٠ هـ.) ص٦٢.

(٢) في (أ): «مع الأسوار».

(٣) في (أ): «على».

(٤) من (أ).

(٥) زبدة الحلب/ ٢٦٠، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١١، دول الإسلام ٢/ ٥٢، العبر ٤/ ٨١، تاريخ الإسلام (٥٣٠ هـ.) ص ٦٢، تاريخ ابن الوردي ١٢/ ٣٠٧، الكواكب الدرية ١٠٦، تاريخ ابن سباط ١/ ٦٢، شذرات الذهب ٤/ ٩٤.

(٦) في الأوربية: «مسعود».

والخطبة للملك داود ابن أخيه السلطان محمود، جمع العساكر وسار إلى بغداد، فنزل بالمالكيّة[١]، فسار بعض العسكر حتى شارفوا عسكره وطاردوهم، وكان في الجماعة زين الدين عليّ أمير من أمراء أتابك زنكي، ثمّ عادوا، ووصل السلطان فنزل على بغداد وحصرها وجميع العساكر فيها.

وثار العيّارون ببغداد وسائر محالّها، وأفسدوا ونهبوا، وقتلوا حتى إنّه وصل صاحبٌ لأتابك زنكي ومعه كتبٌ، فخرجوا عليه وأخذوها منه وقتلوه، فحضر جماعة من أهل المحالّ عند الأتابك زنكي، وأشاروا عليه بنهب المحالّ الغربيّة، فليس فيها غير عيّار ومُفسد، فامتنع من ذلك، ثمّ أرسل بنهب الحريم الطاهريّ فأُخذ منه[٢] من الأموال الشيء الكثير؛ وسبب ذلك أنّ العيّارين [كثروا] فيه وأخذوا أموال النّاس. ونهبت العساكر غير الحريم من المحالّ، وحصرهم السلطان نيّفاً وخمسين يوماً فلم يظفر بهم، فعاد إلى النهروان عازماً على العَود إلى هَمَذان، فوصله طرنطاي صاحب واسط ومعه سفن كثيرة، فعاد إليها وعبر فيها إلى غربيّ دجلة، وأراد العسكر البغداديّ منعه، فسبقهم إلى العبور، واختلفت كلمتهم، فعاد الملك داود إلى بلاده في ذي القعدة وتفرّق الأمراء.

وكان عماد الدين زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الخليفة الراشد بالله وسار معه إلى الموصل في نفر يسير من أصحابه، فلمّا سمع السلطان مسعود بمفارقة الخليفة وزنكي بغداد سار إليها، واستقرّ بها، ومنع أصحابه من الأذى والنهب. وكان وصوله منتصف ذي القعدة، فسكن النّاس واطمأنّوا بعد الخوف الشديد، وأمر فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرض[٣] عليهم اليمين التي حلف بها الراشد بالله لمسعود وفيها بخطّ يده: إنّي متى جنّدتُ أو خرجتُ أو لقيتُ أحداً من أصحاب السلطان بالسيف، فقد خلعتُ نفسي من الأمر؛ فأفتوا بخروجه من الخلافة، وقيل غير ذلك (وسنذكره في خلافة المقتفي لأمر الله)[٤].

وكان الوزير شرف الدين عليُّ بن طِراد وصاحب المخزن كمال الدين بن

---

(١) في الأوربية: «بالملكية».

(٢) في الأوربية: «منها».

(٣) في الأوربية: «وعرضوا».

(٤) من (أ).

البقشلاميّ وابنَ الأنباريّ قد حضروا مع السلطان لأنّهم كانوا عنده مُذ أسرهم مع المسترشد باللّه، فقدحوا في الراشد ووافقهم على ذلك جميع أصحاب المناصب ببغداد، إلاّ اليسير، لأنّهم كانوا يخافونه، وكان قد قبض بعضهم وصادر بعضاً، واتّفقوا على ذمّه، فتقدّم السلطان بخلعه، وإقامة مَن يصلح للخلافة، فخُلع وقُطعت خطبته في بغداد في ذي القعدة وسائر البلاد. وكانت خلافته أحد عشر شهراً وأحد عشر يوماً[1]، وقتله الباطنيّة على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر خلافة المقتفي لأمر اللّه

لما قُطعت خطبة الراشد باللّه استشار السلطانُ جماعةً من أعيان بغداد منهم الوزير عليٌّ بن طِراد، وصاحب المخزن، وغيرهما، فيمَن يصلُح أن يلي الخلافة. فقال الوزير: أحد عُمومة الراشد، وهو رجل صالح. قال: مَن هو؟ قال: مَن لا أقدر أن أُفصح باسمه لئلاّ يُقتل، فتقدّم إليهم بعمل محضر في خلع الراشد، فعملوا محضراً ذكروا فيه ما ارتكبه من أخذ الأموال وأشياء تقدح في الإمامة ثمّ كتبوا فتوى: ما يقول العلماء فيمَن هذه صفته، هل يصلح للإمامة أم لا؟ فأفتوا أن مَن هذه صفته لا يصلح أن يكون إماماً. فلمّا فرغوا من ذلك أحضروا القاضي أبا طاهر ابن الكرخيّ، فشهدوا عنده بذلك، فحكم بفسقه وخلعه، وحكم بعده غيره، ولم يكن قاضي القضاة حاضراً ليحكم، فإنّه كان عند أتابك زنكي بالموصل.

ثمّ إنّ شرف الدين الوزير ذكر للسلطان أبا عبد اللّه الحسين، وقيل محمّد بن المستظهر باللّه، ودينه، وعقله، وعفّته، ولين جانبه، فحضر السلطان دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبيُّ، وصاحب المخزن ابن البقشلاميّ وغيرهما، وأمر بإحضار الأمير أبي عبد اللّه بن المستظهر من المكان الذي يسكن فيه، فأُحضر وأُجلس في المثمنّة، ودخل السلطان إليه والوزير شرف الدين وتحالفا، وقرّر الوزير القواعد بينهما، وخرج السلطان من عنده وحض الأمراء وأرباب المناصب والقضاة والفقهاء وبايعوا ثامن عشر ذي الحجّة، ولُقّب المقتفي لأمر اللّه.

---

(١) المنتظم ١٠/٥٩ (١٧/٣١٢)، التاريخ الباهر ٥١ ـ ٥٣، زبدة التواريخ ١٢/٣٠٦، الروضتين ١/٨٠، العبر ٤/٨٠،٨١، تاريخ الإسلام (٥٣٠ هـ.) ص٦٠، تاريخ ابن الوردي ٢/٤٠، عيون التواريخ ١٢/٣٠٦، تاريخ الخلفاء ٣٤٦، المختصر في أخبار البشر ٣/١١، تاريخ ابن سباط ١/٦٣.

قيل سبب اللّقب أنّه رأى النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، قبل أن يلي الخلافة بستّة أيّام، وهو يقول له: إنّ هذا الأمر يصير إليك، فاقتفِ بي؛ فلُقّب بذلك. ولما استخلف سُيّرت الكتب الحكميّة بخلافته إلى سائر الأمصار واستوزر شرف الدين عليّ ابن طِراد الزينبيّ، فأُرسل إلى الموصل، وأحضر قاضي القضاة أبا القاسم عليّ بن الحسين الزينبيّ عمّ الوزير، وأعاده إلى منصبه، وقرّر كمال الدين حمزة بن طلحة على منصبه صاحب المخزن، وجرت الأمور على أحسن نظام.

وبلغني أنّ السلطان مسعوداً أرسل إلى الخليفة المقتفي لأمر اللّه في تقرير إقطاع يكون لخاصّته[١]، فكان جوابه: إنّ في الدار ثمانين بغلاً تنقل الماء من دجلة، فلينظر السلطان ما يحتاج إليه مَن يشرب هذا الماء ويقوم به؛ فتقرّرت القاعدة على أن يجعل له ما كان للمستظهر باللّه، فأجاب إلى ذلك.

وقال السلطان لما بلغه قوله: لقد جعلنا في الخلافة رجلاً عظيماً نسأل[٢].

والمقتفي عمّ الراشد هو والمسترشد ابنا المستظهر، وليا الخلافة، وكذلك السفّاح والمنصور أخوان، وكذلك المهدي والرشيد أخوان، وكذلك الواثق والمتوكّل أخوان؛ وأمّا ثلاثة إخوة ولوا الخلافة فالأمين والمأمون والمعتصم أولاد الرشيد، والمكتفي والمقتدر والقاهر بنو المعتضد، والراضي والمتّقي والمطيع بنو المتقدر، وأمّا أربعة إخوة ولوها فالوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك بن مروان لا يُعرف غيرهم[٣].

وحين استقرّت الخلافة للمقتفي أرسل إليه الراشد باللّه رسولاً من الموصل مع رسول أتابك زنكي، فأمّا رسول الراشد فلم تُسمع رسالته، وأمّا رسول أتابك زنكي

---

(١) في الأوربية: «الخاصّه».

(٢) المنتظم ١٠/ ٦٠ ـ٦٢ (١٧/ ٣١٤،٣١٥)، التاريخ الباهر ٥٣، ٥٤، زبدة التواريخ ٢١١، تاريخ دولة آل سلجوق ١٧٠٠، تاريخ الزمان ١٥٢، تاريخ مختصر الدول ٢٠٥، ٢٠٦، الفخري ٣٠٩، ٣١٠، مفرّج الكروب ١/ ٦٦ ـ ٧٠، العبر ٤/ ٨١، تاريخ الإسلام (٥٣٠ هـ.) ص٦٠، ٦١، الدّرة المضية ٥٢٢، الكواكب الدرية ١٠٥، تاريخ ابن سباط ١/ ٤٦.

(٣) المنتظم ١٠/ ٦٠ (١٧/ ٣١٣)، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١١، الكواكب الدرية ١٠٥، تاريخ ابن سباط ١/ ٦٤.

فكان كمال الدين محمّد بن عبد الله الشهرزوريّ، فأُحضر في الديوان وسُمعت رسالته، وحكى لي والدي عنه قال: لما حضرتُ الديوان قيل لي: تبايع أمير المؤمنين؟ فقلتُ: أمير المؤمنين عندنا في الموصل وله في أعناق الخلق بيعة متقدّمة. وطال الكلام وعُدتُ إلى منزلي.

فلمّا كان اللّيل جاءتْني امرأة عجوز سرّاً، واجتمعتْ بي وأبلغتني رسالة عن المقتفي لأمر الله مضمونها عتابي على ما قلتُه واستنزالي عنه. فقلتُ: غداً أخدم خدمة يظهر أثرها.

فلمّا كان [الغد] أُحضِرتُ الديوان وقيل لي في معنى البيعة، فقلتُ: أنا رجل فقيه قاضٍ[1]، ولا يجوز لي أن أبايع إلاّ بعد أن يثبت عندي خلع المتقدّم. فأحضروا الشهود وشهدوا عندي في الديوان بما أوجب خلعه، فقلتُ: هذا ثابت لا كلام فيه، ولكن لا بدّ لنا في هذه الدعوة من نصيب، لأنّ أمير المؤمنين قد حصل له خلافةُ الله في أرضه، والسلطان، فقد استراح ممّن كان يقصده، ونحن بأي شيء نعود؟ فرُفع الأمر إلى الخليفة، فأمر أن يعطى أتابك زنكي صريفين ودرب هرون وحربى مُلكاً، وهي من خاصّ الخليفة، ويزاد في ألقابه، وقال: هذه قاعدة لم يُسمح بها لأحد من زعماء الأطراف أن يكون لهم نصيبٌ في خاصّ الخليفة.

فبايعتُ وعدتُ مقضيّ الحوائج قد حصل لي جملة صالحة من المال والتُحف. وكانت بيعة وخطب للمقتفي في الموصل في رجب سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، ولما عاد كمال الدين بن الشهرزوريّ سُيّر على يده المحضر الذي عُمل بخلع الراشد، فحكم به قاضي القضاة الزينبيُّ بالموصل، (وكان عند أتابك زنكي)[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عزل السلطان مسعود وزيرَه شرف الدين أنوشروان بن خالد وعاد إلى بغداد، وأقام بداره معزولاً، ووزر بعده كمال الدين أبو البركات ابن سلمة الدركزينيّ، وهو من خُراسان.

---

(١) في الأوربية: «قاضي».
(٢) من (أ).

وفيها ثار العيّارون ببغداد عند اجتماع العساكر بها، وقتلوا في البلد ونهبوا الأموال ظاهراً وكَثُر الشرّ، فقصد الشِحنة شارع دار الرقيق، وطلب العيّارين، فثار عليه أهل المحالّ الغربيّة، فقاتلهم، وأحرق الشارع، فاحترق فيه خلق كثير، ونقل النّاس أموالهم إلى الحريم الطاهريّ، فدخله الشِحنة، ونهب منه مالاً كثيراً[1].

ثمّ وقعت الفتنة ببغداد بين أهل باب الأزج وبين أهل المأمونيّة، وقُتل بينهم جماعة، ثمّ اصطلحوا.

وفيها سار قراسنقُر في عساكر كثيرة في طلب الملك داود ابن السلطان محمود، فأقام السلطان مسعود ببغداد، ولم يزل قراسنقر يطلب داود حتى أدركه عند مراغة، فالتقيا وتصافّا، واقتتل العسكران قتالاً عظيماً، فانهزم داود، وأقام قراسنقُر بأذربيجان، وأمّا داود فإنّه قصد خُوزستان فاجتمع عليه هناك عساكر كثيرة من التركمان وغيرهم، وبلغت عدّتهم نحو عشرة آلاف فارس، فقصد تُستَر وحاصرها، وكان عمّه (الملك)[2] سلجوقشاه ابن السلطان محمّد بواسط، فأرسل إلى أخيه السلطان مسعود يستنجده، فأمدّه بالعساكر، فسار إلى داود وهو يحاصر تُسْتر، فتصافّا، فانهزم سلجوقشاه[3].

[الوفيات]

وفيها توفّي محمّد بن حَمُّوَيَة[4] أبو عبد اللّه الجُوَيْنيُّ، وهو من مشايخ الصوفيّة المشهورين، وله كرامات كثيرة ورواية الحديث.

وتوفّي أيضاً محمّد بن عبد الله بن أحمد بن حبيب العامريُّ[5] الصوفيُّ مصنّف «شرح الشهاب»، وأنشد لما حضره الموت:

---

(١) أنظر: المنتظم ١٠/٥٨ (١٧/٣١٠).

(٢) من (أ).

(٣) أنظر: تاريخ دولة آل سلجوق ١٧٠.

(٤) في طبعة صادر ١١/٤٦ «حموية»، والتصحيح من: المنتظم ١٠/٦٣، ٦٤ رقم ٧٧ (١٧/٣١٧ رقم ٤٠١٦)، والبداية والنهاية ١٢/٢١١، وشذرات الذهب ٤/٩٥.

(٥) أنظر عن (ابن حبيب العامري) في: تاريخ الإسلام (٥٣٠ هـ.) ص١٨٦، ١٨٧ رقم ١٥٧ وفيه مصادر ترجمته.

هـا قَـد مَـددتُ[1] يَـدي إليـكَ فـرُدّهـا   بـالفَضْـلِ لا بشمـاتَـةِ الأعْـداء

وتوفّي أيضاً أبو عبد الله محمّد بن الفضل بن أحمد الفُرَاوي[2] الصاعديّ راوي «صحيح مُسلم» عن عبد الغافر الفارسيّ، وطريقه اليوم أعلى الطُّرق، وإليه الرحلة من الشرق والغرب، وكان فقيهاً مناظراً ظريفاً يخدم الغرباء بنفسه، وكان يقال: الفُرَاوي ألف راوٍ، رحمه الله ورضي عنه.

---

(١) في تاريخ الإسلام: «بسطت».

(٢) أنظر عن (الفُراوي) في: المنتظم ١٠/ ٦٥، ٦٦ رقم ٧٦ (١٧/ ٣١٨، ٣١٩ رقم ٤٠٢٠)، البداية والنهاية ١٢/ ٢١١، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٦٠، ١٦١.

(٥٣١)
ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة

ذكر تفرّق العساكر عن السلطان مسعود

في هذه السنة، في المحرّم، أذِن السلطان مسعود للعساكر التي عنده ببغداد بالعَود إلى بلادهم، لما بلغه أنّ الراشد بالله قد فارق أتابك زنكي من الموصل، فإنّه كان يتمسّك بالعساكر عنده خوفاً أن ينحدر به إلى العراق فيملكه عليه، فلمّا أراد أن يأذن للأمير صدقة بن دُبيس، صاحب الحِلّة، زوّجه ابنتَه تمسّكاً به.

وقدِم على السلطان مسعود جماعة من الأمراء الذين حاربوه مع الملك داود منهم البقش السلاحي، وبرسق بن برسق صاحب تُستر، وسُنقر الخُمارتِكين شِحنة هَمَذَان، فرضي عنهم، وأمّنهم، وولى البقش شِحنكيّة بغداد، فعسَف النّاس وظَلَمهم.

وكان السلطان مسعود بعد تفرُّق العساكر عنه قد بقي معه ألف فارس[١]. وتزوّج الخليفة فاطمة خاتون أخت السلطان مسعود في رجب، والصداق مائة ألف دينار، وكان الوكيل في قبول النكاح وزير الخليفة عليّ بن طِراد الزينبيّ، والوكيل عن السلطان وزيره الكمال الدركزينيّ، ووثّق السلطان حيث صار الخليفة وصدقة بن دُبيس بن صدقة صهريه، وحيث سار الراشد بالله من عند زنكي الأتابك[٢]، والله أعلم.

ذكر عزل بهرام عن وزارة الحافظ ووزارة رضوان

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، هرب تاج الدولة بهرام وزير الحافظ لدين

---

(١) أنظر: المنتظم ١٠/٦٧ (١٧/٣٢١، ٣٢٢).

(٢) المنتظم ١٠/٦٧ (١٧/٣٢١)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/١٦١، دول الإسلام ٢/٥٣، تاريخ الإسلام (٥٣١ هـ) ص٢٠٠، البداية والنهاية ١٢/٢١١، الكواكب الدرية ١٠٧، تاريخ الخميس ٢/٤٠٥.

اللّه العلويّ صاحب مصر، وكان قد استوزره بعد قتل ابنه حسن سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وكان نصرانيّاً أرمنيّاً، فتمكّن في البلاد واستعمل الأرمن وعزل المسلمين، وأساء السيرة فيهم وأهانهم هو والأرمن الذين ولاّهم وطمعوا فيهم، فلم يكن في أهل مصر مَن أنِف من ذلك إلاّ رضوان بن الريحينيّ[1]، فإنّه لما ساءه ذلك وأقلقه جمع جمعاً كثيراً وقصد القاهرة، فسمع به بهرام، فهرب إلى الصعيد من غير حرب ولا قتال، وقصد مدينة أسوان فمنعه واليها من الدخول إليها وقاتله، فقتل السودان من الأرمن كثيراً؛ فلمّا لم يقدر على الدخول إلى أسوان أرسل [إلى] الحافظ يطلب الأمان، فأمّنه، فعاد إلى القاهرة، فسُجن بالقصر، فبقي مدّة، ثمّ ترهّب وخرج من الحبس.

وأمّا رضوان فإنّه وزر للحافظ ولُقّب بالملك الأفضل، وهو أوّل وزير للمصريّين لُقّب بالملك، ثمّ فسد ما بينه وبين الحافظ فعمل الحافظ في إخراجه، فثار النّاس عليه منتصف شوّال سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة، وهرب من داره وتركها بما فيها، فنهب النّاس (منها)[2] ما لا يُحدّ ولا يُحصى، وركب الحافظ فسكّن النّاس، ونقل ما بقي في دار رضوان إلى قصره[3].

وأمّا رضوان فإنّه سار يريد الشام يستنجد الأتراك ويستنصرهم، فأرسل إليه الحافظ الأميرَ ابن مَصّال ليردّه بالأمان والعهد أنّه لا يؤذيه، فرجع إلى القاهرة، فحبسه الحافظ عنده في القصر، وقيل إنّه توجّه إلى الشام، وهو الصحيح، وقصد صَرخد فوصل إليها في ذي القعدة ونزل على صاحبها أمين الدولة[4] كمشتكين، فأكرمه وعظّمه، وأقام عنده[5].

ثمّ عاد إلى مصر سنة أربعٍ وثلاثين وخمسمائة، ومعه عسكر، فقاتل المصريّين عند باب النصر وهزمهم، وقتل منهم جماعة كثيرة، وأقام ثلاثة أيّام، فتفرّق عنه كثير

---

(١) في (أ): «بن الولحي»، وفي (ب): «الولحشي»، وفي الهامش «الزنجي صح».
(٢) من (أ).
(٣) المختصر في أخبار البشر ٣/ ١١، ١٢، أخبار الدول المنقطعة ٩٧، إتعاظ الحنفا ٣/ ١٥٥ ـ ١٦٢ (٥٢٩ ـ ٥٣١ هـ).
(٤) في (أ): «أمين الدين».
(٥) إتعاظ الحنفا ٣/ ١٧١، ١٧٢، أخبار الدول المنقطعة ٩٩، أخبار مصر لابن ميسّر ٢/ ٨٣.

ممّن معه، فعزم على العَود إلى الشام، فأرسل إليه الحافظ الأمير ابن مَصّال، فردّه وحبسه عنده في القصر، وجمع بينه وبين عياله[١]، فأقام في القصر إلى سنة ثلاثٍ وأربعين [وخمسمائة]، فنقب الحبس وخرج منه، وقد أُعدّت له خيل، فهرب عليها، وعبر النيل إلى الجيزة فحشد وجمع المغاربة وغيرهم، وعاد إلى القاهرة، فقاتل المصريّين عند جامع ابن طولون وهزمهم، ودخل إلى القاهرة فنزل عند جامع الأقمر، فأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالاً ليفرّقه على عادتهم، فإنّهم كانوا إذا وزّروا وزيراً أرسلوا إليه عشرين ألف دينار ليفرّقها، فأرسل إليه الحافظ عشرين ألف دينار، فقسّمها، وكثُر عليه النّاس، وطلب زيادة، فأرسل إليه عشرين ألف دينار أُخرى، ففرّقها، فتفرّق النّاس عنه وخفّوا عنده، فإذا الصوت قد وقع، وخرج إليه جمْع كثير من السودان وضعهم الحافظ عليه، فحملوا على غلمانه فقاتلوهم، فقام يركب، فقدّم إليه بعض أصحابه فَرَساً ليركبه، فلمّا أراد ركوبه ضرب الرجل رأسه بالسيف فقتله، وحمل رأسَه إلى الحافظ، فأرسله إلى زوجته، فوُضع في حِجْرها، فألْقته وقالت: هكذا يكون الرجال؛ ولم يستوزر الحافظ بعده أحداً، وباشر الأمور بنفسه إلى أن مات[٢].

ذكر فتح المسلمين حصن وادي ابن الأحمر من الفرنج

وفي هذه السنة، في رجب، سار عسكر دمشق مع مقدّمهم الأمير بزاوش[٣] إلى طرابلس الشام، فاجتمع معه من الغزاة المتطوّعة والتركمان أيضاً خلق كثير، فلمّا سمع القمّص صاحبها بقربهم من ولايته سار إليهم في جموعه وحشوده، فقاتلهم وانهزم الفرنج وعادوا إلى طرابلس على صورة سيئة قد قُتل كثير من فرسانهم وشجعانهم، فنهب المسلمون من أعمالهم الكثير[٤]، وحصروا حصن وادي ابن الأحمر فملكوه

---

(١) إتعاظ الحنفا ٣/ ١٧٣ (٥٣٤ هـ.)، أخبار الدول المنقطعة ٩٩.

(٢) أخبار الدول المنقطعة ٩٩، إتعاظ الحنفا ٣/ ١٨٢ ـ١٨٤، أخبار مصر لابن ميسّر ٢/ ٨٣، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٠٤، ٣٠٥، الدرة المضية ٥٢١ (حوادث ٥٣٠ هـ.)، تاريخ الإسلام (٥٤٣ هـ.) ص١٤، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٨١.

(٣) وهو «بزواش» أو «بزواج».

(٤) ذيل تاريخ دمشق ٢٥٨، تاريخ سلاطين المماليك ٢٤٨، العبر ٤/ ٨٤، تاريخ الإسلام (٥٣١ هـ.) ص٢٠٣، المختار من تاريخ ابن الجزري ٤٥٠، تاريخ ابن الفرات ٨/ ٧٩، صبح الأعشى =

عَنْوة ونهبوا ما فيه، وقتلوا المقاتلة، وسبوا الحريم والذرّيّة، وأسروا الرجال فاشتروا أنفسهم بمالٍ جليل، وعادوا إلى دمشق سالمين[1]، والله أعلم.

ذكر حصار زنكي مدينة حمص

في هذه السنة، في شعبان، سار أتابك زنكي إلى مدينة حمص، وقدَّم إليها صلاح الدين محمّد الياغيسيانيّ، وهو أكبر أمير معه، وكان ذا مكرٍ وحِيَل، أرسله ليتوصّل مع مَن فيها ليسلّموها إليه، فوصل إليها وفيها معين الدين أنَز[2]، وهو الوالي عليها والحاكم فيها، وهو أيضاً أكبر أمير بدمشق وحمص أقطاعه كما سبق ذكره، فلم ينفذ فيه مكره، فوصل حينئذٍ زنكي إليها وحصرها وعاود مراسلة أنز في التسليم غير مرّة، تارةً بالوعد وتارة بالوعيد واحتجّ بأنّها مُلك صاحبه شهاب الدين، وأنّها بيده أمانة ولا يسلّمها إلاّ عن غَلَبَة، فأقام عليها إلى العشرين من شوّال، ورحل عنها من غير بلوغ غرض إلى بَعرين (فحصرها)[3]، وكان منه ومن الفرنج ما نذكره إن شاء الله تعالى[4].

ذكر مُلك زنكي قلعة بَعرين وهزيمة الفرنج

وفي هذه السنة، في شوّال، سار أتابك زنكي من الموصل إلى الشام وحصر[5] قلعة بَعرين، وهي تُقارب مدينة حماة، وهي من أمنع معاقل الفرنج وأحصنها، فلمّا نزل عليها قاتلها، وزحف إليها، فجمع الفرنج فارسهم وراجلهم، وساروا في قَضّهم وقضيضهم، وملوكهم وقمامصتهم وكنودهم، إلى أتابك زنكي ليرحّلوه عن بعرين، فلم يرحل وصبر لهم إلى أن وصلوا إليه، فلقِيهم وقاتلهم أشدّ قتال رآه النّاس، وصبر

= ٦/٤٤٩ ـ ٤٥١ وقد قُتل في هذا الهجوم كونت طرابلس بونز، ولم يذكر ابن القلانسي ذلك، ولكن القلقشندي يؤكده في (صبح الأعشى)، وكذلك ابن الجزري في المختار من تاريخه، ووليم الصوري في كتابه (تاريخ ما جرى من الأمور وراء البحار). أنظر دراستنا حول هذا الموضوع في كتابنا: تاريخ طرابلس ١/٤٩٦ ـ ٤٩٨.

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٥٨.

(٢) في (أ) و(ب): «أنر».

(٣) من (أ).

(٤) المختصر في أخبار البشر ٢/١٢، ذيل تاريخ دمشق ٢٥٨.

(٥) في (ب): «ثم انتقل عنها وحصر».

الفريقان ثمّ أَجْلَت الوقعة عن هزيمة الفرنج، وأخذتهم سيوف المسلمين من كلّ جانب، واحتمى ملوكهم وفرسانهم بحصن بعرين لقُربه منهم، فحصرهم زنكي فيه، ومنع عنهم كلّ شيء حتى الأخبار، فكان مَن به منهم لا يعلم شيئاً من أخبار بلادهم لشدّة ضبط الطرق وهيبته على جُنده.

ثمّ إنّ القسوس والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما والاها مستنفرين[1] على المسلمين، وأعلموهم أنّ زنكي إنّ أخذ قلعة بعرين ومَن فيها من الفرنج ملك جميع بلادهم في أسرع وقت، وأنّ المسلمين ليس لهم همّة إلاّ قصْد البيت المقدّس، فحينئذٍ اجتمعت النصرانيّة وساروا على الصعب والذَّلُول، وقصدوا الشام، وكان منهم ما نذكره.

وأمّا زنكي فإنّه جَدّ في قتال الفرنج، فصبروا وقلّت عليهم الذخيرة، فإنّهم كانوا غير مستعدّين، ولم يكونوا يعتقدون[2] أنّ أحداً يقدم عليهم، بل كانوا يتوقّعون مُلك باقي الشام، فلمّا قلّت الذخيرة أكلوا دوابّهم، وأذعنوا بالتسليم ليؤمنّهم، ويتركهم يعودون إلى بلادهم، فلم يُجِبهم إلى ذلك، فلمّا سمع باجتماع من بقي من الفرنج، ووصول من قرُب إليهم أعطى لمن في الصحن الأمان، وقرّر عليهم خمسين ألف دينار يحملونها إليه، فأجابوه إلى ذلك، فأطلقهم فخرجوا وسلّموا إليه، فلمّا فارقوه بلغهم اجتماع مَن اجتمع بسببهم، فندموا على التسليم حيث لا ينفعهم الندم، وكان لا يصلهم شيء من الأخبار البتّة، فلهذا سلّموا.

وكان زنكي في مدّة مُقامه عليهم قد فتح المعرّة وكفرطاب من الفرنج فكان أهلهما وأهل سائر الولايات التي بين حلب وحماة مع أهل بعرين في الخزْي، لأنّ الحرب بينهم قائمة على ساق، والنهب والقتل لا يزال بينهم، فلمّا ملكها أمِن النّاس، وعمرت البلاد وعظُم دْخلها، وكان فتحاً مبيناً، ومَن رآه علم صحّة قولي.

ومن أحسن الأعمال وأعدلها ما عمله زنكي مع أهل المعرّة، فإنّ الفرنج لما ملكوا المعرّة كانوا قد أخذوا أموالهم وأملاكهم، فلمّا فتحها زنكي الآن حضر مَن بقي من[3] أهلها ومعهم أعقاب مَن هلك، وطلبوا أملاكهم، فطلب منهم كتبها، فقالوا: إنّ

---

(١) في (أ): «ليستنفرونهم»، وفي (ب): «يستنفرونهم».
(٢) في الأوربية: «يعتقدوا».
(٣) في (ب): «من بقي من أعقاب».

الفرنج أخذوا كلّ ما لنا، والكتب التي للأملاك فيها. فقال: اطلبوا دفاتر[1] حلب وكلّ مَن عليه خراج على ملك يسلّم إليه؛ ففعلوا ذاك، وأعاد على النّاس أملاكهم، وهذا من أحسن[2] الأفعال وأعدها[3].

ذكر خروج ملك الروم من بلاده إلى الشام

قد تقدّم أنّ الفرنج أرسلوا إلى ملك القُسطنطينية يستصرخون به ويعرّفونه ما فعله زنكي فيهم، ويحثّونه على لحاق البلاد قبل أن تُملك، ولا ينفعه حينئذٍ المجيء، فتجهزّ وسار مُجِدّاً فابتدأ وركب البحر وسار إلى مدينة أنطاليّة[4]، وهي له على ساحل البحر، فأرسَى فيها، وأقام ينتظر وصول المراكب التي فيها أثقاله وسلاحه، فلمّا وصلت سار عنها إلى مدينة نيقية وحصرها، فصالحه أهلها على مالٍ يُؤدّونه إليه.

وقيل: بل ملكها وسار عنها إلى مدينة أَذَنَة، ومدينة المصّيصة، وهما بيد ابن ليون الأرمنيّ، صاحب قلاع الدروب، فحصرهما وملكهما.

ورحل إلى حين زَربة فملكها عَنْوةً، وملك تلّ حمدون، وحمل أهله إلى جزيرة قبرس، وعبر ميناء الإسكندرونة، ثم خرج إلى الشام فحصر مدينة أنطاكية في ذي القعدة، وضيّق على أهلها، وبها صاحبها الفرنجيّ ريمُنْد، فتردّدت الرسل بينهما، فتصالحا ورحل عنها إلى بغْراص[5]، ودخل منها بلد ابن ليون الأرمنيّ، فبذل له ابن ليون أموالاً كثيرةً ودخل في طاعته، واللّه أعلم[6].

---

(١) في (ب): «دفاتر ديوان».

(٢) في (ب): «أحسن ما يدون عن ملك».

(٣) تاريخ حلب للعظيمي ٣٨٨، ذيل تاريخ دمشق ٢٥٩، زبدة الحلب ٢/ ٢٦١، نهاية الأرب ٢٧/ ١٣٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٢، الدّرة المضية ٥٢٥، ٥٢٦، العبر ٤/ ٨٤، تاريخ الإسلام (٥٣١ هـ.) ص٢٠٣، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤١، تاريخ ابن سباط ١/ ٦٦.

(٤) في الأوربية: «أنطاكية» وهو تحريف.

(٥) بغراص = بغراس.

(٦) تاريخ حلب ٣٨٨ (٥٠)، ذيل تاريخ دمشق ٢٥٨، تاريخ الزمان ١٥٣، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٢، الدّرة المضيّة ٥٢٥، تاريخ الإسلام (٥٣١ هـ.) ص ٢٠٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤١، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٢.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في الرابع والعشرين من أيار، ظهر بالشام سحاب أسود أظلمت له الدنيا، وصار الجوّ كاللّيل المظلم، ثمّ طلع بعد ذلك سحاب أحمر كأنّه نار أضاءت له الدنيا، وهبّت ريح عاصف ألقت كثيراً من الشجر، وكان أشدّ ذلك بحوران، ودمشق، وجاء بعده مطر شديد وبَرَد كبار.

وفيها عاد مؤيّد الدين أبو الفوارس المسيّب بن عليّ بن الحسين المعروف بابن الصوفي من صَرْخَد إلى دمشق. وكان قد أُخرج هو وأهله من دمشق إلى صرخد، فبقوا فيها إلى الآن، وعادوا، وولي أبو الفوارس الرئاسة بدمشق، وكان محبوباً عند أهلها، وتمكّن تمكُّناً عظيماً، وكان ذا رئاسة عظيمة ومروءة ظاهرة[1].

وفيها كثرت الأمراض ببغداد[2]، وكثُر الموت فجأة بأصفهان وهَمَذان.

وفيها سار أتابك زنكي إلى دقُوقا فحصرها وملكها بعد أن قاتل على قلعتها قتالاً شديداً.

[الوفيات]

وفيها توفّي أبو سعيد أحمد بن محمّد بن ثابت الخُجَنْديّ[3] رئيس الشافعيّة بأصفهان، وتفقّه على والده، ودرّس بالنظاميّة بأصفهان.

وتوفّي أبو القاسم هبة اللّه بن أحمد بن عمر الحريري[4]، ومولده يوم عاشوراء سنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة، وهو آخر مَن روى عن أبي الحسن زوج الحرّة. وقد روى الخطيب أبو بكر بن ثابت عن زوج الحرّة أيضاً، وكانت وفاة الخطيب سنة ثلاثٍ وستّين وأربعمائة.

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) المنتظم ١٠/٦٨ (١٧/٣٢٣).

(٣) أنظر عن (الخجندي) في: تاريخ الإسلام (٥٣١ هـ.) ص٢٣٢، ٢٣٣ رقم ٧ وفيه مصادر ترجمته.

(٤) أنظر عن (الحريري) في: تاريخ الإسلام (٥٣١ هـ.) ص ٢٥٨ ـ ٢٦٠ رقم ٥٢ وفيه مصادر ترجمته.

(٥٣٢)
ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة

ذكر مُلك أتابك زنكي حمص وغيرها من أعمال دمشق

وفي هذه السنة، في المحرّم، وصل أتابك زنكي إلى حماة، وسار منها إلى بقاع بعلبكّ، فملك حصن المجدل، وكان لصاحب دمشق، وراسله مستحفظ بانياس وأطاعه، وهو أيضاً لصاحب دمشق، وسار إلى حمص فحصرها، وأدام قتالها؛ فلمّا نازل ملك الروم حلب رحل عنها إلى سلميّة، فلمّا انجلت حادثة الروم، على ما ذكرناه، عاود منازلة حمص، وأرسل إلى شهاب الدين صاحب دمشق يخطب إليه أُمّه ليتزوّجها، واسمها زُمُرّد خاتون، ابنة جاولي، وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك، وهي التي بنت المدرسة بظاهر دمشق المُطِلّة على وادي شقرا ونهر بردى، فتزوّجها، وتسلّم حمص مع قلعتها.

وحُملت الخاتون إليه في رمضان، وإنّما حمله على التزوج[١] بها ما رأى من تحكُّمها في دمشق فظنّ أنّه يملك البلد بالاتّصال بها، فلمّا تزوّجها خاب أمله ولم يحصل على شيء فأعرض عنها[٢].

ذكر وصول ملك الروم إلى الشام ومُلكه بُزاعة وما فعله بالمسلمين

قد ذكرنا سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة خروج ملك الروم من بلاده، واشتغاله

---

(١) في الأوربية: «التزويج».

(٢) ذيل تاريخ دمشق ٢٦٣، تاريخ حلب ٣٨٨، زبدة الحلب ٢/٢٦٣، ٢٦٤، نهاية الأرب ٢٧/١٣٣، المختصر في أخبار البشر ٣/١٢، الدرة المضية ٥٢٦، تاريخ الإسلام (٥٣٢ هـ.) ص ٦٧، الكواكب الدرّية ١٠٨.

بالفرنج وابن ليون، فلمّا دخلت هذه السنة وصل إلى الشام، وخافه النّاس خوفاً عظيماً، وقصد بُزاعة فحصرها، وهي مدينة لطيفة على ستّة فراسخ من حلب، فمضى جماعة من أعيان حلب إلى أتابك زنكي وهو يحاصر حمص، فاستغاثوا به واستنصروه، فسيّر معهم كثيراً من العساكر، فدخلوا إلى حلب ليمنعوها من الروم إن حصروها.

ثمّ إنّ ملك الروم قاتل بُزاعة، ونصب عليها منجنيقات، وضيّق على مَن بها فملكها بالأمان في الخامس والعشرين من رجب، ثمّ غدر بأهلها فقتل منهم وأسر وسبَى. وكان عدّة مَن جُرح فيها من أهلها خمسة آلاف وثمانمائة نفس، وتنصّر قاضيها وجماعة من أعيانها نحو أربع مائة نفْس.

وأقام الروم بعد مُلكها عشرة أيّام يتطلّبون مَن اختفى، فقيل لهم: إنّ جمعاً كثيراً من أهل هذه الناحية قد[1] نزلوا إلى المغارات، فدخّنوا عليهم، وهلكوا في المغاور[2].

ثمّ رحلوا إلى حلب فنزلوا على قُويَق ومعهم الفرنج الذين بساحل الشام، وزحفوا إلى حلب من الغد في خيلهم ورَجْلهم، فخرج إليهم أحداث حلب، فقاتلوهم[3] قتالاً شديداً، فقُتل من الروم وجُرح خلق كثير، وقُتل بطريقٌ جليل القدر عندهم، وعادوا خاسرين، وأقاموا ثلاثة أيّام، فلم يروا فيها طمعاً، فرحلوا إلى قلعة الأثارب، فخاف مَن فيها من المسلمين، فهربوا عنها تاسع شعبان، فملكها الروم، وتركوا فيها سبايا بُزاعة والأسرى، ومعهم جمْع من الروم يحفظونهم ويحمون القلعة وساروا، فلمّا سمع الأمير أسوار بحلب ذلك رحل فيمن عنده من العسكر إلى الأثارب، فأوقع بمن فيها من الروم، فقتلهم، وخلّص الأسرى والسبْي، وعاد إلى حلب.

وأمّا عماد الدين زنكي فإنّه فارق حمص وسار إلى سَلَميّة فنازلها، وعبر ثَقَله الفرات[4] إلى الرَّقَة، وأقام جريدةً ليتبع الروم ويقطع عنهم الميرة.

---

(١) في (أ): «من أهلها قد».
(٢) في الأوربية: «المغائر».
(٣) في الأوربية: «فقاتلهم».
(٤) في الأوربية: «الفراة».

وأمّا الروم فإنّهم قصدوا قلعة شَيزر، فإنّها من أمنع الحصون، وإنّما قصدوها لأنّها لم تكن لزنكي، فلا يكون له في حفظها الاهتمام العظيم، وإنّما كانت للأمير أبي العساكر سلطان بن عليّ بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانيّ، فنازلوها وحصروها، ونصبوا عليها ثمانية عشر منجنيقاً، فأرسل صاحبها إلى زنكي يستنجده، فسار إليه فنزل على نهر العاصي بالقرب منها، بينها وبين حماة، وكان يركب كلّ يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره، ويقفون بحيث يراهم الروم، ويُرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم.

ثمّ إنّه أرسل إلى ملك الروم يقول له: إنكم قد تحصّنتم مني بهذه الجبال، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإنْ ظفرتُ بكم أرَحْتُ المسلمين منكم، وإنْ ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها. ولم يكن له بهم قوّة، وإنّما كان يُرهبهم بهذا القول وأشباهه، فأشار فرنج الشام على ملك الروم بمصافّته، وهوّنوا أمره عليه، فلم يفعل، وقال: أتظنّون أنّه ليس له من العسكر إلاّ ما ترون؟ إنّما هو يريد أن تلقوه[1] فيجيئه من نجدات المسلمين ما لا حدّ له.

وكان زنكي يرسل أيضاً إلى ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلّوا عنه، ويرسل إلى فرنج الشام يخوّفهم من ملك الروم ويقول لهم: إنْ ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً؛ فاستشعر كلٌّ من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مُقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فسار أتابك [زنكي] يتبع ساقة العسكر، فظفر بكثير ممّن تخلّف منهم، وأخذ جميع ما تركوه.

ولما كان الفرنج على بُزاعة أرسل زنكي القاضي كمال الدين أبا الفضل محمّد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى السلطان مسعود يستنجده، ويطلب العساكر، فمضى إلى بغداد، وأنهى الحال إلى السلطان، وعرّفه عاقبة الإهمال، وأنّه ليس بينه وبين الروم إلاّ أن يملكوا حلب وينحدروا مع الفرات[2] إلى بغداد، فلم يجد عنده حركة، فوضع إنساناً من أصحابه، يوم جمعة، فمضى إلى جامع القصر، ومعه جماعة من رنود العجم، وأمر أن يثور بهم إذا صعِد الخطيب المبر، ويصيح ويصيحوا معه:

---

(١) في الأوربية: «تلقونه».
(٢) في الأوربية: «الفراة».

وا إسلاماه، وا دين محمّداه! ويشقّ ثيابه، ويرمي عمامته من رأسه، ويخرج إلى دار السلطان والنّاس معه يستغيثون كذلك؛ ووضع إنساناً آخر يفعل بجامع السلطان مثله.

فلمّا صعد الخطيب المنبر قام ذلك الرجل ولطم رأسه، وألقى عمامته، وشقّ ثوبه، وأولئك معه، وصاحوا، فبكى النّاس وتركوا الصلاة، ولعنوا السلطان، وساروا من الجامع يتبعون الشيخ إلى دار السلطان، فوجدوا النّاس في جامع السلطان كذلك، وأحاط الناس بدار السلطان يستغيثون ويبكون، فخاف السلطان، فقال: أَحضِروا إليّ ابن الشهرزوري، فأُحضر، فقال كمال الدين: لقد خفتُ منه ممّا رأيتُ، فلمّا دخلتُ عليه قال لي: أيّ فتنة أثرتَ؟ فقلتُ: ما فعلتُ شيئاً. أنا كنتُ في بيتي، وإنّما النّاس يغارون للدين والإسلام، ويخافون عاقبة هذا التواني؛ فقال: اخرج إلى النّاس ففرّقهم عنّا، واحضر غداً، واختر من العسكر من تريد؛ ففرّقتُ النّاس، وعرّفتهم ما أمر به من تجهيز العساكر، وحضرتُ من الغد إلى الديوان، فجهّزوا لي طائفة عظيمة من الجيش، فأرسلتُ إلى نصير الدين بالموصل أعرّفه ذلك، وأخوّفه من العسكر إنْ طرقوا البلاد، فإنّهم يملكونها، فأعاد الجواب يقول: البلاد لا شكّ مأخوذة، فلأنْ يأخذها المسلمون خيرٌ من أن يأخذها الكافرون.

فشرعنا في التحميل للرحيل، وإذْ قد وصلني كتاب أتابك زنكي من الشام يخبر برحيل ملك الروم، ويأمرني بأن لا أستصحب من العسكر أحداً، فعرّفتُ السلطان ذلك فقال: العسكر قد تجهّز، ولا بدّ من الغزاة إلى الشام، فبعد الجهد وبذل الخدمة العظيمة له ولأصحابه أعاد العسكر.

ولما عاد ملك الروم عن شيزر مدح الشعراء أتابك زنكي وأكثروا، فمن ذلك ما قاله المسلم بن خضر بن قُسَيْم الحموي من قصيدة أوّلها:

بعَزْمِك[1] أيها المَلكُ العَظيمُ ... تذلُّ لكَ الصّعابُ وَتَستَقيمُ

ومنها:

ألم تَرَ أنّ كَلبَ الرّوم لَمّا ... تَبَيّنَ أنّهُ المَلِكُ الرّحيمُ
فجاء يُطَبّقُ الفَلَواتِ خَيلاً ... كأنّ الجَحْفلَ اللّيلُ البهيمُ

---

(١) في المختصر لأبي الفداء «العزمك».

وَقَدْ نَزَلَ الزَّمَانُ على رِضَاهُ ... وَدانَ لِخَطْبِهِ الخَطْبُ العَظِيمُ
فحينَ رَمَيْتَهُ بِكَ في[1] خَميسٍ ... تَيَقَّنَ أنّ ذلكَ لا يَدُومُ[2]
وَأبصر في المَفاضَةِ منكَ جَيْشاً ... فأحْرَبَ لا يَسيرُ وَلا يُقيمُ
كأنّكَ في العَجاجِ شهابُ نورٍ ... توَقَّدَ وَهْوَ شَيطانٌ رَجيمٌ
أرَادَ بَقاءَ مُهجَتِهِ فَوَلّى ... وَليسَ سوَى الحِمامِ له حَميمُ

وهي قصيدة طويلة، ومن عجيب ما يُحكى أنّ ملك الرّوم لما عزم على حصر شيزر سمع مَن بها ذلك، فقال الأمير مرشد بن عليّ أخو صاحبها وهو يفتح مصحفاً: اللهمّ بحقّ مَن أنزلْتَه عليه، إنْ قضيت بمجيء ملك الروم فاقبضني إليك! فتوفّي بعد أيّام[3].

ذكر الحرب بين السلطان مسعود والملك داود ومَنْ معه من الأمراء

لما فارق الراشد بالله أتابك زنكي من الموصل سار نحو أذربيجان، فوصل مَراغة، وكان الأمير مَنْكُبِرس[4] صاحب فارس، ونائبه بخوزستان الأمير بوزابة، والأمير عبد الرحمن طغايرك صاحب خلخال، والملك داود ابن السلطان محمود، مستشعرين من السلطان [مسعود]، خائفين منه، فتجمّعوا ووافقوا الراشد على الاجتماع معهم لتكون أيديهم واحدة، ويرّدوه إلى الخلافة، فأجابهم إلى ذلك، إلاّ أنّه لم يجتمع معهم.

ووصل الخبر إلى السلطان مسعود وهو ببغداد باجتماعهم، فسار عنها في شعبان

---

(١) في المختصر لأبي الفداء «عن».
(٢) في المختصر لأبي الفداء «تيقّن فوت ما أمسى يروم».
(٣) الاعتبار لابن منقذ ٢، ٩٢، ١١٣ تاريخ حلب ٣٩٣ (٥٢)، ذيل تاريخ دمشق ٢٦٤،٢٦٥، المنتظم ١٠/ ٧٢ (٣٢٧/١٧) التاريخ الباهر ٥٥،٥٦، الروضتين ٨١، ٨٢، زبدة الحلب ٢/ ٢٦٤، ٢٦٥، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٦٤، نهاية الأرب ٢٧/ ١٣٤ ـ ١٣٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٢،١٣، الدّرة المضية ٥٢٨، تاريخ الإسلام (٥٣٢ هـ.) ص ٢٠٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٢، تاريخ ابن سباط ١/ ٦٧،٦٨، أما ملك الروم هنا فهو: يوحنّا الثاني كالوجوهانيز (٥١٢ ـ ٥٣٨ هـ./ ١١١٨ ـ ١١٤٣ م.).
(٤) في (أ): «منكوبرس»، وهو أشبه بالمُثبَت.

نحوهم، فالتقوا ببنجن كشت[1]، فاقتتلوا، فهزمهم السلطان مسعود، وأخذ الأمير مَنْكُبِرس أسيراً فقُتل بين يديه صبراً، وتفرّق عسكر مسعود في النهب واتّباع المنهزمين.

وكان بوزابة وعبد الرحمن طغايرك على نَشزٍ من الأرض، فرأيا السلطان مسعوداً وقد تفرّق عسكره عنه، فحملا عليه وهو في قلّة فلم يثبت لهما وانهزم، وقبض بوزابة على جماعة من الأمراء، منهم: صدقة بن دُبيس صاحب الحِلّة، ومنهم ولد أتابك قراسُنقر صاحب أذربيجان، وعنتر بن أبي العسكر وغيرهم وتركهم عنده. فلمّا بلغه قتل صاحبه مُنْكُبِرس قتلهم أجمعين، وصار[2] العسكران مهزومين، وكان هذا من أعجب الاتّفاق[3].

وقصد السلطان مسعود أذربيجان، وقصد الملك داود همذان، ووصل إليها الراشد بعد الوقعة، فاختلفت آراء الجماعة، فبعضهم أشار بقصد العراق والتغلّب عليه، وبعضهم أشار باتّباع السلطان مسعود للفراغ منه، فإنّ ما بعده يهون عليهم. وكان بوزابة أكبر الجماعة فلم يرَ ذلك، وكان غرضُه المسير إلى بلاد فارس وأَخْذها بعد قتل صاحبها منكُبِرس قبل أن يمتنع مَن بها عليه، فبطّل عليهم ما كانوا فيه، وسار إليها فملَكها، وصارت له مع خُوزستان.

وسار سلجوقشاه ابن السلطان محمّد إلى بغداد ليملكها، فخرج إليه البقش الشِحنة بها ونظرُ الخادم أمير الحاجّ وقاتلوه ومنعوه، وكان عاجزاً مستضعفاً، ولما قُتل صدقة بن دُبيس أقرّ السلطان مسعود الحِلّة على أخيه محمّد بن دُبيس، وجعل معه مهلهل بن أبي العسكر[4] أخا عنتر المقتول يدبّر أمره.

ولما كان البقش شِحنة بغداد يُقاتل سلجوقشاه ثار العيّارون ببغداد ونهبوا الأموال، وقتلوا الرجال، وزاد أمرهم حتى كانوا يقصدون أرباب الأموال ظاهراً، ويأخذون منهم ما يريدون، ويحملون الأمتعة على رؤوس الحمّالين، فلمّا عاد الشِحنة قتل منهم وصلب، وغَلَت الأسعار، وكثُر الظلم منه، وأخذ المستورين بحجّة العيّارين، فجلا النّاس عن بغداد إلى الموصل وغيرها من البلاد.

---

(١) في (ب): «بفنجن أكشت».

(٢) في الأوربية: «وصارا».

(٣) المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٣، نهاية الأرب ٢٧/ ٤٤، تاريخ دولة آل سلجوق ١٧١.

(٤) في نهاية الأرب ٢٧/ ٤٥ «ابن أبي العشاير».

ذكر قتل الراشد بالله

لما وصل الراشد بالله إلى همذان، وبها الملك داود وبوزابه ومَن معهما من الأمراء والعساكر بعد انهزام السلطان مسعود وتفرُّق العساكر، على ما تقدّم ذكره، سار الراشد بالله إلى خوزستان مع الملك داود، ومعهما خُوارزم شاه، فقاربا الحُوَيزة، فسار السلطان مسعود إلى بغداد ليمنعهم عن العراق، فعاد الملك داود إلى فارس، وعاد خُوارزم شاه إلى بلاده، وبقي الراشد وحده، فلمّا أيس من عساكر العجم سار إلى أصفهان.

فلمّا كان الخامس والعشرون من رمضان وثب عليه نفر من الخُراسانيّة الذين كانوا في خدمته، فقتلوه وهو يريد القيلولة، وكان في أعقاب مرض وقد برىء منه، ودُفن بظاهر أصفهان بشهرستان، فركب مَن معه فقتلوا الباطنيّة.

ولما وصل الخبر إلى بغداد جلسوا للعزاء به في بيت النوبة يوماً واحداً[(١)]. وكان أبيض أشقر، حسن اللون مليح الصورة، مهيباً شديد القوّة والبطش.

قال أبو بكر الصولّي: النّاس يقولون إنّ كلّ سادس يقوم بأمر النّاس من أوّل الإسلام لا بُدّ من أن يُخلع، وربّما قُتل. قال: فتأمّلتُ ذلك، فرأيتُه كما قيل، فإنّ أوّل من قام بأمر هذه الأمّة محمّد رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، ثمّ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، والحسن، رضي اللّه عنهم، فخُلع، ثمّ معاوية ويزيد ابنه، ومعاوية بن يزيد، ومروان، وعبد الملك بن مروان، وعبد اللّه بن الزبير، فخُلع وقُتل؛ ثم الوليد بن عبد الملك، وأخوه سليمان، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام ابنا عبد الملك، والوليد بن يزيد بن عبد الملك، فخُلع وقُتل؛ ثمّ لم ينتظم أمر بني أميّة؛ ثمّ وليَ السفّاح، والمنصور، والمهديّ، والهادي، والرشيد، والأمين، فخُلع وقُتل؛ والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكّل، والمنتصر، والمستعين، فخُلع وقُتل؛ والمعتزّ، والمهتدي، والمعتمد، والمعتضد، والمكتفي، والمقتدر، فخُلع، ثمّ رُدّ، ثمّ قُتل؛ ثمّ القاهر، والراضي، والمتّقي، والمستكفي، والمطيع، والطائع، فخُعل؛ ثمّ القادر، والقائم، والمقتدي، والمستظهر، والمسترشد، والراشد، فخُلع وقُتل[(٢)].

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٣، ١٤.

(٢) تاريخ الإسلام (٥٣٢ هـ.) ص ٣٠٣.

قلتُ: وفي هذا نظرٌ، لأنّ البيعة لابن الزبير كانت قبل البيعة لعبد الملك بن مروان، وكونه جعله بعده لا وجه له، والصولّي إنّما ذكر إلى أيّام المقتدر باللّه، ومَن بعده ذكره غيره[1].

ذكر حال ابن بكران العيّار

في هذه السنة، في ذي الحجّة، عظُم أمر ابن بكران العيّار بالعراق، وكثُر أتباعه، وصار يركب ظاهراً في جمْعٍ من المفسدين، وخافه الشريف أبو الكَرَم الوالي ببغداد، فأمر أبا القاسم ابن أخيه حامِيَ باب الأزج أن يشتدّ عليه ليأمن شرّه.

وكان ابن بكران يُكثِر المقام بالسواد، ومعه رفيق له يُعرف بابن البزّاز[2]، فانتهَى أمرهما إلى أنّهما أرادا أن يضربا باسمهما سكّة في الأنبار، فأرسل الشِحنة والوزير شرف الدين الزينبيّ إلى الوالي أبي الكَرَم وقالا: إمّا أن تقتل ابن بكْران، وإمّا أن نقتلك؛ فأحضر ابن أخيه وعرّفه ما جرى، وقال له: إمّا أن تختارني ونفسك، وإمّا أن تختار ابن بكران؛ فقال: أنا أقتله. وكان لابن بكران عادة يجيء في بعض اللّيالي إلى ابن أخي أبي الكَرَم، فيقيم في داره، ويشرب عنده، فلمّا جاء على عادته وشرب، أخذ أبو القاسم سلاحه ووثب به فقتله وأراح النّاس من شرّه، ثمّ أخذ، بعده بيسير، رفيقه ابن البزّاز[3]، وصُلب، وقُتل معه جماعة من الحراميّة، فسكن النّاس واطمأنّوا، وهَدَأت الفتنة[4].

ذكر قتل الوزير الدركزينيّ ووزارة الخازن

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره العماد أبي البركات بن سلمة الدركزيني، واستوزر بعده كمال الدين محمّد بن الحسين الخازن، وكان الكمال شهماً، شجاعاً، عادلاً، نافذ الحُكم، حَسَن السيرة، أزال المكوس ورفع المظالم،

---

(١) أنظر تعليق الحافظ الذهبي أيضاً في: تاريخ الإسلام (٥٣٢ هـ.) ص٣٠٣، ٣٠٤، وانظر عن (الراشد) فيه، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٤، رقم ١١٩ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) في (أ): «البزار».

(٣) في (أ): «البزار».

(٤) أنظر: المنتظم ١٠/ ٧٢ (٣٢٧،٣٢٨).

وكان يقيم مؤونة السلطان ووظائفه، وجمع له خزائن كثيرة، وكشف أشياء كثيرة كانت مستورة يُخان فيها ويُسرق، فثقل على المتصرّفين وأرباب الأعمال، فأوقعوا بينه وبين الأمراء، لا سيّما قراسنقر صاحب أذربيجان، فإنّه فارق السلطان وأرسل يقول: إمّا أن تنقذ رأس الوزير، وإلاّ خدمنا سلطاناً آخر، فأشار مَن حضر من الأمراء بقتله، وحذّروه فتنة لا تُتلافَى، فقتله على كُرهٍ منه، وأرسل رأسه إلى قراسنقر فرضي. وكانت وزارته سبعة أشهر، وكان قتله سنة ثلاثٍ وثلاثين وخمسمائة.

ووزر بعده أبو العزّ طاهر بن محمّد البروجرديّ وزير قراسنقر، ولُقّب عزّ الملك، وضاقت الأمور على السلطان مسعود، واستقطع الأمراء البلاد بغير اختياره، ولم يبقَ له شيء من البلاد البتّة إلاّ اسم السلطنة لا غير[١].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ملك حسام الدين تَمِرتاش إيلغازي، صاحب ماردين، قلعة الهتّاخ[٢] من بلاد ديار بكر، أخذها من بعض بني مروان الذين كانوا ملوك ديار بكر جميعها، وهذا آخر مَن بقي منهم له ولاية[٣]،. فسبحان الحيّ الدائم الذي لا يزول مُلكه ولا يتطرّق إليه النقص ولا التغيير.

وفيها انقطعت كسوة الكعبة، لما ذكرناه من الاختلاف، فقام بكسوتها رامُشْت التاجر الفارسيُّ، كساها من الثياب الفاخرة[٤] بكلّ ما وُجد إليه سبيل، فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصريّة؛ وهو من التجّار المسافرين إلى الهند كثير المال[٥].

وفيها توفّيت زبيدة خاتون ابنة السلطان بركيارُق، زوج السلطان مسعود، وتزوّج بعدها سفري ابنة دُبيس بن صدقة في جُمادى الأولى، وتزوّج ابنة قاورت[٦]، وهو من

---

(١) نهاية الأرب ٢٧/ ٤٥، ٤٦، تاريخ دولة آل سلجوق ١٦٩، ١٧٠، و١٧٣.
(٢) في المختصر لأبي الفداء «الهناخ» بالنون.
(٣) المختصر ٣/ ١٤.
(٤) في (أ): «الثياب الحبرة».
(٥) أنظر شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (بتحقيقنا) ١/ ٥٣٠.
(٦) في (أ): «أيضاً ابنة قاورد».

البيت السلجوقيّ، إلاّ أنّه كان لا يزال يعاقر الخمر ليلاً ونهاراً، فلهذا سقط اسمه وذكره[1].

وفيها قتل السلطان مسعود ابن البُقْش السلاحيّ شِحنة بغداد، وكان قد ظلم النّاس وعسفهم، وفعل ما لم يفعله غيره من الظلم، فقبض عليه، وسيّره إلى تكريت، فسجنه بها عند مجاهد الدين بهروز، ثمّ أمر بقتله، فلمّا أرادوا قتله ألقى بنفسه في دجلة فغرق، فأُخذ رأسه وحُمل إلى السلطان[2]، وجعل السلطان شِحنة العراق مجاهد الدين بهروز، فعمل أعمالاً صالحةً منها: أنّه عمل مسنّاة النهروان وأشباهها، وكان حَسَن السيرة، كثير الإحسان.

وفيها درّس الشيخ أبو منصور بن الرزّاز بالنظاميّة ببغداد.

وأرسل إلى أتابك زنكي في إطلاق قاضي القضاة الزينبيّ، فأُطلق وانحدر إلى بغداد، فخلع عليه الخليفة وأقرّه على منصبه.

وفيها كان بخُراسان غلاء شديد طالت مّدته، وعظُم أمره، حتى أكل النّاس الكلاب والسنانير وغيرهما من الدوابّ، وتفرّق أكثر أهل البلاد من الجوع.

وفيها توفّي طُغان أرسلان[3] صاحب بدليس[4]، وأرزن، من ديار بكر [ووليَ بعده ابنه فرني[5]]، واستقام[6] له الأمر.

وفيها، في شهر صفر، جاءت زلزلة عظيمة بالشام، والجزيرة، وديار بكر، والموصل، والعراق، وغيرها من البلاد، فخّربت كثيراً منها، وهلك تحت الهْدم عالم كثيرٌ[7].

---

(١) المنتظم ١٠/ ٧٢ (١٧/ ٣٢٧،٣٢٨)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٦٤، تاريخ الإسلام (٥٣٢ هـ.) ص ٢٠٥،٢٠٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٣، عيون التواريخ ١٢/ ٣٣٤.

(٢) المنتظم ١٠/ ٧٤ رقم ٩١ (١٧/ ٣٣٠ رقم ٤٠٣٧)، تاريخ الإسلام (٥٣٢ هـ.) ص٢٠٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٣ وفيه اسمه «البخشي»، نهاية الأرب ٢٧/ ٤٦.

(٣) أنظر عن (طغان) في: الأعلاق الخطيرة ج ٨ ق ٢/ ٣٤١، ذيل تاريخ دمشق ٢٦٧.

(٤) في الباريسية: «ماردين».

(٥) في ذيل تاريخ دمشق «قرتي» بالقاف.

(٦) في (أ): «واستقر».

(٧) المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٤، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٢، كشف الصلصلة ١٨٣.

[الوفيات]

وفيها توفّي أحمد بن محمّد بن (أحمد أبو بكر بن)[1] أبي الفتح الدِّينَوَريّ الفقيه الحَنبليّ ببغداد، وكان ينشد كثيراً هذه الأبيات:

تمنّيتَ أنْ تُمسي[2] فَقيهاً مناظراً ... بغَيرِ عيَاء وَالجُنُون فُنُونُ

ولَيسَ اكتسابُ المالِ دونَ مشقّةٍ ... تلَقّيتَها فالعلمُ كيفَ يكونُ

وفيها توفّي محمّد بن عبد الملك بن عمر أبو الحسن الكرجيُّ[3]، ومولده سنة ثمانٍ وخمسين وأربعمائة، وكان فقيهاً مُحدّثاً سمع الحديث بكرْخ، وأصفهان، وهَمَذَان، وغيرها.

وفي شعبان منها توفّي القاضي أبو العلاء صاعد بن الحسين بن إسماعيل بن صاعد، وهو ابن عمّ القاضي أبي سعيد، ووليَ القضاء بنَيسابور بعد أبي سعيد.

---

(١) في طبعة صادر ١١/٦٦ «محمد بن أبي بكر بن»، والمثبت عن (أ) وعن مصادر ترجمته التي ذكرتها في: تاريخ الإسلام (٥٣٢ هـ.) ص ٢٦٨، ٢٦٩ رقم ٦٦.

(٢) في المطبوع من المنتظم ١٠/٧٣، (١٧/٢٣٩): «تسمى».

(٣) في طبعة صادر ١١/٦٦ «الكرخي»، والتصويب من، الأنساب ١٠/٣٨١ وفيه: «الكرَجي» بفتح الكاف والراء، والجيم في آخرها، هذه النسبة إلى الكرَج، وهي بلدة من بلاد الجبل بين إصبهان وهمذان. ثم ذكره، وانظر عنه في: تاريخ الإسلام (٥٣٢ هـ.) ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦ رقم ١٠٨ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٥٣٣)

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

ذكر الحرب بين السلطان سنجر وخُوارزْم شاه

في هذه السنة، في المحرَّم، سار السلطان سنجَر بن ملكشاه إلى خُوارزم محارباً لخُوارزم شاه أتسِز بن محمّد. وسبب ذلك أنّ سنجَر بَلَغَه أنّ أتسِز يحدّث نفسه بالامتناع عليه وترْك الخدمة له، وأنّ هذا الأمر قد ظهر على كثيرٍ من أصحابه وأمرائه، فأوجب ذلك قصْده وأخْذ خُوارزم منه، فجمع عساكره وتوجّه نحوه، فلمّا قرُب من خُوارزم خرج خُوارزم شاه إليه في عساكره، فلقيه مقابلاً، وعَبّأ كلّ واحدٍ منهما عساكره وأصحابه، فاقتتلوا، فلم يكن للخُوارزميّة قوّة بالسلطان، فلم يثبتوا، وولّوْا منهزمين، وقُتل منهم خَلْق كثير، ومن جملة القتلى ولد لخُوارزم شاه، فحزن عليه أبوه حُزْناً عظيماً، ووجد وجْداً شديداً.

وملك سنجَر خُوارزم، وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ولد أخيه محمّد، ورتّب له وزيراً وأتابكاً وحاجباً، وقرّر قواعده، وعاد إلى مرو في جُمادى الآخرة من هذه السنة، فلمّا فارق خُوارزم عائداً انتهز خُوارزم شاه الفرصة فرجع إليها، وكان أهلها يكرهون العسكر السنجَريّ ويُؤثرون عورة خُوارزم شاه، فلمّا عاد أعانوه على مُلك البلد، ففارقهم سليمان شاه ومن معه، ورجع إلى عمّه السلطان سنجَر، وفسد الحال بين سنجَر وخُوارزم شاه، واختلفا بعد الاتّفاق، ففعل خُوارزم شاه في خُراسان سنة ست وثلاثين وخمسمائة ما نذكره إن شاء الله[1].

---

(١) حبيب السير لخواندمير ٢/ ٦٣١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٨٤، نهاية الأرب ٢٦/ ٣٨٥.

ذكر قتل محمود صاحب دمشق ومُلك أخيه محمّد

في هذه السنة، (في شوّال)[1]، قُتل شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طُغدِكين، صاحب دمشق، على فراشه غِيلةً، قتله ثلاثة من غلمانه هم خواصّه وأقرب النّاس منه في خلْوته وجلْوته. وكانوا ينامون عنده ليلاً فقتلوه وخرجوا من القلعة وهربوا، فنجا أحدهم وأُخذ الآخران فصُلِبا.

وكتب من بدمشق إلى أخيه جمال الدين محمّد بن بوري صاحب بَعْلَبَكّ، وهو بها، بصورة الحال واستدعوه ليملك بعد أخيه، فحضر في أسرع وقت، فلمّا دخل البلد جلس للعزاء بأخيه، وحلف له الجُند وأعيان الرعيّة، وسكن النّاس، وفوّض أمر دولته إلى معين الدين أُنُز، مملوك جدّه، وزاد في عُلُوّ مرتبته، وصار هو الجملة والتفصيل؛ وكان أُنُز خيّراً عاقلاً حسن السيرة، فجرت الأمور عنده على أحسن نظام[2].

ذكر مُلك زنكي بَعْلَبَكّ

في هذه السنة، في ذي القعدة، سار عماد الدين أتابك زنكي بن آقسنقر إلى بَعْلَبَكّ، فحصرها ثمّ ملكها؛ وسب ذلك أنّ محموداً صاحب دمشق لما قُتل كانت والدته زُمُرّد خاتون عند أتابك زنكي بحلب، قد تزوّجها، فوجدت لقْتل ولدها وجْداً شديداً، وحزنت عليه، وأرسلت إلى زنكي وهو بديار الجزيرة تعرّفه الحادثة، وتطلب منه أن يقصد دمشق ويطلب بثأر ولدها. فلمّا وقف على هذه الرسالة بادر في الحال من غير توقّف ولا تريّث، وسار مُجِدّاً ليجعل ذلك طريقاً إلى مُلك البلد، وعبر الفرات[3] عازماً على قصد دمشق، فاحتاط من بها، واستعدّوا، واستكثروا من الذخائر، ولم يتركوا شيئاً ممّا يحتاجون إليه إلاّ وبذلوا الجهد في تحصيله، وأقاموا

---

(١) من (أ).

(٢) تاريخ حلب ٣٩٤، ذيل تاريخ دمشق ٢٦٨، ٢٦٩، زبدة الحلب ٣/ ٢٧٢، الأعلاق الخطيرة ٢/ ٤٦، نهاية الأرب ٢٧/ ١٣٧، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٤، الدّرة المضية ٥٢٩، تاريخ الإسلام (٥٣٣ هـ.) ص ٦٩، مرآة الجنان ٣/ ٢٦١، عيون التواريخ ١٢/ ٣٤٣، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٥، الكواكب الدرّية ١٠٩، مآثر الإنافة ٢/ ٤٠، تاريخ ابن سباط ١/ ٦٩.

(٣) في الأوربية: «الفراة».

ينتظرون وصوله إليهم، فتركهم وسار إلى بَعْلَبَكّ.

وقيل: كان السبب في مُلكها أنّها كانت لمعين الدين أُنُز، كما ذكرناه، وكان له جارية يهواها، فلمّا تزوّج أمّ جمال الدين سيّرها إلى بَعْلَبَكّ، فلمّا سار زنكي إلى الشام عازماً على قصد دمشق سيّر إلى أُنُز يبذل له البذول العظيمة ليسلّم إليه دمشق، فلم يفعل.

وسار أتابك إلى بَعْلَبَكّ فوصل إليها في العشرين من ذي الحجّة من السنة، فنازلها في عساكره، وضيّق عليها، وجَدّ في محاربتها، ونصب عليها من المنجنيقات أربعة عشر عدداً ترمي ليلاً ونهاراً، فأشرف مَن بها على الهلاك، وطلبوا الأمان، وسلّموا إليه المدينة، وبقيت القلعة وبها جماعة من شجعان الأتراك، فقاتلهم، فلمّا أَيِسوا من معين ونصير طلبوا الأمان فأمّنهم، فسلّموا إليه القلعة، فلمّا نزلوا منها وملكها غدر بهم وأمر بصلبهم، فصُلبوا ولم ينجُ منهم إلاّ القليل، فاستقبح النّاس ذلك من فعله واستعظموه، وخافه غيرهم وحَذَرُوه، لا سيّما أهل دمشق فإنّهم قالوا: لو مَلَكَنا لفعل بنا مثل فعله بهؤلاء؛ فازدادوا نفوراً وجدّاً في محاربته.

ولما ملك زنكي بَعْلَبَكّ أخذ الجارية التي كانت لمعين الدين أُنُز بها، فتزوّجها بحلب، فلم تزل بها إلى أن قُتل، فسيّرها ابنه نور الدين محمود إلى معين الدين أُنُز، وهي كانت أعظم الأسباب في المودّة بين نور الدين وبين أُنُز، واللّه أعلم[1].

ذكر استيلاء قراسنقر على بلاد فارس وعَوده عنها

وفي هذه السنة جمع أتابك قراسُنقر صاحب أَذَرْبيجان عساكر كثيرة وحشد، وسار طالباً بثأر أبيه الذي قتله بوزابة في المصافّ المقدّم ذكره، فلمّا قارب السلطان مسعوداً أرسل إليه يطلب منه قتْل وزيره الكمال، فقتله كما ذكرناه، فلمّا قُتل سار قراسنقر إلى بلاد فارس، فلمّا قاربها تحصّن بوزابة منه في القلعة البيضاء، ووطىء

---

(١) تاريخ حلب ٣٩٥ (٥٤) حوادث ٥٣٤ هـ.، التاريخ الباهر ٥٩، ذيل تاريخ دمشق ٢٦٩، زبدة الحلب ٢/ ٢٧٢، الروضتين ٨٦، مفرّج الكروب ١٠/ ٨٦، نهاية الأرب ٢٧/ ١٣٧، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٤، ١٥، الأعلاق الخطيرة ٢/ ٤٦، ٤٧، تاريخ مختصر الدول ٢٠٦، الدرة المضية ٥٢٩، تاريخ الإسلام (٥٣٣ هـ.) ص ٢١٠، ٢١١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٣، الكواكب الدرّية ١٠٩، عيون التواريخ ١٢/ ٣٤٣، تاريخ ابن سباط ١/ ٧٠.

قراسنقر البلاد، وتصرّف فيها، وليس له فيها دافعٌ ولا مانعٌ، إلاّ أنّه لم يُمكنه المُقام، وملك [المدن] التي في فارس، فسلّم[1] البلاد إلى الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمود وقال له: هذه البلاد لك فاملك الباقي؛ وعاد إلى أَذَربيجان، فنزل حينئذٍ بوزابة من القلعة سنة أربعٍ وثلاثين [وخمسمائة]، وهزم سلجوقشاه وملك البلاد، وأَسر سلجوقشاه وسَجنه فيّ قلعة بفارس.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في صفر توفّي الوزير شرف الدين أنوشروان[2] بن خالد معزولاً ببغداد، وحضر جنازته وزير الخليفة فمن دونه، ودُفن في داره، ثمّ نقل إلى الكوفة، فدُفن في مشهد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، عليه السلام. وكان فيه تشيّعٌ، وهو كان السبب في عمل «المقامات الحريريّة»، وكان رجلاً عاقلاً، شهْماً، ديّناً، خيّراً، وزر للخليفة المسترشد، وللسلطان محمود، وللسلطان مسعود، وكان يستقيل من الوزارة فيجاب إلى ذلك، ثمّ يُخطب إليها فيجيب كارهاً.

وفيها قدِم السلطان مسعود بغداد في ربيع الأوّل، وكان الزمان شتاء، وصار يُشتّي بالعراق، ويصيّف بالجبال، ولما قدِمَها أزال المكوس، وكتب الألواح بإزالتها، ووُضعت على أبواب الجوامع وفي الأسواق، وتقدّم أن لا ينزل جنديّ في دار عاميّ من أهل بغداد (إلاّ بإذن)[3]، فكثُر الدعاء له والثناء عليه، وكان السبب في ذلك الكمال الخازن وزير السلطان[4].

وفيها، في صفر، كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد، وكان أشدّها بالشام، وكانت متوالية عدّة ليال، كلّ ليلة عدّة دفعات، فخرب كثير من البلاد، لا سيّما حلب، فإنّ أهلها لما كثُرت عليهم فارقوا بيوتهم، وخرجوا [إلى] الصحراء، وعدّوا ليلة واحدة جاءتهم ثمانين مرّة، ولم تزل بالشام تتعاهدهم من رابع

---

(١) في (أ): «المقام بتلك الحصون فسلم»، وفي (ب): «وملك الحصون».

(٢) يرد «أنوشروان» و«نوشروان». أنظر عنه في: تاريخ الإسلام (٥٣٣ هـ.) ص ٣٠٤ ـ ٣٠٦ رقم ١٢٠ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) من (أ).

(٤) المنتظم ١٠/ ٧٨ (١٧/ ٣٣٥)، تاريخ الإسلام (٥٣٣ هـ.) ص ٢٠٩.

صفر إلى التاسع عشر منه، وكان معها صوت وهزّة شديدة[١].

وفيها أغار الفرنج على أعمال بانياس، فسار عسكر دمشق في أثرهم، فلم يدركوهم فعادوا.

[الوفيات]

وفيها توفّي أبو القاسم زاهر بن طاهر الشّحاميّ[٢] النيسابوريّ بها، ومولده سنة ستّ وأربعين وأربعمائة، وكان إماماً في الحديث، مُكثِراً، عالي الإسناد.

وتوفّي عبد اللّه بن أحمد[٣] بن عبد القادر بن محمّد بن يوسف أبو القاسم ابن أبي الحسين البغداديّ بها، ومولده سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

وعبد العزيز بن عثمان بن إبراهيم أبو محمّد الأسديّ[٤] البخاريّ، كان قاضي بخارى، وكان من الفقهاء أولاد الأئمّة، حَسَن السيرة.

وتوفّي محمّد بن شُجاع بن أبي بكر بن عليّ بن إبراهيم اللّفْتُوانيّ[٥] الأصفهاني بأصفهان في جُمادى الآخرة، ومولده سنة سبعٍ وتسعين وأربعمائة، وسمع الحديث الكثير بأصفهان، وبغداد، وغيرهما[٦].

---

(١) تاريخ حلب ٣٩٤ (٥٤)، ذيل تاريخ دمشق ٢٦٨ و٢٧٠، زبدة الحلب ٢/ ٢٧٠، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥، الدرّة المضية ٥٢٩، تاريخ الإسلام (٥٣٣ هـ.) ص ٢١١، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٢ (حوادث ٥٣٢ هـ.)، عيون التواريخ ١٢/ ٣٣٤ (٥٣٢ هـ.)، الكواكب الدرية ٦٠٩، كشف الصلصلة ١٨٤، تاريخ ابن سباط ١/ ٧٠.

(٢) أنظر عن (زاهر الشحّامي) في: تاريخ الإسلام (٥٣٣ هـ.) ص ٣١٦ـ٣١٩ رقم ١٣٩ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) أنظر عن (عبد الله بن أحمد) في: تاريخ الإسلام (٥٣٣ هـ.) ص٣٢٢، ٣٢٣ رقم ١٤٥ وفيه مصادر ترجمته.

(٤) أنظر عن (الأسدي) في: المنتظم ١٠/ ٨٠ رقم ١٠٤ (١٧/ ٣٣٧، ٣٣٨ رقم ٤٠٥١)، وتاريخ الإسلام (٥٣٣ هـ.) ص ٣٢٥ رقم ١٥١.

(٥) اللَّفْتُواني: بفتح اللام، وسكون الفاء، وضم التاء. (هكذا في الأنساب)، وفي معجم البلدان بفتح التاء المثنّاة، نسبة إلى لفتوان، قرية من قرى أصبهان.
وانظر عنه في: تاريخ الإسلام (٥٣٣ هـ.) ص ٣٣٤،٣٣٥ رقم ١٦٥ وفيه مصادر ترجمته.

(٦) في الأوربية: «وغيرها».

(٥٣٤)
ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

ذكر حصار أتابك زنكي دمشق

في هذه السنة حصر أتابك زنكي دمشق مرّتين، فأمّا المرّة الأولى فإنّه سار إليها في ربيع الأوّل من بَعْلَبَكّ بعد الفراغ من أمرها، وتقرير قواعدها وإصلاح ما تشعّث منها، ليحصرها، فنزل بالبقاع، وأرسل إلى جمال الدين صاحبها يبذل له بلداً يقترحه ليسلّم إليه دمشق، فلم يُجِبه إلى ذلك، فرحل وقصد دمشق، فنزل على داريّا ثالث عشر ربيع الأوّل فالتقت الطلائع، واقتتلوا، وكان الظفر لعسكر زنكي، وعاد الدمشقيّون منهزمين، فقُتل كثير منهم.

ثمّ تقدّم زنكي إلى دمشق، فنزل هناك، ولقيه جمْعٌ كثير من جُند دمشق وأحداثها ورجّالة الغوطة، فقاتلوه، فانهزم الدمشقيون، وأخذهم السيف، فقتل فيهم وأكثر، وأسر كذلك، ومَن سلم عاد جريحاً. وأشرف البلد ذلك اليوم على أن يُملك، لكنْ عاد زنكي عن القتال، وأمسك عنه عدّة أيّام، وتابع الرسل إلى صاحب دمشق، وبذل له بَعْلَبَكّ، وحمص، وغيرهما ممّا يختاره من البلاد، فمال إلى التّسليم، وامتنع غيره من أصحابه من ذلك، وخوّفوه عاقبة فِعله، وأن يُغدر به كما غُدر بأهل بَعْلَبَكّ، فلمّا لم يسلّموا إليه عاود القتال والزحف.

ثمّ إنّ جمال الدين صاحب دمشق مرض ومات ثامن شعبان، وطمع زنكي حينئذٍ في البلد، وزحف إليه زحفاً شديداً ظنّاً منه أنّه ربّما يقع بين المقدّمين والأمراء خلاف فيبلغ غرضه، وكان ما أمّله بعيداً، فلمّا مات جمال الدين وليَ بعده مجير الدين أبق ولدهُ، وتولّى تدبير دولته معين الدين أنز، فلم يظهر لموت أبيه أثرٌ مع أنّ عدوّهم على باب المدينة؛ فلمّا رأى أنز أنّ زنكي لا يفارقهم، ولا يزول عن حصرهم، راسل الفرنج، واستدعاهم إلى نصرته، وأن يتّفقوا على منع زنكي عن دمشق، وبذل لهم

بذولاً من جملتها أن يحصر بانياس ويأخذها ويسلّمها إليهم، وخوّفهم من زنكي إن ملك دمشق؛ فعلموا صحّة قوله إنّه إن ملكها لم يبقَ لهم معه بالشام مقام، فاجتمعت الفرنج وعزموا على المسير إلى دمشق ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال زنكي، فحين علم زنكي بذلك سار إلى حَوْران خامس رمضان، عازماً على قتال الفرنج قبل أن يجتمعوا بالدمشقيّين، فلمّا سمع الفرنج خبره لم يفارقوا بلادهم، فلمّا رآهم كذلك عاد إلى حصر دمشق [ونزل] بعذرا شماليها سادس شوّال، فأحرق عدّة قُرى من المرج والغوطة ورحل عائداً إلى بلاده.

ووصل الفرنج إلى دمشق واجتمعوا بصاحبها وقد رحل زنكي، فعادوا، فسار معين الدين أُنز[1] إلى بانياس في عسكر دمشق، وهي في طاعة زنكي، كما تقدّم ذكرها، ليحصرها ويسلّمها إلى الفرنج؛ وكان واليها قد سار قبل ذلك منها في جمع جمعه إلى مدينة صور للإغارة على بلادها، فصادفه صاحب أنطاكية وهو قاصد إلى دمشق نجدةً لصاحبها على زنكي، فاقتتلا، فانهزم المسلمون وأخذوا والي بانياس فقُتل، ونجا مَن سلم منهم إلى بانياس، وجمعوا معهم كثيراً من البقاع وغيرها، وحفظوا القلعة، فنازلها معين الدين، فقاتلهم، وضيّق عليهم، ومعه طائفة من الفرنج، فأخذها وسلّمها إلى الفرنج.

وأمّا الحصر الثاني لدمشق، فإنّ أتابك لما سمع الخبر بحصر بانياس عاد إلى بعلبكّ ليدفع عنها مَن يحصرها، فأقام هناك. فلمّا عاد عسكر دمشق، بعد أن ملكوها وسلّموها إلى الفرنج، فرّق أتابك زنكي عسكره على الإغارة على حَوْران وأعمال دمشق، وسار هو جريدة مع خواصّه، فنازل دمشق سَحَراً ولا يعلم به أحد من أهلها، فلمّا أصبح النّاس ورأوا عسكره خافوا، وارتجّ البلد، واجتمع العسكر والعامّة على السور وفُتحت الأبواب وخرج الجُند والرجّالة فقاتلوه، فلم يمكن زنكي عسكره من الإقدام في القتال لأنّ عامّة عسكره كانوا قد تفرّقوا في البلاد للنَّهب والتخريب، وإنّما قصد دمشق لئلّا يخرج منها عسكر إلى عسكره وهم متفرّقون، فلمّا اقتتلوا ذلك اليوم قُتل بينهم جماعة ثمّ أحجم زنكي عنهم وعاد إلى خيامه ورحل إلى مرج راهط، وأقام ينتظر عودة عسكره، فعادوا إليه وقد ملأوا أيديهم من الغنائم، لأنّهم طرقوا البلاد

---

(١) في (ب): «أنر»، ويرد هكذا في بعض المصادر.

وأهلها غافلون، فلمّا اجتمعوا عنده رحل بهم عائداً إلى بلادهم[١].

ذكر مُلك زنكي شهروزر وأعمالها

في هذه السنة ملك أتابك زنكي شهرزور وأعمالها وما يجاورها من الحصون، وكانت بيد قفجاق بن أرسلان تاش التركمانيّ، وكان حكمه نافذاً على فاصي التركمان ودانيهم، وكلمته لا تخالَف، يرون طاعته فرضاً، فتحامى الملوك قصده، ولم يتعرّضوا لولايته لهذا ولأنّها منيعة كثيرة المضايق، فعظم شأنه وازداد جمعه، وأتاه التركمان من كلّ فجّ عميق.

فلمّا كان هذه السنة سيّر إليه أتابك زنكي عسكراً، فجمع أصحابه ولقيهم فتصافّوا واقتتلوا، فانهزم قفجاق واستبيح عسكره، وسار الجيش الأتابكي [في أعقابهم فحصروا الحصون والقلاع فملكوها جميعها وبذلوا الأمان لقفجاق فصار إليهم، وانخرط في سلك العساكر][٢]. ولم يزل هو وبنوه في خدمة البيت الأتابكيّ على أحسن قضيّة إلى بعد سنة ستّمائة بقليل وفارقوها[٣].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة جرى بين أمير المؤمنين المقتفي لأمر[٤] اللّه وبين الوزير شرف الدين عليّ بن طراد الزينبيّ منافرة، وسببها أنّ الوزير كان يعترض الخليفة في كلّ ما يأمر به، فنفر الخليفة من ذلك، فغضب الوزير، ثمّ خاف فقصد دار السلطان في سميرية[٥]، وقت الظهر، ودخل إليها واحتمى بها، فأرسل إليه الخليفة في العَود إلى منصبه، فامتنع؛ وكانت الكتب تصدر باسمه، واستنيب قاضي القضاة الزينبيّ، وهو ابن

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٠ ـ٢٧٢، التاريخ الباهر ٥٨،٥٩، زبدة الحلب ٢/ ٢٧٣، الروضتين ٨٤ ـ٨٦، نهاية الأرب ٢٧/ ٥٨٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥، الدرّة المضية ٥٣٠، العبر ٤/ ٩٣، تاريخ الإسلام (٥٣٤ هـ.) ص ٢١٣، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٣، مرآة الجنان ٣/ ٢٦١، دول الإسلام ٢/ ٥٤، عيون التواريخ ١٢/ ٣٥٤، الكواكب الدرية ١١٠، ١١١ تاريخ ابن سباط ١/ ٧١.

(٢) في الباريسية، والنسخة رقم ٧٤٠.

(٣) المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥.

(٤) في الأوربية: «بأمر».

(٥) في الأوربية: «سمرية».

عمّ الوزير، وأرسل الخليفة إلى السلطان رُسُلاً في معنى الوزير، فأرخص له السلطان في عزله، فحينئذٍ أسقط اسمه من الكتب، وأقام بدار السلطان؛ ثمّ عزل الزينبيّ من النيابة، وناب سديد الدولة بن الأنباريّ[1].

وفيها قُتل المقرّب جوهر وهو من خَدَم السلطان سنجَر، وكان قد حكم في دولته جميعها، ومن جملة أقطاعه الرَّيّ، ومن جملة مماليكه عبّاس صاحب الرَّيّ، وكان سائر عسكر السطان سنجَر يخدمونه ويقفون ببابه، وكان قتله بيد الباطنيّة، وقف له جماعة منهم بزيّ النساء واستغثن به، فوقف يسمع كلامهم فقتلوه، فلمّا قُتل جمع صاحبه عبّاس العساكر وقصد الباطنيّة، فقتل منهم وأكثر، وفعل بهم ما لم يفعله غيره، ولم يزل يغزوهم ويقتل فيهم ويخرّب بلادهم إلى أن مات[2].

وفيها زُلْزلت كَنْجَة[3] وغيرها[4] من أعمال أَذَرْبيجان وأرّان، إلاّ أنّ أشدّها كان بكَنْجة، فَخرّب منها الكثير، وهلك عالم لا يُحْصَوْن كَثْرة.

قيل: كان الهلكى مائتَيْ ألف وثلاثين ألفاً، وكان من جملة الهلكى ابنان لقراسنقر صاحب البلاد، وتهدّمت قلعة هناك لمجاهد الدين بهروز، وذهب له فيها من الذخائر والأموال شيء عظيم[5].

---

(١) المنتظم ١٠/ ٨٥ (١٨/ ٤)، تاريخ الإسلام (٥٣٤ هـ.) ص ٢١٢.

(٢) تاريخ حلب ٣٩٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥، تاريخ ابن سباط ١١/ ٧١.

(٣) يقال: «كنجة» و«جنزة».

(٤) في (أ): «وأعمالها».

(٥) خبر الزلزلة في: ذيل تاريخ دمشق ٢٦٨، وزبدة التواريخ ٢١٦، وتاريخ الزمان ١٥٤، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٦٨، ١٦٩، ودول الإسلام ٢/ ٥٣ وفيه اسم المدينة «جيزة» وقال محققه بالحاشية: إنها من أعمال حلب، والعبر ٤/ ٩١، وتاريخ الإسلام (٥٣٤ هـ.) ص ٢٠٨، ومرآة الجنان ٣/ ٢٦٠ وفيه تصحّفت إلى «بحيرة»، وفي البداية والنهاية ١٢/ ٢١٥ «جبرت»، وعيون التواريخ ١٢/ ٣٤٣، والكواكب الدرية ١٠٩، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٦٤، وكشف الصلصلة ١٨٤، وتاريخ الخلفاء ٤٢٨ وفيه «بحترة»، وشذرات الذهب ٤/ ١٠٢ وفيه «خبزه» و١٠٤ (حوادث ٥٣٤ هـ.).
وقد وقّت أحد مواليد وسكان مدينة كنجة واسمه بختيار غوش هذه الزلزلة في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١١٣٩ م. وكان شاهداً لها فذكر أنها جرت في شهر أريخ حسب التقويم الأرمني في ١٨ منه، ليلة الجمعة ـ السبت، في يوم عيد القدّيس جرجس أرسل الغضب الإلهي الحاد إلى العالم وغضب الأرض وخراب قوي، تحركت بدفعات قوية وأصابت هذا البلد ـ ألبانيا، وقد خرّبت الهزّة أماكن =

وفيها شرع مجاهد الدين بهروز في عمل النهروانات: سَكَرَ سِكراً عظيماً يردّ الماء إلى مجراه الأوّل، وحفر مجرى الماء القديم، وخرق[1] إليه مَجراة تأخذ[2] من ديالى، ثمّ استحال بعد ذلك وجرى الماء ناحية من السكْر، وبقي السكر في البئر لا ينتفع به أحدٌ، ولم يتعرّض أحدٌ لردّه إلى مجراه عند السكْر إلى وقتنا هذا[3].

وفيها انقطع الغيث ببغداد والعراق، ولم يجيء غير مرّة واحدة في آذار، ثمّ انقطع، ووقع الغلاء، وعُدمت الأقوات بالعراق[4].

وفيها، في جُمادى الآخرة، دخل الخليفة بفاطمة خاتون بنت السلطان مسعود، وكان يوم حملها إلى دار الخليفة يوماً مشهوداً، أُغلقت بغداد عدّة أيّام وزُيّنت[5].

وتزوّج السلطان مسعود بابنة الخليفة المقتفي لأمر اللّه، وعقد عليها، واستقرّ أن

= كثيرة في مناطق باريسوس وخاجن (حالياً: كرباخ) كما في السهول كذلك في الجبال. نتيجة لهذا الزلزال فإن عاصمة غنجاق كذلك كانت في جحيم تبلع سكانها. وفي كل أطراف سطح الأرض أمسكتهم في أحضانها؛ وفي المناطق الجبلية هدم كثير من القلاع والقرى مع الأديرة والكنائس على رؤوس ساكنيها وقُتل خلق لا يُحصى بواسطة الأبنية المهدّمة والأبراج الكثيرة.

ويقول كيراكوس فانزاكيتس أحد سكان كنجة إنه في عام ٥٨٨ (حسب التقويم الأرمني) حدثت هزّة أرضية عنيفة خرّبت مدينة كنجة ودمرت المنازل على ساكنيها، وقد قُتل من جرّاء الهزّة كثير من الرجال والنساء والأولاد، ويصعب حصر الذين بقيوا تحت الركام. (أنظر: زبدة التواريخ ٢١٧ بالحاشية).

وقال البنداري: إن مدينة جنزة وأعمالها قد خُسِف بها ـ وإن الزلزلة قد هدمتها، وإنها خربت حتى كأن الأرض عدمتها، وأن الكفار الأبخازية والكرجية هجمتها، وقد باد من أهلها مقدار ثلاثمائة ألف نفس، فأمرّوا الباقين إلا من احتمى بقلعتها، وأوى إلى قلعتها، وذلك مع تشعّث سورها، وتهدّم دُورها، وأن الأموال نُبشت، وأن الخبايا فُتشت، فأغذّ قراسنقر السير إليها. وكان أيواني ابن أبي الليث ـ لعنه اللّه ـ مقدّم عسكر الأبخاز قد قرن بالزلزلة الزلازل، وبالنازلة النوازل، وكان قد حمل باب مدينة جنزة، وبنى مدينة سمّاها جنزة، وعلّق عليها ذلك الباب، واغتنم غيبة قراسنقر عن البلاد فسمّاها العذاب، وذلك في سنة ٥٣٣ (تاريخ دولة آل سلجوق ١٧٥، ١٧٦).

(١) في (أ): «الماء ناحية وخرق».

(٢) في (أ): «إليه محوله تأخذ».

(٣) المنتظم ١٠/ ٨٤ (١٨/ ٣).

(٤) المنتظم ١٠/ ٨٦ (١٨/ ٥).

(٥) المنتظم ١٠/ ٨٥ (١٨/ ٣)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٧٣.

يتأخّر زفافها خمس سنين لصِغره[1].

[الوفيات]

وفيها، في ربيع الأوّل، توفّي القاضي أبو الفضل[2] يحيى ابن قاضي دمشق المعروف بالزكيّ.

---

(١) المنتظم ١٠/ ٨٥ (١٨/ ٣)، تاريخ دولة آل سلجوق ١٧٩، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٧٣، تاريخ الإسلام (٥٣٤ هـ.) ص ٢١٢، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٦، عيون التواريخ ١٢/ ٣٥٥، الكواكب الدرّية ١١٠.

(٢) انظر عن (القاضي أبي الفضل) في: تاريخ الإسلام (٥٣٤ هـ.) ص ٣٦٣، ٣٦٤، رقم ٢٢٣ وفيه مصادر ترجمته، وفيه أيضاً: «أبو المفضّل»، وفي أغلب المصادر من غير ميم.

(٥٣٥)
ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة

ذكر مسير جهار دانكيّ إلى العراق وما كان منه

في هذه السنة أمر السلطان مسعود الأميرَ إسماعيل المعروف بجهاردانكيّ، والبقش كون خَر، بالمسير إلى خُوزستان وفارس وأخذهما من بوزابة، وأطلق لهما نفقة على بغداد، فسارا فيمن معهما إلى بغداد، فمنعهم مجاهد الدين بهروز من دخولها، فلم يقبلوا منه، فأرسل إلى المعابر فخسفها وغرّقها، وجدّ في عمارة السور، وسدّ باب الظفريّة وباب كَلْواذى، وأغلق باقي الأبواب، وعلّق عليها السلاح وضرب الخيام للمقاتلة.

فلمّا علما بذلك عبرا بصَرْصَر، وقصدا الحِلّة، فمُنعا منها، فقصدا واسط، فخرج إليهما الأمير طرنطايّ[١] وتقاتلوا، فانهزم طرنطايّ، ودخلوا واسط فنهبوها ونهبوا بلد فرسان[٢] والنعمانيّة، وانضمّ طرنطايّ إلى حمّاد بن أبي الخير[٣] صاحب البَطِيحة، ووافقهم عسكر البصرة، وفارق إسماعيل والبقش بعض عسكرهما، وصارا مع طرنطايّ، فضعُف أولئك، فسار إلى تُستر، واستشفع إسماعيل إلى السلطان فعفا[٤] عنه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وصل رسول من السلطان سنجَر، ومعه بُردة النبيّ صلّى اللّه عليه

---

(١) في (أ): «طرمطاي».

(٢) في (أ): «قوسان».

(٣) في (أ): «أبي الجبر».

(٤) في الأوربية: «فعفى».

وسلّم، والقضيب، وكانا قد أُخذا من المسترشد، فأعادهما الآن إلى المقتفي[1].

وفي هذه السنة توفّي أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وأرّانيّة بمدينة أردبيل، وكان مرضه السلّ، وطال به، وكان من مماليك الملك طُغْرل، وسُلّمت أذربيجان وأرّانيّة إلى الأمير جاولي الطُغرليّ. وكان قراسنقر علا شأنه على سلطانه، وخافه السلطان[2].

وفيها كان بين أتابك زنكي وبين داود سقمان بن أرتق، صاحب حصن كيفا، حربٌ شديدةٌ، وانهزم داود بن سقمان، وملك زنكي من بلاده قلعة بهمرد، وأدركه الشتاء فعاد إلى الموصل[3].

وفيها ملك الإسماعيليّة حصن مصيات[4] بالشام، وكان واليه مملوكاً لبني مُنقِذ أصحاب شَيْزَر، فاحتالوا عليه، ومكروا به حتى صعدوا إليه وقتلوه، وملكوا الحصن، وهو بأيديهم إلى الآن[5].

[الوفيات]

وفيها توفّي سديد الدولة[6] بن الأنباريّ، واستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا

---

(١) المنتظم ١٠/ ٩٠ (١٨/ ١٠)، تاريخ الإسلام (٥٣٥ هـ.) ص٢١٨، عيون التواريخ ١٢/ ٣٦١، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٧، الكواكب الدرّية ١١٢، مآثر الإنافة ٢/ ٣٦، تاريخ ابن سباط ١/ ٧٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥.

(٢) أنظر عن (قراسنقر) في: زبدة التواريخ ٢١٢ ـ ٢١٨، وتاريخ دولة آل سلجوق ١٧٣ ـ ١٧٦، وتايخ الإسلام (٥٣٥ هـ.) ص ٣٨٨ رقم ٢٥٣.

(٣) زبدة الحلب ٢/ ٢٧٦ (حوادث ٥٣٨ هـ.)

(٤) في معجم البلدان ٥/ ١٤٤ «مصياب» (بالباء) حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامي قرب طرابلس. وبعضهم يقول: «مِصْياف».
وفي ذيل تاريخ دمشق ٢٧٤ «مصيات» بالثاء المثلّثة، ومثله في: مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٧٧، وفي دول الإسلام ٢/ ٥٤، «ميصاف»، وفي تاريخ الإسلام (٥٣٥ هـ.) ص ٢١٦ كما هو مثبت هنا.
والمشهور الآن «مصياف».

(٥) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٤، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥، دول الإسلام ٢/ ٥٤، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٧، عيون التواريخ ١٢/ ٣٦١، تاريخ الإسلام (٥٣٥ هـ.) ص ٢١٦، الكواكب الدرّية ١١٣، تاريخ ابن سباط ١/ ٧٢.

(٦) تاريخ الإسلام (٥٣٥ هـ.) ص ٢١٦.

نصر المظفّر محمّد بن محمّد بن جَهِير، وكان قبل ذلك أستاذ الدار[١].

وفيها توفّي يرنقش بازدار صاحب قزوين.

وفيها، في رجب، ظفر ابن الدانشمند، صاحب مَلَطية وغيرها من تلك النواحي، بجمْع من الروم فقتلهم[٢] وغنِم ما معهم.

وفيها، في رمضان، سارت طائفة من الفرنج بالشام إلى عَسْقلان ليُغيروا على أعمالها، وهي لصاحب مصر، فخرج إليهم العسكر الذي بعسقلان فقاتلهم، فظفر المسلمون وقتلوا من الفرنج كثيراً[٣]، فعادوا منهزمين[٤].

وفيها بُنيت المدرسة الكماليّة ببغداد؛ بناها كمال الدين أبو الفتوح[٥] بن طلحة صاحب المخزن، ولما فرغت درّس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخلّ، وحضره أرباب المناصب وسائر الفقهاء.

[الوفيات]

وفهيا، في رجب، مات القاضي أبو بكر محمّد[٦] بن عبد الباقي الأنصاري، قاضي المارِسْتان، عن نيّفٍ وتسعين سنة، وله الإسناد العالي في الحديث، وكان عالماً بالمنطق، والحساب، والهيئة، وغيرها من علوم الأوائل، وهو آخر مَن حدّث في الدنيا عن أبي إسحق البرمكيّ، والقاضي أبي الطيّب الطبريّ، وأبي طالب العشاريّ، وأبي محمّد الجوهريّ، وغيرهم.

وتوفّي الإمام الحافظ أبو القاسم إسماعيل[٧] بن محمّد بن الفضل الأصفهانيّ

---

(١) المنتظم ١٠/٨٨،(١٨/٨)، تاريخ دولة آل سلجوق ١٧٩، وفيات الأعيان ٤/٣٦٢.

(٢) في الأوربية: «فقتلوهم».

(٣) في «أ»: «جمعاً».

(٤) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٣،٢٧٤، تاريخ الإسلام (٥٣٥ هـ.) ص ٢١٨.

(٥) في (أ): «الفتوح بن علي»، وفي (ب): «الفتوح حمزة بن علي».

(٦) في طبعة صادر ١١/٨٠ «أبو بكر بن محمد»، والتصحيح من: تاريخ الإسلام (٥٣٥ هـ.) ص ٣٩٠ ـ ٣٩٤ رقم ٢٥٧ وفيه حشدت مصادر ترجمته. والتصحيح أيضاً من (أ).

(٧) أنظر عن (الحافظ إسماعيل) في: تاريخ الإسلام (٥٣٥ هـ.) ص ٣٦٧ ـ ٣٧٣ رقم ٢٢٨ وفيه حشدت مصادره.

عاشر ذي الحجّة، ومولده سنة تسعٍ وخمسين [وأربعمائة]، وله التصانيف المشهورة.

وتوفّي يوسف بن أيّوب[1] بن يوسف بن الحسن أبو يعقوب الهمذانيّ من أهل بروجرد، وسكن مَرْو، وتفقّه على أبي إسحق الشيرازي، وروى الحديث، واشتغل بالرياضات والمجاهدات، ووعظ ببغداد، فقام إليه متفقّه يقال له ابن السقّاء وسأله وَآذاه في السؤال فقال: اسكت، إنّي أشمّ منك ريح الكفر! فسافر الرجل إلى بلد الروم وتنصّر.

وفيها مات أبو القاسم عليُّ بن أفلح[2] الشاعر المشهور.

---

(١) أنظر عن (يوسف بن أيوب) في: تاريخ الإسلام (٥٣٥ هـ.) ص ٣٩٦ ـ ٤٠٠ رقم ٢٦٣ وفيه حشدت مصادره.

(٢) انظر عن (علي بن أفلح) في: تاريخ الإسلام (٥٣٣ هـ.) ص ٣٢٦، ٣٢٧ رقم ١٥٦ وفيه مصادر ترجمته.

(٥٣٦)
ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة

ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخِطا[1] ومُلكهم ما وراء النهر

قد ذكر أصحاب التواريخ في هذه الحادثة أقاويل نحن نذكرها جميعها للخروج من عهدتها، فنقول:

في هذه السنة، في المحرّم، انهزم السلطان سنجَر من الترك الكفّار، وسبب ذلك أنّ سنجَر كان قتل ابناً لخوارزم شاه أتسِز بن محمّد، كما ذكرناه قبل، فبعث خُوارزم شاه إلى الخِطا، وهم بما وراء النهر، يُطمعهم في البلاد، ويروّج عليهم أمرها، وتزوّج إليهم، وحثّهم على قصد مملكة السلطان سنجَر، فساروا في ثلاثمائة ألف فارس، وسار إليهم سنجَر في عساكره، فالتقوا بما وراء النهر، واقتتلوا أشدّ قتال، وانهزم سنجَر في جميع عساكره، وقُتل منهم مائة ألف قتيل، منهم: أحد عشر ألفاً كلّهم صاحب عمامة، وأربعة آلاف امرأة، وأُسرت زوجة السلطان سنجَر، وتمّ سنجَر منهزماً إلى تِرْمِذ، وسار منها إلى بلْخ.

ولما انهزم سنجَر قصد خُوارزم شاه مدينة مرو، فدخلها مراغمة للسلطان سنجَر، وقتل بها، وقبض على أبي الفضل الكرمانيّ الفقيه الحنفيّ، وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من أعيان البلد.

ولم يزل السلطان سنجَر مسعوداً إلى وقتنا هذا لم تنهزم له راية، ولما تمّت عليه هذه الهزيمة أرسل إلى السلطان مسعود، وأذِن له في التصرّف في الريّ، وما يجري معها على قاعدة أبيه السلطان محمّد، وأمره أن يكون مقيماً فيها بعساكره بحيث إن دعت حاجةٌ استدعاه لأجل هذه الهزيمة، فوصل عبّاس صاحب الرَّيّ إلى بغداد

---

(١) الخِطا: بكسر الخاء المعجمة.

بعساكره، وخدم السلطان مسعوداً خدمة عظيمة، وسار السلطان إلى الريّ امتثالاً لأمر عمّه سنجر.

وقيل: إنّ بلاد تُرْكستان، وهي كاشغَر، وبلاساغون، وختن، وطراز وغيرها ممّا يجاورها من بلاد ما وراء النهر كانت بيد الملوك الخانيّة الأتراك، وهم مسلمون من نسل افراسياب التركيّ، إلاّ أنّهم مختلفون. وكان سبب إسلام جدّهم الأول واسمه سبق قراخاقان أنّه رأى في منامه كأنّ رجلاً نزل من السماء فقال بالتركيّة ما معناه: أسْلِم تَسْلَم في الدنيا والآخرة؛ فأسلم في منامه، وأصبح فأظهر إسلامه، فلمّا مات قام مقامه ابنه موسى بن سبق، ولم يزل المُلك بتلك الناحية في أولاده إلى أرسلان خان محمّد بن سليمان بن داود بغراخان بن إبراهيم الملقّب بطمغاج خان بن ايلك الملقّب بنصر أرسلان بن عليّ بن موسى بن سبق، فخرج على قدرخان فانتزع المُلك منه، فقتل سنجَر قدرخان، كما ذكرناه، سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وأعاد المُلك إلى أرسلان خان، وثبت قدمه. وخرج[1] خوارج، فاستصرخ السلطان سنجَر فنصره وأعاده إلى مُلكه أيضاً.

وكان من جُنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغليّة[2] والأتراك الغُزّيّة الذين نهبوا خُراسان على ما نذكره إن شاء اللّه، وهم نوعان: نوع يقال لهم أجق، وأميرهم طوطى بن دادبك؛ ونوع يقال لهم برق[3]، وأميرهم قرعوت بن عبد الحميد، فحسّن الشريف الأشرف بن محمّد بن أبي شجاع العلويّ السمرقنديّ لولد أرسلان خان المعروف بنصر خان طَلبَ المُلك من أبيه وأطمعه، فسمع محمّد خان الخبر، فقتل الابن والشريف الأشرف.

وجرت بين أرسلان خان وبين جُنده القارغليّة[4] وحشة دعتهم إلى العصيان عليه وانتزاع المُلك منه، فعاود الاستغاثة بالسلطان سنجَر، فعبر جَيحون بعساكره سنة أربعٍ وعشرين وخمسمائة، وكان بينهما مصاهرة، فوصل إلى سَمَرقند، وهرب القارغليّة من بين يديه.

---

(١) في (أ): «وخرج عليه».
(٢) في (أ): «القارلغية».
(٣) في (أ): «سرق».
(٤) في (أ): «القارلغية».

واتّفق أنّ السلطان سنجَر خرج إلى الصيد، فرأى خيّالة، فقبض عليهم، فأقرّوا بأنّ أرسلان خان وضعهم على قتله، فعاد إلى سمرقند، فحصر أرسلان خان بالقلعة فملكها، وأخذه أسيراً، وسيّره إلى بلخ فمات بها، وقيل: بل غدر به سنجَر، واستضعفه، فملك البلد منه، فأشاع عنه ذلك.

فلمّا ملك سمرقند استعمل عليها بعده قلج طمغاج أبا المعالي الحسن بن عليّ بن عبد المؤمن المعروف بحسن تِكين، وكان من أعيان بيت الخانيّة، إلاّ أنّ أرسلان خان اطّرحه، فلمّا وليَ سمرقند لم تطُلْ أيّامه، فمات عن قليل، فأقام سنجَر مقامه الملك محمود بن أرسلان خان محمّد بن سليمان بن داود بغراخان، وهو ابن الذي أخذ منه سنجر سمرقند، وكان محمود هذا ابن أخت سنجر، وكان قبل ذلك، سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، قد وصل الأعور الصينيّ إلى حدود كاشغَر في عددٍ كثير لا يعلمهم إلاّ اللّه، فاستعدّ له صاحب كاشغَر، وهو الخان أحمد بن الحسن، وجمع جنوده، فخرج إليه، والتقوا، فاقتتلوا، وانهزم الأعور الصينيّ، وقُتل كثير من أصحابه، ثمّ إنّه مات، فقام مقامه كوخان الصينيّ.

وكو بلسان الصين لقبٌ لأعظم ملوكهم، وخان لقبٌ لملوك الترك فمعناه أعظم الملوك. وكان يلبس لِبسة ملوكهم من المَقنعة والخمار، وكان مانَويَّ المذهب. ولما خرج من الصين إلى تركستان انضاف إليه الأتراك الخطا، وكانوا قد خرجوا قبله من الصين، وهم في خدمة الخانيّة أصحاب تركستان.

وكان أرسلان خان محمّد بن سليمان يسيّر كلَّ سنة عشرة آلاف خركاة ويُنزلهم على الدروب التي بينه وبين الصين، يمنعون أحداً من الملوك أن يتطرّق إلى بلاده، وكان لهم على ذلك جرايات وإقطاعات، فاتّفق أنّه وجد عليهم في بعض السنين، فمنعهم عن نسائهم لئلاّ يتوالدوا، فعظُم عليهم، ولم يعرفوا وجهاً يقصدونه وتحيّروا، فاتّفق أنّه اجتاز بهم قَفَلٌ عظيمٌ فيه الأموال الكثيرة والأمتعة النفيسة، فأخذوه وأحضروا التجّار وقالوا لهم: إن كنتم تريدون أموالكم فتعرّفونا بلداً كثير المرعى فسيحاً، يسعنا ومعنا أموالنا، فاتّفق رأي التجار على بلد بلاساغون فوصفوه لهم، فأعادوا إليهم أموالهم، وأخذوا الموكّلين بهم لمنعهم عن نسائهم وكتّفوهم، وأخذوا نساءهم، وساروا إلى بلاساغون، وكان أرسلان خان يغزوهم ويُكثِر جهادهم فخافوه خوفاً عظيماً.

فلمّا طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصينيّ انضافوا إليه أيضاً، فعظُم شأنهم وتضاعف جَمْعهم، وملكوا بلاد تركستان، وكانوا إذا ملكوا المدينة لا يغيّرون على أهلها شيئاً، بل يأخذون من كلّ بيت ديناراً من أهل البلاد وغيرها من القُرى، وأمّا المزدرعات وغير ذلك فلأهله، وكلّ مَن أطاعهم من الملوك شدّ في وسطه شبه لوح فضّة، فتلك علامة مَن أطاعهم.

ثمّ ساروا إلى بلاد ما وراء النهر، فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمّد بن حدود خجندة[1] في رمضان سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، واقتتلوا، فانهزم الخاقان محمود بن محمّد، وعاد إلى سمرقند، فعظُم الخطب على أهلها، واشتدّ الخوف والحزن، وانتظروا البلاء صباحاً ومساء، وكذلك أهل بخارى وغيرها من بلاد ما وراء النهر، وأرسل الخاقان محمود إلى السلطان سنجَر يستمدّه ويُنهي إليه ما لقي المسلمون، ويحثّه على نُصرتهم، فجمع العساكر، فاجتمع عنده ملوك خُراسان: صاحب سجستان والغور، وملك غَزْنَة، وملك مازندران وغيرهم، فاجتمع له أكثر من مائة ألف فارس، وبقي العرض ستّة أشهر.

وسار سنجَر إلى لقاء الترك، فعبر إلى ما وراء النهر في ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، فشكا إليه محمود بن محمّد خان من الأتراك القارغليّة[2]، فقصدهم سنجَر، فالتجأوا إلى كوخان الصينيّ ومَن معه من الكفّار، وأقام سنجَر بسمرقند، فكتب إليه كوخان كتاباً يتضمّن الشفاعة في الأتراك القارغليّة، ويطلب منه أن يعفو عنهم، فلم يشفّعه فيهم، وكتب إليه يدعوه إلى الإسلام ويتهدّده إن لم يُجِبْ إليه، ويتوعّده بكثرة عساكره، ووصفهم، وبالغ في قتالهم بأنواع السلاح حتى قال: وإنّهم يشقّون الشعر بسهامهم؛ فلم يُرضِ هذا الكتاب وزيره طاهر بن فخر المُلك بن نظام المُلك، فلم يُصْغ إليه، وسيّر الكتاب، فلمّا قُرىء الكتاب على كوخان أمر بنتف لحية الرسول، وأعطاه إبرةً، وكلّفه شقّ شعرة من لحيته، فلم يقدر أن يفعل ذلك، فقال: كيف يشقّ غيرك شعرة بسهم، وأنت عاجز عن شقّها بإبرة؟

واستعدّ كوخان للحرب، وعنده جنود الترك، والصين، والخطا، وغيرهم،

---

(١) في (أ): «بحدود»، وفي (ب): «خجند»، وفي الباريسية: «حجبة».
(٢) في (أ): «القارلغية».

وقصد السلطان سنجَر، فالتقى العسكران، وكانا كالبحرين العظيمَين، بموضعٍ يقال له قطوان، وطاف بهم كوخان حتى ألجأهم إلى وادٍ له درغم، وكان على ميمنة سنجَر الأمير قماج، وعلى ميسرته ملك سجستان، والأثقال وراءهم، فاقتتلوا خامس صفر سنة ستّ وثلاثين وخمسمائة.

وكانت الأتراك القارغليّة الذين هربوا من سنجَر من أشدّ النّاس قتالاً، ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجَر أحسن قتالاً من صاحب سجستان، فأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين، فقُتل منهم ما لا يُحصى من كثرتهم، واشتمل وادي درغم على عشرة آلاف من القتلى والجرحى، ومضى السلطان سنجَر منهزماً، وأُسر صاحب سجستان، والأمير قماج، وزوجة السلطان سنجر، وهي ابنة أرسلان خان، فأطلقهم الكفّار، وممّن قُتل الحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخاريّ الفقيه الحنفيّ المشهور، ولم يكن في الإسلام وقعة أعظم من هذه ولا أكثر ممّن قُتل فيها بخُراسان.

واستقرّت دولة الخطا والترك الكفّار بما وراء النهر، وبقي كوخان إلى رجب من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فمات فيه. وكان جميلاً، حسن الصورة، لا يلبس إلاّ الحرير الصينيّ، له هيبة عظيمة على أصحابه، ولم يسلّط أميراً على أقطاع بل كان يُعطيهم من عنده، ويقول: متى أخذوا الأقطاع ظلموا؛ وكان لا يقدّم أميراً على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه؛ وكان ينهى أصحابه عن الظُلم، وينهى عن السكر[1] ويعاقب عليه، ولا ينهى عن الزنا ولا يقبّحه.

وملك بعده ابنة له، فلم تطُلْ مدّتها حتى ماتت، فملك بعدها أمّها زوجة كوخان وابنة عمّه، وبقي ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن أخذه منهم علاء الدين محمّد خُوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستّمائة، على ما نذكره إن شاء الله[2].

---

(١) في (أ): «الفساد».

(٢) المنتظم ١٠/ ٩٦، ٩٧ (١٨/ ١٩)، تاريخ حلب ٣٩٦ (٥٥)، ذيل تاريخ دمشق ٢٧٥، تاريخ الزمان ١٥٥ ، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٨٠، نهاية الأرب ٢٦/ ٣٨٥، الدرّة المضية ٥٣٤، ٥٣٥، العبر ٤/ ٩٨، تاريخ الإسلام (٥٣٦ هـ.) ص ٢٢٠، ٢٢١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٤، الكواكب الدرية ١١٤، شذرات الذهب ٤/ ١١١، تاريخ ابن سباط ١/ ٧٣، ٧٤، راحة الصدور (لندن) ١٧٢، حبيب السير ٢/ ٥٠٩، تاريخ كزيده (طهران) للقزويني ٤٤٩، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٥، ١٦، العبر =

ذكر ما فعله خُوارزم شاه بخُراسان

قد ذكرنا قبلُ قصد[1] السلطان سنجَر خُوارزم، وأخذها من خُوارزم شاه أتسِز، وعوده إليها، وقتل ولد خُوارزم شاه، [وأنّه هو الذي راسل الخطا وأطمعهم في بلاد الإسلام، فلمّا لقيهم السلطان سنجَر وعاد منهزماً][2] سار خُوارزم شاه إلى خُراسان، فقصد سَرْخَس في ربيع الأوّل من[3] السنة.

فلمّا وصل إليها لقيه الإمام أبو محمّد الزياديّ، وكان قد جمع بين الزهد والعلم، فأكرمه خُوارزم شاه إكراماً عظيماً، ورحل من هناك إلى مرو الشاهجان، فقصده الإمام أحمد الباخَرْزِيّ، وشفع في أهل مَرْو، وسأل ألاّ يتعرّض لهم[4] أحد من العسكر، فأجابه إلى ذلك، ونزل بظاهر البلد، واستدعى أبا الفضل الكرْمانيّ الفقيه وأعيان أهلها، فثار عامّة مرو، وقتلوا بعض أهل خُوارزم شاه، وأخرجوا أصحابه من البلد، وأغلقوا أبوابه، واستعدّوا للامتناع، فقاتلهم خُوارزم شاه، ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الأوّل من السنة، وقتل كثيراً من أهلها.

وممّن قُتل: إبراهيم المروزيّ الفقيه الشافعيّ، وعليُّ (بن محمّد)[5] بن أرسلان، وكان ذا فنون كثيرة من العلم، وقُتل الشريف عليّ بن إسحق المُوسَويُّ، وكان رأس فتنة وملقح شرّ، وقتل كثيراً من أعيان أهلها وعاد إلى خُوارزم، واستصحب معه علماء كثيرين[6] من أهلها منهم: أبو الفضل الكرْمانيّ، وأبو منصور العباديّ، والقاضي الحسين بن محمّد الأرسابنديّ، وأبو محمّد الخَرَقيّ الفيلسوف، وغيرهم[7].

ثمّ سار في شوّال من السنة إلى نَيسابور، فخرج إليه جماعة من فقهائها وعلمائها

= ٤/ ٩٨، دول الإسلام ٢/ ٥٥ (حوادث ٥٣٥ هـ.)، مرآة الجنان ٣/ ٢٦٦، ٢٦٧، عيون التواريخ ١٢/ ٢٦٧، ٢٦٨، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٦٤، ٦٥.

(١) في الباريسية: «قصة».

(٢) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

(٣) في الباريسية. والنسخة رقم ٧٤٠ «في».

(٤) في الأوربية: «يعترض إليهم».

(٥) من (أ).

(٦) في الأوربية: «كثيراً».

(٧) المنتظم ١٠/ ٩٥ (١٨/ ١٧)، تاريخ الإسلام (٥٣٦ هـ.) ص ٢١٩، عيون التواريخ ١٢/ ٣٦٧.

وزهّادها، وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور ما فعل بأهل مرو، فأجابهم إلى ذلك، لكنّه استقصى في البحث عن أموال أصحاب السلطان فأخذها، وقطع خطبة السلطان سنجَر، أوّل ذي القعدة، وخطبوا له؛ فلمّا ترك الخطيب ذكر السلطان سنجَر، وذكر خُوارزم شاه صاح النّاس وثاروا، وكادت الفتنة تثور والشرّ يعود جديداً، وإنّما منع النّاس من ذلك ذوو الرأي والعقل نظراً في العاقبة، فقُطعت إلى[1] أوّل المحرّم سنة سبعٍ وثلاثين [وخمسمائة]، ثم أعيدت خطبة السلطان سنجَر.

ثمّ سيّر خُوارزم شاه جيشاً إلى أعمال بَيْهق، فأقاموا بها يقاتلون أهلها خمسة أيّام، ثمّ سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد، وعملوا بخُراسان أعمالاً عظيمة، ومنع السلطان سنجَر من مقاتلة أتسِز خُوارزم شاه خوفاً من قوّة الخِطا بما وراء النهر، ومجاورتهم خُوارزم وغيرها من بلاد خُراسان.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ملك أتابك زنكي بن آقسنقر مدينة الحديثة، ونقل مَن كان بها من آل مهراش إلى الموصل، ورتّب أصحابه فيها[2].

وفيها خُطب لزنكي أيضاً بمدينة آمِد، وصار صاحبها في طاعته، وكان قبل ذلك موافقاً لداود على قتال زنكي، فلمّا رأى قوّة زنكي صار معه[3].

وفيها عُزل مجاهد الدين بهروز عن شِحنكيّة بغداد، ووليها قزل أمير آخُر، وهو من مماليك السلطان محمود، وكان له بروجرد والبصرة، فأضيف إليه شِحنكيّة بغداد، ثمّ وصل السلطان مسعود إلى بغداد، فرأى من تبسّط العيّارين وفسادهم ما ساءه، فأعاد بهروز إلى الشِحنكيّة، فتاب كثير منهم، ولم ينتفع النّاس بذلك، لأنّ ولد الوزير وأخا امرأة السلطان كانا يقاسمان العيّارين، فلم يقدر بهروز على منعهم[4].

---

(١) في (أ): «في».

(٢) المنتظم ١٠/١٠٢ (١٨/٢٢٦) (حوادث ٥٣٧ هـ.)، التاريخ الباهر ٦٤، مفرّج الكروب ١/٩٠، الدرة المضية ٥٣٦ (حوادث ٥٣٦ هـ.)، البداية والنهاية ١٢/٢١٨، الكواكب الدرّية ١١٤، النجوم الزاهرة ٥/٢٧١، تاريخ الإسلام (٥٣٧ هـ.) ص ٢٢٢.

(٣) أنظر الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ٢/٤٣٨.

(٤) المنتظم ١٠/٩٥ (١٨/١٧)، تاريخ الإسلام (٥٣٦ هـ.) ص ٢٢٠.

وفيها تولّى عبد الرحمن بن طُغايرك[1] حجبة السلطان، واستولى على المملكة وعزل الأمير تتر الطُغْرُليّ عنها، وآل أمره إلى أن يمشي في ركاب عبد الرحمن.

وفيها توفّي إبراهيم السهاويّ[2] مقدّم الإسماعيليّة، فأحرقه ولد عبّاس صاحب الرَّيّ في تابوته.

وفيها حجّ كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن، وعاد وقد لبس ثياب الصوفيّة، وتخلّى عن جميع ما كان فيه، وأقام في داره مَرْعيَّ[3] الجانب، محروس القاعدة.

وفيها وصل السلطان إلى بغداد وكان الوزير الزينبيّ بدار السلطان، كما ذكرناه، فسأل السلطان أن يشفع فيه ليردّه الخليفة إلى داره، فأرسل السلطان وزيره إلى دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبيّ، وشفع في أن يعود إلى داره، فأُذِن له في ذلك، وأُعيد أخوه إلى نقابة النقباء، فلزِم الوزير داره، ولم يخرج منها إلاّ إلى الجامع[4].

وفيها أغار عسكر أتابكي زنكي من حلب على بلاد الفرنج، فنهبوا وأحرقوا، وظفروا بسريّة الفرنج، فقتلوا فيهم وأكثروا، فكان عدّة القتلى سبع مائة رجل[5].

وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق، فسيّر السلطان مسعود سريّة إليهم من العسكر، فنهبوا حِلّتهم، وقتلوا مَن ظفروا به منهم، وعادوا سالمين[6].

وفيها سيّر رُجّار الفرنجيّ صاحب صقليّة أسطولاً إلى أطراف إفريقية، فأخذوا مراكب سُيّرت من مصر إلى الحسن صاحب إفريقية، وغدر بالحَسَن، ثمّ راسله

---

(١) في طبعة صادر ٨٩/١١ «عبد الرحمن طغايرك»، والمضاف من (أ) وتاريخ دولة آل سلجوق ١٧٧.

(٢) هكذا في الأصل وطبعة صادر ٨٩/١١، وفي المنتظم (المطبوع) ٩٥/١٠ و (١٧/١٨) «السهولي» وفي الأصل «السهلوي»، وفي نسخة: «البهلوي»، وفي تاريخ الإسلام (٥٣٦ هـ.) ص ٢١٩ «البهلوي» أيضاً.

(٣) في الأوربية: «مرعا».

(٤) المنتظم ٥٦/١٠ (١٨/١٨)، تاريخ الإسلام (٥٣٦ هـ.) ص ٢٢٠.

(٥) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٤، تاريخ حلب ٣٩٦ (٥٥)، زبدة الحلب ٢٧٥/٢.

(٦) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٤،٢٧٥، تاريخ حلب ٣٩٦ (٥٥).

الحسن، وجدّد الهدنة لأجل حمل الغلات من صَقلّيّة إلى إفريقية، لأنّ الغلاء كان فيها شديداً والموت كثيراً.

[الوفيات]

وفيها توفّي أبو القاسم عبد الوهّاب بن عبد الواحد[1] الحنبليّ الدمشقيّ، وكان عالماً صالحاً.

وفيها توفّي ضياء الدين أبو سعيد بن الكَفَرْتُوثيّ[2] وزير أتابك زنكي، وكان حَسَن السيرة في وزارته، كريماً، رئيساً.

وفيها توفّي أبو محمّد طاووس[3] إمام الجامع بدمشق في المحرّم، وكان رجلاً صالحاً، فاضلاً.

وفيها توفّي أبو القاسم إسماعيل بن أحمد بن عمر بن أبي الأشعث المعروف بابن السمرقنديّ[4]، وُلد بدمشق سنة أربعٍ وخمسين وأربعمائة، وكان مُكثِراً من الحديث.

---

(١) أنظر عن (ابن عبد الواحد) في: تاريخ الإسلام (٥٣٦ هـ.) ص ٤١٧، ٤١٨ رقم ٢٨٧ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) أنظر عن (الكفرتوثي) في: تاريخ حلب ٣٩٦ (٥٥)، ذيل تاريخ دمشق ٢٧٥، وزبدة الحلب ٢/٢٧٦.

(٣) أنظر عن (ابن طاووس) في تاريخ حلب ٣٩٦ (٥٥)، وذيل تاريخ دمشق ٢٧٦.

(٤) أنظر عن (ابن السمرقندي) في: تاريخ الإسلام (٥٣٦ هـ.) ص ٤٠٦ ـ ٤٠٨ رقم ٢٧٢ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٥٣٧)
ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة

ذكر مُلك أتابك زنكي قلعة آشِب[1] وغيرها من الهكّاريّة

في هذه السنة أرسل أتابك زنكي جيشاً إلى قلعة آشِب[1]، وكانت أعظم حصون الأكراد الهكّاريّة وأمنعها، وبها أموالهم وأهلهم، فحصروها وضيّقوا على مَن بها فملكوها، فأمر بإخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعماديّة عِوَضاً عنها.

وكانت هذه العماديّة حصناً عظيماً من حصونهم، فخرّبوه لكِبره لأنّه كبير جدّاً، وكانوا يعجزون عن حِفْظه، فخُرّبت الآن آشِب[1] وعُمِّرت العِماديّة، وإنّما سُمّيت العِماديّة، نسبة إلى لَقَبه؛ وكان نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبليّة[2].

ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب

وفي هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صَقَلّيّة إلى طرابلس الغرب فحصروها؛ وسبب ذلك أنّ أهلها في أيّام الأمير الحسن، صاحب إفريقية، لم يدخلوا يداً في طاعته، ولم يزالوا مخالفين مشاقّين[3] له، قد قدّموا عليهم من بني مطروح مشايخ يدبّرون أمرهم، فلمّا رآهم ملك صَقَلّيّة كذلك جهّز إليهم جيشاً في البحر، فوصلوا إليهم تاسع ذي الحجّة، فنازلوا البلد وقاتلوه، وعلّقوا الكلاليب في سوره ونقبوه.

فلمّا كان الغد وصل جماعة من العرب نجدةً لأهل البلد، فقوي أهل طرابلس

---

(١) هي قلعة الشعباني كما في (ب) ومعجم البلدان ١/ ٥٤، والتاريخ الباهر ٦٤.

(٢) تاريخ حلب ٣٩٦ (٥٥)، ذيل تاريخ دمشق ٢٧٧، التاريخ الباهر ٦٤، زبدة الحلب ٢/ ٢٧٦، ٢٧٧، الروضتين ٩١، ٩٢، المختصر لأبي الفداء ٣/ ١٦، نهاية الأرب ٢٧/ ١٤٠، ١٤١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٤، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٣٥، الكواكب الدرّية ١١٤، تاريخ ابن سباط ١/ ٧٤.

(٣) في الأوربية: «مشافقين».

بهم، فخرجوا إلى الأسطوليّة، فحملوا عليهم حملة منكرة، فانهزموا هزيمة فاحشة، وقُتل منهم خلْق كثير، ولحِق الباقون بالأسطول، وتركوا الأسلحة والأثقال والدوابّ، فنهبها العرب وأهل البلد. ورجع الفرنج إلى صَقَليّة، فجدّدوا أسلحتهم وعادوا إلى المغرب، فوصلوا إلى جيجل، فلمّا رآهم أهل البلد هربوا منه إلى البراري والجبال، فدخلها الفرنج وسبوا مَن أدركوا فيها وهدموها، وأحرقوا القصر الذي بناه يحيَى بن العزيز بن حمّاد للنزهة ثمّ عادوا(١).

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة خرج حسن أمير الأمراء على السلطان سَنْجَر بخُراسان.

وفيها توفّي محمّد بن دانشمند(٢) صاحب مَلَطية والثغر، واستولى على بلاده الملك مسعود بن قِلج [أرسلان] صاحب قونية، وهو من السلجوقيّة.

وفيها خرج من الروم عسكر كثير إلى الشام، فحصروا الفرنج بأنطاكية، فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم، وأصلح حاله معه، وعاد إلى مدينة أنطاكية، ومات في رمضان من هذه السنة(٣).

ثمّ إنّ ملك الروم بعد أن صالح صاحب أنطاكية سار إلى طرابلس فحصرها، ثمّ سار عنها(٤).

وفيها قبض السلطان مسعود على الأمير ترشك، وهو من خواصّ الخليفة، وممّن رُبّي عنده وفي داره، فساء ذلك الخليفة، ثمّ أطلقه السلطان حِفْظاً لقلب الخليفة(٥).

وفيها كان بمصر وباء عظيم فهلك فيه أكثر أهل البلاد(٦).

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/١٦.

(٢) أنظر عن (ابن دانشمند) في: ذيل تاريخ دمشق ٢٧٧، تاريخ مختصر الدول ٢٠٦، العبر ٤/١٠١، تاريخ الإسلام (٥٣٧ هـ.) ص ٢٢٢، المختصر في أخبار البشر ٣/١٦، تاريخ ابن الوردي ٢/٤٤.

(٣) ذيل تاريخ دمشق ٢٧٦، ٢٧٧، تاريخ الإسلام (٥٣٧ هـ.) ص ٢٢٣.

(٤) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (تأليفنا) ج ١/٥٠٣ (الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ./ ١٩٨٤ م.).

(٥) المنتظم ١٠/١٠٥، ١٠٦، (١٨/٣٠) ـ حوادث ٥٣٨ هـ.)

(٦) تاريخ حلب ٣٩٧ (٥٦)، ذيل تاريخ دمشق ٢٧٦، أخبار مصر لابن ميسّر ٢/٨٥، تاريخ الإسلام (٥٣٧ هـ.) ص ٢٢٢، إتعاظ الحنفا ٣/١٧٧.

(٥٣٨)
ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة

ذكر صلح الشهيد والسلطان مسعود

في هذه السنة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته في كلّ سنة، وجمع العساكر، وتجهّز لقصد أتابك زنكي، وكان حقد عليه حقداً شديداً.

وسبب ذلك أنّ أصحاب الأطراف الخارجين على[1] السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه على ما تقدّم ذِكره، فكان ينسب ذلك إلى أتابك زنكي، ويقول إنّه هو الذي سعى فيه وأشار به لعِلمه أنّهم كلّهم كانوا يصدرون عن رأيه؛ فكان أتابك زنكي لا شكّ يفعل ذلك لئلاّ يخلو السلطان فيتمكّن منه ومن غيره؛ فلمّا تفرّغ السلطان، هذه السنة، جمع العساكر ليسير إلى بلاده، فسيّر أتابك يستعطفه ويستميله، فأرسل إليه السلطان أبا عبد الله بن الأنباريّ في تقرير القواعد، فاستقرّت القاعدة على مائة ألف دينار يحملها إلى السلطان ليعود عنه، فحمل عشرين ألف دينار أكثرها عروضٌ؛ ثمّ تنقلّت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مُداراة أتابك، وأطلق له الباقي استمالةً له وحِفْظاً لقلبه، وكان أعظم الأسباب في قُعود[2] السلطان عنه ما يعلمه من حصانة بلاده، وكثرة عساكره وأمواله.

ومن جيّد الرأي ما فعله الشهيد في هذه الحادثة، فإنّه كان ولده الأكبر سيف الدين غازي لا يزال عند السلطان سَفَراً وحَضَراً بأمر والده، فأرسل إليه الآن يأمره بالهرب من عند السلطان إلى الموصل، فأرسل إلى نائبه بها نصير الدين جقر يقول له

---

(١) في الأوربية: «عن».

(٢) في الأوربية: «قعاد».

ليمنعه عن الدخول والوصول إليه، فهرب غازي. وبلغ الخبرُ والدَه، فأرسل إليه يأمره بالعَود إلى السلطان، ولم يجتمع به، وأرسل معه رسولاً إلى السلطان يقول له: إنّ ولدي هرب خوفاً من السلطان لما رأى تغيّره عليّ، وقد أعدتُه إلى الخدمة، ولم أجتمع به، فإنّه مملوكك، والبلاد لك؛ فحلّ ذلك من السلطان محلاًّ عظيماً[1].

ذكر مُلك أتابك بعض ديار بكر

وفي هذه السنة سار أتابك زنكي إلى ديار بكر ففتح منها عدّة بلاد وحصون، فمن ذلك: مدينة طَنْزَة، ومدينة أسْعِرْد[2]، ومدينة حِيزَان، وحصن الرُّوق، وحصن قطليس[3]، وحصن ناتاسا[4]، وحصن ذي القرنين، وغير ذلك ممّا لم يبلغ شهرة هذه الأماكن، وأخذ أيضاً من بلد ماردين ممّا هو بيد الفرنج حملين[5]، والمُوَزَّر، وتل مَوْزَن[6]، وغيرها من حصون جوسلين[7]، ورتّب أمور الجميع، وجعل فيها من الأجناد مَن يحفظها، وقصد مدينة آمِد وحَاني فحصرهما، وأقام بتلك الناحية مُصلِحاً لما فتحه، ومحاصِراً لما لم يفتحه[8].

ذكر أمر العيّارين ببغداد

وفي هذه السنة زاد أمر العيّارين وكثروا لأمنهم من الطلب، بسبب ابن الوزير

---

(١) الخبر في: التاريخ الباهر ٦٥، المنتظم ١٠/ ١٠٥ (١٨/ ٣٠)، الروضتين ١٠/ ٩٢، نهاية الأرب ٢٧/ ١٤١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٦، تاريخ الإسلام (٥٣٨ هـ.) ص ٢٢٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٤، البداية والنهاية ١٢/ ٢١٨، عيون التواريخ ١٢/ ٣٧٧، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٣٥، الكواكب الدرية ١١٥، تاريخ ابن سباط ١/ ٧٥.

(٢) في المختصر لأبي الفداء ٣/ ١٦ «استعرد»، وهي «أسْعِرت» بالتاء. (معجم البلدان ٢/ ٣٣١).

(٣) في التاريخ الباهر، ومفرّج الكروب «فطليس» بالفاء.

(٤) في (ب): والمختصر: «باتاسا» وفي نهاية الأرب: «باناسا». ولم يذكرها ياقوت في معجمه.

(٥) في المختصر: «جملين».

(٦) في المختصر: «تل موزر»، والمثبت هو الصحيح كما في معجم البدان ٢/ ٤٥.

(٧) في المختصر: «من حصون شختان»، وفي نهاية الأرب ٢٧/ ١٤٢ «شبختان»، وفي تاريخ ابن سباط ١/ ٧٦ «شبجان».

(٨) التاريخ الباهر ٦٦، الروضتين ١/ ٩٣، مفرّج الكروب ١/ ٩٢، نهاية الأرب ٢٧/ ١٤٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٦، تاريخ ابن سباط ١/ ٧٥،٧٦.

وابن قاورت[1] أخي زوجة السلطان، لأنّهما كان لهما نصيب في الذي يأخذه العيّارون.

وكان النائب في شِحنكيّة بغداد يومئذٍ مملوك اسمه إيلدكز، وكان صارماً، مِقداماً، ظالماً، فحملهَ الإقدام إلى أن حضر عند السلطان، فقال له السلطان: إنّ السياسة قاصرة، والنّاس قد هلكوا. فقال: يا سلطان العالم إذا كان عقيد العيّارين ولد وزيرك وأخا امرأتك، فأيّ قدرةٍ لي على المفسدين؟ وشرح له الحال، فقال له: الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا، وتصلبهما، فإنْ فعلتَ وإلاّ صلبتُك؛ فأخذ خاتمه وخرج، فكبس على ابن الوزير، فلم يجده، فأخذ مَن كان عنده، وكبس على ابن قاورت[1] فأخذه وصلبه، فأصبح النّاس وهرب ابن الوزير، وشاع في النّاس الأمر، ورُئي ابن قاورت[1] مصلوباً، فهرب أكثر العيّارين، وقبض على مَن أقام، وكفى النّاس شرّهم[2].

ذكر حصر سَنْجَر خُوارزم وصُلحه مع خُوارزم شاه

قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين [وخمسمائة] مسير سنجَر إلى خُوارزم ومُلكه لها، وعَود أتسِز خُوارزم شاه إليها وأخْذها، (وما كان منه بخُراسان بعد ذلك)[3]؛ فلمّا كان في هذه السنة سار السلطان سنجَر إلى خُوارزم، فجمع خُوارزم شاه عساكره، وتحصّن بالمدينة، ولم يخرج منها لقتال، لعِلمه أنّه لا يقوى لسنجَر.

وكان القتال يجري بين الفريقين من وراء السور، فاتّفق [في] يومٍ من بعض الأيّام (أنْ) هجم أميرٌ من أمراء سَنْجَر اسمه سُنْقُر على البلد من الجانب الشرقيّ ودخله، ودخل أمير آخر اسمه مثقال التاجيّ من الجانب الغربيّ، فلم يبقَ غير مُلكه قهراً وعَنْوةً، وانصرف مثقال عن البلد حسداً لسُنقُر، فقوي عليه خُوارزم شاه أتسِز، فأخرجه من البلد، وبقي سُنقُر وحده، واشتدّ في حِفظه، فلمّا رأى السلطان قوّة البلد وامتناعه عزم على العَود إلى مَرْوَ، ولم يمكنه من غير قاعدةٍ تستقرّ بينهما، فاتّفق أنّ

---

(١) في (أ): «قاورد»، وفي المنتظم: «قاور».

(٢) المنتظم ١٠/١٠٦، (١٨/٣٠، ٣١)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/١٨٣، تاريخ الإسلام (٥٣٨ هـ.) ص ٢٢٥.

(٣) ما بين القوسين من (أ). وفي (ب): «وأخذها وذكرنا ما كان».

خُوارزم شاه أرسل رُسُلاً يبذل المال والطاعة والخدمة، ويعود إلى ما كان عليه من الإنقياد، فأجابه إلى ذلك واصطلحا، وعاد سَنْجَر إلى مرو، وأقام خُوارزم شاه بخُوارزم[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة سيّر أتابك زنكي عسكراً إلى مدينة عانة من أعمال الفُرات فملكوها[2].

[الوفيات]

وفيها، في المحرّم، توفّي أبو البركات عبد الوهّاب بن المبارك بن أحمد الأنْماطيّ[3]، الحافظ ببغداد، ومولده سنة اثنتين وستّين وأربعمائة.

وفيها توفّي أبو الفتوح محمّد بن الفضل بن محمّد الإسْفَرَايينيّ[4] الواعظ، من أهل إسْفَرَايين من خُراسان، وأقام مدّة ببغداد يعِظ، وسار إلى خُراسان، فمات ببسطام، وكان إماماً فاضلاً صالحاً، وكان بينه وبين عليّ الغزنويّ تحاسُد، فلمّا مات حضر الغزنويُّ عزاءه ببغداد، وبكى وأكثر، فقال بعض أصحاب أبي الفتوح للغزنوي كلاماً أغلظ له فيه، فلمّا قام الغزنويُّ لامَهُ بعض تلامذته على حضور العزاء وكثرة البكاء، وقال له: كنتَ مهاجراً[5] لهذا الرجل، فلمّا مات حضرتَ عزاءه، وأكثرتَ

---

(١) التاريخ الباهر ٦٥، المنتظم ١٠/١٠٥ (١٨/٣٠)، الروضتين ١/٩٢، نهاية الأرب ٢٧/١٤١، المختصر في أخبار البشر ٣/١٦، تاريخ الإسلام (٥٣٨ هـ.) ص ٢٢٤، تاريخ ابن الوردي ٢/٤٤، عيون التواريخ ١٢/٣٧٧، البداية والنهاية ١٢/٢١٨، الكواكب الدرية ١١٥، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٣٥، تاريخ ابن سباط ١/٧٥.

(٢) الروضتين ٩٤، نهاية الأرب ٢٧/١٤٢، المختصر في أخبار البشر ٣/١٦، التاريخ الباهر ٦٤، تاريخ ابن سباط ١/٧٦.

(٣) في طبعة صادر ١١/٩٦ «الأنباطي»، والتصحيح من: المنتظم ١٠/١٠٨ رقم ١٤٩ (١٨/٣٣ رقم ٤٠٩٧)، وصيد الخاطر، لابن الجوزي أيضاً ١١٤، والبداية والنهاية ١٢/٢١٩، وتذكرة الحفاظ ٣/١٢٨٢، والذيل على طبقات الحنابلة ١/٢٤٠، وشذرات الذهب ٤/١١٦، ١١٧ والتصحيح أيضاً من (أ).

(٤) أنظر عن (الإسفراييني) في: تاريخ الإسلام (٥٣٨ هـ.) ص ٤٨٠ ـ ٤٨٣ رقم ٣٩٢ وفيه مصادر ترجمته.

(٥) في الأوربية: «مهاجر».

البكاء، وأظهرتَ الحزن؟ قال: كنتُ أبكي على نفسي[1]، كان يقال، فلان وفلان، فمَن يَعْدَم النظيرَ أيقن بالرحيل، وأنشد هذه الأبيات:

ذهبَ المُبَرّدُ وانقَضَتْ أيّامُهُ ... وسيَنقضي بعدَ المبرّدِ ثَعلَبُ
بَيتٌ مِنَ الآدابِ أصبَحَ نصْفُهُ ... خَرِباً وَباقٍ نصْفُهُ فسَيَخرَبُ[2]
فتَزَوّدوا مِنْ ثَعلَبٍ فبمثْل ما ... شرِبَ المُبرّدُ عَن قَليلٍ يَشرَبُ
أُوصِيكُمُ أنْ تكتبوا أنفاسَهُ ... إن كانَتِ الأنفاسُ مِمّا يُكتَبُ[3]

وفيها توفّي الوزير شرف الدين عليّ بن طِراد الزينبيّ[4]، في رمضان، معزولاً، ودُفن بداره بباب الأَزَج، ثمّ نُقل إلى الحربيّة.

وفيها توفّي أبو القاسم محمود بن عمر الزّمخشريّ[5] النحويّ، المفسّر، وزَمَخْشر: إحدى قرى خُوارزم.

---

(١) في الأوربية: «نفس».
(٢) في المنتظم: «باقي النصف منه سيخرب».
(٣) المنتظم ١٠/١١١، ١١٢ (١٨/٣٧).
(٤) أنظر عن (الوزير الزينبي) في: تاريخ الإسلام (٥٣٨ هـ.) ص ٤٦٩ ـ٤٧١، رقم ٣٧٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.
(٥) أنظر عن (الزمخشري) في: تاريخ الإسلام (٥٣٨ هـ.) ص ٤٨٦ ـ٤٩٠ رقم ٣٩٨ وفيه حشدت عشرات المصادر لترجمته، وكذا في تاريخ ابن سباط ١/٧٦، ٧٧.

(٥٣٩)
ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة

ذكر فتح الرُّها وغيرها من بلاد الجزيرة ممّا كان بيد الفرنج

في هذه السنة، سادس جُمادى الآخرة، فتح أتابك عماد الدين زنكي بن آقسقر مدينة الرُّها من الفرنج، وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضاً، وكان ضررهم قد عمّ بلاد الجزيرة، وشرّهم قد استطار فيها، ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها، وبلغت آمِد، ونَصيبين، ورأس عين، والرَّقّة[1].

وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات[2] مثل الرُّها، وسَروج، والبيرة، وسنّ ابن عُطَيْر، وحِملين، والمُوَزّر، والقراديّ، وغير ذلك. وكانت هذه الأعمال مع غيرها ممّا هو غرب الفرات[1] لجوسلين، وكان صاحب رأي الفرنج والمقدّم على عساكرهم، لِما هو عليه من الشجاعة والمكر.

وكان أتابك يعلم أنّه متى قصد حصْرها اجتمع فيها من الفرنج مَن يمنعها، فيتعذّر عليه مُلكها لما هي عليه من الحصانة، فاشتغل بديار بكر، ليُوهِم الفرنجَ أنّه غير متفرّغ لقصْد بلادهم. فلمّا رأوا أنّه غير قادر على ترك الملوك الأُرتقيّة وغيرهم من ملوك ديار بكر، حيث أنّه محاربٌ لهم، اطمأنّوا، وفارق جوسلين الرُّها، وعبر الفرات[1] إلى بلاد الغربيّة، فجاءت عيون أتابك إليه فأخبرته، فنادى في العسكر بالرحيل، وأن لا يتخلّف عن الرُّها أحدٌ من غد يومه، وجمع الأمراء عنده، وقال: قدّموا الطعام؛ وقال: لا يأكل معي على مائدتي هذه إلاّ من يطعن غداً معي على باب

---

(١) زاد في (أ): «وغير ذلك».

(٢) في الأوربية: «الفراة».

الرُّها، فلم يتقدّم إليه غير (أمير)[1] واحد وصبيّ لا يُعرف، لم يعلمون من إقدامه وشجاعته، وأنّ أحداً لا يقدر على مساواته في الحرب. فقال الأمير لذلك الصبيّ: ما أنت في هذا المقام؟ فقال أتابَك: دعه، فَوَاللّهِ إنّي أرى وجهاً لا يتخلّف عنّي.

وسار والعساكر معه، ووصل إلى الرُّها، وكان هو أوّل مَن حمل على الفرنج ومعه ذلك الصبيّ، وحمل فارس من خيّالة الفرنج على أتابك عَرَضاً، فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله، وسلِم الشهيد، ونازل البلد، وقاتله ثمانيةً وعشرين يوماً، فزحف إليه عدّة دفعات، وقدّم النقّابين فنقبوا سور البلد، ولجّ في قتاله خوفاً من اجتماع الفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد منه، فسقطت[2] البدنة التي نقبها النقّابون، [وأخذ] البلد عَنْوةً وقهراً، وحصر قلعته فملكها أيضاً، ونهب النّاس الأموال، وسبوا الذريّة، وقتلوا الرجال.

فلمّا رأى أتابك البلد أعجبه، ورأى أنّ تخريب مثله لا يجوز في السياسة، فأمر فنودي في العساكر بردّ من أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم، وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم، فردّوا الجميع عن آخره لم يفقد منهم أحد، إلا الشاذّ النادر الذي أُخذ، وفارق (مَن أخذه)[3] العسكر، فعاد البلد إلى حاله الأوّل، وجعل فيه عسكراً يحفظه، وتسلّم مدينة سَرُوج، وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقيّ الفرات، ما عدا البيرة، فإنّها حصينة منيعة وعَلى شاطىء الفرات، فسار إليها وحصرها، وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها، فبقي على حصارها إلى أن رحل عنها على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى[4].

حُكي أنّ بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال: كان صاحب جزيرة صَقَلّيّة قد

---

(١) من (أ).

(٢) في (ب): «وترحيله عن البلد فسقطت إليه».

(٣) «من» من (أ)، والمثبت (ب).

(٤) التاريخ الباهر ٦٦، ٧٠، المنتظم ١١٢/١٠ (٣٩/١٨) تاريخ الزمان ١٥٦، زبدة الحلب ٢٧٨/٢ ـ٢٨٠، ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ٩٤/١، ٩٥، بغية الطلب (قسم السلاجقة) ٢٥٩، ٢٦٠، تاريخ مختصر الدول ٢٠٦، دول الإسلام ٥٧/٢، العبر ١٠٦/٤، تاريخ الإسلام (٥٣٩ هـ.) ص ٢٢٨، تاريخ ابن الوردي ٤٥/٢، مرآة الجنان ٢٧١/٣، البداية والنهاية ٢١٩/١٢، عيون التواريخ ٣٨٥/١٢، الكواكب الدرية ١١٥ ـ١١٧، النجوم الزاهرة ٢٧٥/٥، تاريخ ابن سباط ٧٨/١.

أرسل سَرِيّة في البحر إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال، فنهبوا وقتلوا؛ وكان بصَقَلّية إنسان من العلماء المسلمين، وهو من أهل الصلاح، وكان صاحب صَقَلّية يُكرمه ويحترمه، ويرجع إلى قوله، ويقدّمه على مَن عنده من القُسُوس والرهبان؛ وكان أهل ولايته يقولون إنّه مُسلم بهذا السبب.

ففي بعض الأيّام كان جالساً في منْظرةٍ له تُشرف على البحر، وإذ قد أقبل مركب لطيف، وأخبره مَن فيه أنّ عسكره دخلوا بلاد الإسلام، وغنموا وقتلوا وظفروا؛ وكان المسلم إلى جانبه وقد أغفى، فقال له الملك: يا فلان! أمّا تسمع ما يقولون؟ قال: لا! قال: إنّهم يخبرون بكذا وكذا. أين كان محمّد عن تلك البلاد وأهلها؟ فقال له: كان قد غلب عنهم، وشهد فتح الرُّها، وقد فتحها المسلمون الآن؛ فضحك منه مَن هناك من الفرنج، فقال الملك: لا تضحكوا، فواللّه ما يقول إلاّ الحقّ؛ فبعد أيّام وصلت الأخبار من فِرَنج الشام بفتحها.

وحكى لي جماعة من أهل الدين والصلاح أنّ إنساناً صالحاً رأى الشهيد في منامه فقال له: ما فعل اللّه بك؟ قال: غفر لي بفتح الرُّها.

ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين عليّ كوجك قلعة الموصل

في هذه السنة، في ذي القعدة، قُتل نصير الدين جقر نائب أتابك زنكي بالموصل والأعمال جميعها التي شرق[1] الفرات.

وسبب قتله أنّ الملك ألْب أرسلان المعروف بالخفاجيّ، ولد السلطان محمود، كان عند أتابك الشهيد، وكان يُظهِر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أنّ هذه البلاد لهذا الملك، وأنا نائبه فيها، وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليُخْطَب له بالسلطنة، ويملك البلاد باسمه، وكان هذا الملك بالموصل، هذه السنة، ونصير الدين يقصده كلّ يوم ليقوم بخدمةٍ إنْ عرضت له، فحسّن له بعض المفسدين طلب المُلك، وقال له: إن قتلتَ نصير الدين ملكتَ الموصل وغيرها من البلاد، ولا يبقى مع أتابك زنكي فارسٌ واحدٌ، فوقع هذا منه موقعاً حسناً، وظنّه صِدقاً، فلمّا دخل نصير الدين إليه وثب عليه مَن عنده من أجناد أتابك ومماليكه فقتلوه، وألقوا برأسه إلى أصحابه

(١) في (أ): «جميعها إلى شرق».

ظنّاً منهم أنّ أصحابه يتفرّقون ويخرج الملك ويملك البلد.

وكان الأمر خلاف ما ظنّوه، فإنّ أصحابه وأصحاب أتابك الذين في خدمته لما رأوا رأسه قاتلوا مَن بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة أتابك مملوءة بالرجال والأجلاد ذوي الرأي والتجربة، ثمّ دخل إليه القاضي تاج الدين يحيَى بن الشهرزوريّ ولم يزل به يخدعه، وكان فيما قال له حين رآه منزعجاً: يا مولانا لِمَ تحْرد من هذا الكلب؟ هذا وأستاذُه مماليكك، والحمد للّه الذي أراحنا منه ومن صاحبه على يدك، وما الذي يُقعدك في هذه الدار؟ قُم لتصعد القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجُند، وليس دون البلاد بعد الموصل مانعٌ.

فقام معه وركب القلعة، فلمّا قاربها أراد[1] مَن بها من النقيب والأجناد القتال، فتقدّم إليهم تاج الدين وقال لهم: افتحوا الباب وتسلّموه، وافعلوا به ما أردتم. ففتحوا الباب، ودخل الملك والقاضي إليها ومعها مَن أعان على قتل نصير الدين، فسُجنوا ونزل القاضي.

وبلغ الخبر أتابَكَ زنكي وهو يحاصر قلعة البيرة، وقد أشرف على مُلكها، فخاف أن تختلف البلاد الشرقيّة بعد قتل نصير الدين، ففارق البِيرة، وأرسل زين الدين عليّ ابن بُكْتُكِين[2] إلى قلعة الموصل والياً على ما كان نصير الدين يتولاّه[3].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره البروجرديّ، ووَزَرَ بعده المرزُبان ابن عُبيد اللّه بن نصر الأصفهانيّ، وسلّم إليه البروجرديّ، فاستخرج أمواله، ومات مقبوضاً[4].

وفيها كان أتابك عماد الدين زنكي يحاصر البيرة، وهي للفرنج شرقيّ الفرات بعد مُلك الرُّها، وهي من أمنع الحصون، وضيّق عليها وقارب أن يفتحها، فجاءه خبر قتل نَصير الدين نائبه بالموَصِل، فرحل عنها، وأرسل نائباً إلى الموصل، وأقام ينتظر

---

(١) في (أ): «إلى القلعة فأغلقت وأراد»، وفي (ب): «إلى القلعة فحين رآه من بها أغلقوا بابها و».

(٢) في (أ): «ملتكين».

(٣) المختصر في أخبار البشر ٣/١٧، التاريخ الباهر ٧١، ٧٢.

(٤) نهاية الأرب ٢٧/٤٦، تاريخ دولة آل سلجوق ١٧٩.

الخبر، فخاف مَن بالبيرة من الفرنج أن يعود إليهم، وكانوا يخافونه خوفاً شديداً، فأرسلوا إلى نجم الدين صاحب ماردين وسلّموها له، فملكها المسلمون[1].

وفيها خرج أسطول الفرنج من صَقَلّية إلى ساحل إفريقية والغرب، ففتحوا مدينة برشك[2]، وقتلوا أهلها، وسبوا حريمهم، وباعوه بصَقَلّية على المسلمين.

وفيها توفّي تاشفين[3] بن عليّ بن يوسف صاحب الغرب، وكانت ولايته تزيد على أربع سنين، ووليَ بعده أخوه، وضَعُف أمر الملثّمين، وقوي عبد المؤمن، وقد ذكرنا ذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة.

وفيها، في شوّال، ظهر كوكب عظيم له ذَنَب من جانب المشرق، وبقي إلى نصف ذي القعدة، ثمّ غاب، ثمّ طلع من جانب الغرب، فقيل: هو هو، وقيل بل غيره[4].

وفيها كانت فتنة عظيمة بين الأمير هاشم بن فُلَيتة بن القاسم العلويّ الحسينيّ[5]، أمير مكّة، والأمير نَظَر[6] الخادم أمير الحاجّ، فنهب أصحاب هاشم الحجّاج وهم في المسجد يطوفون ويصلّون، ولم يرقبوا فيهم إلاًّ ولا ذِمّةً[7].

[الوفيات]

وفيها، في ذي الحجّة، توفّي عبد الله بن[8] أحمد بن محمّد بن عبد الله بن

---

(١) التاريخ الباهر ٧٠، ٧١، ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩، تاريخ دولة آل سلجوق ١٨٧ زبدة الحلب ٢/ ٢٧٨ ـ ٢٨٠، الروضتين ١/ ٩٤، ١٠٣، تاريخ مختصر الدول ٢٠٦، تاريخ الزمان ١٥٦، الكواكب الدرية ١١٥ ـ ١١٧، تاريخ ابن سباط ١/ ٧٨.

(٢) في المختصر لأبي الفداء ٣/ ١٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٥ «برسك» بالسين المهملة.

(٣) أنظر عن (تاشفين) في: تاريخ الإسلام (٥٣٩ هـ.) ص ٤٩٥، ٤٩٦ رقم ٤١١ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٤) المنتظم ١٠/ ١١٢ (١٨/ ٣٩).

(٥) في (أ): «وبين الأمير الحسني».

(٦) في البداية والنهاية ١٢/ ٢١٩ «قطز».

(٧) العبر ٤/ ١٠٦، تاريخ الإسلام (٥٣٩ هـ.) ص ٢٢٨، ٢٢٩.

(٨) ساقطة من طبعة صادر ١١/ ١٠٣.

حمدُوَيْه[1] أبو المعالي المَرْوَزيُّ بمَرْوَ، وسافر الكثير، وسمع الحديث الكثير، وبنى بمرو رِباطاً، ووقف فيه كُتُباً كثيرةً، وكان كثير الصدقة والعبادة.

وتوفّي محمّد بن عبد الملك بن حسن[2] بن إبراهيم بن خَيرون أبو منصور المُقْري، ومولده في رجب سنة أربعٍ وخمسين وأربعمائة، وهو آخر مَن روى عن الجوهريّ بالإجازة، وتوفّي في رجب.

وفي ذي الحجّة منها توفّي أبو منصور سعيد بن محمّد بن عمر المعروف بابن الرزّاز[3]، مدرّس النظاميّة ببغداد، ومولده سنة اثنتين وستّين وأربعمائة، وتفقّه على الغزاليّ، والشاشي[4]، ودُفن في تربة الشيخ أبي إسحق.

---

(١) أنظر عن (ابن حمدويه) في: تاريخ الإسلام (٥٣٩ هـ.) ص ٥٠٣، ٥٠٤ رقم ٤٢١ وفيه مصادر ترجمته.

(٢) في طبعة صادر ١١/١٠٣ «حسن»، وفي (ب): «الحسين»، والمثبت من (أ) ومن مصادر ترجمته التي حشدتها في: تاريخ الإسلام (٥٣٩ هـ.) ص ٥٢٠،٥٢١ رقم ٤٤٨.

(٣) أنظر عن (ابن الرزاز) في: تاريخ الإسلام (٥٣٩ ـ.) ص ٤٩٩، ٥٠٠ رقم ٤١٧ وفيه مصادر ترجمته.

(٤) في طبعة صادر ١١/١٠٣ «والشامي»، والتصويب من (ب) والمصادر.

(٥٤٠)
ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة

ذكر اتّفاق بوزابة وعبّاس على منازعة السلطان

في هذه السنة سار بوزابة، صاحب فارس وخُوزِستان، وعساكره إلى قَاشَانَ، ومعه الملك محمّد [ابن السلطان محمود، واتّصل بهم الملك سليمان شاه] ابن السلطان محمّد، واجتمع بوزابة والأمير عبّاس صاحب الرَّيّ، واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود، وملكا كثيراً من بلاده.

ووصل الخبر إليه وهو ببغداد ومعه الأمير عبد الرحمن طغايُرك، وهو أمير حاجب، حاكم في الدولة، وكان ميله إليهما، فسار السلطان في رمضان عن بغداد، ونزل[1] بها الأمير مُهَلهِل، ونَظَر، وجماعة من غِلمان بَهْرُوز؛ وسار السلطان وعبد الرحمن معه، فتقارب العسكران، ولم يبقَ إلاّ المصافّ، فلحِق سليمان شاه بأخيه مسعود، وشرع عبد الرحمن في تقرير الصلح على القاعدة التي أرادوها، وأضيف إلى عبد الرحمن ولاية أذْرَبيجان وأرّانيّة إلى ما بيده، وصار أبو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود، وهو وزير بوزابة، فصار السلطان معهم تحت الحجْر، وأبعدوا بك أرسلان بن بلنكري المعروف بخاصّ بك، وهو ملازم السلطان وتربيته، وصار في خدمة عبد الرحمن ليحقن دمه، وصار الجماعة في خدمة السلطان صورةً لا معنى تحتها، والله أعلم[2].

ذكر استيلاء عليّ بن دُبيس بن صدقة على الحِلّة

في هذه السنة سار عليُّ بن دُبيس إلى الحِلّة هارباً، فملكها؛ وكان سبب ذلك أنّ السلطان لما أراد الرحيل من بغداد أشار عليه مُهلهِل أن يحبس عليّ بن دُبيس بقلعة

(١) في (أ): «وترك».
(٢) نهاية الأرب ٢٧/٤٧، المنتظم ١٠/١١٦ (١٨/٤٤).

تكريت، فعِلم ذلك، فهرب في جماعةٍ يسيرة نحو خمسة عشر، فمضى إلى الأزيز، وجمع بني أسد وغيرهم، وسار إلى الحِلّة وبها أخوه محمّد بن دُبيس، فقاتله، فانهزم محمّد، وملك عليّ الحِلّة.

واستهان السلطان أمره أوّلاً، فاستفحل وضمّ إليه جمْعاً من غلمانه وغلمان أبيه وأهل بيته وعساكرهم، وكثُر جمْعُهم[1] فسار إليه مهلهل فيمن معه في بغداد من العسكر، وضربوا معه مصافّاً، فكسرهم وعادوا منهزمين إلى بغداد.

وكان أهلها يتعصّبون لعليّ بن دُبيس، وكانوا يصيحون، إذا ركب مهلهل وبعض أصحابه: يا عليّ! كُلْهُ. وكثُر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب.

ومدّ عليّ يده في أقطاع الأمراء بالحِلّة، وتصرّف فيها، وصار شِحنة بغداد ومَن فيها على وجلٍ منه، وجمع الخليفة جماعة، وجعلهم على السور لحِفْظه، وراسل عليّاً، فأعاد الجواب بأنّني العبد المطيع مهما رسم لي فعلتُ؛ فسكن النّاس، ووصلت الأخبار بعد ذلك أنّ السلطان مسعوداً تفرّق خصومه عنه، فازداد سكون النّاس[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة حجّ بالنّاس قايماز الأرجوانيُّ صاحب أمير الحاجّ نَظر[3] واحتجّ نَظَر بأنّ بركَهُ نُهب في كسرة الحِلّة، وأنّ بينه وبين أمير مكّة من الحروب ما لا يمكنه معه الحجّ[4].

وفيها اتّصل بالخليفة عن أخيه أبي طالب ما كرهه، فضيّق عليه، واحتاط على غيره من أقاربه[5].

وفيها مَلَك الفِرنج، لعنهم اللّه، مدينة شنترين، وباجة[6]، وماردة، وأَشْبُونة، وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس، وكانت للمسلمين، فاختلفوا، فطمع

---

(١) (في (أ): «جماعته».
(٢) المنتظم ١٠/١١٦ (١٨/٤٤، ٤٥)، المختصر في أخبار البشر ٣/١٧.
(٣) في مرآة الزمان ج ٨ ق ١/١٨٥ «حج بالناس نظر الخادم».
(٤) أنظر المنتظم ١٠/١١٦ (١٨/٤٥).
(٥) المنتظم ١٠/١١٦ (١٨/٤٥)، المختصر في أخبار البشر ٣/١٧.
(٦) في المختصر لأبي الفداء ٣/١٧ «تاجر»، : تاريخ ابن الوردي ٢/٤٥ «ماجه».

العدوّ، وأخذ هذه المدن، وقوي بها قوّة تمكّن معها، وتيقّن مُلك سائر البلاد الإسلاميّة بالأندلس، فخيّب اللّه ظنّه، وكان ما نذكره[1].

وفيها سار أسطول الفرنج من صَقَلّية، ففتحوا جزيرة قرقنة من إفريقية، فقتلوا رجالها، وسبوا حريمهم، فأرسل الحسن صاحب إفريقية إلى رُجّار ملك صَقَلّية يذكره العهود التي بينهم، فاعتذر بأنّهم غير مطيعين له.

[الوفيات]

وفي هذه السنة توفّي مجاهد الدين بهروز[2] الغياثيّ، وكان حاكماً بالعراق نيّفاً وثلاثين سنة.

ويرنقش[3] الزكوي، صاحب أصفهان، وكان أيضاً شِحنة بالعراق، وهو خادم أرمني لبعض التجّار.

وتوفّي الأمير إيلدكز شِحنة بغداد.

والشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر الجواليقيّ[4] اللُّغَويّ، ومولده في ذي الحجّة سنة خمسٍ وستّين وأربعمائة، وأخذ اللغة عن أبي زكريّاء التبريزي، وكان يؤمّ بالمقتفي أمير المؤمنين.

وتوفّي أحمد بن محمّد بن الحسن بن عليّ بن أحمد بن سليمان أبو سعد[5] بن أبي الفضل الأصفهاني، ومولده سنة ثلاثٍ وستّين وأربعمائة، وروى الحديث الكثير، وكان على سِيرة السَّلَف، كثير الإتّباع للسُّنّة، رحمة اللّه عليه.

---

(١) المختصر ٣/١٧، تاريخ ابن الوردي ٢/٤٥، عيون التواريخ ١٢/٣٩٧، تاريخ ابن سباط ١/٧٩.

(٢) أنظر عن (بهروز) في: المنتظم ١٠/١١٧ رقم ١٦٨ (١٨/٤٦ رقم ٤١١٦)، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/١٨٦، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار، ورقة ٣ أ، وعيون التواريخ ١٢/٤٠٣،٤٠٤، وتاريخ الإسلام (٥٤٠ هـ.) ص ٥٣٤، ٥٣٥ رقم ٤٧٣، والمختصر في أخبار البشر ٣/١٧.

(٣) في (أ) و(ب): «برنقش». والمثبت يتفق مع تاريخ دولة آل سلجوق ١٧٨، وتاريخ الإسلام (٥٤٠ هـ.) ص ٥٥٣، رقم ٥٠٨.

(٤) أنظر عن (الجواليقي) في: تاريخ الإسلام (٥٤٠ هـ.) ص ٥٤٩ ـ٥٥١ رقم ٥٠٥ وفيه حشدت عشرات المصادر لترجمته، وكذلك في: تاريخ ابن سباط ١/٧٩، ٨٠.

(٥) في طبعة صادر ١١/١٠٧، والنجوم الزاهرة ٥/٢٧٨، والمثبت عن: تاريخ الإسلام (٥٤٠ هـ) ص ٥٢٩ رقم ٤٦٧، وغيره من المصادر التي حشدتها فيه.

(٥٤١)
ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

ذكر مُلك الفرنج طرابلس الغرب

في هذه السنة ملك الفرنج، لعنهم اللّه، طرابُلُسَ الغرب؛ وسبب ذلك أنّ رُجّار ملك صَقَلّية جهّز أسطولاً كثيراً وسيّره إلى طرابُلُس، فأحاطوا بها برّاً وبحراً، ثالث المحرّم، فخرج إليهم أهلها وأنشبوا القتال، فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيّام.

فلمّا كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجّة عظيمة، وخلت الأسوار من المقاتلة، وسبب ذلك أن أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيّام يسيرة قد اختلفوا، فأخرج طائفة منهم بني مطروح، وقدّموا عليهم رجلاً من الملثّمين قدِم يريد الحجّ ومعه جماعة، فولّوه أمرهم، فلمّا نازلهم الفرنج أعادت الطائفة الأخرى بني مطروح، فوقعت الحرب بين الطائفتين، وخلت الأسوار، فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلالم، وصعدو على السور، واشتدّ القتال، فملكت الفرنج المدينة عَنْوةً بالسيف، فسفكوا دماء أهلها، وسبوا نساءهم وأموالهم، وهرب مَن قدر على الهرب، والتجأ[١] إلى البربر والعرب، فنودي بالأمان في النّاس كافة، فرجع كلّ مَن فرّ منها.

وأقام الفرنج ستّة أشهر حتى حصّنوا أسوارها وحفروا خندقها، ولما عادوا أخذوا رهائن أهلها، ومعهم بنو مطروح والملثّم، ثمّ أعادوا رهائنهم، وولّوا عليها رجلاً من بني مطروح، وتركوا رهائنه وحده، واستقامت أمور المدينة، وأُلزم أهل صَقَلّية والروم بالسفر إليها، فانعمرت سريعاً، وحسُن حالها[٢].

---

(١) في الأوربية: «والتجى».

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/١٨، العبر ٤/١١١، الروضتين ١/١٤٢، تاريخ ابن الوردي ٢/٤٦، =

ذكر حصر زنكي حصنَيْ جَعْبَر وفَنَك

وفي هذه السنة سار أتابَك زنكي إلى حصن جَعْبَر، وهو مُطِلّ على الفرات، وكان بيد سالم[1] بن مالك العُقَيليّ سلّمه مَلِكشاه إلى أبيه لما أخذ منه حلب، وقد ذكرناه، فحصره وسيّر جيشاً إلى قلعة فَنَك، وهي تجاور جزيرة ابن عُمر، بينهما فرسخان، فحصرها أيضاً، وصاحبها حينئذٍ الأمير حسام الدين الكُرديّ البَشنويّ.

وكان سبب ذلك أنّه كان لا يريد أن يكون في وسط بلاده ما هو ملك غيره، حزْماً واحتياطاً، فنازل قلعة جَعْبَر وحصرها، وقاتله مَن بها، فلمّا طال عليه ذلك أرسل إلى صاحبها، مع الأمير حسّان المنبجيّ لمودّةٍ كانت بينهما، في معنى تسليمهما، وقال له: تضمن عنّي الإقطاع الكَثير والمال الجزيل، فإنْ أجاب إلى التسليم، وإلاّ فقُلْ له: واللّهِ لأقيمنّ عليك إلى أن أملكها عَنوةً، ثمّ لا أُبقي عليك، ومَن الذي يمنعك منّي؟

فصعِد إليه حسّان، وأدّى إليه الرسالة، ووعده، وبذل له ما قيل له، فامتنع من التسليم، فقال له حسّان: فهو يقول لك مَن يمنعك مني؟ فقال: يمنعني منه الذي منعك من الأمير بَلْك. فعاد حسّان وأخبر الشهيد بامتناعه، ولم يذكر له هذا، فقُتل أتابك بعد أيّام.

وكانت قصّة حسّان مع بلك ابن (أخي)[2] إيلغازي أنّ حسّان كان صاحب منبج، فحصره بَلْك وضيّق عليه، فبينما هو في بعض الأيّام (يقاتله، جاءه)[3] سهمٌ لا يُعرف مَن رماه فقتله، وخلص حسّان من الحصْر، وقد تقدّم ذِكره، وكان هذا القول من الاتّفاق الحسن.

ولما قُتل أتابك زنكي رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فَنَك عنها، وهي بيد أعقاب صاحبها إلى الآن، وسمعتُهم يذكرون أنّ لهم بها نحو ثلاثمائة سنة، ولهم

= عيون التواريخ ١٢/٤٠٨، البداية والنهاية ١٢/٢٢١، مرآة الجنان ٣/٢٧٤، تاريخ ابن سباط ١/٨٠.

(١) في (أ): «بيد ولد سالم»، وفي (ب): «بيده سالم».

(٢) من (أ).

(٣) من (أ).

مقصد، وفيهم وفاء وعصبيّة، يأخذون بيد كلّ مَن يلتجىء إليهم ويقصدهم، ولا يسلّمونه كائناً مَن كان[1].

ذكر قتل أتابك عماد الدين زنكي وشيء من سيرته

في هذه السنة، لخمسٍ مَضَيْن من ربيع الآخر، قُتل أتابك الشهيد عماد الدين زنكي[2] بن آقسنقر، صاحب المَوصِل والشام، وهو يحاصر قلعة جَعْبَر، على ما ذكرناه، قتله جماعة من مماليكه ليلاً غِيلةً، وهربوا إلى قلعة جَعْبَر، فصاح مَن بها من أهلها إلى العسكر يعلمونهم بقتله، وأظهروا الفرح، فدخل أصحابه إليه، فأدركوه وبه رَمَق.

حدّثني والدي عن بعض خواصّه قال: دخلتُ إليه في الحال وهو حيّ، فحين رآني ظنّ أنّي أريد قتله، فأشار إليّ بإصبعه السبّابة يستعطفني، فوقعتُ من هيبته، فقتلُ: يا مولاي مَن فعل بك هذا؟ فلم يقدر على الكلام، وفاضت نفسه لوقته، رحمه الله.

قال: وكان حَسَن الصورة، أسمر اللّون، مليح العينين، قد وخطه الشيب[3]، وكان قد زاد عمره على ستّين سنة، لأنّه كان لما قُتل والده صغيراً، كما ذكرناه قبلُ، ولما قُتل دُفن بالرَّقّة.

وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيّته، عظيم السياسة، لا يقدر القويّ على ظُلم الضعيف؛ وكانت البلاد، قبل أن يملكها، خراباً من الظُلم، وتنقُّل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمّرها، وامتلأت أهلاً وسكّاناً.

حكى لي والدي قال: رأيتُ المَوصل وأكثرها خراب، بحيث يقف الإنسان قريب محلّة الطّبّالبين ويرى الجامع العتيق، والعَرَصَة، ودار السلطان، ليس بين ذلك عمارة؛ وكان الإنسان لا يقدر على المشي إلى الجامع العتيق إلاّ ومعه مَن يحميه، لبُعده عن

---

(١) التاريخ الباهر ٧٣، ٧٤، ذيل تاريخ دمشق ٢٨٥ (بالحاشية)، المختصر في أخبار البشر ١٨/٣.

(٢) أنظر عن مقتل عماد الدين زنكي والمصادر في: تاريخ الإسلام (٥٤١ هـ.) ص ٥، وتاريخ ابن سباط ١/ ٨٠، ٨١.

(٣) في الأوربية: «السيب».

العمارة، وهو الآن في وسط العمارة، وليس في هذه البقاع المذكورة كلّها أرض براح، وحدّثني أيضاً أنّه وصل إلى الجزيرة في الشتاء، فدخل الأمير عزّ الدين الدّبيسيّ، وهو من أكابر أمرائه، ومن جملة أقطاعه مدينة دقُوقا، ونزل في دار إنسان يهوديّ، فاستغاث اليهوديّ إلى أتابك، وأنهى حاله إليه، فنظر إلى الدّبيسيّ، فتأخرّ، ودخل البلد، وأخرج بركه وخيامه. قال: فلقد رأيتُ غلمانه ينصبون خيامه في الوحل، وقد جعلوا على الأرض تِبْناً يَقِيهم الطّين، وخرج فنزلها، وكانت سياسته إلى هذا الحدّ.

وكانت الموَصل من أقلّ بلاد اللّه فاكهة، فصارت في أيّامه، وما بعدها، من أكثر البلاد فواكه[1] ورياحين، وغير ذلك.

وكان أيضاً شديد الغيرة ولا سيّما على نساء الأجناد، وكان يقول: إنْ لم نحفظ نساء الأجناد بالهيبة، وإلاّ فسدْن لكثرة غيبة أزواجهنّ في الأسفار.

وكان أشجع خلق اللّه؛ أمّا قبل أن يملك فيكفيه أنّه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل مدينة طبريّة، وهي للفرنج، فوصلت طعنته باب البلد وأثّر[2] فيه، وحمل أيضاً على قلعة عقر الحميديّة، وهي على جبل عالٍ، فوصلت طعنته إلى سورها، إلى أشياء أُخر.

وأمّا بعد المُلك فقد كان الأعداء محدِقين ببلاده، وكلّهم يقصدها، ويريد أخذها، وهو لا يقنع بحفظها، حتى إنّه لا ينقضي عليه عام إلاّ ويفتح من بلادهم. فقد كان الخليفة المسترشد باللّه مجاوره في ناحية تَكْريت، وقصد المَوصل وحصرها، ثمّ إلى جانبه، من ناحية شَهْرَزُور وتلك الناحية، السلطان مسعود؛ ثمّ ابن سقمان صاحب خِلاط؛ ثمّ داود بن سقمان صاحب حِصن كِيفا؛ ثمّ صاحب آمِد وماردين؛ ثمّ الفرنج من مجاورة ماردين إلى دمشق؛ ثمّ أصحاب دمشق، فهذه الولايات قد أحاطت بولايته من كلّ جهاتها، فهو يقصد هذا مرّة وهذا مرّة، ويأخذ من هذا ويُصانع هذا، إلى أن ملك من كلّ من يليه طرفاً من بلاده، وقد أتينا على أخباره في كتاب «الباهر»[3] في

---

(١) في (أ): «فاكة».

(٢) في (أ): «أثرت».

(٣) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، بتحقيق عبد القادر أحمد طليمات ـ نشرته دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنّى ببغداد ١٩٦٣.

تاريخ دولته ودولة أولاده، فيُطلب من هناك.

ذكر مُلك ولدَيْه سيف الدين غازي ونور الدين محمود

لما قُتل أتابك زنكي أخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده، وكان حاضراً معه، وسار إلى حلب فملكها[1].

وكان حينئذٍ يتولّى ديوان زنكي، ويحكم في دولته من أصحاب العمائم جمال الدين محمّد بن عليّ، وهو المنفرد بالحكم، ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمّد الياغيسيانيّ، فاتّفقا على حفظ الدولة، وكان مع الشهيد أتابك الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود، فركب ذلك اليوم، وأجمعت العساكر عليه، وحضر عنده جمال الدين، وصلاح الدين، وحسّنا له الاشتغال بالشرب والمغنيّات والجواري، وأدخلاه الرَّقّة، فبقي بها أيّاماً لا يظهر، ثمّ سار إلى ماكِسِين، فدخلها، وأقام بها أيّاماً، وجمال الدين يحلّف الأمراء لسيف الدين غازي بن أتابك زنكي، ويسيّرهم [إلى] الموصل.

ثمّ سار من ماكِسين إلى سِنجار، وكان سيف الدين قد وصل إلى الموصل، فلمّا وصلوا إلى سِنجار أرسل جمال الدين إلى الدزدار يقول له ليرسل إلى ولد السلطان يقول له: إنّي مملوكك، ولكنّي تَبَع الموصِل، فمتى ملكتَها سلّمتُ إليك سنجار. فسار إلى الموصل، فأخذه جمال الدين وقصد به مدينة بَلْد[2]، وقد بقي معه من العسكر القليل، فأشار عليه بعبور دِجلة، فعبرها إلى الشرق في نفرٍ يسير.

وكان سيف الدين غازي بمدينة شَهْرَزُور، وهي إقطاعه، فأرسل إليه زين الدين عليّ كوجك نائب أبيه بالموصل يستدعيه إلى الموصل، فحضر قبل وصول الملك، فلمّا علم جمال الدين بوصول سيف الدين إلى الموصل أرسل إليه يعرّفه قلّةَ مَن مع الملك، فأرسل إليه بعض عسكره، فقبضوا عليه، وحُبس في قلعة المَوصِل، واستقرّ مُلك سيف الدين البلاد، وبقي أخوه نور الدين بحلب وهي له، وسار إليه صلاح الدين

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/١٨، التاريخ الباهر ٨٥، ذيل تاريخ دمشق ٢٨٥، الروضتين ١/١١٩، زبدة الحلب ٢/٢٨٥، تاريخ مختصر الدول ٢٠٧، تاريخ الزمان ١٦٠، المنتظم ١٠/١١٩ (١٨/٤٨)، مفرّج الكروب ١/١٠٧، الدرّة المضية ٥٤٧، الكواكب الدرية ١٢١، ١٢٢، وغيره.

(٢) في الأوربية: «بلدة».

الياغيسيانيّ يدبّر أمره ويقوم بحفظ دولته، وقد استقصينا شرح هذه الحادثة في «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكِيّة»[1].

ذكر عصيان الرُّها لمّا قُتل أتابك

كان جُوسلين الفرنجي الذي كان صاحب الرُّها في ولايته، وهي تلّ باشِر وما يجاورها، فراسل أهلَ الرُّها وعامّتهم من الأرمن، وحملهم على العصيان، والامتناع على المسلمين، وتسليم البلد، فأجابوه إلى ذلك، وواعدهم يوماً[2] يصل إليهم فيه، وسار في عساكره إلى الرُّها، وملك البلد، وامتنعت القلعة عليه بمَن فيها من المسلمين، فقاتلهم، فبلغ الخبر إلى نور الدين محمود بن زنكي، وهو بحلب، فسار مُجِدّاً إليها في عسكره، فلمّا قاربها خرج جُوسلين هارباً عائداً إلى بلده، ودخل نور الدين المدينة، ونهبها حينئذٍ، وسبَى أهلها.

وفي هذه الدفعة نُهبت وخَلَت من أهلها، ولم يبقَ بها منهم إلاّ القليل، وكثير من النّاس يظنّ أنّها نُهبت لما فتحها الشهيد، وليس كذلك.

وبلغ الخبر إلى سيف الدين غازي بعصيان الرُّها، فسيّر العساكر إليها، فسمعوا بملك نور الدين البلد واستباحته، وهم في الطريق، فعادوا.

ومن أعجب ما يُحكى أنّ زين الدين عليّاً[3]، الذي كان نائب الشهيد وأولاده بقلعة الموصل، جاءه هديّة أرسلها إليه نور الدين من هذا الفتح، وفي الجملة جارية، فلمّا دخل إليها، وخرج من عندها وقد اغتسل، قال لمن عنده: تعلمون ما جرى[4] لي في يومنا هذا؟ قالوا: لا! قال: لما فتحنا الرُّها مع الشهيد وقع في يديّ من النهب جارية رائقة أعجبني حُسنها، ومال قلبي إليها، فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد فنودي بردّ السّبْي والمال المنهوب، وكان مَهِيباً مخوفاً، فرددتُها وقلبي متعلّق بها، فلمّا كان الآن جاءتني هديّة نور الدين وفيها عدّة جوارٍ منهنّ تلك الجارية، فوطِئتُها

---

(١) الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١٦٧/١، تاريخ ابن سباط ٨٢/١، المختصر في أخبار البشر ١٩/٣، الروضتين ١٢٠/١، ١٢١.

(٢) في الأوربية: «يوم».

(٣) في الأوربية: «عليّ».

(٤) في الأوربية: «جرا».

خوفاً أن يقع ردّ تلك الدفعة[1].

ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس

في هذه السنة سيّر عبد المؤمن جيشاً إلى جزيرة الأندلس، فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام.

وسبب ذلك أنّ عبد المؤمن لما كان يحاصر مَرّاكُشَ جاء إليه جماعة من أعيان الأندلس منهم أبو جعفر أحمد بن محمّد بن حمدين، ومعهم مكتوب يتضمّن بيَعة أهل البلاد التي هم فيها لعبد المؤمن، ودخولهم في زمرة أصحابه الموحّدين، وإقامتهم لأمره، فقبل عبد المؤمن ذلك منهم، وشكرهم عليه، وطيّب قلوبهم، وطلبوا منه النصرة على الفرنج، فجهّز جيشاً كثيفاً وسيّره معهم، وعمر أسطولاً وسيّره في البحر، فسار الأسطول إلى الأندلس، وقصدوا مدينة إشبيلية، وصعدوا في نهرها، وبها جيش من المُلَثّمين، فحصروها بَرّاً وبحراً وملكوها عَنوةً، وقُتل فيها جماعة، وأمن النّاس فسكنوا، واستولت العساكر على البلاد، وكان لعبد المؤمن (مَن بها)[2] [3].

ذكر قتل عبد الرحمن طغايُرك وعَبّاس صاحب الرَّيّ

في هذه السنة قتل السلطانُ مسعود أميرَ حاجب عبد الرحمن طغايُرك، وهو صاحب خَلْخال وبعض أذَربيجان والحاكمُ في دولة السلطان، وليس للسلطان معه حكم.

وكان سبب قتله أنّ السلطان لما ضيّق عليه عبد الرحمن بقي معه شبه الأسير، ليس له في البلاد حُكم، حتى إنّ عبد الرحمن قصد غلاماً كان للسطان، وهو بك أرسلان، المعروف بخاصّ بك بن بلنكري، وقد ربّاه السلطان وقرّبه فأبعده عنه، وصار لا يراه، وكان في [خاصّ] بك عقل وتدبير وجودة قريحة، وتوصُّل لما يريد أن

---

(١) التاريخ الباهر ٨٦،٨٧، الروضتين ١/ ١٢٥،١٢٦، زبدة الحلب ٢/ ٢٩٠،٢٩١.

(٢) (من أ).

(٣) الخبر في: مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٩٥ (حوادث ٥٤٢ هـ.)، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩، والدرّة المضية ٥٤١، وتاريخ الإسلام (٥٤١ هـ.) ص ٧،٨، وعيون التواريخ ١٢/ ٤٠٨، والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٨٠.

يفعله، فجمع عبد الرحمن العساكر وخاصّ بك فيهم، وقد استقرّ بينه وبين السلطان مسعود أن يقتل عبد الرحمن، فاستدعى خاصّ بك جماعة مَن يثق بهم[1]، وتحدّث معهم في ذلك، فكلّ منهم خاف الإقدام عليه، إلاّ رجلاً اسمه زنكي، وكان جانداراً، فإنّه بذل من نفسه أن يبدأه بالقتل، ووافق خاصّ بك على القيام في الأمر جماعةٌ من الأمراء، فبينما عبد الرحمن في موكبه ضربه زنكي الجاندار بمقرعة حديد كانت في يده على رأسه، فسقط إلى الأرض، فأجهز عليه خاصّ بك، وأعانه على حماية زنكي والقائمين معه مَن كان واطأه على ذلك من الأمراء، وكان قتله بظاهر جنَزَة.

وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود وهو ببغداد، ومعه الأمير عبّاس صاحب الرّيّ، وعسكره أكثر من عسكر السلطان، فأنكر ذلك، وامتعض منه، فداراه السلطان ولطف به، واستدعى الأمير البَقش كُون خَر من اللِّحْف وتَتَر الذي كان حاجباً، فلمّا قوي بهما أحضر عبّاساً إليه في داره، فلمّا دخل إليه مُنع أصحابه من الدخول معه، وعدلوا به إلى حجرة، وقالوا له: اخلع الزّردِيّة؛ فقال: إنّ لي مع السلطان أَيْماناً وعهوداً؛ فلكموه، وخرج له غلمان أُعدّوا لذلك، فحينئذٍ تشاهَدَ وخلع الزَّرَديّة وألقاها، وضربوه بالسيوف، واحتزّوا رأسه وألقوه إلى أصحابه، ثمّ ألقوا جسده، ونُهب رَحْله وخيمه، وانزعج البلد لذلك.

وكان عبّاس من غلمان السلطان محمود، حَسَن السيرة، عادلاً في رعيّته، كثير الجهاد للباطنيّة، قتل منهم خلقاً كثيراً، وبنى من رؤوسهم منارة بالرّيّ، وحصر قلعةَ ألَموت، ودخل إلى قرية من قراهم فألقى فيها النّار، فأحرق كلّ مَن فيها من رجل وامرأة وصبيّ وغير ذلك، فلمّا قُتل [دُفن] بالجانب الغربي، ثمّ أرسلت ابنته فحملته إلى الرّيّ فدفنته هناك، وكان مقتله في ذي القعدة.

ومن الاتّفاق العجيب أنّ العِباديّ كان يعظ يوماً، فحضره عَبّاس، فأسمع بعض أهل المجلس ورمى بنفسه نحو الأمير عبّاس، فضربه أصحابه ومنعوه خوفاً عليه لأنّه كان شديد احتراس من الباطنيّة لا يزال لابساً الزّرديّة لا تفارقه الغلمان الأجلاد، فقال له العِباديّ: يا أمير إلامَ هذا الاحتراز! واللّه لئن قُضي عليك بأمر لتحلّنّ أنتَ بيدك أزرار الزّرديّة فينفذ القضاء فيك.

---

(١) في الأوربية: «إليهم».

وكان كما قال، وقد كان السلطان استوزر ابن دارست، وزير بوزابة، [كارهاً على ما تقدّم ذكره، فعزله الآن لأنّه اختار العزل والعود إلى صاحبه بوزابة][1] فلمّا عزله قرّر معه أن يصلح له بوزابة، ويزيل ما عنده من الاستشعار بسبب قتل عبد الرحمن وعبّاس، فسار الوزير وهو لا يعتقد النجاة، فوصل إلى بوزابة وكان ما نذكره[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة حبَس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تَكْريت[3].

وفيها توفّي الأمير جاولي[4] الطُّغْرُلي صاحب أرّانيّة وبعض أذْرَبيجان، وكان قد تحرّك للعصيان، وكان موته فجأةً، مدّ قوساً فنزف دماً فمات.

[الوفيات]

وتوفّي شيخ الشيوخ صدر الدين إسماعيل بن أبي سعد الصوفيّ[5]، مات ببغداد، ودُفن بظاهر رِباط الزّوزني بباب البصرة، ومولده سنة أربعٍ وستّين وأربعمائة، وقام في منصبه ولده صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم.

وفيها توفّي نقيب النُّقباء محمّد بن طِراد[6] الزَّينبيّ أخو شرف الدين الوزير.

[ذكر عدّة حوادث]

وفيها وليَ مسعود بن بلال شحنكيّة بغداد، وسار السلطان عنها.

وفيها كان بالعراق جرادٌ كثيرٌ أمحل أكثر البلاد[7].

وفيها ورد العِباديُّ الواعظ رسولاً من السلطان سَنْجَر إلى الخليفة، ووعظ ببغداد، وكان له قبولٌ بها، وحضر مجلسه السلطان مسعود فمَن دونه، وأمّا العامّة

---

(١) ما بين الحاصرتين من الباريسية، ورقم ٧٤٠.
(٢) نهاية الأرب ٢٧/ ٤٧ ـ٤٩، تاريخ دولة آل سلجوق ١٩٦ ـ٢٠٠.
(٣) نهاية الأرب ٢٧/ ٤٩، المنتظم ١٠/ ١١٩ (١٨/ ٤٩).
(٤) أنظر عن (جاولي) في: تاريخ دولة آل سلجوق ١٨٦.
(٥) أنظر عن (الصوفي) في: تاريخ الإسلام (٥٤١ هـ.) ص ٥٦، ٥٧ رقم ٥ وفيه مصادر ترجمته.
(٦) أنظر عن (ابن طراد) في: تاريخ الإسلام (٥٤١ هـ.) ص ٨٠، ٨١ رقم ٤٥ وفيه مصادر ترجمته.
(٧) المنتظم ١٠/ ١٢٠ (١٨/ ٥٠).

فإنّهم كانوا يتركون أشغالهم لحضور مجلسه والمسابقة إليه[(١)].

وفيها بعد قتل الشهيد زنكي بن آقسنْقر قصد صاحب دمشق حصن بَعْلَبَكّ وحصرَه، وكان به نجم الدين أيّوب بن شاذيّ مستحفظاً لها، فخاف أنّ أولاد زنكي لا يمكنهم إنجاده بالعاجل، فصالحه وسلّم القلعة إليه، وأخذ منه إقطاعاً ومالاً، وملّكه عدّة قُرًى من بلد دمشق، وانتقل أيّوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها[(٢)].

[الوفيات]

وفي هذه السنة، في ربيع الآخر، توفّي عبد اللّه بن عليّ بن أحمد أبو محمّد المُقْري[(٣)] ابن بنت الشيخ أبي منصور، ومولده في شعبان سنة أربعٍ وستّين وأربعمائة، وكان مُقرئاً نحويّاً، محدّثاً، وله تصانيف في القراءات[(٤)].

---

(١) المنتظم ١٠/ ١٢٠ (١٨/ ٤٩).

(٢) ذيل تاريخ دمشق ٢٨٧، ٢٨٨، تاريخ الزمان ١٦١، الروضتين ١/ ١٢٤، تاريخ الإسلام (٥٤١ هـ.) ص ٧، عيون التواريخ ١٢/ ٤٠٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢١، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٣٨، تاريخ ابن سباط ١/ ٨٢.

(٣) أنظر عن (أبي محمد المقرىء) في: تاريخ الإسلام (٥٤١ هـ.) ص ٦٩ ـ٧٢ رقم ٢٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٤) وفي نسخة (أ) زيادة: «وتوفي أبو الحسن محمد المظفّر رئيس الرؤساء، وكان قد تزهّد وتصوّف، وهو من أعيان بغداد».
وأقول: هو من المتوفين في السنة التالية ٥٤٢ هـ. وسيذكر هناك.

(٥٤٢)
ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

ذكر قتل بوزابة

لما اتّصل بالأمير بُوزَابة[١] قتل عبّاس جمع عساكره من فارس وخُوزستان، وسار إلى أصفهان فحصرها، وسيّر عسكراً آخر إلى هَمَذان، وعسكراً ثالثاً إلى قلعة الماهكي من بلد اللِّحف، فأمّا عسكره الذي بالماهكي فإنّه سار إليهم الأمير البقش كون خَر، فدفعهم عن أعماله، وكانت[٢] أقطاعه، ثمّ إنّ بوزابة سار عن أصفهان يطلب السلطان مسعوداً، فراسله السلطان في الصلح، فلم يُجِب إليه، سار مُجِدّاً، فالتقيا بمرج قُراتُكين، وتصافّا، فاقتتل العسكران، فانهزمت ميمنة السلطان مسعود وميسرته. واقتتل القلبان أشدّ قتال وأعظمه، صبر فيه الفريقان، ودامت الحرب بينهما، فسقط بوزابة عن فرسه بسهمٍ أصابه، وقيل بل عثر به الفَرس فأُخذ أسيراً، وحُمل إلى السلطان فقُتل بين يديه، وانهزم أصحابه لما أُخذ هو أسيراً.

وبلغت هزيمة العسكر السلطانيّ من الميمنة والميسرة إلى همذان، وقُتل بين الفريقين خلقٌ كثير، وكانت هذه الحرب من أعظم الحروب الكائنة بين الأعاجم[٣].

ذكر طاعة أهل قَابِس للفرنج وغلبة المسلمين عليها

كان صاحب مدينة قَابِس، قبل هذه السنة، إنساناً اسمُه رشيد، فتوفّي وخلّف

---

(١) في ذيل تاريخ دمشق «بوزبة»، وفي دول الإسلام «بزاية»، وفي تاريخ الإسلام «بُزَبة».

(٢) في الأوربية: «وكان».

(٣) المنتظم ١٠/١٢٠ (١٨/٥٥)، ذيل تاريخ دمشق ٢٩٤، ٢٩٥، تاريخ دولة آل سلجوق (٢٠١، ٢٠٢، زبدة التواريخ ٢٢٥، دول الإسلام ٢/٥٨، تاريخ الإسلام (٥٤٢ هـ.) ص ٩، نهاية الأرب ٢٧/٤٩، ٥٠.

أولاداً، فعمد مولًى له اسمُه يوسف إلى ولده الصغير، واسمه محمّد، فولاّه الأمر، وأخرج ولده الكبير واسمه معمر، واستولى يوسف على البلد، وحكم على محمّد لصِغر سنّه.

وجرى منه أشياء من التعرّض إلى حُرَم سيدّه، والعهدة على ناقله، وكان من جملتهنّ امرأة من بني قُرّة، فأرسلت إلى إخوتها تشكو إليهم ما هي فيه، فجاء إخوتها لأخذها فمنعهم، وقال: هذه حُرمة مولاي؛ ولم يسلّمها، فسار بنو قُرّة ومعمر بن رشيد إلى الحسن صاحب إفريقية، وشكوا إليه ما يفعل يوسف، فكاتبه الحسن في ذلك، فلم يُجِب إليه، وقال: لَئِن لم يكفّ الحسن عنّي وإلاّ سلّمتُ قابِس إلى صاحب صَقَلّية، فجهزّ الحسن العسكر إليه، فلمّا سمع يوسف بذلك أرسل إلى رُجّار الفرنجيّ، صاحب صَقَلّية، وبذل له الطاعة، وقال له: أريد منك خِلعة وعهداً بولاية قابِس لأكون نائباً عنك كما فعلتَ مع بني مطروح في طرابُلُس، فسيّر إليه رُجّار الخِلعة والعهد، فلبِسها، وقُرِىء العهد بمجمعٍ من النّاس.

فجدّ حينئذٍ الحسن في تجهيز العسكر إلى قابِس، فساروا إليها ونازلوها وحصروها، فثار أهل البلد بيوسف لما اعتمده من طاعة الفرنج، وسلّموا البلد إلى عسكر الحسن، وتحصّن يوسف في القصر، فقاتلوه حتى فتحوه، وأُخذ يوسف أسيراً، فتولّى عذابه معمر بن رشيد وبنو قُرّة، فقطعوا ذكَرَه، وجعلوه في فمه، وعُذّب بأنواع العذاب.

ووليَ معمر قابِس مكان أخيه محمّد، وأخذ بنو قُرّة أختهم، وهرب عيسى أخو يوسف وولد يوسف، وقصدوا رُجّار، صاحب صَقَلّية، فاستجاروا به، وشكوا إليه ما لقوا من الحسن، فغضب لذلك، وكان ما نذكره سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة من فتح المَهْديّة، إن شاء الله تعالى.

ذكر حادثة ينبغي أن يحتاط العاقل من مثلها

كان يوسف هذا صاحب قابِس قد أرسل رسولاً إلى رجّار بصَقَلِيّة، فاجتمع هو ورسول الحسن صاحب المهدِيّة عنده، فجرى بين الرسولَين مناظرة، فذكر رسول يوسف الحَسَن وما نال منه[1]، وذمّه، ثمّ إنّهما عادا في وقت واحد، وركبا البحر كلّ

(١) في (أ): «ونال منه».

واحدٍ منهما في مركبه، فأرسل رسول الحسن رُقعة إلى صاحبه على جَناح طائر يُخبره بما كان من رسول يوسف، فسيّر الحسن جماعة من أصحابه في البحر، فأخذوا رسول يوسف وأحضروه عند الحسن، فسبّه وقال: ملّكتَ الفرنج بلاد الإسلام وطوّلتَ لسانك بذميّ! ثمّ أركبه جمَلاً وعلى رأسه طرطور بجَلاجِل، وطيفَ به في البلد، ونُودي عليه: هذا جزاء مَن سعى أن يملّك الفرنج بلاد المسلمين، فلمّا توسّط المهَدِيّةَ ثار به العامّة فقتلوه بالحجارة.

ذكر مُلك الفرنج المَرِيّةَ وغيرها من الأندلس

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، حصر الفرنج مدينة المَرِيّة من الأندلس، وضيّقوا عليها برّاً وبحراً، فملكوها عَنوةً، وأكثروا القتلَ بها والنّهب، وملكوا أيضاً مدينة بياسةَ، وولاية جَيّانَ، وكلّها بالأندلس، ثمّ استعادها المسلمون بعد ذلك منهم، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر مُلك نُور الدين محمود بن زنكي عدّة مواضع من بلد الفرنج

في هذه السنة دخل نور الدين محمود بن زنكي، صاحب حلب، بلد الفرنج، ففتح منه مدينة أرتاحَ بالسيف ونهبها، وحصن مابولةَ، وبُصرفُون، وكَفَرلاثا. وكان الفرنج بعد قتل والده زنكي قد طمعوا، وظنّوا أنّهم بعده يستردّون ما أخذه، فلمّا رأوا من نور الدين هذا الجدّ في أوّل أمره علموا أنّ ما أمّلوه بعيدٌ[1].

ذكر أخذ الحِلّة من عليّ بن دُبيس وعوده إليها

في هذه السنة كثُر فساد أصحاب عليّ بن دُبيس بالحِلّة وما جاورها، وكثُرت الشكاوى منه، فأقطع السلطان مسعود الحِلّة للأمير سَلاركُردَ، فسار إليها من هَمَذانَ ومعه عسكر، وانضاف إليه جماعة من عسكر بغداد، وقصدوا الحِلّة، فجمع عليّ عسكره وحشد، والتقى العسكران بمُطيراباذ، فانهزم عليّ، وملك سلاركردُ الحِلّة، واحتاط على أهل عليّ ورجعت العساكر، وأقام هو بالحِلّة في مماليكه وأصحابه،

---

(١) زبدة الحلب ٢/ ٢٩١، الروضتين ١/ ١٣٢، ١٣٣، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٩٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩، نهاية الأرب ٢٧/ ١٥٣، دول الإسلام ٢/ ٥٨، العبر ٤/ ١١٤، تاريخ الإسلام (٥٤٢ هـ.) ص ١٠، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٣٨، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٨٠.

وسار عليُّ بن دُبيس فلحِق بالبَقْش كُون خَر، وكان بأقطاعه، في اللِّحف، متجنّياً على السلطان، فاستنجده، فسار معه إلى واسط، واتّفق هو والطُرنطاي، وقصدوا الحِلّة فاستنقذوها من سلاركُرد في ذي الحجّة، وفارقها سلاركرد وعاد إلى بغداد.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، خُطب للمستنجد بالله يوسف بن المقتفي لأمر الله بولاية العهد.

وفيها وليَ عَوْن الدين يحيَى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد، ووليَ زعيم الدين يحيَى بن جعفر المخزن[١].

[الوفيات]

وفيها، في ربيع الأوّل، مات أبو القاسم طاهر بن سعيد بن أبي سعيد بن أبي الخير المِيهنيُّ[٢]، شيخ رباط البِسطاميّ ببغداد.

وفي ربيع الآخر توفّيت فاطمة خاتون[٣] بنت السلطان محمّد زوجة المقتفي لأمر الله.

وفي رجب منها مات أبو الحسن محمّد بن المظفّر[٤] بن عليّ بن المُسلمة، ابن رئيس الرؤساء، ومولده سنة أربعٍ وثمانين [وأربعمائة]، وكان قد تصوّف، وجعل داره التي في القصر رِباطاً للصوفيّة.

وفيها سار سيف الدين غازي بن زنكي إلى قلعة دارا، فملكها وغيرها من بلد ماردين، ثمّ سار إلى ماردين وحصرها وخرّب بلدها ونهبه.

وكان سبب ذلك أنّ أتابك زنكي لما قُتل تطاول صاحب ماردين وصاحب الحصن إلى ما كان قد فتحه من بلادهما فأخذاه، فلمّا ملك سيف الدين وتمكّن سار إلى ماردين وحصرها، وفعل ببلدها الأفاعيل العظيمة، فلمّا رأى صاحبها، وهو حينئذٍ

---

(١) المنتظم ١٠/١٢٥ (١٨/٥٦).

(٢) المنتظم ١٠/١٢٨ رقم ١٩٠ (١٨/٥٩ رقم ٤١٣٨).

(٣) المنتظم ١٠/١٢٨ رقم ١٩٣ (١٨/٦٠ رقم ٢١٤٢)، تاريخ الإسلام (٥٤٢ هـ.) ص ١١٦ رقم ٩٩.

(٤) المنتظم ١٠/١٢٩ رقم ١٩٥ (١٨/٦١ رقم٤١٤٤)، تاريخ الإسلام (٥٤٢ هـ.) ص ١٢٣ رقم ١١٣.

حسام الدين تِمِرْتاش، ما يفعل في بلده قال: كنّا نشكو من أتابك الشهيد، وأين أيّامه؟ لقد كانت أعياداً. قد حصرنا غير مرّة، فلم يأخذ هو ولا أحدٌ من عسكره مِخلاة تبن بغير ثمن، ولا تعدّى هو وعسكره حاصل السلطان، وأرى هذا ينهب البلاد ويخرّبها.

ثمّ راسله وصالحه، وزوّجه ابنتَه، ورحل سيف الدين عنه وعاد إلى الموصل، وجُهّزت ابنة حسام الدين وسُيّرت إليه، فوصلت وهو مريض قد أشفى على الموت، فلم يدخل بها، وبقيت عنده إلى أن تُوفّي، ومَلك قُطْب الدين مودود، فتزوّجها، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى[1].

وفيها اشتدّ الغلاء بإفريقية ودامَت أيّامه، فإنّ أولّه كان سنة سبْع وثلاثين وخمسمائة، وعظُم الأمر على أهل البلاد حتى أكل بعضهم بعضاً، وقصد أهلَ البوادي المدن من الجوع، فأغلقها أهلها دونهم، وتبِعه وباء وموتٌ كثير، حتى خلت البلاد. وكان أهل البيت لا يبقى منهم أحد، وسار كثير منهم إلى صَقَليّة في طلب القوت، ولقوا أمراً عظيماً[2].

---

(١) تاريخ الإسلام (٥٤٢ هـ.) ص ١١، التاريخ الباهر ٩٠/٩١.

(٢) العبر ٤/١١٤، تاريخ الإسلام (٥٤٢ هـ.) ص ١١، مرآة الجنان ٣/٢٧٥، البداية والنهاية ١٢/٢٢٢، اتعاظ الحنفا ٣/١٨٧.

(٥٤٣)
ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

ذكر مُلك الفرنج مدينة المَهدِيّة بإفريقية

قد ذكرنا سنة إحدى وأربعين وخمسمائة مسير أهل يوسف، صاحب قابِس، إلى رُجّار، ملك صَقَلّيَة، واستغاثتهم به، فغضب لذلك، وكان بينه وبين الحسن بن عليّ بن يحيَى بن تميم بن المُعزّ بن باديس الصنهاجيّ، صاحب إفريقية، صلح وعهود إلى مدّة سنتين، وعلم أنّه فاته فتح البلاد في هذه الشدة[١] التي أصابتهم، وكانت الشدّة دوام الغلاء في جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة، وكان أشدّ ذلك سنة اثنتين وأربعين، فإنّ النّاس فارقوا البلاد والقُرى، ودخل أكثرهم إلى مدينة صَقَلّية، وأكل النّاس بعضهم بعضاً، وكثُر الموت في النّاس، فاغتنم رُجّار هذه الشدّة، فعمر الأسطول، وأكثر منه، فبلغ نحو مائتين[٢] وخمسين شينيّاً مملوءة رجالاً وسلاحاً وقُوتاً.

وسار الأسطول عن صَقلّية، ووصل إلى جزيرة قَوْصَرَةَ، وهي بين المهديّة وصَقَلّية، فصادفوا[٣] بها مركباً وصل من المهديّة، فأُخذ أهله وأُحضروا بين يدَي جُرْجي مقدّم الأسطول، فسألهم عن حال إفريقية، ووجد في المركب قفص حمام، فسألهم هل أرسلوا منها، فحلفوا أنّهم لم يرسلوا منها شيئاً، فأمر الرجلَ الذي كان الحمام صُحبته أن يكتب بخطّه: إنّنا لما وصلنا جزيرة قَوصَرة وجدنا بها مراكب من صَقَلّية، فسألناهم عن الأسطول المخذول، فذكروا أنّه أقلع إلى جزائر القسطنطينيّة.

---

(١) في الباريسية ونسخة رقم ٧٤٠ «السنة».

(٢) في (أ): «مائة».

(٣) في الأوربية: «فصدفوا».

وأُطلق الحمام فوصل إلى المهديّة، فسرّ الأمير الحسن والنّاس؛ وأردا جُرْجي بذلك أن يصل بغتةً، ثمّ سار، وقدّر وصولهم إلى المهديّة وقت السَّحَر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها، فلو تمّ له ذلك لم يسلم منهم أحدٌ، فقدّر اللّه تعالى أن أرسل عليهم ريحاً هائلة عكستهم، فلم يقدروا على المسير إلاّ بالمقاذيف، فطلع النهار ثاني صفَر في هذه السنة قبل وصولهم، فرآهم النّاس، فلمّا رأى جُرجي ذلك وأنّ الخديعة فاتته، أرسل إلى الأمير الحسن يقول: إنّما جئتُ بهذا الأسطول طالباً بثأر محمّد بن رشيد صاحب قابِس وردّه إليها، وأمّا أنتَ فبينَنا وبينَك عهود وميثاق إلى مدّة، ونُريد منك عسكراً يكون معنا.

فجمع الحسن النّاس من الفقهاء والأعيان وشاورهم، فقالوا: نقاتل عدوّنا، فإنّ بلدنا حصين. فقال: أخاف أن ينزل إلى البرّ ويحصرنا برّاً وبحراً، ويحول بينَنا وبين المِيرة، وليس عندنا ما يقوتنا شهراً، فنؤخذ قهراً، وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل خيراً[1] من الملك[2]، وقد طلب مني عسكراً إلى قابِس، فإذا فعلتُ فما يحلّ لي معونة الكفّار على المسلمين، وإذا امتنعتُ يقول: انتقض ما بينَنا من الصلح، وليس يريد إلاّ أن يثبطنا حتى يحول بينَنا وبين البرّ، وليس لنا بقتاله طاقة، والرأي أن نخرج بالأهل والولد ونترك البلد، فمَن أراد أن يفعل كفِعلِنا فلْيُبادرْ معنا.

وأمر في الحال بالرحيل، وأخذ معه مَن حضره وما خفّ حَمله، وخرج النّاس على وجوههم بأهليهم وأولادهم، وما خفّ من أموالهم وأثاثهم، ومن النّاس مَن اختفى عند النصارى وفي الكنائس، وبقي الأسطول في البحر تمنعه الريح من الوصول إلى المَهديّة إلى ثُلثي النهار، فلم يبقَ في البلد ممّن عزم على الخروج أحدٌ، فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع، ودخل جُرجي القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه إلاّ ما خفّ من ذخائر الملوك، وفيه جماعة من حظاياه، ورأى الخزائن مملوءة من الذخائر النفيسة، وكلّ شيء غريب يقلّ وجود مثله، فختم عليه، وجمع سراري الحسن في قصره.

وكان عدّة مَن ملك منهم من زيري بن مَناد إلى الحسن تسعة ملوك، ومدّة

---

(١) في الأوربية: «خير».

(٢) في (أ): «خوفاً من الملك».

ولايتهم مائتا سنة وثماني سنوات، من سنة خمسٍ وثلاثين وثلاثمائة إلى سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة؛ وكان بعض القوّاد قد أرسله الحسن إلى رُجّار برسالة، فأخذ لنفسه وأهله منه أماناً، فلم يخرج معهم، ولما ملك المدينة نُهبت مقدار ساعتَين، ونودي بالأمان، فخرج مَن كان مستخفياً، وأصبح جُرجي من الغد، فأرسل إلى مَن قرب من العرب، فدخلوا إليه[1]، فأحسن إليهم، وأعطاهم أموالاً جزيلة، وأرسل من جُند المهديّة الذين تخلّفوا بها جماعة، ومعهم أمان لأهل المَهديّة الذين خرجوا منها، ودوابُّ يحملون عليها الأطفال والنساء، وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع، ولهم بالمهديّة خبايا وودائع، فلمّا وصل إليهم الأمان رجعوا، فلم تمضِ جمعة حتى رجع أكثر أهل البلد.

وأمّا الحسن فإنّه سار بأهله وأولاده، وكانوا اثني عشر ولداً ذكراً غير الإناث، وخواصّ خدمه، قاصداً إلى مُحرز بن زياد، وهو بالمعلّقة، فلقيه في طريقه أمير من العرب يسمّى حسن بن ثعلب، فطلب منه مالاً انكسر له في ديوانه، فلم يمكن الحسن إخراج مال لئلاّ يؤخذ، فسلّم إليه ولدَه يحيَى رهينةً وسار، فوصل في اليوم الثاني إلى مُحرز، وكان الحسن قد فضّله على جميع العرب وأحسن إليه، ووصله بكثير من المال، فلقيه محرز لقاء جميلاً، وتوجّع لما حلّ له، فأقام عنده شهوراً، والحسن كارهٌ للإقامة، فأراد المسير إلى ديار مصر إلى الخليفة الحافظ العلويّ، واشترى مركباً لسفره، فسمع جُرجي الفرنجي، فجهّز شواني ليأخذه، فعاد الحسن عن ذلك، وعزم على المسير إلى عبد المؤمن بالمغرب، فأرسل كبار أولاده يحيَى وتميماً وعليّاً إلى يحيَى بن العزيز، وهو من بني حمّاد، وهما أولاد عمّ، يستأذنه في الوصول إليه، وتجديد العهد به، والمسير من عنده إلى عبد المؤمن، فأذِن له يحيَى، فسار إليه، فلمّا وصل لم يجتمع به يحيَى وسيّره إلى جزيرة بني مَزْغَنّاي هو وأولاده ووكّل به من يمنعهم من التصرّف، فبقوا كذلك إلى أن ملك عبد المؤمن بِجَايَةَ سنة سبْعٍ وأربعين [وخمسمائة]، فحضر عنده وقد ذكرنا حاله هناك.

ولما استقرّ جُرجي بالمهديّة سيّر أسطولاً، بعدَ أسبوع، إلى مدينة سَفاقُس، وسيّر أسطولاً آخر إلى مدينة سُوسَة، فأمّا سُوسَة فإنّ أهلها لما سمعوا خبر المَهديّة، وكان

---

(١) في (ب): «فدخلوا المدينة».

واليها عليّ بن الحَسَن الأمير، فخرج إلى أبيه، وخرج النّاس لخروجه، فدخلها الفرنج بلا قتال ثاني عشر صفر؛ وأمّا سفاقُس فإنّ أهلها أتاهم كثير من العرب، فامتنعوا بهم، فقاتلهم الفرنج، فخرج إليهم أهل البلد، فأظهر الفرنج الهزيمة، وتبِعهم النّاس حتى أبعدوا عن البلد، ثمّ عطفوا عليهم، فانهزم قوم إلى البلد وقوم إلى البرّيّة، وقُتل منهم جماعة، ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة، وأُسر مَن بقي من الرجال وسُبي الحريم، وذلك في الثالث والعشرين من صفر، ثمّ نودي بالأمان، فعاد أهلها إليها، وافتكّوا حُرَمهم وأولادهم، ورُفق بهم وبأهل سُوسَة والمهديّة، وبعد ذلك وصلَتْ كتبٌ من رُجّار لجميع أهل إفريقية بالأمان والمواعيد الحسنة.

ولما استقرّت أحوال البلاد سار جُرجي في أسطول إلى قلعة إقليبيَة، وهي قلعة حصينة، فلمّا وصل إليها سمعته العرب، فاجتمعوا إليها، ونزل إليهم الفرنج، فاقتتلوا فانهزم الفرنج، وقُتل منهم خلق كثير، فرجعوا خاسرين إلى المهَديّة، وصار للفرنج من طرابُلُس الغرب إلى قريب تُونُس، ومن المغرب إلى دون القَيروان، والله أعلم[1].

ذكر حصر الفرنج دمشق وما فعل سيف الدين غازي بن زنكي

في هذه السنة سار ملك الألمان من بلاده في خلْق كثير وجمْعٍ عظيم من الفرنج، عازماً على قصد بلاد الإسلام، وهو لا يشكّ في مُلكها بأيسرِ قتال لكثرة جموعه، وتوفُّر أمواله وعُدَده، فلمّا وصل إلى الشام قصده مَن به من الفرنج وخدموه، وامتثلوا أمره ونهيه، فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه، فساروا معه ونازلوها وحصروها، وكان صاحبها مجير الدين أَبَق بن بُوري بن طُغدَكين، وليس له من الأمر شيء، وإنّما الحكم في البلد لمعين الدين أُنُر مملوك جدّه طُغدكين، وهو الذي أقام مُجير الدين؛ وكان معين الدين عاقلاً، عادلاً، خيّراً، حَسَن السيرة، فجمع العساكر وحفظ البلد.

وأقام الفرنج يحاصرونهم، ثمّ إنّهم زحفوا سادس ربيع الأوّل بفارسهم وراجلهم، فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوهم، وصبروا لهم، وفيمن خرج

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/ ١٩، العبر ٤/ ١١٨، تاريخ الإسلام (٥٤٣ هـ.) ص ١٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٣، اتعاظ الحنفا ٢/ ١٨٨، تاريخ ابن سباط ١/ ٨٧.

للقتال الفقيه حُجّة الدين يوسف بن دي ناس الفنْدلاويّ المغربيّ، وكان شيخاً كبيراً، فقيهاً عالماً، فلمّا رآه معين الدين، وهو راجل، قصده وسلّم عليه، وقال له: يا شيخ أنت معذور لِكبَر سِنّك، ونحن نقوم بالذَّبّ عن المسلمين؛ وسأله أن يعود، فلم يفعل وقال له: قد بعتُ واشترى منّي، فواللّهِ لا أقلتُه ولا استقلتُه؛ فعنى قولَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1].

وتقدّم فقاتل حتى قُتل عند النَّيْرَب نحو نصف فرسخ عن دمشق.

وقوي الفرنج وضعف المسلمون، فتقدّم ملك الألمان حتى نزل بالمَيدان الأخضر، فأيقن النّاس بأنّه يملك البلد. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي بن أتابك زنكي يدعوه إلى نُصرة المسلمين، وكفّ العدوّ عنهم، فجمع عساكره وسار إلى الشام، واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب، فنزلوا بمدينة حِمصَ، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرتُ ومعي كلّ مَن يحمل السّلاح في بلادي، فأريد أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فإن انهزمتُ دخلتُ أنا وعسكري البلد واحتمينا به، وإنْ ظفرتُ فالبلد لكم لا أنازعكم فيه.

فأرسل إلى الفرنج يتهدّدهم إن لم يرحلوا عن البلد، فكفّ الفرنج عن القتال خوفاً من كثرة الجراح، ورُبّما اضطّروا إلى قتال سيف الدين، فأبقوا على نفوسهم، فقوي أهل البلد على حفظه، واستراحوا من لزوم الحرب، وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء: إنّ ملك المشرق قد حضر، فإنْ رحلتم، وإلاّ سلّمتُ البلد إليه، وحينئذٍ تندمون؛ وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم: بأيّ عقل تساعدون هؤلاء علينا، وأنتم تعلمون أنّهم إنْ ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحليّة، وأمّا أنا فإن رأيتُ الضعف عن حفظ البلد سلّمتُه إلى سيف الدين، وأنتم تعلمون أنّه إنْ ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام في الشام؛ فأجابوه إلى التخلّي عن ملك الألمان، وبذل لهم تسليم[2] حصن بانياس إليهم.

واجتمع الساحليّة بملك الألمان، وخوّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع

---

(١) سورة التوبة، الآية ١١١.

(٢) في الأوربية: «تسلّم».

الأمداد إليه، وأنّه ربّما أخذ دمشق وتضعف[1] عن مقاومته؛ ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد، وتسلّموا قلعة بانياس، وعاد الفرنج الألمانيّة إلى بلادهم وهي من وراء القسطنطينيّة، وكفى اللّه المؤمنين شرّهم[2].

وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخ دمشق: أنّ بعض العلماء حكى له أنّه رأى الفندلاويّ في المنام، فقال له: ما فعل اللّه بك، وأين أنت؟ فقال: غفر لي، وأنا في جَنّات عَدن على سُرُرٍ متقابلين[3].

ذكر مُلك نور الدين محمود بن زنكي حصن العُرَيمة

لما سار الفرنج عن دمشق رحل نور الدين إلى حصن العُرَيْمَة، وهو للفرنج، فملكه.

وسبب ذلك أن ملك الألمان لما خرج إلى الشام كان معه ولد الفنُش، وهو من أولاد ملوك الفرنج، وكان جدّه هو الذي أخذ طرابلس الشام من المسلمين، فأخذ حصن العُرَيمة وتملّكه، وأظهر أنّه يريد أخذ طرابُلس من القمّص، فأرسل القمّص إلى نور الدين محمود، وقد اجتمع هو ومعين الدين أُنُر ببَعْلَبَكّ، يقول له ولمعين الدين ليقصدا حصن العُرَيمة ويملكاه من ولد الفُنش، فسارا إليه مُجِدّين في عساكرهما، وأرسلا إلى سيف الدين وهو بحمص يستنجدانه، فأمدّهما بعسكر كثير مع الأمير عزّالدين أبي بكر الدُّبيسيّ، صاحب جزيرة ابن عُمَر وغيرها، فنازلوا الحصن وحصروه، وبه ابنُ الفُنش، فحماه وامتنع به، فزحف المسلمون إليه غير مرّة، وتقدّم

---

(١) في الأوربية: «ونضعف».

(٢) التاريخ الباهر ٨٨، ٨٩، ذيل تاريخ دمشق ٢٩٧ ـ ٣٠٠، المنتظم ١٠، ١٣٠، ١٣١، (١٨/ ٦٣، ٦٤)، الروضتين ١/ ١٣٣ ـ ١٣٨، الاعتبار ٩٤، ٩٥، مفرّج الكروب ١/ ١١٢، تاريخ دولة آل سلجوق ٢٠٧، المختصر لأبي الفداء ٣/ ٢٠، نهاية الأرب ٢٧/ ١٥٠، ١٥١، زبدة الحلب ٢/ ٢٩٢، تاريخ الزمان ١٦٢، ١٦٣، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ١٩٧ ـ ١٩٩، الدرّة المضية ٥٤٩، ٥٥٠، دول الإسلام ٢/ ٥٨، ٥٩، العبر ٤/ ١١٦ ـ ١١٨، تاريخ الإسلام (٥٤٣ هـ.) ص ١٢ ـ ١٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٧، ٤٨، مرآة الجنان ٣/ ٢٧٧، ٢٧٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٣، ٢٢٤، عيون التواريخ ١٢/ ٤١٦، ٤١٧، الإعلام والتبيين ٢٥ ـ ٢٧ الكواكب الدرّية ١٢٦ ـ ١٢٨، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٣٨، ٢٣٩، تاريخ الخلفاء ٤٣٩، تاريخ ابن سباط ١/ ٨٧، ٨٨.

(٣) مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٠١.

إليه النقّابون فنقبوا السور، فاستسلم حينئذٍ مَن به من الفرنج، فملكه المسلمون وأخذوا كلّ مَن به من فارس وراجل وصبيّ وامرأة، وفيهم ابن الفُنش، وأخربوا الحصن وعادوا إلى سيف الدين. وكان مثَل ابن الفُنش كما قيل: خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير أذنَين[1].

ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء ووصولهم إلى بغداد وما كان منهم بالعراق

في هذه السنة فارق السلطان مسعوداً جماعة من أكابر الأمراء، وهم من أذْرَبيجان: إيلدكر[2] المسعوديّ، صاحب كَنجَةَ وأرّانيّة، وقَيصر، ومن الجبل: البقش كون خر، وتَتر[3] الحاجب، وهو من مماليك مسعود أيضاً، وطُرنطايّ[4] المحموديّ، شِحنة واسط، والدّكز، وقَرْقُوب، وابن طُغايرك.

وكان سبب ذلك مَيْل السلطان إلى خاصّ بك واطّراحه لهم، فخافوا أن يفعل بهم مثل فعله بعبد الرحمن، وعبّاس، وبوزابة، ففارقوه وساروا نحو العراق، فلمّا بلغوا حُلوان خاف النّاس ببغداد وأعمال العراق، وغلت الأسعار، وتقدّم الإمام المقتفي لأمر الله بإصلاح السور وترميمه، وأرسل الخليفة إليهم بالعباديّ الواعظ، فلم يرجعوا إلى قوله، ووصلوا إلى بغداد في ربيع الآخر، والملك محمّد ابن السلطان محمود معهم، ونزلوا بالجانب الشرقي، وفارق مسعود بلال شِحنة بغداد البلد خوفاً من الخليفة، وسار إلى تَكْريت وكانت له، فعظُم الأمر على أهل بغداد، ووصل إليهم عليُّ بن دُبيس صاحب الحِلّة، فنزل بالجانب الغربيّ، فجنّد الخليفة أجناداً يحتمي بهم.

ووقع القتال بين الأمراء وبين عامّة بغداد ومَن بها من العسكر، واقتتلوا عدّة دفعات، ففي بعض الأيّام انهزم الأمراء الأعاجم من عامّة بغداد مكراً وخديعةً، وتبِعهم العامّة، فلمّا أبعدوا عادوا عليهم وصار بعض العسكر من ورائهم، ووضعوا السيف

---

(١) التاريخ الباهر ٨٨.

(٢) في طبعة صادر ١١/ ١٣٢ «إيلدكز» بالزاي المهملة.

(٣) في نهاية الأرب ٢٧/ ٥٠ «تبر».

(٤) في (أ): «طرمطاي»، والمثبت يتفق مع: نهاية الأرب.

فقُتل من العامّة خلق كثيرَ، ولم يُبقوا على صغير ولا كبير، وفتكوا فيهم، فأصيب أهل بغداد بما لم يُصابوا بمثله، وكثُر القتلى والجرحى، وأُسر منهم خلق كثير، فقُتل البعض وشُهر البعض، ودفن النّاس مَن عرفوا، ومن لم يُعرف تُرك طريحاً بالصحراء، وتفرق العسكر في المحال الغربية، فأخذوا من أهلها الأموال الكثيرة، ونهبوا بلد دُجَيل[1] وغيره، وأخذوا النساء والولدان.

ثمّ إنّ الأمراء اجتمعوا ونزلوا مقابل التاج، وقبّلوا الأرض واعتذروا، وتردّدت الرسل بينهم وبين الخليفة إلى آخر النهار، وعادوا إلى خيامهم، ورحلوا إلى النّهروان، فنهبوا البلاد، وأفسدوا فيها، وعاد مسعود بلال شِحنة بغداد من تكريت إلى بغداد.

ثمّ إنّ هؤلاء الأمراء تفرّقوا وفارقوا العراق، وتوفّي الأمير قيصر بأذْرَبِيجان، هذا كلّه والسلطان مسعود مقيم ببلد الجبل، والرسل بينه وبين عمّه السلطان سنَجر متّصلةٌ؛ وكان السلطان سَنْجَر قد أرسل إليه يلومه على تقديم خاصّ بك، ويأمره بإبعاده، ويتهدّده بأنّه إن لم يفعل فسيقصده ويزيله عن السلطنة؛ وهو يغالط ولا يفعل، فسار السلطان سنجَر إلى الرّيّ، فلمّا علم السلطان مسعود بوصوله سار إليه وترضّاه، واستنزله عمّا في نفسه فسكن. وكان اجتماعهما سنة أربعٍ وأربعين [وخمسمائة] على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى[2].

ذكر انهزام الفرنج بيَغرَى

في هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكي الفرنج بمكان اسمه يَغرى[3] من أرض الشام، وكانوا قد تجمّعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها، فعلم بهم، فسار إليهم في عسكره، فالتقوا بيغرى واقتتلوا قتالاً شديداً، وأجْلتِ المعركة عن انهزام الفرنج، وقُتل كثيرٌ منهم، وأُسر جماعة من مقدّميهم، ولم ينجُ من ذلك الجمع إلاّ

---

(١) في الباريسية، ورقم ٧٤٠ «دحيل».

(٢) المنتظم ١٠/ ١٣١ ـ١٣٣ (١٨/ ٦٤ ـ٦٦)، زبدة التواريخ ٢٢٥ ـ٢٢٨، نهاية الأرب ٢٧/ ٥٠، ٥١، تاريخ الإسلام (٥٤٣ هـ.) ص ١٥، ١٦، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥١٤ ـ٥١٦.

(٣) في التاريخ الباهر ٩١ «بصرى»، ومثله في: الروضتين ١/ ١٤٤، والمثبت يتفق مع زبدة الحلب ٢/ ٢٩٢، وأصل التاريخ الباهر (الحاشية ٦)، ومفرّج الكروب ١/ ١١٥ وفيه: «بيغري»، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠.

القليل؛ وأرسل من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغيرهم.

وفي هذه الوقعة يقول ابن القَيْسرانيّ في قصيدته التي أوّلها:

يـــا لَيـــتَ أنّ الصّـــدّ مصْـــدُودُ أوْ لا، فلَيـــتَ النَـــوْمَ[1] مَـــرْدُودُ

ومنها في ذِكر نور الدين:

وكيـــفَ لا نُثْنـــي علـــى عَيشِنَـــا الـ ـمَحمـــودِ والسّلطـــانُ مَحمـــودُ

وَصـــارِمُ الإسْـــلامِ لا يَنْثَنـــي إلاّ وَشِلْـــوُ الكُفْـــرِ مَقْـــدُودُ

مَكـــارِمُ[2] لَـــمْ تَـــكُ مَـــوْجُـــودَةً إلاّ وَنُـــورُ الـــدّيـــنِ مَـــوْجـــودُ

وكَـــمْ لَـــهُ مِـــنْ وَقعَـــةٍ يَـــوْمُهـــا، عنـــدَ المُلـــوكِ الكُفـــر[3]، مَشْهُـــودُ[4]

ذكر مُلك الغُوريّة غَزْنَة وعَودهم عنها

في هذه السنة قصد سوري بن الحسين بن ملك الغُور مدينة غَزْنَةَ فملكها. وسبب ذلك أنّ أخاه ملك الغُوريّة [قبله محمّد بن الحسين كان قد صاهر بَهرام شاه مسعود بن]، ابراهيم، صاحب غَزْنة، وهو من بيت سُبُكْتِكين، فعظُم شأنه بالمصاهرة، وعَلَت همّته، فجمع جموعاً كثيرةً، وسار إلى غَزنة ليملكها، وقيل: إنّما سار إليها مُظهراً الخدمةَ والزيارة، وهو يريد المكر والغدر، فعلم به بَهرام شاه، فأخذه وسجنه، ثمّ قتله، فعظم قتله على الغُوريّة، ولم يمكنهم الأخذ بثأره.

ولما قُتل ملك بعده أخوه سام بن الحسين، فمات بالجُدَري؛ وملك بعده أخوه الملك سوري بن الحسين بلاد الغور، وقوي أمره، وتمكّن في ملكه، فجمع عسكره من الفارس والراجل وسار إلى غزنة طالباً بثأر أخيه المقتول، وقاصداً ملك غَزنة، فلمّا وصل إليها ملكها في جُمادى الأولى سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة.

وفارقها بَهرام شاه إلى بلاد الهند، وجمع جموعاً كثيرة، وعاد إلى غَزْنة وعلى

---

(١) في التاريخ الباهر ٩٢ «اليوم».

(٢) في التاريخ الباهر والروضتين: «مناقب»، والمثبت يتفق مع: زبدة الحلب ٢/ ٢٩٣.

(٣) في التاريخ الباهر، والروضتين: «الشرك».

(٤) الأبيات في: التاريخ الباهر ٩٢، والروضتين ١/ ١٤٥، وزبدة الحلب ٢/ ٢٩٣، وصدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ١٠٧، ١٠٨، مفرّج الكروب ١/ ١١٤، ١١٥.

مقدّمته السلار الحسن بن إبراهيم العلوي أمير هِندوستان. وكان عسكر غَزنة، الذين أقاموا مع سوري بن الحسين الغُوري وخدموه، قلوبهم مع بَهرام شاه، وإنّما هم بظواهرهم مع سوري، فلمّا التقى سوري وبهرام شاه رجع عسكر غَزْنة إلى بهرام شاه، وصاروا معه وسلّموا إليه سوري ملك الغوريّة، وملك بهرام شاه غَزْنة في المحرّم سنة أربع وأربعين [وخمسمائة]، وصلب الملك سوري (مع)[1] السيّد الماهيانيّ في المحرّم أيضاً من السنة[2].

وكان سوري أحد الأجواد، له الكَرَم الغزير، والمروءة العظيمة، حتى إنّه كان يرمي الدراهم في المقاليع إلى الفقراء لتقع بيد مَن يتّفق له.

ثمّ عاود[3] الغُوريّة وملكوها، وخرّبوها، وقد ذكرناه[4] سنة سبعٍ وأربعين [وخمسمائة]، وذكرنا هناك ابتداء دولة الغوريّة، لأنّهم في ذلك الوقت عظُمَ محلّهم، وفارقوا الجبال، وقصدوا خُراسان، وعلا شأنهم، وفي بعض الخُلْف كما ذكرناه، واللّه أعلم.

ذكر مُلك الفرنج مدناً من الأندلس

في هذه السنة ملك الفرنج بالأندلس مدينة طَرْطُوشَة، وملكوا معها جميع قلاعها، وحصون لارِدَةَ وأفراغةَ، ولم يبقَ للمسلمين في تلك الجهات شيء إلاّ واستولى الفرنج على جميعه[5] لاختلاف المسلمين بينهم، وبقي بأيديهم إلى الآن[6].

ذكر عدّة حوادث

[الوفيات]

في هذه السنة توفّي أبو بكر المبارك[7] بن الكامل بن أبي غالب البغدادي

---

(١) من (أ).
(٢) تاريخ الإسلام (٥٤٣ هـ.) ص ١٤.
(٣) في (ب): «عودوا».
(٤) في (أ).
(٥) في الأوربية: «جميعها».
(٦) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٨، تاريخ ابن سباط ١/ ٨٩.
(٧) أنظر عن (المبارك) في: تاريخ الإسلام (٥٤٣ هـ.) ص ١٦٧، ١٦٨ رقم ١٨٠ وفيه مصادر ترجمته.

المعروف أبوه بالخفّاف، سمع الحديث الكثير، وكان مفيد بغداد.

[ذكر عدّة حوادث]

وفيها غَلَت الأسعار بالعراق وتعذّرت الأقوات بسبب العسكر الوارد، وقدم أهل السواد إلى بغداد منهزمين قد أُخذت أموالهم، وهلكوا جوعاً وعُرياً؛ وكذلك أيضاً كان الغلاء في أكثر البلاد: خُراسان، وبلاد الجبل، وأصفهان، وديار فارس، والجزيرة، والشام، وأمّا المغرب فكان أشدّ غلاء بسبب انقطاع الغَيث، ودخول العدوّ إليها[١].

[الوفيات]

وفيها توفّي إبراهيم بن نَبهان[٢] الغنَوي الرَّقيّ، ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة، وصحِب الغزالي، والشاشيّ، وروى «الجمْع بين «الصحيحين» للحُمَيديّ، عن مصنّفه.

وفيها، في ذي القعدة، توفّي الإمام أبو الفضل الكرمانيّ[٣]، الفقيه الحنفيّ إمام خُراسان.

---

(١) المنتظم ١٠/١٣٤ (٦٦/١٨)، المختصر في أخبار البشر ٣/٢٠، دول الإسلام ٢/٥٩، العبر ٤/١١٨، تاريخ الإسلام (٥٤٣ هـ.) ص ١٦، تاريخ ابن الوردي ٢/٤٨، تاريخ ابن سباط ١/٩٠.

(٢) أنظر عن (ابن نبهان) في: تاريخ الإسلام (٥٤٣ هـ.) ص ١٣٦، ١٣٧ رقم ١٣٢ وفيه مصادر ترجمته.

(٣) هو: عبد الرحمن بن محمد بن أمبرويه. أنظر عنه في: تاريخ الإسلام (٥٤٣ هـ.) ص ١٥٠ رقم ١٥٥ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٥٤٤)
ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الدين غازي بن أتابك زنكي وبعض سيرته ومُلك أخيه قطب الدين

في هذه السنة توفّي سيف الدين غازي[١] بن أتابك زنكي صاحب الموصل بها بمرض حادّ، ولما اشتدّ مرضه أرسل إلى بغداد واستدعى أوحد الزمان، فحضر عنده، فرأى شدّة مرضه، فعالجه، فلم ينجع فيه الدواء، وتوفّي أواخر جُمادى الآخرة، وكانت ولايته ثلاث سنين وشهراً وعشرين يوماً؛ وكان حَسَن الصورة والشباب، وكانت ولادته سنة خمسمائة، ودُفن بالمدرسة التي بناها بالموصل، وخلّف ولداً ذكراً، فربّاه عمّه نور الدين محمود، وأحسن تربيته، وزوّجه ابنة أخيه قُطْب الدين مودود، فلم تطُل أيّامه، وتوفّي في عُنفوان[٢] شبابه، فانقرض عِقبه.

وكان كريماً شجاعاً عاقلاً، وكان يصنع كلّ يوم لعسكره طعاماً كثيراً مّرتين بُكرةً وعشيّةً فأمّا الذي بُكرةً فيكون مائة رأس غنم جيّدة، وهو أوّل مَن حُمل على رأسه السنجق، وأمر الأجناد ألاّ يركبوا إلا بالسيف في أوساطهم والدّبوس تحت رُكبَهم، فلمّا فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف؛ بنى المدرسة الأتابكيّة العتيقة بالموصل، وهي من أحسن المدارس، ووقفها[٣] على الفقهاء الحنفيّة والشافعيّة[٤]، وبنى رباطاً

---

(١) أنظر عن وفاة سيف الدين غازي في: تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ٢٠، ٢١ وقد حشدت فيه المصادر، وكذا في: تاريخ ابن سباط ١/ ٩٠.

(٢) في الأوربية: «عنوان».

(٣) في الأوربية: «وأوقفها».

(٤) وفيات الأعيان ٤/ ٣، ٤.

للصوفيّة بالموصل أيضاً على باب المَشرَعة، ولم تطُل أيّامه ليفعل ما في نفسه من الخير، وكان عظيم الهمّة، ومن جملة كرمه أنّه قصده شهاب الدين الحِيصُ بِيصُ، وامتدحه بقصيدته التي أوّلها:

إلامَ يـراكَ المَجـدُ فـي زيّ شـاعـرٍ وَقـد نحلـتْ شـوْقـاً فُـروعُ المَنـابـرِ

فوصله بألف دينار عيناً سوى الخِلع وغيرها.

ولما توفّي سيف الدين غازي كان أخوه قُطب الدين مقيماً بالموصل، فاتّفق جمال الدين الوزير وزين الدين عليّ أمير الجيش على تمليكه، فأحضروه، واستحلفوه، وحلفوا له،وأركبوه إلى دار السلطنة، وزين الدين في رِكابه، وأطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين كالموصل، والجزيرة، والشّام.

ولما ملك تزوّج الخاتون ابنة حُسام الدين تِمِرتاش التي كان قد تزوّجها أخوه سيف الدين وتوفّي قبل الدخول بها، وهي أمّ أولاد[1] قُطب الدين: سيف الدين، وعزّ الدين وغيرهما من أولاده[2].

ذكر استيلاء نور الدين على سِنجار

لما ملك قُطب الدين مودود الموصل بعد أخيه سيف الدين غازي كان أخوه الأكبر نور الدين محمود بالشام، وله حلب وحماة، فكاتبه جماعة من الأمراء وطلبوه، وفيمَن كاتبه المقدّم عبد الملك والد شمس الدين محمّد، وكان حينئذٍ مستحفظاً بسِنجار، فأرسل إليه يستدعيه ليتسلّم سِنجار، فسار جريدةً في سبعين فارساً من أمراء دولته، فوصل إلى ماكِسين في نفرٍ يسير قد سبق أصحابه.

وكان يوماً شديد المطر، فلم يعرفهم الذي يحفظ الباب، فأخبر الشِّحنة[3] أنّ نفراً من التركُمان المتجنّدين قد دخلوا البلد، فلم يستتمّ كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشِحنة، فقام إليه وقبّل يده، ولحِق به باقي أصحابه، ثمّ سار إلى سِنجار،

---

(١) في (أ): «أولاده».

(٢) في (ب) «سيف الدين وغيرهما من أولاده». والخبر في: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١، والتاريخ الباهر ٩٤، والروضتين ١/ ١٧٠، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٠٤.

(٣) في الأوربية: «الشحنة».

فوصلها وليس معه غير ركابيّ وسلاح دار، ونزل بظاهر البلد.

وأرسل إلى المقدّم يُعْلِمه بوصوله، فرآه الرسول وقد سار إلى الموصل، وترك ولده شمس الدين محمّداً بالقلعة، فأعلمه بمسير والده إلى الموصل، وأقام من لحِق أباه بالطريق، فأعلمه بوصول نور الدين، فعاد إلى سِنجار فسلّمها إليه، فدخلها نور الدين، وأرسل إلى فخر الدين قُرا أرسلان، صاحب الحصن، يستدعيه إليه لمودّةٍ كانت بينهما، فوصل إليه في عسكره؛ فلمّا سمع أتابك قُطب الدين، وجمال الدين، وزين الدين بالموصل بذلك جمعوا عساكرهم وساروا نحو سِنجار، فوصلوا إلى تلّ يَعْفَر، وتردّدت الرسل بينهم بعد أن كانوا عازمين على قصده بسِنجار، فقال لهم جمال الدين: ليس من الرأي مُحاقتُهُ[1] وقتاله، فإنّنا نحن قد عظّمنا محلّه عند السلطان وما هو بصدده من الغزاة، وجعلنا أنفسنا دونه، وهو يُظهر للفرنج تعظيماً[2] وأنّه تبعنا؛ ولا يزال يقول لهم: إن كنتم كما يجب، وإلاّ سلّمتُ البلاد إلى صاحب الموصل، وحينئذٍ يفعل بكم ويصنع، فإذا لقيناه[3]، فإنْ هزمناه طمع السلطان فينا، ويقول: هذا الذي كانوا يعظّمونه ويحتمون به أضعف منهم، وقد هزموه؛ وإنْ هو هزمنا طمع فيه الفرنج، ويقولون إنّ الذين كان يحتمي بهم أضعف منه، وقد هزمهم، وبالجملة فهو ابن أتابك الكبير.

وأشار بالصلح، وسار هو إليه فاصطلح، وسلّم سِنجار إلى أخيه قُطْب الدين، وسلّم مدينة حِمص والرّحبة بأرض الشام وبقي الشام له، وديار الجزيرة لأخيه، واتّفقا، وعاد نور الدين إلى الشام، وأخذ معه ما كان قد ادّخره أبوه أتابك الشهيد فيها من الخزائن، وكانت كثيرة جدّاً[4].

ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر [ووزارة][5] ابن السلار

في هذه السنة، في جُمادى الآخرة، توفّي الحافظ لدين[6] اللّه عبد المجيد ابن

---

(١) في الأوربية: «محاقتته».
(٢) في الأوربية: «فيظهر للفرنج تعظيمنا».
(٣) قي الأوربية: «ألقيناه».
(٤) التاريخ الباهر ٩٥، ٩٦، الروضتين ١/ ١٧٢ ـ ١٧٤.
(٥) من الباريسية.
(٦) في الأوربية: «الدين».

الأمير أبي القاسم بن المستنصر بالله العلويّ، صاحب مصر[1]. وكانت خلافته عشرين سنة إلاّ خمسة أشهر، وعمره نحو من سبْعٍ وسبعين سنة، ولم يزل في جميعها محكوماً عليه، يحكم عليه وزراؤه، حتى إنّه جعلَ ابنه حسناً وزيراً ووليّ عهده، فحكم عليه واستبدّ بالأمر دونه، وقتل كثيراً من أمراء دولته، وصادر كثيراً، فلمّا رأى الحافظ ذلك سقاه سُمّاً فمات، وقد ذكرناه.

ولم يلِ الأمر من العلويّين المصريّين مَن أبوه غير خليفة غير الحافظ العاضد، وسيرِد ذِكر نسب العاضد[2]، ووليَ الخلافة بعده بمصر ابنه الظافر بأمر الله أبو منصور إسماعيل بن عبد المجيد الحافظ، واستوزر ابن مَصّال، فبقي أربعين يوماً يدبّر الأمور، فقصده العادل بن السلاّر من ثغر الإسكندريّة، ونازعه في الوزارة، وكان ابن مَصّال قد خرج من القاهرة في طلب بعض المفسدين من السودان، فخلفه العادل بالقاهرة وصار وزيراً[3].

وسيّر عبّاس بن أبي الفُتُوح بن يحيَى بن تميم بن المُعزّ بن باديس الصّنهاجيّ في عسكر وهو ربيب العادل، إلى ابن مَصّال، فظفر به وقتله، وعاد إلى القاهرة، واستقرّ العادل وتمكّن، ولم يكن للخليفة معه حكم.

وأمّا سبب وصول عبّاس إلى مصر، فإنّ جدّه يحيَى أخرج أباه أبا الفتوح من المهَديّة، فلمّا توفّي يحيَى ووليَ بعده بلاد إفريقية ابنه عليُّ بن يحيَى بن تميم [بن يحيَى صاحب] إفريقية، أخرج أخاه أبا الفتوح بن يحيى والد عبّاس من إفريقية سنة تسع وخمسمائة، فسار إلى الديار المصريّة ومعه زوجته بلّارة ابنة القاسم بن تميم بن المُعزّ بن باديس، وولده عبّاس هذا وهو صغير يرضع؛ ونزل أبو الفتوح بالإسكندرية فأُكرم، وأقام بها مدة يسيرة، وتوفي وتزوجت بعده امرأته بلّارة بالعادل بن السلاّر.

وشبّ العبّاس، وتقدّم عند الحافظ، حتى وليَ الوزارة بعد العادل؛ فإنّ العادل قُتل في المحرم سنة ثمانٍ وأربعين [وخمسمائة]. قيل: وضع عليه عبّاس مَن قتله،

---

(١) أنظر عن (الحافظ الفاطمي) في: تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ١٩٣ ـ ١٩٥ رقم ٢٢٠ وفيه حشدت مصادر ترجمته، وكذا في: تاريخ ابن سباط ١/ ٩١.

(٢) في الأوربية: «العاضد».

(٣) في الباريسية ورقم ٧٤٠ «وزيره».

فلمّا قُتل وليَ الوزارة بعده، وتمكّن فيها، وكان جَلداً حازماً، ومع هذا ففي أيّامه أخذ الفرنج عَسقَلان، واشتدّ وهَن الدولة بذلك؛ وفي أيّامه أخذ نور الدين محمود دمشق من مُجِير الدين أَبَق، وصار الأمر بعد هذا إلى أن أخِذت مصر منهم، على ما نذكره بعد إن شاء اللّه تعالى[١].

ذكر عَود جماعة من الأمراء إلى العراق

في هذه السنة، في رجب، عاد البَقش كُون خَر، والطُرنطاي، وابن دُبيس، ومعهم مَلِكشاه ابن السلطان محمود إلى العراق، وراسلوا الخليفة في الخُطبة لملكشاه، فلم يلتفت إليهم، وجمع العساكر، وحصّن بغداد، وأرسل إلى السلطان مسعود يعرّفه الحال، فوعده بالوصول إلى بغداد، فلم يحضر.

وكان سبب ذلك ما ذكرناه من وصول عمّه السلطان سَنجَر إلى الريّ في معنى خاصّ بك، فلمّا وصل إلى الريّ سار إليه السلطان مسعود، ولقيه واسترضاه، فرضي عنه؛ فلمّا علم البقش بمراسلة الخليفة إلى مسعود نهب النّهروان، وقبض على الأمير عليّ بن دُبيس في رمضان، فلمّا علم الطرنطايّ بذلك هرب إلى النّعمانيّة.

ووصل السلطان مسعود إلى بغداد منتصف شوّال، ورحل البقش كُون خَر من النّهروان، وأطلق عليّ بن دُبيس، فلمّا وصل السلطان إلى بغداد قصده عليّ، وألقى بنفسه بين يديه واعتذر، فرضي عنه[٢].

وذكر[٣] بعض المؤرّخين هذه الحادثة سنة أربع وأربعين، وذكر أيضاً مثلها سنة ثلاث وأربعين [وخمسمائة]، فظنّها حادثتَين، وأنا أظنّها واحدة ولكنّا تبعناه في ذلك ونبّهنا عليه.

ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكِية وهزيمة الفرنج

في هذه السنة غزا نور الدين محمود بن زنكي بلاد الفرنج من ناحية أنطاكية،

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢١، ٢٢.

(٢) المنتظم ١٠/ ١٣٧، ١٣٨، (١٨/ ٧١، ٧٢)، تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ٢٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٥، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥١٦.

(٣) من هنا إلى نهاية الفقرة من الأصل.

وقصد حصن حارِم، وهو للفرنج، فحصره وخرّب رَبَضه، ونهب سواده، ثمّ رحل إلى حصن إنّب[1] فحصره أيضاً، فاجتمعت الفرنج مع البرِنْس صاحب أنطاكية وحارِم وتلك الأعمال، وساروا إلى نور الدين ليرحّلوه عن إنّب[1] فلقِيهم واقتتلوا قتالاً عظيماً.

وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة، وقُتل منهم جمْعٌ كثير، وأُسِرَ[2] مثلهم.

وكان ممّن قُتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عُتاة الفرنج، وعظيماً من عُظمائهم، ولما قُتل البرنْس ملك بعده ابنه بيمُنْد، وهو طفل، فتزوّجت أُمّه ببرِنسٍ[3] آخر ليدبّر البلد إلى أن يكبر ابنها، وأقام معها بأنطاكية[4].

ثمّ إنّ نور الدين غزاهم غزوة أخرى، فاجتمعوا ولقوه، فهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان فيمن أُسر البرنس الثاني زوج أمُّ بيمُنْد، فتمكّن حينئذٍ بيمُنْد بأنطاكية؛ وأكثر الشعراء مديح نور الدين وتهنئته بهذا الظَفَر، فإنّ قتل البرِنْس كان عظيماً عند الطائفتين؛ وممّن قال فيه القَيْسرانيّ في قصيدته المشهورة التي أوّلها:

هذي العزائمُ لا ما تَدّعي القُضُبُ ... وذي المكارمُ لا ما قالَتِ الكُتُبُ

وَهذه الهِممُ اللاّتي متى خُطبَتْ ... تَعثّرتْ خلفَها الأشعارُ وَالخُطَبُ

صَافحتَ يا ابنَ عمادِ الدّينِ ذرْوَتَها ... بـراحَـةٍ للمَسـاعـي دونَهـا تَعَـبُ

مـا زالَ جَـدُّكَ يَبنـي كُـلَّ شـاهِقَـةٍ ... حتـى بنـى قُبّـةً أوْتـادُهـا الشُّهُـبُ

---

(١) في (أ): «أنت»، وفي (ب): «أنب».

(٢) في الأوربية: «وأسروا».

(٣) في الأوربية: «بابرنس».

(٤) ذيل تاريخ دمشق ٣٠٤، ٣٠٥، المنتظم ١٠/ ١٣٧ (١٨/ ٧١)، التاريخ الباهر ٩٨،٩٩، تاريخ دولة آل سلجوق ٢٠٧، زبدة الحلب ٢/ ٢٩٨،٢٩٩، تاريخ مختصر الدول ٢٠٧، تاريخ الزمان ١٦٤، الروضتين ١٠/ ١٥٠، ١٥٩، ديوان ابن منير الطرابلسي (جمعنا) ٢٤٢،٢٩٢ نهاية الأرب ٢٧، ١٥٥ المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٦، الدرّة المضية ٥٥٤، دول الإسلام ٢/ ٥٩، العبر ٤/ ١٢٠،١٢١، تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ١٨، عيون التواريخ ١٢/ ٤٢١، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٨،٤٩، الكواكب الدرية ١٣٠، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٤٠، تاريخ ابن سباط ١/ ٩١،٩٢.

أغْرَتْ[1] سيوفُكَ بالإفرَنجِ راجفةً   فؤادُ رُوميةَ الكُبرَى لها يَجِبُ
ضربتَ كبشَهمُ منها بقاصِمَةٍ   أوْدى بها الصّلبُ وَانحطّتْ بها الصُّلبُ
طهّرْتَ أرْضَ الأعادي من دمائهم   طهارَةً كلُّ سيفٍ عندها جُنُبُ[2]

ذكر الخُلْف بين صاحب صَقَلّية وملك الروم

في هذه السنة اختلف رُجّار الفرنجيّ صاحب صَقَلّية وملك القسطنطينيّة، وجرى بينهما حروب كثيرة دامت عّدة سنين، فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين، ولولا ذلك لملك رُجّار جميع بلاد إفريقية.

وكان القتال بينهم برّاً وبحراً، والظفر في جميع ذلك لصاحب صَقَلّية، حتى إنّ أسطوله، في بعض السنين، وصل إلى مدينة القسطنطينيّة، ودخل فمَ الميناء، وأخذوا عدّة شَوَانٍ من الروم، وأسروا جمعاً منهم؛ ورمَى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشّاب، وكان الذي يفعل هذا بالروم والمسلمين جُرجي وزير صاحب صَقلّية، فمرض عدّة أمراض منها البواسير والحصا، ومات سنة ستٍّ وأربعين وخمسمائة، فسكنت الفتنة، واستراح النّاس من شرّه وفساده، ولم يكن عند صاحب صَقلّية مَن يقوم مقامه بعده[3].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة زُلزلت الأرض زلزلة عظيمة، فقيل إن جبلاً مقابل حُلوان ساخ في الأرض[4].

وفيها وليَ أبو المظفّر يحيَى بن هُبيرة وزارة الخليفة المقتفي لأمر اللّه، وكان قبل

---

(١) في (ب): «أعزت». والمثبت من الأصل و(أ).

(٢) الروضتين ١/ ١٥٢، ١٥٣، التاريخ الباهر ٩٩، صدى الغزو الصليبي ١١٠، ١١١.

(٣) دول الإسلام ٢/ ٦٠، تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ٢١.

وورد الخبر في نسخة (أ) على هذا النحو «في هذه السنة وقع بين صاحب صقلية الفرنجي وبين ملك القسطنطينية حرب ودامت، واشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين وكان القتال براً وبحراً، وقد تقدم ذكر ذلك. وفيها زلزلت».

(٤) المنتظم ١٠/ ١٣٨ (١٨/ ٧٢)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٠١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٢، تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ٢٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٩، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٥، الكواكب الدرّية ١٣١، كشف الصلصلة ١٨٤، تاريخ ابن سباط ١/ ٩٢.

ذلك صاحب ديوان الزمام، وظهر له كفاية عظيمة عند نزول العساكر بظاهر بغداد، وحُسنُ قيام في ردّهم، فرغب الخليفة فيه، فاستوزره يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر سنة أربع وأربعين [وخمسمائة]، وكان القمر على تربيع زُحل[1]، فقيل له: لو أخّرْتَ لُبس الخِلَعة لهذه التربيعات؟ فقال: وأيّ سعادة أكبر من وزارة الخليفة؟ ولبسها ذلك اليوم[2].

[الوفيات]

وفيها، في المحرّم، توفّي قاضي القضاة عليُّ بن الحسين الزينبيّ[3]، ووليَ القضاء عماد الدين أبو الحسن عليُّ بن أحمد الدامغاني.

وفيها، في المحرّم، رَخُصَت الأسعار بالعراق، وكثُرت الخيرات، وخرج أهل السواد إلى قُراهم[4].

وفيها توفّي الأمير نَظَر[5] أمير الحاجّ، وكان قد سار بالحاجّ إلى الحِلّة، فمرض واشتدّ مرضه، واستخلف على الحاجّ قايماز الأرجوانيّ، وعاد إلى بغداد مريضاً، فتوفّي في ذي القعدة، وكان خصِيّاً عاقلاً خيّراً، له معروف كثير، وصدقات وافرة.

وفيها توفّي أحمد بن نظام المُلك[6] الذي كان وزير السلطان محمّد والمسترشد بالله.

وفيها توفّي عليُّ بن رافع بن خليفة الشيبانيّ، وهو من أعيان خُراسان، وله مائة وسبع سنين شمسيّة.

---

(١) في بعض النسخ: «زجل».

(٢) المنتظم ١٠/ ١٣٧ (١٨/ ٧١)، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٢، العبر ٤/ ١٢١، تاريخ الإسلام ٢/ ١٩، زبدة التواريخ ٢٢٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٥، الجوهر الثمين ١/ ٢٠٨، وفيات الأعيان، رقم ٢٤٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ١٦٨، ١٦٩، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٥١٦، عيون التواريخ ١٢/ ٤٢١، الإنباء في تاريخ الخلفاء ٢٢٥، الفخري ٣١٢، مختصر التاريخ ٢٣١.

(٣) أنظر عن (الزينبي) في: تاريخ الإسلام (٥٤٣ هـ.) ص ١٥٣ ـ ١٥٥ رقم ١٦٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٤) المنتظم ١٠/ ١٣٧ (١٨/ ٧١)، تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ١٨.

(٥) أنظر عن الأمير نظر في: المنتظم ١٠/ ١٣٨ (١٨/ ٧٢)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٠٠، ٢٠١ (حوادث ٥٤٣ هـ. و٥٤٤ هـ.)، تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ٢٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٦.

(٦) أنظر عن (ابن نظام الملك) في: تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ١٧٣ رقم ١٨٨ وفيه مصادر ترجمته.

وفيها توفّي معين الدين أُنُر[1] نائب أبق صاحب دمشق، وهو كان الحاكم والأمر إليه، وكان أبق صورة أمير لا معنى تحتها.

وفيها توفّي القاضي أحمد بن محمّد بن الحسين الأَرَّجاني[2] أبو بكر قاضي تُستَر، وله شِعر حَسَن، فمنه قوله:

ولمـا بلـوتُ النّـاسَ أطلُـبُ عنـدَهـم ... أخـا ثِقَـةٍ عنـدَ اعتـراضِ الشّـدائـدِ
تطلّعـتُ فـي حـالَـيْ رَخـاءٍ وشِـدّةٍ ... وناديتُ في الأحياء: هل من مساعدِ؟
فلَـم أرَ فيمـا سـاءنـي غيـرَ شـامِـتٍ ... وَلـم أرَ فيمـا سَـرّنـي غيـرَ حَـاسِـدِ
تَمَتّعتُمـا[3] يـا نـاظِـرَيّ بنَظـرَةٍ ... وَأوردْتُمـا قَلبـي أمَـرّ[4] المَـوَارِدِ
أَعَيْنَـيّ كُفّـا عَـن فُـؤادي فـإنّـه ... منَ البغيِ سَعْيُ اثنَينِ في قتلِ واحدِ[5]

وفيها توفّي أبو عبد اللّه عيسى بن هِبة اللّه[6] بن عيسى البَزّاز، وكان ظريفاً، وله شِعرٌ حَسَنٌ؛ كتب إليه صديقٌ له رُقعةً وزاد في خطابه فأجابه:

قـد زِدْتَني في الخِطابِ[7] حتى ... خَشيـتُ نَقصـاً مـنَ الـزّيـادَهْ
فـاجعـلْ خطـابي خطـابَ مثْلي ... وَلا تُغَيّـرْ علـيّ عـادَهْ[8]

---

(1) أنظر عن (أنر) في: تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ١٨٥ ـ١٨٦ رقم ٢٠١ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(2) أنظر عن (الأرّجاني) في: تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ١٧٦ ـ١٨٢ رقم ١٩٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(3) في تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ١٧٨ «مُتّعْتُما».

(4) في تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ١٧٨ «أشرّ».

(5) ديوان الأرّجاني، المنتظم ١٠/ ١٣٩ (١٨/ ٧٣، ٧٤)، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٢، تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ١٧٨، عيون التواريخ ١٢/ ٤٢٤، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٧، الوافي بالوفيات ٧/ ٣٧٨، معاهد التنصيص ٣/ ٤٥.

(6) أنظر عن (ابن هبة الله) في: تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ٢٠١، ٢٠٢ رقم ٢٢٩ وفيه مصادر ترجمته.

(7) في تاريخ الإسلام ٢٠٢ «خطب».

(8) البيتان في: المنتظم ١٠/ ١٤١ (١٨/ ٧٥)، وتاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ٢٠٢، وعيون التواريخ ١٢/ ٤٣٥، وفوات الوفيات ٢/ ٢٣١، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٢٧.

(٥٤٥)
ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة

ذكر أخْذ العرب الحُجّاج

في هذه السنة، رابع عشر المحرّم، خرج العرب، زَغْبٌ ومن انضمّ إليها، على الحُجّاج بالغرابيّ، بين مكّة والمدينة، فأخذوهم ولم يسلم منهم إلاّ القليل.

وكان سبب ذلك أنّ نَظَر أمير الحاجّ [لما عاد من الحِلّة على ما ذكرناه وسار على الحاجّ][١] قايماز الأرجوانيّ، وكان حدثاً غِرّاً، سار بهم إلى مكّة، فلمّا رأى أميرُ مكّة قايمازَ استصغره، وطمع في الحاجّ، وتلطّف قايماز الحال معه إلى أن عادوا.

فلمّا سار عن مكّة سمع باجتماع العرب، فقال للحاجّ: المصلحة أنّا لا نمضي إلى المدينة؛ وضجّ العجم، وتهدّدوه بالشكوى منه إلى السلطان سَنْجَر، فقال لهم: فأعطوا العربَ مالاً نستكفّ به شرَّهم! فامتنعوا من ذلك، فسار بهم إلى الغرابيّ، وهو منزل يخرج إليه من مضيق بين جبلين، فوقفوا على فم مضيق، وقاتلهم قايماز ومَن معه، فلمّا رأى عجْزه أخذ لنفسه أماناً، وظفروا بالحجّاج، وغنموا أموالهم وجميع ما معهم، وتفرّق النّاس في البرّ، وهلك منهم خلق كثير لا يُحْصَوْن كَثرة، ولم يسلَم إلاّ القليل، فوصل بعضهم إلى المدينة، وتحمّلوا منها إلى البلاد، وأقام بعضهم مع العرب حتى توصّل إلى البلاد.

ثمّ إنّ اللّه تعالى انتصر للحاجّ من زغْب، فلم يزالوا في نقصٍ وذلّة، ولقد رأيتُ شابّاً منهم بالمدينة سنة ستٍّ وسبعين وخمسمائة، وجرى بيني وبينه مفاوضة قلتُ له فيها: إنّني واللّه كنتُ أميل إليك حتى سمعتُ أنّك من زَغْب، فنفرتُ وخفتُ شرّك.

---

(١) في الباريسية، ورقم ٧٤٠.

فقال: ولِمَ؟ فقلتُ: بسبب أخذكم الحاجّ. فقال لي: أنا لم أدرك ذلك الوقت، وكيف رأيت اللّه صنع بنا؟ واللّه ما أفلحنا، ولا نجحنا، قلّ العددُ وطمع العدوّ فينا[1].

ذكر فتح حصن فاميا

في هذه السنة فتح نور الدين محمود ابن الشهيد زنكي حصن فاميا من الفرنج، وهو مجاور شَيْزَرَ وحماة، على تلّ عالٍ من أحصن القلاع وأمنعها، فسار نور الدين إليه وحصره وبه الفرنج، وقاتلهم وضيّق على مَن به منهم، فاجتمع مَن بالشام من الفرنج، وساروا نحوه ليرحّلوه عنهم، فلم يصلوا إلاّ وقد ملكه، وملأه ذخائر وسلاحاً ورجالاً وجميع ما يحتاج إليه، فلمّا بلغه مسير الفرنج إليه رحل عنه وقد فرغ من أمر الحسن، وسار إليهم يطلبهم، فحين رأوا أنّ الحصن قد مُلك وقوةَ عزم نور الدين على لقائهم عدلوا عن طريقه، ودخلوا بلادهم، وراسلوه في المهادنة، وعاد سالماً مظفّراً.

ومدحه الشعراء وذكروا هذا الفتح، فمن ذلك قول ابن منير[2] من قصيدة أوّلها:

أَسْنى الممالك ما أَطَلْتَ مَنارَها ... وَجعَلتَ مُرْهَفةَ الدِّسارِ[3] دِسارَها
وأحَـقُّ مَـنْ مَلَـكَ البـلادَ وأهلَهـا ... رَؤفٌ تكَنّـفَ عَـدلُـهُ أقطـارَهـا

ومنها في وصف الحصن:

أدَركتَ ثأرَكَ في البُغاةِ، وكنتَ يا ... مُختـارَ أمّـةِ أحمَـدٍ مُختـارَهَـا
طابتْ[4] نجومُكَ فَوْقَها، وَلربما ... بـاتَـتْ تنـافثُهـا النّجُـومُ سِـرَارَهَـا
عـارِيّـةُ الـزّمَـنِ المُعيـرِ شِمـالُهـا ... منكَ المُعيرَةُ وَاستَرَدّ مُعارَهَا[5]

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ٣١٠، الروضتين ١/ ٣١٠، مرآة الزمان ج٨ ق ١/ ٢٠٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٢، العبر ٤/ ١٢٣، دول الإسلام ٢/ ٦١، تاريخ الإسلام (٥٤٤ هـ.) ص ٢٥، تاريخ دولة آل سلجوق ٢٠٧، مرآة الجنان ٣/ ٢٨٤(حوادث ٥٤٥ هـ.)، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٦، عيون التواريخ ١٢/ ٤٣٨، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٠.

(٢) في طبعة صادر ١١/ ١٤٩ «ابن الرومي» وهو غلط.

(٣) في المصادر: «الشغار».

(٤) في التاريخ الباهر: «صارت»، وفي المصادر: «ضاءت».

(٥) في الديوان ٢١٦:

عـاريـة الـزمـن المغيـر، سمـا لهـا ... منـك المعيّـر فـاسـتـردّ معـارهـا

أمستْ معَ الشِّعَرى العَبورِ وَأصبَحتْ   شَعْــراءَ تَستَغلــي الفحــولُ شِــوَارَهَــا

وهي طويلة[1].

ذكر حصر قُرْطُبَة ورحيلهم عنها

في هذه السنة سار السُّلَيطين، وهو الأذفونش، وهو ملك طُلَيطُلة وأعمالِها، وهو من ملوك الجلالقة، نوع من الفرنج، في أربعين ألف فارس إلى مدينة قرْطُبة، فحصرها، وهي في ضعف وغلاء، فبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو بمَرّاكُش، فجهّز عسكراً كثيراً، وجعل مقدّمهم أبا زكريّاء يحيَى بن يَرموزَ ونفّذهم إلى قُرطُبة، فلمّا قربوا منها لم يقدروا أن يلقوا عسكر السُّلَيطين في الوطاء، وأرادوا الاجتماع بأهل قُرطُبة ليمنعوها لخطر العاقبة بعد القتال، فسلكوا الجبال الوعرة، والمضايق المتشعبّة، فساروا نحو خمسة وعشرين يوماً في الوعر في مسافة أربعة أيّام في السهلِ، فوصلوا إلى جبل مطلّ على قُرطُبة، فلمّا رآهم السُّلَيطين وتحقّق أمرهم رحل عن قُرطُبة.

وكان [فيها][2] القائد أبو الغمر[3] السائب من ولد القائد ابن غَلْبُون، وهو من أبطال أهل الأندلس وأمرائها، فلمّا رحل الفرنج خرج منها لوقته وصعد إلى ابن يرموز[4]، وقال له: انزلوا عاجلاً وادخلوا البلد؛ ففعلوا، وباتوا فيها، فلمّا أصبحوا من الغد رأوا عسكر السُّلَيطين على رأس الجبل الذي كان فيه عسكر عبد المؤمن، فقال لهم أبو الغمر[5]: هذا الذي خفتُه عليكم لأنّي علمتُ أنّ السُّلَيطين ما أقلع إلاّ طالباً لكم، فإنّ من الموضع الذي كان فيه إلى الجبل طريقاً سهلة، ولو لحِقكم هناك لنال مراده منكم ومن قُرطُبة؛ فلمّا رأى السّليطين أنّهم قد فاتوه علم أنّه لم يبقَ له طمع في قُرطُبة؛ فرحل عائداً إلى بلاده، وكان حصره لقُرطُبة ثلاثة أشهر[6]، واللّه أعلم.

---

(١) ديوان١ منير (من جمعنا) ٢١٥ ـ ٢١٨، التاريخ الباهر ١٠١، الروضتين ١/ ١٦٠ ـ ١٦٣، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٠.

(٢) من الباريسية ورقم ٧٤٠

(٣) في نسخة رقم ٧٤٠ «المعمر»، وفي الباريسية: «العم».

(٤) في (أ): «ابن بومرت» وفي (ب): «ابن يومور».

(٥) في النسخة ٧٤٠ «المعمر»، وفي الباريسية: «العم».

(٦) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٠، تاريخ ابن سباط ١/ ٩٣، تاريخ الإسلام (٥٤٥ هـ.) ص ٢٨.

ذكر مُلك الغُوريّة هَرَاة

في هذه السنة سار ملك الغُور الحسَن بن الحسين من بلاد الغُور إلى هَرَاة فحصرها، وكان أهلها قد كاتبوه، وطلبوا أن يسلّموا البلد إليه هرباً من ظلم الأتراك لهم، وزوال هيبة السلطنة عنهم، فامتنع أهل هَرَاة عليه ثلاثة أيام، ثمّ خرجوا إليه وسلّموا البلد وأطاعوه، فأحسن إليهم، وأفاض عليهم النِّعم، وغمرهم بالعدل، وأظهر طاعة السلطان سَنْجَر، والقِيام على الوفاء له، والانقياد إليه.

ذكر عّدة حوادث

في هذه السنة أمر علاء الدين محمود بن مسعود، الغالب على أمر طُرَيْثيث التي بيد الإسماعيلية، بإقامة الخطبة للخليفة، ولبس السواد، ففعل الخطيب ذلك، فثار به عمّه وأقاربه ومَن وافقهم، وقاتلوه، وكسروا المنبر وقتلوا الخطيب.

وكان فعل علاء الدين هذا لأنّ أباه كان مسلماً، فلمّا تغلب الإسماعيليّة على طُرَيْثيث أظهر موافقتهم، وأبطن اعتقاد الشريعة، وكان يناظر على مذهب الشافعيّ، وازداد تقدّماً بطُرَيثيث، وجرت أمورُها بإرادته؛ فلمّا حضره الموت أوصى أن يغسّله فقيه شافعيّ، وأوصى إلى ابنه علاء الدين، إن أمكنه أن يعيد فيها إظهار شريعة الإسلام فعل. فلمّا رأى من نفسه قوّةً فعله فلم يتمّ له.

وفيها كثُر المرض بالعراق لا سيّما ببغداد، وكثُر الموت أيضاً فيها، ففارقها السلطان مسعود.

وفيها توفّي الأمير عليُّ بن دُبيس[1] بن صَدَقة صاحب الحِلّة بأسداباد[2]، واتُّهم طبيبه محمّد بن صالح بالمواطأة عليه، فمات الطبيب بعده بقريب.

وفيها[3] استوزر عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب أبا جعفر بن أبي أحمد الأندلسي، وكان مأسوراً عنده، فوُصف له بالعقل وجودة الكتابة، فأخرجه من الحبس واستوزره، وهو أوّل وزيرٍ كان للموحّدين.

---

(١) أنظر عن (ابن دبيس) في: تاريخ الإسلام (٥٤٥ هـ.) ص ٢٢٧ رقم ٢٨١ وفيه مصادر ترجمته.
(٢) في الباريسية والنسخة ٧٤٠ «بسداباد».
(٣) في بعض النسخ: «فيها للموحدين».

وفي هذه السنة، في المحرّم، جلس يوسف الدمشقي مدرّساً في النظاميّة ببغداد، وكان جلوسه بغير أمر الخليفة، فمنُع، يوم الجمعة، من دخول الجامع، فصلّى في جامع السلطان، ومُنع من التدريس، فتقدّم السلطان مسعود إلى الشيخ أبي النجيب بأن يدّرس فيها، فامتنع بغير أمر الخليفة، فاستخرج السلطان إذْن الخليفة في ذلك، فدرّس منتصف المحرّم من السنة[1].

[الوفيات]

وفيها توفّي أبو عبد اللّه محمّد بن عليّ مُهران[2] الفقيه الشافعيّ، تفقّه على الهرّاسيّ، ووليَ قضاء نَصيبين، ثمّ ترك القضاء وتزهّد، فأقام بجزيرة ابن عمر، ثمّ انتقل إلى جبل ببلد الحصن، في زاوية[3]، وكان له كرامات ظاهرة.

وفيها مات الحسن بن ذي النون[4] بن أبي القاسم بن أبي الحسن الشُغْريّ[5] أبو المفاخر النّيسابوري، سمع الحديث الكثير، وكان فقيهاً أديباً دائم الأشغال يعظ النّاس، وكان ممّا ينشد:

مـاتَ الكـرامُ وَوَلّـوا[6] وانقضَـوْا ومضَـوْا ... ومـاتَ مِـنْ بَعـدِهـم تلـكَ الكَـرامـاتُ
وخَلّفُــونــيَ فــي قَــوْمٍ ذوي سَفَــهٍ ... لوْ أبصرُوا طيفَ ضَيفٍ في الكرى ماتوا[7]

(١) المنتظم ١٠/١٤٢ (١٨/٧٧).
(٢) في (ب): «علي بن مهران».
(٣) في (ب): «إلى زاوية في جبل».
(٤) أنظر عن «ابن ذي النون» في: تاريخ الإسلام (٥٤٥ هـ.) ص ٢١٧ رقم ٢٦٠ وفيه مصادر ترجمته.
(٥) في طبعة صادر ١١/١٥٣، «المِسْعَري» وفي (أ): «الثغري»، وفي (ب): «السكري». والمثبت من ترجمته في: تاريخ الإسلام.
(٦) في المنتظم: «ومرّوا».
(٧) المنتظم ١٠/١٤٤ (١٨/٧٩).

(٥٤٦)

ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة

ذكر انهزام نور الدين من جُوسلين وأسر جُوسلين بعد ذلك

في هذه السنة جمع نور الدين محمود عسكره وسار إلى بلاد جُوسلين الفرنجيّ، وهي شمالي حلب، منها تلّ باشِر، وعين تاب، وإعزاز، وغيرها، وعزم على محاصرتها وأخذها. وكان جُوسلين، لعنه اللّه، فارس الفرنج غير مدافَع، قد جمع الشجاعة والرأي، فلمّا علم بذلك جمع الفرنج فأكثر، وسار نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا، فانهزم المسلمون وقُتل منهم، وأُسر جمْعٌ كثير، وكان في جملة مَن أُسر سلاحُ دار نور الدين، فأخذه جوسلين، ومعه سلاح نور الدين، فسيّره إلى الملك مسعود بن قُلْج أرسلان، صاحب قُونية، وأقصَرا، وقال له: هذا سلاح زوج ابنتك؛ وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه.

فلمّا علم نور الدين الحال عظُم عليه ذلك، وأعمل الحيلة [على][1] جوسلين، وهجر الراحة ليأخذ بثأره، وأحضر جماعة من أمراء التركمان، وبذل لهم الرغائب إنْ هم ظفروا بجوسلين، وسلّموه إليه إمّا قتيلاً أو أسيراً، لأنّه علم أنّه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه، فجعل التركمان عليه العيون، فخرج متصيّداً، فلحِقت به طائفة منهم وظفروا به[2]، فصانعهم[3] على مالٍ يؤدّيه إليهم، فأجابوه إلى إطلاقه[4] إذا حضر المال، فأرسل في إحضاره، فمضى بعضهم إلى أبي بكر بن الداية، نائب نور

---

(١) من الباريسية: ونسخة (٧٤٠).

(٢) من (أ).

(٣) في (ب): «فضايقهم».

(٤) في (ب): «الخلافة».

الدين بحلب، فأعلَمه الحال، فسيّر عسكراً معه، فكبسوا أولئك التركمان وجوسلين معهم، فأخذوه أسيراً وأحضروه عنده، وكان أسْره من أعظم الفتوح لأنّه كان شيطاناً عاتياً، شديداً على المسلمين، قاسي القلب، وأصيبت النصرانيّة كافّة بأسره.

ولما أُسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها، وهي تلّ باشِر، وعين تاب، وإعزاز، وتلّ خالد، وقُورس، والرّاوَنْدان، وبرج الرّصاص، وحصن البَارة[1]، وكَفَر سُود[2] وكَفرلاثا، ودُلُوك، ومَرْعَش، ونهر الجَوز[3]، وغير ذلك من أعماله (في مدّة يسيرة يرد تفصيلها)[4].

وكان نور الدين كلّما فتح منها حصناً نقل إليه من كلّ ما تحتاج إليه الحصون[5] خوفاً من نكسة[6] تلحق المسلمين من الفرنج، فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدوّ[7]؛ ومدحه الشعراء، فممّن قال فيه القيسرانيّ من قصيدة في ذكر جوسلين:

كمَـا أهْـدَتِ الأقـدارُ للقُمـصِ أسْـرَهُ ... وأُسعـدَ قـرْنُ مَـنْ حَـواهُ لـكَ الأسْـرُ
طَغَـى وبَغَـى عَـدْواً عَلـى غُلَـوائِـهِ ... فـأوْبَقَــهُ الكُفــرانُ عَــدْواهُ والكُفْــرُ
وأمسَـتْ عِـزازٌ كـاسْمِهـا بـكَ عـزّةً ... تشُـقّ علـى النّسريـن لـوْ أنّهـا وَكْـرُ
فسِـرْ وامـلإ الـدّنيـا ضيـاءً وبَهجَـةً، ... فبـالأُفُـقِ الـدّاجي إلـى ذا السّنـا فَقْـرُ
كـأنّـي بهَـذا العَـزْمِ لا فُـلّ حَـدُّهُ ... وَأقصـاهُ بـالأقصَـى وَقَـد قُضِـيَ الأمْـرُ
وقَـد أصْبَـحَ البَيـتُ المُقـدّسُ طـاهِـراً ... وَلَيـسَ سوَى جاري الـدّماء لـهُ طُهـرُ[8]

---

(١) في (أ): «وحصن البادة».

(٢) في (ب): «سنود».

(٣) في (أ): «الجور» وفي ب: «الحوز».

(٤) ما بين القوسين من (أ). وفي (ب): «يرد تفصيلها».

(٥) في (أ): «الحصون ما يكفيه عشر سنين كانت عادته احتياطاً للمسلمين».

(٦) في الأوربية «نكتة».

(٧) ذيل تاريخ دمشق ٣١٠، التاريخ الباهر ١٠١، ١٠٢، الروضتين ١٨١ ـ ١٨٤، تاريخ مختصر الدول ٢٠٧،٢٠٨، مفرّج الكروب ١/١٢٣، تاريخ دولة آل سلجوق ٢٠٧، زبدة الحلب ٢/٣٠٢، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٢٠٦، نهاية الأرب ٢٧/١٥٦، المختصر في أخبار البشر ٣/٢٣ تاريخ الإسلام (٥٤٦ هـ.) ص ٢٩، تاريخ ابن الوردي ٢/٥٠، البداية والنهاية ١٢/٢٢٩، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٤١، الكواكب الدّرية ١٣٦، ١٣٧، تاريخ ابن سباط ١/١٩٤، الدر المنتخب ٢١٩.

(٨) الروضتين ١/١٨٧، التاريخ الباهر ١٠٣.

ذكر حصر غَرْنَاطة والمَرِيّة من بلاد الأندلس

في هذه السنة سيّر عبد المؤمن جيشاً كثيفاً، نحو عشرين ألف فارس، إلى الأندلس مع أبي حفص عمر بن أبي يحيَى الهنتاتيّ، وسيّر معهم نساءهم، (فكنّ يسرن مفرداتٍ)[1] عليهنّ البرانس السود، ليس معهنّ غير الخدم، (ومتى قرب منهنّ رجُل ضُرب بالسّياط)[2].

فلمّا قطعوا الخليج ساروا إلى غَرناطة وبها جمْعٌ من المُرابطين، فحصرها[3] عمر وعسكره، وضيّقوا عليها، فجاء إليه أحمد بن مَلحان، صاحب مدينة وادي آش وأعمالها، بجماعته، ووحّدوا، وصاروا معه، وأتاهم إبراهيم بن هَمُشَك صهر ابن مَرْدَنِيش، صاحب جَيّان، وأصحابه، ووحّدوا وصاروا[4] أيضاً معه، فكثُر جيشه، وحرّضوه على المسارعة إلى ابن مَرْدَنيش، ملك بلاد شرق الأندلس، ليبغته بالحصار قبل أن يتجهّز.

فلمّا سمع ابن مَرْدَنيش ذلك خاف على نفسه، فأرسل إلى ملك بَرْشلونة، من بلاد الفرنج، يخبره، ويستنجده، ويستحثّه على الوصول إليه، فسار إليه الفرنجيّ في عشرة آلاف فارس، وسار عسكر عبد المؤمن، فوصلوا إلى حَمّة بلقوارة، وبينها وبين مُرسية، التي هي مقرّ ابن مردنيش، مرحلة، فسمعوا بوصول الفرنج، فرجع وحصر[5] مدينة المرّية، وهي للفرنج، عدّة شهور، فاشتدّ الغلاء في العسكر، وعُدمت الأقوات، فرحلوا عنها وعادوا إلى إشبيلية فأقاموا بها.

ذكر عدّة حوداث

في هذه السنة، في ربيع الآخر، توفّي العِباديُّ الواعظ[6]، واسمه المظفّر بن أرْدَشِير، بخوزِستان، وكان الخليفة المقتفي لأمر الله قد سيّره في رسالة إلى الملك

---

(١) من (ب).
(٢) من (ب).
(٣) زاد في (أ): «وحصر».
(٤) في (أ): «ووحد وصار».
(٥) في (أ): «فحصرها».
(٦) المنتظم ١٠/١٤٥ (١٨/٨١)، تاريخ الإسلام (٥٤٦ هـ.) ص ٢٩، البداية والنهاية ١٢/٢٢٩.

محمّد ابن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بدر الحويزي، فتوفّي هناك وجلس ولده ببغداد للعزاء، وأقيم بحاجب من الديوان العزيز.

وكان يجلس ويعظ ويذكر والده ويبكي هو والنّاس كافّة؛ ونُقل العِباديُّ إلى بغداد ودُفن بالشونيزى، ومولده سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وسمع الحديث من أبي بكر الشَّيْروي، وزاهر الشَّحّاميّ وغيرهما، ورواه.

وفيها انفجر بثْق النَّهروان الذي أتمّه[١] بَهروز بكثرة الزيادة في تامرّا[٢] وإهمال أمرها، حتى عظم ذلك وتضرّر به النّاس[٣].

وفيها سار الأمير قُجُق[٤] في طائفة من عسكر السلطان سَنْجرَ إلى طُرَيْثِيث بخُراسان، وأغار على بلاد الإسماعيليّة، فنهب، وسبَى، وخرّب، وأحرق المساكن، وفعل بهم أفاعيل عظيمة، وعاد سالماً.

---

(١) في الباريسية ٧٤٠ «اتهمه».

(٢) في الباريسية: «مارا».

(٣) المنتظم ١٠/ ١٤٥ (١٨/ ٨١).

(٤) في (أ): «محق».

(٥٤٧)
ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

ذكر مُلك عبدالمؤمن بِجايَةَ ومُلك بني حمّاد

في هذه السنة سار عبد المؤمن بن عليّ إلى بِجَايَةَ وملكها، وملك جميع ممالك بني حمّاد. وكان لما أراد قصدها سار من مَرّاكُش إلى سَبْتَةَ سنة ستٍّ وأربعين [وخمسمائة]، فأقام بها مدّة يعمر[1] الأسطول، ويجمع العساكر القريبة منه.

وأمّا ما هو على طريقه (إلى بِجَاية من البلاد)[2]، فكتب إليهم ليتجهزّوا ويكونوا على الحركة أي وقت طلبهم، والنّاس يظنّون أنّه يريد العبور إلى الأندلس، فأرسل في قطْع السابلة عن بلاد شرق المغرب برّاً وبحراً.

وسار من سَبتة في صفر سنة سبعٍ وأربعين [وخمسمائة]، فأسرع السير، وطوى المراحل، والعساكر تلقاه في طريقه، فلَم يشعر أهل بِجاية إلاّ وهو في أعمالها، وكان ملكها يحيَى بن العزيز بن حمّاد آخر ملوك بني حمّاد، وكان مولعاً بالصيد واللهو لا ينظر في شيء من أمور مملكته، قد حكم فيها بنو حمدون، فلمّا اتّصل الخبر بميمون بن حمدون جمع العسكر وسار عن بِجاية نحو عبد المؤمن، فلقيهم مقدّمته، وهو يزيد على عشرين ألف فارس، فانهزم أهل بِجاية من غير قتال، ودخلت مقدّمة عبد المؤمن بِجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومَين، وتفرّق جميع عسكر يحيَى بن العزيز، وهوبوا برّاً وبحراً، وتحصّن يحيَى بقلعة قسنطينة الهواء، وهرب أخواه الحارث وعبد الله إلى صِقِليّة، ودخل عبد المؤمن بِجاية، وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال.

---

(١) في الأوربية: «يعمل».
(٢) من (أ).

ثمّ إنّ يحيَى نزل إلى عبد المؤمن بالأمان، فأمنّه، وكان يحيَى قد فرح لما أُخذت بلاد إفريقية من الحسن بن عليّ فرحاً ظهر عليه، فكان يذمّه، ويذكر معايبه، فلم تطُل المدّة حتى أُخذت بلاده، ووصل الحسن بن عليّ إلى عبد المؤمن في جزائر بني مَزغَنّان، وقد ذكرنا سنة ثلاثٍ وأربعين [وخمسمائة] سبب مصيره إليها، واجتمعا عنده، فأرسل عبد المؤمن يحيَى بن العزيز إلى بلاد المغرب، وأقام بها، وأجرى عليه شيئاً كثيراً.

وأمّا الحسن بن عليّ فإنّه أحسن إليه، وألزمه صُحبته، وأعلى مرتبته، فلزِمه إلى أن فتح عبد المؤمن المهديّة فجعله فيها، وأمر واليها أن يقتدي برأيه ويرجع إلى قوله.

ولما فتح عبد المؤمن بِجاية[1] لم يتعرّض إلى مال أهلها ولا غيره، وسبب ذلك أنّ بني حمدون استأمنوا[2] فوفَى بأمانه[3].

ذكر ظفر عبد المؤمن بِصنْهَاجَة

لما ملك عبد المؤمن بِجايةَ تجمّعت صنهاجَةُ في أمم لا يحصيها إلاّ الله تعالى، وتقدّم عليهم رجل اسمه أبو قصبة، واجتمع معهم من كُتامةَ ولُواتة وغيرهما[4] خلق كثير، وقصدوا حرب عبد[5] المؤمن، فأرسل إليهم جيشاً كثيراً، ومقدّمهم أبو سعيد يَخلُف، وهو من الخمسين، فالتقوا في عُرض الجبل، شرقيّ بِجاية، فانهزم أبو قصبة، وقتل أكثر مَن معه، ونُهبت أموالهم، وسُبيت نساؤهم وذراريهم.

ولما فرغوا من صنهاجة ساروا إلى قلعة بني حمّاد، وهي من أحصن القلاع وأعلاها لا تُرام، على رأس جبل شاهق يكاد الطرْف لا يحقّقها لعُلُوّها، ولكن القدر إذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش، فلمّا رأى أهلها عساكر الموحّدين هربوا منها في رؤوس الجبال، ومُلكت القلعة، وأُخذ جميع ما فيها من مال وغيره، وحُمل إلى عبد المؤمن فقسمه.

---

(١) في (أ): «عبد المؤمن البلاد».
(٢) في (أ): «استأمنوا لهم»، وفي (أ): «استأمنوا منهم».
(٣) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٣، تاريخ ابن سباط ١/ ٩٥.
(٤) في الأوربية: «وخيرها».
(٥) في (أ): «وقصد وأخرب بلاد عيد».

ذكر وفاة السلطان مسعود ومُلك ملكشاه محمّد بن محمود

في هذه السنة، أوّل رجب، توفّي السلطان مسعود[1] بن محمّد بن ملكشاه بهَمَذان، وكان مرضه حمّى حادّة نحو أسبوع، وكان مولده سنة اثنتين وخمسمائة في ذي القعدة، ومات معه سعادة البيت السّلجُوقيّ، فلم يقُمْ له بعده راية يُعتدّ بها ولا يلتفت إليها:

فَما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِدٍ ولكِنّــهُ بُنيــانُ قَــوْمٍ تَهَــدّمَــا

وكان رحمه اللّه حَسَن الأخلاق، كثير المزاح والانبساط مع النّاس، فمن ذلك أنّ أتابك زنكي، صاحب الموصل، أرسل إليه القاضي كمال الدين محمّد بن عبد اللّه بن القاسم الشّهْرَزُوريّ في رسالة، فوصل إليه وأقام معه في العسكر، فوقف يوماً على خيمة الوزير، حتى قارب أذان المغرب، فعاد إلى خيمته، فأذّن المغرب وهو في الطريق، فرأى إنساناً فقيهاً في خيمة، فنزل إليه، فصلّى معه المغرب، ثمّ سأله كمال الدين: من أين هو؟ فقال: أنا قاضي مدينة كذا. فقال له كمال الدين: القضاة ثلاثة، قاضيان في النّار، وهو أنا وأنت، وقاضٍ في الجنّة وهو مَن لم يعرف أبواب هؤلاء الظَّلَمة ولا يراهم، فلمّا كان الغد أرسل السلطان، وأحضر كمال الدين إليه، فلمّا دخل عليه ورآه ضحك وقال: القضاة الثلاثة. فقال كمال الدين: نعم يا مولانا. فقال: واللّه صدقت، ما أسعدَ مَن لا يرانا ولا نراه! ثمّ أمر أن تُقضَى حاجته وأعاده من يومه.

وكان كريماً عفيفاً عن الأموال التي للرعايا، حسن السيرة فيهم، من أصلح السلاطين سيرة وألْينهم عريكة، سهل الأخلاق، لطيفاً، فمن ذلك أنّه اجتاز يوماً في بعض أطراف بغداد، فسمع امرأة تقول لأخرى: تعالي انظري إلى السلطان؛ فوقف وقال: حتى تجيء هذه الستّ تنظر إلينا.

وله فضائل كثيرة ومناقب جمّة، وكان عهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود، فلمّا توفّي خطب له الأمير خاصّ بك بن بَلَنكري بالسَّلطنة، ورتّب الأمور، وقرّرها بين يديه، وأذعن له جميع العسكر بالطاعة.

---

(١) أنظر عن وفاة السلطان مسعود في: تاريخ الإسلام (٥٤٧ هـ.) ص ٣٤ وفيه حشدت مصادر ترجمته، وكذا في تاريخ ابن سباط ١/ ٩٥.

ولما وصل الخبر إلى بغداد بموت السلطان مسعود هرب الشِحنة بها، وهو مسعود بلال، إلى تكريت، واستظهر الخليفة المقتفي لأمر اللّه على داره، ودُور أصحاب السلطان ببغداد، وأخذ كلّ ما لهم فيها، وكلّ مَن كان عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالديوان، وجمع الخليفة الرجال والعساكر وأكثر التجنيد، وتقدّم بإراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان، ووُجد في دار مسعود بلال، شِحنة بغداد، كثير من الخمر، فأُريق، ولم يكن النّاس يظنّون أنّه شرب الخمر بعد الحجّ، وقبض على المؤيّد الألُوسيّ الشاعر، وعلى الحِيص بِيص الشاعر، ثمّ أُطلق الحِيص بِيص، وأعيد عليه ما أُخذ منه[1].

ثمّ إنّ السلطان ملكشاه سيّر سَلاركُرد في عسكر إلى الحِلّة، فدخلها، فسار إليه مسعود بلال، شحنة بغداد، وأظهر له الاتفاق معه، فلما اجتمعا قبض عليه مسعود بلال وغرّقه، واستبدّ بالحِلّة، فلمّا علم الخليفة ذلك جهّز العساكر إليه مع الوزير عون الدين بن هُبَيرة، فسار إليه، فلمّا قاربوا الحِلّة عبر مسعود بلال الفرات إليهم وقاتلهم، فانهزم من عسكر الخليفة، ونادى أهل الحِلّة بشعار الخليفة، فلم يدخلها، وتمّت الهزيمة عليه وعلى أصحابه، فعاد [إلى] تَكْريت، وملك عسكر الخليفة الحِلّة، وسيّر الوزير عسكراً إلى الكوفة وعسكراً إلى واسط، فملكوهما.

ثمّ إنّ عساكر السلطان وصلت إلى واسط، ففارقها عسكر الخليفة، فلمّا سمع الخليفة ذلك تجهّز بنفسه، وسار عن بغداد إلى واسط، ففارقها العسكر السلطانيّ، وملكها الخليفة، وسار منها إلى الحِلّة، ثمّ عاد إلى بغداد، فوصلها تاسع عشر ذي القعدة، وكان غيبته خمسة وعشرين يوماً.

ثمّ إنّ خاصّ بك بن بَلَنكري قبض على الملك ملكشاه الذي خُطب له بالسلطنة بعد مسعود، وأرسل إلى أخيه الملك محمّد سنة ثمانٍ وأربعين [وخمسمائة] وهو بخوزستان يستدعيه، وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة، فسار الملك محمّد إليه، فلمّا وصل أجلسه على تخت السلطنة أوائل صفر، وخطب له بالسلطنة، وخدمه، وبالغ في خدمته، وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار.

ثمّ إنّه دخل إلى الملك محمّد ثاني يوم وصوله، فقتله محمّد وقتل معه زنكي

---

(١) المنتظم ١٠/١٤٧ (١٨/٨٤)، تاريخ الإسلام (٥٤٧ هـ) ص ٣٦.

الجاندار، وألقى برأسيهما[١]، فتفرّق أصحابهما، ولم ينتطح فيها عنزان. وكان أيدُغدي التركمانيّ المعروف بشَملة مع خاصّ بك، فنهاه عن[٢] الدخول إلى الملك محمّد، فلم ينتهِ، فقُتل، ونجا شَملة، فنهب جشير الملك محمّد، ومضى طالباً خوزستان، وأخذم محمّد من أموال خاصّ بك شيئاً كثيراً، واستقرّ محمّد في السلطنة وتمكّن، وبقي خاصّ بك مُلقى حتى أكلته الكلاب، وكان صبيّاً تُركُمانيّاً اتّصل بالسلطان مسعود، فتقدّم على سائر الأمراء، وكان هذا خاتمة أمره.

ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج

في هذه السنة تجمّعت الفرنج، وحشدت الفارس والراجل، وساروا نحو نور الدين، وهو ببلاد جوسلين، ليمنعوه عن مُلكها، فوصلوا إليه وهو بدُلُوك، فلمّا قربوا منه رجع إليهم ولقيهم، وجرى المصافّ بينهم عند دُلُوك، واقتتلوا أشدّ قتال رآه النّاس، وصبر الفريقان، ثمّ انهزم الفرنج، وقُتل منهم وأُسر كثير، وعاد نور الدين إلى دُلُوك، فملكها واستولى عليها، وممّا قيل في ذلك:

أعَـدْتَ بَعصـرِكَ هـذا الأنيـ ... قِ فتـوحَ النَّبـيّ وأعصـارَهَـا

فَـواطأتَ يـا حبَّذا «أُحُدَيْهـا»[٣] ... وأسـرَرتَ من «بَدرٍ» أبْدارَهَـا[٤]

وَكـانَ مُهَـاجـرُهـا تـابعيـ ... ـك وأنصـارُ رأيـكَ أنصـارَهَـا

فجَـدّدتَ إسـلامَ «سَلمـانِهـا» ... وعَمّـرَ جَـدُّكَ عَمّـارَهَـا

ومـا يَـومُ «إنّـبَ» إلاّ كَـذا ... ك[٥] بـل طـالَ بـالبُوعِ أشبـارَهَـا

صَـدمـتَ «عـريمَتَهـا»[٦] صَـدْمَـةً ... أذابَـتْ مَـعَ المَـاء أحجَـارَهَـا

وَفـي «تـلّ بـاشَـر» بـاشَـرْتَهُـمْ ... بـزَحْـفٍ تَسَـوّرَ أسْـوَارَهـا

وَإنْ دالَكتْهُـمْ «دُلُـوكُ» فَقَـدْ ... شـدّدتَ فصَـدّقـتَ أخبـارَهَـا[٧]

---

(١) في الأوربية: «برأسهما».

(٢) في الأوربية: «من».

(٣) في طبعة صادر ١١/١٦٣ «حديها».

(٤) في التاريخ الباهر «أنوارها».

(٥) في الروضتين: «كتيك».

(٦) في طبعة صادر ١١/١٦٤ «عَزيمتها»، والتصحيح من: ديوان ابن منير ٢٢٧.

(٧) التاريخ الباهر ١٠٤، ١٠٥، الروضتين ١/١٩٣، ١٩٤، ديوان ابن منير ٢٢٧، ٢٢٨، المختصر في أخبار =

ذكر الحرب بين سنجَر والغُوريّة

في هذه السنة كان بين السلطان [سَنْجَر] وبين الغُوريّة حربٌ، وكانت دولتهم أوّل ما قد ظهرت، وأوّل مَن ملك منهم رجل اسمه الحسين بن الحسين ملك جبال الغُور ومدينة فِيرُوزكُوه، وهي تقارب أعمال غَزْنَة، وقوي أمره، وتلقّب بعلاء الدين، وتعرّض إلى أعمال؛ ثمّ جمع جيشاً عظيماً، وقصد هَراة محاصراً لها، فنهب عسكره نابَ، وأوبةَ، وماربادَ[1] من هَراة والروذ، وسار إلى بَلْخ وحصرها، فقاتله الأمير قَماج، ومعه جمْعٌ من الغُزّ، فغدروا به، وصاروا مع الغوريّ فملك بَلخ، فلمّا سمع السلطان سَنْجَر بذلك سار إليه ليمنعه، فثبت له علاء الدين، واقتتلوا، فانهزم الغُوريّة، وأُسر علاء الدين، وقُتل من الغوريّة خلق كثير، لا سيّما الرجّالة، وأحضر السلطان سَنجَر علاء الدين بين يديه، وقال له: يا حُسين لو ظفرتَ بي ما كنتَ تفعل بي؟ فأخرج له قيد فضّة وقال: كنتُ أقيّدك بهذا وأحملك إلى فِيرُوزْكُوه؛ فخلع عليه سَنجَر وردّه إلى فِيروزكُوه فبقي بها مدّةً.

ثمّ إنّه قصد غَزنة وملكها حينئذٍ بَهرام شاه بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، فلم يثبت بها بين يدي علاء الدين، بل فارقها إلى مدينة كَرمان، وهي مدينة بين غَزنة والهند، وسكّانها قومٌ يقال لهم أبغان، وليست هذه بالولاية المعروفة بكَرْمان. فلمّا فارق بَهرام شاه غزنة ملكها علاء الدين الغُوريّ، وأحسن السيرة [في أهلها][2] واستعمل عليهم أخاه سيف الدين سوري، وأجلسه على تخت المملكة، وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين بعده.

ثمّ عاد علاء الدين إلى بلد الغور، وأمر أخاه أن يخلع على أعيان البلد خِلعاً نفيسةً، ويصلهم بصلاتٍ[3] سنيّةٍ، ففعل ذلك وأحسن [إليهم، فلمّا][4] جاء الشتاء، ووقع الثلج، وعلم أهل غزنة أنّ الطريق قد انقطع إليهم [كاتبوا بَهرام شاه الذي كان

= البشر ٣/ ٢٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥١.

(١) في (أ): «ومازباد»، وفي (ب): «ماربا».

(٢) ما بين الحاصرتين من نشرة الجريدة الآسيوية ١٨٤٣ ج ٢/ ١٩١.

(٣) في الأوربية: «بصلاة».

(٤) من الباريسية.

صاحبها، واستدعوه إليهم][1]، فسار نحوهم في عسكره، فلما قارب البلد ثار أهلُه على سيف الدين فأخذوه بغير قتال، وكان العلويّون هم الذين تولّوا أسره، وانهزم الذين كانوا معه، فمنهم مَن نجا، ومنهم مَن أُخذ، ثمّ إنّهم سوّدوا وجه سيف الدين، وأركبوه بقرة، وطافوا به البلد، ثمّ صلبوه، وقالوا فيه أشعاراً يهجونه بها، وغنّى بها حتّى النساء.

فلمّا بلغ الخبر إلى أخيه علاء الدين الحسين قال شعراً معناه: إن لم أقلع غُزْنة في مرة واحدة، فلستُ الحسين بن الحسين[2].

ثمّ توفّي بَهرام شاه[3] وملك بعده ابنه خُسروشاه، وتجهّز علاء الدين الحسين وسار إلى غزنة سنة خمسين وخمسمائة، فلمّا بلغ الخبر إلى خُسروشاه سار عنها إلى لَهَاوور، وملكها علاء الدين، ونهبها ثلاثة أيّام، وأخذ العلويّين الذين أسروا أخاه، فألقاهم من رؤوس الجبال، وخرّب المحلّة التي صُلب فيها أخوه، وأخذ النساء اللواتي قيل عنهنّ إنّهنّ كنّ يغنّين بهجاء أخيه والغُوريّة، فأدخلهنّ حمّاماً، ومنعهنّ من الخروج حتى مُتن فيه.

وأقام بغَزنَةَ حتى أصلحها، ثمّ عاد إلى فِيروزكُوه، ونقل معه من أهل غزنةَ خلقاً كثيراً، وحمّلهم المخالي مملوءة تراباً، فبنى به قلعة في فِيروزكُوه، وهي موجودة إلى الآن، وتلقّب بالسلطان المعظّم وحمل الجتْرَ على عادة السلاطين السّلجوقيّة.

وقد تقدّم سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة من أخبارهم، وفيه مخالفة لهذا في بعض الأمر، وكلاًّ سمعناه ورأيناه في مصنّفاتهم، فلهذا ذكرنا الأمرين، وأقام الحسين على ذلك مدّة، واستعمل ابني أخيه، وهما غِياث الدين، وشِهاب الدين[4].

ذكر مُلك غِياث الدين وشِهاب الدين الغُوريّين

لما قوي أمر عمّهما علاء الدين الحسين بن الحسين استعمل العمّال والأمراء

---

(١) من النسخة ٧٤٠ والباريسية.

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٤، تاريخ الإسلام (٥٤٧ هـ.) ص ٣٦، ٣٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥١، ٥٢، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٩، دول الإسلام ٢/ ٢٢، تاريخ ابن سباط ١/ ٩٧.

(٣) المختصر ٣/ ٢٤ و٢٧، تاريخ الإسلام ٣٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٢٩.

(٤) تاريخ الإسلام (٥٤٧ هـ.) ص ٣٧.

على البلاد، وكان ابنا أخيه، وهما غِياث الدين أبو الفتح محمّد بن سام، وشهاب الدين أبو المظفّر محمّد بن سام، فيمن استُعمل على بلد من بلاد الغُور اسمه سَنْجَة، وكان غياث الدين يلقّب حينئذٍ شمس الدين، ويلقّب الآخر شهاب الدين، فلمّا استعملهما أحسنا السيرة في عملهما وعدلا، وبذلا الأموال، فمال النّاس إليهما، وانتشر ذِكْرهما، فسعى بهما مَن يحسدهما إلى عمّهما علاء الدين، وقال: إنّهما يريدان الوثوب بك، وقتْلَك، والاستيلاء على الملك؛ فأرسل عمّهما يستدعيهما إليه، فامتنعا، وكانا قد بلغهما الخبر، فلمّا امتنعا عليه جهّز إليهما عسكراً مع قائد يسمّى خروش الغُوريّ، فلمّا التقوا انهزم خروش ومَن معه، وأُسر هو، وأبقيا عليه، وأحسنا إليه، وخلعا عليه، وأظهرا عصيان عمّهما وقطعا خطبته؛ فتوجّه إليهما علاء الدين، وسارا هما أيضاً إليه، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم علاء الدين وأُخذ أسيراً وانهزم عسكره، فنادى فيهم ابنا أخيه بالأمان، فأحضرا عمّهما وأجلساه على التخت، ووقفا في خدمته، فبكى[1] علاء الدين وقال: هذان صبيّان قد فعلا ما لو قدرتُ عليه منهما لم أفعله؛ ثمّ أحضر عمُّهما القاضي في الحال، وزوّج غياث الدين بنتاً له، وجعله وليّ عهده، وبقي كذلك إلى أن مات.

فلمّا توفّي ملك غياث الدين بعده وخطب لنفسه في الغُور وغَزنة بالمُلك، وبقي كذلك إلى أن ملك الغُزّ غزنة بعد موت علاء الدين، طمعوا فيها بموته، وبقيت بأيديهم خمس عشرة[2] سنة يصبّون على أهلها العذاب، ويتابعون الظلم كعادتهم [في] كلّ بلدة ملكوها، ولو أنّهم لما ملكوا أحسنوا السيرة في الرعايا لدام مُلكهم؛ فلم يزل الغُزّ بغزنة هذه المدّة، وغياث الدين يقوّي أمره، ويُحسن السيرة، والنّاس يميلون إليه ويقصدونه[3].

ذكر مُلك غِياث الدّين غَزنة وما جاورها من البلاد

لما قوي أمر غياث الدين جهّز جيشاً كثيفاً مع أخيه شهاب الدين إلى غَزنة، فيه أصناف الغُوريّة، والخَلَج، والخُراسانيّة، فساروا إليها، فلقيهم الغزّ

---

(١) في الأوربية: «فبكا».
(٢) في الأوربية: «عشر».
(٣) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٥، ٢٦، دول الإسلام ٢/ ٦٢، تاريخ الإسلام (٥٤٧ هـ.) ص ٣٧.

وقاتلوهم[١]، فانهزم الغوريّة، وثبت شهاب الدين وسار الغزُّ خلف المنهزمين، فعطف شهاب الدين فيمن ثبت معه على صاحب عَلمهم فقتله وأخذ العَلم، وتركه على حاله، فتراجع الغزّ، ولم يكونوا علموا بما كان من شهاب الدين، فجاؤوا يطلبون عَلمهم، فكلّما جاء إليه طائفة قتلهم، فأتَى على أكثرهم، ودخل غزنة وتسلّمها، وأحسن السيرة في أهلها وأفاض العدل[٢].

وسار من غزنة إلى كَرمان وشنَوران[٣] فملكهما، ثمّ تعدّى إلى ماء السند، وعمل على العبور إلى بلد الهند، وقصد لَهَاوُور، وبها يومئذٍ خُسروشاه بن بهرام شاه المقدّم ذِكر والده، فلمّا سمع خُسروشاه بذلك سار فيمن معه إلى ماء السند، فمنعه من العبور، فرجع عنه وقصد خَرشابور فملكها وما يليها من جبال الهند، وأعمال الأبغان، والله أعلم.

ذكر مُلك شهاب الدين لَهَاوور

لما ملك شهاب الدين جبال الهند قوي أمره وجنَانه، وعظمت هيبته في قلوب النّاس، وأحبّوه لحسن سيرته، فلمّا خرج الشتاء، وأقبل الربيع من سنة تسع وسبعين وخمسمائة، سار نحو لَهَاوور في جمْعٍ عظيم، وحشد كثير من خُراسانَ والغور وغيرهما، فعبر إلى لَهَاوور وحصرها، وأرسل إلى صاحبها خُسروشاه وإلى أهلها يتهدّدهم إن منعوه، وأعلمهم أنّه لا يزول حتى يملك البلد، وبذل لخُسروشاه الأمان على نفسه وأهله وماله، ومن الأقطاع ما أراد، وأن يزوّج ابنته بابن خُسروشاه على أن يطأ بساطه ويخطب لأخيه، فامتنع عليه، وأقام شهاب الدين محاصراً له، مضيّقاً عليه، فلمّا رأى أهل البلد والعسكر ذلك ضعُفَت نيّاتهم في نُصرة صاحبهم، فخذلوه، فأرسل لما رأى ذلك قاضي البلد والخطيب يطلبان له الأمان، فأجابه شهاب الدين إلى ذلك وحلف له، وخرج إليه، ودخل الغُوريّة إلى المدينة، وبقي كذلك شهرين مكرّماً عند شهاب الدين، فورد رسول من غياث الدين إلى شهاب الدين يأمره بإنفاذ خُسروشاه إليه.

---

(١) في الأوربية: «وقاتلهم».

(٢) المختصر ٣/ ٢٥، ٢٦، تاريخ الإسلام ٣٧، دول الإسلام ٢/ ٦٢.

(٣) في الباريسية و ٧٤٠ «سنوران».

ذكر انقراض دولة سُبُكْتِكين

لما أنفذ غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين يطلب إنفاذ خُسروشاه إليه أمره شهاب الدين بالتجهّز والمسير، فقال: أنا لا أعرف أخاك، ولا لي حديث إلاّ معك، ولا يمين إلاّ في عنقك؛ فمنّاه وطيّب قلبه، وجهّزه وسيّره، وسيّر معه ولده، وأصحبهما جيشاً يحفظونهما، فسارا كارهَين؛ فلمّا بلغا فَرْشَابُور خرج أهلها إليهما يبكون ويدعون لهما، فزجرهم الموكّلون بهما، وقالوا: سلطانٌ يزور سلطاناً آخر، لأيّ شيء تبكون؟ وضربوهم فعادوا، وخرج ولد خطيبها إلى خُسروشاه عن أبيه متوجّعاً له، قال: فلمّا دخلتُ عليه أعلمتُه رسالة أبي، وقلتُ: إنّه قد اعتزل الخطابة، ولا حاجة به إلى خدمة غيركم. فقال لي: سَلّم عليه. وأعطاني فرجيةً فوطاً ومصلّى من عمل الصوفيّة، وقال: هذه تذكرة أبيه عند أبي، فسلّمها إليه وقل له: دُرْ مع الدهر كيفما دار؛ وأنشد بلسانٍ فصيح:

وليسَ كعَهدِ الدّار يا أمّ مالكٍ ... ولكن أحاطتْ بالرّقابِ السّلاسلُ

قال: فانصرفتُ إلى أبي وعرّفتُه الحال، فبكى، وقال: قد أيقن الرجل بالهلاك؛ ثمّ رحلوا، فلمّا بلغوا بلد الغُور لم يجتمع بهما غياث الدين بل أمر بهما فرُفعا إلى بعض القلاع، فكان آخر العهد بهما.

وهو آخر ملوك آل سبكْتِكين، وكان ابتداء دولتهم سنة ستّ وستّين وثلاثمائة، فتكون مدّة ولايتهم مائتَيْ سنة وثلاث عشرة سنة تقريباً، وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة، ولا سيّما جدّه محمود، فإنّ آثاره في الجهاد معروفة، وأعماله للآخرة مشهورة:

لوْ كانَ يقعد فوْقَ الشّمس من كرَمٍ ... قَومٌ بأوّلهم أوْ مَجدِهمْ قَعَدُوا

فتبارك الذي لا يزول مُلكه، ولا تغيّره الدهور، فأُفٍّ لهذه الدنيا الدنيّة، كيف تفعل هذا بأبنائها؟ نسأل الله تعالى أن يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة، وأن يُقبل بنا إليه، وأن يشغّلنا به عمّا سواه، إنّه على كلّ شيء قدير.

هكذا[1] ذكر بعض فُضلاء خُراسان أنّ خُسروشاه آخر ملوك آل سبكتْكين، وقد ذكر غيره أنّه توفّي في المُلك، وملك بعده ابنه مَلكشاه، وسنذكره في سنة

---

(١) من هنا إلى نهاية الفقرة في (أ).

تسع[1] وخمسين وخمسمائة، وبالجملة فابتداء دولة الغُوريّة عندي فيه خُلفٌ لو ينكشف الحقّ، فأصلحه إن شاء اللّه تعالى.

ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة

لمّا استقرّ مُلكهم بلَهَاوُور واتّسعت مملكتهم وكثُرت عساكرهم وأموالهم كتب غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة، وتلقّب بألقاب السلاطين، كان لَقَبه شمس الدين، فتلقّب غياث الدين والدنيا معين الإسلام، قسيم أمير المؤمنين؛ ولقّب أخاه معزّ الدين، ففعل شهاب الدين ذلك وخطب له بالسلطنة.

ذكر مُلك غياث الدين هَرَاة وغيرها من خُراسان

لما فرغ شهاب الدين من إصلاح أمر لهَاوور وتقرير قواعدها، سار إلى أخيه غياث الدين، فلمّا اجتمع به استقرّ رأيهما على المسير إلى خُراسان، وقصد مدينة هَرَاة ومحاصرتها، فسارا في العساكر الكثيرة إليها، وكان بها جماعة من الأتراك السنجريّة، فنازلا البلد وحصراه، وضيّقا على مَن به، فاستسلموا إليهما، وأرسلوا يطلبون الأمان منهما، فأجاباهم إلى ذلك وأمّناهم، فتسلّما البلد، وأخرجا مَن فيه من الأمراء السّنجَريّة، واستناب فيه غياث الدين خزْنَك[2] الغوريّ، وسار غياث الدين وأخوه إلى فُوشَنْج فملكاها[3]، ثمّ إلى باذَغيس وكالين وبَيوَار فملكاها[4] أيضاً، وتسلّم ذلك جميعه[5] غياث الدين، وأحسن السيرة في أهل البلاد، ورجع إلى فِيرُوزكُوه، ورجع شهاب الدين إلى غَزنة[6].

(وكان)[7] ينبغي أنّ حوادث الغوريّة تُذكر في السنين، وإنّما جمعناها[8] ليتلو

---

(1) في (ب): «خمس».
(2) في الباريسية (٧٤٠): «حرنك»، وفي نسخة: «حريد».
(3) في الأوربية: «فملكها».
(4) في (ب): «فملكا ذلك جميعه»، وفي (أ): «فملكا».
(5) زاد في (أ) و(ب): «ثم سار إلى مرو الروذ فملكها أيضاً وتسلم ذلك جميعه».
(6) العبر ٤/ ١٢٩، دول الإسلام ٢/ ٦٣، تاريخ الإسلام (٥٤٧ هـ.) ص ٤٢.
(7) من (أ).
(8) في الأوربية: «جمعتها».

بعضها بعضاً، ولأنّ فيه ما لم يُعرف تاريخه فتركناه بحاله.

ذكر مُلك شهاب الدين مدينة آجرة[1] من بلد الهند

لما رجع شهاب الدين من خُراسان إلى غَزْنة أقام بها حتى أراح واستراح هو وعساكره، ثمّ سار إلى بلد الهند، فحاصر مدينة آجرة، وبها ملك من ملوك الهند، فلم يظفر منه بطائل، وكان للهنديّ زوجة غالبة على أمره، فراسلها شهاب الدين أنّه يتزوّجها، فأعادت الجواب أنّها لا تصلح له، وأنّ لها ابنة جميلة تزوّجه إيّاها، فأرسل إليها يجيبها إلى التزوّج بابنتها، فسقتْ زوجها سُمّاً فمات، وسلّمت البلد إليه.

فلمّا تسلّمه أخذ الصبيّة فأسلمت، وتزوّجها، وحملها إلى غَزنة، وأجرى عليها الجرايات الوافرة، ووكّل بها مَن علّمها القرآن، وتشاغل عنها، فتوفّيت والدتها، ثمّ توفّيت هي بعد عشر سنين، ولم يرها ولم يقربها، فبنى لها مشهداً ودفنها فيه، وأهل غَزنة يزورون قبرها.

ثمّ عاد إلى بلد الهند، فذلّ له صِعابها، وتيسّر له فتح الكثير من بلادهم، ودّوخ ملوكهم، وبلغ منهم ما لم يبلغه أحد قبله من ملوك المسلمين[2].

ذِكر ظفر الهند على المسلمين

لما اشتدّت نكاية شهاب الدين في بلاد الهند وإثخانه في أهلها واستيلاؤه عليها، اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم، ووبّخ بعضهم بعضاً، فاتّفق رأيهم على الاجتماع والتعاضد على حربه، فجمعوا عساكرهم وحشدوا، وأقبل إليهم الهنود من كلّ فجّ عميق على الصعب والذلول، وجاؤوا بحدّهم وحديدهم، وكان الحاكم على جميع الملوك المجتمعين امرأة هي من أكبر ملوكهم.

فلمّا سمع باجتماعهم ومسيرهم إليه تقدّم هو أيضاً إليهم في عسكر عظيم من الغُوريّة والخَلَج والخُراسانيّة وغيرهم، فالتقوا واقتتلوا، فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون، وركبهم الهنود يقتلون ويأسرون، وأثخنوا فيهم، وأصاب شهاب

---

(١) في (أ): «أخبه»، وفي (ب): «أجه».

(٢) العبر ٤/ ١٢٩، دول الإسلام (٥٤٧ هـ.) ص ٤٣، دول الإسلام ٢/ ٦٣، ٦٤.

الدين ضربة بطلت منها يده اليُسرى، وضربة أخرى على رأسه سقط منها إلى الأرض، وحجز الليل بين الفريقين، فأحسّ شهاب الدين بجماعة من غلمانه الأتراك في ظلمة اللّيل، وهم يطلبونه في القتلى ويبكون، وقد رجع الهنود إلى ورائهم، وكلّمهم وهو على ما به من الجهد، فجاؤوا إليه مسرعين، وحملوه على رؤوسهم رجّالة يتناوبون حمله، حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح.

وشاع خبر سلامته في النّاس، فجاؤوا إليه يهنّئونه من أقطار البلاد، فأوّل ما عمل أنّه أخذ أمراء الغُوريّة الذين انهزموا عنه وأسلموه، فملأ مخالي خيلهم شعيراً، وحلف لئن لم يأكلوه ليضربنّ أعناقهم، فأكلوه ضرورةً.

وبلغ الخبر إلى أخيه غياث الدين فكتب إليه يلومه على عجلته وإقدامه، وأنفذ إليه جيشاً عظيماً.

ذكر ظفر المسلمين بالهند

لما سلم شهاب الدين وعاد إلى آجرة، وأتاه المدد من أخيه غياث الدين، عاد الهنود فجدّدوا[1] سلاحهم، ووفروا جمعهم، وأقاموا عِوضَ مَن قُتل منهم، وسارت ملكتهم وهم معها في عدد يضيق عنه الفضاء، فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنّه يتزوّجها، فلم تجبه إلى ذلك، وقالت: إمّا الحرب، وإمّا أن تسلم بلاد الهند وتعود إلى غَزنة، فأجابها إلى العَود إلى غَزنة، وأنّه يستأذن أخاه غياث الدين؛ فعل ذلك مكراً وخديعةً.

وكان بين العسكرين نهرٌ، وقد حفظ الهنود المخاضات، فلا يقدر أحد من المسلمين [أن] يجوزه، وأقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين بزعمهم، فبينما هم كذلك إذ وصل إنسانٌ هنديّ إلى شهاب الدين، وأعلمه أنّه يعرف مخاضاً قريباً من عسكر الهنود، وطلب أن يرسل معه جيشاً يعبّرهم المخاض، ويكبسون الهنود وهم غارّون غافلون، فخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكراً، فأقام له ضمناء من أهل آجرة والمُولتان، فأرسل معه جيشاً كثيفاً، وجعل عليهم الأمير الحسين بن خَرميل الغوريّ، وهو الذي صار بعدُ صاحب هَراة، وكان من الشجاعة والرأي بالمنزلة المشهورة.

---

(١) في الأوربية: وعاد الهنود جددوا.

فسار الجيش مع الهنديّ، فعبروا النهر، فلم يشعر الهنود إلاّ وقد خالطهم المسلمون، ووضعوا السيف فيهم، فاشتغل الموكّلون بحفظ المخاضات، فعبر شهاب الدين وباقي العساكر، وأحاطوا بالهنود، وأكثروا القتل فيهم، ونادوا بشعار الإسلام، فلم ينجُ من الهنود إلاّ مَن عجز المسلمون عن قتله وأسره، وقُتلت ملكتهم، وتمكّن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند، وأمن معرّة[1] فسادهم. والتزموا له بالأموال، وسلّموا إليه الرهائن وصالحوه[2]، وأقطع مملوكه قُطْب الدين ايبك مدينة دَهْلي، وهي كرسي الممالك التي فتحها من الهند، فأرسل عسكراً من الخَلَج مع محمّد بن بختيار، فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل إليها مسلم قبله، حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق.

وقد حدّثني صديق لي من التجار بوقعتين تشبهان[3] هاتَين الوقعتَين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف، وسيرد ذكرهما سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة[4].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّي يعقوب الكاتب[5] ببغداد، وكان يسكن بالمدرسة النظاميّة، وحضر متولّي المتروكات[6] وختم على الغرفة التي كان يسكنها بالمدرسة، فثار الفقهاء وضربوا المتولّي وأخذوا التركة، وهذه عادتهم فيمن يموت بها وليس له وارث، فقبض حاجب الباب على رجلَين من الفقهاء وعاقبهما، وحبسهما، فأغلق الفقهاء المدرسة، وألقوا كرسي الوعّاظ في الطريق، وصعدوا سطح المدرسة ليلاً، واستغاثوا، وتركوا الأدب.

وكان حينئذٍ مدرّسهم الشيخ أبا النجيب، فجاء وألقى نفسه تحت التاج يعتذر، فعُفي عنه.

---

(١) في (أ): «معرتهم».

(٢) في (أ): «وحملوا إليه».

(٣) في الأوربية: «تشبه».

(٤) دول الإسلام ٢/ ٦٤، تاريخ الإسلام (٥٤٧ هـ.) ص ٤٣.

(٥) أنظر عن (يعقوب الكاتب) في: المنتظم ١٠/ ١٥٢ رقم ٢٣٢ (١٨/ ٨٩، رقم ٤١٨١)، وتاريخ الإسلام (٥٤٧ هـ.) ص ٢٩١ رقم ٤١٠٩، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٣٠.

(٦) في الأوربية: «المتركات».

[الوَفَيَات]

وفيها توفّي حسام الدين تَمِرْتاش[1] صاحب ماردين ومَيّافارقين، وكانت ولايته نيّفاً وثلاثين سنة، وتولّى بعده ابنه نجْم الدين[2] ألبي.

وفيها مات أبو الفضل محمّد بن عمر بن يوسف الأُرْمَوي[3] الشافعي المحدّث، ومولده سنة تسعٍ وخمسين وأربعمائة.

وفيها توفي أبو الأسعد عبد الرحمن القُشَيريّ في شوّال، وهو شيخ شيوخ[4] خُراسان.

وفيها، في المحرّم، باض ديك ببغداد بيضة، وباض بازي بيضتين، وباضت نَعامة لا ذَكَر معها بيضة[5].

---

(١) أنظر عن (تمرتاش) في: تاريخ الإسلام (٥٤٧ هـ.) ص ٢٦٧، ٢٦٨ رقم ٣٦٨ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) وفي (أ): «هبة الرحمن».

(٣) أنظر عن (الأُرَموي) في: تاريخ الإسلام (٥٤٧ هـ.) ص ٢٧٩، ٢٨٠ رقم ٣٩٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٤) في (أ): «شيخ من شيوخ».

(٥) المنتظم ١٠/١٤٦ (١٨/٨٣).

(٥٤٨)

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ذكر انهزام سَنجَر من الغُزّ ونهبهم خراسان وما كان منهم

في هذه السنة، في المحرّم، انهزم السلطان سَنجَر من الأتراك الغُزّ، وهم طائفة من الترك مسلمون، كانوا بما وراء النهر، فلمّا ملك الخِطَا أخرجوهم منه، كما ذكرنا، فقصدوا خُراسان، وكانوا خلقاً كثيراً، فأقاموا بنواحي بَلْخ يرعون في مراعيها، وكان لهم أمراء اسم أحدهم دينار، والآخر بَخْتِيار، والآخر طَوطى، والآخر أرسلان، والآخر جَغَر[1]، والآخر محمود، فأراد الأمير قَماج، وهو مُقطع بلْخ، إبعادهم، فصانعوه بشيءٍ بذلوه له، فعاد عنهم، فأقاموا على حالةٍ حسنةٍ لا يؤذون أحداً، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة.

ثمّ إنّ قماج عاودهم وأمرهم بالانتقال عن بلده، فامتنعوا، وانضمّ بعضهم إلى بعض، واجتمع معهم غيرهم من طوائف الترك، فسار قماج إليهم في عشرة آلاف فارس، فجاء إليه أمراؤهم وسألوه أن يكفّ عنهم، ويتركهم في مراعيهم، ويعطونه من كلّ بيت مائتَيْ درهم فضّة، فلم يُجِبهم إلى ذلك، وشدّد عليهم في الانتزاح عن بلده، فعادوا عنه، واجتمعوا وقاتلوه، فانهزم قماج ونهبوا ماله ومال عسكره، وأكثروا القتل في العسكر والرعايا، واسترقّوا النساء والأطفال، وعملوا كلّ عظيمة، وقتلوا الفقهاء وخرّبوا المدارس.

وانتهت الهزيمة بقَماج إلى مرو، وبها السلطان سَنجَر، فأعلمه الحال، فراسلهم سنجَر يتهدّدهم، فأمرهم بمفارقة بلاده، فاعتذروا، وبذلوا بذلاً كثيراً ليكفّ عنهم

---

(١) في الأوربية: «جغز».

ويتركهم في مراعيهم، فلم يُجبهم إلى ذلك، وجمع عساكره من أطراف البلاد، واجتمع معه ما يزيد على مائة ألف فارس، وقصدهم ووقع بينهم حربٌ شديدة، فانهزمت عساكر سنَجر، وانهزم هو أيضاً، وتبعهم الغزّ قتلاً وأسراً، فصار قتلى العسكر كالتلال، وقُتل علاء الدين قَماج، وأُسر [السلطان سَنجر، وأُسر][1] معه جماعة من الأمراء، [فأمّا الأمراء][2] فضربوا أعناقهم، وأمّا السلطان سَنجر، فإنّ أمراء الغُزّ اجتمعوا، وقبّلوا الأرض بين يديه، وقالوا: نحن عبيدك لا نخرج عن طاعتك، فقد علمنا أنّك لم تُرِد قتالنا، وإنّما حُملتَ عليه، فأنت السلطان ونحن العبيد؛ فمضى على ذلك شهران، أو ثلاثة، ودخلوا معه إلى مرو وهي كرسي مُلك خُراسان، وطلبها منه بختيار إقطاعاً، فقال السلطان: هذه دار الملك ولا يجوز أن تكون إقطاعاً لأحد. فضحكوا منه وحبق له بختيار بفمه، فلمّا رأى ذلك نزل عن سرير الملك، ودخل خانكاه مَرْو وتاب عن الملك.

واستولى الغُزّ على البلاد، وظهر منهم من الجور ما لم يُسمع بمثله، وولّوا على نَيسابور والياً، فقسّط على النّاس كثيراً وعسفهم وضربهم، وعلّق في الأسواق ثلاث غرائر، وقال: أريد ملء[3] هذه ذَهَباً؛ فثار عليه العامّة فقتلوه ومَن معه، فركب الغُزّ ودخلوا نَيسابور ونهبوها نهباً مُجْحِفاً، وجعلوها قاعاً صفصفاً، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها، وقتلوا القضاة والعلماء في البلاد كلّها، فممّن [قُتل] الحسين بن محمّد الأرسابَنْديّ، والقاضي عليّ بن مسعود، والشيخ محمّد بن يحيَى.

وأكثَر الشعراءُ في مراثي محمّد بن يحيَى، فممّن قال فيه عليُّ بن إبراهيم الكاتب:

مضَى الذي كانَ يُجْنَى الدُّرُّ من فيهِ	يَسيلُ بالفَضْلِ والإفضَالِ واديهِ
مضى ابن يحيَى الذي قد كان صوبَ حياً	لأبرِ شَهْرٍ وَمِصْباحاً لداجِيهِ
خَلا خُراسانُ من عِلْمٍ وَمن وَرَعٍ	لَمّا نَعَاهُ إلى الآفاقِ ناعِيهِ
لَمّا أماتُوهُ ماتَ الدّينُ وأسَفا	مَنْ ذا الذي بعد مُحيي الدّينِ يُحيِيهِ

---

(١) في الباريسية و(٧٤٠).
(٢) من الباريسية.
(٣) في الأوربية: «ملىء».

ويتعذّر وصف ما جرى منهم على تلك البلاد جميعها، ولم يسلُم من خُراسان شيء لم تنهبه[1] الغُزّ غير هَراة ودِهِسْتان لأنّها كانت حصينة فامتنعت.

وقد ذكر بعض مؤرّخي خُراسان من أخبارهم ما فيه زيادة وضوح وقال: إنّ هؤلاء الغزّ[2] قوم انتقلوا من نواحي الثغر من أقاصي الترك إلى ما وراء النهر في أيّام المهدي، وأسلموا، واستنصر بهم المقنّع صاحب المخاريق والشعبذة، حتى تمّ أمره، فلمّا سارت العساكر إليه خذله هؤلاء الغزّ وأسلموه، وهذه عادتهم في كلّ دولة كانوا فيها؛ وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخاقانيّة[3]، إلاّ أنّ الأتراك القارغليّة[4] قمعوهم، وطردوهم عن أوطانهم، فدعاهم الأمير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طَخارِستان إليه، وأنزلهم بلاده، وكانت بينه وبين الأمير قَماج عداوة أحكمتها الأيّام للمجاورة التي بينهما، وكلّ منهما يريد أن يعلو على الآخر ويحكم عليه، فتقوّى بهم زنكي، وساروا معه إلى بَلْخ لمحاربة قماج، فكاتبهم قماج، فمالوا إليه، وخذلوا زنكي عند الحرب، فأخذ زنكي وابنه أسيرين، فقتل قماجُ ابنَ زنكي، وجعل يطعم أباه لحمه، ثمّ قتل الأب أيضاً، وأقطع قماج الغزّ مواضع، وأباحهم مراعي بلاده.

فلمّا قام الحسين بن الحسين الغوريّ بغَزنة وقصد بلخ خرج إليه قماج وعساكره ومعه الغزّ، ففارقه الغزّ[5] وانضمّوا إلى الغوريّ حتى ملك مدينة بلْخ، فسار السلطان سَنجَر إلى بَلْخ، ففارقها الغوريّ بعد قتال انهزم منه، ثمّ دخل على السلطان سَنجَر لعجزه عن مقاومته، فردّه إلى غزنة.

وبقي الغزّ بنواحي طَخارستان وفي نفس قماج منهم الغيظ العظيم لما فعلوه معه، فأراد صرْفهم عن بلاده، فتجمّعوا، وانضمّ إليهم طوائف من الترك، وقدّموا عليهم أرسلان بُوقا التركي، فجمع قماج عسكره ولقيهم فاقتتلوا يوماً كاملاً إلى اللّيل، فانهزم قماج وعسكره، وأُسر هو وابنه أبو بكر، فقتلوهما، واستولوا على نواحي بلْخ، وعاثوا فيها وأفسدوا بالنهب والقتل والسلب.

---

(١) في الأوربية: «تنبه».

(٢) في (أ): «الثغرغر»، وفي (ب): «النغرغز».

(٣) في (أ): «الملوك الخانية».

(٤) في (أ): «القارلغية».

(٥) في (أ): «ففارقه طائفة».

وبلغ السلطانَ سَنجرَ الخبرُ، فجمع عساكره وسار إليهم، فراسلوه يعتذرون ويتنصّلون، فلم يقبل عُذرهم، ووصل إليهم مقدّمة السلطان، وفيها محمّد بن أبي بكر بن قماج المقتول، والمؤيّد أي أبَه في المحرّم من سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة، ووصل بعدهم السلطان سَنجَر، فالتقاه الغزّ بعد أن أرسلوا يعتذرون ويبذلون الأموال والطاعة والانقياد إلى كلّ ما يؤمرون به، فلم يقبل سنجر ذلك منهم، وسار إليهم، فلقوه وقاتلوه وصبروا له، ودام قتالهم، فانهزم عسكر سنجر وهو معهم، فتوجّهوا إلى بَلخ على أقبح صورة، وتبعهم الغزّ، واقتتلوا مرّة ثانيةً، فانهزم السلطان سنجر أيضاً، ومضى منهزماً إلى مَرْوَ في صفر من السنة، فقصد الغزّ إليها، فلمّا سمع العسكر الخُراساني بقربهم منهم أجفلوا من بين أيديهم هاربين لما دخل قلوبهم من خوفهم والرعب منهم؛ فلمّا فارقها السلطان والعسكر دخلها الغزّ ونهبوها أفحش نهب وأقبحه، وذلك في جُمادى الأولى من السنة، وقُتل بها كثير من أهلها وأعيانها، منهم قاضي القضاة الحسين بن محمّد الأرسابَنْديّ، والقاضي عليُّ بن مسعود، وغيرهما من الأئمّة العلماء.

ولما خرج سنجر من مرو قصد اندرابة وأخذه الغزّ أسيراً، وأجلسوه على تخت السلطنة على عادته، وقاموا بين يديه، وبذلوا له الطاعة، ثمّ عاودوا الغارة على مرو في رجب من السنة، فمنعهم أهلها، وقاتلوهم قتالاً بذلوا فيه جهدهم وطاقتهم، ثمّ إنّهم عجزوا، فاستسلموا إليهم، فنهبوها أقبح من النّهب الأوّل، ولم يتركوا بها شيئاً.

وكان قد فارق سنجر جميع أمراء خُراسان ووزيره طاهر بن فخر المُلك بن نظام المُلك، ولم يبقَ عنده غير نفر يسير من خواصّه وخدمه؛ فلمّا وصلوا إلى نَيسابور أحضروا الملك سليمان شاه ابن السلطان محمد، فوصل إلى نَيسابور تاسع عشر جُمادى الآخرة من السنة، فاجتمعوا عليه، وخطبوا له بالسلطنة، وسار في هذا الشهر جماعة من العسكر السلطانيّ إلى طائفة كثيرة من الغزّ، فأوقعوا بهم، وقتلوا منهم كثيراً، وانهزم الباقون إلى أمرائهم الغُزّيّة فاجتمعوا معهم.

ولما اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه ساروا إلى مرو يطلبون الغزّ، فبرز الغزّ إليهم، فساعةَ رآهم العسكر الخُراسانيّ[1] انهزموا وولّوا على أدبارهم،

---

(١) في (أ): «العسكر السلطاني».

وقصدوا نَيسابور، وتبِعهم الغزّ، فمرّوا بطُوس، وهي معدن العلماء والزهّاد، فنهبوها، وسبوا نساءها، وقتلوا رجالها، وخرّبوا مساجدها ومساكن أهلها، ولم يسْلَم من جميع ولاية طُوس إلاّ البلدُ الذي فيه مشهد عليّ بن موسى الرِضى، ومواضع أُخر يسيرة لها أسوار.

وممّن قُتل من أعيان أهلها إمامها محمّد المارشكيّ، ونقيب العلويّين بها عليّ المُوسوي، وخطيبها إسماعيل بن المُحسن، وشيخ شيوخها محمّد بن محمّد، وأفنوا من بها من الشيوخ الصالحين.

وساروا منها إلى نَيسابور، فوصلوا إليها في شوّال سنة تسع وأربعين [وخمسمائة]، ولم يجدوا دونها مانعاً ولا مدافعاً، فنهبوها نهباً ذريعاً، وقتلوا أهلها، فأكثروا حتى ظنّوا أنّهم لم يُبقوا بها أحداً، حتى إنّه أُحصي في محلّتين خمسة عشر ألف قتيل من الرجال دون النساء والصبيان، وسبوا نساءها وأطفالها، وأخذوا أموالهم، وبقي القتلى في الدروب كالتلال بعضهم فوق بعض، واجتمع أكثر أهلها بالجامع المَنِيعي، وتحصنّوا به، فحصرهم الغزّ، فعجز أهل نَيسابور عن منعهم، فدخل الغزّ إليهم فقتلوهم عن آخرهم، وكانوا يطلبون من الرجل المال، فإذا أعطاهم الرجل ماله قتلوه؛ وقتلوا كثيراً من أئمّة العلماء والصالحين، منهم محمّد بن يحيَى الفقيه الشافعيّ الذي لم يكن في زمانه مثله، كان رَحلة النّاس من أقصى الغرب والشرق إليه، ورثاه جماعة من العلماء، منهم أبو الحسن عليُّ بن أبي القاسم البَيْهَقيّ فقال:

يـا سـافِكـاً دَمَ عـالِـمٍ مُتَبَحّـرٍ   قد طارَ في أقصَى المَمالكِ صِيتُهُ
بللهِ قُلْ لي يا ظَلومُ وَلا تخفْ[1]   مَن كانَ يُحيي الدّين كيفَ تميتُهُ

ومنهم الزاهد عبد الرحمن بن عبد الصمد الأكّاف، وأحمد بن الحسين الكاتب سِبط القُشَيريّ، وأبو البركات الفُراويّ، والإمام عليّ الصبّاغ المتكلّم، وأحمد بن محمّد بن حامد، وعبد الوهّاب الملقاباذيّ، والقاضي صاعد بن عبد الملك بن صاعد، والحسن[2] بن عبد الحميد الرازيّ، وخلق كثير من الأئمّة والزهّاد والصالحين، وأحرقوا ما بها من خزائن الكتب، ولم يَسلَم إلاّ بعضها.

---

(١) في (ب): «ولا يعش».
(٢) في (ب): «الحسين».

وحصروا شارستان، وهي منيعة، فأحاطوا بها، وقاتلهم أهلها من فَوق سورها، وقصدوا جُويَن فنهبوها، وقاتلهم أهل بحراباذ من أعمال جُويَن، وبذلوا نفوسهم للّه تعالى، وحموا بيضتهم والباقي أتَى النّهب والقتل عليه؛ ثمّ قصدوا أسفرايين فنهبوها وخرّبوها، وقتلوا في أهلها فأكثروا.

وممّن قُتل عبد الرشيد الأشعثيّ، وكان من أعيان دولة السلطان، فتركها وأقبل على الاشتغال بالعلم وطلب الآخرة؛ وأبو الحسن الفَنْدَروجيّ، وكان من ذوي الفضائل لا سيّما في علم الأدب.

ولما فرغ الغزّ من جُويَن وأسفرايين عاودوا نيسابور، فنهبوا ما بقي فيها بعد النهب الأوّل، وكان قد لحِق بشَهْرَستان كثير من أهلها، فحصرهم الغزّ واستولوا عليها، ونهبوا ما كان فيها لأهلها ولأهل نيسابور، ونهبوا الحُرَم والأطفال، وفعلوا ما لم يفعله الكفّار مع المسلمين، وكان العيّارون أيضاً ينهبون نيسابور أشدّ من نهب الغزّ، ويفعلون أقبح من فعلهم.

ثمّ إنّ أمر الملك سليمان شاه ضعُف، وكان قبيح السيرة، سيّء التدبير، وإنّ وزيره طاهر بن فخر المُلك بن نظام المُلك توفّي في شوّال سنة ثمانٍ وأربعين [وخمسمائة] فضعُف أمره، واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام المُلك أبا عليّ الحسن بن طاهر، وانحلّ أمر دولته بالكليّة، ففارق خُراسان في صفر سنة تسعٍ وأربعين [وخمسمائة] وعاد إلى جُرجان، فاجتمع الأمراء وراسلوا الخان محمود بن محمّد بن بُغراخان، وهو ابن أخت السلطان سَنجَر، وخطبوا له على منابر خُراسان، واستدعوه إليهم، فملّكوه أمورهم، وانقادوا له في شوّال سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وساروا معه إلى الغزّ وهم يحاصرون هراة، وجرت بينهم حروبٌ كان الظفر في أكثرها للغزّ، ورحلوا في جمادى الأولى من سنة[1] خمسين وخمسمائة مِن على هراة إلى مرو، وعاودوا المصادرة لأهلها.

وسار خاقان محمود بن محمّد إلى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد، على ما نذكره، وراسل الغزّ في الصلح، فاصطلحوا في رجب من سنة خمسين وخمسمائة،

---

(١) في (أ): «جمادى الآخرة سنة».

هدنةً على دخَن، وسيرِد باقي أخبارهم سنة اثنتين وخمسين[1].

ذكر مُلك المؤيد نَيسابور وغيرها

كان للسلطان سَنجَر مملوك اسمه أي أبَه، ولَقَبُه المؤيّد، فلمّا كانت هذه الفتنة تقدّم، وعلا شأنه، وأطاعه كثير من الأمراء، واستولى على نَيسابور، وطُوس، ونَسَا، وأبِيوَرْدَ، وشَهْرَستانَ، والدّامغان، وأزاح الغُزّ عن الجميع، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وأحسن السيرة، وعدل في الرعيّة، واستمال النّاس، ووفّر الخراج على أهله، وبالغ في مراعاة أرباب البيوت، فاستقرّت البلاد له، ودانت له الرعيّة لحسن سيرته، وعظُم شأنه، وكثُرت جموعُه، فراسله خاقان محمود بن محمّد في تسليم البلاد والحضور عنده، فامتنع، وتردّدت الرسل بينهم، حتى استقرّ على المؤيّد مال يحمله إلى الملك محمود، فكفّ عنه محمود، وأقام المؤيّد بالبلاد هو والملك محمود[2].

ذكر ملك إينانج الرَّيّ

كان إينانج أحد مماليك سَنجَر، فلمّا كان من فتنة الغُزّ ما ذكرناه هرب من خُراسان، ووصل إلى الرَّيّ، فاستولى عليها وأقام بها، فأرسل إلى السلطان محمّد شاه بن محمود صاحب همذان، وأصفهان، وغيرهما، خدمه وهدايا فأرضاه بها، وأظهر له الطاعة، وبقي بها إلى أن مات الملك محمود، فاستولى عليها وعلى عدّة بلاد تجاور الريّ، فملكها، فعظُم أمره، وعلا شأنه، وصارت عساكره عشرة آلاف فارس.

فلمّا ملك سليمان شاه هَمَذان، (على ما نذكره)[3]، حضر عنده، وأطاعه لأُنسه به، كان أيّام مقام سليمان شاه بخُراسان، فتقوّى أمره بذلك[4].

---

(١) الخبر في: زبدة التواريخ ٢٣٠ ـ٢٣٢، وراحة الصدور ١٧٧ ـ١٨١، وحبيب السير ٢/ ٥١١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٦، ٢٧، ودول الإسلام ٢/ ٦٣، والعبر ٤/ ١٢٩، وتاريخ الإسلام (٥٤٨ هـ.) ص ٤١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٣، وعيون التواريخ ١٢/ ٤٦٥، ومرآة الجنان ٣/ ٢٨٦، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٣٠، ٢٣١ وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٧٠، ٧١، والكواكب الدرية ١٤١، ١٤٣، تاريخ الخلفاء ٤٤٠، تاريخ ابن سباط ١/ ٩٧، ٩٨.

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٧.

(٣) من (أ).

(٤) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٧.

ذكر قتل ابن السلاّر وزير الظافر ووزارة عبّاس

في هذه السنة، في المحرّم، قُتل العادل بن السلاّر وزير الظافر بالله؛ قتله ربيبه عبّاس بن أبي الفتوح بن يحيَى الصّنهاجيّ، وأشار عليه بذلك الأمير أُسامة بن مُنقِذ، ووافق عليه الخليفة الظافرُ بالله، فأمر ولده نصراً، فدخل على العادل وهو عند جدّته أمّ عبّاس، فقتله ووليَ الوزارة (بعده ربيبُه)[1] عبّاس.

وكان عبّاس قد قدِم من المغرب، كما ذكرناه، إلى مصر، وتعلّم الخياطة، وكان خيّاطاً حسناً فلمّا تزوّج ابن السلاّر بأمّه أحبّه، وأحسن تربيته، فجازاه بأن قتله ولَي بعده.

وكانت الوزارة في مصر لمن غلب، والخلفاء من وراء الحجّاب، والوزراء كالمتملّكين، وقلّ أن وليها أحدٌ بعد الأفضل إلاّ بحرب وقتْل وما شاكل ذلك، فلذلك ذكرناهم في تراجم مفردة[2] والله أعلم.

ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبد المؤمن

في هذه السنة، في صفر، كانت الحرب بين عسكر عبد المؤمن والعرب عند مدينة سَطيف.

وسبب ذلك أنّ العرب، وهم بنو هلال، والأبتح[3] وعَديّ، ورِياح، وزُغب، وغيرهم من العرب، لما ملك عبد المؤمن بلاد بني حمّاد اجتمعوا من أرض طرابُلُس إلى أقصى المغرب، وقالوا: إنْ جاورنا عبد المؤمن أجلانا من المغرب، وليس الرأي إلاّ إلقاء الجدّ معه، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكّن.

---

(١) من (أ).

(٢) أنظر عن قتل ابن السلار في: ذيل تاريخ دمشق ٣١٩،٣٢٠، ونزهة المقلتين ٦٤، وأخبار الدول المنقطعة ١٠٤، وأخبار مصر لابن ميسر ٢/٩٢، ونهاية الأرب ٢٨/٣١٤، والروضتين ١/٢٢٦،٢٢٧، والمختصر في أخبار البشر ٣/٢٧، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/٢١٤، وتاريخ الإسلام (٥٤٨ هـ.) ص ٤٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/٥٤، والدرة المضية. ٥٥٣، واتعاظ الحنفا ٢/٢٠٥، والنجوم الزاهرة ٥/٢٨٨، وتاريخ ابن سباط ١/٩٨.

(٣) في (أ): «الأشج»، وفي (ب): «الابح». . .

وتحالفوا على التعاون والتضافر[1]، وأن لا يخون بعضهم بعضاً، وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمال ليقاتلوا قتال الحريم.

واتّصل الخبر بالملك رُجّار الفرنجيّ، صاحب صَقَلّية، فأرسل إلى أمراء العرب، وهم مُحرِز بن زياد، وجبُارة بن كامل، وحسن بن ثعلب، وعيسى بن حسن وغيرهم، يحثّهم على لقاء عبد المؤمن، ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم، على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن؛ فشكروه وقالوا: ما بنا حاجة إلى نجدته، ولا نستعين بغير المسلمين.

وساروا في عدد لا يُحصى، وكان عبد المؤمن قد رحل من بِجاية إلى بلاد المغرب، فلمّا بلغه خبرهم جهّز جيشاً من الموحّدين يزيد على ثلاثين ألف فارس، واستعمل عليهم عبد الله بن عُمر الهَنتاني، وسعد الله بن يحيَى، وكان العرب أضعافهم، فاستجرّهم الموحّدون، وتبِعهم العرب إلى أن وصلوا إلى أرض سَطيف، بين جبال، فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن، فجاءه والعرب على غير أُهْبة، والتقى الجَمْعان، واقتتلوا أشدّ قتال وأعظمه، فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونُصرة الموحّدين.

وترك العرب جميع ما لهم من أهل ومال وأثاث ونَعَم، فأخذ الموحّدون جميع ذلك، وعاد الجيش إلى عبد المؤمن بجميعه، فقسّم جميع الأموال على عسكره، وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط، ووكّل بهم من الخدم الخِصيان مَن يخدمهم ويقوم بحوائجهم، وأمر بصيانتهم؛ فلمّا وصلوا معه إلى مَرّاكُش أنزلهم في المساكن الفسيحة، وأجرى لهم النفقات الواسعة، وأمر عبد المؤمن ابنه محمّداً أن يكاتب أمراء العرب، ويُعلمهم أنّ نساءهم وأولادهم تحت الحِفْظ والصيانة، وأمرهم أن يحضروا ليسلِّم إليهم أبوه ذلك جميعه، وأنّه قد بذل لهم الأمان.

فلمّا وصل كتاب محمّد إلى العرب سارعوا إلى المسير إلى مَرّاكُش، فلمّا وصلوا إليها أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم، وأحسن إليهم، وأعطاهم أموالاً جزيلةً، فاسترقّ قلوبهم بذلك، وأقاموا عنده، وكان بهم حَفِيّاً، واستعان بهم على

---

(١) في الأوربية «التظافر».

ولاية ابنه محمّد للعَهد، على ما نذكره سنة إحدى وخمسين [وخمسمائة][(١)].

ذكر مُلك الفرنج مدينة بُونَة وموت رُجار ومُلك ابنه غُليالم

في هذه السنة سار أسطول رُجّار ملك الفرنج بصَقَلّية إلى مدينة بُونَة، وكان المقدّم عليهم فتاه فيلب المَهدَويّ، فحصرها واستعان بالعرب عليها، فأخذها في رجب، وسبىَ أهلها، وملك ما فيها، غير أنّه أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين، حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى، فأقام بها عشرة أيّام، وعاد إلى المهديّة وبعض الأسرى معه، وعاد إلى صَقَلّية فقبض رُجّار عليه لِما اعتمده من الرفْق بالمسلمين في بُونَة.

وكان فيلب، يقال إنّه وجميع فتيانه مسلمون، يكتمونه ذلك، وشهدوا عليه أنّه لا يصوم مع الملك، وأنّه مسلم، فجمع رُجّار الأساقفة والقسوس والفرسان، فحكموا بأن يُحرق، فأُحرق في رمضان، وهذا أوّل وَهْن دخل على المسلمين بصَقَلّية. ولم يمهل اللّه رُجّار بعده إلاّ يسيراً حتى [مات] في العشر الأول من ذي الحجّة من السنة، وكان مرضه الخوانيق، وكان عمره قريب ثمانين سنة، وكان مُلكُه نحو ستّين سنة؛ ولما مات ملك بعده ابنه غُليالم، وكان فاسد التدبير، سيّء التصوير، فاستوزر مايو البرصانيّ[(٢)]، فأساء التدبير، فاختلفت عليه حصون من جزيرة صَقَلّية، وبلاد قلّورية، وتعدّى الأمر إلى إفريقية على ما نذكره[(٣)].

ذكر وفاة بَهرام شاه صاحب غَزنة

في هذه السنة، في رجب، توفّي السلطان بَهرام شاه[(٤)] بن مسعود بن إبراهيم، ابن مسعود بن محمود بن سُبُكتِكين صاحب غَزنَة بها، وقام بالملك بعده ولد نظام الدين خُسروشاه، وكانت ولاية بهرام شاه ستّاً وثلاثين سنة، وكان عادِلاً، حَسَن السيرة، جميل الطريقة، محبّاً للعلماء، مُكرِماً لهم، باذلاً لهم الأموال الكثيرة، جامعاً للكتب تُقْرأ بين يديه، ويفهم مضمونها؛ ولما مات ملك ولده خُسروشاه.

---

(١) الخبر باختصار شديد في: المختصر في أخبار البشر ٣/٢٧.

(٢) في الباريسية: «مابو البصراني»، وفي نسخة (٧٤٠) «مانو»، و«الرصاي».

(٣) المختصر في أخبار البشر ٣/٢٧.

(٤) أنظر عن (بهرام شاه) في: زبدة التواريخ ٥٥ و١٨١ ـ ١٨٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/٢٧، وتاريخ الإسلام (٥٤٨ هـ.) ص ٣٠٠ رقم ٤٢١.

ذكر مُلك الفرنج مدينة عَسقَلان

في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عَسقَلان، وكانت من جملة مملكة الظافر باللّه العلويّ المصريّ، وكان الفرنج كلّ سنة يقصدونها ويحصرونها، فلا يجدون إلى مُلكِها سبيلاً، وكان الوزراء بمصر لهم الحكمُ في البلاد، والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته، وكان الوزراء كلّ سنة يرسلون إليها من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال مَن يقوم بحفظها. فلمّا كان في هذه السنة قُتل ابن السلّار الوزير، على ما ذكرناه، واختلفت الأهواء في مصر، ووليَ عبّاس الوزارة، وإلى أن استقرّت قاعدةٌ، اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان، فاجتمعوا وحصروها، فصبر أهلها، وقاتلوهم قتالاً شديداً، حتى إنّهم بعض الأيّام قاتلوا خارج السور، وردّوا الفرنج إلى خيامهم مقهورين، وتبِعهم أهل البلد إليها، فأيِس حينئذٍ الفرنج من مُلكه.

فبينما هم على عزم الرحيل إذ[1] قد أتاهم الخبر أنّ الخُلْف قد وقع بين أهله، وقُتل بينهم قتلى، فصبروا؛ وكان سبب هذا الاختلاف أنّهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين، ادّعى كلّ طائفة منهم أنّ النُصْرة من جهتهم كانت، وأنّهم هم الذين ردّوا الفرنج خاسرين، فعظُم الخصام بينهم إلى أن قُتل من إحدى الطائفتين قتيل، واشتدّ الخطْب حينئذٍ، وتفاقم الشرّ، ووقعت الحرب بينهم، فقُتل بينهم قتلى، فطمع الفرنج، وزحفوا إليه وقاتلوا عليه، فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه[2].

ذكر حصر عسكر الخليفة تكْريت وعَودهم عنها

في هذه السنة سيّر الخليفة المقتفي لأمر اللّه عسكراً إلى تَكْريتَ ليحصروها،

---

(١) في الأوربية: «وإذا».

(٢) أنظر عن أخذ عسقلان في: ذيل تاريخ دمشق ٣٢١، ٣٢٢، والإعتبار ١٦، ١٧، والروضتين ١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥، وتاريخ مختصر الدول ٢٠٨، وتاريخ الزمان ١٦٩، ومفرّج الكروب ١/ ١٢٦ (حوادث ٥٤٧ هـ.)، وزبدة الحلب ٢/ ٣٠٣، والأعلاق الخطيرة ٢/ ٢٦١، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢١٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٧، والدرة المضية ٥٤٨، ٥٤٩ و٥٦٢، ٥٦٣، ودول الإسلام ٢/ ٦٣، وتاريخ الإسلام (٥٤٨ هـ.) ص ٤٣، ٤٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٤، والإعلام والتبيين ٢٧، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٣١، ومرآة الجنان ٣/ ٢٨٦، واتعاظ الحنفا ٢/ ٢٠٦ و٢٠٩، وقطف الأزهار من الخطط والآثار لأبي السرور (مخطوط المكتبة الأهلية بباريس ٢١٧٦٥ ورقة ٣ أ، وتاريخ ابن سباط ١/ ٩٨.

وأرسل معهم مقدّماً عليهم أبا البدر ابن الوزير عَون الدين بن هُبَيرة، وتُرشَك، وهو من خواصّ الخليفة، وغيرهما، فجرى بين أبي البدر وتُرشك منافرة أوجبت أنْ كتب ابن الوزير يشكو من تُرشك، فأمر الخليفة بالقبض على تُرشك، فعرف ذلك، فأرسل إلى مسعود بلال، صاحب تَكريت، وصالحه وقبض على ابن الوزير ومَن معه من المتقدّمين، وسلّمهم إلى مسعود بلال، [فانهزم العسكر وغرق منه كثير، وسار مسعود بلال][1] وتُرشك من تكْرِيت إلى طريق خُراسان فنهبا وأفسدا، فسار المقتفي عن بغداد لدفعهما، فهربا من بين يديه، فقصد تكريت، فحصرها أيّاماً وجرى له مع أهلها حروبٌ من وراء السور، فقُتل من العسكر جماعةٌ بالنُّشّاب، فعاد الخليفة عنها، ولم يملكها[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وصلت مراكب من صَقَلّية، فيها جمْعٌ من الفرنج، فنهبوا مدينة تِنّيسَ بالديار المصريّة[3].

وفيها كان بين الكُرج بأرمينية وبين صليق، صاحب أرْزَن الروم، مصافّ وحربٌ شديدة، وانهزم[4] صليق وأسره الكُرج ثمّ أطلقوه.

[الوفيات]

وفيها توفّي أبو العبّاس أحمد بن أبي غالب الورّاق المعروف بابن الطّلاّية[5] الزاهد البغداديّ بها، وكان من الصالحين، وله حديث ورواية.

---

(١) ما بين الحاصرتين من الباريسية والنسخة (٧٤٠).

(٢) أنظر عن حصار تكريت في: المنتظم ١٠/١٥٦ (١٨/٩٥)، وتاريخ الزمان ١٧٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/٢٩، ودول الإسلام ٢/٦٤،٦٥، والعبر ٤/١٣٤،١٣٥، وعيون التواريخ ١٢/٤٨٧، ومرآة الجنان ٣/٢٩٢، وتاريخ الإسلام (٥٤٩ هـ.) ص ٤٦، وتاريخ ابن سباط ١/١٠٠ (حوادث ٥٤٩ هـ.).

(٣) ذيل تاريخ دمشق ٣٣١، الروضتين ١/٢٤٩، المختصر في أخبار البشر ٣/٢٧، الدرة المضية ٥٦٣، تاريخ ابن الوردي ٢/٥٤، عيون التواريخ ١٢/ ٤٨٠، تاريخ ابن سباط ١/٩٩.

(٤) في (أ): «فانهزم».

(٥) أنظر عن (ابن الطلاّية) في: تاريخ الإسلام (٥٤٨ هـ.) ص ٢٩٤ـ٢٩٦ رقم ٤١٦ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

وتوفّي عبد الملك بن عبد اللّه بن أبي سهل أبو الفتح بن أبي القاسم الكَرُوخيّ[1] الهَرَويّ، راوي «جامع التِّرْمِذيّ»، ومولده سنة اثنتين وستّين وأربعمائة، وتوفّي ببغداد في ذي الحجّة.

---

(١) أنظر عن (الكرُوخي) في: تاريخ الإسلام (٥٤٨ هـ.) ص ٣١٣ ـ ٣١٥ رقم ٤٤٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٥٤٩)
ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

ذكر قتل الظافر وخلافة ابنه الفائز

في هذه السنة، في المحرّم، قُتل الظافر بالله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلويّ، صاحب مصر.

وكان سبب [قتله] أنّ وزيره عبّاساً كان له ولدٌ اسمه نصر، فأحبّه الظافر، وجعله من نُدمائه وأحبابه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة، فاتّفق أنّ قدِم من الشام مؤيّد الدولة الأمير أُسامة بن مُنقذ الكِنانيّ في وزارة ابن السلاّر، واتّصل بعبّاس، فحسَّن له قتل العادل بن السلاّر زوج أُمّه، فقتله، وولاّه الظافر الوزارة، فاستبدّ بالأمر، وتمّ له ذلك.

وعلم الأمراء والأجناد أنّ ذلك من فعل ابن مُنقذ، فعزموا على قتله، فخلا بعبّاس وقال له: كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول؟ قال: وما ذلك؟ قال: النّاس يزعمون أنّ الظافر يفعل بابنك نصر؛ (وكان)[1] نصر خِصّيصاً بالظافر، وكان ملازِماً له ليله ونهاره، وكان من أجمل النّاس صورة، وكان الظافر يُتّهم به، فانزعج لذلك وعظُم عليه، وقال: كيف الحيلة؟ قال: تقتله فيذهب عنك العار؛ فذكر الحال لولده نصر، فاتّفقا على قتله.

وقيل إنّ الظافر أقطع نصر بن عبّاس قرية قَلْيوب، وهي من أعظم قرى مصر، فدخل إليه مؤيّد الدولة بن مُنقذ، وهو عند أبيه عبّاس. قال له نصر: قد أقطعني مولانا قرية قليوب. فقال له مؤيّد الدولة: ما هي في مَهرك بكثير؛ فعظُم عليه وعلى أبيه، وأنِف من هذه الحال، وشرع في قتل الظافر بأمر أبيه، فحضر نصر عند الظافر وقال

---

(١) في الأصل: «يه»، والمثبت من (أ).

له: أشتهي أن تجيء إلى داري لدعوةٍ صنعتُها، ولا تُكثر من الجَمْع، فمشى معه في نفرٍ يسير من الخَدَم ليلاً، فلمّا دخل الدار قتلَه وقتل مَن معه، وأفلت خادم صغير اختبأ فلم يروه، ودفن القتلى في داره.

وأخبر أخاه عبّاساً الخبر، فبكّر إلى القصر، وطلب من الخدم الخِصّيصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إذْناً في الدخول عليه لأمرٍ يريد أن يأخذ رأيه فيه. فقالوا: إنّه ليس في القصر. فقال: لا بُدّ منه. وكان غرضه أن ينفي التهمة عنه بقتله، وأن يقتل مَن بالقصر ممّن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه في الخلافة؛ فلمّا ألحّ عليهم عجزوا عن إحضاره.

فبينما هم يطلبونه حائرين دهِشين لا يدرون ما الخبر إذ وصل إليهم الخادم الصغير الذي شاهد قتله، وقد هرب من دار عبّاس عند غفلتهم عنه، وأخبرهم بقتل الظافر، فخرجوا إلى عبّاس، وقالوا له: سل ولدك عنه فإنّه يعرف أين هو، لأنّهما خرجا جميعاً. فلمّا سمع ذلك منهم قال: أريد أن أعتبر القصر لئلاّ يكون قد اغتاله أحدٌ من أهله؛ فاستعرض القصر، فقتل أخوَين للظافر، وهما يوسف وجبِريل، وأجلس الفائز بنصر اللّه أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر اللّه إسماعيل ثاني يوم قُتل أبوه، وله من العمر خمس سنين، فحمله عبّاس على كتفه، وأجلسه على سرير المُلْك، وبايع له النّاس، وأخذ عبّاس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد، ولم يترك فيه إلاّ ما لا خير فيه[١].

ذكر وزارة الصالح طلائع بن رُزّيك

كان السبب في وزارة الصالح طلائع بن رُزّيك أنّ عبّاساً، لما قتل الظافر وأقام الفائز، ظنّ أنّ الأمر يتمّ له على ما يريده، فكان الحال خلاف ما اعتقده، فإنّ الكلمة اختلفت عليه، وثار به الجُند والسودان، وصار إذا أمر بالأمر لا يُلتفت إليه ولا يُسمع قوله، فأرسل مَن بالقصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رُزّيك يستغيثون به، وأرسلوا شعورهم طيَّ الكتب؛ وكان في مُنية بني خَصِيب والياً عليها وعلى أعمالها،

---

(١) أنظر عن (الظافر بالله) في: تاريخ الإسلام (٥٤٩ هـ.) ص ٣٥٦، ٣٥٧ رقم ٤٩٧ وفيه حشدت مصادر ترجمته. وكذا في: تاريخ ابن سباط ١/ ١٠٠.

وليست من الأعمال الجليلة، وإنّما كانت أقرب الأعمال إليهم، وكان فيه شهامة، فجمع ليقصد عبّاساً، وسار إليه، فلمّا سمع عبّاس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الأموال التي لا تُحصى كثرة، والتُحف والأشياء التي لا توجد إلاّ هناك ممّا كان أخذه من القصر. فلمّا سار وقع به الفرنج فقتلوه، وأخذوا جميع ما معه فتقوّوا به.

وسار الصالح فدخل القاهرة بأعلامٍ سود وثيابٍ سود حزناً على الظافر، والشعور التي أُرسلت إليه من القصر على رؤوس الرماح، وكان هذا من الفأل العجيب، فإنّ الأعلام السود العبّاسيّة دخلتها وأزالت الأعلام العلويّة بعد خمس عشرة سنة.

ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلع الوزارة، واستقرّ في الأمر، وأحضر الخادم الذي شاهد قتل الظافر، فأراه موضع دفنه، فأخرجه ونقله إلى مقابرهم بالقصر.

ولما قتل الفرنج عبّاساً أسروا ابنه، فأرسل الصالح إلى الفرنج وبذل لهم مالاً وأخذه منهم، فسار من الشام مع أصحاب الصالح، فلم يكلّم أحداً منهم كلمة إلى أن رأى القاهرة فأنشد:

بلَـى نحـنُ كُنّـا أهلَهـا، فـأبـادَنَـا صُرُوفُ اللّيالي وَالجدودُ العَواثرُ[1]

وأُدخل القصر، فكان آخر العهد به، فإنّه قُتل، وصُلب على باب زَويلة، واستقصى الصالح بيوت الكبار والأعيان بالديار المصريّة فأهلك أهلها وأبعدهم عن ديارهم، وأخذ أموالهم، فمنهم مَن هلك، ومنهم مَن تفرّق في بلاد الحجاز واليمن وغيرهما؛ فعل ذلك خوفاً منهم أن يثوروا عليه وينازعوه في الوزارة؛ وكان ابن مُنقذ قد هرب مع عبّاس، فلمّا قُتل هرب إلى الشام[2].

---

(١) إتعاظ الحنفا ٣/ ٢٢٠.

(٢) أخبار مصر لابن ميسّر ٢/ ٩٤، نزهة المقلتين ٧٠ ـ ٧٣، أخبار الدول المنقطعة ١٠٨، ١٠٩، نهاية الأرب ٢٦/ ٩٥، ذيل تاريخ دمشق ٣٢٠، وفيات الأعيان ٢/ ٥٢٦ ـ ٥٢٩، النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة لابن سعيد ٩١، الدرة المضية ٥٦٧، تاريخ ابن الفرات ٣/ورقة ٨١ أ، ب، إتعاظ الحنفا ٣/ ٢١٥ ـ ٢٢٢، المواعظ والاعتبار ١/ ٣٥٧ و٢/ ٣٠، ٥٦، النجوم الزاهرة ٥/ ٢٩٧، بدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٢٩.

ذكر حصر تكرِيت ووقعة بِكَمْزَا[1]

في هذه السنة أرسل الخليفة المقتفي لأمر اللّه رسولاً إلى والي تكريت، بسبب مَن عندهم من المأسورين، وهم ابن الوزير وغيره، فقبضوا على الرسول، فسيرّ الخليفة عسكراً إليهم، فخرج أهل تكريت، فقاتلو العسكر ومنعوه من الدخول إلى البلد؛ فسار الخليفة بنفسه مستهلّ صفر فنزل على البلد، فهرب أهله، فدخل العسكر فشعثّوا ونهبوا بعضه، ونصب على القلعة ثلاثة عشر منجنيقاً، فسقط من أسوارها برج، وبقي الحصر كذلك إلى الخامس والعشرين[2] من ربيع الأوّل.

وأمر الخليفة بالقتال والزحف، فاشتدّ القتال، وكثُر القتلى، ولم يبلغ منها غرضاً، فرحل عائداً إلى بغداد، فدخلها آخر الشهر، ثمّ أمر الوزير عون الدين بن هُبَيرة بالعَود إلى محاصرتها، والاستعداد، والاستكثار من الآلات للحصار، فسار إليها سابع ربيع الآخر، ونازلها وضيّق عليها، فوصل الخبر بأنّ مسعود بلال وصل إلى شَهرابان ومعه البَقش كُون خرَ[3] وتُرشك في عسكر كثير، ونهبوا البلاد، فعاد الوزير إلى بغداد.

وكان سبب وصول هذا العسكر أنّهم حثّوا الملك محمّداً ابن السلطان محمود على قصد العراق، فلم يتهيّأ له ذلك، فسيّر هذا العسكر، وانضاف إليهم خلق كثير من التركمان، فخرج الخليفة إليهم، فأرسل مسعود بلال إلى تَكريت، وأخرج منها الملك أرسلان ابن السلطان طُغرُل بن محمّد، وكان محبوساً بتَكريت، وقال: هذا السلطان نقاتل بين يديه بإزاء الخليفة.

والتقى العسكران عند بِكَمْزا بالقرب من بَعقُوبا[4]، ودام بينهم المناوشة والمحاربة ثمانية عشر يوماً، ثمّ إنّهم التقوا آخر رجب فاقتتلوا، فانهزمت ميمنة عسكر الخليفة وبعض القلب، حتى بلغت الهزيمة بغداد، ونُهبت خزائنه، وقُتل خازنُه، فحمل الخليفة بنفسه هو ووليّ عهده وصاح: يا آل هاشم! كذب الشيطان؛ وقرأ ﴿وَرَدَّ اللَّهُ

---

(١) في الباريسية والنسخة (٧٤٠) «تكمرا».

(٢) في الأوربية: «وعشرين».

(٣) في نسخة: «خز».

(٤) في الأوربية: «يعقوبا».

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾[1] وحمل باقي العسكر معه فانهزم مسعود والبَقش وجميع مَن معهم، وتمّت الهزيمة، وظفر الخليفة بهم، وغنم عسكره جميع مال التركمان من دوابّ وغنم وغير ذلك، فبيع كلّ كبش بدانق؛ وكانوا قد حضروا بنسائهم وأولادهم وخركاهاتهم وجميع مالهم، فأُخذ جميعه، ونودي: مَن أخذ من أولاد التركمان ونسائهم شيئاً فليردّه؛ فردّوه، فأخذ البقش كُون خَر الملك أرسلان، وانهزم إلى بلد اللّحف وقلعة الماهكي.

وفي هذه الحرب غدر بنو عوف من عسكر الخليفة، ولحقوا بالعجم، ومضى هندي الكرديّ أيضاً معهم. وكان الملك محمّد قد أرسل عسكراً مع خاصّ بك بن آقْسنقر نجدةً لكون خرَ، فلمّا وصلوا إلى الراذان بلغهم خبر الهزيمة فعادوا[2]، ورجع الخليفة إلى بغداد فدخلها أوائل شعبان، فوصله الخبر أنّ مسعود بلال وتُرشك قصدا مدينة واسط فنهبا وخرّبا[3] فسيّر الخليفة الوزير ابن هُبَيرة في عسكر خامس عشر شعبان، فانهزم العجم، فلقيهم عسكر الخليفة، ونهب منهم شيئاً كثيراً، وعادوا إلى بغداد، فلقّب الوزيرُ سلطان العراق ملك الجيوش.

وسيّر الخليفة عسكراً إلى بلد اللّحف فأخذه وصار في جملته، وأمّا الملك ألْبُ أرسلان بن طُغْرُل فإنّ البَقش أخذه معه إلى بلده، فأرسل إليه الملك محمّد يقول له ليحضر عنده وأرسلان معه، فمات البقش كون خرَ في رمضان في هذه السنة، وبقي أرسلان مع ابن البقش، وحسن الجاندار، فحملاه [إلى] الجبل، فخاف الملك محمّد أن يصل أرسلان إلى زوج أمّه إيلدكز فيجعله ذريعة إلى قصد البلاد، فلم ينفعه حذره، واتّصل أرسلان بإيلدكز زوج أمّه فصار معه، وهو أخو البهلوان بن إيلدكز لأمّه، وطُغرُل الذي قتله خُوارزم شاه ولد[4] أرسلان بهذا، وكان طُغْرُل آخر السلجوقيّة[5].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية ٢٥.

(٢) في الأوربية: «فعاد».

(٣) في الأوربية: «فنهبوا وخربوا».

(٤) في الباريسية ونسخة (٧٤٠): «وكذا».

(٥) أنظر خبر تكريت في: المنتظم ١٠/١٥٦ (١٨/٩٥)، تاريخ الزمان ١٧٠، المختصر لأبي الفداء ٣/٢٩، دول الإسلام ٢/٦٤، تاريخ الإسلام (٥٤٩ هـ.) ص ٤٦، العبر ٤/١٣٤، ١٣٥، تاريخ ابن الوردي ٢/٥٥، عيون التواريخ ١٢/٤٨٧، مرآة الجنان ٣/٢٩٢، تاريخ ابن سباط ١/١٠٠.

ذكر مُلك نور الدين محمود مدينة دمشق

في هذه السنة، في صفر، ملك نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر مدينة دمشق، وأخذها من صاحبها مُجير الدين أبق بن محمّد بن بُوري بن طُغدَكِين أتابك.

وكان سبب جِدّه في ملْكها أن الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان، فلمّا ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق، حتى إنّهم استعرضوا كل مَن بها من مملوك وجارية من النصارى، فمَن أراد المقام بها تركوه، ومَن أراد العَود إلى وطنه أخذوه قهراً شاء صاحبه أم أبَى.

وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة يأخذونها منهم، فكان رُسُلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم، فلمّا رأى نور الدين ذلك خاف أن يملكها الفرنج، فلا يبقى حينئذٍ للمسلمين بالشام مُقام، فأعمل الحيلة في أخذها حيث علم أنّها لا تُملك قوةً، لأنّ صاحبها متى رأى غلبه راسل الفرنج واستعان بهم، فأعانوه لئلاّ يملكها مَن يقوى بها على قتالهم، فراسل مجيرَ الدين صاحبها واستماله، وواصله بالهدايا، وأظهر له المودّة حتى وثق به[1]، فكان نور الدين يقول له في بعض الأوقات: إنّ فلاناً قد كاتبني في تسليم دمشق؛ يعني[2] بعض أمراء مجير الدين؛ فكان يبعد الذي قيل عنه، ويأخذ أقطاعه، فلمّا لم يبقَ عنده من الأمراء أحدٌ قدّم أميراً يقال له عطا بن حفّاظ السلميّ الخادم، وكان شهماً شجاعاً، وفوّض إليه أمر دولته، فكان نور الدين لا يتمكّن معه من أخْذ دمشق، فقبض عليه مُجير الدين وقتله، فسار نور الدين حينئذٍ إلى دمشق، وكان قد كاتب مَن بها من الأحداث واستمالهم، فوعدوه بالتسليم إليه، فلمّا حصر نور الدين البلد أرسل مجير الدين إلى الفرنج يبذل لهم الأموال، وتسليم قلعة بعلبكّ إليهم لينجدوه، ويرحّلوا نور الدين عنه، فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليرحّلوا نور الدين عن البلد، فإلى أن اجتمع لهم ما يريدون تسلّم نور الدين البلد، فعادوا بخُفّي حُنين.

---

(١) في الأوربية: «إليه».

(٢) في الأوربية: «يعين».

وأمّا كيفيّة تسليم دمشق فإنّه لما حصرها ثار الأحداث الذين راسلهم، فسلّموا إليه البلد من الباب الشرقيّ وملكه، وحصر مجير الدين في القلعة، وراسله في تسليمها، وبذل له إقطاعاً من جملته مدينة حمص، فسلّمها إليه وسار إلى حمص، ثمّ إنّه راسل أهل دمشق ليسلّموا إليه، فعلم نور الدين ذلك فخافه، فأخذ منه حمص، وأعطاه عِوَضاً عنها بَالِسَ، فلم يرضها، وسار منها إلى العراق، وأقام ببغداد، وابتنى بها داراً بالقرب من النظاميّة، وتوفّي بها[1].

ذكر قصد الإسماعيليّة خُراسان والظفر بهم

في هذه السنة، في ربيع الآخر، اجتمع جمع كثير من الإسماعيليّة من قُهِستان، بلغت عِدّتهم سبعة آلاف رجل ما بين فارس وراجل، وساروا يريدون خُراسان لاشتغال عساكرها بالغُزّ، وقصدوا أعمال خَوَافَ وما يجاورها، فلقِيهم الأمير فَرْخشاه بن محمود الكاسانيّ[2] في جماعة من حَشَمه وأصحابه، فعلم أنّه لا طاقة له بهم، فتركهم وسار عنهم، وأرسل إلى الأمير محمّد بن أُنُر، وهو من أكابر أمراء خُراسان وأشجعهم، يعرّفه الحال، وطلب منه المسير إليهم بعسكره ومَن قدر عليه من الأمراء ليجتمعوا عليهم ويقاتلوهم.

فسار محمّد بن أُنُر في جماعةٍ من الأمراء وكثير من العسكر، واجتمعوا هم وفرخشاه، وواقعوا الإسماعيليّة وقاتلوهم، وطالت الحرب بينهم، ثمّ نصر اللّه المسلمين وانهزم الإسماعيليّة، وكثُر القتل فيهم، وأخذهم السيف من كلّ مكان، وهلك أعيانهم وساداتهم: بعضهم قُتل، وبعضهم أُسر، ولم يسلم منهم إلاّ القليل الشريد، وخلت قلاعهم وحصونهم من حامٍ ومانع، فلولا اشتغال العساكر بالغُزّ لكانوا

---

(١) أنظر عن أخذ دمشق في: ذيل تاريخ دمشق ٣٢٧ ـ٣٢٩، والتاريخ الباهر ١٠٦ ـ١٠٨، وزبدة الحلب ٢/ ٣٠٤،٣٠٥، والأعلاق الخطيرة ٢/ ٤٧، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٢٠،٢٢١، ومفرّج الكروب ١/ ٣٠٤، والدرة المضية ٥٦١، وتاريخ مختصر الدول ٢٠٨، والمختصر لأبي الفداء ٣/ ٢٩، ونهاية الأرب ٢٧/ ١٦٠،١٦١، والعبر ٤/ ١٣٥،١٣٦، ودول الإسلام ٢/ ٦٥، وتاريخ الإسلام (٥٤٩ هـ.) ص ٤٩،٥٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٥، ومرآة الجنان ٣/ ٢٩٥، والبداية والنهاية ١/ ٢٣١،٢٣٢، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٤١،٢٤٢، والكواكب الدرية ١٤٤ ـ١٤٦، واتعاظ الحنفا ٢/ ٢١٠، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٠٠،١٠١.

(٢) في الباريسية: (٧٤٠): «الكلشاني»، وفي نسخة: «أركاساس».

ملكوها بغير تعب ولا مشقّة، وأراحوا المسلمين منهم، ولكنْ للّه أمرٌ هو بالغه[1].

ذكر مُلك نور الدين تَلّ باشِر

في هذه السنة، أو التي بعدها، ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة تَلّ باشِر، وهي شماليّ حلب من أمنع القلاع.

وسبب ملكها أنّ الفرنج لما رأوا مُلك نور الدين دمشق خافوه، وعلِموا أنّه يقوى عليهم، ولا يقدرون على الانتصاف منه، لما كانوا يرون منه قبل مُلكها، فراسله مَن بهذه القلعة من الفرنج، وبذلوا له تسليمها، فسيّر إليهم الأمير حسّان المَنبِجيّ، وهو من أكابر أمرائه، وكان إقطاعه ذلك الوقت مدينة مَنبج، وهي تقارب تلّ باشِر، وأمره أن يسير إليها ويتسلّمها، فسار إليها وتسلّمها منهم، وحصّنها ورفع إليها من الذخائر ما يكفيها سنين كثيرة[2].

ذكر عدّة حوادث

[الوفيات]

في هذه السنة مات أستاذ الدّار أبو الفتوح[3] عبد اللّه بن هبة اللّه بن المظفّر ابن رئيس الرؤساء، وكان له صدقات، ومعروف كثير، ومجالسة للفقراء. ولما مات ولّى الخليفة ابنه الأكبر عضد الدين أبا الفرج محمّد بن عبد اللّه ما كان إلى أبيه.

وتوفّي عبد الرحمن بن عبد الصمد بن أحمد بن عليّ أبو القاسم الأكّاف[4] النّيسابوري، كان زاهداً، عابداً، فقيهاً، مناظراً، وكان السلطان سَنجَر يزوره ويتبرّك بدعائه، وكان ربّما حَجَبَه فلا يمكنه من الدخول إليه.

---

(١) تاريخ الإسلام (٥٤٩ هـ.) ص ١٥٠ دول الإسلام ٢/ ٦٦، ٦٧ (حوادث ٥٥٠ هـ.).

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٦، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٤٢، تاريخ ابن سباط ١/ ١٠١.

(٣) أنظر عن (أبي الفتوح) في: المنتظم ١٠/ ١٥٩ رقم ٢٤٣ (١٨/ ٩٩ رقم ٤١٩٢) وتاريخ الإسلام (٥٤٩ هـ.) ص ٣٦٣، ٣٦٤، رقم ٥١٣.

(٤) أنظر عن (الأكاف) في: تاريخ الإسلام (٥٤٩ هـ.) ص ٣٦٥، ٣٦٦، رقم ٥١٨ وفيه مصادر ترجمته.

وفيها توفّي ثقة الدولة أبو الحسن عليُّ بن محمّد الدّرَيْنيّ[1]، وكان يخدم أبا نصر أحمد بن الفرج الأبَريّ، فربّاه حتى قيل: «ابن الأبَري»، وزوّجه ابنته شهْدة الكاتبة، فقرّبه المقتفي لأمر اللّه، ووكّله فبنى مدرسة بباب الأزَج.

(١) في طبعة صادر ١١/ ٢٠٠ «الدويني» بالواو، وهو غلط، والتصحيح من مصادر ترجمته التي ذكرتها في: تاريخ الإسلام (٥٤٩ هـ.) ص ٣٦٩، ٣٧٠ رقم ٥٢٧.

(٥٥٠)
ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

[ذكر عدّة حوادث]

في هذه السنة سار الخليفة المقتفي لأمر اللّه إلى دَقُوقا فحصرها، وقاتل مَن بها، ثمّ رحل عنها لأنّه بلغه أنّ عسكر الموصل قد تجهّزوا للمسير لمنعه عنها، فرحل ولم يبلغ غرضاً[١].

وفيها استولى شَمْلَةُ التّركمانيُّ على خُوزستان، وكان قد جمع جمعاً كثيراً من التركمان، وسار يريد خُوزستان، وصاحبه حينئذٍ ملكشاه بن محمّد، فسيّر الخليفة إليه عسكراً، فلقيهم شملة في رجب، وقاتلهم، فانهزم عسكر الخليفة، وأُسر وجوههم، ثمّ أحسن إليهم وأطلقهم، وأرسل يعتذر، فقبل عُذره، وسار إلى خُوزستان فملكها، وأزاح عنها ملكشاه ابن السلطان محمود[٢].

وفيها سار الغُزّ إلى نيسابور، فملكوها بالسيف، فدخلوها وقتلوا[٣] (محمّد بن يحيَى الفقيه الشافعيّ و)[٤]نحواً من ثلاثين ألفاً، وكان السلطان سَنجَر له اسم السلطنة، وهو معتقَل لا يُلتفت إليه، حتى إنّه أراد كثيراً من الأيّام أن يركب، فلم يكن له مَن يحمل سلاحه، فشدّه على وسطه وركب.

وكان إذا قُدّم إليه طعام يدّخر منه ما يأكله وقتاً آخر، خوفاً من انقطاعه عنه، لتقصيرهم في واجبه، ولأنّهم ليس هذا ممّا يعرفونه[٥].

---

(١) المنتظم ١٠/ ١٦١ (١٨/ ١٠١)، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٩، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٢٤.

(٢) المنتظم ١٠/ ١٦١ (١٨/ ١٠١، ١٠٢).

(٣) في (ب): «وقتلوا فيها وفيمن قتلوا».

(٤) ما بين القوسين من (أ).

(٥) المنتظم ١٠/ ١٦١ (١٨/ ١٠١)، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٢٤، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٠٩، =

وفيها وثب قسوس الأرمن بمدينة آني فأخذوها من الأمير شدّاد، وسلّموها إلى أخيه فَضلون.

وفيها، في ذي الحجّة، قتل الأتراك القارغليّة طُمغاج خان بن محمد بما وراء النهر، وألقوه في الصحراء، ونسبوه إلى أشياء قبيحة؛ وكان مُدّة ملكه مستضعفاً غير مهيب.

[الوفيات]

وفيها توفّي أبو الفضل محمد بن ناصر[1] بن عليّ البغداديّ الحافظ الأديب وكان مشهوراً بالفضل، وكان شافعيّاً، وصار حَنْبليّاً مُغالياً، ومولده سنة سبع وستّين وأربعمائة في شعبان، وكان موته أيضاً في شعبان.

وفيها كان بالعراق وما جاوره من البلاد زلزلة كبيرة في ذي الحجّة[2].

وفيها[3] توفّي يحيَى الغسّانيّ النحويّ الموصليّ، وكان فاضلاً خيّراً.

وتاج الدين أبو طاهر يحيَى بن عبد اللّه بن القاسم الشّهْرَزُوريّ، قاضي جزيرة ابن عُمَر[4].

= تاريخ الإسلام (٥٥٠ هـ.) ص ٥١، تاريخ ابن الوردي ٢/٥٦، عيون التواريخ ١٢/٤٦٥، ٤٦٦، تاريخ ابن سباط ١/١٠٢.

(١) أنظر عن (محمد بن ناصر) في: تاريخ الإسلام (٥٥٠ هـ.) ص ٤٠٤ ـ ٤١١ رقم ٥٩٨ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) كشف الصلصلة ١٨٥.

(٣) من هنا إلى نهاية الفقرة في (أ).

(٤) في (ب) زيادة: «وكان إماماً فاضلاً، وكانت وفاته بالموصل».

(٥٥١)
ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

ذكر عصيان الجزائر وإفريقية على ملك الفرنج بصِقلّية وما كان منهم

قد ذكرنا سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة موت رجّار ملك صَقَلّية ومُلك ولده غُليالم، وأنّه كان فاسد التّدبير، فخرج من حكمه عدّة من حصون صَقلّية.

فلمّا كان هذه السّنة قوي طمع النّاس فيه، فخرج عن طاعته جزيرة جَرْبَة وجزيرة قَرْقَنَة[١]، وأظهروا الخلاف عليه، وخالف عليه (أهل)[٢] إفريقية، فأوّل مَن أظهر الخلاف عليه عمر بن أبي الحسين الفُرّيانيّ[٣] بمدينة سَفَاقُس، وكان رُجّار قد استعمل عليها، لما فتحها، أباه أبا الحسن، وكان من العلماء الصالحين، فأظهر العجز والضعف وقال: استعمل ولدي؛ فاستعمله، وأخذ أباه رهينة إلى صَقلّية.

فلمّا أراد المسير إليها قال لولده عمر: إنّني كبير السنّ، وقد قارب أَجَلي، فمتى أمكنتْك الفرصةُ في الخلاف على العدوّ فافعل، ولا تراقبهم، ولا تنظر في أنّني أُقتل واحسب أنّي[٤] قد مُتّ؛ فلمّا وجد هذه الفرصة دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال: يطلع[٥] جماعة منكم إلى السور، وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنّصارى جميعهم، ويقتلونهم كلّهم. فقالوا له: إنّ سيّدنا الشيخ والدك نخاف عليه. قال: هو أمرني بهذا، وإذا قُتل بالشيخ ألوف من الأعداء فما مات؛ فلم تطلع الشمس حتّى قتلوا

---

(١) في نسخة (ب): «قرقنه».
(٢) ساقطة من: المكتبة العربية الصقلية ٣٠١.
(٣) في نسخة (أ): «الحسن العرباني»، وفي تاريخ ابن خلدون ٦/١٦٩ «حمد بن أبي الحسن القرباني».
(٤) في المكتبة الصقلية ٣٠١ «أنني».
(٥) في المكتبة الصقلية ٣٠١ «تطلع».

الفرنج عن آخرهم، وكان ذلك أوّل سنة إحدى وخمسين وخمسمائة.

ثمّ اتّبعه أبو محمد[1] بن مطروح بطرابلس وبعدهما محمّد بن رشيد بقابس، وسار عسكر عبد المؤمن إلى بُونَة فملكها وخرج جميع إفريقية عن حكم الفرنج ما عدا المهديّة وسُوسَة.

وأرسل عمر بن [أبي] الحسين[2] إلى زَوِيلَةَ، وهي مدينة بينها وبين المَهديّة نحو مَيدان[3]، يحرّضهم على الوثوب على من معهم فيها من النّصارى، ففعلوا ذلك، وقدِم عرب البلاد إلى زَوِيلَةَ، فأعانوا أهلها على مَن بالمهديّة من الفرنج، وقطعوا الميرة عن المهديّة.

فلمّا اتّصل الخبر بغُليالم ملك صَقلّية أحضر أبا الحسين وعرّفه ما عمل ابنه، فأمره أن يكتب إليه ينهاه عن[4] ذلك، ويأمره بالعَود إلى طاعته، ويخوّفه عاقبة فِعله، فقال: مَن أقدم[5] على هذا لا يرجع بكتاب؛ فأرسل ملك صُقلّية إليه رسولاً يتهدّده، ويأمره بترك ما ارتكبه، فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك، فلمّا كان الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة، والرسول يشاهدهم، فدفنوها وعادوا، وأرسل عمر إلى الرسول يقول له: هذا أبي قد دفنتُه، وقد جلستُ للعزاء به، فاصنعوا به ما أردتم.

فعاد الرسول إلى غُليالم فأخبره بما صنع عمر بن أبي الحسين[6]، فأخذ أباه وصلبه، فلم يزل يذكر اللّه تعالى حتى مات[7].

وأمّا أهل زَوِيلَةَ فإنّهم كثُر جمعهم بالعرب وأهل سَفَاقُس وغيرهم، فحصروا المهديّة وضيّقوا عليها، وكانت الأقوات بالمهديّة قليلة، فسيّر إليهم صاحب صَقلّية عشرين شينيّاً فيها الرجال والطعام والسلاح، فدخلوا البلد، وأرسلوا إلى العرب وبذلوا

---

(١) في المكتبة الصقلية ٣٠١، «أبو يحيى»، والمثبت يتفق مع ابن خلدون.
(٢) في (أ): «أبي الحسن»، وكذا في المكتبة الصقلية.
(٣) في الصقلية: «نحو ميلان».
(٤) في الأوربية: «من».
(٥) في طبعة صادر ١١/٢٠٤ «قدم»، والتصحيح من المكتبة الصقلية ٣٠٢.
(٦) في المكتبة الصقلية ٣٠٢ «عمر بن الحسين».
(٧) الخبر باختصار شديد في: تاريخ ابن خلدون ٦/١٦٩.

لهم مالاً لينهزموا، وخرجوا من الغد، فاقتتلوا هم وأهل زَوِيلة، فانهزمت العرب، وبقي أهل زويلة وأهل سَفاقُس يقاتلون الفرنج بظاهر البلد، وأحاط بهم الفرنج، فانهزم أهل سَفاقُس وركبوا في البحر فنجوا، وبقي أهل[1] زويلة، فحمل عليهم الفرنج[2] فانهزموا إلى زويلة، فوجدوا[3] أبوابها مغلقة، فقاتلوا تحت السور، وصبروا حتى قُتل أكثرهم ولم ينجُ إلاّ[4] القليل فتفرّقوا، ومضى بعضهم إلى عبد المؤمن.

فلمّا قُتلوا هرب مَن بها من الحُرَم والصبيان والشيوخ في البرّ[5]، ولم يعرّجوا على شيء من أموالهم، ودخل الفرنج زَويلة فقتلوا مَن وجدوا فيها من النساء والأطفال، ونهبوا الأموال، واستقرّ الفرنج بالمهديّة إلى أن أخذها منهم عبد المؤمن على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل

في هذه السنة قبض زين الدين عليّ كُوجُك نائب قُطب الدين مودود بن زنكي بن أقْسُنقر، صاحب الموصل، على الملك سليمان شاه ابن السلطان محمّد بن ملكشاه، وكان سليمان شاه عند عمّه السلطان سنجر قديماً، وقد جعله وليّ عهده، وخطب له في منابر خُراسان، فلمّا جرى لسَنجر مع الغُزّ ما ذكرناه، وتقدّم على عسكر خُراسان، وضعفوا على الغُزّ، مضى إلى خُوارزم شاه فزوّجه ابنة أخيه أقسيس، ثمّ بلغه عنه ما كرهه فأبعده، فجاء إلى أصفهان فمنعه شِحنتُها من الدخول، فمضى إلى قاشان، فسيّر إليه محمّد شاه ابن أخيه محمود بن محمد عسكراً أبعدوه عنها، فسار إلى خُوزستان، فمنعه ملكشاه عنها، فقصد اللّحف ونزل البَنْدَنيجين، وأرسل رسولاً إلى الخليفة المقتفي يُعلمه بوصوله، وتردّدت الرسل بينهما، إلى أن استقرّ الأمر على أن يرسل زوجته تكون رهينة، فأرسلها إلى بغداد ومعها كثير من الجواري والأتباع، وقال: قد أرسلتُ هؤلاء رهائن، فإن أذِن أمير المؤمنين في دخول بغداد فعلت وإلاّ رجعتُ.

---

(١) في المكتبة الصقلية ٣٠٢ «وبقي من أهل».

(٢) في (أ): زيادة: «السور».

(٣) في الصقلية: «فرأوا».

(٤) في الصقلية ٣٠٣: «فلم ينج منهم إلا».

(٥) في الصقلية ٣٠٣: «البحر».

فأكرم الخليفة زوجته ومَن معها، وأذِن له في القدوم إليه، فقدِم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلاثمائة رجل، فخرج ولد الوزير ابن هُبَيرة يَلتقيه، ومعه قاضي القضاة والنقيبان، ولم يترجّل له ابن الوزير، ودخل بغداد وعلى رأسه الشمسة، وخلع عليه الخليفة، وأقام ببغداد إلى أن دخل المحرّم من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة فأحضر فيه سليمان شاه إلى دار الخليفة، وأحضر قاضي القضاة والشهود وأعيان العبّاسيّين، وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة، وأنّه لا يتعرّض إلى العراق بحال.

فلمّا حلف خُطب له ببغداد ولُقّب ألقاب أبيه: غياث الدّنيا والدّين، وباقي ألقابه، وخلع عليه خِلع السلطنة، وسيّر معه من [عسكر] بغداد ثلاثة آلاف فارس، وجُعل الأمير قُويدان[1] صاحب الحِلّة أمير حاجب معه، وسار نحو بلاد الجبل في ربيع الأوّل.

وسار الخليفة إلى حُلوان، وأرسل إلى ملكشاه ابن السلطان محمود أخي السلطان[2] محمّد، صاحب هَمَذان وغيرها يدعوه إلى موافقته، فقدِم في ألفَي فارس، فحلف كلٌّ منهما لصاحبه، وجعل ملكشاه وليّ عهد سليمان شاه، وقوّاهما الخليفة بالمال والأسلحة وغيرها، فساروا واجتمعوا هم وإيلدكز، فصاروا في جمعٍ كبير[3].

فلمّا سمع السلطان[4] محمّد خبرهم أرسل إلى قُطب الدّين مودود، صاحب الموصل، ونائبه زين الدّين يطلب منهما المساعدة والمعاضدة، ويبذل لهما البذول الكثيرة إن ظَفَر، فأجاباه إلى ذلك ووافقا، فقويت نفسه وسار إلى لقاء سليمان شاه ومَن اجتمع معه من عساكره، ووقعت الحرب بينهم في جمادى الأولى، واشتدّ القتال بين الفريقَين، فانهزم سليمان شاه ومَن معه، وتشتّت العسكر ووصل من عسكر الخليفة، وكانوا ثلاثة آلاف رجل، نحو من خمسين رجلاً، ولم يُقتل منهم أحدٌ، وإنّما

---

(١) في الباريسية: رقم ٧٤٠ «قويدان».

(٢) في (أ): «الملك».

(٣) أنظر: المنتظم ١٠/ ١٦٤، ١٦٥ (١٨/ ١٠٦)، ودول الإسلام ٢/ ٦٧، والعبر ٤/ ١٤١، ١٤٢، وتاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٥، وعيون التواريخ ١٢/ ٤٩١، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٣٣، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٢٢.

(٤) في (أ): «الملك».

أُخذت خيولهم وأموالهم، وتشتّتوا، وجاؤوا متفرّقين.

وفارق سليمان شاه إيلدكز وسار نحو بغداد على شَهرزَور، فخرج إليه زين الدّين عليّ في جماعة من عسكر الموصل، وكان بشهرزور الأمير بزّان مقطعاً لها من جهة زين الدّين، فخرج زين الدّين وسار، فوقفا على[1] طريق سليمان شاه، فأخذاه أسيراً، وحمله زين الدّين إلى قلعة الموصل وحبسه بها مكرّماً محترماً[2]، إلى أن كان من أمره ما نذكره سنة خمسٍ وخمسين [وخمسمائة] إن شاء اللّه، فلمّا قبض سليمان شاه أرسل زين الدين إلى السلطان محمود[3] يعرّفه ذلك، ووعده المعاضدة على كلّ ما يريده منه.

ذكر حصر نور الدين قلعة حارم

في هذه السنة سار نور الدّين محمود بن زنكي إلى قلعة حَارِم، وهي للفرنج، ثمّ لبَيمُنْد، صاحب أنطاكية، وهي تقارب أنطاكية من شرقيها، وحصرها وضيّق على أهلها، وهي قلعة منيعة في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنج مَن قَرُب منها ومَن بَعُد، وساروا نحوه ليرحلّوه عنها.

وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ويرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يقول: إنّنا نقدر[4] على حفظ القلعة، وليس بنا ضعف، فلا تخاطروا أنتم باللّقاء، فإنّه إن هزمكم أخذها وغيرها، والرأي مطاولته؛ فأرسلوا إليه وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم، فاصطلحوا على ذلك، ورحل عنهم، فقال بعض الشعراء[5]:

---

(١) في (أ): «فوقها على».

(٢) أنظر: ذيل تاريخ دمشق ٣٣٧، والتاريخ الباهر ١٠٨، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٢٩، ودول الإسلام ٢/ ٦٧، والعبر ٤/ ١٤٢، وتاريخ الإسلام (٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٨٠٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٦، وعيون التواريخ ١٢/ ٤٩١، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٣٣، وتاريخ ابن سباط، (بتحقيقنا) ١/ ١٠٢.

(٣) في (ب): «السلطان محمد».

(٤) في (أ): «نعذر».

(٥) في (أ): «الشعراء بذلك من قصيدة له». وفي (ب): «يذكر ذلك».
ويقول خادم العلم وطالبه محقق هذا الكتاب. «عمر عبد السلام تدمري»: إن قائل هذه الأبيات هو الشاعر أحمد بن منير الطرابلسي» المتوفى سنة ٥٤٨ هـ.، وقد صرّح بذلك «أبو شامة» إذ قال: وقد =

أَلبستَ دينَ محمّدٍ يا نُورَهُ ... عِزّاً لَهُ فَوقَ السُّها أسادُ[1]
ما زِلْتَ تَشملُهُ بميّادِ[2] القَنا ... حتى تَثَقَّفَ عودُهُ المَيّادُ[3]
لم يَبقَ مُذْ أرهفتَ عزمَكَ دونَه ... عَدَدٌ يُراعُ بِهِ، وَلا استعدادُ
إنّ المَنابِرَ لَوْ تطيقُ تكلّما[4] ... حَمِدَتْكَ عن خُطبائِها الأعوادُ
مُلْتَوٍ[5] بأطرافِ القريحة[6] كلكلاً ... طَرَفاهُ ضَرْبٌ صَادِقٌ وَجِلادُ
حاموا فلمّا عاينوا خوضَ[7] الرّدى[8] ... حامَوا فرائسَ[9] كيدهم أوْ كادُوا
وَرَأى[10] «البِرِنسُ» وقد تبرْنَسَ ذِلّةً ... حَزْماً لحارِمَ[11] وَالمَصادُ مَصادُ
مَن مُنكِرٌ أن يَنسِفَ السيلُ الرُّبى ... وَأبُوهُ ذاكَ العارِضُ المَدّادُ
أوْ أن يُعيدَ الشمسَ كاسفةَ السّنا ... نارٌ لها ذاكَ الشّهابُ زِنادُ
لا يَنفعُ الآباءَ ما سمكوا[12] من الـ ... عَلياءِ حتى يُرْفَعَ[13] الأوْلادُ

وهي طويلة[14].

= قرأت في ديوان ابن منير: وكان يمدحه ويهنته بالعودة من غزاة حارم». ثم ذكر القصيدة. وقد علّق أبو شامة على هذا قائلاً: «وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين، فإما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة». (الروضتين ١/ ٢٥٤).
وأقول: لعلّ القصيدة قيلت عند حصار الحصن سنة ٥٤٤ هـ.

(١) الأُسادة: بفتح الهمز وضمها: الوسادة.
(٢) في التاريخ الباهر ١٠٩ «تمكّنه بمنآد».
(٣) في التاريخ الباهر ١٠٩ : «المنآد».
(٤) في (أ): «يكلما».
(٥) في طبعة صادر ١١/٢٠٨ ضبطت: «مَلَقٌ».
(٦) في طبعة صادر ١١/٢٠٨ «القريحة»، وفي (ب): «الفرنحية».
(٧) في الروضتين: «حوض».
(٨) في الأوربية: «الردا».
(٩) في الروضتين والديوان: «برائش».
(١٠) في الروضتين والديوان: «ورجا».
(١١) في الروضتين والديوان: «حرماً بـ «حارم».
(١٢) في الباريسية والنسخة ٧٤٠ «سلكوا».
(١٣) في الباريسية والنسخة ٧٤٠، والديوان: «وترفع».
(١٤) الخبر والأبيات في: التاريخ الباهر ١٠٩، ١١٠، والروضتين ١/ ٢٥٤، ٢٥٥، والديوان (من جمعنا وتحقيقنا) ـ طبعة دار الجيل، بيروت، ومكتبة السائح، طرابلس ١٩٨٦ ـ ص ٢٦٢، ٢٦٣.

ذكر وفاة خُوارزم شاه أتسِز وغيره من الملوك

في هذه السنة، تاسع جُمادى الآخرة، تُوفّي خُوارزم شاه أتسِز بن محمّد، بن أنُوشتكِين، وكان قد أصابه فالج، فتعالج منه، فلم يبرأ، فاستعمل أدوية شديدة الحرارة بغير أمر الأطباء، فاشتدّ مرضه، وضعفت قوّته، فتُوفّي، وكان يقول عند الموت: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[١]. وكانت ولادته في رجب سنة تسعين وأربعمائة.

ولمّا توفّي ملك بعده ابنه أرسلان، فقتل نفراً من أعمامه، وسمل أخاً له فمات بعد ثلاثة أيّام، وقيل: بل قتل نفسه.

وأرسل إلى السلطان سَنجَر، وكان[٢] قد هرب من أسر الغُزّ، على ما نذكره، ببذل الطّاعة والانقياد، فكتب له منشوراً بولاية خُوارزم، وسيّر الخِلع له في رمضان، فبقي في ولايته ساكناً آمناً.

وكان أتسِز حَسَن السيرة، كافّاً عن أموال رعيّته، منصفاً لهم، محبوباً إليهم، مُؤثِراً للإحسان والخير إليهم؛ وكان الرعيّة معه بين أمْن غامر وعد شامل[٣].

وفي سابع عشر الشهر المذكور تُوفّي أبو الفوارس بن محمّد بن أرسلان شاه ملك كَرْمان، وملك بعده ابنه سَلجُوقشاه.

وفيها تُوفّي الملك مسعود[٤] بن قَلْج أرسلان بن سليمان بن قَتَلْمِش، صاحب قُونيةَ وما يجاورها من بلاد الروم، وملك بعده ابنه قَلْج أرسلان.

ذكر هرب السلطان سَنْجَر من الغُزّ

في هذه السنة، في رمضان، هرب السلطان سَنجر بن ملكشاه من أسر الغُزّ هو

---

(١) سورة الحاقّة، الآيتان ٢٨، ٢٩.

(٢) في الأصل: «نذكره»، والمثبت من (أ).

(٣) أنظر عن (خوارزم أتسز) في:
المختصر في أخبار البشر ٣/ ٣٠، والعبر ٤/ ١٤٢، وتاريخ الإسلام (٥٥١ ـ٥٦٠ هـ.) ص ٤٦، ٤٧، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٢٢، ٣٢٣، رقم ٢١٥، ودول الإسلام ٢/ ٦٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٨، والوافي بالوفيات ٦/ ١٩٥، ومآثر الإناقة ٢/ ٤٢.

(٤) تاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٦٧ رقم ٣١.

وجماعة من الأمراء الّذين معه، وسار إلى قلعة تِرْمِذ، واستظهر بها على الغُزّ، وكان خُوارزم شاه أتسِز بن محمّد بن أنُوشْتكِين، والخاقان محمود بن محمّد، يقصدان الغزّ فيقاتلانهم فيمن معهما، فكانت الحرب بينهم سِجالاً، وغلب كلّ واحد من الغزّ والخُراسانيّين على ناحية من خُراسان، فهو يأكل دخْلها، لا رأس لهم يجمعهم.

وسار السلطان سَنجَر من تِرْمِذ إلى جيحون يُريد العبور إلى خُراسان، فاتّفق أنّ مقدّم الأتراك القارغليّة[1]، اسمه عليّ بك، تُوفّي، وكان أشدّ شيء [على] السلطان سَنْجَر وعلى غيره، كثير الشرّ والفساد وإثارة الفتن، فلمّا توفّي أقبلت القارغليّة[1] إلى السلطان سَنجر، وكذلك غيرهم من سائر الأمم من أقاصي البلاد وأدانيها، وعاد إلى دار ملكه بمرو في رمضان؛ فكانت مدّة أسْره مع الغزّ من سادس جُمادى الأولى سنة ثمانٍ وأربعين إلى رمضان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة[2].

ذكر البَيعة لمحمّد بن عبد المؤمن بولاية عهد أبيه

في هذه السنة أمر عبد المؤمن بالبَيعة لولده محمّد بولاية عهده، وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمر هنتاتي أن يلي عمر الأمر بعد عبد المؤمن؛ فلمّا تمكّن عبد المؤمن من المُلك وكثُر أولاده أحبّ أن ينقل الملك إليهم، فأحضر أمراء العرب من هِلال ورعبة وعَبديّ وغيرهم إليه ووصلهم وأحسن إليهم، ووضع عليهم مَن يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن، ويقولوا له: نريد أن تجعل لنا وليّ عهدٍ من ولدك يرجع النّاس إليه بعدك؛ ففعلوا ذلك، فلم يُجِبهم إكراماً لعمر هنتاتي لعُلُوّ منزلته في الموحّدين، وقال لهم: إنّ الأمر لأبي حَفص عمر؛ فلمّا علم عمر ذلك خاف على نفسه، فحضر عند عبد المؤمن وأجاب إلى خلع نفسه، فحينئذٍ بويع لمحمد بولاية العهد، وكتب إلى جميع بلاده بذلك، وخُطب له فيها جميعها، فأخرج عبد المؤمن في

---

(١) في (أ): «القارلغية».

(٢) ذيل تاريخ دمشق ٣٣٦ (سنة ٥٥١ هـ.) و٣٧٧، ٣٣٨ (سنة ٥٥٢ هـ.)، نهاية الأرب ٢٦/ ٣٣٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٣٠، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٢٢٧، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٠، دول الإسلام ٢/ ٦٧، تاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٦، العبر ٤/ ١٤٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٦، عيون التواريخ ١٢/ ٤٩١، البداية والنهاية ١٢/ ٢٣٤، الكواكب الدرية ١٤٩، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٢٢، تاريخ ابن سباط ١/ ١٠٣.

ذلك اليوم من الأموال شيئاً كثيراً[١].

ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد

في هذه السنة استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد، فاستعمل ولدَه أبا محمّد عبد اللّه على بِجاية وأعمالها؛ واستعمل ابنَه أبا الحسن عليّاً على فاس وأعمالها؛ واستعمل ابنه أبا حفص عمر على مدينة تِلمسان وأعمالها، وولّى ابنَه أبا سعيد سَبْتة والجزيرة الخضراء ومَالِقة؛ وكذلك غيرهم.

ولقد سلك في استعمالهم طريقاً عجيباً، وذلك أنّه كان قد استعمل على البلاد شيوخ الموحّدين المشهورين من أصحاب المهديّ محمّد بن تُومَرت، وكان يتعذّر عليه أن يعزلهم، فأخذ أولادهم، وتركهم عنده يشتغلون في العلوم، فلمّا مهروا فيها وصاروا يُقتدى بهم قال لآبائهم: إنّي أريد أن تكونوا عندي أستعين بكم على ما أنا بصدده، ويكون أولادكم في الأعمال «لأنّهم علماء فقهاء»[٢]؛ فأجابوا إلى ذلك وهم فرحون مسرورون، (فولّى أولادهم)[٣] ثمّ وضع عليهم بعضهم ممّن يعتمد عليه، فقال لهم: إنّي أرى أمراً عظيماً قد فعلتموه؛ فارقتم فيه الحزم والأدب. فقالوا: وما هو؟ فقال: أولادكم في الأعمال، وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم منها شيء مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة، وإنّي أخاف أن ينظر في هذا فتسقط منزلتكم عنده؛ فعلموا صدق القائل، فحضروا عند عبد المؤمن وقالوا: نحبّ أن تستعمل على البلاد السادة أولادك. فقال: لا أفعل؛ فلم يزالوا به حتى فعل ذلك بسؤالهم[٤].

ذكر حصر السلطان محمّد بغداد

في هذه السنة، في ذي الحجّة، حصر السلطان محمّد بغداد، وسبب ذلك أنّ السلطان محمّد بن محمود كان قد أرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق، فامتنع الخليفة من إجابته إلى ذلك، فسار من هَمَذان في عساكر كثيرة نحو العراق، ووعده أتابك قُطب الدّين، صاحب الموصل، ونائبُه زين الدّين عليّ بإرسال

---

(١) الأنيس المطرب ١٣٧، نهاية الأرب ٢٤/٣٠٧، ٣٠٨، الاستقصاء ٢/١٠٩ (سنة ٥٤٩ هـ).

(٢) من (أ).

(٣) من (أ).

(٤) نهاية الأرب ٢٤/٣٠٨، ٣٠٩، الاستقصاء ٢/١١١.

العساكر إليه نجدةً له على حصر بغداد، فقدِم العراق في ذي الحجّة سنة إحدى وخمسين [وخمسمائة]، واضطُرب النّاس ببغداد، وأرسل الخليفة يجمع العساكر فأقبل خطلبرس من واسط وعصى[1] أرغش، صاحب البصرة، وأخذ واسط، ورحل مُهَلهِل إلى الحِلّة فأخذها، واهتمّ الخليفة وعون الدّين بن هُبيرة بأمر الحصار، وجمع جميع السفن وقطع الجسر وجعل الجميع تحت التّاج، ونودي، منتصف المحرّم سنة اثنتين وخمسين [وخمسمائة]، أن لا يقيم أحدٌ بالجانب الغربيّ، فأجفل النّاس وأهل السواد، ونُقلت الأموال إلى حريم دار الخلافة، وخرّب الخليفة قصر عيسى والمُربّعة والقُرَيّة والمستجِدّة والنّجميّ، ونهب أصحابه ما وجدوا؛ وخرّب أصحاب محمّد شاه نَهر القلّابين، والتّوثة[2]، وشارع ابن رزق اللّه وباب المَيدان وقُطُفتا.

وأمّا أهل الكرْخ وأهل باب البصرة فإنّهم خرجوا إلى عسكر محمّد، وكسبوا معهم أموالاً كثيرة.

وعبر السلطان محمّد فوق حَربى إلى الجانب الغربيّ، ونُهبت أُوانا، واتّصل به زين الدّين هناك، وساروا، فنزل محمّد شاه عند الرملة، وفرّق الخليفة السلاح على الجُند والعامّة، ونصب المجانيق والعرّادات.

فلمّا كان في العشرين من المحرّم ركب عسكر محمّد شاه[3] وزين الدّين عليّ، ووقفوا عند الرَّقّة، ورموا بالنُّشّاب إلى ناحية التّاج، فعبر إليهم عامّة بغداد فقاتلوهم، ورموهم بالنِّفط وغيره، ثمّ جرى بينهم عدّة حروب.

وفي ثالث صفر عاودوا القتال، واشتدّت الحرب، وعبر كثير من أهل بغداد سباحةً وفي السفن، فقُتلوا؛ وكان يوماً مشهوداً.

ولم تزل الحرب بينهم كلّ وقت، وعُمل الجسر على دِجلة وعبر عليه أكثر العسكر إلى الجانب الشرقيّ، وصار القتال في الجانبين، وبقي زين الدّين في الجانب الغربيّ، وأمر الخليفة فنودي: كلّ من جُرح فله خمسة دنانير؛ فكان كلمّا جُرح إنسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير. فاتفق أن بعض العامة جُرح جرحاً ليس بكبير،

---

(١) في الأوربية: «وعصا».
(٢) في الباريسية: «القابين والتوثة»، وفي النسخة ٧٤٠ «القلاسين»، وفي الأصل: «العلاض والونه».
(٣) في (أ): «شاه في جموعهم ووقفوا».

فحضر يطلب الدنانير. فقال له الوزير: ليس هذا الجرح بشيء؛ فعاود القتال، فضُرب، فانشقّ جوفه وخرج شيء من شحمه، فحُمل إلى الوزير فقال: يا مولانا الوزير أيُرضيك هذا؟ فضحك منه، وأضعف له، ورتّب له من يعالج جراحته إلى أن برىء.

وتعذّرت الأقوات في العسكر إلاّ أنّ اللّحم والفواكه والخُضر كثيرة، وكانت الغلاّت ببغداد كثيرة لأنّ الوزير كان يفرّقها في الجُند عِوض الدّنانير فيبيعونها، فلم تزل الأسعار عندهم رخيصة، إلاّ أنّ اللّحم والفاكهة والخُضر قليلة عندهم.

واشتدّ الحصار على أهل بغداد لانقطاع الموادّ عنهم وعدم المعيشة لأهلها؛ وكان زين الدّين وعسكر الموصل غير مُجِدّين في القتال لأجل الخليفة والمسلمين؛ وقيل لأنّ نور الدّين محمود بن زنكي، وهو أخو قُطْب الدّين، صاحب الموصل الأكبر، أرسل إلى زين الدّين يلومه على قتال الخليفة، ففتر وأقصر.

(ولم تزل الحرب في أكثر الأيّام)[١]، وعمل السلطان محمّد أربعمائة سلّم ليصعد الرجال فيها إلى السور، وزحفوا، وقاتلوا، ففتح أهل بغداد أبواب البلد وقالوا: أيُّ حاجة بكم إلى السلاليم؟ هذه الأبواب مفتّحة فادخلوا منها؛ فلم يقدروا على أن يقربوها. فبينما الأمر على ذلك إذ وصل الخبر إلى السلطان محمّد أنّ أخاه ملكشاه وإيلدكز، صاحب بلاد أرّان[٢]، ومعه الملك أرسلان ابن الملك طُغُرل بن محمّد، وهو ابن امرأة إيلدكز، قد دخلوا هَمَذان واستولوا عليها، وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمّد شاه وأموالهم، فلمّا سمع محمّد شاه ذلك جدّ في القتال لعلّه يبلغ غرضاً، فلم يقدر على شيءٍ، ورحل عنها نحو همذان في الرابع والعشرين من ربيع الأوّل سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة.

وعاد زين الدّين إلى الموصل، وتفرّق ذلك الجمع على عزم العَود إذا فرغ محمّد شاه من إصلاح بلاده، فلم يعودوا يجتمعون؛ وفي كثرة حروبهم لم يُقتل بينهم إلاّ نفر يسير، وإنّما الجراح كانت كثيرة[٣]، ولما ساروا نهبوا بعقوبا وغيرها من طريق خُراسان.

---

(١) من (أ).

(٢) زاد في (أ): «وأذربيجان».

(٣) في الأوربية: «كان كثيراً».

ولما رحل العسكر من بغداد أصاب أهلها أمراض شديدة حادّة، وموت كثير للشدّة التي مرّت بهم؛ وأمّا ملكشاه وإيلدكز ومَن معهما فإنّهم ساروا من هَمَذان إلى الرّيّ، فخرج إليهم إينانج شِحنتُها وقاتلهم فهزموه، فأنفذ السلطان محمّد الأمير سقمس بن قيماز الحراميّ[1] في عسكر نجدةً لإينانج، فسار سقمس، وكان إيلدكز وملكشاه ومَن معهما قد عادوا من الريّ يريدون محاصرة الخليفة، فلقِيهم سقمس وقاتلهم، فهزموه ونهبوا عسكره وأثقالهم، فاحتاج السلطان محمّد إلى الإسراع، فسار، فلمّا بلغ حُلوان بلغه أنّ إيلدكز بالدّينَوَر، وأتاه رسول من نائبه إينانج أنّه دخل هَمَذان، وأعاد الخطبة له فيها، فقويت نفسه وهرب شملةُ، صاحب خُوزستان، إلى بلاده، وتفرّق أكثر جمع إيلدكز وملكشاه، وبقيا في خمسة آلاف فارس، فعادا إلى بلادهما شبه الهارب.

ولما رحل محمّد شاه إلى هَمَذان أراد التجهّز لقصد بلاد إيلدكز، فابتدأ به مرض السلّ، وبقي به إلى أن مات[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، أُطلق أبو البدر ابن الوزير ابن هُبَيرة من حبس تكريت؛ ولمّا قدِم بغداد خرج أخوه والموكب يتلقونه[3]، وكان يوماً مشهوداً، وكان مُقامه في الحبس يزيد على ثلاث سنين[4].

وفيها احترقت بغداد في ربيع الآخر، وكثُر الحريق بها، واحترق درب فراشا، ودرب الدّوابّ، ودرب اللّبان، وخَرابة ابن جردة[5]، والظَّفَريّة، والخاتونيّة، ودار

---

(١) في (ب): «قيماز الخرابي وكان».

(٢) المنتظم ١٠/١٦٨-١٧٦ (١٨/١١١-١١٨)، زبدة التواريخ للحسيني ٢٤٧، ٢٥٦، وتاريخ دولة آل سلجوق ٢٤٦-٢٥٥، كتاب الروضتين ١/٢٨٥، تاريخ الزمان لابن العبري ١٧٣، المختصر في أخبار البشر ٣/٣٠، ٣٣، العبر ٤/١٤٥، دول الإسلام ٢/٦٨، تاريخ الإسلام (٥٥١-٥٦٠ هـ.) ص ٩-١٢، مرآة الجنان ٣/٢٩٩، عيون التواريخ ١٢/٤٩٥ و٥٠١، ٥٠٢، البداية والنهاية ١٢/٢٣٥، ٢٣٦، الكواكب الدرية ١٥٤، النجوم الزاهرة ٥/٣٢٥.

(٣) في الأوربية: «يستلقونه».

(٤) المنتظم ١٠/١٦٥ (١٨/١٠٦، ١٠٧)، نهاية الأرب ٢٣/٢٩٢.

(٥) في طبعة صادر ١١/٢١٦ «حربه»، والتصحيح من (أ) و(ب) والمنتظم.

الخلافة، وباب الأَزَج، وسوق السلطان، وغير ذلك[1].

وفيها، في شوّال، قصد الإسماعيليّة طَبَس[2] بخُراسان، فأوقعوا بها وقعة عظيمة، وأسروا جماعة من أعيان دولة السلطان، ونهبوا أموالهم ودوابّهم وقتلوا فيهم.

[الوَفَيَات]

وفيها، في ذي القعدة، توفّي شيخ الإسلام أبو المعالي الحسن بن عُبيد اللّه بن أحمد بن محمّد المعروف بابن الرزّاز بنَيسابور، وهو من أعيان الأفاضل.

وفي هذه السنة توفّي مُريد الدّين بن نيسان رئيس آمدِ والحاكم فيها على صاحبها، ووليَ ما كان إليه بعده ابنه كمال الدّين أبو القاسم.

وتُوفّي أبو الحسن عليُّ بن الحسين الغَزْنَويّ[3] الواعظ المشهور، ببغداد، وكان قدِم إليها ستة ستّ عشرة وخمسمائة، وكان له قبول عظيم عند السلاطين والعامّة والخلفاء، إلاّ أنّ المقتفي أعرض عنه بعد موت السلطان مسعود لإقبال السلطان عليه، وكان موته في المحرّم.

وتُوفّي أبو الحسن بن الخَلّ[4] الفقيه الشافعيّ، شيخ الشافعيّة ببغداد، وهو من أصحاب أبي بكر الشاشي، وجمع بين العلم والعمل، وكان يؤمّ بالخليفة في الصلاة.

وتُوفّي ابن الآمِديّ[5] الشاعر، وهو من أهل النيل[6] من أعيان الشعراء في طبقة الغزّيّ والأرّجانيّ، وكان عمر قد زاد على تسعين سنة.

وفيها قُتل مظفّر بن حمّاد بن أبي الخير[7] صاحب البَطيحة، قتله نفيس بن فضل

---

(١) في المنتظم ١٠/ ١٦٥ (١٨/ ١٠٧)، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٩٢.

(٢) في نزهة المشتاق للإدريسي (الطبعة الأوربية) ١/ ٤٥٣ «طبس».

(٣) أنظر عن (الغزنوي) في: تاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٥٩، ٦٠، رقم ٢٣ وفيه مصادر ترجمته.

(٤) هو «محمد بن المبارك بن محمد» توفي سنة ٥٥٢ هـ. أنظر عنه في: تاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ١٠١، ١٠٢، رقم ٧٤ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٥) هو «محمد بن الحسين أبو المكارم»، توفي سنة ٥٥٢ هـ. أنظر عنه في: تاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٩٥ رقم ٦٧، والوافي بالوفيات ٣/ ١٧ رقم ٧٥.

(٦) في (أ): «النبل».

(٧) في (أ): «الجبر».

ابـن أبـي الخيـر في الحمّام، وولِيَ ابنه بعده[1].

وفيها تُوفّي الوأواء[2] الحلبيّ الشاعر المشهور.

وفيها، في رمضان، تُوفّي الحكيم أبو جعفر بن محمّد البخاريّ بأسْفرايين، وكان صاحب معرفة بعلوم الحكماء الأوائل.

---

(1) المنتظم ١٠/١٦٨ (١٨/١١٠).

(2) هو «عبد القاهر بن عبد الله بن حسين». أنظر عنه في: تاريخ الإسلام (٥٥١ـ٥٦٠ هـ.) ص ٥٤ رقم ٩٧ وفيه مصادر ترجمته.

(٥٥٢)
ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ذكر الزلازل بالشام

في هذه السنة، في رجب، كان بالشام زلازل كثيرة قويّة خرّبت كثيراً من البلاد، وهلك فيها ما لا يُحصى كثرةً، فخرب منها بالمرّة حَماة، وشَيْزر، وكَفَرْطاب، والمَعَرّة، وأفامية، وحِمص، وحِصن الأكراد، وعِرْقَة، واللاذقيّة، وطَرابُلُس، وأنطاكية.

وأمّا ما لم يكثُر فيه الخراب ولكنْ خرب أكثره فجميع الشام، وتهدّمت أسوار البلاد والقلاع، فقام نور الدّين محمود في ذلك المقام المَرْضِيّ، وخاف على بلاد الإسلام من الفرنج حيث خربت الأسوارُ، فجمع عساكره وأقام بأطراف بلاده يغير على بلاد الفرنج ويعمل في الأسوار في سائر البلاد، فلم يزل كذلك حتى فرغ من جميع أسوار البلاد.

وأمّا كثرة القتلى، فيكفي فيه أنّ معلّماً كان بالمدينة، وهي مدينة حماة، ذُكر أنّه فارق المكتب لمهمٍّ عَرَضَ له فجاءت الزلزلة فخرّبت البلد، وسقط المكتب على الصّبيان جميعهم. قال المعلّم: فلم يأتِ أحدٌ يسأل عن صبيّ كان له[1].

---

(١) أنظر (خبر الزلازل) في: التاريخ الباهر ١١٠، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ٢٠٨، وتاريخ الزمان له ١٧٢، ١٧٣، وكتاب الروضتين ١/ ٢٦١ - ٢٦٨، وذيل تاريخ دمشق ٣٣٧، وزبدة الحلب لابن العديم ٢/ ٣٠٦، ورحلة بنيامين التُطيلي - ترجمة عزرا حداد - طبعة بغداد ١٩٤٥ - ص ٨٧، ٨٨، ومرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٢٢٨، ٢٢٩، ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ج ١٦ ق ٢/ ورقة ٣١٨، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٣١، والدرة المضية ٥٦٩، ٥٧٠، والعبر ٤/ ١٤٦، ودول الإسلام ٢/ ٦٧، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٢ هـ.) ص ١٣، ١٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٧، ومرآة الجنان ٣/ ٢٩٩، وعيون التواريخ ١٢/ ٤٩٥، والبداية والنهاية ١٢/ ٢١٦، والكواكب =

ذكر مُلك نور الدين حصن شَيْزر

نبتدىء بذكر هذا الحصن، ولمن كان قبل أن يملكه نور الدّين محمود بن زنكي، فنقول: هذا الحصن قريب من حماة، بينهما نصف نهار، وهو على جبلٍ عالٍ منيع لا يُسلك إليه إلاّ من طريق واحدة. وكان لآل مُنقذ الكِنانيّين يتوارثونه من أيّام صالح بن مِرداس إلى أن انتهَى الأمر إلى أبي المُرهَف نصر بن عليّ بن المقلّد بعد أبيه أبي الحسن عليّ، فبقي (بيده إلى أن مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجاعاً كريماً؛ فلمّا حضره الموت استخلف أخاه أبا سلامة مرشد بن عليّ، فقال: واللّه لا وليتُه ولأخرجنّ من الدّنيا كما دخلتُها.

وكان عالماً بالقرآن والأدب، وهو والد مؤيّد الدّولة أُسامة بن منقذ، فولاّها أخاه الأصغر سلطان بن عليّ، واصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمان، فأولد مرشد عدّة أولاد ذكور، وكبروا وسادوا، منهم: عزّ الدّولة أبو الحسن عليّ، ومؤيّد الدّولة أسامة وغيرهما؛ ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولادٌ ذكورٌ، فحسد أخاه على ذلك، وخاف أولاد أخيه على أولاده، وسعى بينهم المفسدون فغيّروا كلاًّ منهما على أخيه، فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبيات شِعر يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بشِعرٍ في معناه رأيتُ إثبات ما تمسّ الحاجة إليه منه، وهي هذه الأبيات:

ظَلُومٌ أَبَتْ فِي الظُّلمِ إلاّ تَمادِيا ... وَفي الصّدّ وَالهجرانِ إلاّ تناهيا

شكَتْ هجرَنا والذّنبُ في ذاكَ ذنبُها[1] ... فَيا عَجَبا من ظالمٍ جاء شاكِيَا

وطاوَعَتِ الواشِينَ فِيّ وَطالما ... عصَيتُ عَذُولاً في هَواها وواشِيَا

وَمالَ بها تِيهُ الجَمالِ إلى القِلَى ... وَهَيهاتِ أن أُمسِي لها الدّهرَ قَالِيَا

وَلا ناسِياً ما أوْدَعَتْ مِنْ عُهُودِها ... وَإنْ هيَ أبْدَتْ جَفوَةً وتَناسِيَا

وَلمّا أتاني مِنْ قَريضِك[2] جَوْهَرٌ ... جَمَعتَ المَعالي فيهِ لي وَالمَعانِيَا

وكنتُ هَجَرْتُ الشّعرَ حيناً لأنّهُ ... تَولّى بِرُغْمي حينَ وَلّى شَبابِيَا

= الدرية ١٥١، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٢٥، وكشف الصلصلة للسيوطي ١٨٧، ١٩٢، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٠٤ ـ ١٠٦، وشذرات الذهب ٤/ ١٦٠.

(١) في (أ): «في الهجر ذنبها».

(٢) في (ب): «قريظك».

وأَيــنَ مِــنَ السّتّيــنَ لَفــظٌ مُفَــوّقٌ إذا رُمـتُ أدنـى القـوْلِ منْـهُ عَصَـانِيَـا
وقُلـتُ: أخـي يَـرْعـى بَنِـيّ وَأُسْـرَتـي وَيَحفَــظُ عَهــدي فيهِــمُ وَذِمــامِيَــا
ويجــزيهِــمِ مــا لــمْ أُكَلِّفْــهُ فِعلَــهُ لنَفســي فقَــد أعــدَدْتُــهُ مِــنْ تُــراثِيَــا
فَمـا لـكَ لمّـا أنْ حَنَى الـدّهـرُ صُعدَتي وثَلّــمَ منـي صَـارِمـاً كـانَ مـاضِيَـا
تَنكّــرْتَ حتــى صــارَ بِــرُّكَ قَســوَةً وَقُــرْبُــكَ منهــم جَفــوَةً وتَنَــابِيَــا
وَأصْبَحـتُ صِفْـرَ الكَـفّ ممّـا رَجـوْتُـهُ أرَى اليـأسَ قـد عَفّـى سبيـلَ رَجـائِيَـا
علـى أنّنـي مـا حُلْـتُ عمّـا عَهِـدْتـهُ وَلا غَيّــرَتْ هَــذي السّنــونُ وَدادِيَــا
فــلا غَــرْوَ عِنــدَ الحــادِثــاتِ، فــإنّنــي أرَاكَ يَمينــي وَالأنَــامَ شِمَــالِيَــا
تحَـلَّ بهـا[1] عَـذراء لَـوْ قُـرِنـت بهَـا نجُــومُ السّمــاء لَــمْ تُعَــدّ دَرارِيَــا
تَحَلّـتْ بِـدُرٍّ مِـن صِفـاتِـكَ زانَهـا كمَـا زانَ مَنظُـومُ الـلآلـي الغَـوَانِيَـا
وعِـشْ بـانِيـاً للمَجْـدِ مـا كـانَ وَاهِيـاً مُشيـداً مـنَ الإحسانِ مـا كـانَ هـاوِيَـا[2]

وكان الأمر بينهما فيه تماسك، فلمّا توفّي مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المِجَنّ، وبادأهم بما يسوءُهم، وأخرجهم من شَيزر، فتفرّقوا، وقصد أكثرهم نورَ الدّين وشكوا إليه ما لقوا من عمّهم، فغاظه ذلك، ولم يمكنه قصده والأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الفرنج، ولخوفه أن يسلّم شَيزر إلى الفرنج.

ثمّ توفّي سلطان[3]، وبقيّ بعده أولاده، فبلغ نورَ الدّين عنهم مراسلةُ الفرنج، فاشتدّ حنقه عليهم، وانتظر فرصة تمكّنه، فلمّا خربت القلعة هذه السنة بما ذكرناه من الزلزلة لم ينجُ من بني منقذ الذين بها أحدٌ.

وسبب هلاكهم أجمعين أنّ صاحبها منهم كان قد ختن ولداً له، وعمل دَعوة للنّاس، وأحضر جميع بني منقذ عنده في داره، وكان له فَرَس يحبّه، ويكاد لا يفارقه، وإذا كان في مجلس أقيم الفَرَس على بابه. وكان المهر في ذلك اليوم على باب الدار فجاءت الزّلزلة، فقام النّاس ليخرجوا من الدّار، فلمّا وصلوا مُجفِلين إلى الباب

(١) في الباريسية: «تهن عذراء»، وفي (ب): «تهن بها».
(٢) القصيدة في: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٣٢، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٨.
(٣) في سنة ٥٤٢ وقيل ٥٤٣ هـ.

ليخرجوا من الدّار رَمَحَ الفَرَس رجلاً كان أوّلهم فقتله، وامتنع النّاس من الخروج، فسقطت الدّار عليهم كلّهم، وخربت القلعة وسقط سورها وكلّ بناء فيها، ولم ينجُ منها إلاّ الشّريد، فبادر إليها بعض أمرائه، وكان بالقرب منها، فملكها وتسلّمها نور الدّين منه، فملكها وعمّر أسوارَها ودُورها، وأعادها جديدة[1].

ذكر وفاة الدّبيسيّ صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مودود على الجزيرة

كانت الجزيرة لأتابك زنكي، فلمّا قُتل سنة إحدى وأربعين [وخمسمائة] أقطعها ابنه سيف الدّين غازي للأمير أبي بكر الدّبيسيّ، وكان من أكابر أمراء والده، فبقيت بيده إلى الآن، وتمكّن منها وصار بحيث يتعذّر على قُطْب الدّين أخْذها منه، فمات في ذي الحجّة سنة إحدى وخمسين، ولم يخُلّف ولداً، فاستولى عليها مملوك له اسمه غُلبك، وأطاعه جُندها، فحصرهم مودود ثلاثة أشهر، ثمّ تسلّمها من غُلبك في صفر من سنة ثلاثٍ وخمسين، وأعطاه عِوضها إقطاعاً كثيراً.

ذكر وفاة السلطان سَنْجَر

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، تُوفّي السلطان سَنجَر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، أبو الحرث، أصابه قُولَنج، ثمّ بعده إسهال، فمات منه. ومولدُه سِنجار، من ديار الجزيرة، في رجب سنة تسعٍ وسبعين وأربعمائة، وسكن خُراسان، واستوطن مدينة مَرْو، ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمّد، واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله، فعهِد إلى محمّد بالسلطنة وجعل سَنجر وليّ عهد.

فلمّا مات محمد، خُوطب سَنجَر بالسلطان، واستقام أمره، وأطاعه السلاطين وخُطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة، وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة، ولم يزل أمره عالياً وجدّه متراقياً إلى أن أسره الغُزّ على ما

---

(1) أنظر شعراً قاله عليّ بن مرشد ينعي دار بني منقذ وأهلها، في: المنازل والديار لأسامة بن منقذ ١/ ٥٢، ٥٣ و١٤٨، ١٤٩ و٢٠٥ و٢٨٣، ٢٧٤، و٢/ ١١٣، ١١٨، ١١٩ ومعجم الأدباء ٥/ ٢٢٠، وكتابنا: معجم الأدباء والشعراء في تاريخ لبنان (مخطوط) ترجمة «علي بن مرشد بن علي بن مقلّد ابن نصر بن منقذ».

ذكرناه، ثمّ إنّه خلّص بعد مدّة وجمع إليه أطرافه بمرو، وكاد[(١)] يعود إليه مُلكه، فأدركه أجَلُه، وكان مهيباً كريماً رفيقاً بالرعيّة، وكانت البلاد في زمانه آمنة.

ولما مات دُفن في قبّةٍ بناها لنفسه سمّاها دار الآخرة؛ ولما وصل خبر موته إلى بغداد قُطعت خُطبته، ولم يُجلس له في الدّيوان للعزاء[(٢)].

ولمّا حضر السلطانَ سَنجَر الموتُ استخلف على خُراسان الملك محمود بن محمّد بن بَغراخان وهو ابن أخت السلطان سَنجَر، فأقام بها خائفاً من الغُزّ، فقصد جرجان يستظهر بها، وعاد الغُزّ إلى مَرْوَ وخُراسان، واجتمع طائفة من عساكر خُراسان على أي أبَه المؤيّد، فاستولى على طرفٍ من خُراسان، وبقيت خُراسان على هذا الاختلال إلى سنة أربعٍ وخمسين [وخمسمائة].

وأرسل الغُزُّ إلى الملك محمود بن محمّد وسألوه أن يحضر عندهم ليملّكوه عليهم، فلم يثق بهم[(٣)]، وخافهم على نفسه؛ فأرسل ابنه إليهم فأطاعوه مُديدة ثمّ لحِق بهم الملك محمود على ما نذكره سنة ثلاثٍ وخمسين [وخمسمائة][(٤)].

ذكر ملك المسلمين مدينة المريّة وانقراض دولة الملثّمين بالأندلس

في هذه السنة انقرضت دولة الملثّمين بالأندلس، وملك أصحاب عبد المؤمن مدينة المريّة من الفرنج.

وسبب ذلك أنّ عبد المؤمن لما استعمل ابنه أبا سعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر أبو سعيد البحر إلى مالقة، واتّخذها داراً، وكاتبه ميمون بن بدر اللّمتوني، صاحب غَرناطة، أن يوحّد ويسلّم إليه غرناطة، فقبل أبو سعيد ذلك منه وتسلم غرناطة، فسار ميمون إلى مالقة بأهله وولده، فتلقّاه أبو سعيد، وأكرمه، ووجّهه إلى مَرّاكُش، فأقبل عليه عبد المؤمن وانقرضت دولة الملثّمين ولم يبقَ لهم إلاّ جزيرة مَيورقة (مع حمّو بن غانية)[(٥)].

---

(١) في الأوربية: «وكان».

(٢) في (أ): «بالعزاء»، وفي (ب): «في العزاء».

(٣) في الأوربية: «إليهم».

(٤) أنظر من (السلطان سنجر) في: تاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٨٢ وما بعدها، رقم ٤٩ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٥) من (أ).

فلمّا ملك أبو سعيد غَرناطة جمع الجيوش وسار إلى مدينة المرَيّة، وهي بأيدي الفرنج، أخذوها من المسلمين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فلمّا نازلها وافاه الأسطول من سَبْتَة وفيه خلق كثير من المسلمين، فحصروا المرّية برّاً وبحراً، وجاء الفرنج إلى حصنها، فحصرهم فيها ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها، وبنى أبو سعيد سوراً على الجبل المذكور إلى البحر، وعمل عليه خندقاً، فصارت المدينة والحصن الذي فيه الفرنج محصورين بهذا السور والخندق، ولا يمكن مَن ينجدهما أن[1] يصل إليهما، فجمع الأذفونش ملك الفرنج بالأندلس، المعروف بالسُّلَيْطين، في اثني عشر ألف فارس من الفرنج، ومعه محمّد بن سعد بن مردنيش في ستّة آلاف فارس من المسلمين، وراموا الوصول إلى مدينة المرَيّة ودفع المسلمين عنها، فلم يطيقوا ذلك، فرجع السُّليطين وابن مردنيش خائبين، فمات السُّليطين في عَوده قبل أن يصل إلى طُليطلة.

وتمادى الحصار على المَريّة ثلاثة أشهر، فضاقت الميرة، وقلّت الأقوات على الفرنج، فطلبوا الأمان ليسلّموا الحصن، فأجابهم أبو سعيد إليه وأمّنهم، وتسلّم الحصن، ورحل الفرنج في البحر عائدين إلى بلادهم فكان مُلكهم المَرِيّة مدّة عشر سنين[2].

ذكر غزو صاحب طَبَرِستان الإسماعيليّة

في هذه السنة جمع شاه مازَنْدَران رستم بن عليّ بن شهريار عسكره، وسار ولم يُعلم أحداً جهة مقصده، وسلك المضايق، وجدّ السير إلى بلد ألَمُوت، وهي للإسماعيليّة، فأغار عليها وأحرق القرى والسواد، وقتل فأكثر، وغنم أموالهم، وسبَى نساءهم، واسترقّ أبناءهم فباعهم في السوق وعاد سالماً غانماً، وانخذل الإسماعيليّة، ودخل عليهم من الوهن ما لم يصابوا بمثله، وخرّب من بلادهم ما لا يعمّر في السنين الكثيرة[3].

---

(١) في (أ): «لا يمكن أحدها أن».

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٣٠، العبر ٤/ ١٤٦، تاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ١٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٩، شذرات الذهب ٤/ ١٦١.

(٣) تاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ١٢.

ذكر أخذ حُجّاج خُراسان

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، سار حُجّاج خُراسان، فلمّا رحلوا عن بِسطام أغار عليهم جمعٌ من الجند الخُراسانيّة قد قصدوا طَبَرستان، فأخذوا من أمتعتهم، وقتلوا نفراً منهم، وسلِم الباقون وساروا من موضعهم.

فبينما هم سائرون إذ طلع عليهم الإسماعيليّة، فقاتلهم الحُجّاج قتالاً عظيماً، وصبروا صبراً عظيماً، فقُتل أميرُهم، فانخذلوا، وألقوا بأيديهم، واستسلموا وطلبوا الأمان، وألقوا أسلحتهم مستأمنين، فأخذهم الإسماعيليّة وقتلوهم، ولم يُبقوا منهم إلاّ شِرذمة يسيرة؛ وقُتل فيهم من الأئمّة العلماء والزهّاد والصُلحاء جمع كثير، وكانت مصيبة عظيمة عمّت بلاد الإسلام، وخصّت خُراسان، ولم يبقَ بلدٌ إلاّ وفيه المأتم.

فلمّا كان الغد طاف شيخ في القتلى والجرحى ينادي: يا مسلمون، يا حُجّاج[1]، ذهب الملاحدة، وأنا رجل مسلم، فمَن أراد الماء سقيتُه؛ فمن كلَمه قتله وأجهز عليه، فهلكوا جميعهم إلاّ من سلم وولّى هارباً؛ وقليل ما هم[2].

ذكر الحرب بين المؤيّد والأمير إيثاق

قد ذكرنا تقدّم الأمير المؤيد أي أبَه مملوك السلطان سَنجَر، وتقدّمه على عساكر خُراسان، فحسده جماعة من الأمراء منهم الأمير إيثاق[3] وهو من الأمراء السّنجَريّة، وانحرف عنه، وكان تارة يقصد خُوارزم شاه، وتارة شاه مَازَنْدَران، وتارة يُظهر الموافقة للمؤيّد، ويُبطن المخالفة.

فلمّا كان الآن فارق مازَنْدَران ومعه عشرة آلاف فارس، قد اجتمع معه كلّ مَن يريد الغارة على البلاد، وكلّ منحرف عن المؤيّد، وقصد خُراسان وأقام بنواحي نَسا وأبِيوَرْد، لا يُظهر المخالفة للمؤيّد بل يراسله بالموافقة والمعاضدة له، ويُبطن ضدّها.

وانتقل المؤيّد من المكاتبة إلى المكافحة، وسار إليه جريدة، فأغار عليه وأوقع

---

(١) في الأوربية: «يا مسلمين، يا حاج».

(٢) دول الإسلام ٢/ ٦٨، العبر ٤/ ١٤٦، تاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ١٢، مرآة الجنان ٣/ ٢٩٩، البداية والنهاية ١٢/ ٢٣٦، شذرات الذهب ٤/ ١٦١.

(٣) في (أ): «اناق»، وفي (ب): «إيتاق».

به، فتفرّق عنه جموعه ونجا بحُشاشة نفسه، وغنم المؤيّد وعسكره كلّ ما لإيثاق، ومضى منهزماً إلى مازَندَران؛ وكان ملكها رستم بينه وبين أخ له اسمه عليّ تنازُع على الملك، وقد قوي رستم، فلمّا وصل إيثاق[1] إلى مازَندَران قتل عليّاً وحمل رأسه إلى أخيه رستم، فعظم ذلك على رستم، واشتدّ واستشاط غضباً، وقال: آكل لحمي ولا أطعمه غيري.

ولم يزل إيثاق[1] يتردّد في خُراسان بالنهب والغارة، لا سيّما مدينة أسفرايين فإنّه أكثر من قصدها حتى خربت، فراسله السلطان محمود بن محمّد والمؤيّد يدعوانه إلى الموافقة، فامتنع، فسارا إليه في العساكر، فلمّا قارباه أتاهما كثير من عسكره، فمضى من بين أيديهما إلى طَبَرستان في صفر ستة ثلاثٍ وخمسين [وخمسمائة] فتبِعاه في عساكرهما، فأرسل شاه مازَندَران يطلب الصلح، فأجاباه واصطلحوا، وحمل شاه مازندران أموالاً جليلةً وهدايا نفيسةً، وسيّر إيثاق[1] ابنَه رهينةً فعادا عنه.

ذكر الحرب بين المؤيّد وسُنقُر العَزيزيّ

كان سُنقُر العزيزيّ من أمراء السلطان سَنجَر، وممّن يناوىء أيضاً المؤيّد أي أَبَه، فلمّا اشتغل المؤيد بحرب إيثاق[1] سار سنقُر من عسكر السلطان محمود بن محمّد إلى هَراة ودخلها وبها جماعة من الأتراك وتحصّن بها، فأشير عليه بأن يعتضد بالملك الحسين ملك الغُوريّة، فلم يفعل، واستبدّ بنفسه منفرداً لأنّه رأى اختلاف الأمراء على السلطان محمود بن محمّد، فطمع وحدّث نفسه بالقوّة، فقصده المؤيّد إلى هَراة، فلمّا وصل إليها قاتل مَن بها شيئاً من قتال، ثمّ إنّ الأتراك مالوا إلى المؤيّد وأطاعوه، وانقطع خبر سُنقُر العزيزيّ من ذلك الوقت، ولم يُعلم ما كان منه، فقيل: إنّه سقط من فرسه فمات؛ وقيل: بل اغتاله الأتراك فقتلوه.

وتقدّم السلطان محمود إلى ولاية هَراة في عساكره وجنوده، والتحق جماعة من عسكر سُنقُر بالأمير إيثاق، وأغاروا على طُوس وقُراها، فبطلت الزروع والحرثُ، واستولى الخرابُ على البلاد، وعمّت الفِتن أطراف خُراسان، وأصابتهم العين، فإنّهم كانوا أيّام السلطان سَنجَر في أرغد عيش وآمنه، وهذا دأب الدّنيا لا يصفو نعيمُها

---

(١) في (أ): «ايناق».

وخيرُها من كَدَر وشوائب وآفات، وقلّما يخلص شرّها من خير، نسأل الله أن يُحسِن لنا العُقبَى بمحمّد وآله.

ذكر مُلك نور الدّين بَعْلَبَكّ

في هذه السنة ملك نور الدين محمود بَعْلَبَكّ وقلعتَها، وكانت بيد إنسان يقال له ضحّاك البِقاعيّ؛ منسوب إلى بِقاع بَعْلَبَكّ، وكان قد ولاّه إيّاها صاحب دمشق؛ فلمّا ملك نور الدّين دمشق امتنع ضحّاك بها، فلم يمكن نور الدّين محاصرته لقُربه من الفرنج، فتلطّف الحال معه إلى الآن، فملكها واستولى عليها(١).

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قلع الخليفة المقتفي لأمر الله باب الكعبة، وعمل عِوضه باباً مصفّحاً بالنُّقْرة المذهبّة، وعمل لنفسه من الباب الأوّل تابوتاً يُدفن فيه إذا مات(٢).

[الوَفَيات]

وفيها تُوفّي محمّد بن عبد اللّطيف بن محمّد بن ثابت أبو بكر الخُجنديّ(٣)، رئيس أصحاب الشافعيّ بأصفهان، وسمع الحديث بها من أبي عليّ الحدّاد، وكان صدراً مقدّماً عند السلاطين، وكان ذا حشمة عظيمة وجاه عريض.

ووقعت لموته فتنة عظيمة بأصفهان وقُتل فيها خلق كثير.

[الغلاء بخراسان]

وفيها كان بخُراسان غلاء شديد أكلت فيه سائر الدّواب، حتّى النّاس، وكان بنَيسابور طبّاخ، فذبح إنساناً علويّاً وطبخه، وباعه في الطبيخ، ثمّ ظهر عليه أنّه فعل

---

(١) زبدة الحلب ٢/٣٠٥، كتاب الروضتين ١/٢٥٠، المختصر في أخبار البشر ٣/٣٣، نهاية الأرب ٢٧/١٦١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥١ هـ.) ص ٨، تاريخ ابن الوردي ٢/٥٩، البداية والنهاية ١٢/٢٣٦ وفيه: «وقد قيل إن ذلك كان في سنة خمسين».

(٢) نهاية الأرب ٢٣/٢٩٢، ٢٩٣.

(٣) أنظر عن (الخجندي) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٢ هـ.) ص ٩٨، ٩٩، رقم ٧٢ وفيه مصادر ترجمته.

ذلك، فقُتل؛ وأسفر الغلاء، وصلحت أحوال النّاس[1].

[الوفيات]

وفيها تُوفّي القاضي أبو العبّاس أحمد بن بختيار بن عليّ الماندائيّ[2] الواسطيّ قاضيها، وكان فقيهاً عالماً.

وفيها، في ربيع الآخر، تُوفّي القاضي بُرهان الدّين أبو القاسم منصور ابن أبي سعد محمّد ابن أبي نصر أحمد الصّاعديّ[3] قاضي نَيسابور، وكان من أئمّة الفقهاء الحنفيّة.

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٢ هـ.) ص ١٣، البداية والنهاية ١٢/٢٣٦.

(٢) في طبعة صادر ١١/٢٢٨، «المانداي»، ويقال: «المَنْدائي»: بفتح الميم وسكون النون ودال مهملة، وتصّحفت هذه النسبة في (البداية والنهاية) إلى: «المارداني». وانظر عنه في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٢ هـ.) ص ٧٥ رقم ٣٩ وفيه مصادر ترجمته.

(٣) أنظر عن (الصاعدي) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٢ هـ.) ص ١٠٥، ١٠٦، رقم ٨٢ وفيه مصادر ترجمته.

(٥٥٣)
ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

ذكر الحرب بين سُنقُر وأرغَش

في هذه السنة كانت حربٌ شديدة بين سُنْقُر الهمذانيّ وأرغَش المسترشديّ، وسببها أنّ سُنقُر الهمذانيّ كان قد نهب سواد بغداد بطريق خُراسان، وكثُر جمْعه، فخرج الخليفة المقتفي لأمر الله، جُمادى الأولى، بنفسه يطلبه، فلمّا وصل إلى بلد اللّحف قال له الأمير خطلبرس: أنا أكفيك هذا المهمّ؛ وكان بينه وبين سُنقُر مودّة، فركب إليه، وتلاقيا وجرى بينهما عتاب طويل لأجل خروجه عن طاعة الخليفة، فأجاب سنقر إلى الطّاعة، وعاد خطلبرس وأصلح حاله مع الخليفة وأقطعه بلد اللّحف له وللأمير أرغش المسترشديّ.

فلمّا توجّها إلى اللّحف جرى بينهما منازعة، فأراد سُنقُر قبض أرغش، فرآه محترزاً، فتحاربا، واقتتلا قتالاً شديداً، وغدر بأرغش أصحابه، فعاد منهزماً إلى بغداد، وانفرد سُنقُر ببلد اللّحف وخطب فيه للملك محمّد، فسيّر من بغداد عسكراً لقتاله مقدّمهم خطلبرس، فجرت بينهما حرب شديدة انهزم في آخرها سُنقُر، وقُتلت رجاله، ونهبت أمواله التي [في] العسكر، وسار هو إلى قلعة الماهكي وأخذ ما كان فيها، واستخلف فيها بعض غلمانه، وسار هو إلى همذان، فلم يلتفت إليه الملك محمّد شاه، فعاد إلى قلعة الماهكيّ وأقام بها.

ذكر الحرب بين شَملة وقايماز السلطانيّ

في هذه السنة أيضاً كان قتال بين شملة صاحب خوزستان، ومعه ابن (مَكلية، وبين قايماز السُّلطانيّ)[1] في ناحية بادرايا، فجمعا عسكرهما وسارا إليه، فأتاه الخبر

---

(١) من (أ).

بذلك وهو يشرب، فلم يحفل بذلك، وركب إليهم في نحو ثلاثمائة فارس، وكان معجباً بنفسه، فحمل عليهم واختلط بهم، فأحدقوا به، وقاتل أشدّ قتال، فانهزم أصحابه، وأُخذ هو أسيراً، فتسلّمه إنسان تُركمانيّ كان له عليه دمٌ، لأنّه قتل ابناً للتركمانيّ، فقتله بابنه وأرسل برأسه إلى محمّد شاه.

وأرسل الخليفة عسكراً ليقاتل شَملة ومَن معه، فانزاحوا من بين أيديهم، ولحِقوا بالملك ملكشاه بخُوزستان فهلك كثير منهم بالبرد(١).

ذكر معاودة الغُزّ الفتنة بخُراسان

كان الأتراك الغُزّيّة قد أقاموا ببلْخ واستوطنوها، وتركوا النهب والقتل ببلاد خُراسان، واتّفقت الكلمة بها على طاعة السلطان خاقان محمود بن أرسلان، وكان المتولّي لأمور دولته المؤيّد أي أبَه، وعن رأيه يصدر محمود.

فلمّا كان هذه السنة، في شعبان، سار الغُزّ من بَلْخ إلى مَرْو، وكان السلطان محمود بسَرْخَس(٢) في العساكر، فسار المؤيّد في طائفة من العسكر إليهم، فأوقع بطائفةٍ منهم، وظفر بهم، ولم يزل يتبعهم(٣) إلى أن دخلوا إلى مرو أوائل رمضان، وغنم من أموالهم، وقتل كثيراً وعاد إلى سَرخَس، فاتّفق هو والسلطان محمود على قصد الغُزّ وقتالهم، فجمعا العساكر وحشدا، وسارا إلى الغُزّ، فالتقوا سادس شوّال من هذه السنة، وجرت بينهم حرب طال مداها، فبقوا يقتتلون [من] يوم الاثنين تاسع شوّال إلى نصف اللّيل من ليلة الأربعاء الحادي عشر من الشهر، تواقعوا عدّة وقعات متتابعة، ولم يكن بينهم راحة، ولا نزولٌ، إلاّ لِما لا بُدّ منه؛ انهزم الغُزّ فيها ثلاث دفعات، وعادوا إلى الحرب.

فلمّا أسفر الصبح يوم الأربعاء انكشفت الحرب عن هزيمة عساكر خُراسان وتفرُّقهم في البلاد، وظفر الغُزّ بهم، وقتلوا فأكثروا فيهم، وأمّا الجرحى والأسرى فأكثر من ذلك.

---

(١) المنتظم ١٠/١٨١ (١٨/١٢٥)، دول الإسلام ٢/٢٩، العبر ٤/١٥١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٣ هـ.) ص ١٩، تاريخ ابن الوردي ٢/٥٩، النجوم الزاهرة ٥/٣٢٨.

(٢) في الجريدة الآسيوية ١٨٤٦ ـ مجلّد ٢/٤٥٣ «يستوحش».

(٣) في (أ): «بينهم».

وعاد المؤيّد ومَن سلِم معه إلى طُوس، فاستولى الغُزّ على مرو، وأحسنوا السيرة، وأكرموا العلماء والأئمّة مثل تاج الدّين أبي سعيد السّمعانيّ، وشيخ الإسلام عليّ البلْخيّ، وغيرهما؛ وأغاروا على سَرخَس، وخربت القُرى، وجلا[1] أهلها، وقُتل من أهل سَرخس نحو عشرة آلاف قتيل، ونهبوا طُوس أيضاً وقتلوا أهلها إلاّ القليل وعادوا إلى مرو.

وأمّا السلطان محمود بن محمّد الخان والعساكر التي معه فلم يقدروا على المقام بخُراسان من الغُزّ، فساروا إلى جُرجان ينتظرون ما يكون من الغُزّ؛ فلمّا دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة أرسل الغُزّ إلى السلطان محمود يسألونه أن يحضر عندهم ليملّكوه أمرهم، فلم يثقْ بهم وخافهم على نفسه، فأرسلوا يطلبون منه أن يرسل ابنه جلال الدّين محمداً إليهم ليملّكوه أمرهم، ويصدروا عن أمره ونهيه في قليل الأمور وكثيرها، وتردّدت الرسُل، واحتاط السلطان محمود لولده بالعهد والمواثيق، وتقرير القواعد، ثمّ سيّره من جُرجان إلى خُراسان، فلمّا سمع[2] الأمراء الغُزّيّة بقدومه ساروا من مرو إلى طريقه، فالتقوه بنَيْسابور، وأكرموه وعظّموه، ودخل نَيسابور، واتّصلت به العساكر الغُزّيّة، واجتمعوا عنده في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة أربعٍ وخمسين وخمسمائة.

ثمّ إنّ السلطان محموداً[3] سار من جُرجان إلى خُراسان في الجيوش التي معه من الأمراء السّنجريّة، وتخلّف عنه المؤيّد أي أبه، فوصل إلى حدود نَسا وأبيورْد، وأقطع نَسا لأمير اسمه عمر بن حمزة النّسَويّ، فقام في حفظها المقام المَرْضيّ، ومنع عنها أيدي المفسدين، وأقام السلطان محمود بظاهر نَسَا حتّى جُمادى الآخرة من السنة.

ولمّا كان الغُزّ بنَيسابور هذه السنة أرسلوا ألى أهل طوس يدعونهم إلى الطّاعة والموافقة، فامتنع أهل رايكان من إجابتهم إلى ذلك، واغترُّوا بسور بلدهم وبما عندهم من الشجاعة والقوّة والعُدّة الوافرة والذّخائر الكثيرة، فقصدها طائفة من الغُزّ

---

(١) في الأوربية: «وجلى».
(٢) في الأوربية: «سمعوا».
(٣) في الأوربية: «محمود».

وحصروهم، وملكوا البلد، وقتلوا فيهم ونهبوا وأكثروا، ثمّ عادوا إلى نَيسابور، وساروا مع جلال الدّين محمّد ابن السلطان محمود الخان إلى بَيْهَق، وحصروا سَابزَوار سابع عشر جمادى الآخرة سنة أربعٍ وخمسين وخمسمائة، فامتنع أهلها عليهم وقام بأمرهم النقيب عماد الدّين عليّ بن محمد بن يحيَى العلويّ الحسينيّ، نقيب العلويّين، واجتمعوا معه، ورجعوا إلى أمره ونهيه، ووقفوا عند إشارته، فامتنعوا على الغزّ، وحفظوا البلد منهم، وصبروا على القتال.

فلمّا رأى الغُزّ امتناعهم عليهم وقوّتهم أرسلوا إليهم يطلبون الصلح، فاصطلحوا، ولم يُقتل من أهل سابزوار، في تلك الحروب، غير رجلٍ واحد، ورحل الملك جلال الدّين والغُزّ عن سابزوار في السابع والعشرين من جُمادى الآخرة سنة أربعٍ وخمسين وخمسمائة، وساروا إلى نَسا وأبِيوَرْد[1].

ذكر أسر المؤيّد وخلاصه

قد ذكرنا أنّ المؤيّد أي أَبَه تخلّف عن السلطان ركن [الدّين] محمود بن محمّد بجُرجان، فلمّا كان الآن سار من جُرجان إلى خُراسان، فنزل بقرية من قُرى خُبوشان، اسمها زانَك، وبها حصن، فسمع الغُزّ بوصوله إلى زانك، فساروا إليه وحصروه فيه، فخرج منه هارباً، فرآه واحد من الغُزّ، فأخذه، فوعده بمالٍ جزيل إن أطلقه، فقال الغُزّيّ: وأين المال؟ فقال: هو مودع[2] في بعض هذه الجبال.

فسار هو والغُزّيّ، فوصلا إلى جدار قرية فيها بساتين وعيون، فقال للفارس: المال[3] ها هنا؛ وصعِد الجدار ونزل من ظهره ومضى هارباً، فرأى الغُزَّ قد ملأوا الأرض، فدخل قرية، فعرفه طحّانٌ فيها، فأعلم زعيم القرية به، وطلب منه مركباً، فأتاه بما أراد، وأعانه على الوصول إلى نَيسابور، فوصل إليها، واجتمعت عليه العساكر وقوي أمره وعاد إلى حاله، وأحسن إلى الطحّان، وبالغ في الإحسان إليه.

---

(١) المنتظم ١٠/١٨٩ (١٨/١٣٤)، العبر ٤/١٥١، دول الإسلام ٢/٧٠، سير أعلام النبلاء ٢٠/٤١١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٣ هـ.) ص ٢٠ و(حوادث ٥٥٤ هـ.) ص ٢٣، البداية والنهاية ١٢/٢٣٧.

(٢) في الأوربية: «مودوع».

(٣) في (أ): «فقال للناس المال».

ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغُزّ وعَودهم إلى نَيسابور

لمّا عاد الغُزّ ومعهم الملك محمّد بن محمود الخان إلى نَسا وأَبِيوَرْد، كما ذكرناه، خرج والده السلطان محمود الخان، وكان هناك فيمن معه من العساكر الخُراسانيّة، فاجتمع بهم واتّفقت الكلمة على طاعته، وأراد عمارة البلاد وحفظها، فلم يقدر على ذلك، فلمّا اجتمعوا ساروا إلى نَيسابور، وبها المؤيّد أي أَبَه، في شعبان، فلمّا سمع بقربهم منه رحل عنها إلى خَوافَ في السادس عشر منه، ووصلوا إليها في الحادي والعشرين منه ونزلوا فيه، وخافهم النّاس خوفاً عظيماً، فلم يفعلوا بهم شيئاً، وساروا عنها في السادس والعشرين منه إلى سَرْخَس ومَرْو، وكان بها الفقيه المؤيّد بن الحسين الموفّقيّ، رئيس الشافعيّة، وله بيت قديم، وهو من أحفاد الإمام أبي سهل الصُّعْلُوكيّ، وله مصاهرة إلى بيت أبي المعالي الجُوينيّ، وهو المقدّم في البلد والمشار إليه، وله من الأتباع ما لا يُحصى.

فاتّفق أنّ بعض أصحابه قتل إنساناً من الشافعيّة، اسمه أبو الفتوح الفستقانيّ، خطأ، وأبو الفتوح هذا له تعلّق بنقيب العلويّين[1] بنَيسابور، وهو ذُخر الدّين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسينيّ، وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدّة بنَيسابور، فغضب من ذلك وأرسل إلى الفقيه المؤيّد يطلب منه القاتل ليقتصّ منه، ويتهدّده إن لم يفعل، فامتنع المؤيّد من تسليمه، وقال: لا مدخل لك مع أصحابنا، إنّما حكمك على الطائفة العلويّين؛ فجمع النقيب أصحابه ومن يتبعه وقصد الشافعيّة، فاجتمعوا له وقاتلوه، فقُتل منهم جماعة، ثمّ إنّ النقيب أحرق سوق العطّارين، وأحرقوا سكّة مُعاذ وسكّة باغ ظاهر، ودار إمام الحرمَين أبي المعالي الجُوَينيّ، وكان الفقيه المؤيّد الشافعيّ بها للصهر الذي بينهم.

وعظُمت المصيبة على النّاس كافة[2]، وجمع بعد ذلك المؤيّد الفقيه جموعاً من طُوس وأسفرايين وجُوَين وغيرهم، وقتلوا واحداً من أتباع النقيب زيد يُعرف بابن الحاجيّ الأُشْنانيّ، فأهمّ العلويّة ومَن معهم، فاقتتلوا ثامن عشر شوّال من سنة أربعٍ وخمسين [وخمسمائة]، وقامت الحرب على ساق، وأُحرقت المدارس والأسواقَ

---

(١) في الأوربية: «العوليين».

(٢) في الأوربية: «كافّة النّاس».

والمساجد، وكثُر القتل في الشافعيّة، فالتجأ[1] المؤيّد إلى قلعة فَرخك[2]، وقصُر باع الشافعيّة عن القتال، ثمّ انتقل المؤيّد إلى قرية من قرى طوس، وبطلت دروس الشافعيّة بنَيسابور، وخرب البلد وكثُر القتل فيه[3].

ذكر حصر صاحب خَتْلان تِرْمِذَ وعَوده وموته

في هذه السنة، في رجب، سار الملك أبو شجاع فَرُخْشَاه وهو يزعم أنّه من أولاد بَهرام جُور، وقد تقدّم ذِكره أيام كسرى أَبَرْويز، إلى تِرمِذ وحصرها.

وكان سبب ذلك أنّه كان في طاعة السلطان سَنجَر. فلمّا خرج عليه الغُزّ طلبه ليحضر معه حربه لهم، فجمع عسكره، وأظهر أنّه واصلٌ (فيمَنْ عنده من العساكر إليه)[4]، وأقام ينتظر ما يكون منه، فلمّا[5] ظفر حضر، وقال له: سبقتني بالحرب؛ وإن كان الظَّفر للغُزّ قال: إنّما تأخرّتُ محبّةً وإرادة أن تملكوا؛ فلمّا انهزم سَنجَر، وكان ما ذكرناه، بقي إلى الآن، فسار إلى تِرمِذ ليحصرها، فجمع صاحبها فَيرُوزشاه أحمد بن أبي بكر بن قَماج عسكره، ولقِيه ليمنعه، فاقتتلوا، فانهزم فَيروزشاه، ومضى منهزماً لا يلوي على شيء، فأصابه في الطريق قُولنج فمات منه.

ذكر عود المؤيّد إلى نَيسابور وتخريب ما بقي منها

في هذه السنة عاد المؤيّد أي أَبَه إلى نَيسابور في عساكره ومعه الإمام المؤيّد الموفّقيّ الشافعيّ الذي تقدّم ذكر الفتنة بينه وبين ذُخْر الدّين نقيب العلويّين وخروجه من نَيسابور، فلمّا خرج منها صار مع المؤيّد وحضر معه حصار نَيسابور، وتحصّن النقيب العلويّ بشارستان واشتدّ الخطْب، وطالت الحرب، وسُفكت الدّماء وهُتكت الأستار وخرّبوا ما بقي من نَيسابور من الدُّور وغيرها، وبالغ الشافعيّة ومَن معهم في الانتقام فخرّبوا المدرسة الصندليّة لأصحاب أبي حنيفة وخرّبوا غيرها وحصروا

---

(١) في الأوربية: «فالتجى».

(٢) في الجريدة الآسيوية ١٨٤٦ مجلّد ٢/ ٤٥٩ «فدخلوا».

(٣) العبر ٤/ ١٥٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٣ هـ.) ص ٢٥، مرآة الجنان ٣/ ٣٠٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٣٧، الكواكب الدرية ١٥٦، ١٥٧.

(٤) من (ب).

(٥) في (أ): «فإن».

قُهُنْدُز[1]، وهذه الفتنة استأصلت نَيسابور، ثمّ رحل المؤيّد أي أبَه عنها إلى بيهق في شوّال من سنة أربعٍ وخمسين وخمسمائة؛ كان ينبغي أن تكون هذه الحوادث الغزّيّة الواقعة في سنة أربعٍ وخمسين مذكورة في سنتها، وإنّما قدّمناها ها هنا وذكرناها هاهنا ليتلو بعضها بعضاً فيكون أحسن لسياقتها[2].

ذكر مُلك ملكشاه خوزستان

في هذه السنة ملك ملكشاه ابن السلطان محمود بلد خوزستان وأخذه من شملةَ التّركمانيّ، وسبب ذلك أنّ الملك محمّداً[3] ابن السلطان محمود لما عاد من حصار بغداد، كما ذكرناه، مرض وبقي مريضاً بهَمَذان، ومضى أخوه ملكشاه إلى قُمّ وقاشان وما والاها، ، فنهبها جميعها، وصادر أهلها وجمع أموالاً كثيرةً؛ فراسله أخوه محمّد شاه يأمره بالكفّ عن ذلك ليجعله وليّ عهده في الملك، فلم يفعل، ومضى إلى أصفهان، فلمّا قاربها أرسل رسولاً إلى ابن الخُجَنديّ وأعيان البلد في تسليم البلد إليه، فامتنعوا من ذلك، وقالوا: لأخيك في رقابنا يمين، ولا نغدر به؛ فحينئذٍ شرع ملكشاه في الفساد والمصادرة لأهل القُرى.

فلمّا سمع محمد شاه الخبر سار عن همذان، وعلى مقدّمته كُرد بازوه الخادم، فتفرّقت جموع ملكشاه فانهزم إلى بغداد، فلم يتبعه محمّد شاه لمرضه، فنزل ملكشاه عند قرمسين، فلحِق به قُويدان[4]، وكان قد فارق المقتفي لأمر اللّه، واتّفق مع سُنقُر الهَمَذانيّ، فلحِق[5] كلاهما به، وحسّنا له قصد بغداد، فسار عن بلد خوزستان إلى واسط، ونزل بالجانب الشرقيّ، وهم على غاية الضّرّ من الجوع والبرد، فنهبوا القُرى نهباً فاحشاً، ففُتح بثق بتلك الناحية فغرق منهم كثير، ونجا ملكشاه ومَن سَلِم معه، وساروا إلى خُوزستان، فمنعه شملة من العبور، فراسله ليمكنه من العبور إلى أخيه

---

(١) في (أ): «قهندزها».

(٢) العبر ٤/١٥٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٣ هـ) ص ٢٥، مرآة الجنان ٣/٣٠٧، البداية والنهاية ١٢/٢٣٧، الكواكب الدرية ١٥٦، ١٥٧.

(٣) في الأوربية: «محمد».

(٤) في الباريسية، وفي نسخة رقم ٧٤٠ «قويران».

(٥) في الأوربية: «فلحقا».

الملك محمّد شاه، فلم يُجِبه إلى ذلك، وكاتب حينئذٍ الأكراد الكر[١] الذين هناك، واستدعاهم إليه، ففرحوا به، ونزل إليه من تلك الجبال خلق كثير، فأطاعوه، فرحل ونزل على كَرخايا، وطلب من شَملة الحرب، فألانَ له شمة القولَ، وقال: أنا أخطب لك وأكون معك؛ فلم يقبل منه، فاضطرّ شملة إلى الحرب، فجمع عسكره وقصده، فلقيه ملكشاه ومعه سُنقُر الهمذانيّ وقُويدان[٢]، وغيرهما من الأمراء، فاقتتلوا، فانهزم شملة، وقُتل كثير من أصحابه، وصعِد إلى قلعته دُندزْزين[٣] وملك ملكشاه البلاد، وجبَى الأموال الكثيرة وأظهر العدل، وتوجّه إلى أرض فارس[٤].

ذكر الحرب بين التركمان والإسماعيليّة بخُراسان

كان بنواحي قُهِستان طائفة من التركمان، فنزل إليهم جمع من الإسماعيليّة من قلاعهم، وهم ألف وسبعمائة، فأوقعوا بالتركمان، فلم يجدوا الرجال، وكانوا قد فارقوا بيوتهم، فنهبوا الأموال، وأخذوا النساء والأطفال، وأحرقوا ما لم يقدروا على حمله.

وعاد التركمان فرأوا ما فُعل بهم، فتبعوا أثر الإسماعيليّة، فأدركوهم وهم يقتسمون الغنيمة، فكبّروا وحملوا عليهم، ووضعوا فيهم السيف، فقتلوهم كيف شاؤوا، فانهزم الإسماعيليّة وتبِعهم التُركمان حتّى أفنوهم قتلاً وأسراً، ولم ينجُ إلاّ تسعة رجال[٥].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كثُر فساد التُركمان أصحاب برجم الإيوائيّ بالجبل، فسُيِّر إليهم من بغداد عسكر مقدّمهم منكُبرس المسترشديّ، فلمّا قاربهم اجتمع التّركمان، فالتقوا واقتتلوا هم ومنكُبرس، فانهزم التركمان أقبح هزيمة، وقُتل بعضهم، وأُسر بعض، وحُملت الرؤوس والأسارى إلى بغداد.

---

(١) في (أ): «اللر».

(٢) في الباريسية ونسخة ٤٧٠ «قويران».

(٣) في الباريسية ونسخة ٤٧٠ «ندر زين الدين وملكشاه».

(٤) المنتظم ١٠/ ١٨١ (١٨/ ١٢٥، ١٢٦).

(٥) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٣ هـ.) ص ٢١، دول الإسلام ٢/ ٦٩، ٧٠، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١١، العبر ٤/ ١٥١، عيون التواريخ ١٢/ ٥٠٦، مرآة الجنان ٣/ ٣٠٣، الكواكب الدرية ١٥٥.

وفيها حجّ النّاس، فلمّا وصلوا إلى مدينة النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، أتاهم الخبر أنّ العرب قد اجتمعت لتأخذهم، فتركوا الطريق وسلكوا طريق خيبر، فوجدوا مشقّة شديدة، ونجوا من العرب[١].

[الوفيات]

وفيها تُوفّي الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطّار أبو القاسم الحرّانيّ[٢]، ومولده بحَرّان سنة أربعٍ وثمانين وأربعمائة، وأقام ببغداد وكثُر ماله وصدقاته أيضاً، وكان يقرأ القرآن؛ وهو والد ظهير الدّين الذي حكم في دولة المستضيء بأمر اللّه على ما نذكره إن شاء اللّه.

وفيها تُوفّي أبو الوقت عبد الأوّل بن عيسى بن شُعيب[٣] السّجْزيّ[٤] ببغداد، وهو سِجزيّ الأصل، هَرَويّ المنشإ، وكان قدِم إلى بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة يريد الحجّ، فسمع النّاس بها عليه صحيح البُخاريّ؛ وكان عالي الإسناد، فتأخّر لذلك عن الحجّ، فلمّا كان هذه السنة عزم على الحجّ فمات.

وفيها تُوفّي يحيَى بن سلامة[٥] بن الحسن بن محمّد أبو الفضل الحَصْكَفيّ الأديب بميّافارقين، وله شِعر حَسَن ورسائل جيدّة مشهورة، وكان يتشيّع؛ ومولده بطَنْزَة، فمن شعره:

وخَليعٍ بِتُّ أعذُلُهُ ... وَيَرَى عَذْلي مِنَ العَبَثِ
قُلتُ: إنّ الخَمْرَ مَخبَثَةٌ ... قال: حاشاها مِنَ الخَبَثِ
قُلتُ: فالأرْفاثُ تَتبَعُها[٦] ... قال: طَيِّبُ العيشِ في الرَّفَثِ

---

(١) أنظر: المنتظم ١٠/ ١٨٢ (١٨/ ١٢٦).

(٢) أنظر عن (الحرّاني) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٣ هـ.) ص ١٣٤ ـ ١٣٦ رقم ١١٥ وفيه مصادر ترجمته.

(٣) في الأوربية: «سعيب».

(٤) أنظر عن (السجزي) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٣ هـ.) ص ١١٢ ـ ١٢١ رقم ٩٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٥) أنظر عن (يحيى بن سلامة) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥١ هـ.) ص ٧٠ ـ٧٢ رقم ٥٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٦) في تاريخ الإسلام: «تمنعها».

قلتُ: منها القَيْء، قال: أجل شُرِّفَتْ عن مَخرَجِ الحَدَثِ
وَسأسْلُوها[1]، فقُلْتُ: متى؟ فقال: عند الكوْنِ في الجدَثِ[2]

(١) في تاريخ الإسلام: «وسأجفوها».
(٢) الأبيات في: معجم الأدباء ٧/ ٢٨٢، وتاريخ الإسلام (وفيات ٥٥١ هـ.) ص ٧١، وعيون التواريخ ١٢/ ٥١١.

(٥٥٤)
ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة

ذكر مُلك عبد المؤمن مدينة المَهديّة من الفرنج ومُلكه جميع إفريقية

قد ذكرنا سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة مُلك الفرنج مدينة المَهديّة من صاحبها الحسن بن تميم بن المعزّ بن باديس الصّنهاجيّ، وذكرنا أيضاً سنة إحدى وخمسين ما فعله الفرنج بالمسلمين في زَوِيلَةَ المدينة المجاورة للمهديّة من القتل والنهب، فلمّا قتلهم الفرنج، ونهبوا أموالهم، هرب منهم جماعة وقصدوا عبد المؤمن صاحب المغرب، وهو بمَرّاكُش، يستجيرونه، فلمّا وصلوا إليه ودخلوا عليه أكرمهم[1]، وأخبروه بما جرى على المسلمين، وأنّه ليس في ملوك الإسلام مَن يُقصَد سواه، ولا يكشف هذا الكُرَب غيره؛ فدمعت عيناه وأطرق، ثمّ رفع رأسه وقال: أبشِروا، لأنصرنّكم ولو بعد حين.

وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفَيْ دينار، ثمّ أمر بعمل الروايا والقِرب والحياض وما يحتاج[2] إليه العساكر في السفر، وكتب إلى جميع نوّابه في الغرب وكان قد ملك إلى قريب تُونُس، يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصّل[3] من الغلاّت، وأن يُترك في سنبله، ويخزن في مواضعه، وأن يحفروا الآبار في الطرق، ففعلوا جميع ما أمرهم به، وجمعوا الغلاّت ثلاث سنين ونقلوها إلى المنازل، وطيّنوا عليها، فصارت كأنّها تلال.

فلمّا كان في صفر من هذه السنة سار عن مَرّاكُش، وكان أكثر أسفاره في صفر، فسار يطلب إفريقية، واجتمع من العساكر مائة ألف مقاتل، ومن الأتباع والسوقة

---

(١) في المكتبة الصقلية ٣٠٣ «دخلوا إليه فأكرمهم».
(٢) في المكتبة الصقلية ٣٠٣ «تحتاج».
(٣) في المكتبة الصقلية ٣٠٤ «يحصل».

أمثالهم، وبلغ من حفظه لعساكره أنّهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذّى[1] بهم سنبلة، وإذا نزلوا صلّوا جميعهم مع إمام واحد بتكبيرة واحدة، لا يتخلّف منهم أحد كائناً[2] من كان.

وقدم بين يديه الحسن بن عليّ بن يحيَى بن تميم بن المعزّ بن باديس الصّنهاجيّ، الذي كان صاحب المهديّة وإفريقية، وقد ذكرنا سبب مصيره عند عبد المؤمن، فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تُونس في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة، (وبها صاحبها أحمد بن خراسان)[3]، وأقبل أسطوله في البحر في سبعين شينيّاً وطريدةً وشَلَنْدَى، فلمّا نازلها أرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته، فامتنعوا، فقاتلهم من الغد أشدّ قتال، فلم[4] يبقَ إلاّ أخذها، ودخول الأسطول إليها، فجاءت ريح عاصف منعت الموحّدين من دخول البلد، فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوه.

فلمّا جنّ اللّيل نزل سبعة عشر رجلاً من أعيان أهلها إلى عبد المؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم، فأجابهم إلى الأمان لهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطّاعة، وأمّا[5] ما عداهم من أهل البلد فيؤمنهم في أنفسهم وأهاليهم، ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفَين، وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله؛ فاستقرّ ذلك، وتسلّم البلد، وأرسل إليه مَن يمنع العسكر من الدخول[6]، وأرسل أمناءه ليقاسموا النّاس على أموالهم، وأقام عليها ثلاثة أيام، عرض الإسلام على مَن بها من اليهود والنصارى، فمَن أسلم سلم، ومَن امتنع قُتل، وأقام[7] أهل تونُس بها[8] بأجرة تؤخذ عن[9] نصف مساكنهم[10].

---

(١) في المكتبة الصقلية ٣٠٤ «يتأذى».
(٢) في الأوربية: «كائن».
(٣) من (أ).
(٤) في (أ) زيادة : «نزل».
(٥) في الصقلية ٣٠٥ «من».
(٦) زاد في الصقلية: «إليه».
(٧) في الأصل: «وأقام مسكنهم»، والمثبت من (أ).
(٨) «بها» ليست في الصقلية.
(٩) «عن» ليست في الصقلية.
(١٠) أنظر حول إسلام أصل الذمة ما ذكره سبط ابن الجوزي في: مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ١٩٥ (حوادث =

وسار عبد المؤمن منها إلى المهديّة والأسطول يُحاذيه في البحر، فوصل إليها ثامن[1] عشر رجب، وكان حينئذٍ بالمهديّة أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان، وقد أخلوا زَويلة، وبينها وبين المهديّة غلوة سهم، فدخل عبد المؤمن زَويلة، وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة في ساعة، ومَن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها. وانضاف إليه[2] من صنهاجة والعرب وأهل البلاد ما يخرج عن الإحصاء[3]، وأقبلوا يقاتلون المهديّة مع الأيّام، فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوّة سورها وضيق موضع القتال عليها، لأنّ البحر دائر بأكثرها، فكأنّها كفّ في البحر، وزندها متّصل بالبرّ.

وكانت الفرنج تخرج شجعانهم إلى أطراف العسكر، فتنال منه وتعود سريعاً؛ فأمر عبد المؤمن أن يبنى سور في غرب المدينة يمنعهم من الخروج، وأحاط الأسطول بها في البحر، وركب عبد المؤمن في شيني، ومعه الحسن بن عليّ الذي كان صاحبها، وطاف[4] بها في البحر، فهاله ما رأى من حصانتها، وعلم أنّها لا تُفتح بقتال بَرّاً ولا بحراً، وليس لها إلاّ المطاولة، وقال للحسن: كيف نزلتَ عن مثل هذا الحصن؟ فقال: لقلّة مَن يوثق به، وعدم القوت، وحكم القدر. فقال: صدقتَ! وعاد من البحر، وأمر بجمع الغلات والأقوات وترك القتال، فلم يمضِ غير قليل حتى صار في العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير، فكان مَن يصل إلى العسكر من بعيد يقولون: متى حدثت هذه الجبال ها هنا؟ فيقال لهم: هي حنطة وشعير؛ فيعجبون من ذلك.

وتمادى الحصار، وفي مدّته أطاع سَفَاقُسُ[5] عبد المؤمن، وكذلك مدينة طرابلس، وجبال نَفُوسَة، وقصور إفريقية وما والاها[6]، وفتح مدينة قابِس[7] بالسيف، وسيّر ابنَه أبا محمّد عبد الله في جيش ففتح بلاداً، ثمّ إنّ أهل مدينة قَفْصَة لما رأوا

= سنة ٥٤٢ هـ.) وتاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٢٥٧.

(١) في (أ) والصقلية ٣٠٥ «ثاني»، وكذلك في: نهاية الأرب ٢٤/ ٣١٢.

(٢) في الصقلية: «إليهم»، وكذلك في نهاية الأرب.

(٣) في الصقلية: «الحصاء».

(٤) في الصقلية: ٣٠٦ «وأطاف».

(٥) في الصقلية: «أهل سفاقس»، وكذلك في نهاية الأرب ٢٤/ ٣١٣.

(٦) في الصقلية: «ولاها».

(٧) في الصقلية: «وفتح قابس».

تمكُّن عبد المؤمن أجمعوا على المبادرة إلى طاعته، وتسليم المدينة إليه، فتوجّه صاحبها يحيَى بن تميم بن المعزّ، ومعه جماعة من أعيانها، وقصدوا عبد المؤمن، فلمّا أعلمه حاجبه بهم[١] قال له عبد المؤمن: قد اشتبه عليك، ليس هؤلاء أهل قَفْصَة؛ فقال له: لم يشتبه عليّ، قال له عبد المؤمن: كيف يكون ذلك والمهدي يقول إنّ أصحابنا يقطعون أشجارها ويهدمون أسوارها، ومع هذا فنقبل منهم ونكفّ عنهم ليقضي اللّه أمراً كان مفعولاً. فأرسل إليهم طائفة من أصحابه، ومدحه شاعر منهم بقصيدة أوّلها:

مـا هـزّ عطفيـه بيـنَ البِيـضِ والأسَـلِ   مثـلُ الخليفـةِ عبـدِ المـؤمـنِ بـنِ علـي[٢]

فوصله بألف دينار.

ولمّا كان في الثاني والعشرين من شَعبان من السنة جاء أسطول صاحب صقلّية في مائة وخمسين شينيّاً[٣] غير الطرائد، وكان قدومه من جريرة يابسة من بلاد[٤] الأندلس وقد سبَى[٥] أهلها وأسرهم وحملهم معه، فأرسل إليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمجيء إلى المهديّة، فقدِموا في التاريخ، فلمّا قاربوا المهديّة حطّوا شُرُعهم ليدخلوا الميناء، فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن، وركب العسكر جميعه، ووقفوا على جانب البحر، فاستعظم الفرنج ما رأوه[٦] من كثرة العساكر، ودخل الرعب قلوبهم، وبقي عبد المؤمن يُمَرّغ وجهه على الأرض، ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر، واقتتلوا في البحر، فانهزمت شواني الفرنج، وأعادوا القلوع، وتبِعهم المسلمون، فأخذوا منهم سبع شوانٍ[٧]، ولو كان معهم قلوع لأخذوا أكثرها[٨]، وكان أمراً عجيباً[٩]، وفتحاً قريباً.

---

(١) «بهم» ليست في الصقلية.

(٢) البيت في: وفيات الأعيان ٣/ ٢٣٩، وسير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٧٠، وتاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٢٥٦.

(٣) في المكتبة الصقلية ٣٠٧ «شيني».

(٤) في المكتبة الصقلية ٣٠٧ «بلد».

(٥) في المكتبة الصقلية ٣٠٧ «سبا».

(٦) في المكتبة الصقلية ٣٠٧ «رأوا».

(٧) في المكتبة الصقلية ٣٠٧ «شواني».

(٨) في المكتبة الصقلية: «أكثرهم».

(٩) في الأوربية: «معجباً».

وعاد أسطول المسلمين مظفّراً منصوراً، وفرّق فيهم عبد المؤمن الأموال؛ ويئس أهل المهديّة حينئذٍ من النجدة، وصبروا على الحصار ستّة أشهر إلى آخر شهر[١] ذي الحجّة من السنة، فنزل حينئذٍ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة، وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم، وكان قوتهم قد فني حتى أكلوا الخيل، فعرض عليهم الإسلام، ودعاهم إليه، فلم يجيبوا، ولم يزالوا يتردّدون إليه أيّاماً واستعطفوه[٢] بالكلام الليّن، فأجابهم إلى ذلك، وأمّنهم وأعطاهم سفناً فركبوا فيها وساروا، وكان الزمان شتاء، فغرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صَقلّية إلاّ النفر اليسير.

وكان صاحب صَقلّية قد قال: إن قتل عبد المؤمن أصحابنا[٣] بالمهديّة قتلنا المسلمين الذين هم[٤] بجزيرة صقلّية، وأخذنا حُرَمهم وأموالهم؛ فأهلك اللّه الفرنج غرقاً، وكانت[٥] مدّة ملكهم المهديّة اثنتي[٦] عشرة سنة.

ودخل عبد المؤمن المهديّة بُكرة عاشوراء من المحرّم سنة خمسٍ[٧] وخمسين وخمسمائة، وسمّاها عبد المؤمن سنة الأخماس، وأقام بالمهديّة عشرين يوماً، فرتّب أحوالها، وأصلح ما انثلم من سورها، ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعُدد، واستعمل عليها بعضَ أصحابه[٨]، وجعل معه الحسن بن عليّ الذي كان صاحبها، وأمره أن يقتدي برأيه في أفعاله، وأقطع الحسن بها أقطاعاً، وأعطاه دُوراً نفيسةً يسكنها، وكذلك فعل بأولاده، ورحل من المهديّة أوّل صفر من السنة إلى بلاد الغرب[٩].

---

(١) «شهر» ليست في الصقلية.
(٢) في المكتبة الصقلية ٣٠٧ «ويستعطفوه».
(٣) في المكتبة الصقلية ٣٠٨ «من أصحابنا».
(٤) «هم» ليست في الصقلية.
(٥) في الصقلية: «وكان».
(٦) في الأوربية: «اثني».
(٧) في البداية والنهاية ١٢/ ٢٤ «أربع».
(٨) هو أبو عبد الله محمد بن فرج، كما في نهاية الأرب ٢٤/ ٣١٤.
(٩) أنظر الخبر في: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زَرْع (طبعة ١٣٠٥ هـ.) ص ١٤، والمؤنس في تاريخ إفريقية والأندلس لابن أبي دينار ١١١، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (طبعة أوربا) - ص ٢٢٨ (سنة =

ذكر إيقاع عبد المؤمن بالعرب

لمّا فرغ عبد المؤمن من أمر المهديّة وأراد العَود إلى الغرب جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بإفريقية، وقال لهم: قد وجبت علينا نُصرة الإسلام، فإنّ المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس، واستولوا على كثيرٍ من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين. وما يقاتلهم أحد مثلكم، فبكم فُتحت البلاد أوّل الإسلام، وبكم يُدفع عنها العدوّ الآن، ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل اللّه. فأجابوا بالسمع والطاعة، فحلّفهم على ذلك باللّه تعالى، وبالمُصحف، فحلفوا، ومشوا معه إلى مضيق جبل زَغْوَان[1].

وكان منهم إنسان يقال له يوسف بن مالك، وهو من أمرائهم ورؤوس القبائل فيها، فجاء إلى عبد المؤمن باللّيل وقال له سرّاً: إنّ العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس. وقالوا: ما غرضه إلاّ إخراجنا من بلادنا، وإنّهم لا يفون بما حفلوا عليه؛ فقال: يأخذ اللّه، عزّ وجلّ، الغادر. فلمّا كانت اللّيلة الثانية هربوا إلى عشائرهم، ودخلوا البرّ، ولم يبقَ منهم إلاّ يوسف بن مالك، فسماه عبد المؤمن: «يوسف الصادق».

ولم يُحدِث عبد المؤمن في أمرهم شيئاً، وسار مغرّباً يحثّ السير حتّى قرُب من القسنطينة، فنزل في موضع مخصب يقال له: وادي النساء، والفصل ربيع، والكلأ مستحسَن، فأقام به وضبط الطُّرق، فلا يسير من العسكر أحد البتّة، ودام ذلك عشرين يوماً، فبقي النّاس في جميع البلاد لا يعرفون لهذا العسكر خبراً مع كثرته وعِظَمه، ويقولون: ما أزعجه إلاّ خبرٌ وصله من الأندلس، فحثّ لأجله السير، فعادت العرب الذين جفلوا منه من البرّيّة إلى البلاد لمّا أمِنوا جانبه، وسكنوا البلاد التي ألِفوها، واستقرّوا في البلاد.

= ٥٥٣ هـ.)، ونهاية الأرب ٣١٠/٢٤ ـ ٣١٥، وتاريخ ابن خلدون ٢٤٤/٥، ٢٤٥ و٣٣٧/٦، والاستقصا لأخبار المغرب الأقصى لأحمد بن خالد الناصري (طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء)، وتاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٢٧، ٢٨، وسير أعلام النبلاء ٤١١/٢٠، والروض المعطار للحميري ٥٦٢.

(١) زَغوان: جبل عالٍ بين تونس والقيروان بحذاء جزيرة شريك. (البكري ٤٥، الإدريسي ١١٩، الحميري ٢٩٤).

فلمّا علم عبد المؤمن برجوعهم جهّز إليهم ولدَيْه أبا محمّد وأبا عبد اللّه في ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحّدين وشجعانهم، فجدّوا السير، وقطعوا المفاوز، فما شعَرَ العرب إلاّ والجيش قد أقبل بغتةً من ورائهم، من جهة الصحراء، ليمنعوهم الدخول إليها إن راموا ذلك.

وكانوا قد نزلوا جنوباً من القَيْروان عند جبل يقال له جبل القَرن، وهم زُهاء ثمانين ألف بيت، والمشاهير من مقدّميهم: أبو محفوظ مُحرز بن زيّاد، ومسعود بن زمام، وجُبارة بن كامل وغيرهم، فلمّا أطلّت عساكر عبد المؤمن عليهم اضطربوا، واختلفت كلمتهم، ففر مسعود وجبارة بن كامل ومن معهما من عشائرهما، وثبت محرز بن زياد، وأمرهم بالثبات والقتال، فلم يلتفتوا إليه، فثبت هو ومَن معه من جمهور العرب، فناجزهم الموحّدون القتال في العشر الأوسط من ربيع الآخر من السنة، وثبت الجمعان. واشتدّ العراك بينهم وكثُر القتل، فاتّفق أنّ محرز بن زيّاد قُتل، ورُفع رأسه على رمح، فانهزمت جموع العرب عند ذلك، وأسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال، وحُمل جميع ذلك إلى عبد المؤمن وهو بذلك المنزل، فأمر بحفظ النساء العربيات الصرائح، وحملهنّ معه تحت الحفظ والبرّ والصيانة إلى بلاد الغرب، وفعل معهنّ مثل ما فعل في حريم الأبثج.

ثمّ أقبلت إليه وفود رِياح مهاجرين في طلب حريمهم كما فعل الأبثج، فأجمل الصنيع لهم، وردّ الحريم إليهم، فلم يبقَ منهم أحدٌ إلاّ صار عنده، وتحت حكمه، وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الإحسان، ثمّ إنّه جهّزهم إلى ثغور الأندلس على الشرط الأوّل، وجُمعت عظام العرب المقتولين في هذه المعركة عند جبل القرن، فبقيت دهراً طويلاً كالتلّ العظيم يلوح للناظرين من مكانٍ بعيد، وبقيت إفريقية مع نوّاب عبد المؤمن آمنةً ساكنةً لم يبقَ فيها من أمراء العرب خارجاً عن طاعته إلاّ مسعود بن زِمام، وطائفته في أطراف البلاد[1].

ذكر غرق بغداد

في هذه السنة، ثامن ربيع الآخر، كثُرت الزيادة في دجلة، وخرق القورج فوق

---

(١) الخبر في: الأنيس المطرب ١٤٠ ونهاية الأرب ٢٤/ ٣١٥ ـ٣١٧، والاستقصا ٢/ ١٢٥.

بغداد، وأقبل المدّ إلى البلد، فامتلأت الصّحارى وخندق البلد، وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر الشهر، فوقع بعض السور عليها فسدّها، ثمّ فتح الماء فتحة أخرى، وأهملوها ظنّاً أنّها تنفّس عن السور لئلاّ يقع، فغلب الماء، وتعذّر سدّه،، فغرق قَراح ظَفَر، والأجَمَة والمُختارة، والمُقتَديّة، ودَرب القَبّار[1]، وخَرابة ابن جُردة[2]، والرّيّان، وقَراح القاضي، وبعض القطيعة، وبعض باب الأزَج، وبعض المأمونيّة، وقَراح أبي الشّحم، وبعض قَراح ابن رَزِين، وبعض الظَّفَريّة.

ودبّ الماء تحت الأرض إلى أماكن فوقعت، وأخذ النّاس يعبرون إلى الجانب الغربيّ، فبلغت المعبرة عدّة دنانير، ولم يكن يقدر عليها، ثمّ نقص الماء وتهدّم السور وبقي الماء الذي داخل السور يدبّ في المحالّ التي لم يركبها الماء، فكثُر الخراب، وبقيت المحالّ لا تُعرف إنّما هي تُلُولٌ، فأخذ النّاس حدود دُورهمْ بالتّخمين.

وأمّا الجانب الغربيّ فغرقت فيه مقبرة أحمد بن حَنْبَل وغيرُها من المقابر، وانخسفت القبور المبنيّة، وخرج الموتَى على رأس الماء، وكذلك المشهد والحربيّة، وكان أمراً عظيماً[3].

ذكر عود سُنقُر الهمذانيّ إلى اللّحف وانهزامه

في هذه السنة عاد سنقر الهمذانيّ إلى إقطاعه، وهو قلعة الماهكيّ وبلد اللّحف، وكان الخليفة قد أقطعه للأمير قايماز العميديّ، ومعه أربعمائة فارس، فأرسل إليه سُنقُر يقول له: ارحل عن بلدي؛ فامتنع، فسار إليه، وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه العميديُّ، ورجع إلى بغداد بأسوإ حال.

فبرز الخليفة، وسار في عساكره إلى سُنقُر، فوصل إلى النعمانيّة وسيّر العساكر مع ترشك ورجع إلى بغداد، ومضى ترشك نحو سنقر الهمذانيّ، فتوغّل سُنقُر في الجبال هارباً، ونهب ترشك ما وجد له ولعسكره من مال وسلاح وغير ذلك، وأسر

---

(١) في (أ): «القيار».

(٢) في (ب): «حردة»، وفي الباريسية، والنسخة ٧٤٠ «جودة».

(٣) المنتظم ١٠/ ١٩٠ (١٨/ ١٣٥)، مرآة الزمان ٨/ ٢٣٢، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٩٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٤ هـ.) ص ٢٤، الكواكب الدرية ١٥٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٢٩، شذرات الذهب ٤/ ١٦٩.

وزيره، وقتل مَن رأى من أصحابه، ونزل على الماهكي وحصرها أيّاماً، ثمّ عاد إلى البَندنِيجَين، وأرسل إلى بغداد بالبشارة.

وأمّا سُنقُر فإنّه لحق بملكشاه فاستنجده، فسيّر معه خمس مائة فارس، فعاد ونزل على قعلة هناك، وأفسد أصحابه في البلاد، وأرسل ترشك [إلى] بَغداد يطلب نجدة، فجاءته، فأراد سُنقُر أن يكبس ترشك، فعرف ذلك، فاحترز، فعدل سُنقُر إلى المخادعة، فأرسل رسولاً إلى ترشك يطلب منه أن يصلح حاله مع الخليفة، فاحتبس ترشك الرسول عنده وركب فيمَن خفّ من أصحابه، فكبس سُنقُر ليلاً، فانهزم هو وأصحابه، وكثُر القتل فيهم، وغنم ترشك أموالهم ودوابّهم وكلّ ما لهم ونجا سُنقُر جريحاً.

ذكر الفتنة بين عامّة استراباذ

في هذه السنة وقع في استراباذ فتنة عظيمة بين العلويّين ومَن يتبعهم من الشيعة وبين الشافعيّة ومَن معهم. وكان سببها أنّ الإمام محمّداً[1] الهَرَويّ وصل إلى استراباذ، فعقد مجلس الوعظ، وكان قاضيها أبو نصر سعد بن محمّد بن إسماعيل النعيميّ شافعيّ المذهب أيضاً، فثار العلويّون ومَن يتبعهم من الشيعة بالشافعيّة ومَن يتبعهم باستراباذ، ووقعت بين الطائفتَين فتنة عظيمة انتصر فيها العلويّون، فقُتل من الشافعيّة جماعة، وضُرب القاضي ونُهبت داره ودُور مَن معه، وجرى عليهم من الأمور الشنيعة ما لا حدّ عليه.

فسمع شاه مازَنْدَران الخبر فاستعظمه، وأنكر على العلويّين فِعلهم، وبالغ في الإنكار مع أنّه شديد التشيّع، وقطع عنهم جرايات كانت لهم، ووضع الجبايات والمصادرات على العامّة، فتفرّق كثير منهم وعاد القاضي إلى منصبه وسكنت الفتنة.

ذكر وفاة الملك محمّد بن محمود بن محمّد بن ملشكاه[2]

في هذه السنة، في ذي الحجّة، تُوفّي السلطان[3] محمّد بن محمود بن محمّد،

---

(١) في الأوربية: «محمد».

(٢) في (أ): «ملكشاه وملك عمه سليمان شاه بن محمد».

(٣) في (أ): «الملك».

وهو الذي حاصر بغداد طالباً السلطنة وعاد عنها، فأصابه سلّ، وطال به، فمات بباب هَمَذان، وكان مولده في ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة.

فلمّا حضره الموت أمر العساكر فركبت وأحضر أمواله وجواهره وحظاياه ومماليكه، فنظر إلى الجميع من طَيّارة تُشرف على ما تحتها، فلمّا رآه بكى، وقال: هذه العساكر والأموال والمماليك والسراري ما أرى[1] يدفعون عنّي مقدار[2] ذرّة، ولا يزيدون من أجلي لحظةً. وأمر بالجميع فرُفع بعد أن فرّق منه شيئاً كثيراً.

وكان حليماً كريماً عاقلاً كثير التأنّي في أموره؛ وكان له ولد صغير، فسلّمه إلى آقسُنقر الأحمديليّ وقال له: أنا أعلم أنّ العساكر لا تطيع مثل هذا الطفل، وهو وديعة عندك، فارحل به إلى بلادك. فرحل إلى مَراغة، فلمّا مات اختلفت الأمراء، فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه، وطائفة طلبوا سليمان شاه، وهم الأكثر، وطائفة طلبوا أرسلان الذي مع إيلدكز؛ فأمّا ملكشاه فإنّه سار من خوزستان، ومعه دكلا صاحب فارس، وشملة التركمانيّ وغيرهما، فوصل إلى أصفهان، فسلّمها إليه ابن الخُجنديّ، وجمع له مالاً أنفقه عليه، وأرسل إلى العساكر بهمذان يدعوهم إلى طاعته، فلم يجيبوه لعدم الاتّفاق بينهم، ولأنّ أكثرهم كان يريد سليمان شاه[3].

ذكر أخذ حَرّان من نور الدين وعودها إليه

في هذه السنة مرض نور الدّين محمود بن زنكي، صاحب حلب، مرضاً شديداً وأُرجف بموته؛ وكان بقلعة حلب، ومعه أخوه الأصغر أمير أميران، فجمع النّاس وحصر القلعة، وكان شِيركُوه، وهو أكبر أمرائه، بحمص، فبلغه خبر موته، فسار إلى دمشق ليتغلّب عليها وبها أخوه نجم الدّين أيّوب، فأنكر عليه أيّوب ذلك وقال: أهلكتَنا! والمصلحةُ أن تعود إلى حلب، فإن كان نور الدّين حيّاً خدمتَه في (هذا)[4] الوقت، وإن كان قد مات فإنّا في في دمشق نفعل ما نريد من مُلكها؛ فعاد إلى حلب

---

(١) في الباريسية: رقم ٧٤٠ «أرد».

(٢) في الباريسية رقم ٧٤٠: «مثقال».

(٣) أنظر عن (الملك محمد السلجوقي) في: تاريخ دولة آل سلجوق ٢٦٢، ٢٦٣، وتاريخ الإسلام (٥٥٤ هـ.) ص ١٥٣ رقم ١٤٥، ونهاية الأرب ٢٣/ ٢٩٣.

(٤) من (ب).

مُجِدّاً، وصعِد القلعة، وأجلس نور الدّين في شبّاك يراه النّاس، وكلّمهم، فلمّا رأوه حيّاً تفرّقوا عن أخيه أمير أميران، فسار إلى حرّان فملكها.

فلمّا عُوفي نور الدّين قصد حَرّان ليخلّصها[1]، فهرب أخوه منه، وترك أولاده بحَرّان في القلعة، فملكها نور الدّين، وسلّمها إلى زين الدّين عليّ نائب أخيه قُطب [الدّين]، صاحب الموصل، ثمّ سار نور الدّين بعد أخذ حَرّان إلى الرَّقّة، وبها أولاد أميرك الجاندار، وهو من أعيان الأمراء، وقد تُوفّي وبقي أولاده، فنازلها، فشفع جماعة من الأمراء فيهم، فغضب من ذلك، وقال: هَلاّ شفعتم في أولاد أخي لمّا أخذت منهم حَرّان، وكانت الشفاعة فيهم من أحبّ الأشياء إليّ! فلم يشفّعهم وأخذها منهم[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة مرض الخليفة المقتفي لأمر اللّه، واشتدّ مرضه، وعوفي فضُربت البشائر ببغداد، وفُرّقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدّولة، وغُلق[3] البلد أسبوعاً[4].

وفيها عاد ترشك إلى بغداد، ولم يشعر به أحدٌ إلاّ وقد ألقى نفسه تحت التّاج ومعه سيف وكَفَن، وكان قد عصى على الخليفة والتحق بالعجم، فعاد الآن فرضي عنه، وأذِن له في دخول دار الخلافة وأُعطي مالاً[5].

وفيها، في جُمادى الأولى، أرسل محمّد (بن أنز)[6] صاحب قُهِستان عسكراً إلى بلد الإسماعيليّة ليأخذ منهم الخراج الذي عليهم، فنزل عليهم الإسماعيليّة من الجبال، فقتلوا كثيراً من العسكر، وأسروا الأمير الذي كان مقدّماً عليهم اسمه قيبة، وهو صِهر

---

(١) في (ب): «ليحاصرها».

(٢) ذيل الروضتين ١/ ٣٠٥،٣٠٦، ذيل تاريخ دمشق ٣٥٥، مرآة الزمان ٨/ ٢٣٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٤ هـ.) ص ٢٥،٢٦، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١١، عيون التواريخ ١٢/ ١٧.

(٣) في (أ): «وعلق» (بالعين المهملة).

(٤) المنتظم ١٠/ ١٨٨، ١٨٩، (١٨/ ١٣٤).

(٥) المنتظم ١٠/ ١٨٩ (١٨/ ١٣٤)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٤ هـ.) ص ٢٣، نهاية الأرب ٢٣/ ٢٩٣.

(٦) من (أ).

ابن أنز[1]، فبقي عندهم أسيراً عدّة شهور، حتّى زوّج ابنته من رئيس الإسماعيليّة عليّ بن الحسن، وخلّص من الأسر.

[الوَفَيَات]

وفيها توفّي شرف الدين عليُّ بن أبي القاسم منصور بن أبي سعد الصاعديّ[2] قاضي نَيْسابور في شهر رمضان، وكان موته بالرّيّ، ودُفن في مقبرة محمّد بن الحسن الشيبانيّ، صاحب أبي حنيفة، رضي اللّه عنهما، وكان القاضي حنفيّاً أيضاً.

---

(١) في (أ): «أنر» بالراء المهملة.

(٢) تقدّمت وفاة والده في سنة ٥٥٢ هـ.

(٥٥٥)
ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة

ذكر مسير سليمان شاه إلى همذان

في أوائل هذه السنة سار سليمان شاه من الموصل إلى هَمَذان ليتولّى السلطنة، وقد تقدّم سبب قبضه وأخذه إلى الموصل.

وسبب مسيره إليها أنّ الملك محمّداً[1] ابن السلطان محمود بن محمّد بن ملكشاه لمّا مات أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى أتابك قُطب الدّين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، يطلبون منه إرسال الملك سليمان شاه ابن السلطان محمّد بن ملكشاه إليهم ليولّوه السلطنة، فاستقرّت القاعدة بينهم أن يكون سليمان شاه سلطاناً وقطب الدّين[2] أتابكه، وجمال الدّين وزير قُطب الدّين وزيراً للملك سليمان شاه، وزين الدّين عليّ أمير العساكر الموصليّة مقدّم جيش سليمان شاه، وتحالفوا على هذا، وجهّز سليمان شاه بالأموال الكثيرة والبَرك والدّوابّ والآلات، وغير ذلك ممّا يصلح للسلاطين، وسار معه زين الدّين عليّ في عسكر الموصل إلى همذان.

فلمّا قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر إليهم أرسالاً كلّ يوم يلقاه طائفة وأمير، فاجتمع مع سليمان شاه عسكرٌ عظيم، فخافهم زين الدّين على نفسه لأنّه رأى من تسلّطهم على السلطان واطّراحهم للأدب معه ما أوجب الخوف منه، فعاد إلى الموصِل، فحين عاد عنه لم ينتظم أمره، ولم يتمّ له ما أراده، وقبض العسكر عليه بباب همذان في شوّال سنة ستّ وخمسين [وخمسمائة]، وخطبوا لأرسلان شاه ابن الملك طُغرُل، وهو الذي تزوّج إيلدكز بأمّه، وسيُذكر مشروحاً إن شاء اللّه تعالى[3].

---

(١) في الأوربية: «محمد».

(٢) في (ب): «قطب الدين مودود».

(٣) أنظر: التاريخ الباهر ١١٤، ١١٥ والمنتظم ١٠/ ١٩٢! (١٨/ ١٣٨)، زبدة التواريخ للحسيني =

ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويّين

في هذه السنة، في صفر، توفّي الفائز بنصر اللّه[1] أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر، صاحب مصر، وكانت خلافته ستّ سنين ونحو شهرَين؛ وكان له لمّا وليَ خمس سنين، كما ذكرناه. ولما مات دخل الصالح بن رزّيك القصر، واستدعى خادماً كبيراً، وقال له: مَن هاهنا يصلح للخلافة؟ فقال: هاهنا جماعة؛ وذكر أسماءهم، وذكر له منهم إنساناً كبير السنّ، فأمر بإحضاره، فقال له بعض أصحابه سرّاً: لا يكون عبّاس أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكُبّار واستبدّ بالأمر؛ فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه، وأمر حينئذٍ بإحضار العاضد لدين اللّه أبي محمّد عبد اللّه بن يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان العاضد ذلك الوقت مراهقاً قارب البلوغ، فبايع له بالخلافة، وزوّجه الصالح ابنتَه، ونقل معها من الجهاز ما لا يُسمع بمثله، وعاشت بعد موت العاضد وخروج الأمر من العلويّين إلى الأتراك وتزوّجت.

ذكر وفاة الخليفة المقتفي لأمر اللّه وشيء من سيرته

في هذه السنة، ثاني ربيع الأوّل، تُوفّي أمير المؤمنين المقتفي لأمر اللّه[2] أبو عبد اللّه محمد بن المستظهر باللّه أبي العبّاس أحمد بن المقتدي بأمر اللّه، رضي اللّه عنه، بعلة التّراقي؛ وكان مولده ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأمّه أمّ ولد تُدعى[3] ياعي؛ وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستّة عشر يوماً، ووافق أباه المستظهر باللّه في علّة التّرافي وماتا جميعاً في ربيع الأوّل.

وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة من الرجال ذوي الرأي والعقل الكثير. وهو أوّل مَن استبدّ بالعراق منفرداً عن سلطانٍ يكون معه من أوّل أيّام الدّيلم إلى الآن،

= ٢٥٦،٢٥٥، راحة الصدور للراوندي ٣٨٣، العبر ٤/١٥٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٥ هـ.) ص ٢٩، دول الإسلام ٢/٧١، تاريخ ابن الوردي ٢/٦٢، شذرات الذهب ٤/١٧٢.

(١) أنظر عن (وفاة الفائز بنصر الله) في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٥ هـ.) ص ٣٠، ووفيات ٥٥٥ هـ. ص ١٦٥ ـ ١٦٨ رقم ١٦٨ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) أنظر عن (وفاة المقتفي لأمر الله) في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٥ هـ.) ص ٢٩، ووفيات ٥٥٥ هـ. ـ ص ١٧١ ـ ١٧٥ رقم ١٧٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) في (أ) «تدعى ست السادة نزهة حبشية».

وأوّل خليفة تمكّن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكّم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر[1] إلى الآن، إلاّ أن يكون المعتضد، وكان شجاعاً مقداماً مُباشراً للحروب بنفسه، وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد حتّى كان لا يفوته منها شيء.

ذكر خلافة المستنجد باللّه

وفي هذه السنة بويع المستنجد باللّه أمير المؤمنين، واسمه يوسف، وأمّه أمّ ولد تُدعى طاوُوس، بعد موت والده؛ وكان للمقتفي حظيّة، وهي أمّ ولده أبي عليّ، فلمّا اشتدّ مرض المقتفي وأيست منه أرسلت إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ليُساعدوها على أن يكون ولدها الأمير أبو عليّ خليفةً. قالوا: كيف الحيلة مع وليّ العهد؟ فقالت: إذا دخل على والده قبضتُ عليه. وكان يدخل على أبيه كلّ يوم. فقالوا: لا بُدّ لنا من أحد من أرباب الدّولة؛ فوقع اختيارهم على أبي المعالي ابن إلْكِيا الهَرّاسيّ[2]، فدعوه إلى ذلك، فأجابهم على أن يكون وزيراً، فبذلوا له ما طلب.

فلمّا استقرّت القاعدة بينهم وعلمت أمّ أبي عليّ أحضرت عدّة من الجواري وأعطتهنّ السكاكين، وأمرتهنّ بقتل وليّ العهد المستنجد باللّه. وكان له خِصيّ صغير يرسله كلّ وقت يتعرّف أخبار والده، فرأى الجواري بأيديهنّ السكاكين، ورأى بيد أبي عليّ وأمّه سيفَين، فعاد إلى المستنجد فأخبره؛ وأرسلت هي إلى المستنجد تقول له إنّ والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده، فاستدعى أستاذ الدّار عضُد الدّين وأخذه معه وجماعة من الفرّاشين، ودخل الدّار وقد لبس الدّرع وأخذ بيده السيف، فلمّا دخل ثار به الجواري، فضرب واحدةً منهنّ فجرحها، وكذلك أخرى، فصاح ودخل أستاذ الدّار ومعه الفرّاشون، فهرب الجواري، وأخذ أخاه أبا عليّ وأمّه فسجنهما، وأخذ الجواري فقتل منهنّ، وغرّق منهنّ[3] ودفع اللّه عنه.

فلمّا تُوفي المقتفي لأمر اللّه جلس للبَيعة، فبايعه أهله وأقاربه، وأوّلهم عمّه أبو

---

(١) في (أ): «المستنصر بن الموكل».
(٢) في (أ): «الهراس».
(٣) في (أ): «وغرق جماعة منهن».

طالب، ثمّ أخوه أبو جعفر بن المقتفي، وكان أكبر من المستنجد، ثمّ بايعه الوزير ابن هُبَيرة، وقاضي القضاة، وأرباب الدّولة والعلماء، وخُطب له يوم الجمعة، ونُثرت الدّنانير والدّراهم.

حكى عنه الوزير عون الدّين بن هُبيرة أنّه قال: رأيتُ رسول اللّه، صلّى اللّه عليه وسلّم، في المنام منذ خمس عشرة سنة، وقال لي: يبقى أبوك في الخلافة خمس عشرة سنة؛ فكان كما قال، صلّى اللّه عليه وسلّم. قال: ثمّ رأيتُه قبل موت أبي المقتفي بأربعة أشهر، فدخل بي في باب كبير، ثمّ ارتقى إلى رأس جبل، وصلّى بي ركعتَين، ثمّ ألبسني قميصاً، ثمّ قال لي: قل «اللّهُم اهدني فيمن هديت»؛ وذكر دعاء القُنوت.

ولما وليَ الخلافة أقرّ ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم، وأزال المكوس والضّرائب، وقبض على القاضي ابن المرخّم وقال: وكان بئس الحاكم، وأخذ منه مالاً كثيراً، وأُخذت كتبه فأُحرق منها في الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة، فكان منها: كتاب «الشفاء» لابن سينا، وكتاب «إخوان الصفا»، وما شاكلهما، وقدم عضُد الدّين بن رئيس الرؤساء، وكان أستاذ الدّار يمكنه، وتقدّم إلى الوزير أن يقوم له، وعزل قاضي القضاة أبا الحسن عليّ بن أحمد الدّامغانيّ، ورتّب مكانه أبا[1] جعفر عبد الواحد الثّقفيّ، وخلع عليه[2].

ذكر الحرب بين عسكر خُوارزم والأتراك البَرزيّة

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، سار طائفة من عسكر خُوارزم إلى أجحه، وهجموا على يَغمُرخان بن أودك ومَن معه من الأتراك البَرزيّة، فأوقعوا بهم، وأكثروا القتل، فانهزم يَغمُرخان، وقصد السلطان محمود بن محمّد الخان [والأتراك الغُزّيّة الذين معه وتوسّل إليهم بالقرابة، وظنّ يَغمُرخان][3] أنّ اختيار الدّين إيثاق هو الذي هيّج الخُوارزميّة عليه، فطلب من الغُزّ إنجاده.

---

(١) في الأوربية: «أبو».

(٢) أنظر: المنتظم ١٠/١٩٢ ـ ١٩٥ (١٨/١٣٩ ـ ١٤١)، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٥ هـ.) ـ ص ٣٠، ومرآة الجنان ٣/٣٠٨، والبداية والنهاية ١٢/٢٤١.

(٣) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

ذكر أحوال المؤيّد بخراسان هذه السنة

قد ذكرنا سنة ثلاثٍ وخمسين [وخمسمائة] عَود المؤيّد أي أبَه إلى نَيسابور، وتمكنّه منها، وأنّ ذلك كان سنة أربعٍ وخمسين؛ فلمّا دخلت سنة خمسٍ وخمسين وخمسمائة، ورأى المؤيّد تحكّمه في نيسابور وتمكّنه في دولته، وكثرة جُنده وعسكره، أحسن السيرة في الرعيّة، لا سيّما أهل نَيسابور، فإنّه جبَرهم وبالغ في الإحسان إليهم، وشرع في إصلاح أعمالها وولاياتها، فسيّر طائفة من عسكره إلى ناحية أسقِيل، وكان بها جمْع قد تمرّدوا وأكثروا العيث والفساد في البلاد، وطال تماديهم في طغيانهم، فأرسل إليهم المؤيّد يدعوهم إلى ترك الشرّ والفساد ومعاودة الطاعة والصلاح، فلم يقبلوا، ولم يرجعوا عمّا هم عليه، فسيّر إليهم سريّة كثيرة، فقاتلوهم وأذاقوهم عاقبة ما صنعوا فأكثروا القتل فيهم وخرّبوا حصنهم.

وسار المؤيّد من نَيسابور إلى بَيْهَق، فوصلها رابع عشر ربيع الآخر من السنة، وقصد منها حصن خُسروُجِرْد، وهو حصن منيع بناه كَيْخَسرو الملك قبل فراغه من قتل أفراسياب، وفيه رجال شجعان، فامتنعوا على المؤيّد، فحصرهم ونصب عليهم المجانيق، وجدّ في القتال، فصبر أهل الحصن حتّى نفذ صبرهم، ثمّ ملك المؤيّد القلعة وأخرج كلّ مَن فيها [ورتّب فيها](١) مَن يحفظها، وعاد منها إلى نَيسابور في الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة.

ثمّ سار إلى هَراة، فلم يبلغ منها غرضاً، فعاد إلى نَيسابور، وقصد مدينة كُنْدُر، وهي من أعمال طُرَيْثيثَ، وقد تغلّب عليها رجل اسمه أحمد كان خُرْبندة، واجتمع معه جماعة من الرنود وقُطّاع الطريق والمفسدين، فخرّبوا كثيراً من البلاد، وقتلوا كثيراً من الخلق، وغنموا من الأموال ما لا يُحصى.

وعظُمت المصيبة بهم على خُراسان وزاد البلاء، فقصدهم المؤيّد، فتحصنّوا بالحصن الذي لهم، فقوتلوا أشدّ قتال، ونصب عليهم العَرّادات والمَنجنيقات، فأذعن هذا الخُربندة أحمد إلى طاعة المؤيّد والانخراط في سلك أصحابه وأشياعه، فقبله أحسن قبول، وأحسن إليه وأنعم عليه.

---

(١) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

ثمّ إنّه عصى على المؤيّد، وتحصّن بحصنه، فأخذه المؤيّد منه قهراً وعَنوةً، وقيّده، واحتاط عليه، ثمّ قتله وأراح المسلمين منه ومن شرّه وفساده.

وقصد المؤيّد في شهر رمضان ناحية بَيهَق عازماً على قتالهم لخروجهم عن طاعته، فلمّا قاربها أتاه زاهدٌ من أهلها ودعاه إلى العفو عنهم والحلم عن ذنوبهم، ووعظه وذكّره، فأجاب إلى ذلك ورحل عنهم؛ فأرسل السلطان ركن الدّين محمود بن محمّد الخان إلى المؤيّد بتقرير نَيسابور وطوس وأعمالها عليه، وردّ الحكم فيها إليه، فعاد إلى نَيسابور رابع ذي القعدة من السنة، ففرح النّاس بما تقرّر بينه وبين الملك محمود وبين الغُزّ من إبقاء نَيسابور عليه ليزول الخُلْف والفِتن عن النّاس[1].

ذكر الحرب بين شاه مازَنْدَران ويَغمُرخان

لمّا قصد يَغمُرخان الغُزّ وتوسّل إليهم لينصروه على إيثاق لظنّه أنّه هو الذي حسّن للخُوارزميّة قصده، أجابوه[2] إلى ذلك، وساروا معه على طريق نسَا وأبِيورَد، ووصلوا إلى الأمير إيثاق[3] فلم يجد لنفسه بهم قوّة، فاستنجد شاه مازَنْدَران، فجاءه ومعه من الأكراد والدّيلم والأتراك والتّركمان الذين يسكنون نواحي أبَسْكون جمع كثير، فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم، وانهزم الأتراك الغُزّيّة والبَرزيّة من شاه مازَندران خمس مرّات ويعودون.

وكان على ميمنة شاه مازَندَران الأمير إيثاق[3]، فحملت الأتراك الغُزّيّة عليه لمّا أيسوا من الظفر بقلب شاه مازَندَران، فانهزم إيثاق وتبِعه باقي العسكر، ووصل شاه مازَندَران إلى سارية، وقُتل من عسكره أكثرهم.

وحكي أنّ بعض التّجّار كفّن ودفن من هؤلاء القتلى سبعة آلاف رجل.

وأمّا إيثاق فإنّه قصد في هربه خُوارزم وأقام بها، وسار الغُزّ من المعركة إلى دَهِسْتان، وكان الحرب قريباً منها، فنقبوا سورها، وأوقعوا بأهلها ونهبوهم أوائل سنة ستّ وخمسين وخمسمائة، بعد أن خرّبوا جُرجان وفرّقوا أهلها في البلاد وعادوا إلى خُراسان.

---

(١) الخبر في أقل من سطرين في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٥ هـ.) ص ٣١.

(٢) في الأوربية: «فأجابوه».

(٣) في (أ): «إيناق»، وفي (ب): «إيتاق».

ذكر وفاة خُسروشاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده

في هذه السنة، في رجب، تُوفّي السلطان خُسروشاه[1] بن بَهرام شاه بن مسعود ابن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سُبُكْتِكين، صاحب غَزنة، وكان عادلاً، حسن السيرة في رعيّته، مُحِبّاً للخير وأهله، مقرِّباً للعلماء محسناً إليهم راجعاً إلى قولهم؛ وكان ملكه تسع سنين.

[وملك بعده ابنه ملكشاه][2] فلمّا ملك نزل علاء الدّين الحسين، ملك الغور، إلى غزنة فحصرها، وكان الشتاء شديداً والثلج كثيراً، فلم يمكنه المقام عليها، فعاد إلى بلاده في صفر سنة ستّ وخمسين [وخمسمائة][3].

ذكر الحرب بين إيثاق وبَغراتْكِين

في هذ السنة، منتصف شعبان، كان بين الأمير إيثاق والأمير بَغراتْكِين برغش الجَزْكاني[4] حربٌ، وكان إيثاق قد سار إلى بغراتِكين في آخر أعمال جُوَين، فنهبه، وأخذ أمواله وكلّ ما له، وكان ذا نعمة عظيمة وأموال جسيمة، فانهزم بغراتِكين عنها وخلاّها فافتتحها إيثاق[5] واستغنى بها، وقويت نفسه بسببها، وكثُرت جموعه، وقصده النّاس. وأمّا بغراتكين فإنّه راسل المؤيّد صاحب نَيسابور، وصار في جملته ومعدوداً من أصحابه، فتلقّاه المؤيّد بالقبول.

ذكر وفاة ملكشاه بن محمود

في هذه السنة تُوفّي ملكشاه[6] ابن السلطان محمود بن محمّد بن ملكشاه بن ألب

---

(١) أنظر عن (خسروشاه) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٥ هـ.) ص ١٦١ رقم ١٥٨ وفيه مصادر ترجمته.

(٢) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

(٣) تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٥ هـ.) ص ١٦١.

(٤) في الجريدة الآسيوية لسنة ١٨٤٦ مجلّد ٢/ ٤٦٢ «بزغش الجوكاني».

(٥) في (أ): «ايناق».

(٦) أنظر عن (وفاة ملكشاه) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٥ هـ.) ص ١٨٦ رقم ١٨٧ وفيه مصادر ترجمته.

أرسلان بأصفهان مسموماً؛ وكان سبب ذلك أنّه لمّا كثُر جمعه بأصفهان أرسل إلى بغداد وطلب أن يقطعوا خطبة عمّه سليمان شاه ويخطبوا له ويعيدوا[1] القواعد بالعراق إلى ما كانت أوّلاً، وإلاّ قصدهم، فوضع الوزير عون الدّين بن هُبيرة خصيّاً كان خصيصاً به، يقال له أغلبك الكوهراييني، فمضى إلى بلاد العجم، واشترى جارية من قاضي همذان بألف دينار، وباعها من ملكشاه، وكان قد وضعها على سمّه ووعدها أموراً عظيمة، ففعلت ذلك وسمّته في لحم مَشْوِيّ فأصبح ميّتاً، وجاء الطّبيب إلى دكلا وشملة فعرّفها أنّه مسموم، فعرفوا أنّ ذلك من فعل الجارية، فأُخذت وضُربت وأقرّت، وهرب أغلبك، ووصل إلى بغداد، ووفَى له الوزير بجميع ما استقرّ الحال عليه[2].

ولمّا مات أخرج أهل أصفهان أصحابه من عندهم، وخطبوا لسليمان شاه واستقرّ مُلكه بتلك البلاد، وعاد شملة إلى خوزستان فأخذ ما كان ملكشاه تغلّب عليه منها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة حجّ أسد الدين شِيركُوه بن شاذي مقدّم جيوش نور الدّين محمود بن زنكي صاحب الشام؛ وشِيركُوه هذا هو الذي ملك الدّيار المصريّة[3]. وسيرد ذِكره إن شاء اللّه تعالى.

وفيها أرسل زين الدّين عليّ نائب قُطْب الدّين، صاحب الموصل، رسولاً إلى المستنجد يعتذر ممّا جناه من مساعدة محمّد شاه في حصار بغداد، ويطلب أن يؤذنَ له في الحجّ، فأرسل إليه يوسف الدّمشقيّ، مدرّس النظاميّة، وسليمان بن قَتَلمِش يطيّبان قلبه عن الخليفة ويعرّفانه الإذن في الحجّ، فحجّ ودخل إلى الخليفة، فأكرمه وخلع عليه[4].

[الوَفيات]

وفيها تُوفّي قايماز الأرجوانيُّ أمير الحاجّ، سقط عن الفَرس وهو يلعب بالأكرة،

---

(١) في الأوربية: «ويخطبون له ويعيدون».

(٢) وأنظر: تاريخ دولة آل سلجوق ٢٧٠.

(٣) المنتظم ١٠/١٩٦ (١٨/١٤٣).

(٤) التاريخ الباهر ١١٥، المنتظم ١٠/١٩٦ (١٨/١٤٢، ١٤٣)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٥ هـ.) ص ٣٠، العبر ٤/١٥٦ سير أعلام النبلاء ٢٠/٤١٥، تاريخ ابن الوردي ٢/٦٢.

فسال مخّه من مِنْخِريه وأُذنَيْه فمات[1].

وفيها، في ربيع الأوّل، تُوفّي محمّد بن يحيَى بن عليّ بن مسلم أبو عبد اللّه الزَّبيديّ[2]، من أهل زَبيدَ مدينة باليمن مشهورة، وقدِم بغداد سنة تسعٍ وخمسمائة، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ وكان نحويّاً واعظاً، وصحِبه الوَزير ابن هُبيرة مدّةً، وكان موته ببغداد.

---

(١) المنتظم ١٠/١٩٦، ١٩٧ (١٨/١٤٣، ١٤٤ رقم ٤٢٣٦)، البداية والنهاية ١٢/٢٤٢.

(٢) أنظر عن (الزَّبيدي) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٥ هـ.) ص ١٧٩ ـ ١٨١ رقم ١٨٠ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٥٥٦)

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

ذكر الفتنة ببغداد

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، خرج الوزير ابن هُبيرة من داره إلى الدّيوان، والغلمان يطرّقون له، وأرادوا أن يردّوا باب المدرسة الكماليّة بدار الخليفة، فمنعهم الفقهاء وضربوهم بالآجُرّ، فشهر أصحاب الوزير السيوف وأرادوا ضربهم، فمنعهم الوزير، ومضى إلى الدّيوان، فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير، فأمر الخليفة بضرب الفقهاء وتأديبهم ونفْيهم من الدّار، فمضى أستاذ الدّار وعاقبَهم هناك، واختفى مدرّسهم الشيخ أبو طالب، ثمّ إنّ الوزير أعطى كلّ فقير ديناراً، واستحلّ منهم، وأعادهم إلى المدرسة وظهر مدرّسهم(١).

ذكر قتل ترشك

في هذه الأيّام قصد جمْعٌ من التُركمان إلى البَندَنِيجين، فأمر الخليفة بتجهيز عسكر إليهم، وأن يكون مقدّمهم الأمير ترشك، وكان في أقطاعه بلد اللِّحف، فأرسل إليه الخليفة يستدعيه، فامتنع من المجيء إلى بغداد وقال: يحضر العسكر، فأنا أقاتل بهم؛ وكان عازماً على الغدر؛ فجهزّ العسكر وساروا إليه، وفيهم جماعة من الأمراء، فلمّا اجتمعوا بترشك قتلوه، وأرسلوا رأسه إلى بغداد، وكان قتل مملوكاً للخليفة، فدعا أولياء المقتول، وقيل لهم: إنّ أمير المؤمنين قد اقتصّ لأبيكم ممّن قتله(٢).

ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان

في هذه السنة، في ربيع الآخر، قُتل السلطان سليمان شاه ابن السلطان محمّد بن

---

(١) المنتظم ١٠/١٩٩ (١٨/١٤٧).

(٢) المنتظم ١٠/١٩٩، ٢٠٠ (١٨/١٤٧).

ملشكاه؛ وسبب ذلك أنّه كان فيه تهوّرٌ وخرقٌ، وبلغ به شرب الخمر حتّى إنّه شربها في رمضان نهاراً، وكان يجمع المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء، فأهمل العسكر أمره، وصاروا لا يحضرون بابه، وكان قد ردّ جميع الأمور إلى شرف الدّين كُردَبازو[1] الخادم، وهو[2] من مشايخ الخدم السّلْجوقيّة يرجع إلى دين وعقل وحُسن تدبير، فكان الأمراء يشكون إليه وهو يسكّنهم.

فاتّفق أنّه شرب يوماً بظاهر همذان في الكُشك فحضر عنده كُردبازو، فلامه على فِعله، فأمر سليمان شاه مَن عنده من المساخرة فعبثوا بكردبازو، حتى إنّ بعضهم كشف له سَوْءته، فخرج مغضِباً، فلمّا صحا سليمان أرسل إليه يعتذر، فقبِل عُذره، إلاّ أنّه تجنّب الحضور عنده، فكتب سليمان إلى إينانج صاحب الرَّيّ يطلب منه أن ينجده على كردبازو، فوصل الرسول وإينانج مريض، فأعاد الجواب يقول: إذا أفقتُ من مرضي[3] حضرتُ عندك بعسكري؛ فبلغ كُردَبازو، فازداد استيحاشاً، فأرسل إليه سليمان يوماً يطلبه، فقال: إذا جاء إينانج حضرتُ؛ وأحضر الأمراء واستحلفهم على طاعته، وكانوا كارهين لسليمان. فحلفوا له، فأوّل ما عمل أن قتل المساخرة الذين لسليمان، وقال: إنّما أفعل ذلك صيانةً لملكك؛ ثمّ اصطلحا، وعمل كردبازو دعوة عظيمة حضرها السلطان والأمراء، فلمّا صار السلطان سليمان شاه في داره قبض عليه كردبازو وعلى وزيره ابن القاسم محمود بن عبد[4] العزيز الحامديّ، وعلى أصحابه، في شوّال سنة خمسٍ وخمسين[5] وخمسمائة، فقتل وزيره وخواصّه، وحبس سليمان شاه في قلعة، ثمّ أرسل إليه مَن خنقه؛ وقيل بل حبسه في دار مجد الدّين العلويّ رئيس همذان، وفيها قُتل؛ وقيل بل سُقي سمّاً فمات، واللّه أعلم.

وأرسل إلى إيلدكز، صاحب أرّان وأكثر بلاد أذرَبِيجان، يستدعيه إليه ليخطب للملك أرسلان شاه الذي معه، وبلغ الخبر إلى إينانج صاحب الرّيّ، فسار ينهب البلاد إلى أن وصل إلى همذان، فتحصّن كُردبازو، فطلب منه إينانج أن يعطيه مصافاً، فقال:

---

(١) يرد: «كردبازو»، و«كردباز».

(٢) في (أ): «وهو تدبير».

(٣) في الأوربية: «مرض».

(٤) في (أ): «ابن عميد الملك عبد»، وفي (ب): «أبي القسم».

(٥) في (أ): «ست وخمسين».

أنا لا أحاربك حتّى يصل الأتابك الأعظم إيلدكز.

[وسار إيلدكز][١] في عساكره جميعها يزيد على عشرين ألف فارس، ومعه أرسلان شاه بن طُغُرل بن محمّد بن ملكشاه، فوصل إلى همذان، فلقيهم كردبازو، وأنزله دار المملكة، وخطب لأرسلان شاه بالسلطنة بتلك البلاد، وكان إيلدكز قد تزوّج بأُمّ أرسلان شاه، وهي أُمّ البهلوان بن إيلدكز، وكان إيلدكز أتابكه، والبهلوان حاجبه، وهو أخوه لأمّه، وكان إيلدكز هذا أحد مماليك السلطان مسعود واشتراه في أوّل أمره، فلمّا ملك أقطعه أرّان وبعض أذربيجان، واتّفق الحروب والاختلاف، فلم يحضر عنده أحد من السلاطين السلجوقيّة، وعظُم شأنه وقوي أمره، وتزوّج بأم الملك أرسلان شاه، فولدت له أولاداً منهم البهلوان محمّد، وقزل أرسلان عثمان.

وقد ذكرنا سبب انتقال أرسلان شاه إليه، وبقي عنده إلى الآن، فلمّا خطب له بهمذان أرسل إيلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه أيضاً، وأن تعاد القواعد إلى ما كانت عليه أيّامَ السلطان مسعود، فأُهين رسوله وأعيد إليه على أقبح حالة؛ وأمّا إينانج صاحب الرَّيّ فإنّ إيلدكز راسله ولاطفه فاصطلحا وتحالفا على الاتّفاق، وتزوّج البهلوان بن إيلدكز بابنة إينانج ونُقلت إليه بهمذان[٢].

ذكر الحرب بين ابن آقسنقر وعسكر إيلدكز

لمّا استقرّ الصلح بين إيلدكز وإينانج أرسل إلى ابن آقسنقر الأحمديلي، صاحب مَراغة، يدعوه إلى الحضور في خدمة السلطان أرسلان شاه، فامتنع من ذلك وقال: إن كففتم عنّي، وإلاّ فعندي سلطانٌ؛ وكان عنده ولد محمّد شاه بن محمود، كما ذكرناه، وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه يُطْمعه في الخطبة لولد محمود[٣] شاه، فجهزّ إيلدكز عسكراً مع ولده البَهلوان، فبلغ الخبر (إلى ابن)[٤] آقسنقر فأرسل إلى شاه أرمن، صاحب خلاط، وحالفه، وصارا يداً واحدةً، فسيّر إليه شاه أرمن عسكراً كثيراً، واعتذر عن تأخّره بنفسه لأنّه (في)[٥] ثغر لا يُمكنه مفارقته، فقنوي بهم ابن آقسنقر، وكثر

---

(١) من الباريسية.

(٢) تاريخ الإسلام ـ بإختصار حوادث ٥٥٦ هـ. ـ ص ٣٢، ٣٣.

(٣) في (ب): «محمد».

(٤) من (أ)، وفي (ب): «إلى» فقط.

(٥) من (أ).

جمعه، وسار نحو البهلوان، فالتقيا على نهر أسبيرود[1]، فاشتدّ القتال بينهم، فانهزم البهلوان أقبح هزيمة، ووصل هو وعسكره إلى همذان على أقبح صورة، واستأمن أكثر أصحابه إلى (ابن)[2] آقسنقر، وعاد إلى بلده منصوراً.

ذكر الحرب بين إيلدكز وإينانج

لمّا مات ملشكاه ابن السلطان محمود، كما ذكرناه، أخذ طائفة من أصحابه ابنه محموداً وانصرفوا به نحو بلاد فارس، فخرج عليهم صاحبها زنكي بن دكلا السلغريّ[3] فأخذه منهم وتركه في قلعة إصطَخْر، فلمّا ملك إيلدكز والسلطان أرسلان شاه الذي معه البلاد[4]، وأرسل إيلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة للسلطان، كما ذكرناه، شرع الوزير عون الدّين أبو المظفّر يحيَى بن هُبيرة، وزير الخليفة، في إثارة أصحاب الأطراف عليه، وراسل الأحمديليّ، وكان ما ذكرناه، وكاتب زنكي بن دكلا صاحب بلاد فارس يبذل له أن يخطب للملك الذي عنده، وهو ابن ملكشاه، وعلّق الخطبة له بظفره بإيلدكز، فخطب ابن دكلا للملك الذي عنده وأنزله من القلعة، وضرب الطبل على بابه خمس نُوَب، وجمع عساكره وكاتب إينانج صاحب الرَّيّ يطلب منه الموافقة.

وسمع إيلدكز الخبر، فحشد وجمع، وكثُر عسكره وجموعه فكانت أربعين ألفاً، وسار إلى أصفهان يريد بلاد فارس، وأرسل إلى زنكي بن دكلا يطلب منه الموافقة [على] أن يعود يخطب لأرسلان شاه، فلم يفعل، وقال: إنّ الخليفة قد أقطعني بلاده وأنا سائر إليه، فرحل إيلدكز، وبلغه أنّ جَشيراً لأرسلان بوقا، وهو أمير من أمراء زنكي، وفي أقطاعه أرّجان، بالقرب منه، فأنفذ سريّة للغارة عليه، فاتّفق أنّ أرسلان بوقا عزم على تغيير الخيل التي معه لضعفها، وأخْذ عِوَضها من ذلك الجشير، فسار في عسكره إلى الجشير، فصادف العسكر الذي سيّره إيلدكز لأخذ دوابّه، فقاتلهم وأخذهم وقتلهم، وأرسل الرؤوس إلى صاحبه، فكتب بذلك إلى بغداد وطلب المدد، فوُعد بذلك.

---

(١) في (أ): «سبيذروذ».
(٢) من (أ).
(٣) في (أ): «السنقري».
(٤) في الباريسية، والنسخة رقم ٧٤٠ «أرسلان الري البلاد».

وكان الوزير عون الدّين أيضاً قد كاتب الأمراء الذين مع إيلدكز يوبّخهم على طاعته، ويضعّف رأيهم، ويحرّضهم على مساعدة زنكي بن دكلا وإينانج؛ وكان إينانج قد برز من الرَّيّ في عشرة آلاف فارس فأرسل إليه (ابن)[1] آقنسقر الأحمديلي خمسة آلاف فارس، وهرب ابن البازدار، صاحب قَزوين، وابن طُغيرك وغيرهما، فلحقوا بإينانج وهو في صحراء ساوة.

وأمّا إيلدكز فإنّه استشار نصحاءه، فأشاروا بقصد إينانج لأنّه أهمّ، فرحل إليه، ونهب زنكي بن دكلا سُهَيرِم[2] وغيرها، فردّ إيلدكز إليه أميرا في عشرة آلاف فارس لحفظ البلاد. فسار زنكي إليهم، فلقيهم وقاتلهم، فانهزم عسكر إيلدكز إليه، فتجلّد لذلك وأرسل يطلب عساكر أذربيجان، فجاءته مع ولده قزل أرسلان.

وسيّر زنكي بن دكلا عسكراً كثيراً إلى إينانج، واعتذر عن الحضور بنفسه عنده لخوفه على بلاده من شملة، صاحب خوزستان، فسار إيلدكز إلى إينانج وتدانَى العسكران، فالتقوا تاسع شعبان وجرى بينهم حرب عظيمة أجلت عن هزيمة إينانج، فانهزم أقبح هزيمة وقُتلت رجاله ونُهبت أمواله، ودخل الريّ، وتحصّن في قلعة طَبَرك، وحصر إيلدكز الرَّيّ، ثمّ شرع في الصلح، واقترح إينانج اقتراحات، فأجابه إيلدكز إليها، وأعطاه جِرباذقان وغيرها، وعاد إيلدكز إلى هَمَذان؛ كان ينبغي أن تتأخّر هذه الحادثة والتي قبلها، وإنّما قُدّمت لتتبع أخواتها.

ذكر وفاة ملك الغور ومُلك ابنه محمّد

في هذه السنة، في ربيع الآخر، توفّي الملك علاء الدين الحسين[3] بن الحسين الغُوري ملك الغور بعد انصرافه عن غَزنة؛ وكان عادلاً من أحسن الملوك سيرةً في رعيّته، ولمّا مات ملك بعده ابنه سيف الدين محمّد، وأطاعه النّاس وأحبّوه، وكان قد صار في بلادهم جماعة من دُعاة الإسماعيليّة، وكثُر أتباعهم، فأُخرجوا من تلك الدّيار

(١) من (أ).

(٢) في (ب): «سميرم».

(٣) أنظر عن (وفاة الملك علاء الدين الحسين)، في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٦ هـ.) ص ١٩٤ رقم ١٩٩.

جميعها، ولم يبقَ فيها منهم أحد، وراسل الملوك وهاداهم، واستمال المؤيّد أي أبَه، صاحب نَيسابور، وطلب موافقته.

ذكر الفتنة بنَيسابور وتخريبها

كان أهل العيث والفساد بنَيسابور قد طمعوا في نهب الأموال وتخريب البيوت، وفعل ما أرادوا، فإذا نُهوا لم ينتهوا؛ فلمّا كان الآن تقدّم المؤيّد أي أبَه بقبض أعيان نَيسابور، منهم نقيب العلويّين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسينيّ وغيره، وحبسهم في ربيع الآخر سنة ستّ وخمسين [وخمسمائة]، وقال: أنتم الذي أطمعتم الرنود والمفسدين حتّى فعلوا هذه الفعال، ولو أردتم منعهم لامتنعوا.

وقتل من أهل الفساد جماعة، فخُرّبت نَيسابور بالكليّة، ومن جملة ما خُرّب مسجد عُقَيل، كان مَجمعاً لأهل العلم، وفيه خزائن الكتب الموقوفة، وكان من أعظم منافع نَيسابور؛ وخُرّب أيضاً من مدارس الحنفيّة ثماني مدارس، ومن مدارس الشافعيّة سبع[1] عشرة مدرسة، وأحرق خمس خزائن للكتب، ونهب سبع خزائن كتب وبيعت بأبخس الأثمان؛ هذا ما أمكن إحصاؤه سوى ما لم يُذكر[2].

ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خُراسان

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، قصد السلطان محمود بن محمّد الخان، وهو ابن أخت السلطان سَنْجر، وقد ذكرنا أنّه ملك خُراسان بعده، ففي هذه السنة حصر المؤيّد صاحب نَيسابور بشاذِياخ، وكان الغُزّ مع السلطان محمود، فدامت الحرب إلى آخر شعبان سنة ستٍّ وخمسين وخمسمائة.

ثمّ إنّ محموداً أظهر أنّه يريد دخول الحمّام، فدخل إلى شَهرستان، آخر شعبان، كالهارب من الغُزّ، وأقاموا على نَيسابور[3] إلى آخر شوّال، ثمّ عادوا راجعين، فعاثوا في القرى ونهبوها، ونهبوا طُوس نهباً فاحشاً، وحضروا المشهد الذي لعليّ بن

---

(١) في الأوربية: «سبعة».

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣/٣٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٦ هـ.) ص ٣٣، تاريخ ابن الوردي ٢/٦٣، الكواكب الدرية ١٥٩.

(٣) في الباريسية والنسخة ٧٤٠ «بنيسابور».

موسى، وقتلوا كثيراً ممّن فيه ونهبوهم، ولم يعرضوا للقبّة التي فيها القبر.

فلمّا دخل السلطان محمود إلى نَيسابور أمهله المؤيّد إلى أن دخل رمضان من سنة سبعٍ وخمسين وخمسمائة وأخذه وكحله وأعماه، وأخذ ما كان معه من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة، وكان يخفيها خوفاً عليها من الغُزّ، لمّا كان معهم، وقطع المؤيّد خطبته من نَيسابور وغيرها ممّا هو في تصرّفه، وخطب لنفسه، بعد الخليفة المستنجد بالله، وأخذ ابنَه جلال الدّين محمّداً الذي كان قد ملّكه الغُزّ أمرهم قبل أبيه، وقد ذكرنا ذلك، وسَمله أيضاً، وسجنهما، ومعهما جواريهما وحشمهما، وبقيا فيها فلم تطل أيّامها، ومات السلطان محمود، ثمّ مات ابنه بعده من شدّة وجده لموت أبيه، والله أعلم.

ذكر عمارة شاذياخ نَيسابور

كانت شاذياخ قد بناها عبد الله بن طاهر بن الحسين، لمّا كان أميراً على خُراسان للمأمون، وسبب عمارتها أنّه رأى امرأة جميلة تقود فرساً تريد سقيَه، فسألها عن زوجها، فأخبرتْه به، فأحضره وقال له: خدمة الخيل بالرجال أشبه، فلِمَ تقعد أنت في دارك وترسل امرأتك مع فرسك؟ فبكى الرجل، وقال له: ظُلْمك يحملنا على ذلك. فقال: وكيف؟ قال: لأنّك تُنزل الجُند معنا في دُورنا، فإن خرجتُ أنا وزوجتي بقي البيت فارغاً، فيأخذ الجنديّ ما لنا فيه، وإن سقيتُ أنا الفرس فلا آمن على زوجتي من الجنديّ، فرأيتُ أن أقيم في البيت وتخدم زوجتي الفرس.

فعظُم الأمر عليه وخرج من البلد لوقته، ونزل في الخيام، وأمر الجُند فخرجوا من دُور النّاس، وبنى شاذياخ داراً له ولجُنده وسكنها وهم معه، ثمّ إنّها دثرت بعد ذلك.

فلمّا كان أيّام السلطان ألْب أرسلان، ذُكرت له هذه القصة فأمر بتجديدها، ثمّ إنّها تشعثّت بعد ذلك، فلمّا كان الآن وخربت نَيسابور، ولم يمكن حفظها، والغُزّ تطرق البلاد وتنهبها، أمر المؤيّد حينئذٍ بعمل سورها، وسدّ ثُلَمَه وسُكناه، ففعل ذلك وسكنها هو والنّاس وخربت حينئذٍ نَيسابور كلّ خراب، ولم يبقَ بها أَنيس.

ذكر قتل الصالح بن رُزّيك ووزارة ابنه رُزّيك

في هذه السنة، في شهر رمضان، قُتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن

رُزِّيك[1] الأرمنيّ، وزير العاضد العلويّ، صاحب مصر، وكان سبب قتله أنّه تحكّم في الدولة التحكّم العظيم، واستبدّ بالأمر والنّهي وجباية الأموال إليه، لصغر العاضد، ولأنّه هو الذي ولاّه، ووتر النّاس، فإنّه أخرج كثيراً من أعيانهم وفرّقهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه؛ ثمّ إنّه زوّج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرم من القصر، فأرسلت عمّة العاضد الأموال إلى أمراء المصريّين، ودعتهم إلى قتله.

وكان أشدّهم في ذلك إنسان يقال له ابن الراعي، فوقفوا له في دهليز القصر، فلمّا دخل ضربوه بالسكاكين على دَهَشٍ [منه] فجرحوه جراحات مهلكة، إلاّ أنّه حُمل إلى داره وفيه حياة، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضى بقتله مع أثره في خلافته، فأقسم العاضد أنّه لا يعلم بذلك، ولم يرضَ به. فقال: إن كنتَ بريئاً فسلّم عمّتك إليّ حتى أنتقم منها؛ فأمر بأخذها، فأرسل إليها فأخذها قهراً، وأُحضرت عنده فقتلها ووصّى بالوزارة لابنه[2] رُزّيك ولُقّب العادل، فانتقل الأمر إليه بعد وفاة أبيه.

وللصالح أشعار حسنة بليغة تدلّ على فضل غزير[3]، فمنها في الافتخار:

أَبَى اللّهُ إلاّ أنْ يَدومَ[4] لَنا الدّهرُ ... ويخدمنا في مُلكنا العزُّ والنّصْرُ[5]

عَلِمْنا بأنّ المَالَ تَفنى أُلُوفُه ... وَيَبقى لنا من بَعدِه الأجرُ والذّكرُ

خَلَطْنا النّدى بالبأسِ حتى كأنّنا ... سحابٌ لديه البرقُ والرعدُ والقطرُ

قِرانَا إذا رُحْنا إلى الحربِ مرّةً ... يَرَانا ومن أضيافنا الذّئبُ والنّسرُ

كما أنّنا في السّلمِ نَبذُلُ جُودَنا ... وَيَرْتَعُ في إنعامِنا العَبدُ والحُرُّ[6]

وهي طويلة.

وكان الصالح كريماً فيه أدب، وله شِعر جيّد، وكان لأهل العلم عنده إنفاق،

---

(١) أنظر عن (طلائع بن رُزّيك) في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٦ هـ.) ص ٣٤، و(الوفيات ٥٥٦ هـ.) ص ١٩٦ ـ ٢٠٠ رقم ٢٠٢ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) في الأوربية: «ابنه».

(٣) في (أ): «بعد أيام. وللصالح... على معرفته فضل غزير».

(٤) في المغرب: «يَدِين».

(٥) في المغرب: «النفع والضرّ».

(٦) ديوان طلائع بن رزّيك ـ طبعة نهضة مصر ١٩٥٨ ـ ص ٦٣، ديوان أسامة بن منقذ ـ طبعة الأميرية بمصر ١٩٥٣ ـ ص ٢٠١، والمغرب في حُلى المغرب ٢٢٣، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٤٤.

ويرسل إليهم العطاءَ الكثير، بلغه أن الشيخ أبا محمّد بن الدّهان النَّحْويّ البغداديّ المقيم بالموصل قد شرح بيتاً من شِعره وهو هذا:

تجنّـبَ سَمعـي مـا يَقُـول العَـواذِلُ ... وأصبَحَ لي شغلٌ من الغزْوِ[1] شاغلُ

فجهّز إليه هديّة سنيّة ليرسلها إليه، فقُتل قبل إرسالها.

وبلغه أيضاً أنّ إنساناً من أعيان الموصل قد أثنى عليه بمكّة، فأرسل إليه كتاباً يشكره ومعه هديّة.

وكان الصالح إمامياً لم يكن على مذهب العلويّين المصريّين، ولمّا وليَ العاضد الخلافة، سمع[2] الصالح ضجّة عظيمة، فقال: ما الخبر؟ فقيل: إنّهم يفرحون بالخليفة. فقال: كأنّي بهؤلاء الجَهَلة وهم يقولون ما مات الأوّل حتى استخلف هذا، وما علموا أنّني كنتُ من ساعة أستعرِضهم استعراض الغنم.

قال عُمارة[3]: دخلتُ إلى الصّالح قبل قتله بثلاثة أيّام، فناولني قِرْطاساً فيه بيتان من شِعره[4] وهما:

نحْـنُ فـي غَفْلَـةٍ ونَـوْمٍ وللمَـوْ ... تِ عُيُـونٌ يَقظـانَـةٌ لا تَنَـامُ

قـد رَحَلْنا إلـى الحِمَـامِ سِنينـاً[5] ... ليتَ شِعري متى يكونُ الحِمامُ؟[6]

فكان آخر عهدي به.

وقال عُمارة أيضاً[7]: ومن عجيب الاتّفاق أنّني أنشدتُ ابنَه قصيدةً أقول فيها:

أبُوك الـذي تَسْطُو اللّيالـي بحَـدّهِ ... وأنـتَ يَميـنٌ إنْ سَطَـا وشمـالُ

لـرُتْبتِـه العُظْمـى وإن طـالَ عمـرُهُ ... إلَيـكَ مَصِيـرٌ وَاجِـبٌ وَمَنَـالُ[8]

تخالسكَ اللّحظَ المَصُونَ وَدونَها ... حجابٌ شريفٌ لا انقضَا وحجالُ[9]

---

(١) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٦ هـ.) ص ١٩٩ «الغزّ».

(٢) في طبعة صادر ١١/ ٢٧٥ «ركب سمع».

(٣) هو عمارة اليمني في: النكت العصرية ٤٨، ٤٩.

(٤) في الأوربية: «شعر».

(٥) في مرآة الزمان: «قد دخلنا الحمام عاماً ودهراً».

(٦) تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٦ هـ.) ص ١٩٩، الروضتين ج ١ ق ١/ ٣١٣.

(٧) في النكت العصرية ٤٩.

(٨) في النكت: «ومآل».

(٩) كتاب الروضتين ج ١ ق ١/ ٣١٣.

فانتقل الأمر إليه بعد ثلاثة أيّام.

ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد

في هذه السنة، في شهر رمضان، اجتمعت خَفاجة إلى الحِلّة والكوفة، وطالبوا برسومهم من الطعام والتّمر وغير ذلك، فمنعهم أمير الحاجّ أرغش، وهو مقطع الكوفة، ووافقه على منعه الأمير قيصر شِحنة الحِلّة، وهما من مماليك الخليفة، فأفسدت خَفاجة، ونهبوا سواد الكوفة والحِلّة، فأسرى[1] إليهم الأمير قيصر، شِحنة الحِلّة، في مائتين وخمسين فارساً، وخرج إليه أرغش في عسكر وسلاح، فانتزحت خَفاجة من بين أيديهم، وتبِعهم العسكر إلى رحبة الشام، فأرسل خَفاجة يعتذرون ويقولون: قد قنعنا بلبن الإبل وخُبز الشعير، وأنتم تمنعوننا رسومنا؛ وطلبوا الصلح، فلم يُجبهم أرغش وقَيصر.

وكان قد اجتمع مع خَفاجة كثير من العرب، فتصافّوا واقتتلوا، وأرسلت العرب طائفة إلى خيام العسكر ورحالهم فحالوا بينهم وبينها، وحمل العرب حملة مُنكَرَة، فانهزم العسكر، وقُتل كثير منهم، وقُتل الأمير قيصر، وأُسرت جماعة أخرى، وجُرح أمير الحاجّ جراحة شديدة، ودخل الرحبة، فحماه شيخُها وأخذ له الأمان وسيّره إلى بغداد، ومَن نجا مات عطشاً في البرّيّة.

وكان إماء العرب يخرجن بالماء يسقين الجرحى، فإذا طلبه منهنّ أحد من العسكر أجهزن عليه، وكثُر النَّوح والبكاء ببغداد على القتلى، وتجهّز الوزير عون الدّين بن هُبيرة والعساكر معه، فخرج في طلب خَفاجة فدخلوا البرّ وخرجوا إلى البصرة، ولما دخلوا البرّ عاد الوزير إلى بغداد، وأرسل بنو خفاجة يعتذرون ويقولون: بُغي علينا، وفارقنا البلاد، فتبِعونا واضطّررنا إلى القتال؛ وسألوا العفو عنهم، فأجيبوا إلى ذلك[2].

ذكر حصر المؤيّد شارستان

في هذه السنة حصر المؤيّد أي أبَه مدينة شارستان، قرب[3] نَيسابور، وقاتله

---

(١) في الأوربية: «فأسرا».

(٢) المنتظم ١٠/ ٢٠٠ (١٨/ ١٤٨).

(٣) في الأوربية: «قريب».

أهلها، ونصب المجانيق والعرّادات، فصبر أهلها خوفاً على أنفسهم من المؤيّد، وكان معه جلال الدّين المؤيّد الموفقيّ الفقيه الشافعيّ، فبينما هو راكب إذ وصل إليه حجر منجنيق فقتله خامس جمادى الآخرة من السنة، وتعدّى الحجر منه إلى شيخ من شيوخ بَيهَق فقتله، فعظُمت المصيبة بقتل جلال الدّين على أهل العِلم، خصوصاً أهل السنّة والجماعة، وكان في عنفوان[1] شبابه رحمه اللّه لمّا قُتل.

ودام الحصار إلى شعبان سنة سبع وخمسين وخمسمائة، فنزل خواجكي صاحبها بعدما كثر القتل، ودام الحصر، وكان لهذه القلعة ثلاثة رؤساء هم أرباب النهي والأمر، وهم الذين حفظوها وقاتلوا عنها، أحدهم خواجكي هذا، والثاني داعي بن محمّد ابن أخي حرب العلويّ، والثالث الحسين بن أبي طالب العلوي الفارسيّ، فنزلوا كلّهم أيضاً إلى المؤيّد أي أبه، فيمن معهم من أشياعهم وأتباعهم. فأمّا خواجكي فإنّه أثبت عليه أنّه قتل زوجته ظلماً وعدواناً وأخذ مالها، فقُتل بها وملكْ المؤيّد شارستان، وصفَتْ له، فنهبها عسكره إلاّ أنّهم لم يقتلوا امرأة ولا سبوها.

ذكر مُلك الكُرج مدينة آني

في هذه السنة، في شعبان، اجتمعت الكُرج مع ملكهم، وساروا إلى مدينة آني من بلاد أرّان، وملكوها، وقتلوا فيها خلقاً كثيراً، فانتدب لهم شاه أرمن بن إبراهيم بن سكمان صاحب خِلاط، وجمع العساكر، واجتمع معه من المتطوّعة خلق كثير، وسار إليهم، فلقوه وقاتلوه، فانهزم المسلمون، وقُتل أكثرهم، وأُسر كثر منهم، وعاد شاه أرمن مهزوماً لم يرجع معه غير أربع مائة فارس من عسكره.

ذكر ولاية عيسى مكّة حرسها اللّه تعالى

كان أمير مكّة، هذه السنة، قاسم بن فُليتة بن قاسم بن أبي هاشم العلويّ الحسنيّ، فلمّا سمع بقرب الحجّاج من مكّة صادر المجاورين وأعيان أهل مكّة، وأخذ كثيراً من أموالهم، وهرب من مكّة خوفاً من أمير الحاجّ أرغش.

وكان قد حجّ هذه السنة زين الدّين عليّ بن بكْتكِين[2]، صاحب جيش الموصل،

---

(١) في الأوربية: «عنوان».

(٢) في (أ): «ابن بلتكين».

ومعه طائفة صالحة من العسكر، فلمّا وصل أمير الحاجّ إلى مكّة رتّب مكان قاسم بن فُليتة عمّه عيسى بن قاسم بن أبي هاشم، فبقي كذلك إلى شهر رمضان، ثمّ إنّ قاسم بن فُليتة جمع جمعاً كثيراً من العرب أطمعهم في مالٍ له بمكّة، فاتّبعوه، فسار بهم إليها، فلمّا سمع عمّه عيسى فارقها، ودخلها قاسم فأقام بها أميراً أيّاماً، ولم يكن له مال يوصله إلى العرب، ثمّ إنّه قتل قائداً كان معه أحسن السيرة، فتغيّرت نيّات أصحابه عليه، وكاتبوا عمّه عيسى، فقدِم عليهم، فهرب وصعِد جبل أبي قُبَيس، فسقط عن فرسه، فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه، فعظُم عليه قتله، فأخذه وغسّله ودفنه بالمُعَلّى عند أبيه فُليتة، واستقرّ الأمر لعيسى، والله أعلم[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة سار عبد المؤمن، صاحب المغرب، إلى جبل طارق، وهو على ساحل الخليج ممّا يلي الأندلس، فعبر المَجاز إليه، وبنى عليه مدينة حصينة، وأقام بها عدّة شهور، وعاد إلى مَرّاكُش[2].

وفيها، في المحرّم، ورد نَيسابور جمع كثير من تُركمان بلاد فارس ومعهم أغنام كثيرة للتّجارة فباعوها وأخذوا الثمن، وساروا ونزلوا على مَرحلتَين من طابس كنكلي[3]، وناموا هناك، فنزل إليهم الإسماعيليّة وكبسوهم ليلاً، ووضعوا السيف فيهم، فقتلوا وأكثروا، ولم ينجُ منهم إلاّ الشريد، وغنم الإسماعيليّة جميع ما معهم من مال وعروض، وعادوا إلى قلاعهم.

وفيها كثُرت الأمطار في أكثر البلاد، ولا سيّما خُراسان، فإنّ الأمطار توالت فيها من العشرين من المحرّم إلى منتصف صفر لم تنقطع، ولا رأى النّاس فيها شمساً.

وفيها كان بين الكُرج وبين الملك صلتق بن عليّ، صاحب أَرزَن الروم، قتال وحرب انهزم فيه صلتق وعسكره، وأُسر هو، وكانت أخته شاه بانوار قد تزوّجها شاه أرمن سكمان بن إبراهيم بن سكمان صاحب خِلاط، فأرسلت إلى ملك الكُرج هديّة

---

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام لقاضي مكة (بتحقيقنا) ٢/٣١٣.

(٢) الخبر في: الأنيس المطرب ١٤١، ونهاية الأرب ٢٤/٣١٧، والاستقصا ٢/١٢٦.

(٣) في (أ): «طبس كيلكي»، وفي (ب): «طاس كتكلي».

جليلة المقدار، وطلبت منه أن يفاديها بأخيها، فأطلقه، فعاد إلى مُلكه.

وفيها قصد صاحب صيدا من الفرنج نورَ الدّين محمود، صاحبَ الشام، ملتجئاً إليه، فأمّنه وسيّر معه عسكراً يمنعه من الفرنج أيضاً، فظهر عليهم في الطريق كمين للفرنج، فقتلوا من المسلمين جماعة وانهزم الباقون.

وفيها ملك قُرا أرسلان، صاحب حصن كيفا، قلعة شَاتان، وكانت لطائفة من الأكراد يقال لهم الجُونيّة[1]، فلمّا ملكها خرّبها وأضاف ولايتها إلى حصن طالب.

[الوَفَيات]

وفيها توفّي الكمال حمزة بن عليّ بن طلحة[2] صاحب المخزن، كان جليل القدر أيّام المسترشد باللّه، ووليَ المقتفي، وبنى مدرسة لأصحاب الشافعيّ بالقرب من داره، ثمّ حجّ وعاد وقد لبس الفُوَط وزِيّ الصوفيّة وترك الأعمال، فقال بعض الشعراء فيه:

يا عَضُدَ الإسلامِ يا مَن سَمَتْ ... إلى العلا هِمّتُهُ الفاخِرَهْ
كانَتْ لكَ الدّنيا، فلَم تَرْضَها ... مُلكاً[3] فأخذْتَ إلى الآخِرَهْ[4]

وبقي منقطعاً في بيته عشرين سنة، ولم يزل محترماً يَغشاه النّاس كافّة.

---

(1) في (ب): «المجوبية».

(2) أنظر عن (حمزة بن علي) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٦ هـ.) ص ١٩٤، ١٩٥ رقم ٢٠٠ وفيه مصادر ترجمته.

(3) في (أ): «داراً».

(4) المنتظم ١٠/٢٠٢ (١٨/١٥٠).

(٥٥٧)
ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

ذكر فتح المؤيّد طوس وغيرها

في هذه السنة، في السابع والعشرين من صفر، نازل المؤيّد أي أَبَه أبا بكر جاندار بقلعة وَسْكَره خُوي من طُوس وكان قد تحصّن بها، وهي حصينة منيعة لا تُرام، فقاتله وأعانه أهل طوس على أبي بكر لسوء سيرته فيهم وظُلمه، فلمّا رأى أبو بكر ملازمة المؤيّد ومواصلة القتال عليه خضع وذلّ واستكان، ونزل من القلعة بالأمان في العشرين من ربيع الأوّل من السنة، فلمّا نزل منها حبسه المؤيّد وأمر بتقييده.

ثمّ سار منها إلى كُرستان، وصاحبها أبو بكر فاخر، فنزل من قلعته، وهي من أمنع الحصون على رأس جبل عال، وصار في طاعة المؤيّد، ودان له ووافقه، وسيّر جيشاً في جُمادى الآخرة منها إلى أسفرايين، فتحصّن رئيسها عبد الرحمن بن محمّد بن عليّ الحاجّ بالقلعة، وكان أبوه كريم خُراسان على الإطلاق، ولكن كان عبد الرحمن هذا بئس الخَلَف[1]، فلمّا تحصّن أحاط به العسكر المؤيّديّ، واستنزلوه من الحصن، وحملوه مقيّداً إلى شاذياخ وحُبس بها؛ وقيل في ربيع الآخر سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة.

وملك المؤيّد أيضاً قَهَندز نَيسابور، واستدارت مملكة المؤيّد حول نَيسابور وعادت إلى ما كانت عليه قبل، إلاّ أنّ أهلها انتقلوا إلى شاذياخ، وخربت المدينة العتيقة.

وسيّر المؤيّد جيشاً إلى خَواف، وبها عسكر مع بعض الأمراء اسمع أرغش، فكمّن أرغش جمعاً في تلك المضايق والجبال، وتقدّم إلى عسكر المؤيّد فقاتلهم وطلع

---

(١) في الأوربية: «الخلق».

الكمين، فانهزم عسكر المؤيّد وقُتل منهم جمعٌ، وعاد الباقون إلى المؤيّد بنَيسابور.

وسيّر جيشاً إلى بُوشَنج هَراة، وهي في طاعة الملك محمّد بن الحسين الغُوريّ، فحصروها، واشتدّ الحصار عليها، ودام القتال والزحف، فسيّر الملك محمّد الغُوريَ جيشاً إليها ليمنع عنها، فلمّا قاربوا هراة فارقها العسكر الذي يحصرها، وعادوا عنها وصفت تلك الولاية للغوريّة.

ذكر أخذ ابن مَردَنيش غَرناطة من عبد المؤمن وعَودها إليه

في هذه السنة أرسل أهل غَرناطة من بلاد الأندلس، وهي لعبد المؤمن، إلى الأمير إبراهيم بن هَمشك صهر ابن مَردَنيش، فاستدعوه إليهم ليسّلموا إليه البلد؛ وكان قد وحّد، وصار من أصحاب عبد المؤمن، وفي طاعته، وممّن يحرّضه على قصد ابن مَردنيش. ففارق طاعة عبد المؤمن وعاد إلى موافقة ابن مَردَنيش. فلمّا وصل إليه رُسُل أهل غَرناطة سار معهم إليها، فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن، فامتنعوا بحصنها، فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مَالِقَة، فجمع الجيش الذي كان عنده وتوّجه إلى غَرناطة لنصرة مَن فيها من أصحابهم، فعلم بذلك إبراهيم بن همشك، فاستنجد ابن مردنيش، ملك البلاد بشرق الأندلس، فأرسل إليه ألفَيْ فارس من أنجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه، فاجتمعوا بضواحي غَرناطة، فالتقوا هم ومَن بغَرناطة من عسكر عبد المؤمن قبل وصول أبي سعيد إليهم، فاشتدّ القتال بينهم، فانهزم عسكر عبد المؤمن، وقدم أبو سعيد، واقتتلوا أيضاً، فانهزم كثير من أصحابه، وثبت معه طائفة من الأعيان والفرسان المشهورين، والرجّالة الأجلاد، حتى قُتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذٍ أبو سعيد ولحق بمالقة.

وسمع عبد المؤمن الخبر، وكان قد سار إلى مدينة سلا، فسيّر إليهم في الحال ابنه أبا يعقوب يوسف في عشرين ألف مقاتل، فيهم جماعة من شيوخ الموحّدين، فجدّوا المسير، فبلغ ذلك ابن مردنيش، فسار بنفسه وجيشه إلى غَرناطة ليعين[1] ابن همشك، فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير، فنزل ابن مردنيش في الشريعة بظاهرها، ونزل العسكر الذي كان أمدّ به ابن همشك[2] أوّلاً، وهم ألفا فارس، بظاهر القلعة

---

(١) في (ب): «ليمنع».

(٢) في (أ): «ونزل ابن همشك بظاهر القلعة».

الحمراء، ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه، ووصل عسكر عبد المؤمن إلى جبلٍ قريب من غَرناطة، فأقاموا في سفحه أيّاماً ثمّ سيّروا أربعة آلاف فارس، فبيّتوا العسكر الذي بظاهر القلعة الحمراء، وقاتلوهم من جهاتهم، فما لحِقوا يركبون، فقتلوهم عن آخرهم.

وأقبل عسكر عبد المؤمن بجملته، فنزلوا بضواحي غَرناطة، فعلم ابن مردنيش وابن همشك أنّهم لا طاقة لهم بهم، ففرّوا في اللّيلة الثانية، ولحِقوا ببلادهم، واستولى الموحّدون على غَرناطة في باقي السنة المذكورة، وعاد عبد المؤمن من مدينة سلا إلى مَرّاكُش[١].

ذكر حصر نور الدّين حارم

في هذه السنة[٢] جمع نور الدّين محمود بن زنكي بن آقسنْقر، صاحب الشام، العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم، وهي للفرنج غربيّ حلب، فحصرها وجدّ في قتالها، فامتنعت عليه بحصانتها، وكثرة مَن بها من فرسان الفرنج ورجّالتهم وشجعانهم، فلمّا علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد، وحشدوا، واستعدّوا، وساروا نحوه ليرحلّوه عنها، فلمّا قاربوه طلب منهم المصافّ، فلم يجيبوه إليه، وراسلوه، وتلطّفوا الحال معه، فلمّا رأى أنّه لا يمكنه أخذ الحصن، ولا يجيبونه إلى المصافّ، عاد إلى بلاده.

وممّن كان معه في هذه الغزوة مؤيّد الدولة أُسامة بن مُرشِد بن مُنقِذ الكِنانيّ، وكان من الشجاعة في الغاية، فلمّا عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شَيْزَر، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحجّ، فلمّا دخله الآن كتب على حائطة:

لكَ الحَمدُ يا مَوْلايَ كمَ لك مِنّة[٣]، علَيّ وفضلٌ[٤] لا يُحيطُ به شُكرِي

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) يذكر ابن الأثير ـ رحمه الله ـ هذا الخبر في كتابه «التاريخ الباهر ١٠٩» على أنه كان في سنة ٥٥١ هـ.، ثم عاد وذكره في هذه السنة (ص ١١٦)، وقد تقدّم فعلاً في حوادث تلك السنة من هذا الكتاب.
وقد تابعه أبو شامة فذكر الخبر في الموضعين في كتاب «الروضتين» سنة (٥٥٥ هـ. ص ٢٥٣، ٢٥٤، وسنة ٥٥٧ هـ. ـ ص ٣١٧.

(٣) في (أ): «كم لك من يد».

(٤) في طبعة صادر ١١/ ٢٨٥ «وفضلاً»، والتصحيح من (ب) والروضتين، والتاريخ الباهر.

نَـزَلْـتُ بِهـذا المَسجـدِ العـامَ قـافِـلاً مِـنَ الغَـزْوِ مـوْفـورَ النّصيـبِ مـن الأجـرِ
وَمنهُ رَحلتُ العِيسَ[1] في عاميَ الذي مَضَـى نحوَ بَيتِ اللّهِ والرّكـنِ والحِجـرِ
فـأدّيـتُ مَفـرُوضـي وأسقَطـتُ ثقـلَ مـا تحَمّلتُ من وِزْرِ الشّبيبَةِ عن ظَهرِي[2]

ذكر مُلك الخليفة قلعة الماهكي

في هذه السنة، في رجب، ملك الخليفة المستنجد باللّه قلعة الماهكي، وسبب ذلك أنّ سُنقُر الهمذانيّ، صاحبها، سلّمها إلى أحد مماليكه ومضى إلى هَمَذان، فضعف هذا المملوك عن مقاومة مَنْ حولها من التركمان والأكراد، فأشير عليه ببيعها من الخليفة، فراسل في ذلك، فاستقرّت[3] [على] خمسة عشر ألف دينار وسلاح وغير ذلك من الأمتعة، وعدّة من القُرى، فسلّمها وتسلّم ما استقرّ له، وأقام ببغداد. وهذه القلعة لم تزل من أيّام المقتدر باللّه بأيدي التركمان والأكراد وإلى الآن.

ذكر الحرب بين المسلمين والكُرج

في هذه السنة، في شعبان، اجتمعت الكُرج في خلق كثير يبلغون ثلاثين ألف مقاتل، ودخلوا بلاد الإسلام، وقصدوا مدينة دُوَين من أذرَبيجان، فملكوها ونهبوها، وقتلوا من أهلها وسوادها نحو عشرة آلاف قتيل، وأخذوا النساء سبايا، وأسروا كثيراً، وأعروا النساء وقادوهنّ حُفاة عُراة، وأحرقوا الجوامع[4] والمساجد؛ فلمّا وصلوا إلى بلادهم أنكر نساء الكُرج ما فعلوا بنساء المسلمين، وقلن لهم: قد أحوجتم المسلمين (إلى أن يفعلوا)[5] بنا مثل ما فعلتم بنسائهم؛ وكسونهنّ.

ولمّا بلغ الخبر إلى شمس الدّين إيلدكز، صاحب أذربيجان والجبل وأصفهان، جمع عساكره وحشدها، وانضاف إليه شاه أرمن بن سُكمان القطبي، صاحب خِلاط، وابن آقسنقر، صاحب مَراغة وغيرها، فاجتمعوا في عسكرٍ كثير يزيدون على خمسين ألف مقاتل، وساروا إلى بلاد الكُرج في صفر سنة ثمانٍ وخمسين [وخمسمائة] ونهبوها

---

(١) في الأوربية: «العيش».
(٢) الروضتين ج ١ ق ٣١٧/١، التاريخ الباهر ١١٦.
(٣) في الأوربية: «فاستقرّ».
(٤) في الأوربية: «الجامع».
(٥) في الأوربية: «يفعلون».

وسبوا النساء والصبيان، وأسروا الرجال، ولقيهم الكُرج، واقتتلوا أشدّ قتال صبر فيه الفريقان، ودامت الحرب بينهم أكثر من شهر، وكان الظَّفَر للمسلمين، فانهزم الكُرج وقُتل منهم كثير وأُسر كذلك.

وكان سبب الهزيمة أنّ بعض الكُرج حضر عند إيلدكز، فأسلم على يديه، وقال له: تعطيني عسكراً حتّى أسير بهم في طريق أعرفها وأجيء إلى الكُرج من ورائهم وهم لا يشعرون! فاستوثق منه، وسيّر معه عسكراً وواعده يوماً يصل فيه إلى الكُرج، فلمّا كان ذلك اليوم قاتل المسلمون الكُرج، فبينما هم في القتال وصل ذلك الكُرجيّ الذي أسلم ومعه العسكر، وكبّروا وحملوا على الكُرج من ورائهم، فانهزموا، وكثُر القتل فيهم والأسر، وغنم المسلمون من أموالهم ما لا يدخل تحت الإحصاء لكثرته، فإنّهم كانوا متيقّنين الظفر لكثرتهم، فخيّب اللّه ظنّهم، وتبِعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيّام بلياليها، وعاد المسلمون منصورين قاهرين[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وصل الحجّاج إلى مِنى، ولم يتمّ الحجّ لأكثر النّاس لصدّهم عن دخول مكّة والطواف والسعي، فمن دخل يوم النّحر مكّة وطاف وسعى كمّل حجَّه، ومَن تأخّر عن ذلك مُنع دخول مكّة لفتنةٍ جرت بين أمير الحاجّ وأمير مكّة. كان سببها أنّ جماعة من عبيد مكّة أفسدوا في الحاجّ بمِنَى، فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاجّ[2] فقتلوا منهم جماعة، ورجع مَن سلم إلى مكّة، وجمعوا جمعاً، وأغاروا على جِمال الحاجّ، وأخذوا منها قريباً من ألف جمل، فنادى أمير الحاجّ في جُنده، فركبوا بسلاحهم، ووقع القتال بينهم، فقُتل جماعة، ونهب جماعة من الحاجّ وأهل مكّة، فرجع أمير الحاجّ ولم يدخل مكّة، ولم يقم بالزّاهر غير يومٍ واحد، وعاد كثير من النّاس رجّالةً لقلّة الجِمال، ولقوا شدّة[3].

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/٣٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٧ هـ.) ص ٣٥، العبر ٤/١١٦، دول الإسلام ٢/٧٢، تاريخ ابن الوردي ٢/٦٤، البداية والنهاية ١٢/٢٤٥.

(٢) في (ب): «الحاج أرعش».

(٣) المنتظم ١٠/٢٠٢،٢٠٣، (١٨/١٥٢)، المختصر في أخبار البشر ٣/٣٩، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/٢٥١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٧ هـ.) ص ٣٥، العبر ٤/١٦٢، تاريخ ابن الوردي ٢/٦٤، مرآة الجنان ٣/٣١٢.

وممّن حجّ هذه السنة جدّتنا أمّ أبينا، ففاتها الطواف والسعي، فاستُفتي لها الشيخ الإمام أبو القاسم بن البرريّ، فقال: تدوم على ما بقي عليها[1] من إحرامها، وإن أحبّت تفدي وتحلّ من إحرامها إلى قابل، وتعود إلى مكّة، فتطوف وتسعى، فتكمّل الحجّة الأولى، ثمّ تُحرِمُ إحراماً ثانياً، وتعود إلى عرفات، فتقف وترمي الجمار، وتطوف وتسعى، فتصير لها حجّة ثانية؛ فبقيت على إحرامها إلى قابل، وحجّت وفعلت كما قال، فتمّ حجّها الأوّل والثّاني.

وفيها نزل بخراسان بَرَد كثير عظيم المقدار، أواخر نيسان، وكان أكثره بجُوَين ونَيسابور وما والاهما، فأهلك الغلاّت، ثمّ جاء بعده مطر كثير دام عشرة أيّام[2].

وفيها، في جمادى الآخرة، وقع الحريق ببغداد، احترق سوق الطُّيُوريّين والدُّور التي تليه مقابله إلى سوق الصفّر الجديد، والخان الذي في الرحبة، ودكاكين البُزُوريّين وغيرها[3].

وفيها تُوفّي الكيا الصّباحيّ[4]، صاحب ألَمُوت، مقدّم الإسماعيليّة، وقام ابنه مقامه، فأظهر التوبة، وأعاد هو ومَن معه الصلوات وصيام شهر رمضان، وأرسلوا إلى (قَزوين يطلبون مَن يصلّي)[5] بهم، ويعلمهم حدود الإسلام، فأرسلوا إليهم.

وفيها، في رجب، درّس شرف الدّين يوسف الدّمشقيّ في المدرسة النظاميّة ببغداد[6].

[الوفيات]

وفيها تُوفيّ شجاع الفقيه[7] الحنفي ببغداد، وكان مدرّساً بمدرسة أبي حنيفة،

---

(١) في (أ): «تبقى على ما هي عليه».
(٢) في (أ): «أياماً»، وفي (ب): «دام عدة».
(٣) المنتظم ١٠/٢٠٣ (١٨/١٥٢)، دول الإسلام ٢/٧٢، تاريخ الإسلام ٣٥.
(٤) أنظر عن (إلكيا الصباحي) في: اللباب ٣/٢٣٤، وتاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٧ هـ.) ص ٢٣٥ رقم ٢٥٣، وسير أعلام النبلاء ٢٠/٣٩٣.
(٥) في (ب): «قزوين طلبوا أعلاماً سوداً فأرسلوا»، وفي الأوربية: «من يصلّ».
(٦) المنتظم ١٠/٢٠٣ (١٨/١٥٢).
(٧) أنظر عن (شجاع الفقيه) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٧ هـ.) ص ٢٢٥ رقم ٢٤٤ وفيه مصادر =

وكان موته في ذي القعدة.

وفيها[1]، تُوفّي صَدَقة بن وزير[2] الواعظ.

وفيها، في المحرّم، تُوفّي الشيخ عَدِيّ بن مسافر[3] الزّاهد المقيم ببلد الهكّاريّة من أعمال الموصل، وهو من الشام، من بلدِ بَعْلَبَكّ، فانتقل إلى الموصل، وتبِعه أهل السواد والجبال بتلك النواحي وأطاعوه، وحسّنوا الظّنّ فيه، وهو مشهور جدّاً.

= ترجمته.

(1) من (أ).

(2) أنظر عن (صدقة بن وزير) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٧ هـ.) ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨ رقم ٢٤٥ وفيه مصادر ترجمته.

(3) أنظر عن (عديّ بن مسافر) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٧ هـ.) ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣ رقم ٢٤٨ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٥٥٨)

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

ذكر وزارة شاوُر للعاضد بمصر ثمّ وزارة الضّرغام بعده

في هذه السنة، في صفر، وزر شاوُر للعاضد لدين اللّه العلويّ [صاحب مصر، وكان ابتداء أمره ووزارته أنّه كان يخدم الصالح](١) بن رزّيك ولزمه، فأقبل عليه الصالح وولاه الصّعيد، وهو أكبر الأعمال بعد الوزارة، فلمّا وليَ الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدّم زائد، واستمال الرعيّة والمقدَّمين من العرب وغيرهم، فعسُر أمره على الصالح، ولم يمكنه عزله، فاستدام استعماله لئلاّ يخرج عن طاعته. فلمّا جُرح الصالح كان من جُملة وصيّته لولده العادل: إنّك لا تغيّر على شاوُر، فإنّني أنا أقوى منك وقد ندمتُ على استعماله، ولم يمكنّي عزله، فلا تغيّروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون.

فلمّا تُوفّي الصالح من جراحته ووليَ ابنه العادل الوزارة حسّن له أهله عزل شاوُر واستعمال بعضهم مكانه، وخوّفوه منه إن أقرّه على عمله، فأرسل إليه بالعزل، فجمع جموعاً كثيرة وسار إلى القاهرة بهم، فهرب منه العادل ابن الصالح بن رُزّيك فأُخذ وقُتل، فكانت مدّة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنين وشهراً وأيّاماً، وصار شاور وزيراً، وتلقّب بأمير الجيوش، وأخذ أموال بني رُزّيك وودائعهم وذخائرهم، وأخذ منه (أيضاً طيّ والكامل ابنا شاور)(٢) شيئاً كثيراً، وتفرّق كثير منها، وجُحد كثير، وظهرت عليهم عند انتقال الدّولة عن شاوُر والمصريّين إلى الأتراك.

ثمّ إنّ الضّرغام جمع جموعاً كثيرة، ونازع شاور في الوزارة في شهر رمضان،

---

(١) ما بين الحاصرتين من الباريسية.
(٢) ما بين القوسين من (أ).

وظهر أمره، وانهزم شاور منه إلى الشام، على ما نذكره سنة تسعٍ وخمسين وخمسمائة، وصار ضِرغام وزيراً.

وكان هذه السنة ثلاثة وزراء: العادل بن رُزّيك، وشاوُر، وضِرغام، فلمّا تمكّن ضِرغام من الوزارة قتل كثيراً من الأمراء المصريّين لتخلو له البلاد من منازع، فضعفت الدولة بهذا حتّى خرجت البلاد عن أيديهم[1].

ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف

في هذه السنة، في العشرين من جمادى[2] الآخرة. توفّي عبد المؤمن بن عليّ، صاحب بلاد المغرب، وإفريقية، والأندلس، وكان قد سار من مَرّاكُش إلى سلا، فمرض بها ومات.

ولمّا حضره الموت جمع شيوخ الموحّدين من أصحابه، وقال لهم: قد جرّبت ابني محمّداً، فلم أره يَصلُح لهذا الأمر، وإنّما يَصلُح له ابني يوسف، وهو أَوْلَى بها، فقدّموه لها، ووصّاهم به، وبايعوه ودُعي بأمير المؤمنين؛ وكتموا موت عبد المؤمن، وحُمل من سلا في مِحَفّة بصورة أنّه مريض إلى أن وصل إلى مَرّاكُش.

وكان ابنه أبو حفص في تلك المدّة حاجباً لأبيه، فبقي مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج فيقول للنّاس: أمير المؤمنين أمر بكذا؛ ويوسف [لم] يقعد مقعد أبيه إلى أن كملت المبايعة له في جميع البلاد، واستقرّت قواعد الأمور له، ثمّ أظهر موت أبيه عبد المؤمن، فكانت ولايته ثلاثاً[3] وثلاثين سنة وشهوراً وكان عاقلاً، حازماً، سديد الرأي، حسن السياسة للأمور، كثير البذل للأموال، إلاّ أنّه كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذّنْب الصغير.

---

(١) النكت العصرية ٤٩، ٥٣، خريدة القصر (قسم مصر) ١/ ١٨٠، أخبار الدول المنقطعة ٨٥، ١١٢ ـ ١١٤، المغرب في حلى المغرب ٩٤، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٣٣١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٠، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٢٨، ٣٢٩، الدر المطلوب ٢٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٨ هـ.) ص ٣٧ دول الإسلام ٢/ ٢٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٦، الوافي بالوفيات ١٤/ ١١٨ رقم ١٤٩، الكواكب الدرية ١٦٣، إتعاظ الحنفا ٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٤ و٢٥٧ ـ ٢٥٩، الجوهر الثمين ١/ ٢٦٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٦٣، حسن المحاضرة ٢/ ١٢٣، تاريخ ابن سباط ١/ ١١٣.

(٢) في (أ): «في جمادى»، وفي (ب): «في العشر من».

(٣) في الأوربية: «ثلاثة».

وكان يعظّم أمر الدّين ويقوّيه، ويُلزم النّاس في سائر بلاده بالصلاة، ومَن رُؤي وقت الصلاة غير مُصَلٍّ قُتل، وجمع النّاس بالغرب على مذهب مالك في الفروع، وعلى مذهب أبي الحسن الأشعريّ في الأصول، وكان الغالب على مجلسه أهل العِلم والدّين، المرجع إليهم، والكلام معهم ولهم[١].

ذكر مُلك المؤيّد أعمال قومس والخطبة للسلطان أرسلان بخُراسان

في هذه السنة سار المؤيّد أي أبَه، صاحب نَيسابور، إلى بلاد قُومِس، فملك بِسطام ودامغان، واستناب بقُومِس مملوكه تُنكز[٢]، فأقام تنكز بمدينة بِسطام، فجرى بين تنكز وبين شاه مازَندَران اختلاف أدّى إلى الحرب، فجمع كلّ منهما عسكره، والتقوا أوائل ذي الحِجّة في هذه السنة، واقتتلوا، فانهزم عسكر مازَندَران، وأُخذت أسلابهم، وقُتل منهم طائفة كبيرة.

ولمّا ملك المؤيّد بلاد قُومِس أرسل إليه السلطان أرسلان بن طُغرُل بن محمّد بن ملكشاه خِلعاً نفيسةً، وألويةً معقودة، وهديّة جليلة، وأمره أن يهتم باستيعاب بلاد خُراسان ويتولّى ذلك أجمع، وأن يخطب له، فلبس المؤيّد الخلع، فخطب له في البلاد التي هي بيده.

وكان السبب في هذا أتابك شمس الدّين إيلدكز، فإنّه كان هو الذي يحكم في مملكة أرسلان، وليس لأرسلان غير الاسم؛ وكان بين إيلدكز وبين المؤيّد مودّة ذكرناها عند قتل المؤيد، فلمّا أطاع المؤيّد السلطان أرسلان خطب له ببلاده، وهي بلاد قُومِس، ونَيسابور، وطُوس، وأعمال نَيسابور جميعُها، ومن نَسا إلى طَبَس كَنكَلي[٣]، وكان يخطب لنفسه بعد أرسلان، وكانت الخطبة في جُرجان ودِهِسْتان لخُوارزم شاه أيل أرسلان بن أَتسِز، وبعده للأمير إيثاق[٤]؛ وكانت الخطبة في مَرْوَ وبَلْخَ وهَراة وسَرْخَس، وهذه البلاد بيد الغُزّ، إلاّ هراة فإنّها كانت بيد الأمير

---

(١) أنظر عن وفاة «عبد المؤمن» في: نهاية الأرب ٢٤/ ٣٢١، ٣٢٢ والمصادر الكثيرة التي ذكرتها في تحقيقي لتاريخ الإسلام (٥٥١ ـ ٥٦٠ هـ.) ص ٢٥٢ رقم ٢٨٠.

(٢) في (ب): «تنكر».

(٣) في (أ) و(ب): «كيلكي».

(٤) في (أ): «ايتاق».

ايتِكين[1]، وهو مسالم للغُزّ، فكانوا يخطبون للسلطان سَنجَر فيقولون: اللهمّ اغفر للسلطان السعيد المبارك على المسلمين سَنجَر، وبعده للأمير الذي هو الحاكم في تلك البلاد[2].

ذكر قتل الغزّ ملك الغُور

في هذه السنة، في رجب، قُتل سيف الدين محمّد بن الحسين الغُوريّ، ملك الغُور، قتله الغُزّ.

وسبب ذلك أنّه جمع عساكره وحشد فأكثر، وسار من جبال الغُور يريد الغُزّ وهم ببلخ، واجتمعوا، وتقدّموا إليه، فاتّفق أنّ ملك الغور خرج من معسكره في جماعة من خاصّته، جريدةً، فسمع به أمراء الغزّ، فساروا يطلبونه مجدّين قبل أن يعود إلى معسكره، فأوقعوا به، فقاتلهم أشدّ قتال رآه النّاس، فقُتل ومعه نفر ممّن كان معه، وأسرت طائفة، وهربت طائفة، فلحقوا بمعسكرهم وعادوا إلى بلادهم منهزمين لا يقف الأب على ابنه ولا الأخ على أخيه، وتركوا كلّ ما معهم بحاله ونجوا بنفوسهم.

فكان عمر ملك الغور لمّا قُتل نحو عشرين سنة، وكان عادلاً حسن السيرة، فمن عدله وخوفه عاقبة الظلم أنّه حاصر أهل هراة، فلمّا ملكها أراد عسكره أن ينهبوها، فنزل على درب المدينة، وأحضر الأموال والثياب، فأعطى جميع عسكره منها، وقال: هذا خيرٌ لكم من أن تنهبوا أموال المسلمين وتُسخطوا اللّه تعالى، فإنّ المُلك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم؛ ولمّا قُتل عاد الغُزّ إلى بلخ ومرو وقد غنموا شيئاً كثيراً من العسكر الغُوريّ لأن أهله تركوه ونجَوْا[3].

ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج

في هذه السنة انهزم نور الدّين محمود بن زنكي من الفرنج، تحت حصن الأكراد، وهي الوقعة المعروفة بالبُقَيْعة، وسببها أنّ نور الدّين جمع عساكره ودخل بلاد الفرنج ونزل في البُقَيْعة تحت حصن الأكراد، محاصراً له وعازماً على قصد طرابُلُس

---

(١) في (أ): «انكن».

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث سنة ٥٥٨ هـ.) ص ٣٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٧.

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٨ هـ.) ص ٣٨، دول الإسلام ٢/ ٧٢، البداية والنهاية ١٢/ ٢٤٦.

ومحاصرتها، فبينما النّاس يوماً في خيامهم، وسط النهار، لم يَرُعهم إلاّ ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه حصن الأكراد، وذلك أنّ الفرنج اجتمعوا واتّفق رأيهم على كبسة المسلمين نهاراً، فإنّهم يكونون آمنين، فركبوا من وقتهم، ولم يتوقّفوا حتّى يجمعوا عساكرهم، وساروا مُجِدّين، فلم يشعر بذلك المسلمون إلاّ وقد قربوا منهم، فأرادوا منعهم، فلم يطيقوا ذلك، فأرسلوا إلى نور الدّين يعرّفونه الحال، فرهقهم الفرنج بالحملة[1]، فلم يثبت المسلمون، وعادوا يطلبون معسكر المسلمين، والفرنجُ في ظهورهم، فوصلوا معاً إلى العسكر النّوريّ، فلم يتمّكن المسلمون من ركوب الخيل، وأخذ السلاح، إلاّ وقد خالطوهم، فأكثروا القتل والأسر.

وكان أشدّهم على المسلمين الدّوقُس الروميّ، فإنّه كان قد خرج من بلاده إلى الساحل في جمع كثير من الروم، فقاتلوا محتسبين في زعمهم، فلم يبقوا على أحد، وقصدوا خيمة نور الدّين وقد ركب فيها فرسه ونجا بنفسه، ولسرعته ركب الفرس والشبحة في رِجله، فنزل إنسان كرديّ قطعها، فنجا نور الدّين، وقُتل الكرديّ، فأحسن نور الدّين إلى مخلّفيه، ووقف عليهم الوقوف.

ونزل نور الدّين على بحيرة قَدَس بالقرب من حِمص، وبينه وبين المعركة أربعة فراسخ، وتلاحق به مَن سلم من العسكر، وقال له بعضهم: ليس من الرأي أن تقيم هاهنا، فإنّ الفرنج ربّما حملهم الطَّمع على المجيء إلينا، فنؤخذ[2] ونحن على هذا الحال؛ فوبّخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس لقيتُهم ولا أبالي بهم، ووالله لا أستظلّ بسقفٍ حتّى آخذ بثأري وثأر الإسلام؛ ثمّ أرسل إلى حلب ودمشق، وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل، فأعطى اللّباس عوَض ما أُخذ منهم جميعه بقولهم، فعاد العسكر كأن لم تُصبه هزيمة، وكلّ من قُتل أعطى أقطاعه لأولاده.

وأمّا الفرنج فإنّهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنّها أقرب البلاد إليهم، فلمّا بلغهم نزول نور الدّين بينها وبينهم قالوا: لم يفعل هذا إلاّ وعنده قوّة يمنعنا بها.

ولمّا رأى أصحاب نور الدّين كثرة خرجه قال له بعضهم: إنّ لك في بلادك

---

(١) من (أ).

(٢) من (أ).

إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفيّة والقرّاء، وغيرهم، فلو استعنتَ [بها] في هذا الوقت لكان أصلح؛ فغضب من ذلك وقال: واللّه إنّي لا أرجو النصر إلاّ بأولئك[1] فإنّما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم؛ كيف أقطع صِلات قومٍ يقاتلون عنّي، وأنا نائم على فراشي، بسهام لا تخطىء، وأصرفها إلى مَن لا يقاتل عنّي إلاّ إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطىء، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال كيف يحلّ لي أن أعطيه غيرهم؟

ثمّ إنّ الفرنج راسلوا نور الدّين يطلبون منه الصلح، فلم يُجبهم، وتركوا عند حصن الأكراد مَن يحميه وعادوا إلى بلادهم[2].

ذكر إجلاء بني أسد من العراق

في هذه السنة أمر الخليفة المستنجد باللّه بإهلاك بني أسد أهل الحِلّة المَزْيَديّة، لما ظهر من فسادهم، ولما كان في نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمّداً لما حصر بغداد، فأمر يَزدَن بن قَماج بقتالهم وإجلائهم من البلاد، وكانوا منبسطين في البطائح، فلا يقدر عليهم، فتوجّه يزدن إليهم، وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل، وأرسل إلى ابن معروف مقدّم المُنْتَفق، وهو بأرض البصرة، فجاء في خلق كثير وحصرهم وسكّر عنهم الماء، وصابرهم مدّة، فأرسل الخليفة يعتب على يزدن ويعجّزه وينسبه إلى موافقتهم في التّشيّع، وكان يزدن يتشيّع، فجدّ هو وابن معروف في قتالهم والتّضييق عليهم، وسدّ مسالكهم في الماء، فاستسلموا حينئذٍ، فقُتل منهم أربعة آلاف قتيل، ونادى فيمن بقي: مَن وُجد بعد هذا في الحِلة المَزْيَديّة فقد حلّ دمه؛ فتفرّقوا في البلاد، ولم يبقَ منهم بالعراق مَن يُعرَف، وسُلّمت بطائحهم إلى ابن معروف وبلادهم[3].

---

(١) في (أ): «باولئك وكيف».

(٢) التاريخ الباهر ١١٦ ـ ١١٨، كتاب الروضتين ١/٣١٨ ـ ٣٢٠، ٤٢٢، زبدة الحلب ٢/٣١٣، تاريخ الزمان ١٧٦، المختصر في أخبار البشر ٣/٤١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٨ هـ.) ص ٣٨، سير أعلام النبلاء ٢٠/٤١٥، العبر ٤/١٦٣، تاريخ ابن الوردي ٢/٦٧، الإعلام والتبيين (حوادث سنة ٥٥٧ هـ.)، البداية والنهاية ١٢/٢٤٦، الكواكب الدرية ١٦١، تاريخ ابن سباط (بتحقيقنا) ١/١١٤، وكتابنا: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ١/٥١١ ـ ٥١٣.

(٣) المختصر في أخبار البشر ٣/٤١، تاريخ الإسلام (٥٥٨ هـ.) ص ٣٨، دول الإسلام ٢/٧٣، العبر =

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وقع في بغداد حريق في باب درب فَرَاشا إلى مشرعة الصبّاغين من الجانبين[1].

[الوَفَيَات]

وفيها، في رجب، تُوفّي سديد الدّولة أبو عبد اللّه محمّد بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم المعروف بابن الأنباريّ[2]، كاتب الإنشاء بديوان الخلافة، وكان فاضلاً أديباً ذا تقدّم كثير عند الخلفاء والسلاطين، وخدم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى الآن في ديوان الخلافة، وعاش حتّى قارب تسعين سنة.

وتُوفّي في رمضان هبة اللّه بن الفضل[3] بن عبد العزيز بن محمّد أبو القاسم المتّوثيّ، سمع الحديث؛ وهو من الشعراء المشهورين، إلاّ أنّه كثير الهجو، ومن شِعره:

يا مَن هَجرْتِ وَلا[4] تُبالي ... هلْ تَرجعُ دولَةُ الوِصالِ

هَل أَطمَعُ يا عَذابَ[5] قَلبي ... أنْ يَنْعَمَ في هَواكِ بالي

الطَّرْفُ كَما عَهدتِ[6] باكٍ ... وَالجِسْمُ كمَا تَرَينَ بَالي

ما ضَرّكِ أنْ تُعَلّليني ... في الوَصْلِ بمَوْعِدِ المحالِ

أَهَواكِ وأنتِ حَظُّ غَيري ... يا قاتِلَتي فما احتيالي

وهي أكثر من هذا[7].

= ٤/ ١٦٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٤٦، شذرات الذهب ٤/ ١٨١.

(١) المنتظم ١٠/ ٢٠٥ (١٨/ ١٥٦).

(٢) أنظر عن (ابن الأنباري) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٨ هـ.) ص ٢٧١ ـ ٢٧٣ رقم ٢٩١ وفيه مصادر ترجمته.

(٣) أنظر عن (هبة الله بن الفضل) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٨ هـ.) ص ٢٧٥ ـ ٢٧٧ رقم ٢٩٦ وفيه مصادر ترجمته.

(٤) في الخريدة: «فلا».

(٥) في تاريخ الإسلام: ما أطمع يا حياة.

(٦) في تاريخ الإسلام: الطرف من الصدود.

(٧) الأبيات مع زيادة في: المنتظم ١٠/ ٢٠٧ (١٨/ ١١٨)، الخريدة (قسم العراق) ٢/ ٢٧٠، تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٨ هـ.) ص ٢٧٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٤٦.

(٥٥٩)
ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ذكر مسير شِيركُوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر وعودهم عنها

في هذه السنة، في جمادى الأولى، سيّر نور الدّين محمود بن زنكي عسكراً كثيراً إلى مصر، وجعل عليهم الأمير أسد الدّين شِيركُوه بن شاذي، وهو مقدّم عسكره، وأكبر أمراء دولته، وأشجعهم، وسنذكر سنة أربعٍ وستّين [وخمسمائة] سبب اتّصاله بنور الدّين وعُلُوّ شأنه عنده إن شاء اللّه تعالى.

وكان سبب إرسال هذا الجيش أنّ شاوُر وزير العاضد لدين اللّه العلويّ، صاحب مصر، نازعه في الوزارة ضِرغام، وغلب عليها، فهرب شاور منه إلى الشام، ملتجئاً إلى نور الدّين، ومستجيراً به، فأكرم مثواه، وأحسن إليه، وأنعم عليه، وكان وصوله في ربيع الأوّل من السنة، وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه، ويكون لنور الدّين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون شيركوه مُقيماً بعساكره في مصر، ويتصرّف هو بأمر نور الدّين واختياره؛ فبقي نور الدّين يقدّم إلى هذا الغرض رِجلاً ويؤخّر أخرى، فتارةً يحمله رعايةً لقصد شاور بابَه، وطلب الزّيادة في المُلك والتقوّي على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطّريق، وأنّ الفرنج فيه؛ وتخوّف أنّ شاور إن استقرّت قاعدته ربّما لا يفي.

ثمّ قوّى عزمه على إرسال الجيوش، فتقدّم بتجهيزها وإزاحة عللها، وكان هوى أسد الدّين في ذلك، وعنده من الشجاعة وقوّة النفس ما لا يبالي بمخافة، فتجهزّ، وساروا جميعاً وشاور في صحبتهم، في جُمادى الأولى من سنة تسعٍ وخمسين [وخمسمائة]، وتقدّم نور الدّين إلى شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه، وينتقم له ممّن نازعه فيه.

وسار نور الدّين إلى طرف بلاد الفرنج ممّا يلي دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرّض لأسد الدّين ومَن معه، فكان قُصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدّين، ووصل أسد الدّين والعساكر معه إلى مدينة بِلْبِيس، فخرج إليهم ناصر الدّين أخو ضِرغام بعسكر المصريّين ولقيهم، فانهزم وعاد إلى القاهرة مهزوماً.

ووصل أسد الدّين فنزل على القاهرة أواخر جُمادى الآخرة، فخرج ضِرغام من القاهرة سلخَ الشهر، فقُتل عند مشهد السيّدة نفيسة، وبقي يومَين، ثمّ حُمل ودُفن في القرافة، وقُتل أخوه فارس[1] المسلمين، وخُلع على شاور مستهلّ رجب، وأعيد إلى الوزارة، وتمكّن منها، وأقام أسد الدّين بظاهر القاهرة، فغدر به شاور، وعاد عمّا كان قرّره لنور الدّين من البلاد المصريّة، ولأسد الدّين أيضاً، وأرسل إليه يأمره بالعَود إلى الشام، فأعاد الجواب بالامتناع، وطلب ما كان قد استقرّ بينهم، فلم يُجِبه شاور إليه، فلمّا رأى ذلك أرسل نوّابه فتسلّموا مدينة بِلْبِيس، وحكم على البلاد الشرقيّة، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدّهم ويخوّفهم من نور الدّين إنْ ملك مصر.

وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إنْ تمّ مُلكه لها، فلمّا أرسل شاور يطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدّين من البلاد جاءهم فرجٌ لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا في ملك الدّيار المصريّة، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، وتجهّزوا وساروا، فلمّا بلغ نورَ الدّين ذلك سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير، فلم يمنعهم لعلمهم أنّ الخطر في مقامهم، إذا ملك أسد الدّين مصر، أشدّ، فتركوا في بلادهم مَن يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر.

وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس، فاستعان بهم الفرنج الساحليّة، فأعانوهم، فسار بعضهم معهم، وأقام بعضهم في البلاد لحِفْظها، فلمّا قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدّين، وقصد مدينة بِلبِيس، فأقام بها هو وعسكره، وجعلها له ظهراً يتحصّن به، فاجتمعت العساكر المصريّة والفرنج، ونازلوا أسد الدّين شِيركُوه بمدينة بِلبِيس، وحصروه بها ثلاثة أشهر، وهو ممتنع بها مع أنّ سورها قصير جدّاً، وليس لها خندق، ولا فصيل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً.

---

(١) في (أ): «ناصر».

فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم ومُلك نور الدّين حارم ومسيره إلى بانياس، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى، فحينئذٍ سُقِط في أيديهم، وأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفظوها، فراسلوا أسد الدّين في الصلح والعود إلى الشام، ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريّين، فأجابهم إلى ذلك لأنّه لم يعلم ما فعله نور الدّين بالشام بالفرنج، ولأنّ الأقوات والذّخائر قلّت عليه، وخرج من بِلبِيس في ذي الحجّة.

فحدّثني مَن رأى أسد الدّين حين خرج من بِلبِيس قال: أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم وبيده لِتّ من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون إليه. قال: فأتاه فرنجيّ من الغرباء الذين خرجوا من البحر، فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريّون والفرنج، وقد أحاطوا بك وبأصحابك، ولا يبقى لكم بقيّة؟ فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتّى كنتَ ترى ما أفعله؛ كنتُ واللّه أضع السيف، فلا يُقتل منّا رجل حتّى يَقتل منهم رجالاً، وحينئذٍ يقصدهم الملك العادل نور الدّين، وقد ضعفوا وفني شجعانهم، فنملك بلادهم ويهلك من بقي منهم، واللّه لو أطاعني هؤلاء لخرجتُ إليكم من أوّل يوم، ولكنّهم امتنعوا.

فصلّب على وجهه، وقال: كنّا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم؛ ثمّ رجع عنه.

وسار شيركُوه إلى الشام، فوصل سالماً، وكان الفرنج قد وضعوا له على مضيق في الطريق رَصَداً ليأخذوه أو ينالوا منه ظفراً، فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق، ففيه يقول عُمارة [اليمني][(١)]:

أخذتُمْ عَلى الإفرَنْجِ كُلَّ ثَنِيّةٍ وَقُلْتُمْ لأيدي الخَيلِ مُرّي على مُرّي
لَئِن نَصَبُوا في البَرّ جِسْراً فإنّكُمْ عَبرْتُم ببَحرٍ مِنْ حَديدٍ على الجسرِ[(٢)]

ولفظة[(٣)] مُرّي في آخر البيت الأوّل اسم ملك الفرنج[(٤)].

---

(١) من (أ).
(٢) البيتان في: النكت العصرية ٨٠.
(٣) من (ب).
(٤) أنظر الخبر في: التاريخ الباهر ١١٩ ـ ١٢٢، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٣٣١ ـ ٣٣٩، النوادر السلطانية =

ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم

في هذه السنة، في شهر رمضان، فتح نور الدين محمود بن زنكي قلعة حارم من الفرنج؛ وسبب ذلك أنّ نور الدّين لمّا عاد منهزماً من البقيعة، تحت حصن الأكراد، كما ذكرناه قبلُ، فرّق الأموال والسلاح، وغير ذلك من الآلات على ما تقدّم، فعاد العسكر كأنّهم لم يُصابوا وأخذوا في الاستعداد للجهاد والأخذ بثأره.

واتّفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم إلى مصر، كما ذكرناه، فأراد أن يقصد بلادهم ليعودوا عن مصر، فأرسل إلى أخيه قُطب الدّين مَودود، صاحب الموصل وديار الجزيرة، وإلى فخر الدّين قُرا أرسلان، صاحب حصن كيفا، وإلى نجم الدّين ألبي، صاحب ماردين، وغيرهم من أصحاب الأطراف يستنجدهم؛ فأمّا قُطْب الدّين فإنّه جمع عسكره وسار مُجِدّاً، وفي مقدّمته زين الدّين عليّ أمير جيشه؛ وأمّا فخر الدّين، صاحب الحصن، فبلغني عنه أنّه قال له ندماؤه وخواصّه: على أيّ شيء عزمتَ؟ فقال: على القعود، فإنّ نور الدّين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة، وهو يُلقي نفسه والناس معه في المهالك؛ فكلّهم وافقه على هذا الرأي، فلمّا كان الغد أمر بالتجهّز للغَزاة، فقال له أولئك: ما عدا ممّا بدا؟ فارقناك أمس على حالة، فنرى اليوم ضدّها؟ فقال: إنّ نور الدّين قد سلك معي طريقاً إن لم أُنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنّه قد كاتب زهّادها وعُبّادها والمنقطعين عن الدّنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر، ويستمدّ منهم الدّعاء، ويطلب أن يحثّوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كلّ واحد من أولئك، ومعه أصحابه وأتباعه، وهم يقرؤون كتب نور الدّين، ويبكون ويلعنونني، ويدعون عليّ، فلا بدّ من المسير إليه؛ ثمّ تجهّز وسار بنفسه.

وأمّا نجم الدين فإنّه سيّر عسكراً، فلمّا اجتمعت العساكر سار نحو حارم

= ٢٩، تاريخ مختصر الدول ٢١٢، تاريخ الزمان ١٧٦، زبدة الحلب ٢/٣١٦،٣١٧، المغرب ٩٤، نهاية الأرب ٢٨/٣٣٤،٣٣٥، المختصر في أخبار البشر ٣/٤١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٩ هـ.) ص ٤٠، دول الإسلام ٢/٧٣، العبر ٤/١٦٧،١٦٨، تاريخ ابن الوردي ٢/٦٧، مرآة الجنان ٣/٣٤١، البداية والنهاية ١٢/٢٤٧،٢٤٨، الكواكب الدرية ١٦٤ ـ ١٦٦، إتعاظ الحنفا ٣/٢٦٦ ـ ٢٧٥، تاريخ ابن سباط ١/١١٤،١١٥.

فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف إليها، فاجتمع مَن بقي بالساحل من الفرنج، فجاؤوا في حدّهم وحديدهم، وملوكهم وفرسانهم، وقِسّيسيهم ورهبانهم، وأقبلوا إليه من كلّ حدب ينسِلون، وكان المقدّم عليهم البرِنْس بَيْمُنْد، صاحب أنطاكية، وقُمّص، صاحب طَرابُلس وأعمالها، وابن جوسلِين، وهو من مشاهير الفرنج، والدّوك، وهو مقدّم كبير من الروم، وجمعوا الفارس والراجل، فلمّا قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح طمعاً أن يتبعوه فيتمكّن منهم لبُعدهم عن بلادهم إذا لقوه، فساروا، فنزلوا على غَمّر[1] ثم علموا عجزهم عن لقائه، فعادوا إلى حارم، فلمّا عادوا تبِعهم نور الدّين في أبطال المسلمين على تعبئة الحرب.

فلمّا تقاربوا اصطفّوا للقتال، فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن، فانهزم المسلمون فيها، وتبِعهم الفرنج، فقيل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتّفاق ورأي دبّروه، وهو أن يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم، فيميل عليهم مَن بقي من المسلمين بالسيوف فيقتلوهم، فإذا عاد فرسانهم لم يلقوا راجلاً يلجأُون إليه، ولا وَزَراً يعتمدون عليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، فكان الأمر على ما دبّروه: فإنّ الفرنج لمّا تبِعوا المنهزمين عطف زين الدّين عليّ في عسكر الموصل على راجل الفرنج فأفناهم قتلاً وأسراً، وعاد خيّالتهم، ولم يمنعوا في الطلب خوفاً على راجلهم، فعاد المهزمون في آثارهم، فلمّا وصل الفرنج رأوا رجالهم[2] قتلى وأسرى، فسُقط في أيديهم، ورأوا أنّهم قد هلكوا وبقوا في الوسط قد أحدق بهم المسلمون من كلّ جانب، فاشتدّت الحرب، وقامت على ساق، وكثُر القتل في الفرنج، وتمّت عليهم الهزيمة، فعدل حينئذٍ المسلمون عن القتل إلى الأسر، فأسروا ما لا يُحَدّ، وفي جملة الأسرى صاحب أنطاكية والقُمّص، صاحب طرابلس، وكان شيطان الفرنج، وأشدّهم شكيمة على المسلمين، والدّوك مقدّم الروم، وابن جوسلين، وكانت عدّة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل.

وأشار المسلمون على نور الدّين بالمسير إلى أنطاكية وتملّكها لخُلُوّها من حامٍ

---

(١) في النسخة الباريسية رقم ٧٤٠ «عمر»، وفي (ب): «غم».

(٢) في (أ): «وجالتهم»، وفي (ب): «راجلهم».

يحميها ومقاتلٍ يذبّ عنها، فلم يفعل، وقال: أمّا المدينة فأمرها سهل، وأمّا القلعة فمنيعةٌ، وربّما سلّموها إلى ملك الروم لأنّ صاحبها ابن أخيه ومجاورة بيمُنْد أحبّ إليّ من مجاورة صاحب قسطنطينيّة، وبثّ السرايا في تلك الأعمال فنهبوها وأسروا أهلها وقتلوهم، ثمّ إنّه فادى بيمُند البرِس، صاحب أنطاكية، بمالٍ جزيل وأسرى من المسلمين كثيرة أطلقهم[1].

ذكر مُلك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج أيضاً

في ذي الحجّة من هذه السنة فتح نور الدّين محمود قلعة بانياس، وهي بالقرب من دمشق، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة، ولمّا فتح حارِم أذِن لعسكر الموصل وديار بكر بالعَود إلى بلادهم، وأظهر أنّه يريد طَبَرِيّة، فجعل مَن بقي من الفرنج همتّهم حفظها وتقويتها، فسار محمود[2] إلى بانياس لعِلمه بقلّة مَن فيها من الحُماة الممانعين عنها، ونازلها، وضيّق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نُصْرة الدّين أمير أميران، فأصابه سهمٌ فأذهب إحدى عينيه، فلمّا رآه نور الدّين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعدّ لك لتمنّيتَ ذهاب الأخرى. وجدّ في حصارها، فسمع الفرنج، فجمعوا، فلم تتكامل عدّتهم، حتّى فتحها؛ على أنّ الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم فملك القلعة، وملأها ذخائر وعدّةً ورجالاً، وشاطر الفرنج في أعمال طَبَرِيّة، وقرّروا له على الأعمال التي لم يشاطرهم عليها مالاً في كلّ سنة.

ووصل خبر مُلك حارم وحصر بانياس إلى الفرنج بمصر، فصالحوا شِيركوه، وعادوا ليدركوا بانياس، فلم يصلوا إلاّ وقد ملكها، ولمّا عاد منها إلى دمشق كان بيده

---

(١) أنظر فتح حارم في: التاريخ الباهر ١٢٢ ـ ١٢٦، والروضتين ج ١ ق ٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٢، وزبدة الحلب ٣١٩/٢، وتاريخ إربل ٥٧٣/١ (سنة ٥٥٨ هـ.)، ومفرّج الكروب ١٤٤/١، ومرآة الزمان ج ٨ ق ٢٤٧/٢، ٢٤٨ وتاريخ الزمان ١٧٦، وسنا البرق الشامي ٦١، ٦٢، والمختصر في أخبار البشر ٤١/٣، والدر المطلوب ٣٢، ٣٣، وتاريخ الإسلام (٥٥٩ هـ.) ص ٤٠، ٤١، والعبر ١٢٦/٤، ودول الإسلام ٧٤/٢، وتاريخ ابن الوردي ٦٨/٢، ومرآة الجنان ٣٤١/٣، والبداية والنهاية ٢٤٨/١٢، والإعلام والتبيين ٢٨، ٢٩، ومشارع الأشواق ٩٣٤/٢، وتاريخ ابن الفرات ٧٩/٨، وتاريخ ابن سباط ٢١٥/١ وتاريخ طرابلس ٥١٣/١.

(٢) في (أ): «محمد» وفي (ب): «فسار مجداً».

خاتم بفصّ ياقوت من أحسن الجوهر، وكان يسمّى الجبل لِكَبره وحُسنه، فسقط من يده في شَعارِي بانياس، وهي كثيرة الأشجار ملتفّة الأغصان، فلمّا أبعد عن المكان الذي ضاع فيه علم به، فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلّهم على المكان الذي كان آخر عهده به فيه، وقال: أظنّ هناك سقط؛ فعادوا إليه فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشاميّين أظنّه ابن منير يمدحه ويهنّئه بهذه الغزاة ويذكر الجبل الياقوت:

إنْ يَمَترِ[1] الشُّكّاكُ فيك بأنك[2] الـ مهديُّ مُطفي جَمرة الدّجّالِ

فلعَودةِ الجَبل الذي أضللتَهُ[3] ... بالأمس بين غياطِلٍ[4] وجبالِ

لم يُعطها إلاّ سليمانٌ، وقد[5] ... نبت الربا[6] بموشك الاعجالِ

رحرحرى[7] لسرير ملكك إنّه ... كسريره عن كلّ حدّ[8] عالِ

فلو البحار السبعة استهوينه ... وأمرتَهن قَذَفْنَهُ في الحالِ[9]

ولمّا فتح الحصن كان معه ولد معين الدّين أُنُز الذي سلّم بانياس إلى الفرنج، فقال له: للمسلمين بهذا الفتح فرحة واحدة، ولك فرحتان؛ فقال: كيف ذاك؟ قال:

---

(١) في التاريخ الباهر: «تمتر».
(٢) في الروضتين: «فإنك».
(٣) في الروضتين: «أظللته».
(٤) في الروضتين: «عناطل».
(٥) من (أ).
(٦) في الروضتين: «نلت الرقاء»، وفي (ب): «نلت الربا».
(٧) في الروضتين: «زجرجرى».
(٨) في الروضتين: «جُدُر».
(٩) الأبيات في: التاريخ الباهر ١٣١، والروضتين ج ١ ق ٣٥٦/٢، ٣٥٧، وديوان ابن منير (من جمعنا) ٢٦٩، ٢٧٠، وقال أبو شامة ـ: وهذه الأبيات لابن منير بلا شك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين، وفتح بانياس كما تراه في سنة ستين. وقد قرأت في ديوان ابن منير: وقال يمدحه، يعني نور الدين، ويهنّئه بالعود من غزاة، وضياع فصّ ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد، شراؤه ألف ومائة دينار.
وفي نسخة: ووجد أن خاتماً ضاع منه في الصيد قيمته ألف ومائة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص، فذكر القصيدة أولها:

يوماك يوم ندى ويوم نِزال

(أنظر الديوان ٢٧٠ ـ٢٧٢).

لأنّ اليوم برّد الله جلد والدك من نار جهنّم[1].

ذكر أخذ الأتراك غَزنة من ملكشاه وعوده إليها

في هذه السنة قصد بلاد غَزنة الأتراك المعروفون بغُزّ[2]، ونهبوها وخرّبوها، وقصدوا غَزنة وبها صاحبها ملكشاه بن خُسروشاه المحموديّ، فعلم أنّه لا طاقة له بهم، ففارقها وسار إلى مدينة لَهَاوور، وملك الغزّ مدينة غَزْنَة، وكان القيّم بأمرهم أمير اسمه زنكي بن عليّ بن خليفة الشيبانيّ؛ ثمّ إنّ صاحبها ملكشاه جمع وعاد إلى غَزْنة، ففارقها زنكي وعاد ملكها ملكشاه ودخلها في جمادى الآخرة سنة تسعٍ وخمسين وخمسمائة وتمكّن في دار مُلكه.

ذكر وفاة جمال الدّين الوزير وشيء من سيرته

في هذه السنة تُوفّي جمال الدّين أبو جعفر محمّد بن عليّ بن أبي منصور الأصفهانيّ، وزير قطب الدّين، صاحب الموصل، في شعبان مقبوضاً، وكان قد قُبض عليه سنة ثمانٍ وخمسين، فبقي في الحبس نحو سنة.

حكى لي إنسانٌ صوفيّ يقال له أبو القاسم كان مختصّاً بخدمته في الحبس قال: لم يزل مشغولاً في محبسه بأمر آخرته، وكان يقول: كنتُ أخشى أن أُنقل من الدَّستِ إلى القبر؛ فلمّا مرض قال لي في بعض الأيّام: يا أبا القاسم! إذا جاء طائر أبيض إلى الدّار فعرّفني. قال: فقلتُ في نفسي قد اختلط عقله؛ فلمّا كان الغد أكثر السؤآل عنه، وإذا[3] طائر أبيض لم أر مثله قد سقط، فقلتُ: جاء الطائر؛ فاستبشر ثمّ قال: جاء الحقّ؛ وأقبل على الشهادة وذكر اللّه تعالى، إلى أن تُوفّي، فلمّا تُوفّي طار ذلك الطائر، فعلمت أنّه رأى شيئاً في معناه.

---

(١) أنظر فتح بانياس في:
التاريخ الباهر ١٣٠، ١٣١، وزبدة الحلب ٢/ ٣٢١، ومرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٢٥١، وكتاب الروضتين ج ١ ق ٢/ ٢٣٦، والأعلاق الخطيرة ٢/ ١٤١، ١٤٢، وتاريخ الزمان ١٧٧، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤١، وتاريخ الإسلام (٥٥٩ هـ.) ص ٤١، ٤٢، والعبر ٤/ ١٦٧، ودول الإسلام ٢/ ٧٤، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٦٧، والكواكب الدرية ١٦٨، وتاريخ ابن سباط ١/ ١١٥.

(٢) في (ب): «المعرفون نقى».

(٣) في الأوربية: «وإذ».

ودُفن بالموصل عند فتح الكراميّ[1]، رحمة اللّه عليهما، نحو سنة، ثمّ نُقل إلى المدينة، فدُفن بالقرب من حرم النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، في رباط بناه لنفسه هناك، وقال لأبي القاسم: بيني وبين أسد الدّين شِيركوه عهدٌ، مَن مات منّا قبل صاحبه حمله إلى المدينة فدفنه بها في للتربة التي عملها، فإذا أنا متّ فامضِ[2] إليه وذكّره؛ فلمّا تُوفي سار أبو القاسم إلى شيركوه في المعنى، فقال له شيركوه: كم تريد؟ فقال: أريد أجرة جمل يحمله وجمل يحملني وزادي؛ فانتهره وقال: مثل جمال الدّين يُحمل هكذا إلى مكّة! وأعطاه مالاً صالحاً ليحمل معه جماعة يحجّون عن جمال الدّين، وجماعة يقرأون عليه بين يدي تابوته إذا حُمل، وإذا نزل عن الجمل؛ وإذا وصل إلى مدينة يدخل أولئك القرّاء ينادون للصلاة عليه، فيصلّى عليه في كلّ بلدة يجتاز بها، وأعطاه أيضاً مالاً للصدقة عنه، فصُلّي عليه في تكريت، وبَغداد، والحلّة،[3] وفَيْد، ومَكّة، والمدينة، وكان يجتمع له في كلّ بلد من الخلق ما لا يُحصى، ولمّا أرادوا الصلاة عليه بالحِلّة صعِد شاب على موضعٍ مرتفع وأنشد بأعلى صوته:

سَرَى نَعشُهُ فوْقَ الرّقابِ وَطالما ... سَرَى جُودُهُ[4] فوْقَ الرّكابَ ونائلُهْ

يمرّ على الوَادي فتُثني رِمالُهُ[5] ... عَلَيْهِ وَبالنّادي فتُثني[6] أراملُهْ[7]

فلم نرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم، فطافوا به حول الكعبة، وصلّوا عليه بالحرم الشريف؛ وبين قبره وقبر النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، نحو خمسة عشر ذراعاً.

وأمّا سيرته فكان، رحمه اللّه، أسخى النّاس، وأكثرهم بذلاً للمال، رحيماً بالخلق، متعطّفاً عليهم، عادلاً فيهم؛ فمن أعماله الحسنة أنّه جدّد بناء مسجد الخَيف

---

(١) في (أ): الهكاري. وفي (ب): «الكاري».

(٢) في الأوربية: «فامضي».

(٣) في (ب) زيادة: «والكوفة».

(٤) في تاريخ الإسلام: «سرى برّه».

(٥) في تاريخ الإسلام: «فتىً مرّ بالوادي فانثنت رماله».

(٦) في وفيات الأعيان: «فتبكي»، وفي تاريخ الإسلام: «فحنّت».

(٧) البيتان في: التاريخ الباهر ١٢٧/١، ووفيات الأعيان ١٤٦/٥، ومرآة الزمان ج ٨ ق ٢٥٠/٢، والروضتين ج ١ ق ٣٤٩/٢، تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٩ هـ.) ص ٢٩٣.

بمِنَى، وغرم عليه أموالاً جسيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة، وزخرف الكعبة وذهّبها، وعملها بالرخام؛ ولمّا أراد ذلك أرسل إلى المقتفي لأمر الله هديّة جليلة، وطلب منه ذلك، وأرسل إلى الأمير عيسى أمير مكّة هديّة كثيرة، وخِلعاً سنيّة، منها عمامة مشتراها ثلاثمائة دينار، حتّى مكّنه من ذلك.

وعمّر أيضاً المسجد الذي على جبل عَرَفات والدّرَج التي يُصعد فيها إليه، وكان النّاس يلقون شدّة في صعودهم، وعمل بعرَفات[1] أيضاً مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نَعْمان في طُرق معمولة تحت الأرض، فخرج عليها مال كثير. وكان يُجري الماء في المصانع كلّ سنة أيّام عرفات؛ وبنى سوراً على مدينة النبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، وعلى فَيد، وبنى لها أيضاً فصيلاً[2].

وكان يخرج على باب داره، كلّ يوم، للصّعاليك والفقراء مائة دينار أميريّ، هذا سوى الإدرارات والتّعهّدات للأئمّة والصالحين وأرباب البيوتات.

ومن أبنيته العجيبة التي لم يرَ النّاس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجَر المنحوت[3] والحديد والرصاص والكلس، فقُبض قبل أن يفرغ؛ وبنى عندها أيضاً جسراً كذلك على النهر المعروف بالارباد[4]، وبنى الرُّبُط، وقصده النّاس من أقطار الأرض، ويكفيه أنّ ابن الخُجَنديّ، رئيس أصحاب الشافعيّ بأصفهان، قصده وابن الكافي قاضي همذان، فأخرج عليهما مالاً عظيماً، وكانت صدقاته وصِلاته من أقاصي خُراسان إلى حدود اليمن.

وكان يشتري الأَسَرى كلّ سنة بعشرة آلاف دينار، هذا من الشام حسب، سوى ما يشتري من الكرج.

حكى لي والدي عنه قال: كثيراً ما كنتُ أرى جمال الدّين، إذا قُدّم إليه الطعام، يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه في خبز بين يديه، فكنتُ أنا ومن يراه نظنّ أنّه يحمله إلى أمّ ولده عليّ، فاتّفق أنّه في بعض السنين جاء إلى الجزيرة مع قُطْب الدّين، وكنتُ

---

(١) في الأوربية: «بعرقات».
(٢) في الأوربية: «فضيلاً».
(٣) في (أ): «بالحديد المنحوت».
(٤) هكذا في الأصل، والباريسية، والنسخة رقم ٧٤٠.

أتولّى ديوانها، وحمل جاريته أمّ ولده إلى داري لتدخل الحمّام، فبقيت في الدّار أيّاماً، فبينما أنا عنده في الخيام وقد أكل الطعام، فعل كما كان يفعل ثمّ تفرّق النّاس، فقمتُ، فقال: اقعد. فقعدتُ فلمّا خلا المكان قال لي: قد آثرتك اليوم على نفسي، فإنّني في الخيام ما يمكنني أن أفعل ما كنتُ أفعله؛ خذ هذا الخبز واحمله أنت في كُمّك في هذا المنديل، واترك الحماقة من رأسك، وعُدْ إلى بيتك. فإذا رأيتَ في طريقك فقيراً يقع في نفسك أنّه مستحقّ فاقعد أنت بنفسك وأطعِمْه هذا الطعام. قال: ففعلتُ ذلك. وكان معي جمعٌ كثير، ففرّقتهم في الطريق لئلاّ يروني أفعل ذلك، وبقيتُ في غلماني، فرأيتُ في موضع إنساناً أعمى، وعنده أولاده وزوجته، وهم من الفقر في حالٍ شديد، فنزلتُ عن دابّتي إليهم، وأخرجتُ الطعام وأطعمتُهم إيّاه، وقلتُ للرجل: تجيء غداً بُكرةً إلى دار فلان، أعني داري، ولم أعرّفه نفسي، فإنّني آخذ لك من صدقة جمال الدّين شيئاً؛ ثمّ ركبتُ إليه العصر، فلمّا رآني قال: ما الذي فعلتَ في الذي قلتُ لك؟ فأخذتُ أذكر له شيئاً يتعلّق بدولتهم؛ فقال: ليس عن هذا أسألك إنّما أسألك عن الطعام الذي سلّمتُه إليك؛ فذكرتُ له الحال، ففرح ثمّ قال: بقي أنّك لو قلتَ للرجل يجيء إليك هو وأهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير، وتُجري لهم كلّ شهر ديناراً. قال: فقلتُ له: قد قلتُ للرجل حتّى يجيء إليّ؛ فازداد فرحاً، وفعلتُ بالرجل ما قال، ولم يزل يصل إليه رسمه حتّى قُبض. وله من هذا كثير، فمن ذلك أنّه تصدّق بثيابه من على بدنه في بعض السنين التي تعذّرت الأقوات فيها(١).

ذكر إجلاء القارغلّية(٢) من وراء النهر

كان خان خانان الصيني ملك الخطا قد فوّض ولاية سَمَرْقَند وبخارى إلى الخان جَغري خان بن حسن تَكين، واستعمله عليهما، وهو من بيت الملك، قديم الأُبُوّة، فبقي فيها مدّبراً لأمورها، فلمّا كان الآن أرسل إليه ملك الخطا بإجلاء الأتراك القارغليّة من أعمال بُخارى وسمرقند إلى كاشْغر، وأن يتركوا حمل السلاح ويشتغلوا بالزّراعة وغيرها من الأعمال، فتقدّم جغري خان إليهم بذلك، فامتنعوا، فألزمهم وألحّ

---

(١) أنظر عن (جمال الدين الوزير) في: تاريخ الإسلام (وفيات ٥٥٩ هـ.) ص ٢٩١ ـ ٢٩٣ رقم ٣٢١ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) في (أ): «القارلغية».

عليهم بالانتقال، فاجتمعوا وصارت كلمتهم واحدة، فكثروا، وساروا إلى بخارى، فأرسل الفقيه محمّد بن عمر بن بُرهان الدّين عبد العزيز بن مازَةَ، رئيس بخارى، إلى جغري خان يُعلِمه ذلك ويحثّه على الوصول إليهم بعساكره قبل أن يعظُم شرّهم، وينهبوا البلاد.

وأرسل إليهم ابن مازة يقول لهم: إنّ الكّفار بالأمس لمّا طرقوا هذه البلاد امتنعوا عن النهب والقتل، وأنتم مسلمون، غزاة، يقبح منكم مدّ الأيدي إلى الأموال والدّماء، وأنا أبذل لكم من الأموال ما ترضون به لتكفّوا عن النّهْب والغارة؛ فتردّدت الرسل بينهم في تقرير القاعدة، وابن مازة يطاول بهم ويمادي الأيّام إلى أن وصل جغري خان، فلم يشعر الأتراك القارغلية[1] إلاّ وقد دهمهم جغري خان في جيوشه وجموعه بغتةً ووضع السيف فيهم، فانهزموا وتفرّقوا، وكثُر القتل فيهم والنهب، واختفى طائفة منهم في الغياض والآجام، ثمّ ظفر بهم أصحاب جغري خان فقطعوا دابرهم، ودفعوا عن بخارى ونواحيها ضررهم، وخلت تلك الأرض منهم.

ذكر استيلاء سُنقُر على الطالقان وغرْشِسْتَان

في هذه السنة استولى الأمير صلاح الدّين سُنقُر، وهو من مماليك السّنجَريّة، على بلاد الطّالقان، وأغار على حدود غرْشِسْتَان، وتابع الغارات عليها حتّى ملكها، فصارت الولايتان له وبحكمه، وله فيهما[1] حصون منيعة، وقلاع حصينة، وصالح الأمراء الغُزّيّة وحمل لهم الإتاوة كلّ سنة.

ذكر قتل صاحب هراة

كان صاحب هَراة الأمير إيتكين بينه وبين الغُزّ مهادنة، فلمّا توفّي ملك الغُور محمّد طمع في بلادهم، فغزاهم غير مرّة، ونهب وأغار، فلمّا كان في شهر رمضان من هذه السنة جمع ايتكين جموعه وسار إلى بلاد الغور، وساروا إلى باميان وإلى ولاية بُست[2] والرُّخّج، فقاتله صاحبها طُغرُل تكِين يرنقش الفَلَكيّ من قبل الغوريّة، فظهروا إلى باميان، واستولى [على] بُست والرُّخّج فسلّمها إلى بعض أولاد ملوك

---

(١) في الأوربية: «فيها».

(٢) في (أ): «بشت».

الغُور؛ وأمّا إيتكين فإنّه توغّل في بلاد الغُور، فأتاه أهلها وقاتلوه وصدّوه، وصدقوه القتال، فانهزم عسكره، وقُتل هو في المعركة[1].

ذكر مُلك شاه مازَنْدَران قُومِس وبِسطام

قد ذكرنا استيلاء المؤيّد صاحب نَيسابور على قُومِس وبِسطام وتلك البلاد، وأنّه استناب بها مملوكه تِنكِز[2]، فلمّا كان هذه السنة جهّز شاه مازَنْدَران جيشاً، واستعمل عليهم أميراً له يُعرف بسابق الدّين القَزوينيّ، فسار إلى دامِغان فملكها، فجمع تنكز مَن عنده من العساكر وسار إليه إلى دامغان، فخرج إليه القزوينيّ، فوصل إلى تنكز على غِرّة منه، فلم يشعر هو وعسكره إلاّ وقد كبسهم القزوينيّ ووضع السيف فيهم، فتفرّقوا وولّوا منهزمين، واستولى عسكر شاه مازَندران على تلك البلاد، وعاد تنكز إلى المؤيّد صاحب نَيسابور، واشتغل بالغارة على بِسطام وبلاد قُومس[3].

ذكر عصيان غُمارة بالمغرب

لمّا تحقّق النّاس موت عبد المؤمن سنة تسع وخمسين [وخمسمائة]، ثارت قبائل غُمارة مع مفتاح بن عمرو، وكان مقدّماً كبيراً فيهم، وتبِعوه بأجمعهم، وامتنعوا في جبالهم، وهي معاقل مانعة، وهم أُمَم جمّة، فتجهزّ إليهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، ومعه أخواه عمرو وعثمان، في جيشٍ كبير من الموحّدين والعرب، وتقدّموا إليهم، فاقتتلوا سنة إحدى وستّين وخمسمائة، فانهزمت غُمارة، وقُتل منهم كثير، وفيمَن قُتل مفتاح بن عمرو مقدّمهم، وجماعة من أعيانهم ومقدّميهم، وملكوا بلادهم عِنوةً.

وكان هناك قبائل كثيرة يريدون الفتنة، فانتظروا ما يكون من غُمارة، فلمّا قُتلوا ذلّت تلك القبائل وانقادوا للطّاعة، ولم يبقَ متحرّك لفتنة ومعصية[4] فسكنت الدَّهْماء في جميع المغرب[5].

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٩ هـ.) ص ٤٢.
(٢) في (ب): «تنكر».
(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٩ هـ.) ص ٤٢.
(٤) في (أ): «وعصبية»، والمثبت من (ب).
(٥) نهاية الأرب ٢٤/ ٣٢٢، ٣٢٣.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أغار الأمير[1] محمّد بن أُنُز على بلد الإسماعيليّة بخُراسان وأهلها غافلون، فقتل منهم وغنم وأسر وسبَى وأكثر، وملأ أصحابه أيديهم من ذلك.

وفيها تُوفي أبو الفضل نصر بن خَلَف ملك سجِستان، وعمره أكثر من مائة سنة، ومدّة مُلكه ثمانون سنة، وملك بعده ابنه شمس الدّين أبو الفتح أحمد بن نصر؛ وكان أبو الفضل ملكاً عادلاً عفيفاً عن رعيّته، وله آثار حسنة في نصرة السلطان سَنجَر في غير موقف.

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينيّة في عساكر لا تُحصى وقصد بلاد الإسلام التي بيد قَلْج أرسلان وابن دانِشْمنَد، فاجتمع التركمان في تلك البلاد في جمعٍ كبير، فكانوا يُغيرون على أطراف عسكره ليلاً، فإذا أصبح لا يرى أحداً.

وكثُر القتل في الروم حتّى بلغت عدّة القتلى عشرات ألوف[2]، فعاد إلى القسطنطينيّة، ولمّا عاد ملك المسلمون منه عدّة حصون[3].

[الوَفيات]

وفيها تُوفّي الإمام عمر الخُوارزميّ[4] خطيب بلْخ ومفتيها بها.

والقاضي أبو بكر المحموديّ[5]، صاحب التّصانيف والأشعار، وله مقامات بالفارسيّة على نمط «مقامات» الحريريّ بالعربيّة.

---

(١) في الأوربية: «أمير».

(٢) في تاريخ الإسلام: «نحواً من عشرة آلاف».

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٩ هـ.) ص ٤٣، دول الإسلام ٢/ ٧٤، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤١٥، العبر ٤/ ١٦٧، مرآة الجنان ٣/ ٣٤١.

(٤) في (أ): «الكخواري»، وفي (ب): «الكحواري».

(٥) أنظر عن (أبي بكر المحمودي) في: المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٤، والجواهر المضية ٢/ ٢٧٣، ومعجم المؤلفين ٣/ ٧٥.

(٥٦٠)
ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

ذكر وفاة شاه مازَندران ومُلك ابنه بعده

في هذه السنة، ثامن ربيع الأوّل، تُوفّي شاه مازَندران رستم بن عليّ بن شَهرَيار بن قارِن، ولمّا تُوفّي كتم ابنه علاء الدّين الحسن موته أيّاماً، حتّى استولى على سائر الحصون والبلاد ثمّ أظهره[١]، فلمّا ظهر خبر وفاته أظهر إيثاق[٢] صاحب جُرجان ودِهِستان المنازعة لولده في المُلك، ولم يرعَ حقّ أبيه عليه، فإنّه لم يزل يذبّ عنه ويحميه إذا التجأ إليه، ولكن المُلك عقيم، ولم يحصل من منازعته على شيء غير سوء السمعة وقبح الأحدوثة.

ذكر حصر عسكر المؤيّد نسا ورحيلهم عنها

كان المؤيّد قد سيّر جيشاً إلى مدينة نَسا، فحصروها إلى جُمادى الأولى في هذه السنة، فسيّر خُوارزم شاه ايل أرسلان بن أتسِز جيشاً إلى نَسا، فلمّا قاربوها رحل عنها عسكر المؤيد وعادوا إلى نَيسابور أواخر جُمادى الأولى.

وسار عسكر المؤيّد إلى عسكر خُوارزم، لأنّهم توجهّوا إلى نَيسابور، فتقدّم العسكر المؤيّديّ ليردّهم عنها، فلمّا سمع العسكر الخُوارزميّ بهم عاد عنهم، وصار صاحب نَسا في طاعة خُوارزم شاه والخطبة له فيها.

وسار عسكر خُوارزم إلى دِهِستان، فالتجأ صاحبها الأمير إيثاق[٢] إلى المؤيّد،

---

(١) في (أ): «ثم أظهر أمره».

(٢) في (أ): «ايناق»، وفي (ب): «ايتاق».

صاحب نَيسابور، بعد تمكّن الوحشة بينهما، فقبله المؤيّد وسيّر إليه جيشاً كثيفاً، فأقاموا عنده حتى دفع الضرر عن نفسه وبلده من جهة طَبَرستان.

وأمّا دِهِسْتان فإنّ عسكر خُوارزم غلبوا عليها وصار لهم فيها شِحنة.

ذكر استيلاء المؤيّد على هراة

قد ذكرنا قتل صاحب هَراة سنة تسع وخمسين [وخمسمائة]، فلمّا قُتل تجهّز الأمراء الغُزّيّة وساروا إلى هَراة وحصروها، وقد تَولّى أمرها إنسان يلقّب أثير الدّين، وكان له مَيل إلى الغُزّ، وهو يحاربهم ظاهراً، ويراسلهم باطناً، فهلك لهذا السبب خلق كثير من أهل هَراة، فاجتمع أهلها فقتلوه، وقام مقامه أبو الفتوح عليّ بن فضل اللّه الطُّغرائيّ، فأرسل أهلها إلى المؤيّد أي أبَه، صاحب نَيسابور، بالطّاعة والانقياد إليه، فسيّر إليهم مملوكه سيف الدّين تنكز[1] في جيش، وسيّر جيشاً آخر أغاروا على سَرْخَس، ومَرْو، فأخذوا دوابّ الغُزّ وعادوا سالمين. فلمّا سمع الغُزّ بذلك رحلوا عن هُراة إلى مرو[2].

ذكر الحرب بين قَلْج أرسلان وبين ابن دانِشْمَند

في هذه السنة كانت الفتنة بين الملك قَلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، صاحب قونية وما يجاورها من بلد الروم، وبين ياغي[3] أرسلان بن دانشمند، صاحب مَلَطْيَة وما يجاورها من بلد الروم، وجرت بينهما حرب شديدة.

وسببها أنّ قلج أرسلان تزوّج ابنة الملك صليق بن عليّ بن أبي القاسم، فسُيّرت الزّوجة إلى قلج أرسلان مع جهاز كثير لا يُعلم قدره، وأغار ياغي أرسلان صاحب مَلَطْيَة عليه، وأخذ العروس وما معها وأراد أن يزوّجها بابن أخيه ذي النّون بن محمد، ابن دانشمند، فأمرها بالردّة عن الإسلام ففعلت لينفسخ النّكاح من قَلج أرسلان، ثمّ عادت إلى الإسلام، فزوّجها من ابن أخيه، فجمع قلج أرسلان عسكره وسار إلى ابن دانشمند، فالتقيا واقتتلا، فانهزم قلج أرسلان، والتجأ إلى ملك الروم، واستنصره، فأرسل إليه جيشاً كثيراً، فمات ياغي أرسلان بن دانشمند في تلك الأيّام، وملك قلج

---

(١) في (ب): «تنكر».

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٥٩ هـ.) ص ٤٤.

(٣) في (أ) و(ب): «باغي»، بالموحّدة.

أرسلان بعض بلاده، واصطلح هو والملك إبراهيم بن محمّد بن دانشمند، لأنّه ملك البلاد بعد عمّه ياغي[1] أرسلان، واستولى ذو النّون بن محمّد بن دانشمند على مدينة قيساريّة، وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قلج أرسلان على مدينة انكوريّة واستقرّت القواعد بينهم واتّفقوا.

ذكر الفتنة بين نور الدّين وقلج أرسلان

في هذه السنة كانت وحشة متأكّدة بين نور الدّين محمود بن زنكي، صاحب الشام، وبين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، صاحب الروم، أدّت إلى الحرب والتّضاغن، فلمّا بلغ خبرها إلى مصر كتب الصالح بن رُزّيك، وزير صاحب مصر، إلى قلج أرسلان ينهاه عن ذلك ويأمره بموافقته، وكتب فيه شِعراً:

نَقـولُ ولكِـنْ أيـنَ مَـنْ يَتَفَهَّـمُ ... ويَعلَـمُ وَجهَ الـرّأيِ والـرّأيُ مُبهَـمُ
ومَا كلُّ مَن قاسَ الأمورَ وساسَها ... يُـوَفَّـقُ لـلأمْـرِ الـذي هَـو أحْـزَمُ
ومَا أحَدٌ في المُلكِ يَبقى مُخَلَّداً ... ومَـا أحَـدٌ ممّـا قضَـى اللّـهُ يَسلَـمُ
أمن بعد ما ذاق العِدى طعمَ حرْبكم [بفيهم وكانتْ] وَهيَ صَابٌ وعلقمُ
رَجعتم إلى حُكمِ التّنافُسِ بَينكم ... وَفيكـمْ مـنَ الشّحنـاء نـارٌ تَضَـرّمُ
أمَا عندكم مَنْ يَتّقي اللّهَ وَحدَهُ ... أمَا في رَعاياكم منَ النّاسِ مُسلمُ
تَعـالَـوْا لَعَـلّ اللّـهَ يَنصُـرُ دينَـهُ ... إذا مـا نصَـرْنـا الـدّيـنَ نحنُ وأنتُـمُ
ونَنهـض نحـوَ الكـافـرِيـنَ بعَـزْمَـةٍ ... بـأمثـالِهـا تُحْـوَى البِـلادُ وتُقسَـمُ

وهي أطول من هذا. هكذا ذكر بعض العلماء هذه الحادثة وأنّ الصالح أرسل بهذا الشعر، فإنْ كان الشعر للصّالح فينبغي أن تكون الحادثة قبل هذا التّاريخ، لأنّ الصالح قُتل سنة ستٍ وخمسين [وخمسمائة] في رمضان، وإن لم يكن الشِعر له فالحادثة في هذا التاريخ، (ويحتمل)[2] أن يكون هذا التنافس كان أيّام الصالح (فكتب الأبيات ثمّ)[3] امتدّ إلى الآن.

---

(١) في (أ): «باغي»، وفي (ب): «باغي».
(٢) من (أ).
(٣) من (ب).

في هذه السنة، في صفر، وقع بأصفهان فتنة عظيمة بين صدر الدّين عبد اللّطيف بن الخُجَنديّ وبين القاضي وغيره من أصحاب المذاهب، بسبب التّعصّب للمذاهب، فدام القتال بين الطائفتين ثمانية أيّام متتابعة قُتل فيها خلق كثير، واحترق وهُدم كثير من الدُّور والأسواق، ثمّ افترقوا على أقبح صورة[1].

وفيها بنى الإسماعيليّة قلعة بالقرب من قَزوين فقيل لشمس الدّين إيلدكز عنها، فلم يكن له إنكار لهذه الحال خوفاً من شرّهم وغائلتهم، فتقدّموا بعد ذلك إلى قزوين فحصروها، وقاتلهم أهلها أشدّ قتال رآه النّاس.

وحكى لي بعض أصدقائنا بل مشايخنا من الأئمّة الفضلاء قال: كنتُ بقَزوين أشتغل بالعلم، وكان بها إنسان يقود جمعاً كبيراً، وكان موصوفاً بالشجاعة، وله عصابة حمراء، إذا قاتل عصب بها رأسه، قال: فكنت أحبّه وأشتهي الجلوس معه؛ قال: فبينما أنا عنده يوماً إذا هو يقول: كأنّي بالملاحدة وقد قصدوا البلد غداً، فخرجنا إليهم وقاتلناهم، فكنتُ أوّل النّاس وأنا متعصّب بهذه العصابة، فقاتلناهم، فلم يُقتل غيري، ثمّ ترجع الملاحدة، ويرجع أهل البلد.

قال: فواللّه لمّا كان الغد إذ قد وقع الصوت بوصول الملاحدة، فخرج النّاس؛ قال: فذكرتُ قول الرجل، فخرجتُ واللّه وليس لي همّة إلاّ [أن] أنظر هل يصحّ ما قال أم لا. قال: فلم يكن إلاّ قليل حتى عاد النّاس وهو محمول على أيديهم قتيلاً بعصابته الحمراء، وذكروا أنّه لم يُقتل بينهم غيره، فبقيتُ متعجّباً من قوله كيف صحّ، ولم يتغيّر منه شيء، ومن أين له هذا اليقين.

ولمّا حكى لي هذه الحكاية لم أسأله عن تاريخها، وإنّما كان في هذه المدّة في تلك البلاد، فلهذ أثبتُّها هذه السنة على الظّنّ والتّخمين.

وفيها قبض المؤيّد أي أبه، صاحب نَيسابور، على وزيره ضياء المُلْك محمّد بن

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٠ هـ.) ص ٤٤، سير أعلام النبلاء ٢٠/٤١٦، العبر ٤/١٦٩، مرآة الجنان ٣/٣٤٣، البداية والنهاية ١٢/٢٤٩، شذرات الذهب ٤/١٨٨.

أبي طالب سعد بن أبي القاسم محمود الرّازي وحبسه، واستوزر بعده نصير الدّين أبا بكر محمّد بن أبي نصر محمّد المستوفي، وكان أيّام السلطان سَنْجر يتولّى إشراف ديوانه، وهو من أعيان الدّولة السَنْجرية.

وفي هذه السنة وردت الأخبار أنّ النّاس حجّوا سنة تسع وخمسين، ولقوا شدّة، وانقطع منهم خلق كثير في فَيد، والثعلبيّة، وواقصة، وغيرها، وهلك كثير، ولم يمضِ الحاجُّ إلى مدينة النبيّ، صلّى اللّه عليه وسلّم، لهذه الأسباب، ولشدّة الغلاء فيها، وعدم ما يُقتات، ووقع الوباء في البادية وهلك منهم عالم لا يُحصون، وهلكت مواشيهم، وكانت الأسعار بمكّة غالية.

وفيها، في صفر، قبض المستنجد باللّه على الأمير توبة بن العُقيليّ، وكان قد قرُب منه قُرباً عظيماً بحيث يخلو معه، وأحبّه المستنجد محبّة كثيرة، فحسده الوزير ابن هُبيرة، فوضع كتباً من العجم مع قوم وأمرهم أن يتعرّضوا ليؤخذوا، ففعلوا ذلك وأُخذوا وأُحضروا عند الخليفة، فأظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد، فلمّا وقف الخليفة عليها خرج إلى نهر الملكِ يتصيّد، وكانت حِلل توبة على الفرات[1]، فحضر عنده، فأمر بالقبض عليه، فقُبض وأُدخل بغداد ليلاً وحُبس، فكان آخر العهد به، فلم يمتَّع الوزير بعده بالحياة بل مات بعد ثلاثة أشهر. وكان توبة من أكمل العرب مروءة وعقلاً وسخاء وإجازة، واجتمع فيه من خلال الكمال ما تفرّق في النّاس[2].

[الوفيات]

وفيها، في ربيع الأوّل، توفّي الشهاب محمود بن عبد العزيز الحامديّ[3] الهرَويّ وزير السلطان أرسلان. ووزير أتابكه شمس الدين إيلدكز.

وفيها تُوفيّ عون الدّين الوزير ابن هُبيرة[4]، واسمه يحيـى بن محمد أبو المظفّر، وزير الخليفة، وكان موته في جُمادى الأولى ومولده سنة تسعين وأربعمائة، ودُفن

---

(١) في الأوربية: «الفراة».

(٢) المنتظم ١٠/ ٢١٠ (١٨/ ١٦٢)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٠ هـ.) ص ٤٤.

(٣) انظر عن (الحامدي) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٦٠ هـ) ص ٣٢١ رقم ٣٦٤.

(٤) انظر عن (الوزير ابن هبيرة) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٦٠ هـ) ص ٣٢٨ ـ ٣٣٤ رقم ٣٧٠ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

بالمدرسة التي بناها للحنابلة بباب البصرة، وكان حَنبليّ المذهب، ديّناً، خَيّراً، عالماً، يسمع حديث النبيّ ﷺ، وله فيه التصانيف الحسنة؛ وكان ذا رأيٍ سديد، ونافق على المقتفي نفاقاً عظيماً، حتى إنّ المقتفي كان يقول: لم يزر لبني العبّاس مثله؛ ولمّا مات قبض على أولاده وأهله.

وتُوفّي بهذه السنة محمد بن سعد[1] البغداديّ بالموصل، وله شعر حسن، فمن قوله:

أفدي الذي وَكّلني حُبُّهُ ... بطُولِ إعلالٍ وإمراضِ
ولَستُ أدري بعدَ ذا كُلّهِ ... أساخطٌ مَوْلايَ أمْ راضِ

وفيها تُوفّي الشيخ الإمام أبو القاسم عمر بن عكرمة[2] بن البزري[3] الشافعيّ[4]، (تفقّه على الفقيه)[5] إلْكِيا الهراسيّ، وكان واحد عصره في الفقه تأتيه الفَتاوى من العراق وخُراسان وسائر البلاد، وهو من جزيرة ابن عُمَر.

---

(١) انظر عن (محمد بن سعد) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٦٠ هـ) ص ٣١٩ رقم ٣٦١ وفيه «محمد بن سعود بن عبد الملك بن خنيس، أبو الكرم الغسّال».
(٢) انظر عن (عمر بن عكرمة) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٦٠ هـ) ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ رقم ٣٥٠ وفيه حشدت مصادر ترجمته.
(٣) في طبعة صادر ١١/٣٢١ «البرزي» بتقديم الراء، والتصحيح من الاستدراك لابن نقطة، وتوضيح المشتبه ١/٤٣٣، ومصادر ترجمته.
(٤) في (أ): «ابن الفقيه الشافعي».
(٥) من (أ).

٥٦١
ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ذكر فتح المُنيطِرة من بلد الفرنج

في هذه السنة فتح نور الدين محمود بن زنكي حصن المُنيطرة[١] من الشام، وكان بيد الفرنج، ولم يحشد له، ولا جمع عساكره، وإنّما سار إليه جريدة على غِرة منهم، وعلم أنّه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا، وانتهز الفرصة وسار إلى المُنيطِرة وحصره، وجدّ في قتاله، فأخذه عنوةً وقهراً، وقتل من بها وسبَى، وغنم غنيمة كثيرة، فإنّ الذين به كانوا آمنين، فأخذتهم خيل الله بغتةً وهم لا يشعرون، ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنّه جريدةً في قِلّة من العساكر لأسرعوا إليه، إنّما ظنّوه أنه في جَمْعٍ كثير، فلمّا ملكه تفرّقوا وأيسُوا من ردّه[٢].

ذكر قتل خطلبرس مقطع واسط

في هذه السنة قُتل خطلبرس مُقْطَع واسط، قتله ابن أخي شملة صاحب خوزستان.

وسبب ذلك أنّ ابن سَنكا، وهو ابن أخي شملة، كان قد صاهر منكوبرس مُقْطَع

---

(١) المُنَيْطِرَة: بضم الميم وفتح النون وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها، وكسر الطاء المهملة، وفتح الراء، وفي آخره هاء حصن بجبل لبنان. قال ياقوت: قريب من طرابلس. (معجم البلدان). وأقول: هو بين بعلبك وجبيل في جبل المنيطرة المعروف باسمه في القسم الشمالي من إقليم كسروان.

(٢) انظر عن (المنيطرة) في النوادر السلطانية ٣٨، والتاريخ الباهر ١٣١، والروضتين ج ٢ ق ٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦٧ و٣٦٨، وزبدة الحلب ٢/ ٣٢٢، ووفيات الأعيان ٧/ ٤٧، والمغرب في حلى المغرب ١٣٩، والكواكب الدرية ١٦٩، والإعلام بتاريخ أهل الإسلام لابن قاضي شهبة (مخطوط) ١١/ ١٦٩، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦١ هـ) ص ٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٣، ودول الإسلام ٢/ ٧٥، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٥١، والإعلام والتبيين ٢٩، وتاريخ طرابلس (تأليفنا) ج١/ ٥٩٤.

البصرة، فاتّفق أن المستنجد بالله قتل منكوبرس سنة تسع[1] وخمسين وخمسمائة، فلمّا قُتل قصد ابن سنكا البصرة ونهب قُراها، فأرسل من بغداد إلى كَمَشْتكِين، صاحب البصرة، بمحاربة ابن سنكا، فقال: أنا عامل لستُ بصاحب جيش؛ يعني أنّه ضامن لا يقدر على إقامة عسكر، فطمع ابن سنكا، وأصعد إلى واسط، ونهب سوادها، فجمع خطلبرس مقطعها جمعاً وخرج إلى قتاله.

وكاتب ابن سنكا الأمراء الذين مع خطلبرس، فاستمالهم ثمّ قاتلهم فانهزم عسكره فقتله، وأخذ ابن سنكا علم خطلبرس فنصبه، فلما رآه أصحابه ظنّوه باقياً، فجعلوا يعودون إليه، وكلّ من رجع أخذه ابن سنكا فقتله أو أسره.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة خرج الكُرج في جَمْعٍ كثير وأغاروا على بلدان، حتى بلغوا كنَجَة، فقتلوا وأسروا وسبوا كثيراً ونهبوا ما لا يُحصى[2].

[الوفيات]

وفيها تُوفّي الحسن بن العباس بن رستم أبو عبد الله الأصفهانيّ الرُستميّ[3]، الشيخ الصالح، وهو مشهور يروي عن أحمد بن خَلف، وغيره.

وفيها، في ربيع الآخر، توفي الشيخ عبد القادر بن أبي صالح أبو محمّد الجيليّ المقيم ببغداد، ومولده سنة سبعين وأربعمائة، وكان من الصلاح على حالةٍ كبيرة، وهو حَنْبَليّ المذهب، ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد.

---

(١) في (أ): «سبع».

(٢) الخبر من (أ) وهو في العبر ٤/١٧٤، ودول الإسلام ٢/٧٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦١ هـ) ص ٥.

(٣) انظر عن (الرستمي) في: تاريخ الإسلام (٥٦١ ـ ٥٧٠) رقم الترجمة ٩، والأنساب ٦/١١٥ ـ ١١٧، والمنتظم ١٠/٢١٩ رقم ٣٠٧.

٥٦٢
ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ذكر عود أسد الدين شِيركُوه إلى مصر

قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة مسير أسد الدين شِيركوه إلى مصر، وما كان منه، وقفوله إلى الشام، فلمّا وصل إلى الشام أقام على حاله في خدمة نور الدين إلى الآن.

وكان بعد عوده منها لا يزال يتحدّث بها وبقصْدها، وكان عنده من الحرص على ذلك كثير، فلمّا كان هذه السنة تجهّز وسار في ربيع الآخر في جيش قويّ، وسيّر معه نور الدين جماعة من الأمراء، فبلغت عدّتهم ألفَيْ فارس، وكان كارهاً لذلك، ولكن لمّا رأى جدّ أسد الدّين في المسير لم يمكنه إلا أن يسير معه جمْعاً خوفاً من حادثٍ يتجدّد عليهم فيضعف الإسلام، فلمّا اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البرّ، وترك بلاد الفرنج على يمينه، فوصل الدّيار المصريّة، فقصد اطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربيّ، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرّف في البلاد الغربيّة، وحكم عليها، وأقام نيفاً وخمسين يوماً.

وكان شاور لمّا بلغه مجيء أسد الدين إليهم قد أرسل إلى الفرنج يستنجدهم، فأتوه على الصَّعْب والذَّلول، طمعاً في ملكها، وخوفاً أن يملكها أسد الدّين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدّين، فالرجاء يقودهم، والخوف يسوقهم؛ فلمّا وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربيّ، وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد، فبلغ مكاناً يُعرف بالبابَين، وسارت العساكر المصريّة والفرنج وراءه، فأدركوه بها الخامس والعشرين من جُمادى الآخرة، وكان أرسل إلى المصريّين، والفرنج جوّاسين، فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عَددهم وعُددهم، وجدّهم في طلبه، فعزم على قتالهم، إلاّ أنه خاف من أصحابه أن تضعُف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطر الذي عطبهم فيه أقرب من سلامتهم، لقلّة عددهم وبُعدهم عن أوطانهم وبلادهم،

وخطر الطريق، فاستشارهم، فكلّهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقيّ والعود إلى الشام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا، وهو الذي يغلب على الظنّ، فإلى أين نلتجىء، وبمَن نحتمي، وكلّ من في هذه الدّيار من جنديّ وعاميّ وفلاح عدوّ لنا؟

فقام أمير من مماليك نور الدّين يقال له شرف الدّين بزغُش، صاحب شقيف[1]، وكان شجاعاً، وقال: من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته، والله لئن عُدنا إلى نور الدين من غير غَلَبة ولا بلاء نُعذر فيه ليأخذنّ ما لنا من أقطاع وجامكيّة، وليعودنّ علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا ويقول: تأخذون أموال المسلمين وتفرّون عن عدوّهم، وتُسلّمون مثل مصر إلى الكفّار! والحقّ بيده.

فقال أسد الدّين: هذا الرأي، وبه أعمل؛ وقال ابن أخيه صلاح الدّين مثله، وكثُر الموافقون لهم، واجتمعت الكلمة على القتال، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وجعل الأثقال في القلب يتكثّر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد، وجعل صلاح الدين في القلب، وقال له ولمن معه: إنّ المصريّين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظناً منهم أنّي فيه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال، ولا تُهلكوا نفوسكم، واندفعوا بين أيديهم فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم.

واختار هو من شجعان عسكره جمعاً يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة، فلمّا تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره، وحملوا على القلب، فقاتلهم من به قتالاً يسيراً، وانهزموا بين أيديهم غير متفرّقين وتبِعهم الفرنج، فحمل حينئذٍ أسد الدين فيمن معه على من تخلّف عن الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل، فهزمهم، ووضع السيف فيهم، فأثخن وأكثر القتل والأسر، فلمّا عاد الفرنج من المنهزمين رأوا عسكرهم مهزوماً، والأرض منهم قفراً، فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرّخ أنّ ألفَيْ فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل[2].

---

(١) شقيف: هو شقيف تيرون، حصن بجبل عامل شرقي مدينة صور.

(٢) التاريخ الباهر ١٣٢ ـ ١٣٣، النوادر السلطانية ٣٧ ـ ٣٨، زبدة الحلب ٢/٣٢٣، ٣٢٤، الروضتين =

ذكر مُلك أسد الدين الإسكندريّة وعوده إلى الشام

لما انهزم المصريّون والفرنج من أسد الدين بالبابين سار إلى ثغر الإسكندريّة وجبَى ما في القُرى على طريقه من الأموال، ووصل إلى الإسكندريّة، فتسلّمها بمساعدة من أهلها سلّموها إليه، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فملكه وجبَى أمواله، وأقام به حتى صام رمضان.

وأما المصريّون والفرنج فإنهم عادوا واجتمعوا على القاهرة، وأصلحوا حال عساكرهم، وجمعوا وساروا إلى الإسكندريّة، فحصروا صلاح الدّين بها، واشتدّ الحصار، وقلّ الطعام على من بها، فصبر أهلها على ذلك، وسار أسد الدين من الصعيد إليهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، فوصل رسل الفرنج والمصريّين يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط [على] الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ولا يتملّكوا منها قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك، واصطلحوا وعاد إلى الشام، وتسلّم المصريّون الإسكندريّة في نصف شوّال، ووصل شيركوه إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة.

وأما الفرنج فإنّهم استقرّ بينهم وبين المصريّين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدّين من إنفاذ عسكر إليهم، ويكون لهم من دَخْل مصر كلّ سنة مائة ألف دينار. هذا كلّه استقرّ مع شاور، فإنّ العاضد لم يكن له معه حكم [لأنّه] قد حجر عليه وحجبه عن الأمور كلّها، وعاد الفرنج إلى بلادهم بالساحل الشاميّ، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم[1].

وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهي

= ج ١ ق ٢/ ٣٦٥، تاريخ الزمان ١٧٨ ـ ١٧٩، أخبار الدول المنقطعة ١١٥، مفرّج الكروب ١/ ١٥٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٣ ـ ٤٤، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩، دول الإسلام ٢/ ٦٧ العبر ٤/ ١٧٦ ـ ١٧٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٢ هـ) ص ٨، ٩ تاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٢، مرآة الجنان ٣/ ٣٧٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣، الكواكب الدرية ١٦٩ ـ ١٧١، إتعاظ الحنفا ٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٥، تاريخ ابن سباط ١/ ١١٧.

(١) التاريخ الباهر ١٣٤، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/ ٢٦٩، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٤، العبر ٤/ ١٧٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٢ هـ) ص ٩ ـ ١٠، مرآة الجنان ٣/ ٣٧٠، البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٣، إتعاظ الحنفا ٣/ ٢٨٧، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٤٩.

محبّته وولاءه، ويسأله الدخول في طاعته، وضمن على نفسه أنّه يفعل هذا ويجمع الكلمة بمصر على طاعته، وبذل مالاً يحمله كلّ سنة، فأجابه إلى ذلك، وحمل إليه مالاً جزيلاً، فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة، فكان ما نذكره هناك إن شاء الله تعالى.

ذكر مُلك نور الدين صافيثا وعُرَيمة

في هذه السنة جمع نور الدين العساكر، فسار إليه أخوه قُطب الدين من الموصل وغيره، فاجتمعوا على حمص، فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج، فاجتازوا على حصن الأكراد، فأغاروا ونهبوا وقصدوا عِرْقَة فنازلوها وحصروها وحصروا حَلْبَة[1] وأخذوها وخرّبوها، وسارت عساكر المسلمين في بلادهم يميناً وشمالاً تُغير وتخرب البلاد، وفتحوا العُرَيمَة وصافيثا، وعادوا إلى حمص فصاموا بها رمضان.

ثمّ ساروا إلى بانياس[2]، وقصدوا حصن هُونِين[3]، وهو للفرنج أيضاً، من أمنع حصونهم ومعاقلهم، فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه، فوصل نور الدين من الغد فهدم سوره جميعه، وأراد الدخول إلى بيروت، فتجدّد في العسكر خُلف أوجب التفرّق، فعاد قُطب الدّين إلى الموصل، وأعطاه نور الدين مدينة الرَّقة على الفرات، وكانت له، فأخذها في طريقه وعاد إلى الموصل[4].

ذكر قصد ابن سنكا البصرة

في هذه السنة عاد ابن سنكا فقصد البصرة، ونهب بلدها وخرّبه من الجهة الشرقيّة، وسار إلى مطارا، فخرج إليه كمشتَكين، صاحب البصرة، وواقعه واقتتلوا قتالاً صبر فيه الفريقان ثم انهزم كمشتكين إلى واسط فاجتمع بشرف الدين أبي جعفر بن البلديّ الناظر فيها، ومعهما مقطعهما أرغش، واتّصلت الأخبار بأنّ ابن سنكا واصلٌ إلى واسط، فخاف الناس منه خوفاً شديداً، فلم يصل إليها.

---

(١) في (أ): «جبلة» والمثبت هو الصحيح. وهي «حلبا» حالياً، مركز قضاء عكار شمالي شرقي طرابلس.

(٢) في الجولان.

(٣) بجبل عامل شرقي صور.

(٤) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٢ هـ) ص ٧.

ذكر قصد شُملة العراق

في هذه السنة وصل شُملة صاحب خوزستان إلى قلعة الماهكي، من أعمال بغداد، وأرسل إلى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيئاً من البلاد، ويشتطّ في الطلب، فسيّر الخليفة أكثر عساكره إليه ليمنعوه، وأرسل إليه يوسف الدمشقيّ يلومه ويحذّره عاقبة فعله، فاعتذر بأن إيلدكز والسلطان أرسلان شاه أقطعا الملك الذي عنده، وهو ولد ملكشاه، البصرة وواسط والحِلّة، وعرض التوقيع بذلك، وقال: أنا أقنع بثلث ذلك؛ فعاد الدمشقيّ بذلك، فأمر الخليفة بلعنه، وأنّه من الخوارج، وجُمعت العساكر وسُيّرت إلى أرغش المسترشديّ، وكان بالنعمانيّة هو وشرف الدين أبو جعفر بن البلديّ، ناظر واسط، مقابل شملة.

ثم إن شُملة أرسل قَلج ابن أخيه في طائفة من العسكر لقتال طائفة من الأكراد، فركب أرغش في بعض العسكر الذي عنده وسار إلى قِلج فحاربه، فأسر قِلج وبعض أصحابه وسيّرهم إلى بغداد، وبلغ شملة، وطلب الصلح، فلم تقع الإجابة إليه، ثمّ إنّ أرغش سقط عن فرسه بعد الوقعة فمات وبقي شملة مقيماً مقابل عسكر الخليفة، فلمّا علم أنّه لا قدرة له عليهم رحل وعاد إلى بلاده، وكانت مدّة سفره أربعة أشهر(١).

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عصى غازي بن حسّان المنبجيّ على نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، وكان نور الدين قد أقطعه مدينة مَنبج، فامتنع عليه فيها، فسيّر إليهم عسكراً فحصروه وأخذوها منه، وأقطعها نور الدين أخاه قُطب الدين ينال بن حسّان، وكان عادلاً، خيّراً، محسناً إلى الرعيّة، جميل السيرة، فبقي فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيّوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة(٢).

[الوفيات]

وفيها تُوفّي فخر الدين قُرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن

---

(١) المنتظم ١٠/ ٢٢٠ (١٨/ ١٧٤)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٢ هـ) ص ٧.

(٢) الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ٩٥ و١٠٦ و١١٣ و١١٤، مفرّج الكروب ١/ ١١٠ ـ ١١١، التاريخ الباهر ١٣٤ ـ ١٣٥.

كيفا وأكثر ديار بكر، ولما اشتد مرضه أرسل إلى نور الدين محمود، صاحب الشام، يقول له: بيننا صُحبة في جهاد الكفّار أريد أن ترعى بها ولدي؛ ثمّ تُوفيّ، وملك بعده ولده نور الدين محمّد، فقام نور الدين الشاميّ بنصرته والذَّبّ عنه، بحيث أنّ أخاه قَطْب الدّين مودوداً، صاحب الموصل، أراد قصد بلاده، فأرسل إليه أخوه نور الدّين يمنعه، ويقول له: إن قصدتَه أو تعرّضتَ إلى بلاده منعتُك قهراً؛ فامتنع من قصده.

وفيها تُوفيّ أبو المعالي محمّد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد، وكان على ديوان الزمام، فقُبض عليه فمات محبوساً.

وفيها تُوفي قَماج المسترشدي ولد الأمير يزدن، وهو من أكابر الأمراء ببغداد.

٥٦٣

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكّم قُطب الدين في البلاد

في هذه السنة فارق زين الدين عليُّ بن بَكتَكِين[١]، النائب عن قُطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، خدمة صاحبه بالموصل، وسار إلى إربِل، وكان هو الحاكم في الدولة، وأكثر البلاد بيده، منها إربل، وفيها بيته وأولاده وخزائنه، ومنها شَهرَزُور وجميع القلاع التي معها، وجميع بلد الهَكّاريّة وقلاعه، منها العِمادِيّة وغيرها، وبلد الحَميديّة، وتكريت، وسِنجار، وحرّان، وقلعة الموصل هو بها، وكان قد أصابه طرَش وعمى أيضاً، فلمّا عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل سلّم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قُطْب الدين مودود، وبقي معه إربل حسبُ.

وكان شجاعاً، عاقلاً، عادلاً، حسن السيرة، سليم القلب، ميمون النّقيبة، لم ينهزم من حرب قطّ، وكان كريماً كثير العطاء للجُند وغيرهم، مدحه الحِيص بِيص بقصيدة، فلما أراد أن ينشده قال: أنا لا أعرف ما يقول، ولكنّي أعلم أنّه يريد شيئاً؛ فأمر له بخمسمائة دينار وفرس وخِلعة وثياب مجموع ذلك ألف دينار، ولم يزل بإربل إلى أن مات بها بهذه السنة.

ولمّا[٢] فارق زين الدّين قلعة الموصل سلّمها قُطب الدين إلى فخر الدين عبد المسيح، وحكّمه في البلاد، فعمر القلعة، وكانت خراباً لأنّ زين الدّين كان قليل الالتفات إلى العمارة، وسار عبد المسيح سيرةً سديدة وسياسة عظيمة، وهو خصيّ أبيض من مماليك زنكي أتابك عماد الدّين[٣].

---

(١) في (أ): «بلتكين».
(٢) من (أ).
(٣) التاريخ الباهر ١٣٥ ـ ١٣٦.

ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مَراغة

في هذه السنة أرسل آقسنْقر الأحمديلي، صاحب مراغة، إلى بغداد يسأل أن يُخطب للملك الذي هو عنده، وهو ولد السلطان محمّد شاه، ويبذل أنه لا يطأ أرض العراق، ولا يطلب شيئاً غير ذلك، وبذل مالاً يحمله إذا أجيب إلى ما التمسه، فأجيب بتطييب قلبه.

وبلغ الخبر إيلدكز صاحب البلاد، فساءه ذلك، وجهّز عسكراً كثيفاً، وجعل المقدّم عليهم ابنه البهلوان، وسيّرهم إلى آقسنقر، فوقعت بينهم حربٌ أجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصّنه بمراغة. ونازله البهلوان بها وحصره وضيّق عليه. ثمّ تردّدت الرسل بينهم، فاصطلحوا، وعاد البهلوان إلى أبيه بهَمَذان[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرفَ الدّين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي، وكان ناظراً بواسط أبان في ولايتها عن كفايةٍ عظيمة، فأحضره الخليفة واستوزره، وكان عضُد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء قد تحكّم تحكُّماً عظيماً، فتقدّم الخليفة إلى ابن البلديّ بكفّ يده وأيدي أهله وأصحابه، ففعل ذلك ووكّل بتاج الدين أخي أستاذ الدار، وطالبه بحساب نهر الملك، لأنّه كان يتولاّه من أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره، فحصّل بذلك أموالاً جمّة، وخافه أستاذ الدار على نفسه، فحمل مالاً كثيراً[2].

[الوفيات]

وفي هذه السنة تُوفّي عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعد بن أبي بكر ابن أبي المظفّر السمعانيّ المَرْوَزيّ، الفقيه الشافعيّ، وكان مكثراً من سماع الحديث، سافر في طلبه وسمع منه ما لم يسمعه غيره، ورحل إلى ما وراء النهر وخُراسان دفعات، ودخل إلى بلد الجبل، وأصفهان، والعراق، والموصل، والجزيرة، والشام، وغير

---

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٣ هـ) ص ١١.

(٢) المنتظم ١٠/٢٢٢ (١٨/١٧٦)، الفخري ٣١٧ وفيه اسم الوزير «محمد»، مختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٣٦، خلاصة الذهب المسبوك للإربلي ٢٧٨، البداية والنهاية ١٢/٢٥٤.

ذلك من البلاد، وله التصانيف المشهورة منها: «ذيل تاريخ بغداد»، و«تاريخ مدينة مَرْو»، وكتاب «النسب»، وغير ذلك، أحسن فيها ما شاء، وقد جمع مشيخته فزادت عدّتهم على أربعة آلاف شيخ، وقد ذكره أبو الفرج بن الجوْزيّ فقطعه.

فمن جملة قوله فيه أنّه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به إلى فوق نهر عيسى فيقول: حدّثني فلان بما وراء النهر، وهذا باردٌ جدّاً، فإنّ الرجل سافر إلى ما وراء النهر حقّاً، وسمع في عامّة بلاده من عامّة شيوخه، فأيّ حاجة به إلى هذا التلبيس البارد؟ وإنما ذنبه عند ابن الجوزيّ أنّه شافعيّ، وله أسوة بغيره، فإنّ ابن الجوزيّ لم يُبقِ على أحد إلاّ مكسري الحَنَابلة.

وفيها تُوفيّ قاضي القضاة أبو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفيّ في جُمادى الآخرة.

وفيها تُوفيّ يوسف الدمشقيّ مدرّس النظاميّة بخوزستان، وكان قد سار رسولاً إلى شملة.

وفيها تُوفيّ الشيخ أبو النجيب الشّهْرَزُوريّ الصوفيّ الفقيه، وكان من الصالحين المشهورين، ودُفن ببغداد.

٥٦٤
ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ذكر مُلك نور الدين قلعة جَعْبَر

في هذه السنة ملك نور الدين محمود بن زنكي قلعة جَعْبَر، أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن عليّ بن مالك العُقيليّ، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيّام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذِكر ذلك، وهي من أمنع القلاع وأحصنها مُطِلّة على الفرات[1] من الجانب الشرقيّ.

وأما سبب مُلكها، فإنّ صاحبها نزل منها يتصيّد، فأخذه بنو كلاب وحملوه إلى نور الدين في رجب سنة ثلاثٍ وستين، فاعتقله وأحسن إليه، ورغبه في الإقطاع والمال ليسلّم إليه القلعة، فلم يفعل، فعدل إلى الشدّة[2] والعنف، وتهدّده[3]، فلم يفعل، فسيّر إليها نور الدين عسكراً مقدّمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزّعفرانيّ، فحصرها مدّة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الدّاية، وهو رضيع نور الدين، وأكبر أمرائه، فحصرها أيضاً فلم ير له فيها مطمعاً، فسلك مع صاحبها طريق اللّين، وأشار عليه أن يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر في حِفْظها بنفسه، فقبل قوله وسلّمها، فأخذ عوضاً عنها سَرُوج وأعمالها والمَلاّحة التي بين بلد حلب[4] وباب بُزاعة، وعشرين ألف دينار معجّلة، وهذا إقطاع عظيم جدّاً، إلاّ أنه لا حصْنَ فيه.

وهذا آخر أمر بني مالك بالقلعة ولكلّ أمر أمَدٌ ولكلّ ولاية نهاية. بلغني أنّه قيل

---

(١) في الأوربية: «الفراة».
(٢) في (أ): «فأخذها بالشدة».
(٣) زاد في (أ): «وتوعده».
(٤) في (أ): «التي في حلب».

لصاحبها: أيما أحبّ إليك وأحسن مقاماً، سروج والشام أم القلعة؟ فقال: هذه أكثر مالاً، وأما العزّ ففارقناه بالقلعة[1].

ذكر ملك أسد الدين مصر وقتل شاور

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى ديار مصر، فملكها، ومعه العساكر النّوريّة.

وسبب ذلك ما ذكرناه من تمكّن الفرنج من البلاد المصريّة، وأنّهم جعلوا لهم في القاهرة شِحنةً وتسلّموا أبوابها، وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم، وحكموا على المسلمين حكماً جائراً، وركبوهم بالأذى العظيم، فلمّا رأوا ذلك، وأنّ البلاد ليس فيها من يردّهم، أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام، وهو مُرّي[2] ولم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام مثله شجاعةً ومكراً ودهاء، يستدعونه ليملكها، وأعلموه خلوّها من مُمانع، وهوّنوا أمرَها عليه، فلم يُجِبهم إلى ذلك، فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذوو الرأي منهم، وأشاروا عليه بقصدها وتملّكها، فقال لهم: الرأي عندي أنّنا لا نقصدها، فإنّها طعمة لنا، وأموالها تُساق إلينا، نتقوّى[3] بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإنّ صاحبها وعساكره، وعامّة بلاده وفلاحيها، لا يسلّمونها إلينا، ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منّا على تسليمها إلى نور الدين، ولئن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام؛ فلم يقبلوا قوله، وقالوا له: إنّها لا مانع فيها ولا حامي، وإلى أن يتجهّز عسكر نور الدين، ويسير إليها، نكون نحن قد ملكناها، وفرغنا من أمرها، وحينئذٍ يتمنّى نور الدين منّا السلامة.

فسار معهم على كرهٍ وشرعوا يتجهّزون ويُظهرون أنهم يريدون قصد مدينة حمص؛ فلما سمع نور الدّين شرع أيضاً يجمع عساكره، وأمرهم بالقدوم عليه، وجدّ

---

(١) التاريخ الباهر ١٣٦ ـ ١٣٧، الروضتين ج ١ ق ٣٨٦/٣ ـ ٣٨٧، زبدة الحلب ٣٢٥/٢، تاريخ الزمان ١٨٠، تاريخ مختصر الدول ٢١٢، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١٠٧/١ و١١٥، الدر المطلوب ٤٠، المختصر في أخبار البشر ٤٤/٣ ـ ٤٥، نهاية الأرب ١٦٢/٢٧، تاريخ ابن الوردي ٦٣/٢، الكواكب الدرية ١٧٤، تاريخ ابن خلدون ٢٤٨/٥، تاريخ ابن سباط ١١٩/١.

(٢) في (أ): «مري».

(٣) في الأوربية: «تتقوى».

الفرنج في السير إلى مصر، فقدموها، ونازلوا مدينة بلبِيس، وملكوها قهراً مُستهلّ صفر، ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وسبَوا.

وكان جماعةٌ من أعيان المصريّين قد كاتبوا الفرنج، ووعدوهم النصرة عداوةً منهم لشاور، منهم ابن الخيّاط، وابن فَرْجَلة[1]، فقوي جَنان الفَرنج، وساروا من بلبِيس إلى مصر، فنزلوا إلى القاهرة عاشر صفر وحصروها، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بِلبِيس، فحملهم الخوف منهم على الامتناع، فحفظوا البلد، وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، فلو أنّ الفرنج أحسنوا السّيرة في بِلبِيس لملكوا مصر والقاهرة، ولكنّ الله تعالى حسّن لهم ما فعلوا ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وأمر شاور بإحراق مدينة مصر تاسع صفر، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن يُنهب البلد، فانتقلوا، وبقوا على الطرق، ونُهبت المدينة وافتقر أهلها، وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم، خوفاً أن يملكها الفرنج، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً.

وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به، ويعرّفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهنّ من الفرنج؛ فشرع في تسيير الجيوش.

وأمّا الفرنج فإنّهم اشتدّوا في حصار القاهرة وضيّقوا على أهلها، وشاور هو المتولّي للأمر والعساكر والقتال، فضاق به الأمر، وضعُف عن ردّهم، فأخلد إلى إعمال الحيلة، فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودّته ومحبّته القديمة له، وأنّ هواه معه لخوفه من نور الدين والعاضد، وإنّما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير بالصلح، وأخذ مال لئلا يتسلّم البلاد نور الدين، فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينارِ مصريّة، يعجّل البعض، ويمهل بالبعض، فاستقرّت القاعدة على ذلك[2].

---

(١) في (أ): «قرحلة».

(٢) التاريخ الباهر ١٣٧ ـ ١٣٨، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧، أخبار الدول المنقطعة ١١٦، سنا البرق الشامي ١/ ٧٤، المغرب في حلى المغرب ٩٥ ـ ٩٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٧، تاريخ =

ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم[1] وربّما سُلّمت إلى نور الدين، فأجابوا كارهين، وقالوا: نأخذ المال فنتقوّى به، ونعاود البلاد بقوّة لا نبالي معها بنور الدين ﴿وَمَكَروا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾[2] فعجّل لهم شاور مائة ألف دينار، وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال[3]، فرحلوا قريباً، وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر، فلم يتحصّل له إلاّ قدرٌ لا يبلغ خمسة آلاف دينار، وسببه أنّ أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم وما فيها، وما سلم نُهب، وهم لا يقدرون على الأقوات فضلاً عن الأقساط.

وأما القاهرة فالأغلب على أهلها الجُنْد وغلمانهم، فلهذا تعذّرت عليهم الأموال، وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه، وبذلوا له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيماً عندهم في عسكر، وأقطاعهم من البلاد المصريّة أيضاً خارجاً عن الثّلث الذي لهم.

وكان نور الدين لما وصله كُتب العاضد بحلب أرسل إلى أسد الدين يستدعيه إليه، فخرج القاصد في طلبه، فلقيه على باب حلب، وقد قدِمَها من حمص وكانت إقطاعه، وكان سبب وصوله أنّ كتب المصريّين وصلته أيضاً في المعنى، فسار أيضاً إلى نور الدين، واجتمع به، وعجب نور الدين من حضوره في الحال، وسرّه ذلك، وتفاءل به، وأمر بالتجهيز إلى مصر، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وحكّمه في العسكر والخزائن، واختار من العسكر ألفَيْ فارس، وأخذ المال، وجمع ستّة آلاف فارس، وسار هو ونور الدين إلى دمشق فوصلها سلْخ صفر، ورحل إلى رأس الماء، وأعطى نور الدين كل فارس ممّن مع أسد الدين عشرين ديناراً معونةً غير محسوبة من جامكيّته، وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء منهم: مملوكه عز الدين جُورديك، وعزّ الدين قلج، وشرف الدّين بزغش،

= الإسلام (حوادث ٥٦٤ هـ) ص ١٢ ـ ١٣، العبر ٤/ ١٨٤، دول الإسلام ٢/ ٧٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٤، البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٥، تاريخ ابن سباط ١/ ١٢٠، تاريخ الزمان ١٨١، تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١/ ٢٤ ـ ٢٥.

(١) في الأوربية: «عليه».

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

(٣) في (ب): «وشرع شاور في جمع المال قدر قريب».

وعين الدولة الياروقيّ، وقُطْب الدين ينال بن حسّان المنبِجي، وصلاح الدين يوسف بن أيّوب، أخي شِيركوه، على كرْهٍ منه، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾[1] أحبّ نور الدين مسير صلاح الدين، وفيه ذهاب بيته؛ وكره صلاح الدين المسير، وفيه سعادته ومُلكه، وسيرد ذلك عند موت شِيركوه، إن شاء الله تعالى[2].

وسار أسد الدين شِيركوه من رأس الماء مُجِدّاً منتصف ربيع الأول، فلما قارب مصر رحل الفرنج عنها عائدين إلى بلادهم بخُفيّ حُنين خائبين مما أمّلُوا، وسمع نور الدين بعودهم، فسرّه ذلك، وأمر بضرب البشائر في البلاد، وبثّ رُسُله في الآفاق مبشّرين بذلك، فإنّه كان فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لسائر بلاد الشام وغيرها.

فأما أسد الدين فإنّه وصل إلى القاهرة سابع جُمادى الآخرة، ودخل إليها، واجتمع بالعاضد لدين الله، وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضديّة، وفرح به أهل مصر، وأُجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة، والإقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لأنّه رأى العساكر كثيرة مع شِيركوه وهوى العاضد معهم، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، وشرع يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل لنور الدّين من المال، وإقطاع الجُند، وإفراد ثُلث البلاد لنور الدّين، وهو يركب كلّ يوم إلى أسد الدّين ويسير معه ويَعِده ويُمنّيه ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلاّ غُرُوراً﴾[3].

ثمّ إنّه عزم على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم، ويستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم البلاد من الفرنج، فنهاه ابنه الكامل، وقال له: والله لئن عزمت على هذا لأعرّفنّ شِيركوه. فقال له أبوه: والله لئن لم نفعل[4] هذا لنُقتلنّ جميعاً. فقال: صدقتَ ولأن[5] نُقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلاميّة، خير من أن نُقتل وقد ملكها الفرنج، فإنّه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شِيركوه، وحينئذٍ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٢) النوادر السلطانية ٣٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٠.
(٤) في الأوربية: «تفعل».
(٥) في الأوربية: «ولئن».

فارساً واحداً ويملكون البلاد؛ فترك ما كان عزم عليه.

ولما رأى العسكر النوريّ مَطَل شاور خافوا شرّه، فاتّفق صلاح الدين يوسف بن أيّوب وعز الدّين جُورديك وغيرهما على قتل شاور، فأعلموا أسد الدّين فنهاهم عنه، فسكتوا وهم على ذلك العزم من قتله، فاتّفق أن شاور قصد عسكر أسد الدين على عادته، فلم يجده في الخيام، كان قد مضى يزور قبر الشافعيّ، رضي الله عنه، فلقِيه صلاح الدّين يوسف وجُورديك في جمع من العسكر، وخدموه، وأعلموه بأن شِيركوه في زيارة قبر الإمام الشافعي، فقال: نمضي إليه؛ فساروا جميعاً، فسايره صلاح الدّين وجُورديك وألقياه[1] إلى الأرض عن فرسه، فهرب أصحابه عنه، فأُخذ أسيراً، فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فتوكّلوا بحفظه، وسيّروا فأعلموا أسد الدين الحال، فحضر، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه. وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر، فأرسل إلى أسد الدّين يطلب منه إنفاذ رأس شاور، وتابع الرسُل بذلك، فقُتل وأُرسل رأسه إلى العاضد في السابع عشر من ربيع الآخر.

ودخل أسد الدين القاهرة، فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين، يعني العاضد، يأمركم بنهب دار شاور؛ فتفرّق النّاس عنه إليها فنهبوها، وقصد هو قصر العاضد، فخلع عليه خِلعة الوزارة، ولقب الملك المنصور أمير الجيوش، وسار بالخلع إلى دار الوزارة، وهي التي كان فيها شاور، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرّ في الأمر، وغلب عليه، ولم يبق له مانع ولا منازع، واستعمل على الأعمال من يثق به[2] من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره.

وأمّا الكامل بن شاور فإنه لما قُتل أبوه دخل القصر هو وإخوته معتصمين به، فكان آخر العهد بهم، فكان شِيركوه يتأسّف عليه كيف عُدم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه في منعه من قتل شِيركوه، وكان يقول: وددتُ أنّه بقي لأحسن إليه جزاء الصنيعة[3].

---

(١) في الأوربية: «وألقوه».

(٢) في الأوربية: «إليه».

(٣) انظر عن قتل شاور في: التاريخ الباهر ١٤٠، والنوادر السلطانية ٣٩ ـ ٤٠، والروضتين ج ١ ق ٢/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨، وتاريخ الزمان ١٨٢، وتاريخ مختصر الدول ٢١٢، وسنا البرق الشامي ١/ ٧٨، وأخبار الدول المنقطعة ٨١٦، ومفرّج الكروب ١/ ١٦٠ ـ ١٦٧، والمغرب في حلى المغرب ٩٦، وزبد الحلب ٢/ ٣٢٧، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٥ =

ذكر وفاة أسد الدين شيركوه

لمّا ثبت قدمُ أسد الدين، وظنّ أنه لم يبق له منازع، أتاه أجله ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾[1] فتُوفيّ يوم السبت الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة سنة أربعٍ وستّين وخمسمائة، وكانت ولايته شهرَيْن وخمسة أيام.

وأما ابتداء أمره وسبب اتّصاله بنور الدين، فإنّه كان هو وأخوه نجم الدين أيّوب ابنا شاذي من بلد دُوَين، وأصلهما من الأكراد الروادية، وهذا النَّسل هم أشرف الأكراد، فقدِما العراق، وخدما مجاهد الدين بَهرُوز شِحنة بغداد. فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وافراً وحُسن سيرة، وكان أكبر من شِيركوه، فجعله مستحفظاً لقلعة تكريت، وهي له، فسار إليها ومعه أخوه شِيركوه، فلمّا انهزم أتابك الشهيد زنكي بن آقسنقر بالعراق من قراجه الساقي على ما ذكرناه سنة ستّ وعشرين وخمسمائة، وصل منهزماً إلى تكريت، فخدمه نجم الدين، وأقام له السفن فعبر دجلة هناك، وتبعه أصحابه، فأحسن أيّوب صُحبتهم وسيّرهم.

ثمّ إنّ شِيركوه قتل إنساناً بتكريت لمُلاحاةٍ جرت بينهما، فأخرجهما بَهروز من القلعة، فسارا إلى الشهيد زنكي، فأحسن إليهما. وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً؛ فلمّا ملك قلعة بعلبك جعل أيّوب مستحفظاً بها؛ فلما[2] قُتل الشهيد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها، فضاق عليه الأمر، وكان سيف الدين غازي بن زنكي مشغولاً عنه بإصلاح البلاد. فاضطرّ إلى تسليمها إليهم، فسلّمها على إقطاعٍ ذكره، فأجيب إلى ذلك، وصار من أكبر الأمراء بدمشق.

واتّصل أخوه أسد الدين شِيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكي، وكان يخدمه في أيّام والده، فقرّبه وقدّمه، ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها. فزاده حتى صار له

= ـ ٤٦، ونهاية الأرب ٢٨/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣، والدر المطلوب ٣٥، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٤ هـ) ص ١٣، ومرآة الجنان ٣/ ٣٧٤، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٥٦ واتعاظ الحنفا ٣/ ٣٠١، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٣٩ و٣٥١ ـ ٣٥٢، وتاريخ الخلفاء ٤٤٤، وشفاء القلوب ٢٦ ـ ٣٥، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٢١، وتاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١/ ٢٩ ـ ٣٣، وبدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٣٢.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٢) في الأوربية: «قلما».

حمص والرَّحبة وغيرهما، وجعله مقدّم عسكره، فلما أراد نور الدين مُلك دمشق أمره فراسل أخاه أيّوب وهو بها، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يراد منه على إقطاع ذكره له ولأخيه، وقُرَى يتملّكانها، فأعطاهما ما طلبا، وفتح دمشق على ما ذكرناه. ووفى[1] لهما، وصارا أعظم أمراء دولته. فلما أراد أن يرسل العساكر إلى مصر، لم يرد لهذا الأمر العظيم والمقام الخطير غيره، فأرسله، ففعل ما ذكرناه[2].

ذكر مُلك صلاح الدين مصر

لما تُوفّي أسد الدين شِيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيّوب بن شاذي قد سار معه على كرهٍ منه للمسير.

حكى لي عنه بعض أصدقائنا ممّن كان قريباً إليه خصيصاً به قال: لما وردت كُتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج، ويطلب إرسال العساكر، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمّك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ليحضر، وتحثّه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير؛ ففعلتُ، وخرجنا من حلب، فما كنّا على ميل من حلب حتى لقيناه قادماً في هذا المعنى، فأمره نور الدين بالمسير، فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي إليّ فقال لي: تجهّز يا يوسف! فقلتُ: والله لو أُعطيتُ مُلك مصر ما سرتُ إليها، فلقد قاسيتُ بالإسكندريّة وغيرها ما لا أنساه أبداً. فقال لنور الدين: لا بُدّ من مسيره معي فتأمر به، فأمرني نور الدين، وأنا أستقيل، وانقضى المجلس.

وتجهز أسد الدين، ولم يبق غير المسير؛ قال لي نور الدين: لا بُد من مسيرك مع عمك؛ فشكوتُ إليه الضائقة وعدم البرك، فأعطاني ما تجهزتُ به فكأنما أُساق إلى الموت، فسرتُ معه وملكها، ثمّ تُوفيّ فملّكني الله تعالى ما لم أكن أطمع في بعضه.

وأما كيفية ولايته، فإن جماعة من الأمراء النُّورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على العساكر، وولاية الوزارة العاضدية بعده، منهم: عين الدولة الياروقيّ، وقُطْب الدين، وسيف الدين المشطوب الهكّاريّ، وشهاب الدين محمود الحارميّ، وهو خال صلاح الدين، وكلّ واحد من هؤلاء يخطبها[3]، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها،

---

(١) في الأوربية: «ووفا».

(٢) انظر عن وفاة شيركوه في: تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٤هـ) ص ١٤ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) في (أ): «يطلبها».

فأرسل العاضد إلى صلاح الدين فأحضره عنده، وخلع عليه، وولاه الوزارة بعد عمّه.

وكان الذي حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف، والرأي أن يولّى، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر مَن يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد، ثم نأخذ يوسف أو نخرجه.

فلما خلع عليه لقب الملك النّاصر لم يُطعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم، ولا خدموه. وكان الفقيه عيسى الهكّاري معه، فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة والحارميّ وغيرهما؛ ثمّ قصد الحارميّ وقال: هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزّه ومُلكه لك، وقد استقام له الأمر فلا تكن أوّل من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك، فمال إليه أيضاً، ثمّ فعل مثل هذا بالباقين، وكلّهم أطاع غير عين الدولة الياروقيّ فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف؛ وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء، وثبت قدم صلاح الدين، ومع هذا فهو نائب عن نور الدين.

وكان نور الدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار، ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح [الدين] وجميع الأمراء بالدّيار المصريّة يفعلون كذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل الأموال، فمالوا إليه وأحبّوه وضعُف أمر العاضد، ثمّ أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله، فأرسلهم إليه، وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته، وكلّهم فعل ذلك، وأخذ إقطاعات الأمراء المصريّين فأعطاها أهله والأمراء الذين معه، وزادهم، فازدادوا له حبّاً وطاعة[1].

قد اعتبرتُ التواريخ، فرأيتُ كثيراً من التواريخ الإسلاميّة التي يمكن ضبطها، ورأيتُ كثيراً ممّن يبتدىء الملك تنتقل الدّولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه، منهم أوّل الإسلام: معاوية بن أبي سفيان، أوّل من ملك من أهل بيته، فنقل المُلْك عن

---

(١) سنا البرق الشامي ٨٣ ـ ٨٤، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٥٠ ـ ٤٥٢، مفرّج الكروب ١/ ١٧٤ ـ ١٧٩، المختصر في أخبار البشر ٣/٤٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٤ هـ) ص ١٤ ـ ١٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٦ ـ ٧٧، البداية والنهاية ١٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨، الكواكب الدرية ١٨٤، النجوم الزاهرة ٥/ ٣٥٤.

أعقابه إلى بني مروان من بني عمّه؛ ثمّ من بعده السفّاح أوّل من ملك من بني العبّاس، انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه المنصور؛ ثم السامانيّة أوّل من استبدّ منهم نصر بن أحمد، فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وأعقابه؛ ثمّ يعقوب الصفار، وهو أوّل من ملك من أهل بيته، فانتقل الملك إلى أخيه عمرو وأعقابه، ثم عماد الدولة بن بُوَيْه أوّل من ملك من أهله انتقل الملك عنه إلى أخويه ركن الدولة وعزّ الدولة؛ ثمّ خلص في أعقاب ركن الدولة، (ومعزّ الدولة)[1]؛ ثمّ خلص في أعقاب ركن الدولة؛ ثم الدولة السلجُوقيّة أوّل من ملك منهم طُغرُلْبك انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود؛ ثمّ شِيركوه هذا كما ذكرناه (انتقل الملك إلى أعقاب أخيه أيّوب؛ ثمّ إنّ صلاح الدين لمّا أنشأ الدولة وعظّمها، وصار كأنّه أوّلٌ لها، نقل الملك إلى أعقاب أخيه العادل، ولم يبق بيد أعقابه غير حلب)[2].

وهذه أعظم الدول الإسلاميّة، ولولا خوف التطويل لذكرنا أكثر من هذا، والذي أظنّه السبب في ذلك أنّ الذي يكون أول دولة يكثر[3] ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلّقة به فلهذا يحرمه الله أعقابه ومن يفعل ذلك من أجلهم عقوبة له.

ذكر وقعة السودان بمصر

في هذه السنة في أوائل ذي القعدة قُتل مؤتمن الخلافة، وهو خصيّ كان بقصر العاضد، إليه الحكم فيه، والتقدّم على جميع من يحويه، فاتفق هو وجماعة من المصريّين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى البلاد، والتقوّي بهم على صلاح الدين ومن معه، وسيّروا الكتب مع إنسان يثقون به[4]، وأقاموا ينتظرون جوابه، وسار ذلك القاصد إلى البئر البيضاء، فلقيه إنسان تُركمانيّ، فرأى (معه)[5] نعلَين جديدين، فأخذهما منه وقال في نفسه: لو كانا ممّا يلبسه[6] هذا الرجل (لكانا[7] خَلَقين،

---

(١) من (أ).
(٢) ما بين القوسين من (أ). وانظر تاريخ ابن سباط ١/ ١٢٤.
(٣) في (ب): «يكثر القتل».
(٤) في الأوربية: «إليه».
(٥) من (أ).
(٦) في (ب): «يلبسهما».
(٧) في الأوربية: «لكان».

فإنّه[1]) رثّ الهيئة؛ وارتاب به وبهما، فأُتي بهما صلاح الدين ففتقهما[2]، فرأى الكتاب فيهما، فقرأه وسكت عليه.

وكان مقصود مؤتمن الخلافة أن يتحرّك الفرنج إلى الديار المصريّة، فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في العساكر إلى قتالهم، فيثور مؤتمن الخلافة بمّن معه من المصريّين على مخلفيهم فيقتلونهم، ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين، فيأتونه من وراء ظهره، والفرنج من بين يديه، فلا يبقى لهم باقية. فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقيل: رجل يهوديّ، فأُحضر، فأمر بضربه وتقريره، فابتدأ وأسلم، وأخبره الخبر، وأخفى صلاح الدين الحال.

واستشعر مؤتمن الخلافة فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً، وإذا خرج لم يبعد [وصلاح الدين] لا يُظهر له شيئاً من الطلب، لئلا ينكر ذلك، فلما طال الأمر خرج من القصر إلى قرية له تُعرف بالحرقانيّة للتنزّه، فلمّا علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعة، فأخذوه وقتلوه وأتوه برأسه، وعزل جميع الخدم الذين يتولّون أمر قصر الخلافة، واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش، وهو خصيّ أبيض، وكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير[3] إلا بأمره وحكمه، فغضب السودان الذين بمصر لقتل مؤتمن الخلافة حميّة، ولأنّه كان يتعصّب لهم، فحشدوا وجمعوا، فزادت عدّتهم على خمسين ألفاً، وقصدوا حرب الأجناد الصلاحيّة، فاجتمع العسكر أيضاً، وقاتلوهم بين القصرَيْن.

وكثر القتل في الفريقين، فأرسل صلاح الدين إلى محلتهم المعروفة بالمنصورة، فأحرقها على أموالهم وأولادهم وحُرَمهم، فلما أتاهم الخبر بذلك ولّوا منهزمين، فركبهم السيف، وأُخذت عليهم أفواه السكك، فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل، فأجيبوا إلى ذلك، فأُخرجوا من مصر إلى الجيزة، فعبر إليهم شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين الأكبر في طائفة من العسكر، فأبادهم بالسيف، ولم يبق منهم إلا القليل الشريد، وكفى الله تعالى شرّهم، والله أعلم[4].

---

(١) ما بين القوسين من (أ).

(٢) في (أ): «ففتشهما».

(٣) في الأوربية: «صغيراً ولا كبيراً».

(٤) سنا البرق الشامي ١/ ٨٣ ـ ٨٤، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٥١، مفرّج الكروب ١/ ١٧٦.

ذكر مُلك شُملة فارس وإخراجه[1] عنها

في هذه السنة ملك شُملة صاحب خوزستان بلاد فارس، وأُخرج عنها، وسبب ذلك أنّ زنكي بن دكلا صاحبها أساء السيرة مع عسكره فأرسلوا إلى شملة بخوزستان وحسّنوا له قصد فارس، فجمع عساكره وتجهّز وسار إليها، فخرج إليه زنكي بن دكلا، ووقعت بينهم حرب خامر فيها أصحاب زنكي عليه، فانهزم في شرذمة من عسكره، ونجا بنفسه، وقصد الأكراد الشوانكار والتجأ إليهم، فأجاره صاحبها، وأحسن ضيافته.

ونزل شُملة ببلاد فارس فملكها، فأساء السيرة إلى أهلها، ونهب ابن أخيه ابن سنكا البلاد فتغيّرت بواطن[2] أهلها عليه، واجتمع إلى زنكي بعض العسكر الذين خامروا عليه، لما رأوا من سوء سيرة شُملة فيهم، فكثُر جمعه مع الأكراد الشوانكار ونزل بهم إلى البلاد وكاتب عسكره ووعدهم الإحسان فأقبلوا إليه فقصد شُملة وواقعه فانهزم شُملة، واستعاد زنكي بلاده ورجع إلى ملكه، وعاد شُملة إلى بلاده خوزستان[3].

ذكر مُلك إيلدكز الرَّيّ

في هذه السنة ملك إيلدكز مدينة الرَّيّ والبلاد التي كانت بيد إينانج.

وسبب ذلك أن إيلدكز كان قد استقرّ الأمر بينه وبين إينانج على مال يؤدّيه إلى إيلدكز، فمنعه سنتين، فأرسل إيلدكز يطلب المال فاعتذر بكثرة غلمانه وحاشيته، فتجهّز إيلدكز وقصد الرّيّ، فالتقاه إينانج وحاربه حرباً عظيمة، فانهزم إينانج ومضى منهزماً، فتحصّن بقلعة طبرك، فحصره إيلدكز فيها وراسل سراً جماعة من مماليكه، فأطمعهم في الإقطاعات والأموال والإحسان العظيم ليقتلوا إينانج، فقتلوه، وكانوا جماعة كثيرة، وسلّموا البلد إلى إيلدكز، فرتّب فيه عمر بن عليّ ياغ، وعاد إلى هَمَذان، ولم يفِ للغلمان الذين قتلوا إينانج وسلّموا البلد إليه بما وعدهم، وقال: مثل هؤلاء ينبغي أن لا يُستخدم؛ وأبعدهم عنه فتفرّقوا في البلاد، فسار بعضهم، وهو الذي

---

(١) في الأوربية: «وأخرجه».

(٢) في الأوربية: «بواطي».

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٤ هـ) ص ١٩.

تولّى قتله، إلى خُوارزم شاه، فصلبه خُوارزم شاه نكالاً بما فعل بصاحبه[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة رُؤي في دار الخليفة المستنجد بالله رجل غريب في الطريق الذي يركب فيه وفي زنده سكّين صغيرة، وفي يده سكّين أخرى كبيرة، فأخذوه وقرّروه، فقال: أنا من حلب. فحُبس وعوقب البوّاب، ولم يعلم من أين دخل[2].

وفيها قبض ابن البلديّ وزير الخليفة على الحسين بن محمّد المعروف بابن السيبيّ، وعلى أخيه الأصغر، وكانا ابنَيْ عمّة عضُد الدين أستاذ الدار، وكان الأصغر عامل البيمارستان، فقُطعت يده ورجله. قيل كان عنده صُنجٌ زائدة يُقبض بها وتُحمل إلى الديوان بالصُّنج الصحيحة؛ وقيل غير ذلك. وحُمل إلى البيمارستان فمات به. وكان شاعراً، فمن شعره وهو محبوس هذه الأبيات:

سَلامٌ على أهلي وصحبي وجُلاّسي ... ومَن في فؤادي ذكرُهم راسبٌ راسِي

أُعـالِجُ فيكُـم كـلّ هَـمّ ولا أرَى ... لـداء هُمـومـي غَيـرَ رُؤيتِكـم آسِـي

لقَـد أبـدَتِ الأيّـامُ لـي كـلّ شِـدّةٍ ... تَشيبُ لها الأكبادُ فَضْلاً عن الرّاسِ

فيا ابنَةَ عبدِ اللَّهِ صَبراً على الّذي ... لَقيتُ فهذَا الحكمُ من مالِكِ النّاسِ

فلَوْ أبصرَتْ عيناكِ ذلّي بكَيتِ لي ... بـدَمْـعِ سَـوِيّ بـالمَـدامِـعِ رَجّـاسِ

أقُـولُ لقَلبـي والهُمُـومُ تَنُـوشُـهُ ... وقد حَدّثتهُ النّفسُ بالضّرّ والياسِ

فلَوْ هَمّ طَيفٌ من خَيالي يَزُورُكم ... لمَـانَعَـهُ دُونَ المَغـالِـقِ حُـرّاسِـي

ومَا حَذَري إلاّ على النّفسِ لا على ... سِـواهـا لأنّـي حِلـفُ فَقـرٍ وإفـلاسِ

[الوفيات]

وفيها تُوفي المعمّر بن عبد الواحد بن رجاء أبو أحمد الأصفهانيّ الحافظ، يروي عن أصحاب أبي نُعَيم، وكان موته بالبادية ذاهباً إلى الحجّ في ذي القعدة.

وفي رجب منها تُوفيّ الشيخ أبو محمد الفارقيّ المتكلّم على الناس، وكان أحد

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/٤٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٤ هـ) ص ١٨ ـ ١٩، تاريخ ابن الوردي ٢/٧٧، تاريخ ابن سباط ١/١٢٥.

(٢) المنتظم ١٠/٢٢٦ (١٨/ ١٨٢).

الزُّهاد، له كرامات كثيرة، وكان يتكلّم على الخاطر، وكلامه مجموع مشهور.

وفيها ماتَ جُعَيْفر الرقّاص من نُدماء دار الخلافة.

وفي شوّال منها تُوفيّ القاضي أبو الحسن عليُّ بن يحيى القُرشيّ الدمشقيّ.

وفي ذي الحجّة تُوفي نجم الدين بن محمّد بن عليّ بن القاسم الشّهْرزوريّ قاضي الموصل، وولي ابنه حُجّة الدين عبد القاهر القضاء.

٥٦٥
ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

ذكر حصر الفرنج دمياط

في هذه السنة، في صفر، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصريّة وحصروها، وكان الفرنج بالشام، لما ملك أسد الدين شِيركوه مصر، قد خافوه، وأيقنوا بالهلاك، وكاتبوا الفرنج الذين بصقليّة والأندلس وغيرهما[1] يستمدّونهم ويعرّفونهم ما تجدّد من مُلك الأتراك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدس منهم، فأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرّضونهم على الحركة، فأمدّوهم بالأموال والرجال والسلاح، واتّعدوا للنزول على دمياط ظنّاً منهم أنّهم يملكونها، ويتخّذونها ظهراً يملكون به الديار المصرية ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾[2] فإلى أن دخلوا كان أسد الدين قد مات وملك صلاح الدين، فاجتمعوا عليها وحصروها، وضيّقوا على من بها.

فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من المخافة، ويقول: إني إن تأخّرتُ عن[3] دِمياط ملكها الفرنج، وإن سرتُ إليها خلفني المصريّون في أهلها وأموالها بالشرّ، وخرجوا عن طاعتي، وساروا في أثري، والفرنج من أمامي، فلا يبقى لنا باقية.

فسيّر نور الدين العساكر إليه أرسالاً يتلو بعضها بعضاً، ثمّ سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشاميّة، فنهبها، وأغار عليها واستباحها، فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبلُ لخُلُوّ البلاد من مانع.

---

(١) في الأوربية: «وغيرها».
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.
(٣) في الأوربية: «من».

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء، ووجدوا بلادهم خراباً، وأهلها بين قتيل وأسير، فكانوا موضع المثل: خرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أُذُنين.

وكانت مدّةُ مقامهم على دِمياط خمسين يوماً أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تُحصى. حكي لي أنّه قال: ما رأيتُ أكرم من العاضد، أرسل إليّ مدةً لمقام الفرنج على دِمياط ألف ألف دينار مصريّة سوى الثياب وغيرها[1].

ذكر حصر نور الدين الكرَك

في هذه السنة، في جُمادى الآخرة، سار نور الدين إلى بلد الفرنج، فحصر الكَرَك، وهو من أمنع المعاقل على طرف البرّ.

وكان سبب ذلك أنّ صلاح الدين أرسل إلى نور الدين يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيّوب، فجهّزه نور الدين، وسيّره، وسيّر معه عسكراً، واجتمع معه من التجّار خلق كثير، وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنسٌ وصحبةٌ، فخاف نور الدين عليهم من الفرنج، فسار في عساكره إلى الكَرَك، فحصره وضيّق عليه ونصب عليه المجانيق، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا له. وساروا إليه، وقد جعلوا في مقدّمتهم إليه ابن هَنْفَري وقريب بن الرقيق. وهما فارسا الفرنج في وقتهما. فرحل نور الدين نحو هذَيْن المقدّمَين ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق بهما باقي الفرنج، فلمّا قاربهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقي الفرنج.

وسلك نور الدين وسط بلادهم ينهب ويحرق ما على طريقه من القرى إلى أن وصل إلى بلاد الإسلام، فنزل على عشترا، وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم. فلم

---

(١) انظر خبر دمياط في: سنا البرق الشامي ١/٨٦، والنوادر السلطانية ٤١ ـ ٤٣، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/٢٧٩، والروضتين ج ١ ق ٢/٤٥٦ ـ ٤٦٢، ومفرّج الكروب ١/١٧٩ ـ ١٨٤، وتاريخ الزمان ١٨١، والمختصر في أخبار البشر ٣/٤٨ ـ ٤٩، والدر المطلوب ٤١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٥ هـ) ص ٢١، والعبر ٤/٨٩، ودول الإسلام ٢/٧٨، وتاريخ ابن الوردي ٢/٧٧، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٦٠، ومرآة الجنان ٣/٣٧٨، والكواكب الدرية ١٨٥ ـ ١٨٧، واتعاظ الحنفا ٣/٣١٥ ـ ٣١٦، والنجوم الزاهرة ٥/٧، وتاريخ ابن سباط ١/١٢٦، وتاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١/ ٨٢ ـ ٨٧، وبدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٣١، والإعلام والتبيين ٢٩.

يبرحوا من مكانهم، فأقام هو حتى أتاه خبر الزلزلة الحادثة فرحل.

وأمّا نجم الدين أيّوب فإنه وصل إلى مصر سالماً هو ومن معه وخرج العاضد الخليفة فالتقاه[1] إكراماً له[2].

ذكر غزوة لسرية نوريّة

كان شهاب الدين إلياس بن إيلغازي[3] بن أرتق، صاحب قلعة البِيرة، قد سار في عسكره، وهو في مائتي فارس، إلى نور الدين وهو بعشترا، فلما وصل إلى قرية اللّبوة، وهي من عمل بَعْلَبَك، ركب متصيّداً، فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام سابع عشر شوّال، فوقع بعضهم على بعض، واقتتلوا واشتدّ القتال، وصبر الفريقان لا سيّما المسلمون، فإنّ ألف فارس لا يصبرون لحملة ثلاثمائة فارس إفرنجيّة، وكثر القتلى بين الطائفتين، فانهزم الفرنج، وعمّهم القتل والأسر، فلم يفلت منهم إلا من لا يُعتدّ به.

وسار شهاب الدين برؤوس القتلى وبالأسرى إلى نور الدين، فركب نور الدين والعسكر، فلقوهم، فرأى نور الدين في الرؤوس رأس مقدّم الإسبتار[4]، صاحب حصن الأكراد، وكان من الشجاعة بمحلٍّ كبير، وكان شجاً في حلوق المسلمين[5].

ذكر الزلزلة وما فعلته بالشام

في هذه السنة أيضاً، ثاني عشر شوّال، كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم يرَ النّاس مثلها، وعمّت أكثر البلاد من الشام، والجزيرة، والموصل، والعراق، وغيرها

---

(١) في (أ): «التلقاه».

(٢) انظر خبر الكرك في: سنا البرق الشامي ١/٨٩ ـ ٩٠، والنوادر السلطانية ٤٥، والتاريخ الباهر ١٤٤، وزبدة الحلب ٢/٣٢٩، والروضتين ج ١ ق ٢/٤٦٤ ـ ٤٦٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/٤٩، والعبر ٤/١٩٠، ودول الإسلام ٢/٧٨، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٥ هـ) ص ٢٣، والبداية والنهاية ١٢/٢٦٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/٧٨، وتاريخ ابن خلدون ٥/٢٤٩، والكواكب الدرية ١٨٨، وتاريخ ابن سباط ١/١٢٧، وتاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١/٩٣، والإعلام والتبيين ٣٠.

(٣) في (ب): «إلياس بن محمد».

(٤) في (أ): «الاسبيتار».

(٥) زاد في (ب): «فسُر المسلمون بقتله». والخبر في التاريخ الباهر ١٤٥ ـ ١٤٦، الروضتين ج ١ ق ٢/٤٧١ ـ ٤٧٢.

من البلاد، وأشدّها كان بالشام، فخرّبت كثيراً من دمشق، وبعلبك، وحمص، وحماة، وشَيْزَر، وبَعْرين، وحلب، وغيرها، وتهدّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدُّور على أهلها، وهلك منهم ما يخرج عن الحدّ.

فلما أتاه الخبر سار إلى بَعْلَبَك ليعمّر ما انهدم من سورها وقلعتها، فلمّا وصلها أتاه خبر باقي البلاد، وخراب أسوارها وقلاعها، وخُلُوّها من أهلها، فجعل ببعلبكّ من يعمّرها ويحميها ويحفظها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثمّ إلى حماة، (ثمّ إلى بعرين)[1]، وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج، ثمّ أتَى مدينة حلب، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنّها كانت قد أتت عليها وبلغ الرعب ممّن نجا كلّ مبلغ، وكانوا لا يقدرون [أن] يأووا [إلى] مساكنهم خوفاً من الزلزلة، فأقام بظاهرها، وباشر عمارتها بنفسه، فلم يزل كذلك حتى أحكم أسوار البلاد وجوامعها.

وأما بلاد الفرنج فإنّ الزلازل أيضاً عملت بها كذلك فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفاً من نور الدين عليها، فاشتغل كلّ منهم بعمارة بلاده خوفاً من الآخر[2].

ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكي ومُلك ابنه سيف الدين غازي

في هذه السنة، في ذي الحجّة[3]، مات قُطْب الدين مودود بن زنكي[4]، بن آقسنقر، صاحب الموصل، بالموصل، وكان مرضه حُمَّى حادّة، ولمّا اشتدّ مرضه

---

(١) في (أ) وفي (ب): «بارين».

(٢) انظر عن الزلزلة في: النوادر السلطانية ٤٣، وسنا البرق الشامي ١/ ٩١ ـ ٩٣، والتاريخ الباهر ١٤٥، وزبدة الحلب ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١، وتاريخ الزمان ١٨٣، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٤٩، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٥ هـ) ص ١٢، ودول الإسلام ٢/ ٧٨، والعبر ٤/ ١٨٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٨، ومرآة الجنان ٣/ ٣٧٨، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٦١، والكواكب الدرية ١٨٩، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٤٩، واتعاظ الحنفا ٣/ ٣١٨، وكشف الصلصلة ١٩٢ ـ ١٩٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٢٧، وتاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١/ ٩٤ ـ ٩٨، وتاريخ الحروب الصليبية لستيفن رنسيمان ٢/ ٦٣٨، وتاريخ طرابلس (تأليفنا) ١/ ٥١٦.

(٣) في (أ): «في شوال».

(٤) انظر عن (قطب الدين مودود) في: التاريخ الباهر ١٤٦ ـ ١٥٠، والروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٧٢، والعبر ٤/ ١٩١.

أوصى بالمُلْك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي، ثمّ عدل عنه إلى ابنه الآخر سيف الدين غازي، وإنما صرف الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكي بن مودود لأن القيّم بأمور دولته، والمقدّم فيها، كان خادماً له يقال له فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين لأنّه كان طوع عمّه نور الدين، لكثرة مُقامه عنده، ولأنه زوج ابنته، وكان نور الدين يبغض عبد المسيح، فاتفق فخر الدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي، وهي والدة سيف الدين، على صرف المُلك عن عماد الدين إلى سيف الدين، فرحل عماد الدين إلى عمّه نور الدين مستنصراً به ليُعينه على أخذ المُلك لنفسه.

وتُوفي قُطْب الدين وعُمره نحو أربعين سنة، وكان مُلكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً، وكان فخر الدين[1] هو المدبّر للأمور والحاكم في الدّولة، وكان قُطْب الدّين من أحسن الملوك سيرةً وأعفّهم عن أموال رعيّته، محسناً إليهم، كثير الإنعام عليهم، محبوباً إلى كبيرهم وصغيرهم، عطوفاً على شريفهم ووضيعهم، كريم الأخلاق، حسن الصُّحبة لهم، فكأن القائل أراده بقوله:

خُلقٌ كماء المُزْنِ طِيبَ مَذَاقَةٍ ... والرّوضَةِ الغَنّاءِ طِيبَ نَسيمِ
كالسّيفِ لكِنْ فيهِ حِلمٌ وَاسعٌ ... عمّن جنى[2] والسّيفُ غيُر حَليمِ
كالغَيْثِ إلا أنّ وَابِلَ جُودِهِ ... أبداً وَجُودُ الغَيثِ غيرُ مُقيمِ
كالدّهْرِ إلاّ أنّهُ ذو رَحْمَةٍ ... والدّهرُ قاسي القلبِ غيرُ رَحِيمِ[3]

وكان سريع الانفعال للخير، بطيئاً عن الشرّ، جمّ المناقب، قليل المعايب، رحمه الله ورضي عنه وعن جميع المسلمين بمنّه وكرمه، إنّه جوادٌ كريم.

ذكر حالة ينبغي للملوك أن يحترزوا من مثلها

حدّثني والدي، رحمه الله، قال: كنتُ أتولّى جزيرة ابن عمر لقُطْب الدين، كما علمتم، فلمّا كان قبل موته بيسير أتانا كتاب من الدّيوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة[4]، وهذه العقيمة هي قرية تحاذي الجزيرة بينهما دجلة، ولها

---

(١) في (أ): «وكان فخر المؤمن».
(٢) في الأوربية: «جنا».
(٣) الأبيات في التاريخ الباهر ١٤٨.
(٤) في (أ): «العقبة».

بساتين كثيرة بعضُها يُمسح فيؤخذ منه على كلّ جريب شيء معلوم، وبعضها عليه خراج، وبعضها مطلق من الجميع.

قال: وكان لي فيها ملك كثير، فكنتُ أقول: إنّ المصلحة أن لا يغيَّر على النّاس شيء؛ وما أقول هذا لأجل ملكي، فإنّني أنا أمسح ملكي، وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس للدولة. فجاءني كتاب النائب يقول: لا بُدّ من المساحة قال: فأظهرت الأمر، وكان بها قوم صالحون، لي بهم أنس، وبيننا مودّة، فجاءني الناس كلّهم، وأولئك معهم، يطلبون المراجعة، فأعلمتهم أنني رجعت وما أُجبتُ إلى ذلك، فجاءني منهم رجلان أعرف صلاحهما، وطلبا مني المعاودة ومخاطبة ثانية، ففعلت، فأصرّوا على المسح، فعرّفتهما الحال.

قال: فما مضى إلاّ عدّة أيام، وإذ قد جاءني الرجلان، فلمّا رأيتهما ظننتُ أنهما جاءا يطلبان المعاودة، فعجبتُ منهما، وأخذتُ أعتذر إليهما، فقالا: ما جئنا إليك في هذا، وإنما جئنا نعرّفك أن حاجتنا قُضيتْ. قال: فظننتُ أنهما قد أرسلا إلى الموصل إلى من يشفع لهما. فقلتُ: من الذي خاطب في هذا بالموصل؟ فقالا: إنّ حاجتنا قد قُضيت من السماء، ولكافّة أهل العقيمة[1].

قال: فظننتُ أن هذا ممّا قد حدّثا به نفوسهما، ثم قاما عنّي، فلم يمضِ غير عشرة أيام وإذ قد جاءنا كتاب من الموصل يأمرون بإطلاق المساحة والمحبَّسين والمكوس، ويأمرون بالصدقة، ويقال: إنّ السلطان، يعني قُطب الدين، مريض يعني على حالةٍ شديدة، ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته، فعجبتُ من قولهما، واعتقدتُه كرامةً لهما، فصار والدي بعد ذلك يُكثر إكرامهما واحترامهما ويزورهما[2].

ذكر الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مَرْدَنيش

كان محمد بن سعد[3] بن مردنيش، ملك شرق الأندلس، قد اتّفق هو والفرنج، وامتنع على عبد المؤمن وابنه بعده، فاستفحل أمره، لا سيّما بعد وفاة عبد المؤمن،

---

(١) في (أ): «العقبة».

(٢) في التاريخ الباهر ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٣) في طبعة صادر ٣٥٨/٧ «سعيد»، والمثبت من (ب) ومصادر ترجمته، ومما سيأتي في الجزء التالي من الكتاب.

فلمّا كان هذه السنة جهّز إليه يوسف بن عبد المؤمن العساكر الكثيرة مع أخيه عمر بن عبد المؤمن، فجاسوا بلاده وخرّبوها، وأخذوا مدينتين من بلاده، وأخافوا عساكره وجنوده، وأقاموا ببلاده مدّة يتنقلون فيها ويَجْبُون أموالها[١].

ذكر وفاة صاحب كَرمان والخُلف بين أولاده

في هذه السنة تُوفي الملك طُغُرل بن قَاوَرْت صاحب كَرمان، واختلف أولاده بهرام شاه وأرسلان شاه، وهو الأكبر، وجرى بينهما قتال انهزم فيه بهرام شاه ومعه أخٌ له اسمه تركان شاه، فملك البلاد أرسلان شاه ومضى بهرام شاه إلى خُراسان، فدخل على المؤيّد صاحب نيسابور واستنجده، فأنجده بعساكر سار بها إلى كرمان، فجرى بين الأخوين حربٌ ظفر فيها بهرام شاه، [وهرب أرسلان شاه، فقصد أصفهان مستجيراً بإيلدكز، فأنفذ معه عسكراً، واستنقذوا البلاد من بهرام شاه وسلموها إلى أخيه أرسلان شاه فعاد][٢] بهرام شاه إلى نيسابور مستجيراً بالمؤيّد صاحبها، فأقام عنده، فاتّفق أنّ أخاه أرسلان شاه مات، فسار إلى كرمان فملكها، وأقام بها بغير منازع.

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كثرت الأذيّة من عبد الملك بن محمد بن عطاء، وتطرّق بلاد حلوان، ونهب وأفسد، وتطرّق الحجاج، فأُنفذ إليه من بغداد عسكر فنازلوه في قلاعه وضايقوه، ونهبوا أمواله وأموال أهله، حتى أذعن بالطاعة، ولا يعاود أذى الحجّاج ولا غيرهم، فعاد العسكر عنه.

[الوفيات]

وفيها تُوفي مجد الدين أبو بكر بن الداية، وهو رضيع نور الدين، وكان أعظم الأمراء منزلةً عنده، وله في أقطاعه حلب وحارم وقلعة جَعْبَر، فلمّا تُوفيّ ردّ نور الدين ما كان له إلى أخيه شمس الدين عليّ بن الداية.

وفيها، في شعبان، تُوفيّ أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيليّ ببغداد، وهو من مشهوري المحدّثين. الجيليّ: بالجيم والياء تحتها نقطتان.

---

(١) المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة ٣٠٤.
(٢) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

٥٦٦
ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

ذكر وفاة المستنجد بالله

في هذه السنة، تاسع ربيع الآخر، تُوفي المستنجد بالله[١] أبو المظفّر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وقد تقدم باقي النسب في غير موضع، وأمّه أمّ ولد، اسمها طاووس، وقيل نَرجس، روميّة، ومولده مستهلّ ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وشهراً وستّة أيام، وكان أسمر، تام القامة، طويل اللحية.

وكان سبب موته أنّه مرض واشتدّ مرضه، وكان قد خافه أستاذ الدار عضُد الدين أبو الفَرَج بن رئيس الرؤساء، وقُطْب الدين قايماز المقتَفَوي، وهو حينئذٍ أكبر أمير ببغداد، فلما اشتد مرض الخليفة اتّفقا، ووضعا الطبيب على أن يصف له ما يؤذيه، فوصف له دخول الحمّام، فامتنع لضعفه، ثمّ إنّه دخل وأغلق عليه بابه فمات.

وهكذا سمعتُه من غير واحد ممّن يعلم الحال، وقيل إنّ الخليفة كتب إلى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدّار وقُطْب الدين وصلبهما، فاجتمع ابن صفيّة بأستاذ الدار، وأعطاه خطّ الخليفة، فقال له: تعود وتقول إنّني أوصلتُ الخطّ إلى الوزير؛ ففعل ذلك، وأحضر أستاذ الدار قطب الدين ويزدن وأخاه تنامش، وعرض الخط عليهم، فاتّفقوا على قتل الخليفة، فدخل إليه يزدن وقايماز الحميدي، فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه، وأغلقا الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات، رحمه الله.

وكان وزيره حينئذٍ أبا جعفر بن البلديّ، وبينه وبين أستاذ الدار عضُد الدين

---

(١) انظر عن (المستنجد بالله) في تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٦ هـ) ص ٢٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

عداوة مستحكمة، لأن المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلّق بهما فيفعلها[1]، فكانا يظنّان أنه هو الذي يسعى بهما، فلما مرض المستنجد، وأرجف بموته، ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهم بالعُدة، فلم يتحقق عنده خبر موته، فأرسل إليه عضُد الدين يقول: إن أمير المؤمنين قد خفّ ما به من المرض، وأقبلت العافية، فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجُند، فربما أُنكر عليه ذلك. فعاد إلى داره وتفرّق الناس عنه. وكان عضد الدين وقُطْب الدين قد استعدّا للهرب لمّا ركب الوزير خوفاً منه إن دخل الدار أن يأخذهما، فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار، وأظهروا وفاة المستنجد، وأحضر هو وقُطب الدين ابنه أبا محمد الحسن، وبايعاه بالخلافة، ولقبّاه المستضيء بأمر الله، وشرطا عليه شروطاً[2] أن يكون عضُد الدين وزيراً، وابنه كمال الدين أستاذ الدار، وقُطب الدّين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك.

ولم يتولّ الخلافة من اسمه الحسن إلا الحسن بن علي بن أبي طالب والمستضيء بأمر الله، واتفقا في الكُنْية والكَرَم، فبايعه أهل بيته الخاصّة يوم تُوفّي أبوه، وبايعه الناس من الغد في التاج بيعةً عامة، وأظهر من العدل أضعاف ما عمل أبوه، وفرّق أموالاً جليلة المقدار.

وعلم الوزير ابن البلديّ فسُقط في يده وقرع سنّه ندماً على ما فرط في عوده حيث لا ينفعه، وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضيء، فمضى إلى دار الخلافة، فلمّا دخلها صرف إلى موضع وقُتل وقُطّع قِطَعاً، وأُلقي في دجلة، رحمه الله، وأُخذ جميع ما في داره، فرأيا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض عليهما، وخطّ الوزير قد راجعه في ذلك. وصرفه عنه، فلمّا وقفا عليهما عرفا براءته مما كانا يظنّان فيه، فندما حيث فرّطا في قتله.

وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعيّة، عادلاً فيهم، كثير الرفق بهم، وأطلق كثيراً من المكوس، ولم يترك بالعراق منها شيئاً، وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

بلغني أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس، فأطال حبسه، فشفع فيه بعض

---

(١) في الأوربية: «فيفعلهما».

(٢) في (ب): «شروطاً منها».

أصحابه المختصّين بخدمته، وبذل عنه عشرة آلاف دينار، فقال: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله لأكفّ شره عن الناس؛ ولم يُطْلِقه. وردّ كثيراً من الأموال على أصحابها، وقبض على القاضي ابن المرخّم، وأخذ منه مالاً كثيراً، فأعاده على أصحابه أيضاً، وكان ابن المرخّم ظالماً جائراً في أحكامه[1].

ذكر مُلك نور الدين الموصل وإقرار سيف الدين عليها

لما بلغ نور الدين محموداً[2] وفاة أخيه قُطْب الدين مودود، صاحب الموصل، ومُلك ولده سيف الدّين غازي الموصل والبلاد التي كانت لأبيه، بعد وفاته، وقيام فخر الدين عبد المسيح بالأمر معه، وتحكّمه عليه، أنِف لذلك وكبُر لديه وعَظُم عليه، وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشونة سياسته، فقال: أنا أولى بتدبير أولاد أخي وملكهم؛ وسار عند انقضاء العزاء جريدةً في قلّة من العسكر، وعبر الفرات[3]، عند قلعة جَعْبَر، مستهلّ المحرّم من هذه السنة، وقصد الرَّقة فحصرها وأخذها.

ثم سار إلى الخابور فملكه جميعه، وملك نصيبين وأقام بها يجمع العساكر، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود، صاحب حصن كيفا، وكثُر جَمْعه، وكان قد ترك أكثر عساكره بالشام لحفظ ثغوره، فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها، ونصب عليها المجانيق وملكها، وسلّمها إلى عماد الدين ابن أخيه قُطْب الدين.

وكان قد جاءته كُتب الأمراء الذين بالموصل سرّاً، يبذلون له الطاعة ويحثّونه على الوصول إليهم، فسار إلى الموصل فأتى مدينة بلد، وعبر دجلة عندها مخاضة إلى الجانب الشرقيّ، وسار فنزل شرق الموصل على حصن نِينَوى، ودجلة بينه وبين الموصل. ومن العجب أنّ يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة.

وكان سيف الدين غازي وفخر الدين قد سيّرا عز الدين مسعود بن قُطب الدين إلى أتابك شمس الدين إيلدكز، صاحب همذان وبلد الجبل، وأذَرْبِيجان، وأصفهان، والريّ وتلك الأعمال يستنجده على عمّه نور الدين، فأرسل إيلدكز رسولاً إلى نور

---

(١) التاريخ الباهر ١٥٠ ـ ١٥٢.
(٢) في الأوربية: «محمود».
(٣) في الأوربية: «الفراة».

الدين ينهاه عن التعرّض إلى الموصل، ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان، فلا تقصدها؛ فلم يلتفت إليه، وقال للرسول: قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخي منك، فلم تُدخل نفسك بيننا؟ وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان، فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة، وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها، وقد بُليت أنا، ولي مثل ربع بلادك، بالفرنج، وهم أشجع العالم، فأخذت معظم بلادهم، وأسرت ملوكهم، ولا يحلّ لي السكوت عنك، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وإزالة الظلم عن المسلمين.

فأقام نور الدين على الموصل، فعزم من بها من الأمراء على مجاهرة[1] فخر الدين عبد المسيح بالعصيان، وتسليم البلد إلى نور الدين، فعلم ذلك، فأرسل إلى نور الدين في تسليم البلد إليه على أن يقرّه بيد سيف الدّين، ويطلب لنفسه الأمان ولماله، فأجابه إلى ذلك، وشرط أن فخر الدين يأخذه معه إلى الشام، ويعطيه عنده إقطاعاً يرضيه، فتسلّم البلد ثالث عشر جُمادى الأولى من هذه السنة، ودخل القلعة من باب السر لأنه لما بلغه عصيان عبد المسيح عليه حلف أن لا يدخلها إلا من أحصن موضع فيها، ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من أبواب المظالم، وكذلك فعل بنصيبين وسِنجار والخابور، وهكذا كان جميع بلاده من الشام ومصْرَ.

ووصله، وهو على الموصل يحاصرها، خِلعة من الخليفة المستضيء بأمر الله، فلبسها، ولما ملك الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه، وأمره وهو بالموصل بعمارة الجامع النوري، وركب هو بنفسه إلى موضعه فرآه، وصعد منارة مسجد أبي حاضر فأشرف منها على موضع الجامع، فأمر أن يضاف إلى الأرض التي شاهدها ما يجاورها من الدُّور والحوانيت، وأن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه. وولّى الشيخ عمر الملاّ عمارته، وكان من الصالحين الأخيار، فاشترى الأملاك من أصحابها بأوفر الأثمان، وعمره، فخرج عليه أموال كثيرة، وفرغ من عمارته سنة ثمانٍ وستين وخمسمائة.

وعاد إلى الشام، واستناب في قلعة الموصل خصيّاً كان له اسمه كُمُشْتِكين، وَلَقَبُه سعد الدّين، وأمر سيف الدين أن لا ينفرد عنه بقليل من الأمور ولا بكثير،

---

(١) في (أ): «مخامرة».

وحكمه [في البلاد] وأقطع مدينة سِنجار لعماد الدين ابن أخيه قُطب الدين، فلمّا فعل ذلك قال كمال الدين بن الشهرزوري: هذا طريق إلى أذًى يحصل لبيت أتابك لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين، [وسيف الدين][1] هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين فيحصل الخُلْف، ويطمع الأعداء، فكان كذلك على ما نذكره سنة سبعين وخمسمائة، وكان مُقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوماً، واستصحب معه فخر الدين عبد المسيح، وغيّر اسمه فسمّاه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كبيراً[2].

ذكر غزوة صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح أيْلَة

وفي هذه السنة سار صلاح الدين أيضاً عن مصر إلى بلاد الفرنج، فأغار على أعمال عَسقلان والرّملة، وهجم على ربَض غَزّة فنهبه، وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين لردّه عن البلاد، فقاتلهم وهزمهم، وأفلت ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيراً، وعاد إلى مصر، وعمل مراكب مفصّلة، وحملها قطعاً على الجمال في البرّ، وقصد أيْلة، فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر، وحصر أيْلَة برّاً وبحراً وفتحها في العَشْر الأوّل من ربيع الآخر، واستباح أهلها وما فيها وعاد إلى مصر[3].

ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة

كان بمصر دار للشحنة تُسمّى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه، فهدمها صلاح الدين، وبناها مدرسة للشافعيّة، وأزال ما كان فيها[4] من الظلم، وبنى دار

---

(١) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٢) سنا البرق الشامي ٩٦ ـ ٩٧، النوادر السلطانية ٤٤، التاريخ الباهر ١٥٢ ـ ١٥٤، تاريخ مختصر الدول ٢١٤، تاريخ الزمان ١٨٤ ـ ١٨٥، الأعلاق الخطيرة ج ٢ ق ٥٧/١، الروضتين ج ١ ق ٤٧٧/٢ ـ ٤٨٠، زبدة الحلب ٢٣٢/٣، نهاية الأرب ١٦٣/٢٧، المختصر في أخبار البشر ٥٠/٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٦ هـ) ص ٢٤ ـ ٢٥، العبر ١٩٢/٤، تاريخ ابن الوردي ٧٨/٢، البداية والنهاية ٢٦٣/١٢، الكواكب الدرية ١٩٠ ـ ١٩١، تاريخ ابن سباط ١٢٩/١.

(٣) سنا البرق الشامي ١٠٨/١ ـ ١٠٩، مفرّج الكروب ١٩٨/١ ـ ١٩٩، الروضتين ج ١ ق ٤٨٦/٢ ـ ٤٩٠، و٤٩١، المختصر في أخبار البشر ٥٠/٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٦ هـ) ص ٢٧، تاريخ ابن الوردي ٧٨/٢، البداية والنهاية ٢٦٣/١٢، الدر المطلوب ٤٧، الكواكب الدرية ١٩٤ ـ ١٩٥، إتعاظ الحنفا ٣٢٠/٣، النجوم الزاهرة ٣٨٥/٥ ـ ٣٨٦، شفاء القلوب ١٧٤، تاريخ ابن سباط ١٣٠/١، تاريخ ابن الفرات، مجلد ٤ ج ١٢٦/١ ـ ١٢٧.

(٤) في الأوربية: «فيه».

العدل مدرسة للشافعيّة أيضاً، وعزل قُضاة المصريّين، وكانوا شيعة، وأقام قاضياً شافعياً في مصر، فاستناب القضاة الشافعيّة في جميع البلاد في العشرين من جُمادى الآخرة[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة اشترى تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين منازل العزّ[2] بمصر، وبناها مدرسة للشافعيّة[3].

وفيها أغار شمس الدولة تُورانشاه أخو صلاح الدين أيضاً على الأعراب الذين بالصعيد، وكانوا قد أفسدوا في البلاد، ومدّوا أيديهم، فكفّوا عمّا كانوا يفعلونه[4].

وفيها مات القاضي ابن الخلّال من أعيان الكتّاب المصريّين وفُضلائهم، وكان صاحب ديوان الإنشاء بها[5].

وفيها وقع حريق ببغداد في درب المطبخ، وفي خرابة[6] ابن جُرْدة[7].

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٠٧، مفرّج الكروب ١/٩٨، الروضتين ج ١ ق ٢/٤٨٦، نهاية الأرب ٢٨/٣٦٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٦ هـ) ص ٢٦ ـ ٢٧، البداية والنهاية ١٢/٢٦٣، إتعاظ الحنفا ٣/٣١٩، النجوم الزاهرة ٥/٣٨٥، بدائع الزهور ج ١ ق ١/٢٣٠، تاريخ ابن الفرات، مجلد ٤ ج ١/١٢٥.

(٢) في الباريسية: «العر».

(٣) سنا البرق الشامي ١/١١٠، الروضتين ج ١ ق ٢/٤٨٧، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٢٨٣، نهاية الأرب ٢٨/٣٦٣، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٠، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٦ هـ) ص ٢٧ ـ ٢٨، البداية والنهاية ١٢/٢٦٣، إتعاظ الحنفا ٣/٣١٠، النجوم الزاهرة ٥/٣٨٦، تاريخ ابن الفرات، مجلد ٤ ج ١/٢٨.

(٤) سنا البرق الشامي ١/١١٠.

(٥) انظر عن (ابن الخلّال) في: سنا البرق الشامي ١/١١٠، وخريدة القصر (قسم مصر) ١/٢٣٥ ـ ٢٣٧، ووفيات الأعيان ٦/٢١٩ ـ ٢٢٤، وسير أعلام النبلاء ٢٠/٥٠٥ رقم ٣٢١، والعبر ٤/١٩٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/٥٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/١٢١، والبداية والنهاية ١٢/٢٦٤، وعقد الجمان ١٢/ورقة ١٦٥ أ، ب، وعيون التواريخ ١٧/ورقة ١٣٢ ب ـ ١٣٥ أ، وحسن المحاضرة ٢/٢٣٣، وشذرات الذهب ٤/٢١٩.

(٦) في الباريسية: «خربة» وفي النسخة رقم ٧٤٠ «حرابة بن».

(٧) الخبر في المنتظم ١٠/٢٣٢ (١٨/١٩٠).

[الوفيات]

وفيها تُوفي الأمير نصر[1] بن المستظهر بالله، عمّ المستنجد بالله وحَمُوه، وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله، وكان موته في ذي القعدة، ودُفن في التُّرَب بالرُّصافة[2].

وفيها جُعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطّار صاحب المخزن ببغداد، ولُقّب ظهير الدين[3].

وفيها حجّ بالناس الأمير طاشتِكِين المستنجديّ، وكان نِعْم الأمير، رحمه الله.

---

(١) في المنتظم: «أبو نصر».

(٢) المنتظم ١٨/ ١٩٤ ـ ١٩٥ رقم ٤٢٨٨.

(٣) المنتظم ١٨/ ١٩١ ـ ١٩٣.

٥٦٧

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلويّة(١)

في هذه السنة، في ثاني جمعة من المحرّم، قُطعت خطبة العاضد لدين الله أبي محمد الإمام عبد الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معدّ بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن عليّ بن الحاكم بأمر الله أبي عليّ المنصور بن العزيز بالله أبي منصور بن نزار بن المعزّ لدين الله أبي تميم مَعَدّ بن المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمّد بن المهديّ بالله أبي محمد عُبيد الله، وهو أوّل العلويّين من هذا البيت الذين خُطب لهم بالخلافة، وخوطبوا بإمرة المؤمنين.

وكان سبب الخطبة العبّاسيّة بمصر أن صلاح الدّين يوسف بن أيّوب لما ثبت قدمه بمصر وزال المخالفون له؛ وضعُف أمر الخليفة بها العاضد، وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش، وهو خَصِيّ، كان من أعيان الأمراء الأسديّة، كلّهم يرجعون إليه، فكتب إليه نور الدين محمود بن زنكي يأمره بقطع الخطبة العاضديّة وإقامة الخطبة المستضيئية، فامتنع صلاح الدين، واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليه لميلهم إلى العلويين.

---

(١) انظر عن انقطاع الخطبة للفاطميين في: سنا البرق الشامي ١/ ١١١، والنوادر السلطانية ٣٥، والتاريخ الباهر ١٥٧، وزبدة الحلب ٣/ ٣٣٣، والروضتين ج ١ ق ٢/ ٤٩٢ ـ ٤٩٤، وتاريخ الزمان ١٨٧، ومفرّج الكروب ١/ ٢٠٠ ـ ٢١٦، والمغرب في حلى المغرب ١٤١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٠ ـ ٥١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٧ هـ) ص ٣٥، والعبر ٤/ ١٩٤ ـ ١٩٥، ودول الإسلام ٢/ ٨٠، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٧٩، ومرآة الجنان ٣/ ٣٧٩، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٦٤، ومآثر الإنافة ٢/ ٥١، والسلوك ج ١ ق ١/ ٤٤، وإتعاظ الحنفا ٣/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦، وشفاء القلوب ٧٥ ـ ٧٦، والنجوم الزاهرة ٥/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٣٠ ـ ١٣١، وبدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم، ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين، فإنه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها منه، فكان يريد [أن] يكون العاضد معه، حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه؛ فلمّا اعتذر إلى نور الدين بذلك لم يقبل عذره، وألحّ عليه بقطع خطبته، وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته، وكان على الحقيقة نائب نور الدين، واتّفق أنّ العاضد مرض هذا الوقت مرضاً شديداً، فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه، فمنهم من أشار به ولم يُفكر في المصريّين، ومنهم من خافهم إلا أنّه ما يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين.

وكان قد دخل إلى مصر إنسانٌ أعجميّ يُعرف بالأمير العالم، رأيته أنا بالموصل، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام، وأن أحداً لا يتجاسر [أن] يخطب للعبّاسيّين قال: أنا أبتدىء بالخطبة لهم؛ فلما كان أوّل جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر أحد ذلك، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا خطبة العاضد ويخطبوا للمستضيء، ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر، ففعل. وكان العاضد قد اشتدّ مرضُه فلم يُعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا: إنْ عوفي فهو يعلم، وإن تُوفيّ فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته؛ فتُوفيّ يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة[1].

ولما تُوفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر الخلافة، وعلى جميع ما فيه، فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتّبه قبل موت العاضد، فحمل الجميع إلى صلاح الدين، وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء، وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند أحد غيرهم، فمنه الجبل الياقوت، وزنه سبعة عشر درهماً، أو سبعة عشر مثقالاً، أنا لا أشكّ، لأنّني رأيتُه ووزنتُه؛ واللّؤلؤ الذي لم يوجد مثله، ومنه النصاب الزّمُرُّد الذي طوله أربع أصابع في عرض عقد كبير؛ ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد، وقد احتاطوا عليه بالحفظ، فلمّا رأوه ظنّوه عُمل لأجل اللّعب به، فسخروا

---

(١) الدر المطلوب ٤٨، الانتصار لابن دقماق ١/ ٩٣ ـ ٩٤، تحفة الأحباب للسخاوي ٧٤.

من العاضد، فأخذه إنسانٌ فضرب به فضرط فتضاحكوا منه، ثمّ آخر كذلك، وكان كلّ من ضرب به ضرط، فألقاه أحدهم فكسره فإذا الطبل لأجل قولنج فندموا على كسره لمّا قيل لهم ذلك.

وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل ما لا يُعَدّ، فباع جميع ما فيه، ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر، ووكّل بهم من يحفظهم، وأخرج جميع من فيه من أَمَة وعبد، فباع البعض، وأعتق البعض، ووهب البعض، وخلّى القصر من سكّانه كأن لم يَغْنَ بالأمس، فسبحان الحيّ الدّائم الذي لا يزول مُلكه، ولا تغيّره الدّهور ولا يقرب النقص حماه.

ولما اشتدّ مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه، فظنّ ذلك خديعة، فلم يمضِ إليه، فلما تُوفيّ علم صدقه، فندم على تخلّفه عنه، وكان يصفه كثيراً بالكرم، ولين الجانب، وغلبة الخير على طبعه، وانقياده؛ وكان في نسبه تسعةٌ[1] خُطب لهم بالخلافة وهم: الحافظ، والمستنصر، والظاهر، والحاكم، والعزيز، والمعزّ، والمنصور، والقائم، والمهديّ؛ ومنهم من لم يُخطب له بالخلافة: أبوه يوسف بن الحافظ، وجدّ أبيه، وهو الأمير أبو القاسم محمد بن المستنصر.

وبقي مَن خُطب له بالخلافة وليس من آبائه: المستعلي، والآمر، والظافر، والفائز.

وجميع مَن خُطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بإفريقية: المهديّ، والقائم، والمنصور، والمعزّ، إلى أن سار إلى مصر، ومنهم بمصر: المعزّ المذكور، وهو أوّل من خرج إليها من إفريقية، والعزيز، والحاكم، والظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد، وجميع مدّة ملكهم من حين ظهر المهديّ بسِجِلماسة في ذي الحجّة من سنة تسعٍ وتسعين ومائتين إلى أن تُوفّي العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر[2] تقريباً.

وهذا دأب الدنيا لم تُعطِ إلا واستردّت، ولم تحْلُ إلا وتمرّرت، ولم تصفُ إلا وتكدّرت، بل صفْوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو. نسأل الله تعالى

---

(١) في الأوربية: «تسع».

(٢) في الأوربية: «وشهراً».

أن يُقبل بقلوبنا إليه ويُرينا الدنيا حقيقة، ويُزهّدنا فيها، ويرغّبنا في الآخرة، إنّه سميع الدعاء قريب من الإجابة.

ولمّا وصلت البشارة إلى بغداد بذلك ضُربت البشائر بها عدّة أيام، وزُيّنت بغداد وظهر من الفرح والجذل ما لا حدّ عليه. وسُيّرت الخلع مع عماد الدين صندل، وهو من خواصّ الخدم المقتفويّة والمقدّمين في الدولة لنور الدين وصلاح الدين، فسار صندل إلى نور الدين وألبسه الخلعة، وسيّر الخلعة التي لصلاح الدين وللخُطباء بالديار المصريّة، والأعلام السود، ثمّ إنّ صَندلاً هذا[1] صار أستاذ دار الخليفة المستضيء بأمر الله ببغداد، وكان يدري الفقه على مذهب الشافعيّ، وسمع الحديث ورواه، ويعرف أشياء حسنة، وفيه دِين، وله معروف كثير، وهو من محاسن بغداد.

ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطناً

في هذه السنة جرت أمور أوجبت أن تأثّر نور الدين من صلاح الدّين، ولم يُظهر ذلك. وكان سببه أنّ صلاح الدين يوسف بن أيّوب سار عن مصر في صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازياً، ونازل حصن الشّوبَك، وبينه وبين الكَرَك يوم، وحصره، وضيّق على من به من الفرنج، وأدام القتال، وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام، فأجابهم إلى ذلك.

فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الفرنج أيضاً ليدخل إليها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين بلاد الفرنج، وهم على هذه الحال: أنت من جانب ونور الدين من جانب، ملكها، ومتى زال الفرنج عن الطريق وأُخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مُقام مع نور الدين، وإن جاء نور الدين إليك وأنت هاهنا، فلا بُدّ لك من الاجتماع به، وحينئذٍ يكون هو المتحكّم فيك بما شاء، إن شاء تركك، وإن شاء عزلك، فقد لا تقدر على الامتناع عليه؛ والمصلحة الرجوع إلى مصر.

فرحل عن الشّوبَك عائداً إلى مصر، ولم يأخذه من الفرنج، وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصريّة لأمورٍ بَلَغَتْه عن بعض شيعته العلويّين، وأنهم

---

(١) في الأوربية: «هذا صندل».

عازمون على الوثوب بها، فإنّه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلّف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة، وأطال الاعتذار، فلم يقبلها نور الدين منه، وتغيّر عليه وعزم على الدُّخول إلى مصر وإخراجه عنها.

وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر، فجمع أهله، وفيهم أبوه نجم الدين أيوب، وخاله شهاب الدين الحارميّ، ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه، واستشارهم، فلم يُجِبه أحدٌ بكلمة واحدة، فقام تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فقال: إذا جاءنا قاتلناه، ومنعناه عن البلاد؛ ووافقه غيره من أهلهم، فشتمهم نجم الدين أيّوب، وأنكر ذلك، واستعظمه، وشتم تقي الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبّة لك من جميع من ترى، ووالله لو رأيتُ أنا وخالك هذا نور الدين، لم يمكنا إلا أن نُقبّل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنّا نحن هكذا، فما ظنّك بغيرنا؟ وكلّ من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه ونُوّابه فيها، فإن أراد عزلك سمِعنا وأطعنا؛ والرأي أن تكتب كتاباً مع نجّاب تقول فيه: بلغني أنّك تريد الحركة لأجل البلاد، فأيّ حاجة إلى هذا؟ يرسل المولى نجّاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك، وما هاهنا من يمتنع عليك.

وأقام الأمراء وغيرهم وتفرّقوا على هذا، فلمّا خلا به أيّوب قال له: بأيّ عقل فعلتَ هذا؟ أما تعلم أنّ نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جَعَلَنا أهم الوجوه إليه، وحينئذٍ لا تقوى به، وأمّا الآن، إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا؛ والأقدار تعمل عملها. ووالله لو أراد نور الدين قصبةً من قصب السُّكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أُقتل[1].

ففعل صلاح الدين ما أشار به، فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره، فكان الأمر كما ظنّه أيّوب، فتُوفي نور الدين ولم يقصده، وملك صلاح الدين البلاد، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها[2].

---

(١) في الأوربية: «وأُقتل».

(٢) التاريخ الباهر ١٥٨ ـ ١٥٩، زبدة الحلب ٣/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥١٩، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٧ هـ) ص ٣٦، ودول الإسلام ٢/ ٨٠، والعبر =

ذكر غزوة إلى الفرنج بالشام

وفي هذه السنة خرج مركبان من مصر إلى الشام فأرسيا بمدينة لاذقيّة، فأخذهما الفرنج، وهما مملوءان من الأمتعة والتجار، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة، فنكثوا وغدروا، فأرسل نور الدين إليهم في المعنى وإعادة ما أخذوه من أموال التُّجار، فغالطوه، واحتجّوا بأمورٍ منها أن المركبَين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء.

وكان الشرط أنّ كلّ مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه، فلم يقبل مغالطتهم، وجمع العساكر، وبثّ السرايا في بلادهم بعضها نحو أنطاكية، وبعضها نحو طرابلس، وحصر هو حصن عِرْقة، وخرّب رَبَضَه، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيثا وعُرَيمة، فأخذهما عنوةً، ونهب وخرّب، وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وعادوا إليه وهو بعِرْقة، فسار في العساكر جميعها إلى أن قارب طرابلس ينهب ويخرّب ويحرق ويقتل.

وأمّا الذين ساروا إلى أنطاكية ففعلوا في ولايتها مثل ما فعل في ولاية طرابُلس، فراسله الفرنج، وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبَين، وتجديد الهدنة معهم، فأجابهم إلى ذلك، وأعادوا ما أخذوا وهم صاغرون، وقد خربت بلادهم وغُنمت أموالهم[1].

ذكر وفاة ابن مردَنيش ومُلك يعقوب بن عبد المؤمن بلاده

في هذه السنة توفي الأمير محمد بن سعد بن مردنيش، صاحب البلاد بشرق الأندلس، وهي: مُرسِيَة وبَلَنْسِيَة وغيرهما، ووصّى أولاده أن يقصدوا بعد موته الأمير أبا يوسف يعقوب بن عبد المؤمن، صاحب الغرب والأندلس، وتسلّموا البلاد وتدخلوا في طاعته، فلما مات قصدوا يعقوب، وكان قد اجتاز إلى الأندلس في مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش، فحين رآهم يوسف فرح بهم، وسرّه قدومهم عليه، وتسلّم بلادهم، وتزوّج أختهم، وأكرمهم، وعظّم أمرهم، ووصلهم بالأموال الجزيلة، وأقاموا معه[2].

= ٤/١٩٥ ـ ١٩٦، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٠، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٥٠ ـ ٢٥١، البداية والنهاية ١٢/٢٦٨ ـ ٢٦٩، شفاء القلوب ٨١ ـ ٨٢، السلوك ج ١ ق ١/٤٨ ـ ٤٩.

(١) التاريخ الباهر ١٥٤، الروضتين ج ١ ق ٢/٥١٦، مفرّج الكروب ١/٢٢٠ وفيه «مركب» الأعلاق الخطيرة ج ٢ ق ٢/٩٤، زبدة الحلب ٢/٣٣٦، النوادر السلطانية ٤٥، تاريخ طرابلس (تأليفنا) ج ١/٥١٧.

(٢) انظر عن (ابن مردنيش) في: الحلّة السيراء ٢/٢٦٨، والمعجب للمراكشي ٣٠٦ وفيه وفاته سنة ٥٦٨ هـ، والإحاطة ٧/١٢٧، ونفخ الطيب ٦/١٦٠، ووفيات الأعيان ٧/١٣١، والاستقصا للسلاوي ٢/١٥٠.

ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خُوارزم شاه

في هذه السنة عبر الخَطَا نهر جَيْحون يريدون خُوارزم، فسمع صاحبها خُوارزم شاه أرسلان بن أتسِز، فجمع عساكره وسار إلى آمِويّة ليقاتلهم ويصدّهم، فمرض، وأقام بها، وسيّر بعض جيشه مع أميرٍ كبير إليهم، فلقيهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم الخُوارزميّون، وأُسر مقدّمهم، ورجع به الخَطَا إلى ما وراء النهر، وعاد خُوارزم شاه إلى خُوارزم مريضاً[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة اتّخذ نور الدين بالشام الحَمام الهوادي، وهي التي يقال لها المناسيب، وهي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، وجعلها في جميع بلاده.

وسبب ذلك أنه لمّا اتسعت بلاده، وطالت مملكته، وعرضت أكنافها، وتباعدت أوائلها عن أواخرها، ثم إنها جاورت بلاد الفرنج، وكانوا ربّما نازلوا حصناً من ثغوره، فإلى أن يصل الخبر، ويسير إليهم [يكونون] قد بلغوا غرضهم منه، فأمر بالحمام ليصل الخبر إليه في يومه، وأجرى الجرايات على المرتّبين لحفظها وإقامتها، فحصل منها الراحة العظيمة، والنفع الكبير للمسلمين[2].

وفيها عزل الخليفة المستضيء بأمر الله وزيره عضُد الدين أبا الفرج بن رئيس الرؤساء مُكرهاً لأن قطب الدين قَايْماز ألزمه بعزله، فلم يمكنه مخالفته[3].

[الوفيات]

وفيها مات أبو محمد عبد الله بن أحمد الخشّاب اللُّغَويّ، وكان قيّماً بالعربية وسمع الحديث الكثير إلى أن مات.

وفيها مات البُوريّ الفقيه الشافعيّ، تفقّه على محمد بن يحيى، وقدم بغداد ووعظ، وكان يذم الحنابلة، وكثرت أتباعه، فأصابه إسهال، فمات هو وجماعة من

---

(١) تاريخ مختصر الدول ٢١٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٧ هـ) ص ٣٨.

(٢) الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٢٠ ـ ٥٢٢، سنا البرق الشامي ١/ ١١٩، التاريخ الباهر ١٥٩، البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٩، عيون التواريخ ١٧/ ورقة ١٣٧ أ، ب، عقد الجمان ١٢/ ورقة ١٧٢ أ، ب.

(٣) المنتظم ١٨/ ١٩٧.

أصحابه، فقيل: إنّ الحنابلة أهدوا له حلواء فمات هو وكلّ من أكل منها.

وفيها مات القُرطُبي أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزديّ، وكان إماماً في القراءة والنحو وغيره من العلوم، زاهداً عابداً، انتفع به الناس في الموصل، وفيها كانت وفاته.

٥٦٨
ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

ذكر وفاة خُوارزم شاه أرسلان ومُلك ولده سلطان شاه وبعده ولده الآخر تُكش وقتل المؤيّد ومُلك ابنه

في هذه السنة تُوفي خُوارزم شاه[1] أرسلان بن أتسِز[2] بن محمد بن أنُوشْتَكين، قد عاد من قتال الخطا مريضاً، فتُوفّي، وملك بعده سلطان شاه محمود، ودبّرت والدته المملكة والعساكر.

وكان ابنه الأكبر علاء الدين تُكش مقيماً في الجَنَد قد أقطعه أبوه إيّاها، فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير أنف من ذلك، وقصد ملك الخطا، واستمدّه على أخيه، وأطمعه في الأموال وذخائر خُوارزم، فسير معه جيشاً كثيفاً مقدّمهم قوماً، فساروا حتى قاربوا خوارزم، فخرج سلطان شاه وأمّه إلى المؤيّد، فأهدى له هديّة جليلة المقدار، ووعده أموال خُوارزم وذخائرها، فاغترّ بقوله، وجمع جيوشه وسار معه حتى بلغ سُوبَرْنَى، بُليدة على عشرين فرسخاً من خُوارزم، وكان تُكش قد عسكر بالقرب منها، فتقدّم إليهم، فلمّا تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيّد، وكُسر المؤيّد وأُخذ أسيراً، وجيء به إلى خُوارزم شاه تُكش، فأمر بقتله، فقُتل بين يديه صبراً.

وهرب سلطان شاه، وأُخذ إلى دِهِستان، فقصده، خُوارزم شاه تُكش، فافتتح المدينة عَنوةً، فهرب سلطان شاه وأُخذت أمّه فقتلها تُكش، وعاد إلى خُوارزم.

---

(١) انظر عن (خوارزم شاه) في: تاريخ مختصر الدول ٢١٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٢ ـ ٥٣، والعبر ٤/ ٢٠٢، ودول الإسلام ٢/ ٨١، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٨ هـ) ص ٤٠ ـ ٤١، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، ومآثر الإنافة ٢/ ٥٥، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٨٣، ونهاية الأرب ٢٧/ ٢٠٢، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٣٢.

(٢) وقع في الجريدة الآسيوية (١٨٤٦) ج ٢/ ٤٧٣ «أنسز» بالنون، وهو تصحيف.

ولمّا عاذ المنهزمون من عسكر المؤيّد إلى نيسابور ملّكوا ابنه طُغان شاه أبا بكر بن المؤيّد، واتّصل به سلطان شاه، ثمّ سار من هناك إلى غياث الدّين ملك الغُوريّة، فأكرمه وعظّمه وأحسن ضيافته.

وأمّا علاء الدين تُكش، فإنّه لما ثبت قدمه بخُوارزم اتصّلت به رسل الخَطَا بالاقتراحات والتحكّم كعادتهم، فأخذته حميّة الملك والدين، وقتل أحد أقارب الملك، وكان قد ورد إليه ومعه جماعة أرسلهم ملكهم في مطالبة خُوارزم شاه بالمال، فأمر خُوارزم شاه أعيان[1] خُوارزم، فقتل كلّ واحد منهم رجلاً من الخَطا، فلم يسلم منهم أحد، ونبذوا إلى ملك الخطا عهده.

وبلغ ذلك سلطان شاه، فسار إلى ملك الخطا واغتنم الفرصة بهذه الحال واستنجده على أخيه علاء الدين تُكش، وزعم له أنّ أهل خُوارزم معه يريدونه، ويختارون مُلكه عليهم، ولو رأوه لسلّموا البلد إليه، فسيّر معه جيشاً كثيراً من الخطا مع قوما أيضاً، فوصلوا إلى خُوارزم، فحصروها، فأمر خُوارزم شاه علاء الدين بإجراء ماء جيحون عليهم فكادوا يغرقون، فرحلوا ولم يبلغوا منها غرضاً، ولحِقهم الندم حيث لم ينفعهم، ولاموا سلطان شاه وعنّفوه، فقال لقوما: لو أرسلت معي جيشاً إلى مَرْوَ لاستخلصتُها من يد دينار الغُزّيّ؛ وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغزّ إلى الآن، فسيّر معه جيشاً، فنزل على سَرْخَس على غِرّة من أهلها، وهجموا على الغزّ فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فلم يتركوا بها أحداً منهم، وألقى دينار ملكهم نفسه في خندق القلعة، فأُخرج منه، ودخل القلعة وتحصّن بها.

وسار سلطان شاه إلى مرو فملكها، وعاد الخطا إلى ما وراء النهر، وجعل سلطان شاه دأبه قتال الغزّ وقصدهم، والقتل فيهم، والنهب منهم، فلمّا عجز دينار عن مقاومته أرسل إلى نَيسابور إلى طُغان شاه بن المؤيّد يقول له ليرسل إليه من يسلّم إليه قلعة سَرْخَس، فأرسل إليه جيشاً مع أمير اسمه قراقوش، فسلّم إليه دينار القلعة ولحِق بطُغان شاه، فقصد سلطان شاه سَرْخَس وحصر قلعتها، وبلغ ذلك طُغان شاه، فجمع جيوشه وقصد سرْخس، فلمّا التقى هو وسلطان شاه فرّ طُغان شاه إلى نيسابور، وذلك سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، فأخلى قراقوش قلعة سَرخَس ولحق بصاحبه، وملكها

---

(١) في (أ): «في مطالبته خوارزم شاه بالمال وأمر أعيان».

سلطان شاه، ثمّ أخذ طوس، والزام، وضيّق الأمر على طُغان شاه بعُلوّ همّته، وقلّة قراره، وحرصه على طلب الملك.

وكان طُغان شاه يحبُّ الدَّعة ومعاقرة الخمر، فلم يزل الحال كذلك إلى أن مات طُغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة في المحرّم، وملك ابنه سنجر شاه، فغلب عليه مملوك جدّه المؤيّد، اسمه مَنْكَلي تَكين[1]، فتفرّق الأمراء أنفةً من تحكّمه، واتّصل أكثرهم بسلطان شاه، وسار الملك دينار إلى كرمان، ومعه الغُزّ، فملكها.

وأمّا مَنكَلي تَكِين فإنّه أساء السيرة في الرعيّة، وأخذ أموالهم، وقتل بعض الأمراء، فسمع خُوارزم شاه بذلك، فسار إليه فحصره بنيسابور في ربيع الأوّل سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة، فحصرها شهرين فلم يظفر بها وعاد إلى خُوارزم، ثمّ رجع سنة ثلاثٍ وثمانين إلى نيسابور فحصرها، وطلبوا منه الأمان، فأمّنهم، فسلّموا البلد إليه، فقتل منكلي تَكِين وأخذ سنجر شاه وأكرمه، وأنزله بخُوارزم، وأحسن إليه، فأرسل إلى نَيسابور يستميل أهلها ليعود إليهم، فسمع به خُوارزم شاه، فأخذ سنجر شاه فسمَلَه، وكان قد تزوّج بأمه وزوّجه بابنته، فماتت، فزوّجه بأخته، وبقي عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة.

ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البَيهقيّ في كتاب «مشارب التجارب»، وقد ذكر غيره من العلماء بالتواريخ هذه الحوادث مخالفة لهذا في بعض الأمور مع تقديم وتأخير، ونحن نوردها، فقال إنّ تُكش خُوارزم شاه ايل أرسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خُوارزم، وكان قد ملكها بعد موت أبيه، فجاء إلى مرو فملكها وأزاح الغُزّ عنها، فخرجوا أيّاماً، ثمّ عادوا عليه فأخرجوه منها، وانتهبوا خزانته، وقتلوا أكثر رجاله، فعبر إلى الخطا فاستنجدهم، وضمن لهم مالاً، وجاء بجيش عظيم فأخرج الغُزّ عن مرو، وسَرْخَس، ونَسا، وأبيوَرْد، وملكها وردّ الخَطا.

فلما أبعدوا كاتب غياث الدين الغُوريّ يطلب منه أن ينزل عن هَراة وبُوشَنْج وباذَغِيس وما والاها، ويتوعّده إن هو لم ينزل عن ذلك، فأجابه غياث الدين يطلب منه إقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خُراسان، فلمّا سمع الرسالة سار عن مرو وشنّ الغارات على باذغيس وبَيْوَار وما والاها، وحصر بُوشَنج ونهب

---

(١) في (أ): «منكتكين».

الرساتيق، وصادر الرعايا، فلما سمع غياث الدين ذلك لم يرضَ لنفسه أن يسير هو بل سيّر ملك سِجِستان، وكاتب ابن أخته بهاء الدين سام، صاحب باميان، باللّحاق به، لأنّ أخاه شهاب الدين كان بالهند، والزمان شتاء، فجاء بهاء الدين ابن أخت غياث الدين وملكُ سجستان ومن معهما من العساكر، ووافق ذلك وصول سلطان شاه إلى هراة، فلمّا علم بوصولهم عاد إلى مرو من غير أن يقاتلهم، وأحرق كلّ ما مرّ به من البلاد ونهبه، وأقام بمرو إلى الربيع، وأعاد مراسلة غياث الدين في المعنى، فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يعرّفه الحال، فنادى في عساكره الرحيل لساعته، وعاد إلى خُراسان، واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملكُ سجستان وغيرهم من العساكر، وقصدوا سلطان شاه، فلمّا علم ذلك جمع عساكره واجتمع عليه، من الغُزّ والمفسدين، وقُطّاع الطريق، ومَن عنده طمع، خلق كثير، فنزل غياث الدين ومن معه في الطالقان، ونزل سلطان شاه بمرو الروذ، وتقدّم عسكر الغُوريّة إليه، وتواعدوا للمصافّ.

وبقوا كذلك شهرين والرسل تتردّد بين غياث الدين وبين سلطان شاه، وشهاب الدين يطلب من أخيه غياث الدين الإذْن في الحرب، فلا يتركه، وتقرّر الأمر على أن يسلّم غياث الدين إلى سلطان شاه بُوشنج وباذغيس وقلاع بَيوار، وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين سام، صاحب باميان، إلا أنهما لم يخالفا غياث الدين؛ وفي آخر الأمر حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين، وحضر الأمراء ليكتب العهد، فقال للرسول: إن سلطان شاه يطلب أن يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الأمر؛ فأرسل غياث الدين إليهما، فأعادا الجواب: إننا مماليكك، ومهما تفعل لا يمكننا مخالفتك.

فبينما الناس مجتمعون في تحرير الأمر وإذ قد أقبل مجد الدين العلويّ الهرويّ، وكان خصيصاً بغياث الدين بحيث يفعل في ملكه ما يختار فلا يخالف، فجاء العلويّ ويده في يد ألْب غازي ابن أخت غياث الدين، وقد كتبوا الكتاب، وقد أحضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام ملك الباميان، فجاء العلويّ كأنه يُسارّ غياث الدين، ووقف في وسط الحلقة، وقال للرسول: يا فلان! تقول لسلطان شاه: قد تمّ لك الصلح من جانب السلطان الأعظم، ومن شهاب الدين، وبهاء الدين، ويقول لك العلويّ خصمك: أنا ومولانا ألْب غازي بيننا وبينك السيف؛ ثمّ صرخ صرخة ومزّق ثيابه، وحثا التراب على رأسه وأقبل على غياث الدين، وقال له: هذا واحدٌ طرده

أخوه، وأخرجه فريداً وحيداً، لِمَ تترك له ما ملكناه بأسيافنا من الغُزّ والأتراك السَّنْجَرِيّة؟ فإذا سمع هذا عنّا يجيء أخوه يطلب منازعته الهند وجميع ما بيدك؛ فحرّك غياث الدين رأسه ولم يتفوّه بكلمة، فقال ملك سجستان للعلويّ: اترك الأمر ينصلح.

فلمّا لم يتكلم غياثِ الدين مع العلويّ قال شهاب الدين لجاووشيته: نادوا في العسكر بالتّجهّز للحرب، والتقدّم إلى مرو الرُّوذ؛ وقام، وأنشد العلويّ بيتاً من الشعر عجميّاً[1] معناه: إنّ الموت تحت السيوف أسهل من الرضى بالدّنِية؛ فرجع الرسول إلى سلطان شاه وأعلمه الحال، فرتّب عساكره للمصافّ، والتقى الفريقان واقتتلوا، فصبروا للحرب، فانهزم سلطان شاه وعسكره، وأُخذ أكثر أصحابه أسرى، فأطلقهم غياث الدين، ودخل سلطان شاه مرو في عشرين فارساً، ولحق به من أصحابه نحو ألف وخمسمائة فارس.

ولمّا سمع خُوارزم شاه تُكش بما جرى لأخيه سار من خُوارزم في ألفَيْ فارس وأرسل إلى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه إن أراد الخطا، وجدّ في السير ليقبض على أخيه قبل أن يقوى، فأتت الأخبار سلطان شاه بذلك، فلم يقدر على عبور جيحون إلى الخَطا، فسار إلى غياث الدين وكتب إليه يعلمه قصده إليه، فكتب إلى هراة وغيرها من بلاده بإكرامه واحترامه وحمل الإقامات إليه، ففعل به ذلك، وقدم على غياث الدين، والتقاه، وأكرمه وأنزله معه في داره، وأنزل أصحاب سلطان شاه كلّ إنسان منهم عند مَن هو في طبقته، فأنزل الوزير عند وزيره، والعارض عند عارضه، وكذلك غيرهم، وأقام عنده حتى انسلخ الشتاء فأرسل علاء الدين بن خُوارزم شاه إلى غياث الدين يذكّره ما صنعه أخوه سلطان شاه معه من تخريب بلاده، وجمع العساكر عليه، ويشير بالقبض عليه وردّه إليه، فأنزل الرسول، وإذ قد أتاه كتاب نائبه بهراة يخبره أنّ كتاب خُوارزم شاه جاءه يتهدّده، فأجابه أنه لا يُظهر لخُوارزم شاه أنّه أعلمه بالحال، وأحضر الرسول، وقال له: تقول لعلاء الدين: أمّا قولك إنّ سلطان شاه أخرب البلاد وأراد مُلكها، فَلَعَمْري إنّه ملكٌ وابن ملكٍ، وله همّة عالية، وإذا أراد المُلك، فمثله أراده، وللأمور مدبّر يوصلها إلى مستحقّها، وقد التجأ إليّ، وينبغي أن تنزاح عن بلاده، وتعطيه نصيبه ممّا خلّف أبوه، ومن الأملاك التي خلّف، والأموال،

---

(1) في (أ): «علوياً».

وأحلف لكما يميناً على المودة والمصافاة، وتخطب لي بخوارزم وتزوّج أخي شهاب الدين بأختك.

فلمّا سمع خُوارزم شاه الرسالة امتعض لذلك وكتب إلى غياث الدين كتاباً يتهدّده بقصد بلاده، فجهّز غياث الدين العساكر-مع ابن أخت ألْب غازي وصاحب سجِستان، وسيّرهما مع سلطان شاه إلى خُوارزم، وكتب إلى المؤيّد صاحب نيسابور يستنجده، وكان قد صار بينهما مصاهرة: زوّج المؤيّد ابنه طُغان شاه بابنة غياث الدين، فجمع المؤيّد عساكره، وأقام بظاهر نيسابور على طريق خُوارزم.

وكان خُوارزم شاه قد سار عن خُوارزم إلى لقاء عسكر الغوريّة الذين مع أخيه سلطان شاه، وقد نزلوا بطرف الرمل، فبينما هو في مسيره أتاه خبر المؤيّد أنه قد جمع عساكره، وأنه على قصد خُوارزم إذا فارقها، فسقط في يديه وعاد فوقع في قلبه، وعاد إلى خُوارزم فأخذ أمواله وذخائره وعبر جيحون إلى الخطا، وأخلى[1] خُوارزم فوقع بها خبطٌ عظيمٌ، فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازي وسألوه إرسال أمير معهم يضبط البلد، فخاف أن تكون مكيدة، فلم يفعل.

فبينما هم في ذلك تُوفّي سلطان شاه، سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فكتب ألْب غازي إلى غياث الدين يُعلمه الخبر، فكتب إليه يأمره بالعود إليه، فرجع ومعه أصحاب سلطان شاه، فأمر غياث الدين بأن يُستخدموا، وأقطع الأجناد الإقطاعات الجيّدة، وكلّهم قابل إحسانه بكفران، وسنذكر باقي أخبارهم.

ولمّا سمع خُوارزم شاه تُكش بوفاة أخيه عاد إلى خُوارزم، وأرسل إلى سَرخَس ومرو شحناء، فجهّز إليهم أمير هَراة عمر المرغني[2] جيشاً فأخرجوهم[3]، وقال[4]: حتى نستأذن السلطان غياث الدين؛ وأرسل خُوارزم شاه رسولاً إلى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة، وسيّر مع رسوله جماعة من فقهاء خُراسان والعلويّين، ومعهم وجيه الدين محمد بن محمود، وهو الذي جعل غياث الدين شافعيّاً، وكان له عنده

---

(١) في الأوربية: «وأخلا».

(٢) في الباريسية: «المرعبي».

(٣) في الباريسية: «فأخرجهم».

(٤) في الباريسية: والنسخة رقم ٧٤٠ «وقالوا».

منزلة كبيرة، فوعظوه، وخوّفوه الله تعالى، وأعلموه أن خُوارزم شاه يراسلهم ويتهدّدهم بأنّه يجيء بالأتراك والخَطا ويستبيح حريمهم وأموالهم، وقالوا له: إمّا أن تحضر أنت بنفسك، وتجعل مَرْوَ دار مُلكك، حتى ينقطع طمع الكافرين عن البلاد ويأمن أهلها، وإمّا أن تصالح خُوارزم شاه؛ فأجاب إلى الصلح وترك معارضة البلاد.

فلمّا سمع من بخُراسان من الغُزّ بذلك طمعوا في البلاد، فعاودوا النهب والإحراق والتخريب، فسمع خُوارزم شاه فجمع عساكره وحضر بخُراسان، ودخل مرو وسَرْخَس ونَسا وأبِيوَرد وغيرها، وأصلح البلاد، وتطرّق إلى طُوس وهي للمؤيّد صاحب نيسابور، فجمع المؤيّد جيوشه وسار إليه، فلمّا سمع خُوارزم شاه بمسيره إليه عاد إلى خُوارزم، فلمّا وصل إلى الرمل أقام بطرفه، فلمّا سمع المؤيّد بعود خُوارزم شاه طمع فيه وتبِعه، فلمّا سمع خُوارزم شاه بذلك أرسل إلى المناهل التي في البريّة فألقى فيها الجِيفَ والتُّراب بحيث لم يمكن الانتفاع بها.

فلمّا توسط المؤيّد البريّة طلب الماء فلم يجده، فجاء خُوارزم شاه إليه وهو على تلك الحال، ومعه الماء على الجمال، فأحاط به، فأمّا عسكره فاستسلموا بأسرهم، وجيء بالمؤيّد أسيراً إلى خوارزم شاه، فأمر بضرب عنقه، فقال له: يا مخنّث هذا فعال النّاس؟ فلم يلتفت إليه، وقتله وحمل رأسه إلى خُوارزم.

فلمّا قُتل ملكُ نيسابور ملك ما كان له ابنه طُغان شاه. فلمّا كان من قابل جمع خُوارزم شاه عساكره وسار إلى نيسابور، فحاصرها وقاتلها، فمنعه طُغان شاه فعاد عنه ثمّ رجع إليه، فخرج إليه طُغان شاه فقاتله، فأسر طُغان شاه وأخذه وزوّجه أخته، وحمله معه إلى خُوارزم، وملك نَيسابور وجميع ما كان لطُغان شاه من الملك وعظُم شأنه وقوي أمره.

هذا الذي ذكره في هذه الرواية مخالف لما تقدّم، ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلتُ، فإنّ أحدهما قد قدّم ما أخّره الآخر، فلهذا أوردنا جميع ما قالاه، ولبُعد البلاد عنّا لم نعلم أيّ القولين أصح لنذكره ونترك الآخر، وإنما أوردُتها في موضع واحد لأن أيام سلطان شاه لم تطُلْ له ولأعقابه حتى تتفرّق على السنين، فلهذا أوردتُها متتابعة[1].

---

(١) المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٨ هـ) ص ٤١.

ذكر غارة الفرنج على بلد حَوْران وغارة المسلمين على بلد الفرنج

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، اجتمعت الفرنج وساروا إلى بلد حَوْران من أعمال دمشق للغارة عليه، وبلغ الخبر إلى نور الدين وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكُسْوة، فسار إليهم مُجداً، وقدِم بجموعه عليهم، فلمّا علموا بقربه منهم دخلوا إلى السواد، وهو من أعمال دمشق أيضاً، ولحقهم المسلمون فتخطّفوا من في ساقتهم ونالوا منهم، وسار نور الدين فنزل في عَشْتَرا[١]، وسيّر منها سريّة إلى أعمال طبَريّة، فشنّوا الغارات عليها، فنهبوا وسبوا، وأحرقوا وخرّبوا، فسمع الفرنج ذلك، فرحلوا إليهم ليمنعوا عن بلدهم، فلمّا وصلوا كان المسلمون قد فرغوا من نهبهم وغنيمتهم، وعادوا وعبروا النهر.

وأدركهم الفرنج، فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم يقاتلونهم، فاشتدّ القتال وصبر الفريقان، الفرنج يرومون أن يلحقوا الغنيمة فيردّوها، والمسلمون يريدون أن يمنعوهم عنها لينجو بها من قد سار معها، فلمّا طال القتال بينهم وأبعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين عاد الفرنج ولم يقدروا [أن] يستردّوا منها شيئاً[٢].

ذكر مسير شمس الدولة إلى بلد النّوبة

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، سار شمس الدولة تُورانشاه بن أيّوب أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى بلد النّوبة، فوصل إلى أوّل بلادهم ليتغلّب عليه ويتملّكه.

وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نور الدين كان على عزم الدخول إلى مصر وأخذها منهم، فاستقرّ الرأي بينهم أنّهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن، حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدّوه عن البلاد، فإن قَوُوا على منعه أقاموا بمصر، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحِقوا بالبلاد التي قد افتتحوها؛ فجهّز شمس الدولة وسار إلى أسوان، ومنها إلى بلد النّوبة، فنازل قلعةً اسمها

---

(١) في (أ): «عشيرا» والمثبت يتفق مع (ب).

(٢) سنا البرق الشامي ١/١٢٧ ـ ١٢٩، الروضتين ج ١ ق ٢/٥٢٨ ـ ٥٣٠، مفرّج الكروب ١/٢٢٧ ـ ٢٢٨، عقد الجمان ١٢/ ورقة ١٧٤ ب.

أبريم[1]، فحصرها، وقاتله أهلها، فلم يكن لهم بقتال العسكر الإسلاميّ قوّة، لأنّهم ليس لهم جُنّة تقيهم[2] السهام وغيرها من آلة الحرب، فسلموها، فملكها وأقام بها، ولم يرَ للبلاد دخلاً يُرغب فيه وتُحتمل المشقّة لأجله، وقُوتهم الذُّرَة، فلمّا رأى عدم الحاصل، وقشف العيش مع مباشرة الحروب ومعاناة التعب والمشقّة، تركها وعاد إلى مصر بما غنم، وكان عامّة غنيمتهم العبيد والجواري[3].

ذكر ظفر لمليح بن ليون بالروم

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، هزم مليح بن ليون الأرمنيّ، صاحب بلاد الدّروب المجاورة لحلب، عسكر الروم من القسطنطينيّة.

وسبب ذلك أنّ نور الدين كان قد استخدم مليحاً المذكور، وأقطعه إقطاعاً سنيّاً، وكان ملازم الخدمة لنور الدين، ومشاهداً لحروبه مع الفرنج، ومباشراً لها؛ وكان هذا من جيّد الرأي وصائبه، فإنّ نور الدين لمّا قيل له في معنى استخدامه وإعطائه الأقطاع من بلاد الإسلام قال: أستعين به على قتال أهل ملّته، وأريح طائفة من عسكري تكون بإزائه لتمنعه من الغارة على البلاد[4] المجاورة له.

وكان مليح أيضاً يتقوّى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم، وكانت مدينة أَدَنة والمَصّيصة وطَرسوس بيد ملك الروم، صاحب القسطنطينيّة، فأخذها مليح منهم لأنّها تجاور بلاده، فسيّر إليه ملك الروم جيشاً كثيفاً، وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه، فلقيهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال، وصابرهم[5]، فانهزمت الروم، وكثُر فيهم القتل والأسر، وقويت شوكة مليح، وانقطع أمل الروم من تلك البلاد.

---

(1) أبريم: بلدة قديمة تقع على الضفة الشرقية للنيل في منطقة النوبة المصرية. وفي (سنا البرق الشامي ١/ ١٢٩) «إبزيم» بالزاي المعجمة.

(2) في الأوربية: «تقيمهم».

(3) الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٣٠ ـ ٥٣١، سنا البرق الشامي ١/ ١٢٩، مفرّج الكروب ٢/ ١٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧١، فوات الوفيات ٢/ ٩٤، حسن المحاضرة ١/ ٣٢٦.

(4) في الأوربية: «بلاد».

(5) في الأوربية: «وصبرهم».

وأرسل مليح إلى نور الدين كثيراً من غنائمهم ومن الأسرى ثلاثين رجلاً من مشهوريهم وأعيانهم، فسيّر نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضيء بأمر الله، وكتب يعتدّ بهذا الفتح لأن بعض جُنده فعلوه[1].

ذكر وفاة إيلدكز

في هذه السنة تُوفّي أتابك إيلدكز[2] بهمذان، وملك بعده ابنه محمّد البهلوان، ولم يختلف عليه أحد، وكان إيلدكز هذا مملوكاً للكمال السُّمَيرَميّ[3]، وزير السلطان محمود، فلمّا قُتل الكمال، كما ذكرناه، صار إيلدكز إلى السلطان محمود، فلما ولي السلطان مسعود السلطنة ولاّه أرّانيّة، فمضى إليها، ولم يعُد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره، ثمّ ملك أكثر أَذَرْبيجَان وبلاد الجبل وهَمذان وغيرها، وأصفهان والريّ وما والاهما من البلاد، وخطب بالسلطنة لابن امرأته أرسلان شاه بن طُغُرل؛ وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع، واتّسع مُلكه من باب تَفليس إلى كَرمان، ولم يكن للسلطان أرسلان شاه معه حكم إنّما كان له جرايةٌ تصل إليه.

وبلغ من تحكّمه عليه أنّه شرب ليلة، فوهب ما في خزانته، وكان كثيراً، فلمّا سمع إيلدكز بذلك استعاده جميعه، وقال له: متى أخرجت المال في غير وجهه، أخذتَه أيضاً من غير وجهه، وظلمتَ الرعيّة.

وكان إيلدكز عاقلاً، حَسَن السيرة، يجلس بنفسه للرعيّة، ويسمع شكاويهم، وينصف بعضهم من بعض.

---

(١) النوادر السلطانية ٤٥، التاريخ الباهر ١٦٠ ـ ١٦١، زبدة الحلب ٢/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨، مفرّج الكروب ١/ ٢٣٣، سنا البرق الشامي ١/ ١٣٣، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٤٢ ـ ٥٤٥، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، دول الإسلام ٢/ ٨٢، العبر ٤/ ٢٠٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٨ هـ) ص ٤١ ـ ٤٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، عيون التواريخ ١٧/ ورقة ١٤٧ ب ـ ١٤٨ أ، الكواكب الدرية ٢١٧ ـ ٢١٨، عقد الجمان ١٢/ ورقة ١٧٥ أ، ب، الدر المنتخب ١٧١، تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٣ ـ ١٣٤، الإعلام والتبيين ٣٠.

(٢) انظر عن (إيلدكز) في تاريخ دولة آل سلجوق ٢٧٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، والعبر ٤/ ٢٠٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٧١، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٨٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٣٣، والسلاجقة ٧٧.

(٣) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «السيرمي».

ذكر وصول الترك إلى إفريقية ومُلكهم طرابلس وغيرها

في هذه السنة سار طائفة من التُرك من ديار مصر مع قراقوش مملوك تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب، إلى جبال نَفُوسَة، واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلّاط، وهو من أعيان أُمراء العرب هناك، وكان خارجاً عن طاعة عبد المؤمن وأولاده، فاتّفقا، وكثُر جمعهما، ونزلا على طرابُلُسَ الغرب فحاصراها وضيّقا على أهلها، ثمّ فُتحت فاستولى عليها قراقوش، وأسكن أهله قصرها، وملك كثيراً من بلاد إفريقية ما خلا المَهديّة وسَفَاقُس وقَفصة وتونُس وما والاها من القرى والمواضع.

وصار مع قراقوش عسكر كثير، فحكم على تلك البلاد بمساعدة العرب بما جُبلت عليه من التخريب والنهب، والإفساد بقطع الأشجار والثمار، وغير ذلك، فجمع بها أموالاً عظيمة وجعلها بمدينة قابِس، وقويت نفسه وحدّثَتْه بالاستيلاء على جميع إفريقية لبُعد أبي يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها، وكان ما سنذكره إن شاء الله[1].

ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس

في هذه السنة جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عساكره وسار من إشبيلية إلى الغزو، فقصد بلاد الفرنج، ونزل على مدينة وَبْذَة[2]، وهي بالقرب من طُلَيْطُلة شرقاً منها، وحصرها، واجتمعت الفرنج على ابن الأذفونش ملك طُلَيْطُلة في جمع كثير، فلم يُقدموا على لقاء المسلمين.

فاتّفق أن الغلاء اشتد على المسلمين، وعُدِمت الأقوات عندهم، وهم في جَمْعٍ كثير، فاضطرّوا إلى مفارقة بلاد الفرنج، فعادوا إلى إشبيلية.

---

(١) انظر عن فتح طرابلس الغرب في: مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٧١، والكواكب الدرية ٢٢٠، وشفاء القلوب ٨٢، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٣٣.

(٢) في طبعة صادر ١١/ ٣٩٠، وتاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٠ «رندة» والتصحيح من المصادر: المنّ بالإمامة لابن صاحب الصلاة ٥٠٢ ـ ٥٠٤، ووفيات الأعيان ٢/ ٣٧٤ وفيه «وبذى» والمعجب ٢٥٠، والاستقصا ٢/ ١٣٤، والبيان المغرب ٣/ ٩٦، ونهاية الأرب ٢٤/ ٣٢٤.

وأقام أبو يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وهو في ذلك يجهّز العساكر ويسيّرها إلى غزو بلاد الفرنج في كلّ وقت، فكان فيها عدّة وقائع وغزوات ظهر فيها من العرب من الشجاعة ما لا يوصف، وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفيّن ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج، فلا يبرز إليه أحد، ثمّ عاد أبو يعقوب إلى مَرّاكُش[1].

ذكر نهب نَهاوَنْد

في هذه السنة نهب عسكر شُملة نَهاوند، وسبب ذلك أنّ شُملة كان أيام إيلدكز لا يزال يطلب منه نهاوند لكونها مجاورة بلاده، ويبذل فيها الأموال، فلا يجيبه إلى ذلك، فلمّا مات إيلدكز، وملك بعده ولده محمّد البهلوان، وسار إلى أَذَرْبيجان لإصلاحها أنفذ[2] شُملة ابن أخيه ابن سنكا لأخذ نهاوند، وبلغ أهل البلد الخبرُ، فتحصّنوا، وحصرهم، وقاتلهم وقاتلوه، وأفحشوا في سبّه، فلمّا علم أنّه لا طاقة له بهم رجع إلى تُستَر، وهي قريبة منها، وأرسل أهل نهاوند إلى البهلوان يطلبون منه نجدة، فتأخّرت عنهم، فلمّا اطمأنّوا خرج ابن سنكا من تُستَر في خمس مائة فارس جريدة، وسار يوماً وليلة فقطع أربعين فرسخاً حتى وصل إلى نهاوند، وضرب البوق وأظهر أنه من أصحاب البهلوان، لأنّه جاءهم من ناحيته، ففتح أهل البلد له الأبواب فدخله، فلمّا توسّط قبض على القاضي والرؤساء وصلبهم، ونهب البلد وأحرقه، وقطع أنف الوالي وأطلقه، وتوجّه نحو ماسبذان قاصداً للعراق.

ذكر قصد نور الدين بلاد قَلْج أرسلان

في هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكي إلى مملكة عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قِلج أرسلان، وهي مَلَطْيَة وسِيواس وأَقْصَرا وغيرها، عازماً على حربه وأخذ بلاده منه.

وكان سبب ذلك أنّ ذا النون بن دانشمند صاحب مَلَطْيَة وسِيواس قصده قلج

---

(١) المنّ بالإمامة ٥١٦ ـ ٥٢٥ ـ ٥٢٦، نفح الطيب ١٦/٦، تاريخ ابن خلدون ٣٢٢/٦، نهاية الأرب ٣٢٤/٢٤، البيان المغرب ١٠٥/٣.

(٢) في الأوربية: «نفذ».

أرسلان وأخذ بلاده، وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً به وملتجئاً إليه، فأكرم نزله، وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحمل إلى الملوك ووعده النُّصْرة والسعي في ردّ مُلكه إليه.

ثمّ إنه أرسل إلى قِلَج أرسلان يشفَع إليه في إعادة بلاد ذي النّون إليه، فلم يُجبْه إلى ذلك، فسار نور الدين إليه، فابتدأ بكَيْسُون وبَهَسْنا[1] ومَرْعَش ومَرْزُبَان، فملكها وما بينها؛ وكان مُلكه لمرعَش أوائل ذي القعدة، والباقي بعدها، فلمّا ملكها سيّر طائفة من عسكره إلى سِيواس فملكوها.

وكان قلج أرسلان لمّا سار نور الدين إلى بلاده قد سار من طرفها الذي يلي الشام إلى وسطها، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح، فتوقّف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه عن الفرنج ما أزعجه، فأجابه إلى الصلح، وشرط عليه أن ينجده بعساكر إلى الغزاة، وقال له: أنت مجاور الروم ولا تغزوهم، وبلادك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام، ولا بُدّ من الغزاة معي. فأجابه إلى ذلك، وتبقى سيواس على حالها بيد نوّاب نور الدين وهي لذي النون، فبقي العسكر بها في خدمة ذي النون إلى أن مات نور الدين، فلما مات رحل عسكره عنها، وعاد قِلج أرسلان وملكها، وهي بيد أولاده إلى الآن سنة عشرين[2] وستّمائة.

ولمّا كان نور الدين في هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن الشّهْرَزُوريّ من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وبإِرْبِل وخِلاط والشام وبلاد قَلْج أرسلان وديار مصر[3].

---

(١) في طبعة صادر ١١/٣٩١ «وبَهَنَسَى» وهو غلط. والصحيح ما أثبتناه. قال أبو الفداء: بَهَسْنا: بفتح الباء الموحدة، والهاء، وسكون السين المهملة ثم نون وألف. من حصون الشام الشمالية. (تقويم البلدان ٢٦٤) ووصفه شيخ الربوة بأنه حصن مليح. (نخبة الدهر ٢٠٦) وكُتِب أيضاً: «بهسنى» بالألف المقصورة.

(٢) في (ب): «اثنتين وعشرين».

(٣) النوادر السلطانية ٤٥، مفرّج الكروب ١/٢٣٣، التاريخ الباهر ١٦٠ ـ ١٦١، زبدة الحلب ٢/٣٣٧ ـ ٣٣٨، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٣، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٢٩٤ ـ ٢٩٥، الروضتين ج ١ ق ٢/٥٤٢ ـ ٥٤٥، العبر ٤/٢٠٢، دول الإسلام ٢/٨٢، تاريخ ابن الوردي ٢/٨١، الكواكب الدرية ٢١٧ ـ ٢١٨، الدر المنتخب ١٧١، تاريخ ابن سباط ١/١٣٣، سنا البرق الشامي ١/١٣٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٨ هـ) ص ٤٢، عيون التواريخ ١٧/ ورقة ١٤٧ ب ـ ١٤٨ أ، عقد الجمان =

ذكر رحيل صلاح الدين من مصر إلى الكَرَك وعَوده عنها

في هذه السنة، في شوّال، رحل صلاح الدين يوسف بن أيّوب من مصر بعساكرها جميعها إلى بلاد الفرنج يريد حصر الكَرَك، والاجتماع مع نور الدين عليه، والاتّفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين كلّ واحد منهما في جهة بعسكره.

وسبب ذلك أنّ نور الدين لمّا أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج في العام الماضي، وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه، أرسل يعتذر، ويعد من نفسه بالحركة على ما يقرّره نور الدين، فاستقرّت القاعدة بينهما أنّ صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نور الدين من دمشق، فأيّهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه، وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه؛ فسار صلاح الدين عن مصر لأنّ طريقه أصعب وأبعد وأشقّ، ووصل إلى الكَرَك وحصره.

وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرّق الأموال، وحصّل الأزواد وما يحتاج إليه، وسار إلى الكَرَك فوصل إلى الرّقيم، وبينه وبين الكَرك مرحلَتان[1]. فلمّا سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله، واتّفق رأيهم على العود إلى مصر، وترك الاجتماع بنور الدين، لأنّهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلاً.

فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنّه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر، وأنه مريض شديد المرض، ويخاف أن يحدث عليه حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم، وأرسل معه [من] التُّحَف والهدايا ما يجلّ عن الوصف؛ فجاء الرسول إلى نور الدين وأعلمه ذلك فعظُم عليه وعلم المراد من العَود، إلاّ أنّه لم يُظهر للرسول تأثّراً بل قال له: حِفظ مصرَ أهمّ عندنا من غيرها.

وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نَحْبه ولحِق بربّه، ورُبَّ كلمةٍ تقول لقائلها دعني. وكان سبب موت نجم الدين أنّه ركب يوماً فرساً بمصر، فنفر به

= ١٢/ ١٧٥ أ، ب، الإعلام والتبيين ٣٠.

(١) في الأوربية: «مرحلتين».

الفرس نفرةً شديدة، فسقط عنه فحُمل إلى قصره وَقِيذاً، وبقي أياماً، ومات في السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان خيّراً، عاقلاً، حَسَن السيرة، كريماً جواداً، كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفيّة، والمجالسة لهم. وقد تقدّم من ذِكره وابتداء أمره وأمر أخيه شِيركوه ما لا حاجة إلى إعادته(١).

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة زادت دجلة زيادةً كثيرة أشرفت [بها] بغداد على الغرق في شعبان، وسدّوا أبواب الدروب، ووصل الماء إلى قبّة أحمد بن حنبل ووصل إلى النظاميّة ورباط شيخ الشيوخ، واشتغل الناس بالعمل في القَوْرج، ثم نقص وكفى النّاس شرّه(٢).

وفيها وقعت النار ببغداد من درب بَهرُوز إلى باب جامع القصر، ومن الجانب الآخر من حجر النحاس إلى دار أمّ الخليفة(٣).

وفيها أغار بنو حَزْن من خفاجة على سواد العراق، وسبب ذلك أنّ الحماية كانت لهم لسواد العراق، فلما تمكّن يزدن من البلاد وتسلّم الحِلّة أخذها منهم، وجعلها لبني كعب من خفاجة، وأغار بنو حزن على السواد، فسار يزدن في عسكر ومعه الغضبان الخفاجيّ، وهو من بني كعب، لقتال بني حَزن، فبينما هم سائرون ليلاً رمى بعض الجُند الغضبان بسهم فقتله لفساده، وكان في السواد، فلمّا قُتل عاد العسكر إلى بغداد وأعيدت خفارة السواد إلى بني حزن.

وفيها خرج برجم الإيوائي في جمع من التركمان، (في حياة إيلدكز)(٤)، وتطرّق أعمال همذان، ونهب الدّينَوَر، واستباح الحريم.

---

(١) النوادر السلطانية ٤٥ ـ ٤٦، سنا البرق الشامي ١/ ١١٧ ـ ١١٨، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٢٦ ـ ٥٢٧ و٥٣٢ ـ ٥٤٤، وزبدة الحلب ٢/ ٣٣٤، الدر المطلوب ٥٠ ـ ٥١، المغرب في حلى المغرب ١٤٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٣، العبر ٤/ ٣٠٣، مرآة الجنان ٣/ ٣٨٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨١، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٠ و٢٧١ ـ ٢٧٢، الكواكب الدرية ٢٢٠، تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٤.

(٢) المنتظم ١٨/ ٢٠٠.

(٣) المنتظم ١٨/ ٢٠٠.

(٤) من (أ).

وسمع إيلدكز الخبر وهو بنَقجُوان، فسار مُجِدّاً فيمن خفّ معه من عسكره، فقصده، فهرب برجم إلى أن قارب بغداد، وتبعه إيلدكز فظنّ الخليفة أنّها حيلة ليصل إلى بغداد فجأة، فشرع في جمع العساكر وعمل السور، فأرسل إلى إيلدكز الخلع والألقاب الكبيرة، فاعتذر أنّه لم يقصد إلا كفّ فساد هؤلاء، ولم يتعدّ قنطرة خانقِين وعاد.

[الوفيات]

فيها تُوفّي الأمير يَزدن، وهو من أكابر أمراء بغداد، وكان يتشيّع، فوقع بسببه فتنة بين السُّنة والشيعة بواسط لأن الشيعة جلسوا له للعزاء وأظهر السُّنة الشماتة به فآل الأمر إلى القتال فقُتل بينهم جماعة.

ولمّا مات أُقطع أخوه تنامش ما كان لأخيه وهو مدينة واسِط، ولُقّب علاء الدين.

وفيها أرسل نور الدين محمود بن زنكي رسولاً إلى الخليفة، وكان الرسول القاضي كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبد الله الشّهْرَزوريّ، قاضي بلاده جميعها مع الوقوف والدّيوان، وحمّله رسالة مضمونها الخدمة للدّيوان، وما هو عليه من جهاد الكفّار، وفتح بلادهم، ويطلب تقليداً بما بيده من البلاد، مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما في طاعته كديار بكر وما يجاور ذلك كخِلاط وبلاد قلج أرسلان، وأن يُعطى من الأقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكي وهو: طريفين ودرب هارون، والتمس أرضاً على شاطىء دجلة يبنيها مدرسة للشافعيّة، ويوقف عليها صريفين ودرب هارون، فأُكرِم كمال الدين إكراماً لم يكرم به رسولٌ قبله، وأجيب إلى ما التمسه، فمات نور الدين قبل الشروع في بناء المدرسة، رحمه الله[1].

(١) سنا البرق الشامي ١/ ١٣٥، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٩٤، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٤٥.

٥٦٩
ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

ذكر مُلك شمس الدولة زَبيد وعدن وغيرهما من بلاد اليمن

قد ذكرنا قبلُ أنّ صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب مصر، وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود أن يدخل إلى مصر فيأخذها منهم، فشرعوا في تحصيل مملكةٍ يقصدونها ويتملّكونها تكون عدةً لهم إن أخرجهم نور الدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها، فسيّروا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، وهو أخو صلاح الدين الأكبر، إلى بلد النّوبة، فكان ما ذكرناه.

فلما عاد إلى مصر استأذنوا نور الدين في أن يسير إلى اليمن لقصد عبد النبيّ، صاحب زبيد [وأخذ بلده] لأجل قطع الخطبة العبّاسية، فأذِن في ذلك.

وكان بمصر شاعر اسمه عُمارة[1] من أهل اليمن، فكان يحسّن لشمس الدولة قصد اليمن، ويصف البلاد له، ويعظّم ذلك في عينه، فزاده قوله رغبة فيها، فشرع يتجهّز ويُعدّ الأزواد والروايا والسلاح وغيرها من الآلات، وجنّد الأجناد، فجمع وحشد، وسار عن مصر مستهلّ رجب، فوصل إلى مكة، أعزّها الله تعالى، ومنها إلى زَبيد، وفيها صاحبها المتغلّب عليها المعروف بعبد النبيّ، فلما قرب منها رآه أهلها، فاستقلّوا[2] من معه، فقال لهم عبد النبيّ: كأنّكم بهؤلاء وقد حمي عليهم الحرّ فهلكوا وما هم إلاّ أكلة رأسٍ؛ فخرج إليهم فعسكره، فقاتلهم شمس الدولة ومن معه، فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا، ووصل المصريّون إلى سور زَبِيد، فلم يجدوا عليه من يمنعهم فنصبوا السلالم، وصعدوا السور، فملكوا البلد عنوةً ونهبوه وأكثروا النهب،

---

(١) هو القاضي الفقيه الشاعر نجم الدين أبو محمد عمارة بن أبي الحسن الحكمي اليمني، صاحب كتاب «النُكت العصر في أخبار الوزراء المصرية».

(٢) في الأوربية: «فاستقل».

وأخذوا عبد النبيّ أسيراً وزوجته المدعوّة بالحُرّة، وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة لا سيّما إذا حجّت، فإنّ فقراء الحاجّ كانوا يجدون عندها صدقة دارّة، وخيراً كثيراً، ومعروفاً عظيماً، [وسلّم شمس الدولة عبد النبيّ][1] إلى بعض أمرائه، يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بني مُنقذ، أصحاب شَيْزَر، وأمره أن يستخرج منه الأموال، فأعطاه منها شيئاً كثيراً، ثم إنّه دلّهم على قبر كان قد صنعه لوالده، وبنى عليه بنية عظيمة، وله هناك دفائن كثيرة، فأعلمهم بها، فاستُخرجت الأموال من هناك وكانت جليلة المقدار، وأمّا الحرة فإنها أيضاً كانت تدلّهم على ودائع لها، فأخذ منها مالاً كثيراً.

ولما ملكوا زبيد واستقرّ الأمر لهم بها، ودان أهلها، وأقيمت فيها الخطبة العبّاسية، أصلحوا حالها، وساروا إلى عدن، وهي على البحر، ولها مَرْسًى عظيم، وهي فُرضة الهند والزّنج والحبشة، وعُمان وكَرمان، وكِيش، وفارس، وغير ذلك، وهي من جهة البرّ من أمنع البلاد وأحصنها، وصاحبها إنسان اسمه ياسر، فلو أقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبين، وإنّما حمله جهله وانقضاء مدّته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم، فسار إليهم وقاتلهم، فانهزم ياسر ومن معه، وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة، فدخلوا البلد قبل أهله، فملكوه، وأخذوا صاحبه ياسراً أسيراً، وأرادوا نهب البلد، فمنعهم شمس الدولة، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنّما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها؛ فلم ينهب أحد منها شيئاً، فبقيت على حالها وثبت مُلكه واستقرّ أمره.

ولمّا مضى إلى عدن كان معه عبد النبيّ صاحب زَبيد مأسوراً، فلما دخل إلى عدن قال: سبحان الله! كنتُ قد علمتُ أنّني أدخل إلى (عدن في موكب كبير)[2] فأنا أنتظر ذلك وأُسَرّ به، ولم أكن أعلم أنّني أدخلها على هذه الحال.

ولمّا فرغ شمس الدولة من أمر عدن عاد إلى زبيد، وحصر ما في الجبل من الحصون، فملك قلعة تَعزّ، وهي من أحصن القلاع، وبها تكون خزائن صاحب زبيد، وملك أيضاً قلعة التَّعْكر والجَنَد[3] وغيرها من المعاقل والحصون، واستناب بعدن عزّ

(١) من الباريسية.

(٢) من (أ).

(٣) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «الحد».

الدين عُثمان بن الزّنجيليّ، وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ، وجعل في كلّ قلعة نائباً من أصحابه، وألقى مُلكهم باليمن جِرَانَهُ[1] ودام، وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد، واستصفى طاعتهم بالعدل والإحسان، وعادت زَبِيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن[2].

ذكر قتل جماعة من المصريّين أرادوا الوثوب بصلاح الدين

في هذه السنة، ثاني رمضان، صلب صلاح الدين يوسف بن أيّوب جماعة ممّن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويّين.

وسبب ذلك أنّ جماعة من شيعة العلويّين منهم عُمارة بن أبي الحسن اليمنيّ الشاعر، وعبد الصمد الكاتب، والقاضي العُوَيرِس[3]، وداعي الدُّعاة وغيرهم من جُند المصريّين ورجالتهم السودان، وحاشية القصر، ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجُنده، واتّفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صَقَلّيّة، ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شيء بذلوه لهم من المال والبلاد، فإذا قصدوا البلاد، فإن خرج صلاح الدين بنفسه إليهم ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلويّة، وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه، فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ثاروا به، وأخذوه أخذاً باليد لعدم النّاصر له والمساعد، وقال لهم عُمارة: وأنا قد أبعدتُ أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسدّ مسدّه وتجتمع الكلمة عليه بعده.

وأرسلوا إلى الفرنج بصقلّيّة والساحل في ذلك، وتقرّرت القاعدة بينهم، ولم يبقَ

---

(١) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «حرانه» مهملة.

(٢) النوادر السلطانية ٤٦، النكت العصرية ٣٥٢ ـ ٣٥٥، سنا البرق الشامي ١/ ١٤٠، زبدة الحلب ٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٥١ ـ ٥٥٥، مفرّج الكروب ١/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠، تاريخ الزمان ١٨٩، المغرب في حلى المغرب ١٤٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٤، العبر ٤/ ٢٠١ و٢٠٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٤٧، دول الإسلام ٢/ ٨٣، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٩٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٢، مرآة الجنان ٣/ ٣٨٤ ، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤، مآثر الإنافة ٢/ ٥٤، الكواكب الدرية ٢٢١ ـ ٢٢٣، الدر المطلوب ٤٢ و٥٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٥٢، تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٤.

(٣) في (ب): «العوريين»، وفي تاريخ الإسلام «العوريس» وكذا في الدر المطلوب والمثبت من (أ) وسنا البرق الشامي، والروضتين، ومفرّج الكروب.

إلاّ رحيل الفرنج، وكان من لُطف الله بالمسلمين أنّ الجماعة المصريّين أدخلوا معهم في هذا الأمير زين الدين علي بن نجا الواعظ، المعروف بابن نُجَيّة، ورتّبوا الخليفة والوزير والحاجب والدّاعي والقاضي، إلاّ أنّ بني رُزّيك قالوا: يكون الوزير منّا؛ وبني شاور قالوا: يكون الوزير منّا؛ فلمّا علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين، وأعلمه حقيقة الأمر، فأمر بملازمتهم، ومخالطتهم، ومواطأتهم على ما يريدون أن يفعلوه، وتعريفه ما يتجدّد أوّلاً بأوّل، ففعل ذلك وصار يطالعه بكلّ ما عزموا عليه.

ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل الشاميّ إلى صلاح الدين بهديّة ورسالة، وهو في الظاهر إليه، والباطن إلى أولئك الجماعة، وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رُسُلهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجليّة الحال، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به[1] من النصارى، وداخله، فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته، فقبض حينئذٍ على المقدّمين في هذه الحادثة منهم: عُمارة، وعبد الصمد، والعُوَيرس[2] وغيرهم، وصلبهم.

وقيل في كشف أمرهم إن عبد الصمد المذكور كان إذا لقي القاضي الفاضل[3] الكاتب الصلاحي يخدمه ويتقرّب إليه بجهده وطاقته، فلقيه يوماً، فلم يلتفت إليه، فقال القاضي الفاضل: ما هذا إلا لسبب. وخاف أن يكون قد صار له باطن من صلاح الدين، فأحضر عليّ بن نجا الواعظ وأخبره الحال، وقال: أريد أن تكشف لي الأمر؛ فسعى في كشفه فلم يرَ له من جانب صلاح الدين شيئاً، فعدل إلى الجانب الآخر، فكشف الحال، وحضر عند القاضي الفاضل وأعلمه، فقال: تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهي الحال إليه؛ فحضر عند صلاح الدين وهو في الجامع، فذكر له الحال، فقام وأخذ الجماعة وقرّرهم، فأقرّوا، فأمر بصلبهم.

وكان عُمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيّام العاضد وقبلها، فلمّا أراد صلبه قام القاضي الفاضل وخاطب صلاح الدين في إطلاقه، وظنّ عُمارة أنّه يحرّض على هلاكه، فقال لصلاح الدين: يا مولانا لا تسمع منه في حقّي؛ فغضب الفاضل وخرج، وقال صلاح الدين لعُمارة: إنّه كان يشفع فيك؛ فندم، ثمّ أخرج عمارة ليُصلب، فطلب أن

---

(١) في الأوربية: «إليه».

(٢) في (ب): «والعرويس».

(٣) هو القاضي محيي الدين عبد الرحيم بن علي بن حسن البيساني المصري.

يمرّ به على مجلس الفاضل، فاجتازوا به عليه، فأغلق بابه ولم يجتمع به، فقال عُمارة:

عبدُ الرّحيمِ قدِ احتَجَبْ — إنّ الخَلاصَ هُوَ العَجَبْ

ثم صُلب هو والجماعة[1]، ونودي في أجناد المصريّين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصي الصعيد، واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله.

وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جُنده فلم يعرض لهم، ولا أعلمهم أنه علم بحالهم.

وأما الفرنج، فإن فرنج صقليّة قصدوا الإسكندرية على ما نذكره إن شاء الله تعالى، لأنّهم لم يتّصل بهم ظهور الخبر عند صلاح الدين.

وأما فرنج الساحل الشامي فإنهم لم يتحرّكوا لعلمهم بحقيقة الحال.

وكان عُمارة شاعراً مفلِقاً، فمن شعره:

لَوْ أنّ قلبي يَوْمَ كاظِمَةٍ[2] معي — لمَلكتُه وكظَمتُ[3] فَيضَ الأدمُعِ
قلبٌ كفاكَ من الصّبابَةِ أنّهُ — لَبّى نداء الظّاعِنين وما دُعي
ما القَلبُ أوّلَ غادِرٍ فألُومَهُ — هي شيمةُ الأيام مُذ[4] خُلقتْ معي
ومن الظنونِ الفاسداتِ توهُّمي — بَعْدَ اليَقينِ بقاءَهُ في أضلعي[5]

وله أيضاً[6]:

[لي] في هوى الرّشإ العُذْريّ إعْذارُ — لم يَبقَ لي مُذْ أقَرّ الدّمعُ إنكارُ

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٤٧ ـ ١٤٩، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦٥، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠، مسالك الأبصار ٢٧/ ورقة ٣١ أ، ب، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٤، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٥٠ ـ ٥١، البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٢، الكواكب الدرية ٢٢٤ ـ ٢٢٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٥٣، تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٥، بدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٤٠.

(٢) في الأوربية: «كاضمة».

(٣) في الأوربية: «وكضمت».

(٤) في الخريدة، والنكت العصرية: «قد».

(٥) الأبيات في خريدة القصر (قسم مصر). والنكت العصرية ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٦) وقالها يمدح الملك المعظم شمس الدولة أخا الملك الناصر صلاح الدين.

لي في القُدودِ[1] وفي لَثْمِ الخُدودِ وفي ضَمّ النُّهُودِ لُبَانَاتٌ[2] وَأوْطَارُ
هذا اختيارِي فوَافِقْ إنْ رضِيتَ بِهِ أوْ لا فدَعْنِي وما أهْوَى وأختارُ[3]

وله ديوان شِعر مشهور في غاية الحُسن والرقّة والملاحة[4].

ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي، رحمه الله

في هذه السنة تُوفي نور الدين محمود[5] بن زنكي بن آقسنْقر، صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر، يوم الأربعاء حادي عشر شوّال، بعلّة الخوانيق، ودُفن بقلعة دمشق، ونُقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق، عند سوق الخواصين.

ومن عجيب الاتّفاق أنه ركب ثاني شوال وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار، فقال له الأمير: سبحان من يعلم هل نجتمع هنا في العام المقبل أم لا؟ فقال نور الدين: لا تقُل هكذا، بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهرٍ أم لا؟ فمات نور الدين، رحمه الله، بعد أحد عشر يوماً، ومات الأمير قبل الحَوْل، فأُخذ كلٌّ منهما بما قاله.

وكان قد شرع يتجهّز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب، فإنّه رأى منه فُتُوراً في غزو الفرنج من ناحيته، وكان يعلم أنه إنما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به، فإنه يؤثر كون الفرنج في الطريق ليمتنع بهم على نور الدين، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغَزاة، وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازي، صاحب الموصل بالشام، ويسير هو بعساكره إلى مصر، فبينما هو يتجهّز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مَرَدّ له.

حكى لي طبيب يُعرف بالطبيب الرحْبيّ وهو كان يخدم نور الدين، وهو من حُذّاق الأطباء، قال: استدعاني نور الدين في مرضه الذي تُوفّي فيه مع غيري من

---

(١) في الأوربية: «القدوم».
(٢) في الأوربية: «لبنات».
(٣) الأبيات في النكب العصرية ٢٦٥.
(٤) انظر عن (عمارة) في تاريخ الإسلام.
(٥) انظر عن وفاة نور الدين محمود في: تاريخ ابن سباط ١/١٣٥ ـ ١٣٨ وفيه حشدت عشرات المصادر لترجمته وكذا في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٦٩ هـ).

الأطباء، فدخلنا إليه وهو في بيت صغير بقلعة دمشق، وقد تمكّنت الخوانيق منه، وقارب الهلاك، فلا يكاد يُسمع صوته؛ وكان يخلو فيه للتعبّد، فابتدأ به المرض، فلم ينتقل عنه، فلمّا دخلنا ورأينا ما به قلتُ له: كان ينبغي أن لا تؤخّر إحضارنا إلى أن يشتدّ بك المرض الآن، وينبغي أن تعجّل الانتقال من هذا الموضع إلى مكانٍ فسيح مُضيء، فله أثر في هذا المرض. وشرعنا في علاجه، وأشرنا بالفصد، فقال: ابن ستّين لا يفتصد؛ وامتنع منه، فعالجناه بغيره، فلم ينجع فيه الدواء، وعظُم الداء، ومات، رحمه الله ورضي عنه.

وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلاّ في حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلو العينين، وكان قد اتّسع مُلكه جدّاً، وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيّوب وملكها، وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وطبّق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله. وقد طالعتُ سِيَر الملوك المتقدّمين، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرّياً منه للعدل.

وقد أتينا على كثيرٍ من ذلك في كتاب «الباهر» من أخبار دولتهم، ولْنَذْكُرْ هاهنا نبذةً مختصرة لعلّ يقف عليها من له حكم فيقتدي به؛ فمن ذلك زُهده وعبادته وعلمه، فإنه كان لا يؤكل ولا يلبس [ولا يتصرّف][1] في الذي يخصّه [إلا][2] من ملكٍ كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له، منها يحصل له في السنة نحو عشرين ديناراً، فلمّا استقلّتها قال: ليس لي إلاّ هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنّم لأجلك.

وكان يصلّي كثيراً بالليل، وله فيه أوراد حسنة، وكان كما قيل:

جمعَ الشّجاعة والخشُوعَ لِرَبّه ... ما أحسنَ المحرابَ في المحرابِ

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصّبٌ، وسمع الحديث، وأسمعه طلباً للأجر.

وأما عدله، فإنه لم يترك في بلاده، على سعتها، مكساً ولا عُشراً بل أطلقها

---

(١) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٢) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل؛ وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها؛ وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشّهرَزُوري يقول: قد جئتُ محاكَماً، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم؛ وظهر الحقّ له، فوهبه الخصم الذي أحضره، وقال: أردتُ أن أترك له ما يدّعيه، إنما خفتُ أن يكون الباعث لي على ذلك الكِبْر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرتُ، ثم وهبته ما يدّعيه.

وبنى دار العدل في بلاده، وكمان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم، ولو أنّه يهوديّ، من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده.

وأما شجاعته، فإليها النهاية، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشَين ليقاتل بها، فقال له القُطب النّشاويّ الفقيه: بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإن أُصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد[1] إلاّ أخذه السيف. فقال له نور الدين: ومن محمودٌ حتى يقال له هذا؟ من قبلي من حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذي لا إله إلاّ هو.

وأما ما فعله من المصالح، فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها، فمنها دمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وشَيْزَر، وبعلبك[2] وغيرها، وبنى المدارس الكثيرة للحنفيّة والشافعيّة، وبنى الجامع النُّوريّ بالموصل، وبنى البيمارستانات والخانات في الطُّرق، وبنى الخانكاهات للصوفية في جميع البلاد، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة. سمعتُ أنّ حاصل وقفه كلّ شهر تسعة آلاف دينار صُورَيّ. وكان يُكرم العلماء وأهل الدين ويعظّمهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، وينبسط معهم، ولا يردّ لهم قولاً، ويكاتبهم بخطّ يده؛ وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه، وبالجملة فحسناتُه كثيرة ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب.

ذكر مُلك ولده الملك الصالح

لما تُوفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالمُلك بعده. وكان عمره إحدى عشرة سنة، وحلف له الأمراء والمقدّمون بدمشق، وأقام بها، وأطاعه الناس

---

(١) في (أ): «لا يبقى لمسلمين أحد» وفي (ب): «يبقى أحد».

(٢) وزاد ابن سباط في تاريخه ١/١٣٧ أنه بنى جسر كامد اللوز بالبقاع العزيزي.

بالشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له بها، وضرب السكّة باسمه، وتولّى تربيته الأمير شمس [الدين] محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم، وصار مدبّر دولته؛ فقال له كمال الدين بن الشّهرزوريّ ولمن معه من الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر هو من مماليك نور الدين، ونوّابه أصحاب نور الدين، والمصلحة أن نشاوره في الذي نفعله، ولا نُخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حُجّة علينا، وهو أقوى منا، لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر؛ فلم يوافق هذا القول أغراضهم، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم، فلم يمضِ غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزّيه ويهنئه بالملك، وأرسل دنانير مصريّة عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه.

فلما سار سيف الدين غازي، صاحب الموصل، وملك البلاد الجزريّة، على ما نذكره، أرسلا صلاح الدين أيضاً إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصْدَ سيف الدين بلادَه وأخذها، ليحضر في خدمته ويكف سيف الدين، وكتب إلى كمال الدين والأمراء يقول: لو أنّ نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي، أو يثق به مثل ثقته بي لسلّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفرّدتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأُجازي إنعام والده بخدمة يظهر أثرها، وأجازي كلاًّ منكم على سوء صنيعه في ترك الذَّبّ عن بلاده.

وتمسك ابن المقدم وجماعة الأمراء بالملك الصالح، ولم يرسلوه إلى حلب، خوفاً أن يغلبهم عليه شمس الدين عليّ بن الداية، فإنه كان أكبر الأمراء النوريّة، وإنما منعه من الاتصال به والقيام بخدمته مرض لحقه، وكان هو وإخوته بحلب، وأمرها إليهم، وعساكرها معهم في حياة نور الدين وبعده، ولمّا عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع به البلاد الجزريّة من سيف الدين ابن عمّه قُطْب الدين، فلم يمكّنه الأمراء الذين معه من الانتقال إلى حلب لما ذكرناه[1].

ذكر مُلك سيف الدين البلاد الجزريّة

كان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقيّة، الموصل وديار

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٦٩، الروضتين ج ١ ق ٢/٥٩٧، مفرّج الكروب ٢/١٨.

الجزيرة وغيرها، يستدعي العساكر منها للغزاة، والمراد غيرها، وقد تقدّم ذكره، فسار سيف الدين غازي بن قُطْب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل، في عساكره، وعلى مقدّمته الخادم سعد الدين كمشْتَكين الذي كان قد جعله نور الدين بقلعة الموصل مع سيف الدين، فلمّا كانوا ببعض الطريق وصلت الأخبار بوفاة نور الدين، فأما سعد الدين فإنه كان في المقدّمة، فهرب جريدة.

وأما سيف الدين فأخذ كل ما كان له من بَرْك وغيره، وعاد إلى نصيبين فملكها، وأرسل الشحَن إلى الخابور فاستولوا عليه، وأقطعه، وسار هو إلى حرّان فحصرها عدّة أيام، وبها مملوك لنور الدين يقال له قايماز الحرّانيّ، فامتنع بها، وأطاع بعد ذلك على أن تكون حرّان له، ونزل إلى خدمة سيف الدين، فقبض عليه وأخذ حرّان منه، وسار إلى الرُّها فحصرها وملكها، وكان بها خادم خصيّ أسود لنور الدين فسلّمها وطلب عوضها قلعة الزّعفران من أعمال جزيرة ابن عمر، فأُعطيها، ثم أُخذت منه، ثم صار إلى أن يستعطي ما يقوته.

وسيّر سيف الدين إلى الرَّقة فملكها، وكذلك سروج، واستكمل ملك جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبَر، فإنّها كانت منيعة، وسوى رأس عين، فإنها كانت لقُطْب الدين، صاحب ماردين، وهو ابن خال سيف الدين، فلم يتعرض إليها.

وكان شمس الدين عليُّ بن الداية، وهو أكبر الأمراء النوريّة، بحلب مع عساكرها، فلم يقدر على العبور إلى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد، لفالج كان به، فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصالح، فلم يرسل إليه، لما ذكرناه؛ ولما ملك سيف الدين الديار الجزرية قال له فخر الدين عبد المسيح، وكان قد وصل إليه من سِيواس بعد موت نور الدين، وهو الذي أقرّ له الملك بعد أبيه قُطب الدين، فظنّ أنّ سيف الدين يرعى له ذلك، فلم يجْنِ ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء، قال له: الرأي أن تعبر إلى الشام فليس به مانع؛ فقال له أكبر أمرائه، وهو أميرٌ يقال له عزّ الدين محمود المعروف بزُلفندار: قد ملكتَ أكثر ما كان لأبيك، والمصلحة أن تعود؛ فرجع إلى قوله، وعاد إلى الموصل ليقضي الله أمراً كان مفعولاً[1].

---

(1) التاريخ الباهر ١٧٥، الروضتين ج ١ ق ٥٩١/٢، تاريخ الزمان ١٨٩، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، زبدة الحلب ١١/٣ ـ ١٢، مفرّج الكروب ٥/٢، سنا البرق الشامي ١٦٧/١، الدر المطلوب ٥٧، =

ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها

لما مات نور الدين محمود، صاحب الشام، اجتمعت الفرنج وساروا إلى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحصروها[1]، فجمع شمس الدين محمد بن المقدّم العسكر عنده بدمشق، فخرج عنها، فراسلهم، ولاطفهم، ثم أغلظ لهم في القول، وقال لهم: إن أنتم صالحتمونا وعُدتم عن بانياس، فنحن على ما كنا عليه، وإلا فنرسل إلى سيف الدين، صاحب الموصل، ونصالحه، ونستنجده، ونرسل إلى صلاح الدين بمصر فنستنجده، ونقصد بلادكم من جهاتها كلّها، ولا تقومون لنا. وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين، والآن فقد زال ذلك الخوف، وإذا طلبناه إلى بلادكم فلا يمتنع. فعلموا صدْقه، فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى أُطلقوا لهم كانوا عند المسلمين، وتقرّرت الهدنة.

فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه، وكتب إلى الملك الصالح والأمراء الذين معه يقبّح لهم ما فعلوه ويبذل من نفسه قصْدَ بلاد الفرنج ومقارعتهم وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح؛ وكان قصده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام ليتملّك البلاد، والأمراء الشاميّون إنما صالحوا الفرنج خوفاً منه ومن سيف الدين غازي، صاحب الموصل، فإنه كان قد أخذ البلاد الجَزَريّة، وخافوا منه أن يعبر إلى الشام، فرأوا صلح الفرنج أصلح من أن يجيء هذا من الغرب، وهذا من الشرق، وهم مشغولون عن ردّهم[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرّم، وقع الحريق ببغداد فاحترق أكثر الظَّفَرية ومواضع غيرها، ودام الحريق إلى بُكرة وطفئت النار[3].

وفيها، في شعبان، بنى ابن سنكا، وهو ابن أخي شُملة صاحب خُوزستان، قلعة

= الأعلاق الخطيرة ٢/ ٤٨ و٣ق ٥٧/١ و٧٩ و١٠٧ و١٣٤، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٦، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٣، الدر المنتخب ١٧٥، تاريخ ابن سباط ١/ ١٣٩.

(١) في الأوربية: «فحصرها».

(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) المنتظم ١٨/ ٢٠٢.

بالقرب من الماهكي ليتقوّى بها على الاستيلاء على تلك الأعمال، فسيّر إليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه، فالتقوا وحمل بنفسه على الميمنة فهزمها، واقتتل الناس قتالاً عظيماً، وأسر ابن أخي شُملة، وحمل رأسه إلى بغداد، فعُلّق بباب النّوبي، وهُدمت القلعة[1].

وفيها، في رمضان، توالت الأمطار في ديار بكر والجزيرة والموصل، فدامت أربعين يوماً ما رأينا الشمس فيها غير مرّتين، كلّ مرّة مقدار لحظة، وخربت المساكن وغيرها، وكثر الهدم، ومات تحته كثير من الناس، وزادت دجلة زيادةً عظيمةً، وكان أكثرها ببغداد، فإنها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بُنيت بغداد بذراع وكسر، وخاف الناس الغرق، وفارقوا البلد، وأقاموا على شاطىء دجلة خوفاً من انفتاح القورج وغيره، وكانوا كلّما انفتح موضع[2] بادروا بسدّه، ونبع الماء في البلاليع، وخرّب كثيراً من الدُّور، ودخل الماء إلى البيمارستان العضُديّ، ودخلت السفن من الشبابيك التي له، فإنّها كانت قد تقلّعت، فمنّ الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد أن أشرفوا على الغرق[3].

وفيها، في جمادى الأولى، كانت الفتنة ببغداد بين قُطْب الدين قايماز والخليفة، وسببها أن الخليفة أمر بإعادة عضد الدين بن رئيس الرؤساء إلى الوزارة، فمنع منه قُطْب الدين، وأغلق باب النوبي وباب العامّة، وبقيت دار الخليفة كالمحاصرة، فأجاب الخليفة إلى ترك وزارته، فقال قُطب الدين: لا أقنع إلا بإخراج عضُد الدين من بغداد؛ فأُمر بالخروج منها، فالتجأ[4] إلى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل، فأخذه إلى رِباطه وأجاره، ونقله إلى دار الوزير بقُطفتا، فأقام بها، ثمّ عاد إلى بيته في جُمادى الآخرة.

وفيها سقط الأمير أبو العباس أحمد بن الخليفة، وهو الذي صار خليفة، من قبّة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح، فألقى نفسه بعده، وسلِم ابن الخليفة

---

(١) المنتظم ١٨/ ٢٠٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٤٥.

(٢) في الأوربية: «موضعاً».

(٣) المنتظم ١٨/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧، دول الإسلام ٢/ ٨٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٤٥ ـ ٤٦، البداية والنهاية ١/ ٢٧٣، تاريخ الخلفاء ٤٤٧.

(٤) في الأوربية: «فالتجى».

ونجاح[1]، فقيل لنجاح: لِمَ ألقيتَ نفسك؟ فقال: ما كنتُ أريد البقاء بعد مولاي؛ فرعى[2] له الأمير أبو العباس ذلك؛ فلمّا صار خليفة جعله شرابيّاً، وصارت الدولة جميعها بحكمه، ولَقّبه الملك الرحيم عزّ الدين، وبالغ في الإحسان إليه والتقديم له، وخدمه جميع الأمراء بالعراقِ والوزراء وغيرهم[3].

وفيها، في رمضان، وقع ببغداد بَرَدٌ كبار ما رأى الناس مثله، فهدم الدُّور، وقتل جماعة من الناس وكثيراً من المواشي، فُوزِنت بردة منها فكانت سبعة أرطال، وكان عامّته كالنّارَنْج يكسّر الأغصان. هكذا ذكره أبو الفرج بن الجَوزيّ في «تاريخه»[4]، والعهدة عليه.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين المؤيّد، صاحب نيسابور، وبين شاه مازَنْدَران، قُتل فيها كثير من الطائفتين، فانهزم شاه مازندران، ودخل المؤيّد بلد الدّيلم وخرّبه وفتك بأهله وعاد عنه.

وفيها وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرْخ، وسببها أنّ الماء لما زاد سكر أهل الكرْخ سكْراً ردّ الماء عنهم، فغرق مسجد فيه شجرة، فانقلعت، فصاح أهل الكرخ: انقلعت الشجرة، لعن الله العشرة! فقامت الفتنة، فتقدّم الخليفة إلى علاء الدين تنامش بكفّهم، فمال على أهل باب البصرة لأنّه كان شيعياً، وأراد دخول المحلّة، فمنعه أهلها، وأغلقوا الأبواب ووقفوا على السور؛ وأراد إحراق الأبواب، فبلغ ذلك الخليفة فأنكره أشدّ إنكار، وأمر بإعادة تنامش، فعاد، ودامت الفتنة أسبوعاً، ثمّ انفصل الحال من غير توسّط سلطان.

وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينيّة وقصد بلاد قلج أرسلان، فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون، فلمّا رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده، وقد قُتل من عسكره وأُسر جماعة كثيرة.

---

(١) في الأوربية: «ونجا».

(٢) في الأوربية: «فرعا».

(٣) المنتظم ١٨/٢٠٣ (باختصار).

(٤) المنتظم ١٨/٢٠٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ)، دول الإسلام ٢/٨٢، البداية والنهاية ١٢/٢٧٣، تاريخ الخميس ٢/٤٠٩، تاريخ الخلفاء ٤٤٧.

[الوفيات]

وفيها في جمادى الأولى، مات أحمد بن عليّ بن المعمّر بن محمد بن عبد الله أبو عبد الله العلويّ الحسينيّ نقيب العلويّين ببغداد، وكان يلقّب الظاهر، وسمع الحديث الكثير ورواه، وكان حسنة أهل بغداد.

وفيها تُوفي الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد العطّار الهمذانيّ، سافر الكثير في طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة، وكان من أعيان المحدّثين في زمانه، وكان له قبول عظيم ببلده عند العامّة والخاصّة.

وفيها توفي أبو محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدّهان النّحْويّ البغدادي بالموصل، وكان إماماً في النحو، له التصانيف المشهورة منها «الغرّة» وغيرها.

٥٧٠
ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

ذكر وصول أسطول صَقلية إلى مدينة الإسكندرية وانهزامه عنها

في هذه السنة، في المحرّم، ظفر أهل الإسكندرية وعسكر مصر بأسطول الفرنج من صقليّة، وكان سبب ذلك ما ذكرناه من [إرسال] أهل مصر إلى ملك الفرنج بساحل الشام، وإلى صاحب صقليّة، ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر، فجهّز صاحب صقليّة أسطولاً كثيراً، عدّته مائتا شيني تحمل الرجّالة، وستّ وثلاثون طريدة تحمل الخيل، وستّة مراكب كبار تحمل آلة الحرب، وأربعون مركباً تحمل الأزواد، وفيها من الراجل خمسون ألفاً، ومن الفرسان ألف وخمسمائة، منها خمسمائة تركبلي[(١)].

وكان المقدّم عليهم ابن عم صاحب صقليّة، وسيّره إلى الإسكندرية من ديار مصر، فوصلوا إليها في السادس والعشرين من ذي الحجّة سنة تسع وستّين، على حين غفلة من أهلها وطمأنينة، فخرج أهل الإسكندريّة بسلاحهم وعدّتهم ليمنعوهم من النّزول، وأبعدوا عن البلد، فمنعهم الوالي عليهم من ذلك، وأمرهم بملازمة السور، ونزل الفرنج إلى البرّ مما يلي البحر والمنارة وتقدّموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمجانيق وقاتلوا أشدّ قتال، وصبر لهم أهل البلد، ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحُسن سلاحهم ما راعهم.

وسُيّرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم، ودام القتال أوّل يوم إلى آخر النهار، ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني، وجدّوا، ولازموا الزَّحف، حتى وصلت الدبابات إلى قرب السور، ووصل ذلك اليوم من العساكر

---

(١) في النسخة رقم ٧٤٠ «تركلي»، وفي الباريسية: «ركلي».

الإسلاميّة كلّ من كان في أقطاعه، وهو قريب من الإسكندرية، فقويت بهم نفوس أهلها، وأحسنوا القتال والصبر، فلمّا كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كلّ جانب، وهم غارّون، وكثُر الصياح من كل الجهات، فارتاع الفرنج واشتدّ القتال، فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها، وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم، وظهرت أماراته، ولم يزالوا مباشرين القتال إلى آخر النهار، ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظَّفَر وقوّتهم، وفشل الفرنج وفتور حربهم، وكثرة القتل والجراح في رجّالتهم.

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره، وسيّر مملوكاً له ومعه ثلاث[1] جنائب ليجدّ السير عليها إلى الإسكندرية يبشّر بوصوله، وسيّر طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها، واحتياطاً لها، فسار ذلك المملوك، فوصل الإسكندريّة من يومه وقت العصر، والنّاس قد رجعوا من القتال، فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى [القتال، وقد][2] زال ما بهم من تعب وألم الجراح، وكلّ منهم يظنّ أن صلاح الدين معه، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله.

وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره، فسُقط في أيديهم، وازدادوا تعباً وفتوراً، فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام، ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة، وكثُر القتل في رجّالة الفرنج، فهرب كثير منهم إلى البحر، وقرّبوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها، فسلم بعضهم وركب، وغرق بعضهم، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت، فخاف الباقون من ذلك، فولّوا هاربين، واحتمى ثلاثمائة من فرسان الفرنج على رأس تلّ، فقاتلهم المسلمون إلى بُكرة، ودام القتال إلى أن أضحى النهار، فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيلٍ وأسير، وكفى الله المسلمين شرّهم، وحاق بالكافرين مكرُهم[3].

---

(١) في الأوربية: «ثلاثة».

(٢) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٣) النوادر السلطانية ٤٨ ـ ٤٩، سنا البرق الشامي ١/١٦٩ ـ ١٧٥، مفرّج الكروب ٢/ ١٢ ـ ١٤، الروضتين ج ١ ق ٢/٥٩٨ ـ ٦٠٠، الدر المطلوب ٤٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٦٩ هـ) ص ٥٢ =

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

وفي أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر، واجتمع إليه من رعيّة البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير، وكان هناك أمير من الصلاحيّة في أقطاعه، وهو أخو الأمير أبي الهيجاء السمين، فقتله الكنز، فعظُم قتله على أخيه، وهو من أكبر الأمراء وأشجعهم، فسار إلى قتال الكنز، وسيّر معه صلاح الدين جماعة من الأمراء، وكثيراً من العسكر، ووصلوا إلى مدينة طَوْد، فاحتمت عليهم، فقاتلوا مَن بها، وظفروا بهم، وقتلوا منهم كثيراً، وذلّوا بعد العزّ وقُهروا واستكانوا.

ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود إلى الكنز، وهو في طغيانه يَعْمه، فقاتلوه، فقُتل هو ومَن معه من الأعراب وغيرهم، وأمنت بعده البلاد واطمأنّ أهلها[1].

ذكر مُلك صلاح الدين دمشق

في هذه السنة، سلخ ربيع الأول، ملك صلاح الدين يوسف بن أيّوب مدينة دمشق. وسبب ذلك أن نور الدين لمّا مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق، وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازي إلى حلب، كما ذكرناه، فأقام بها عند شمس الدين بن الداية، فلمّا استولى سيف الدين على البلاد الجزريّة خاف ابن الداية أن يُغير إلى حلب فيملكها، فأرسل سعد الدين إلى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر إلى حلب، فلمّا قارب دمشق سيّر إليه شمس الدين محمد بن المقدّم عسكراً فنهبوه، وعاد منهزماً إلى حلب، فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أُخذ منه، ثمّ إنّ الأمراء الذين بدمشق نظروا في المصلحة، فعلموا أن مسيره إلى حلب أصلحُ للدولة من مقامه بدمشق، فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح، فجهّزه وسيّره، وعلى نفسها[2] بَراقِش تجني، فسار إلى

= ـ ٥٣، البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٧، عقد الجمان ١٢/ ١٩٤ ب، ١٩٥ أ.

(١) سنا البرق الشامي ١/ ١٧٥ ـ ١٧٦، النوادر السلطانية ٤٧ ـ ٤٨، مفرّج الكروب ٢/ ١٦ ـ ١٧، مسالك الأبصار ٢٧/ ورقة ٣٢ أ، البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨، مرآة الجنان ٣/ ٤٤٢، عقد الجمان ١٢/ ورقة ١٩٥ ب و٢٠٨ أ، ب. و«الكنز» هو كنز الدولة حاكم أسوان. (البيان والإعراب للمقريزي ص ٥٠).

(٢) في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «نفسها».

دمشق في المحرّم من هذه السنة، وأخذ الملك الصالح وعاد إلى حلب، فلمّا وصلوا إليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته، وعلى رئيس بن الخشّاب رئيس حلب ومقدّم الأحداث بها، ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكّن من ذلك.

واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح، فخافه ابن المقدّم وغيره من الأمراء الذين بدمشق وقالوا: إذا استقرّ أمر حلب أخذ الملك الصالح وسار به إلينا، وفعل مثل ما فعل بحلب؛ وكاتبوا سيف الدين غازي صاحب الموصل ليعبر الفرات إليهم ليسلّموا إليه دمشق، فلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمّه وعسكر حلب من وراء ظهره فيهلك. أشار عليه بهذا زلفندار عزّ الدين، والجبان يُقدّر البعيد من الشرّ قريباً، ويرى الجبن حزماً، كما قال:

يـرى الجبنـاءُ أنّ الجبـنَ حَـزْمٌ   وتلـكَ طَبيعـةُ الـرّجـلِ الجبـانِ

فلما أشار عليه بهذا الرأي زلفندار قَبِلَهُ وامتنع من قصد دمشق، وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على ما أخذه من البلاد، فلمّا امتنع عن العبور إلى دمشق عظُم خوفهم، وقالوا: حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير إلينا؛ فكاتبوا حينئذٍ صلاح الدين يوسف بن أيّوب، صاحب مصر، واستدعوه ليملّكوه عليهم، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدّم، ومن أشبه أباه فما ظلم، وقد ذكرنا مُخامرة أبيه في تسليم سِنجار سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين بذلك لم يلبث، وسار جريدةً في سبع مائة فارس والفرنج في طريقه، فلم يُبالِ بهم، فلمّا وطىء أرض الشام قصد بُصرى، وكان [بها] حينئذٍ صاحبها وهو من جملة من كاتبه، فخرج ولقيه، فلمّا رأى قلّة من معه خاف على نفسه، واجتمع بالقاضي الفاضل وقال: ما أرى معكم عسكراً، وهذا بلد عظيم لا يُقصد بمثل هذا العسكر، ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد، فإن كان معكم مالٌ سهل الأمر. فقال: معنا مالٌ كثيرٌ يكون خمسين ألف دينار؛ فضرب صاحب بُصرى على رأسه وقال: هلكتم وأهلكتمونا؛ وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار.

ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج كلّ من بها من العسكر إليه، فلقوه

وخدموه، ودخل البلد، ونزل في دار والده المعروفة بدار العقيقي، وكانت القلعة بيد خادم اسمه رَيحان، فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشّهرزوريّ، وهو قاضي البلد والحاكم في جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك، وأرسله إلى رَيحان ليسلّم القلعة إليه، وقال: أنا مملوك الملك الصالح، وما جئتُ إلا لأنصره وأخدمه، وأعيد البلاد التي أُخذت منه إليه؛ وكان يخطب له في بلاده كلّها، فصعد كمال الدين إلى ريحان، ولم يزل معه حتى سلّم القلعة، فصعد صلاح الدين إليها، وأخذ ما فيها من الأموال، وأخرجها واتّسع بها وثبت قدمه، وقويت نفسه، وهو مع هذا يُظهر طاعة الملك الصالح، ويخاطبه بالمملوك، والخطبة والسكّة باسمه[1].

ذكر مُلك صلاح الدين مدينتي حِمص وحماة

لما استقرّ مُلك صلاح الدين لدمشق، وقرّر أمرها، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طُغْدُكين[2] بن أيّوب، وسار إلى مدينة حِمص مستهلّ جُمادى الأولى، وكانت حمص وحماة قلعة بَعرين وسَلَميّة وتلّ خالد والرُّها من بلد الجزيرة في أقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزَّعفرانيّ، فلمّا مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته في أهلها، ولم يكن له في قلاع هذه البلاد حكم إنما فيها وُلاة لنور الدين. وكان بقلعة حمص والٍ يحفظها، فلما نزل صلاح الدين على حمص، حادي عشر الشهر المذكور، راسل من فيها بالتسليم، فامتنعوا، فقاتلهم من الغد، فملك البلد وأمّن أهله، وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة إلى أن عاد من حلب، على ما نذكره إن شاء الله، وترك بمدينة حمص من يحفظها، ويمنع من بالقلعة من التصرّف، وأن تصعد إليهم ميرة[3].

وسار إلى مدينة حماة، وهو في جميع أحواله لا يُظهر إلاّ طاعة الملك الصالح بن نور الدين، وأنّه إنما خرج لحفظ بلاده[4] عليه من الفرنج، واستعادة ما

---

(1) النوادر السلطانية ٥٠، سنا البرق الشامي ١/١٧٦ ـ ١٧٧، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/٣٢٦ ـ ٣٢٨، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٠٣ ـ ٦٠٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٧ ـ ٥٨، البداية والنهاية ١٢/٢٢٨.

(2) ويقال: «طغتكين».

(3) النوادر السلطانية ٥٠، سنا البرق الشامي ١/٤١٧، النوادر السلطانية ٥٠، مفرّج الكروب ٢/٢٢ ـ ٢٣.

(4) في الأوربية: «بلاد».

أخذه سيف الدين صاحب الموصل من البلاد الجزريّة، فلمّا وصل إلى حماة ملك المدينة مُستهلّ جُمادى الآخرة، وكان بقلعتها الأمير عزّ الدين جُورديك، وهو من المماليك النوريّة، فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين، فأرسل إليه صلاح الدين يعرّفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح، وإنما يريد حفظ بلاده عليه، فاستحلفه جُورديك على ذلك فحلف وسيّره إلى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح، وفي إطلاق شمس الدين عليّ وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن، فسار جُورديك إلى حلب، واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها، فلمّا وصل جُورديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه، فلما علم أخوه بذلك سلّم القلعة إلى صلاح الدين فملكها[1].

ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملكه قلعة حمص وبعلبك

لما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب فحصرها ثالث جُمادى الآخرة، فقاتله أهلها، وركب الملك الصالح، وهو صبيّ عمره اثنتا[2] عشرة سنة، وجمع أهل حلب وقال لهم: قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبّته لكم وسيرته فيكم، وأنا يتيمكم، وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى، ولا الخلق؛ وقال من هذا كثيراً وبكى فأبكى الناس، فبذلوا له الأموال والأنفس، واتّفقوا على القتال دونه، والمنع عن بلده، وجدّوا في القتال، وفيهم شجاعة، قد ألفوا الحرب واعتادوها، حيث كان الفرنج بالقرب منهم، فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عند جبل جوشن[3]، فلا يقدر على القرب من البلد.

وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدّم الإسماعيلية، وبذل له أموالاً كثيرة ليقتلوا صلاح الدين، فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره، فلما وصلوا رآهم أمير اسمه

---

(١) التاريخ الباهر ١٧٦، سنا البرق الشامي ١/١٧٦ ـ ١٨٣، النوادر السلطانية ٥٠ ـ ٥٢، مفرّج الكروب ٢/١٧ ـ ٢٠، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٠٢ ـ ٦١٤، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، تاريخ الزمان ١٩٠، المغرب في حلى المغرب ١٤٤ ـ ١٤٦، زبدة الحلب ٣/١٤ ـ ٢٢، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٦ ـ ٥٧، العبر ٤/٢٠، دول الإسلام ٢/٨٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٨، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٣ ـ ٨٤، مرآة الجنان ٣/٣٩٢، البداية والنهاية ١٢/٢٨٧ ـ ٢٩٠، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٥٥ ـ ٢٥٦، السلوك ج ١ ق ١/٥٨ ـ ٥٩، شفاء القلوب ٨٤ ـ ٨٧، تاريخ ابن سباط ١/١٠٤.

(٢) في الأوربية: «اثنا».

(٣) في طبعة صادر ١١/٤١٩ «حوش» بالحاء المهملة وهو غلط.

خمارتِكين، صاحب قلعة أبي قُبَيس، فعرفهم لأنه جارهم في البلاد، كثير الاجتماع بهم والقتال لهم، فلما رآهم قال لهم: ما الذي أقدمكم وفي أيّ شيء جئتم؟ فجرحوه جراحات مثخنة، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله، فقُتل دونه، وقاتل الباقون من الإسماعيلية، فقتلوا جماعة ثم قُتلوا[1].

وبقي صلاح الدين محاصراً لحلب إلى سلخ جُمادى الآخرة، ورحل عنها مستهلّ رجب، وسبب رحيله أنّ القُمّص ريمند الصّنجيلي، صاحب طرابلس، كان قد أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة، وبقي في الحبس إلى هذه السنة، فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صُوَرِيّة وألف أسير، فلما وصل إلى بلده اجتمع الفرنج عليه يُهنّئونه بالسلامة، وكان عظيماً فيهم من أعيان شياطينهم، فاتّفق أنّ مُرّي[2] ملك الفرنج، لعنه الله، مات أوّل هذه السنة، وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأياً ومكراً ومكيدةً، فلما تُوفي خلّف ابناً مجذوماً عاجزاً[3] عن تدبير الملك، فملّكه الفرنج صورة لا معنى تحتها، وتولّى القُمّص ريمُنْد تدبير المُلك، وإليه الحلّ والعقد، عن أمره يصدرون، فأُرسل إليه من بحلب يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد التي بيد صلاح الدين ليرحل عنهم، فسار إلى حمص ونازلها سابع رجب، فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب، فوصل إلى حماة ثامن رجب، بعد نزول الفرنج على حمص بيوم، ثم رحل إلى الرَّسْتن، فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص، ووصل صلاح الدين إليها، فحصر القلعة إلى أن ملكها في الحادي والعشرين من شعبان من السنة، فصار أكثر الشام بيده[4].

ولما ملك حمص سار منها إلى بعلبك، وبها خادم اسمه يُمن، وهو والٍ عليها من أيام نور الدين، فحصرها صلاح الدين، فأرسل يُمن يطلب الأمان له ولمن عنده،

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢/ ٦١٠ ـ ٦١١ و٦١٣ و٦١٤، مفرّج الكروب ٢/ ٢٤، سنا البرق الشامي ١/ ١٨١، البداية والنهاية ١٢/ ٢٨٨، تاريخ ابن سباط ١/ ١٤٠، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٢٨، المغرب في حلى المغرب ١٤٥.

(٢) هو «أملريك» ملك بيت المقدس.

(٣) هو «بلدوين الرابع».

(٤) سنا البرق الشامي ١/ ١٨١ ـ ١٨٢، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٧، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٧٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٩، مرآة الجنان ٣/ ٣٩٢، تاريخ طرابلس (تأليفنا) ١/ ٥٢١ ـ ٥٢٢.

فأمّنهم صلاح الدين، وسلم القلعة رابع شهر رمضان من السنة المذكورة[١].

ذكر حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود، يستنجده على صلاح الدين، ويطلب أن يعبر إليه ليقصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه، فجمع سيف الدين عساكره، وكاتب أخاه عماد الدين زنكي، صاحب سنجار، يأمره أن ينزل إليه بعساكره ليجتمعا على المسير إلى الشام، فامتنع من ذلك.

وكان صلاح الدين قد كاتب عماد الدين وأطمعه في الملك لأنه هو الكبير، فحمله الطمع على الامتناع على أخيه، فلما رأى سيف الدين امتناعه جهّز أخاه عز الدين مسعوداً في عسكر كثير، هو معظم عسكره، وسيّره إلى الشام، وجعل المقدّم على العسكر مع أخيه عز الدين محمود، ويلقب أيضاً زلفندار، وجعله المدبر للأمر، وسار سيف الدين إلى سنجار فحصرها في شهر رمضان وقاتلها، وجد في القتال، وامتنع عماد الدين بها، وأحسن حفظها والذّب عنها، فدام الحصار عليها، فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذي مع أخيه عزّ الدين مسعود من صلاح الدين، فراسل حينئذٍ أخاه عماد الدين، وصالحه على ما بيده، ورحل إلى الموصل، وثبت قدم صلاح الدين بعد هذه الهزيمة، وخافه الناس، وتردّدت الرسل بينه وبين سيف الدين (غازي في الصلح)[٢]، فلم يستقرّ حال[٣].

ذكر انهزام عسكر سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب

في هذه السنة سار عسكر سيف الدين مع أخيه عز الدين وعزّ الدين زلفندار إلى حلب، واجتمع معهما عساكر حلب، وساروا كلّهم إلى صلاح الدين ليحاربوه، فأرسل

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٨٣، مفرّج الكروب ٢/٢٩ ـ ٣٠، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٣١، زبدة الحلب ٢/٢٢ ـ ٢٣، نهاية الأرب ٢٨/٣٧٦، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٩، مرآة الجنان ٣/٣٩٢.

(٢) من (أ).

(٣) النوادر السلطانية ٥٠ ـ ٥١، سنا البرق الشامي ١/١٨٦ ـ ١٩١، مفرّج الكروب ٢/٣١ ـ ٣٣، زبدة الحلب ٣/٢٣ ـ ٢٦، البداية والنهاية ١٢/٢٩٠.

صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة، وأن يقرّ بيده مدينة دمشق، وهو فيها نائب الملك الصالح، فلم يُجب إلى ذلك، وقال: لا بدّ من تسليم جميع ما أخذ من بلاد الشام والعود إلى مصر.

وكان صلاح الدين يجمع عساكره ويتجهز للحرب، فلما امتنع سيف الدين من إجابته إلى ما بذل سار في عساكره إلى عز الدين مسعود وزلفندار[١]، فالتقوا تاسع عشر رمضان، بالقرب من مدينة حماة، بموضع يقال له قُرون حماة، وكان زلفندار جاهلاً بالحروب والقتال، غير عالم بتدبيرها، مع جُبن فيه، إلاّ أنه قد رُزق سعادةً وقبولاً من سيف الدين، فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفيّ، وانهزموا لا يلوي أخ على أخيه، وثبت عز الدين أخو سيف الدين بعد انهزام أصحابه، فلما رأى صلاح الدين ثباته قال: إما أن هذا أشجع الناس، أو أنه لا يعرف الحرب؛ وأمر أصحابه بالحملة عليه، فحملوا فأزالوه عن موقفه، وتمّت الهزيمة عليهم.

وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم، وغنموا منهم غنائم كثيرة، وآلة، وسلاحاً عظيماً، ودوابّ فارهة، وعادوا بعد طول البيكار مستريحين، وعاد المنهزمون إلى حلب، وتبعهم صلاح الدين، فنازلهم بها محاصراً لها ومقاتلاً، وقطع حينئذٍ خطبة الملك الصالح بن نور الدين، وأزال اسمه عن السكّة في بلاده، ودام محاصراً لهم؛ فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها، فأجابهم إلى ذلك، وانتظم[٢] الصلح، ورحل عن حلب في العشر الأول من شوّال ووصل إلى حماة، ووصلت إليه[٣] بها خلع الخليفة مع رسوله[٤].

---

(١) في (أ): «زلفاندار».

(٢) في الأوربية: «وانتضم».

(٣) في الأوربية: «إليها».

(٤) سنا البرق الشامي ١/١٧٦ ـ ١٨٣، النوادر السلطانية ٥٠ ـ ٥٢، مفرّج الكروب ٢/١٧ ـ ٢٠، زبدة الحلب ٣/١٤ ـ ٢٢، التاريخ الباهر ١٧٦ ـ ١٧٧، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٠٢ ـ ٦١٤، تاريخ مختصر الدول ٢١٦،، تاريخ الزمان ١٩٠، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٦ ـ ٥٧، المغرب في حلى المغرب ١٤٤ ـ ١٤٦، العبر ٤/٢١٠، دول الإسلام ٢/٨٤، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٩، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٣ ـ ٨٤ مرآة الجنان ٣/٣٩٢، البداية والنهاية ١٢/٢٨٧ ـ ٢٩٠، مسالك الأبصار ٢٧/ ورقة ٣٣ أ، ب، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٥٥ ـ ٢٥٦، السلوك ج ١ ق ١/٥٨ =

ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين

في هذه السنة، في العشر الأوّل من شوّال، ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام، وكان [صاحبها] فخر الدين مسعود بن الزعفرانيّ، وهو من أكابر الأمراء النوريّة، فلما رأى قوة صلاح الدين نزل منها، واتصل بصلاح الدين، وظنّ أنه يكرمه ويشاركه في ملكه، ولا ينفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين، فلم ير من ذلك شيئاً، ففارقه، ولم يكن بقي له من إقطاعه الذي كان له في الأيام النورية غير بَعرين ونائبه بها، فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب، عاد إلى حماة وسار منها إلى بعرين، وهي قريبة منها، فحصرها ونصب عليها المجانيق، وأدام قتالها، فسلّمها واليها بالأمان، فلما ملكها عاد إلى حماة، فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارميّ، وأقطع حمص ناصر الدين محمد ابن عمّه شِيركوه، وسار منها إلى دمشق فدخلها أواخر شوال من السنة[١].

ذكر مُلك البهلوان مدينة تبرِيز

في هذه السنة ملك البهلوان بن إيلدكز مدينة تبريز، وهي من جملة بلاد آقسنقر الأحمديلي، وسبب ذلك أنّ البهلوان سار إلى مَراغة وحصرها، وكان ابن آقسنقر الأحمديلي صاحبها قد مات، ووصّى بالمُلك لابنه فَلَك الدين، فقصده البهلوان، ونزل على قلعة رويين دُز وحصرها فامتنعت عليه، فتركها، وحصر مَراغة، وسيّر أخاه قزل أرسلان في جيش إلى مدينة تبريز فحصرها أيضاً.

وكان البهلوان يقاتل أهل مَراغة، فظفروا بطائفة من عسكره، فخلع عليهم صدر الدين قاضي مَراغة، وأطلقهم، فحسن ذلك عند البهلوان، وشرع القاضي في الصلح على أن يسلّموا تبريز إلى البهلوان، فأجيب إلى ذلك، واستقرّت القاعدة عليه، وحلف

= ـ ٥٩، شفاء القلوب ٨٤ ـ ٨٧، عقد الجمان ١٢/ ١٩٧ أ ـ ١٩٨ ب، تاريخ ابن سباط ١/ ١٤٠.

(١) سنا البرق الشامي ١/ ١٩٢، مفرّج الكروب ٢/ ٣٤، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٦٤٠، زبدة الحلب ٣/ ٢٤، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٢٩، المغرب في حلى المغرب ١٤٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٧، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٧٨، دول الإسلام ٢/ ٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٦١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٤، تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٥٦، السلوك ج ١ ق ١/ ٦٠، شفاء القلوب ٨٧، تاريخ ابن سباط ١/ ١٤١.

كلّ واحد منهما لصاحبه، وتسلّم البهلوان تبريز وأعطاها أخاه قزل أرسلان، ورحل عن مراغة[1].

ذكر وفاة شُملة

في هذه السنة مات شُملة التُركماني، صاحب خُوزستان، وكان قد كثُرت ولايته، وعظُم شأنه، وبنى عدّة حصون، وبقي كذلك زيادة على عشرين سنة.

وكان سبب موته أنه قصد بعض التُّركمان، فعلموا بذلك، فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن إيلدكز، صاحب عراق العجم، فسيّر إليهم جيشاً، فاقتتلوا فأصاب شُملة سهم، ثمّ أُخذ أسيراً وولده وابن أخيه، وتُوفي بعد يومين، وهو من التُّركمان الأقشريّة، ولمّا مات ملك ابنه بعده.

ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد

في هذه السنة، في شوّال، سيّر علاء الدين تُنامُش[2]، وهو من أكابر الأمراء ببغداد، وهو ابن أحمد قُطب الدين قايماز زوج أخته، عسكراً إلى الغرّاف[3]، فنهبوا أهله، وبالغوا في أذاهم، فجاء منهم جماعة إلى بغداد واستغاثوا، فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز وتنامش، وتحكّمهما عليه، فقصدوا جامع القصر واستغاثوا فيه، ومنعوا الخطيب، وفاتت الصلاة أكثر الناس، فأنكر الخليفة ما جرى، فلم يلتفت قطب الدين وتنامش إلى ما فعل، واحتقروه، فلا جَرَم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء وازدرائهم أهله.

فلما كان خامس ذي القعدة قصد قُطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطّار، وكان صاحب المخزن، وهو خاص الخليفة، وله به عناية تامّة، فلم يُراعِ[4] الخليفة في صاحبه، فأرسل إليه يستدعيه ليحضر عنده، فهرب، فأحرق قُطب الدين داره،

---

(١) سنا البرق الشامي ١/١٩٦، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٧، دول الإسلام ٢/٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٦٣، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٥، تاريخ ابن سباط ١/١٤١.

(٢) في تاريخ الإسلام، والمنتظم: «تتامش» بتاءين.

(٣) الغرّاف بالتشديد. على وزن فعّال. وهو نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة. (معجم البلدان ٤/١٩٠).

(٤) في الأوربية: «فلم يراعي».

وحالف الأمراء على المساعدة والمظاهرة له، وجمعهم، وقصد دار الخليفة لعلمه أنّ ابن العطار فيها، فلما علم الخليفة ذلك ورأى الغلبة صعِد إلى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادماً فصاح واستغاث، وقال للعامة: مالُ قُطب الدين لكم ودمه لي؛ فقصد الخلق كلّهم دار قطب الدين للنهب، فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع وغلبة العامة، فهرب من داره من باب فتحه في ظهرها، لكثرة الخلق على بابها، وخرج من بغداد ونُهبت داره، وأُخذ منها من الأموال ما لا يُحَدّ ولا يُحْصَى، فرؤيَ فيها من التنعّم ما ليس لأحد مثله، فمن جملة ذلك أنّ بيت الطهارة الذي كان له فيه سلسلة ذهب من السقف إلى محاذي وجه القاعد على الخلا، وفي أسفلها كُرة كبيرة ذهب، مخرّمة، محشُوّة بالمسك والعنبر ليشمّها إذا قعد، فتشبّث بها إنسان وقطعها وأخذها، ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدّة أكياس مملوءة دنانير.

وكان الأقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون ما يخرج به الناس، فلما أخذ ذلك الصعلوك الأكياس قصد المطبخ فأخذ منه قِدراً مملوءة طبيخاً، وألقى الأكياس فيها وحملها على رأسه وخرج بها، والناس يضحكون منه، فيقول: أنا أريد شيئاً أطعمه عيالي اليوم؛ فنجا بما معه، فاستغنى بعد ذلك، فظهر المال، ولم يبق من نعمة قُطب الدين في ساعةٍ واحدة قليل ولا كثير.

ولمّا خرج من البلد تبعه تنامش وجماعة من الأمراء، فنُهبت دورهم أيضاً، وأُخذت أموالهم وأُحرق أكثرها، وسار قطب الدين إلى الحلة ومعه الأمراء، فسيّر الخليفة إليه صدر الدين شيخ الشيوخ، فلم يزل به يخدعه حتى سار عن الحِلة إلى الموصل على البرّ، فلحقه ومن معه عطشٌ عظيمٌ فهلك أكثرهم من شدّة الحرّ والعطش. ومات قُطب الدين قبل وصوله إلى الموصل فحُمل ودُفن بظاهر باب العِمادي، وقبره مشهور هناك.

وهذا عاقبة عصيان الخليفة، وكُفران الإحسان، والظلم، وسوء التدبير، فإنه ظلم أهل العراق، وكفر إحسان الخليفة الذي كان قد غمره، ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الأمور كلها كما كان، فإن عامة بغداد كانوا يريدونه، وكان قوي بالإستيلاء على البلاد فأطاعوه.

ولما مات في ذي الحجة وصل علاء الدين تُنامش إلى الموصل، فأقام مُديدة، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد، فعاد إليها، وبقي بها إلى أن مات بغير إقطاع،

وكان هذا آخر أمرهم[1].

ولما أقام قُطب الدين بالحِلّة امتنع الحاجّ من السفر، فتأخّروا إلى أن رحل عنها، فدخلوا من الكوفة إلى عَرَفات في ثمانية عشر يوماً، وهذا ما لم يُسمع بمثله، وفات كثيراً[2] منهم الحجُّ[3].

ولما هرب قُطب الدين خلع الخليفة على عضُد الدين الوزير وأعيد [إلى] الوزارة.

قال بعض الشعراء في قُطْب الدين وتنامش هذه الأبيات:

إنْ كنتَ مُعتبراً بمُلكٍ زائلٍ ... وحَوادثٍ عَنَقيّةِ الإدلاجِ
فدَعِ العَجائبَ والتّواريخَ الأولى ... وانظُرْ إلى قايمازَ وابنِ قَمَاجِ
عطَفَ الزّمانُ علَيهِما فسَقاهما ... من كأسِهِ صِرْفاً بغيرِ مِزاجِ
فتبدَّلوا بعدَ القُصُور وظلّها ... ونَعيمِها بمَهامِهٍ وفِجَاجِ
فليَحذَرِ الباقُونَ مِنْ أمثالِها ... نكبَاتِ دَهرٍ خائنٍ مِزعاجِ

وكان قُطب الدين كريماً، طَلْقَ الوجه، مُحباً للعدل والإحسان، كثير البذل للمال. والذي كان جرى منه إنّما كان يحمله عليه تنامش ولم يكن بإرادته.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن، واسمه يحيى بن عبد الله[4] بن محمد بن المعمّر بن جعفر أبو الفضل، وحجّ بالناس عدّة سنين، وإليه الحكم في الطريق، وناب عن الوزارة، وتنقّل في هذه الأعمال أكثر من عشرين سنة، وكان يحفظ القرآن.

---

(1) المنتظم ١٠/٢٥٣ ـ ٢٥٤، (١٨/٢١٥)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٥٦ ـ ٥٧، البداية والنهاية ١٢/٢٩١.

(2) في الأوربية: «كثير».

(3) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٠ هـ) ص ٦٣، وفيه: «ومات كثير منهم».

(4) انظر عن (يحيى بن عبد الله) في: المنتظم ١٨/٢١٧ رقم ٤٣٠٩ وفيه: «يحيى بن جعفر» وشذرات الذهب ٤/٢٣٨.

٥٧١
ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين

في هذه السنة، عاشر شوّال، كان المصاف بين سيف الدين غازي بن مودود وبين صلاح الدين يوسف بن أيوب بتلّ السلطان، على مرحلة من حلب، على طريق حماة، وانهزم سيف الدين.

وسبب ذلك أنه لما انهزم أخوه عزّ الدين مسعود من صلاح الدين في العام الماضي وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار، عاد [إلى] الموصل، وجمع عساكره[١]، وفرّق فيهم الأموال، واستنجد صاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين وغيرهما، فاجتمعت معه عساكر كثيرة بلغت عدّتهم ستّة آلاف فارس، فسار إلى نَصيبين في ربيع الأوّل من هذه السنة، وأقام بها فأطال المقام حتى انقضى الشتاء وهو مقيم، فضجر العسكر ونفدت نفقاتهم، وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر لما يتوقّعونه، إن ظفروا، من طول المقام بالشام بعد هذه المدّة.

ثم سار إلى حلب، فنزل إليه سعد الدين كُمُشتَكين الخادم، مدبّر دولة الملك الصالح، ومعه عساكر حلب، وكان صلاح الدين في قلّة من العساكر لأنّه كان صالح الفرنج في المحرّم من هذه السنة، على ما نذكره إن شاء الله، وقد سيّر عساكره[٢] إلى مصر، فأرسل يستدعيها، فلو عاجلوه[٣] لبلغوا غرضهم منه، لكنّهم تريّثوا وتأخروا عنه، فجاءته عساكره، فسار من دمشق إلى ناحية حلب ليلقى سيف الدين، فالتقى العسكران بتلّ السلطان، وكان سيف الدين قد سبقه، فلما وصل صلاح [الدين] كان

---

(١) في الأوربية: «عساكر».

(٢) في الأوربية: «عساكر».

(٣) في الأوربية: «عالجوه».

وصوله العصر، وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا، فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة، فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال، فقال زلفندار: ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة، غداً بُكرة نأخذهم كلّهم؛ فترك القتال إلى الغد.

فلما أصبحوا اصطفوا للقتال، فجعل زلفندار، وهو المدبر للعسكر السيفيّ، أعلاهم في وهدة من الأرض، لا يراها إلا من هو بالقرب منها، فلما لم يرها الناس ظنّوا أن السلطان قد انهزم، فلم يثبتوا وانهزموا، ولم يلوِ أخٌ على أخيه، ولم يُقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد، ووصل سيف الدين إلى حلب، وترك بها أخاه عزّ الدين مسعوداً في جمع من العسكر، ولم يُقم هو، وعبر الفرات، وسار إلى الموصل، وهو لا يصدق أنه ينجو.

وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل، فاستشار وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز، في مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عَقْر الحُمَيْدية، فقال له مجاهد الدين: أرأيت إن ملكت الموصل عليك، أتقدر أن تمنع ببعض أبراج الفصيل؟ فقال: لا. فقال: بُرج في الفصيل خير من العقر؛ وما زال الملوك ينهزمون ويعاودون الحرب، واتفق هو والوزير على شدّ أزره، وتقوية قلبه، فثبت ثمّ أعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على إمارة الجيوش مجاهد الدين قايماز، على ما نذكره إن شاء الله[1].

وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب «البرق الشاميّ»[2] في تاريخ الدولة الصلاحيّة أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس، ولم يكن كذلك، إنما كان على التحقيق يزيد على ستّة آلاف فارس أقلّ من خمسمائة، فإنني وقفتُ على

---

(١) النوادر السلطانية ٥١ ـ ٥٢، سنا البرق الشامي ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٤، زبدة الحلب ٣/ ٢٦، مفرّج الكروب ٢/ ٣٩، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٣٣، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٦٤٩ ـ ٦٥٥، تاريخ الزمان ١٩٢، المغرب في حلى المغرب ١٤٦ ـ ١٤٤٧، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٧٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٨، العبر ٤/ ٢١٢، دول الإسلام ٢/ ٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ٨، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٣، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٦١، شفاء القلوب ٨٨ ـ ٩١، تاريخ ابن سباط ١/ ١٤٦، تاريخ الأزمنة للدويهي ١٧٦.

(٢) فُقد قسم منه وفيه ما ينقله «ابن الأثير» هنا، وهو في سنا البرق الشامي ١/ ٢٠٠.

جريدة العرض، وترتيب العسكر للمصافّ ميمنة وميسرة وقلباً، وجاليشية، وغير ذلك، وكان المتولّي لذلك والكاتب له أخي مجد الدين أبا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم، رحمه الله، وإنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه بأنّه هزم بستّة آلاف عشرين ألفاً، والحق أحقّ أن يُتّبع، ثمّ يا ليت شِعْري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون[1] ألف فارس؟

ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين

لما انهزم سيف الدين وعسكره ووصلوا إلى حلب عاد سيف الدين إلى الموصل كما ذكرناه، وترك بحلب أخاه عز الدين مسعوداً في طائفة من العسكر نجدة للملك الصالح، وأما صلاح الدين فإنه لما استولى على أثقال العسكر الموصلي هو وعسكره، وغنموها واتسعوا بها وقووا، سار إلى بُزاعة فحصرها، وقاتله من بالقلعة، ثم تسلّمها وجعل فيها من يحفظها، وسار إلى مدينة مَنْبِج فحصرها آخر شوّال، وبها صاحبها قُطب الدين ينّال بن حسان المَنْبجيّ، وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه، والإطماع فيه، والطعن فيه، فصلاح الدين حنقٌ عليه متهدّدٌ له، فأما المدينة فملكها، ولم تمتنع عليه، وبقي القلعة وبها صاحبها قد جمع إليها الرجال والسلاح والذخائر، فحصره صلاح الدين وضيّق عليه وزحف إلى القلعة، فوصل النقّابون إلى السور فنقبوها وملكوها عنوةً، وغنم العسكر الصلاحيّ كلّ ما فيها، وأخذ صاحبها ينّال أسيراً، فأخذ صلاح الدين كلّ ماله وأصبح فقيراً لا يملك نقيراً، ثم أطلقه صلاح الدين فسار إلى الموصل، فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرَّقّة.

ولمّا فرغ صلاح [الدين] من مَنبِج سار إلى قلعة إعزاز[2] فنازلها ثالث ذي القعدة من السنة، وهي من أحصن القلاع وأمنعها، فنازلها وحصرها، وأحاط بها وضيّق على مَن فيها ونصب عليها المجانيق، وقُتل عليها كثير من العسكر؛ فبينما صلاح الدين يوماً في خيمة لبعض أمرائه يقال له جاولي، وهو مقدّم الطائفة الأسديّة، إذ وثب عليه باطنيّ فضربه بسكّين في رأسه فجرحه، فلولا أن المِغْفَر الزَّرَد كان تحت القَلَنْسُوَة لقتله، فأمسك صلاح الدين يد الباطنيّ بيده، إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب

(١) في الأوربية: «عشرين».
(٢) ويقال: «عزاز» بإسقاط الألف من أولها.

بالكليّة، إنما يضرب ضرباً ضعيفاً، فبقي الباطني يضربه في رقبته بالسكّين، وكان عليه كُزاغنْد[1] فكانت الضربات تقع في زيق[2] الكُزاغند فتقطعه، والزَّرَد يمنعها من الوصول إلى رقبته لبُعد أجله، فجاء أمير من أمرائه اسمه يازكش[3]، فأمسك السكّين بكفّه، فجرحه الباطنيّ، ولم يطلقها من يده إلى أن قُتل الباطنيّ، وجاء آخر من الإسماعيليّة فقُتل أيضاً، وثالث فقُتل، وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور لا يصدّق بنجاته، ثمّ اعتبر جُنده، فمَن أنكره أبعده، ومن عرفه أقرّه على خدمته، ولازم حصار إعزاز ثمانية وثلاثين يوماً، كلّ يوم أشدّ قتالاً مما قبله، وكثُرت النقوب فيها، فأذعن من بها، وسلّموا القلعة إليه، فتسلّمها حادي عشر ذي الحجة[4].

ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها

لما ملك صلاح الدين قلعة إعزاز رحل إلى حلب فنازلها منتصف ذي الحجّة وحصرها، وبها الملك الصالح ومَن معه من العساكر، وقد قام العامّة في حفظ البلد القيام المَرْضِيّ، بحيث أنهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد، لأنه كان إذا تقدّم للقتال خسر هو وأصحابه، وكثر الجراح فيهم والقتل؛ وكانوا يخرجون ويقاتلونه ظاهر البلد، فترك القتال وأخلد للمطاولة.

وانقضت سنة إحدى وسبعين ودخلت سنة اثنتين وسبعين، وهو محاصرٌ لها، ثمّ تردّدت الرسل بينهم في الصلح في العشرين من المحرّم، فوقعت الإجابة إليه من الجانبين، لأن أهل حلب خافوا من طول الحصار، فإنّهم ربّما ضعُفوا[5]، وصلاح

---

(١) الكزاغند: الدرع.

(٢) الزيق: الحزام.

(٣) في (أ): «يارلج».

(٤) النوادر السلطانية ٥٢، سنا البرق الشامي ١/٢٠٩ ـ ٢١٦، زبدة الحلب ٣/٢٨ ـ ٣٠، مفرّج الكروب ٢/٤٥، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٦٢، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، تاريخ الزمان ١٩٢، المغرب في حلى المغرب ١٤٧، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/١١٧ (سنة ٥٧٢ هـ)، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٨٠، المختصر في أخبار البشر ٣/٥٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ٨، العبر ٤/٢١٢، دول الإسلام ٢/٨٥، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٦، مرآة الجنان ٣/٣٩٣، البداية والنهاية ١٢/٢٩٣، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٥٧، السلوك ج ١ ق ١/٦١ ـ ٦٢، شفاء القلوب ٩٢، تاريخ ابن سباط ١/١٤٦ ـ ١٤٧، شذرات الذهب ٤/٢٣٨.

(٥) زاد في (ب): «وعجزوا».

الدين رأى أنّه لا يقدر على الدُّنُوّ من البلد، ولا على قتال من به، فأجاب أيضاً، وتقرّرت القاعدة في الصلح للجميع، للملك الصالح، ولسيف الدين صاحب الموصل، ولصاحب الحصن، ولصاحب ماردين، وتحالفوا واستقرّت القاعدة أن يكونوا كلّهم عوناً على الناكث الغادر.

فلما انفصل الأمر وتمّ الصُّلح رحل صلاح الدين عن حلب بعد أن أعاد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح، فإنه أخرج [إلى] صلاح الدين أُخْتاً له صغيرة طفلة، فأكرمها صلاح الدين وحمل لها شيئاً كثيراً، وقال لها: ما تريدين؟ قالت: أريد قلعة إعزاز؛ وكانوا قد علّموها ذلك، فسلّمها إليهم، ورحل إلى بلد الإسماعيليّة[1].

ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره

في هذه السنة، في ذي الحجة، كان بمكة حرب شديدة بين أمير الحاجّ طاشتَكِين وبين الأمير مُكثر أمير مكّة، وكان الخليفة قد أمر أمير الحاجّ بعزل مُكثر وإقامة أخيه داود مقامه.

وسبب ذلك أنه كان قد بنى قلعة على جبل أبي قُبَيس، فلما سار الحاج عن عرفات لم يبيتوا بالمُزدلِفة، وإنما اجتازوا بها، فلم يرموا الجِمار، إنما بعضهم رمى بعضها وهو سائر، ونزلوا الأبطح فخرج إليهم ناس من أهل مكة فحاربوهم، وقُتل من الفريقين[2] جماعة، وصاح الناس: الغَزاة إلى مكة، فهجموا عليها، فهرب أمير مكة مُكثر، فصعد إلى القلعة التي بناها على جبل أبي قُبَيس فحصروه بها، ففارقها وسار عن مكّة، وولي أخوه داود الإمارة، ونهب كثير[3] من الحاج مكّة، وأخذوا من أموال

---

(١) النوادر السلطانية ٥٢، سنا البرق الشامي ١/٢٠٩ ـ ٢١٦، مفرّج الكروب ٢/٤٥، زبدة الحلب ٣/٢٨ ـ ٣٠، الروضتين ج ١ ق ٢/٦٦٢، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، تاريخ الزمان ١٩٣، المغرب في حلى المغرب ١٤٧، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/١١٧ (حوادث ٥٧٢ هـ)، نهاية الأرب ٢٨/٣٨١، الدر المطلوب ٦٠، العبر ٤/٢١٢، دول الإسلام ٢/٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ١٠، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٦، مرآة الجنان ٣/٣٩٣، البداية والنهاية ١٢/٢٩٣، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٥٧، السلوك ج ١ ق ١/٦١ ـ ٦٢، شفاء القلوب ٩٢، تاريخ ابن سباط ١/١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) في الأوربية: «الفارقين».

(٣) في الأوربية: «كثيراً».

التجّار المقيمين بها شيئاً كثيراً، وأحرقوا دُوراً كثيرةً.

ومن أعجب ما جرى فيها أن إنساناً زرّاقاً ضرب داراً بقارورةِ نفطٍ فأحرقها، وكانت لأيتام، فأحرقت ما فيها، ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكاناً آخر، فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها، فاحترق هو بها، فبقي ثلاثة أيام يعذَّب بالحريق[1] ثمّ مات[2].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في شهر رمضان، انكسفت الشمس جميعها، وأظلمت الأرض حتى بقي الوقت كأنّه ليل مظلم، وظهرت الكواكب، وكان ذلك ضَحْوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه، وكنتُ حينئذٍ صبيّاً بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخٍ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب، فلمّا رأيتُ ذلك خفتُ خوفاً شديداً، وتمسّكتُ به، فقوّى قلبي، وكان عالماً بالنجوم أيضاً، وقال لي: الآن ترى هذا جميعه، فانصرف سريعاً[3].

وفيها ولّى الخليفة المستضيء بأمر الله حجابة[4] الباب أبا طالب نصر بن عليّ الناقد، وكان يلقّب في صِغَره قُنْبُراً، فصاروا[5] يصيحون به ذلك إذا خرج، فأمر الخليفة أن يركب معه جماعة من الأتراك ويمنعوا[6] الناس من ذلك، فامتنعوا، فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب في الموكب، فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيئاً كثيراً، وعزموا على إرسالها في الموكب إذا رأوا ابن الناقد، فأُنهي ذلك إلى الخليفة، وقيل له يصير الموكب ضحكة، فعزله وولّى ابن المعوّج[7].

وفيها، في ذي الحجّة، يوم العيد، وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبعض الأتراك

---

(١) في الباريسية: «بالخل يق».

(٢) المنتظم ١٠/ ٢٦٠ (١٨/ ٢٢٤) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ٧، شفاء الغرام (بتحقيقنا) ٢/ ٣٦٧.

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ١٠، المنتظم ١٨/ ٢٢١.

(٤) في الأوربية: «حجبة».

(٥) في الأوربية: «فصار».

(٦) في الأوربية: «ويمنعون».

(٧) المنتظم ١٨/ ٢١٨ و٢٢١.

بسبب أخذ جمال النَّحر[1]، فقُتل بينهم جماعة ونُهب شيء كثير من الأموال، ففرّق الخليفة أموالاً جليلةً فيمن نُهب ماله.

وفيها زُلزلت بلاد العجم من حدّ العراق إلى ما وراء الرَّيّ، وهلك فيها خلق كثير، وتهدّمت دُور كثيرة، وأكثر ذلك كان بالرَّيّ وقَزوين[2].

وفيها، في ربيع الآخر، استوزر سيف الدين غازي، صاحب الموصل، جلال الدين أبا الحسن عليّ بن جمال الدين محمد بن عليّ، وكان أبوه جمال الدين وزير البيت الأتابكيّ، وقد تقدّمت أخباره، وهو المشهور بالجود والإفضال؛ ولما ولي جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة، ومعرفة تامّة بقوانين الوزارة، وله مكاتبات وعهود حسنة مدوّنة مشهورة، وكان جواداً فاضلاً خيّراً، عمره، لما ولي الوزارة، خمس وعشرون[3] سنة.

وفيها، في ذي الحجة، استناب سيف الدين أيضاً عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز، وفوّض إليه الأمور، وكان قبل ذلك [فوّض] إليه الأمر بمدينة إرْبِل وأعمالها، وكان، رحمه الله، من صالحي الأمراء وأرباب المعروف، بنى كثيراً من الجوامع والخانات في الطرق، والقناطر على الأنهار والرُّبُط وغير ذلك من أبواب البرّ، وكان دائم الصدقة، كثير الإحسان، عادل السيرة، رحمه الله.

وفيها قبض الخليفة على عماد الدين صندل المقتفويّ، أستاذ الدار، ورتب مكانه أبا الفضل هبة الله بن عليّ بن هبة الله بن الصاحب[4].

وفيها، في رمضان، قدِم شمس الدولة تورانشاه بن أيّوب الذي ملك اليمن إلى دمشق لما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها، حنّ إلى الوطن والأتراب، ففارق اليمن وسار إلى الشام[5]، وأرسل من الطريق إلى أخيه يعلمه بوصوله. وكتب في الكتاب شِعراً من قول ابن المنجّم المصريّ:

---

(1) في المنتظم ١٠/٢٦٠ (١٨/٢٢٣): «جمال البحريني».
(2) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٢ هـ) ص ١٣، المنتظم ١٠/٢٦٩ (١٨/٢٣١).
(3) في الأوربية: «خمساً وعشرين».
(4) المنتظم ١٠/٢٥٦ (١٨/٢١٨)، مرآة الزمان ج ٨ ق ٢/٣٣١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧١ هـ) ص ٥، النجوم الزاهرة ٦/٧٦.
(5) سنا البرق الشامي ١/٢٠٦، النوادر السلطانية ٥٢.

وإلى صَلاحِ الدين أشكُو أنّني ... من بَعدِه مُضْنَى الجوَانح مُولَعُ
جزعاً لبُعدِ الدّار منهُ ولم أكُنْ ... لَـوْلا هَـواهُ لبُعـدِ دارٍ أجْـزَعُ
فـلأركَبَـنّ إليـهِ مَتْـنَ عَـزائِمـي ... ويَخُبُّ بي ركبُ الغرامِ ويُوسِعُ
ولأقطعَـنّ مـن النّهـارِ هَـوَاجِـرا ... قَلْـبُ النّهـارِ بحـرّهـا يَتَقطّـعُ
ولأسـرِيَـنّ اللّيـلَ لا يسَـرْي بـه ... طَيـفُ الخَيـالِ ولاَ البُرُوقُ اللُّمّـعُ
وأُقَـدّمَـنّ إليـهِ قَلبـي مُخْبِـراً ... أنّـي بجِسْمـي مِـنْ قَـريـبٍ أتْبَـعُ
حَتّـى أُشـاهِـدَ منْـهُ أسعَـدَ طَلعَـةٍ ... مـن أُفقِهـا صُبـحُ السّعـادَةِ يَطلُـعُ

وفي هذه السنة، في المحرّم، برز صلاح الدين من دمشق، وقد عظُم شأنه بما ملكه من بلاد الشام، وبكسره عسكر الموصل، فخافه الفرنج وغيرهم، وعزم على دخول بلدهم ونهبه والإغارة عليه، فأرسلوا إليه يطلبون الهدنة معه، فأجابهم إليها وصالحهم، فأمر العساكر المصريّة بالعود إلى مصر والاستراحة إلى أن يعاود طلبهم، وشرط عليهم أنه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخّرون، فساروا إليها وأقاموا بها إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ما نذكره.

[الوفيات]

وفيها مات أبو الحسن عليُّ بن عساكر البطائحيّ المقرىء، وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه، وكان نحوياً جيّداً.

وفي ذي الحجة منها تُوفي أبو سعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزّاز، سمع الحديث ورواه، وله شِعرٌ جيّد، فمن ذلك أنه كتب إليه بعض أصدقائه مكاتبة وضمّنها شعراً، فأجابه:

يـا مَـن أيـاديـهِ تُغنـي مَـن يُعَـدّدُهـا ... وَليسَ يُحصي مَداها من لها يَصِفُ
عجزْتُ عن شكْرِ ما أوليتَ من كرَمٍ ... وصِرْتُ عبداً ولي في ذلكَ الشّرَفُ
أهـدَيـتَ مَنظُـومَ شِعْـرٍ كلّـهُ دُرَرٌ ... فكُـلُّ نـاظِـمِ عِقْـدٍ دُونَـهُ يَقِـفُ
إذا أتَيْـتَ ببَيْـتٍ مِنْـهُ كـان لَنَـا ... قَصـراً ودرُّ المعـاني فَـوْقَـهُ شُـرَفُ
وإنْ أتَيـتُ أنـا بَيْتـاً يُنـاقِضُـهُ ... أتَيْـتُ لكِـنْ ببَيْـتٍ سَقَفُـهُ يَكِـفُ
مـا كُنْـتُ منْـهُ وَلا مِـنْ أهلِـهِ أبَـداً ... وإنّمـا حيـنَ أدْنُـو منـهُ أقتَطِـفُ

وقيل كانت وفاته سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وهو الصحيح.

٥٧٢
ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيليّة

لما رحل صلاح الدين من حلب، على ما ذكرناه قبلُ، قصد بلاد الإسماعيليّة في المحرّم ليقاتلهم بما فعلوه به من الوثوب عليه وإرادة قتله، فنهب بلدهم وخرّبه وأحرقه، وحصر قلعة مِصياف[١]، وهي أعظم حصونهم، وأحصن قلاعهم، فنصب عليها المجانيق، وضيّق على مَن بها، ولم يزل كذلك؛ فأرسل سِنانٌ مقدّم الإسماعيليّة إلى شهاب الدين الحارميّ، صاحب حماة وهو خال صلاح الدين، يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم، ويقول له: إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين وأمرائه؛ فحضر شهاب عند صلاح الدين وشفع فيهم وسأل الصفح عنهم، فأجابه إلى ذلك، وصالحهم، ورحل عنهم[٢].

وكان عسكره قد ملّوا من طول البيكار، وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل، ونهب بلد الإسماعيليّة، فطلبوا العود إلى بلادهم للاستراحة، فأذِن لهم، وسار هو إلى مصر مع عسكرها، لأنه كان قد طال عهده عنها، ولم يمكنه المُضِيّ إليها فيما تقدم خوفاً على بلاد الشام؛ فلما انهزم سيف الدين، وحصر هو حلب، وملك بلادها، واصطلحوا، أمِن على البلاد، فسار إلى مصر، فلمّا وصل إليها أمر

---

(١) في طبعة صادر ٤٣٦/١١ «مصبياب»، وفي الأوربية «مصيات»، والصحيح ما أثبتناه وهي مدينة معروفة الآن بجبال العلويين في الجمهورية العربية السورية.

(٢) سنا البرق الشامي ٢١٧/١، مفرّج الكروب ٤٨/٢، زبدة الحلب ٣/ ٣٠ ـ ٣١، الروضتين ج ١ ق ٦٦٨/٢، المختصر في أخبار البشر ٥٩/٣، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٨١، دول الإسلام ٢/ ٨٥ ـ ٨٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٢ هـ) ص ١٤، العبر ٢١٢/٤، تاريخ ابن الوردي ٧/٢، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٧٥، شفاء القلوب ٩٢، تاريخ ابن سباط ١٤٧/١، تاريخ الأزمنة ١٧٦ ـ ١٧٧.

ببناء سور على مصر في الشّعاري والغِياض والقاهرة والقلعة التي على جبل المقطّم، دوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع الهاشميّ[1]، ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين[2].

ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين

كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدّم صاحب بعلبك، فأتاه خبرٌ أن جمعاً من الفرنج قد قصدوا البقاع من أعمال بعلبك، وأغاروا عليها، فسار إليهم، وكمن لهم في الشّعاري والغياض، وأوقع بهم، وقتل فيهم وأكثر، وأسر نحو مائتي رجل منهم وسيّرهم إلى صلاح الدين.

وكان شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين، وهو الذي ملك اليمن، قد وصل إلى دمشق، كما ذكرناه، وهو فيها، فسمع أن طائفة من الفرنج قد خرجوا من بلادهم إلى أعمال دمشق، فسار إليهم ولقيهم [عند عين الجرّ[3] في تلك المروج، فلم يثبت لهم، وانهزم عنهم، فظفروا][4] بجمع من أصحابه، فأسروهم[5]، منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار، وهو من أعيان الجُند الدمشقيّين، واجترأ الفرنج بعدها، وانبسطوا في تلك الولاية، وجبروا الكسر الذي ناله منهم ابن المقدّم[6].

ذكر عصيان صاحب شَهرَزُور على سيف الدين وعوده إلى طاعته

في هذه السنة عصى شهاب الدين محمد بن بزان، صاحب شَهْرَزُور، على سيف الدين غازي وكان في طاعته وتحت حُكمه.

وكان سبب ذلك أنّ مجاهد الدين قايماز كان متولّياً مدينة إربِل، وكان بينه وبين

---

(١) هكذا هنا والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٩، أما في تاريخ الإسلام ١٥ «بالقاسمي»، وفي السلوك ج ١ ق ١/ ٦٣، وسنا البرق الشامي ١/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠، وأخبار الدول ٢/ ١٨٢ ـ ١٨٣، وبدائع الزهور ج ١ ق ١/ ٢٤٢ «بذراع العمل».

(٢) مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٣٨، مفرّج الكروب ٢/ ٥١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٢ هـ) ص ١٤ ـ ١٥، المواعظ والاعتبار ٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٤٨.

(٣) هي بلدة عنجر الحالية في البقاع.

(٤) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٥) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠ «أسروهم».

(٦) سنا البرق الشامي ١/ ٢١٩، مفرّج الكروب ٢/ ٤٨ ـ ٤٩.

ابن بزان عداوة محكمة، فلمّا استناب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل خاف ابن بزان أن يناله منه أذًى، فأظهر الامتناع من النزول إلى الخدمة، فأرسل إليه جلال الدين وزير سيف الدين كتاباً يأمره بمعاودة الطاعة، ويحذّره عاقبة المخالفة، وهو من أحسن الكتب وأبلغها في هذا المعنى، ولولا خوف التطويل لذكرته، فليُطلب من مكاتباته؛ فلما وصل إليه الكتاب والرسول بادر إلى حضور الخدمة بالموصل وزال الخُلْف.

ذكر فرج بعد شدّة يتعلّق بالتاريخ

بالقرب من جزيرة ابن عمر حصن منيع من أمنع المعاقل اسمه فَنَك، وهو على رأس جبلٍ عالٍ، وهو للأكراد البَشنوية، له بأيديهم نحو ثلاثمائة سنة؛ وكان صاحبه هذه السنة أمير منهم اسمه إبراهيم، وله أخ اسمه عيسى، قد خرج منه، وهو لا يزال يسعى في أخذه من أخيه إبراهيم، فأطاعه بعض بطانة إبراهيم، وفتح باب السرّ ليلاً، وأصعد منه إلى رأس القلعة نيّفاً وعشرين رجلاً من أصحاب عيسى، فقبضوا على إبراهيم ومَن عنده، ولم يكن عنده إلا نفر من خواصّه، وهذه قُلّة على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة ارتفاعاً[1] كثيراً؛ وبها يسكن الأمير وأهله وخواصّه، وباقي الجُند في القلعة تحت القلّة، فلمّا قبضوا إبراهيم جعلوه في خزانة، وضربه بعضهم بسيف في يده على عاتقه، فلم يصنع شيئاً، فلمّا جُعل في الخزانة وُكّل به رجلان[2]، وصعِد الباقون إلى سطح القلّة، ولا يشكّون أنّ القلعة لهم لا مانع عنها.

ووصل من الغد بُكرةً الأمير عيسى ليتسلّم القلعة، وبينهما دجلة، وكانت امرأة الأمير إبراهيم في خزانة أخرى، وفيها شُبّاك حديد ثقيل يشرف على القلعة، فجذبته بيدها فانقلع، وجُند زوجها في القلعة لا يقدرون على شيء، فلمّا قلعت الشّبّاك أرادت أن تُدْلي حبلاً ترفع به الرجال إليها، فلم يكن عندها غيرُ ثياب خام، فوصّلت بعضها ببعض ودلّتها إلى القلعة، وشدّت[3] طرفيها عندها في عود فأصعدت إليها عشرة رجال، ولم يكن يراهم الذين على السطح.

ورأى الأمير عيسى، وهو على جانب دجلة، الرجال يصعدون، فصاح هو ومَن

---

(١) في الأوربية: «ارتفاماً».

(٢) في الأوربية: «رجلين».

(٣) في الأوربية: «وشدّدت».

معه إلى أولئك الذين على السطح ليحذروا، وكانوا كلّما صاحوا صاح أهل القلعة لتختلف الأصوات فلا يفهم الذين على السطح، فينزلون ويمنعون من ذلك، فلمّا اجتمع عندها عشرة رجال أرسلت مع خادم عندها إلى زوجها قدح شراب وأمرته أن يقرب منه كأنّه يسقيه الشراب ويُعرّفه الحال، ففعل ذلك، وجلس بين يديه ليسقيه، وعرّفه الحال، فقال: ازدادوا من الرجال؛ فأصعدت عشرين رجلاً، وخرجوا من عندها، فمدّ إبراهيم يده إلى الرجلين الموكّلَين به، فأخذ شعورهما، وأمر الخادم بقتلهما، وكان عنده، فقتلهما بسلاحهما، فخرج واجتمع بأصحابه وأرادوا فتح القلعة ليصعد إليه أصحابه من القلعة، فلم يجد المفاتيح، وكانت مع أولئك الرجال الذين على السطح، فاضطرّوا إلى الصعود إلى سطح القلّة ليأخذوا أصحاب عيسى، فعلموا الحال، فجاؤوا ووقفوا على رأس الممرق فلم يقدر أحدٌ [أن] يصعد، فأخذ بعض أصحاب إبراهيم تُرساً وجعله على رأسه، وحصل في الدرجة، وصعد وقاتل القوم على رأس الممرق، حتى صعد أصحابه فقتلوا الجماعة وبقي منهم رجل ألقى نفسه من السطح، فنزل إلى أسفل الجبل فتقطّع. فلما رأى عيسى ما حلّ بأصحابه عاد خائباً مما أمّله، واستقرّ الأمير إبراهيم في قلعته على حاله.

ذكر نهب البَنْدَنِيجَيْن

في هذه السنة وصل الملك الذي بخوزستان عند شُملة، وهو ابن ملكشاه بن محمود، إلى البَنْدَنِيجَين، فخرّبها ونهبها وفتك في الناس، وسبَى حريمهم، وفعل كلّ قبيح.

ووصل الخبر إلى بغداد فخرج الوزير عضُد الدين وعرض العسكر، ووصل عسكر الحِلّة وواسط مع طاشتَكين أمير الحاجّ وغَرغَلي[1]، وساروا نحو العدوّ، فلما سمع بوصولهم فارق مكانه وعاد، وكان معه من التركمان جمعٌ كثير، فنهبهم عسكر بغداد، ورجعوا من غير أمر بالعَود، فأنكر عليهم ذلك، وأُمروا بالعود إلى مواقفهم، فعادوا لأوائل شهر رمضان، وقد رجع الملك فنهب من البَنْدَنِيجَين ما كان سلم من النهب الأول، ووقعت بينهم وبين الملك وقعة، ثمّ افترقوا، فمضى الملك وفارق ولاية العراق وعاد عسكر بغداد.

---

(١) في الباريسية «غراغلي».

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، أقيمت الجمعة في الجامع الذي بناه فخر الدولة بن المطّلب بقصر المأمون غربيّ بغداد.

وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الشافعيّ، رضي الله عنه، بمصر، وعمل بالقاهرة بيمارستان، ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة(1).

وفيها رأيت بالموصل خروفين ببطن واحد ورأسَين ورَقبتَين وظهرين وثماني قوائم كأنّهما خروفان ببطن واحد، وجه أحدهما إلى وجه الآخر، وهذا من العجائب.

وفيها انقضّ كوكب أضاءت له الأرض إضاءةً كثيرة، وسمُع له صوت عظيم، وبقي أثره في السماء مقدار ساعة وذهب.

[الوفيات]

وفيها توفي تاج الدين أبو عليّ الحسن بن عبد الله بن المظفّر بن رئيس الرؤساء أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة.

وفيها، في المحرم، توفي القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوريّ، قاضي دمشق وجميع الشام، وإليه الوقوف بها والديوان، وكان جواداً فاضلاً رئيساً ذا عقل ومعرفة في تدبير الدول، رحمه الله ورضي عنه.

(1) المختصر في أخبار البشر ٥٩/٣، سنا البرق الشامي ٢٤١/١، الروضتين ج ١ ق ٦٨٨/٢، البداية والنهاية ٢٩٦/١٢، تاريخ ابن الوردي ٨٧/٢، النجوم الزاهرة ١٠١/٤ حاشية ٣، تاريخ ابن سباط ١٤٨/١، بدائع الزهور ج ١ ق ٢٤٣/١.

٥٧٣
ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة

في هذه السنة، أواخر جُمادى الأولى، سار صلاح الدين يوسف بن أيّوب من مصر إلى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج، وجمع معه عساكر كثيرة وجنوداً غزيرة، فلم يزالوا يجدّون السير حتى وصلوا إلى عَسقَلان في الرابع والعشرين منه، فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرّقوا في تلك الأعمال مُغيرين. فلما رأوا أنّ الفرنج لـم يظهـر لهـم عسكـر ولا اجتمـع لهـم مـن يحمـي البـلاد مـن المسلميـن، طمعـوا، وانبسطوا، وساروا في الأرض آمنين مطمئنين، ووصل صلاح الدين إلى الرملة، عازماً على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره، فوصل إلى نهر، فازدحم الناس للعبور، فلم يرعهم إلا والفرنج قد أشرفت عليهم بأطلابها وأبطالها، وكان مع صلاح الدين بعض العسكر، لأن أكثرهم تفرّقوا في طلب الغنيمة، فلما رآهم وقف لهم فيمن معه، وتقدّم بين يديه تقيّ الدين عمر بن محمد ابن أخي صلاح الدين، فباشر القتال بنفسه بين يدي عمّه، فقُتل من أصحابه جماعة، وكذلك من الفرنج، وكان لتقي الدين ولد اسمه أحمد، وهو من أحسن الشباب أوّل ما تكاملت لحيته، فأمره[1] أبوه بالحملة عليهم، فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالماً قد أثّر فيهم أثراً كثيراً، فأمره بالعودة إليهم ثانية، فحمل عليهم فقُتل شهيداً، ومضى حميداً، رحمه الله ورضي عنه.

وكان أشدّ الناس قتالاً ذلك اليوم الفقيه عيسى، رحمه الله، وتمّت الهزيمة على المسلمين، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل إليه، فقُتل الفرنجيّ بين يديه، وتكاثر الفرنج عليه، فمضى منهزماً، يسير قليلاً ويقف ليلحقه العسكر إلى أن دخل اللّيل، فسلك البريّة إلى أن مضى في نفرٍ يسير إلى مصر، ولقوا

---

(١) في الأوربية: «فأمر».

في طريقهم مشقّة شديدة، وقلّ عليهم القوت والماء، وهلك كثير من دوابّ العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سير.

وأما العسكر الذي كانوا دخلوا بلاد الفرنج في الغارة، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيلٍ وأسير. وكان من جملة من أُسر الفقيه عيسى الهكّاريّ، وهو من أعيان الأسديّة، وكان جمع العلم والدين والشجاعة، وأُسر أيضاً أخوه الظهير، وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق، فأُخِذا ومعهما جماعة من أصحابهما، وبقوا سنين في الأسر، فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستّين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى.

ووصل صلاح الدين إلى القاهرة نصف جُمادى الآخرة، ورأيتُ كتاباً كتبه صلاح الدين بخطّ يده إلى أخيه شمس الدولة تورانشاه وهو بدمشق، يذكر الوقعة، وفي أوّله:

ذكَرتُكَ والخَطّيُّ يخطرُ بَيْنَنا وقد نهلَتْ منّا المُثَقَّفَةُ السُّمرُ[1]

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما أنجانا الله سبحانه منه إلاّ لأمر يريده سبحانه:

وما ثبتت إلاّ وفي نفسها أمرُ[2]

ذكر حصر الفرنج مدينة حماة

في هذه السنة، في جمادى الأولى، حصر الفرنج أيضاً مدينة حماة[3]. وسبب

---

(١) البيت لابن عطاء السندي. (انظر كتاب «الزهرة» لأبي بكر محمد بن سليمان الأصفهاني ص ٢٧٨).

(٢) النوادر السلطانية ٥٢ ـ ٥٣، سنا البرق الشامي ١/ ٢٥٢ ـ ٢٦٤، البرق الشامي ٣/ ٣١ ـ ٥٠، مفرّج الكروب ٢/ ٥٨ ـ ٦٣، الروضتين ج ١ ق ١/ ٦٩٩ ـ ٧٠٤، تاريخ الزمان ١٩٣ ـ ١٩٤، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣، المغرب في حلى المغرب ٤١٨، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٥٩ ـ ٦٠، الدر المطلوب ٦٣، دول الإسلام ٢/ ٨٦ ـ ٨٧، العبر ٤/ ٢١٦ ـ ٢١٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٣ هـ) ص ١٩ ـ ٢٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٧، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٢، السلوك ج ١ ق ١/ ٦٤، شفاء القلوب ٩٣ ـ ٩٤، تاريخ ابن سباط ١/ ١٤٩ ـ ١٥٠، تاريخ الأزمنة ١٧٧، شذرات الذهب ٤/ ٢٤٤.

(٣) انظر خبر حماة في: البرق الشامي ٣/ ٥٢ ـ ٥٥، سنا البرق الشامي ١/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨، النوادر السلطانية ٥٣، مفرّج الكروب ٢/ ٦٤، زبدة الحلب ٣/ ٣٤ ـ ٣٦، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٤٣، الروضتين ج١ ق ٢/ ٧٠٥ ـ ٧٠٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٠، العبر ٤/ ٢١٧، دول الإسلام ٢/ ٨٧، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٣ هـ) ص ٢١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٨، مرآة الجنان ٣/ ٣٩٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٨، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣، السلوك ج ١ ق ١/ ٦٥ شفاء القلوب =

ذلك أنه وصل من البحر إلى الساحل الشاميّ كُنْدٌ كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم، فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزماً، فاغتنم خُلُوّ البلاد، لأن شمس الدولة بن أيّوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين، وليس عنده كثير من العسكر، وكان أيضاً كثير الانهماك في اللّذات مائلاً إلى الراحات، فجمع ذلك الكُند الفرنجيّ من بالشام من الفرنج، وفرّق فيهم الأموال، وسار إلى مدينة حماة فحصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين، وهو مريض شديد المرض، وكان طائفة من العسكر الصلاحيّ بالقرب منها، فدخلوا إليها وأعانوا من بها.

وقاتل الفرنج على البلد قتالاً شديداً وهجموا بعض الأيام على طرفٍ منه، وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً، فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية واشتدّ القتال، وعظُم الخَطْب على الفريقين، واستقلّ المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال، فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره، ودام القتال ظاهر البلد ليلاً ونهاراً، وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد، وطمعوا فيهم، وأكثروا فيهم القتل، فرحل الفرنج حينئذٍ خائبين، وكفى الله المسلمين شرّهم، فساروا إلى حارِم فحصروها، وكان مُقامهم على حماة أربعة أيام.

ولمّا رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارميّ، وكان له ابنٌ من أحسن الشّباب مات قبله بثلاثة أيام[1].

ذكر قتل كُمُشْتِكين وحصر الفرنج حارم

في هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كُمُشْتَكِين، وكان المتولّي لأمر دولته والحاكم فيها؛ وسبب قبضه أنّه كان بحلب إنسان من أعيان أهلها يقال له أبو صالح بن العجميّ، وكان مقدّماً عند نور الدين محمود، فلما مات نور الدين تقدّم أيضاً في دولة ولده الملك الصالح، وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكّن لكثرة أتباعه بحلب ولأنّ كل من كان يحسد كمشتكين انضمّ إلى صالح،

= ٩٤ ـ ٩٥، الإعلام والتبيين ٣١، تاريخ الأزمنة ١٧٧ ـ ١٧٨، تاريخ ابن سباط ١/١٥١.

(١) سنا البرق الشامي ١/٢٦٩، مفرّج الكروب ٢/٧٠، المختصر في أخبار البشر ٣/٦١، مرآة الجنان ٣/٣٩٨، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٨، البداية والنهاية ١٢/٢٩٨، تاريخ ابن سباط ١/١٥١.

وقوّوا جنانه، وكثّروا سواده؛ وكان عنده إقدام وجُرْأةٌ فصار واحد الدولة بحلب، ومن يصدر الجماعة عن رأيه وأمره.

فبينما هو في بعض الأيام في الجامع وثب به الباطنيّة فقتلوه ومضى شهيداً، وتمكّن بعده سعد الدين وقوي حاله، فلمّا قُتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين، وقالوا: هو وضع الباطنيّة عليه حتى قتلوه، وذكروا ذلك للملك الصالح، ونسبوه إلى العجز، وأنّه ليس له حكم، وأن سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره، وقتل وزيره، ولم يزالوا به حتى قبض عليه.

وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه إيّاها الملك الصالح، فامتنع من بها بعد قبضه، وتحصّنوا فيها، فسُيّر سعد الدين إليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح، فأمرهم بذلك، فامتنعوا، فعذّب كُمُشْتَكِين وأصحابه يرونه ولا يرحمونه، فمات في العذاب، وأصرّ أصحابه على الامتناع والعصيان.

فلما رأى الفرنج ذلك ساروا إلى حارم من حماة في جُمادى الأولى، على ما نذكره، ظنّاً منهم أنهم لا ناصر لهم، وأن الملك الصالح صبيّ قليل العسكر، وصلاح الدين بمصر، فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدّة أربعة أشهر، ونصبوا عليها المجانيق والسلالم، فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالاً، وقال لهم: إن صلاح الدين واصلٌ إلى الشام، ورُبّما سلّم القلعة من بها إليه، فأجابوه حينئذٍ إلى الرحيل عنها، فلما رحلوا عنها سيّر إليها الملك الصالح جيشاً فحصروها، وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج، وصاروا كأنهم طلائع، وكان قد قُتل من أهلها وجُرح كثير، فسلّموا القلعة إلى الملك الصالح، فاستناب بها مملوكاً كان لأبيه اسمه سَرْخَك[1].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرّم، خُطب للسلطان طُغرُل بن أرسلان بن طُغرل بن

---

(1) البرق الشامي ٣/ ٧٣، سنا البرق الشامي ١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٧٠٤ ـ ٧٠٨، النوادر السلطانية ٥٣، التاريخ الباهر ١٧٨، مفرّج الكروب ٢/ ٦٣، زبدة الحلب ٣/ ٣٤ ـ ٣٥، عقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١١ أ، ب.

محمّد بن ملكشاه المقيم عند إيلدكز بهمذان، وكان أبوه أرسلان قد تُوفي.

وفيها، سابع شوّال، هبّت ببغداد ريح عظيمة، فزلزلت الأرض، واشتدّ الأمر على النّاس حتى ظنّوا أن القيامة قد قامت، فبقي ذلك ساعة ثمّ انجلت، وقد وقع كثير من الدُّور، ومات فيها جماعة كثيرة[1].

وفيها، رابع ذي القعدة، قُتل عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفّر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المُسلِمة وزير الخليفة، وكان قد عزم على الحجّ فعبر دجلة ليسير، وعبر معه أرباب مناصب، وهو في موكب عظيم، وتقدّم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحداً، فلمّا وصل إلى باب قُطُفْتا لقيه كهل فقال: أنا مظلوم؛ وتقدّم ليسمع الوزير كلامه، فضربه بسكّين في خاصرته، فصاح الوزير: قتلني! ووقع من الدابة، وسقطت عمامته، فغطّى رأسه بكمّه، وضربَ الباطنيّ بسيف، وعاد إلى الوزير فضربه، وأقبل حاجب الباب ابن المعوّج لينصر الوزير، فضربه الباطنيّ بسكّين، وقيل بل ضربه رفيق كان للباطنيّ، ثمّ قُتل الباطنيّ ورفيقه؛ وكان لهما رفيق ثالث، فصاح وبيده سكّين فقُتل ولم يعمل شيئاً، وأُحرقوا ثلاثتهم، وحُمل الوزير إلى دار له هناك، وحُمل حاجب الباب مجروحاً إلى بيته، فمات هو والوزير، وحُمل الوزير فدُفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور.

وكان الوزير قد رأى في المنام أنّه معانق عثمان بن [عفّان]، وحكى عنه ولده أنه اغتسل قبل خروجه، وقال: هذا غسل الإسلام، وأنا مقتول بلا شكّ؛ وكان مولده في جُمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة، وكان أبوه أستاذ دار المقتفي لأمر الله، فلمّا مات ولي هو مكانه، فبقي كذلك إلى أن مات المقتفي، فأقرّه المستنجد على ذلك ورفع قدره، فلما وليَ المستضيء استوزره، وكان حافظاً للقرآن، سمع الحديث، وله معروف كثير، وكانت داره مَجْمعاً للعلماء، وخُتمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحجّ[2].

---

(١) المنتظم ١٠/ ٢٧٢ (١٨/ ٢٣٩)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٣ هـ) ص ١٧.

(٢) المنتظم ١٠/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤ (١٨/ ٢٤٠ ـ ٢٤١) البرق الشامي ٣/ ٨٩ ـ ٩٠، تاريخ مختصر الدول ٢١٦، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٩، الروضتين ج ١ ق ٢/ ٧١٤ ـ ٧١٥، مختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٤١، خلاصة الذهب المسبوك ٢٧٩، دول الإسلام ٢/ ٨٦، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٣ هـ) ص ١٧ ـ ١٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٨، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٨، مرآة الجنان ٣/ ٣٩٨،=

وفيها كانت فتنة ببغداد، وسببها أنه حضر قوم من مسلمي المدائن إلى بغداد، فشكوا من يهودها، وقالوا: لنا مسجد نؤذن فيه ونصلّي، وهو مجاور الكنيسة، فقال لنا اليهود: قد آذيتمونا بكثرة الأذان؛ فقال المؤذّن: ما نُبالي بذلك؛ فاختصموا، وكانت فتنة استظهر فيها اليهود، فجاء المسلمون يشكون منهم، فأمر ابن العطّار، وهو صاحب المخزن، بحبسهم، ثمّ أُخرجوا، فقصدوا جامع القصر، واستغاثوا قبل صلاة الجمعة، فخفّف الخطيب الخطبة والصلاة، فعادوا يستغيثون، فأتاهم جماعة من الجند ومنعوهم، فلما رأى العامة ما فُعل بهم غضبوا نصرة للإسلام، فاستغاثوا، وقالوا أشياء قبيحة، وقلعوا طوابيق الجامع، ورجموا الجُند فهربوا، ثمّ قصد[1] العامّة دكاكين المخلطين، لأن أكثرهم يهود، فنهبوها، وأراد حاجب الباب منعهم، فرجموه فهرب منهم، وانقلب البلد، وخرّبوا الكنيسة التي عند دار البساسيري، وأحرقوا التوارة فاختفى اليهود، وأمر الخليفة أن تُنقض[2] الكنيسة التي بالمدائن وتُجعل مسجداً، ونُصب بالرحبة أخشابٌ ليُصلب عليها قوم من المفسدين، فظنّها العامة نُصبت تخويفاً لهم لأجل ما فعلوا، فعلّقوا عليها في الليل جرذاناً[3] ميتة، وأُخرج جماعة من الحبس لصوص فصُلبوا عليها[4].

وفيها، في شعبان، قبض سيف الدين غازي، صاحب الموصل، على وزيره جلال الدين علي بن جمال الدين بغير جُرمٍ ولا عجز، ولا لتقصير، بل لعجز سيف الدين، فإنّ جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز مشاحنةٌ، فقال مجاهد الدين لسيف الدين: لا بُدّ من قبض الوزير؛ فقبض عليه كارهاً لذلك، ثم شفع فيه ابن نيسان رئيس آمد لصهرٍ بينهما، فأُخرج، وسار إلى آمد فمرض بها، وعاد إلى دُنيسر، فمات سنة أربعٍ وسبعين [وخمسمائة] وعمره سبعٌ وعشرون سنة، وحُمل إلى مدينة النبيّ ﷺ، فدُفنَ عند والده في الرباط الذي بناه بها.

= تاريخ ابن سباط ١/ ١٥١.

(١) في الأوربية: «فقصد».

(٢) في الأوربية: «تنقص».

(٣) في الأوربية: «جرداناً».

(٤) المنتظم ١٠/ ٢٧٥ (١٨/ ٢٤٢)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٣ هـ) ص ١٨ ـ ١٩، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٨.

وكان، رحمه الله، من محاسن الدنيا، جمع كرماً، وعلماً، وديناً، وعفّة، وحُسن سيرة، واستحلفه سيف الدين أنه لا يمضي إلى صلاح الدين لأنه خاف أن يمضي إليه للمودّة التي كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، فبلغني أن صلاح الدين طلبه فلم يقصده لليمين.

وفيها اجتمع طائفة من الفرنج وقصدوا أعمال حمص فنهبوها وغنموا، وأسروا وسبوا، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه، صاحب حمص، وسبقهم ووقف على طريقهم، وكمن لهم، فلما وصلوا إليه خرج إليهم هو والكمين، ووضعوا السيف فيهم، فقُتل أكثرهم وأُسر جماعة من مقدمتهم، ومن سلم منهم لم يفلت إلا وهو مُثخن بالجراح، واستردّ منهم جميع ما غنموا فردّه على أصحابه[1].

[الوفيات]

وفيها، في ربيع الآخر، توفّي صدقة بن الحسين الحدّاد، الذي ذيّل «تاريخ ابن الزاغونيّ» ببغداد[2].

وفيها، في جُمادى الأولى، تُوفّي محمد بن أحمد بن عبد الجبّار الفقيه الحنفيّ المعروف بالمشطّب ببغداد.

---

(1) البرق الشامي ٣/ ٧٢، سنا البرق الشامي ١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦، عقد الجمان ١٢/ ورقة ١/ ٢ ب.

(2) انظر عن (صدقة بن الحسين) في المنتظم ١٠/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨ رقم ٣٦٥، ومرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٤٤، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٦١، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٦٦ ـ ٦٧ رقم ٢٣، وذيل طبقات الحنابلة ١/ ٣٣٩، ووفيات الأعيان ٦/ ٢٥٣، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٨ وفيه «الذي ذيل تاريخ ابن الزعفراني» ولسان الميزان ٣/ ١٨٤، وشذرات الذهب ٤/ ٢٤٥، وكشف الظنون ٢٩٠، ومعجم المؤلفين ٥/ ١٨.

٥٧٤
ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضاً

في هذه السنة، في ربيع الأول، سار جمعٌ كثير من الفرنج بالشام إلى مدينة حماة، وكثر جَمعُهم من الفرسان والرجالة طمعاً في النهب والغارة، فشنّوا الغارة، ونهبوا، وخرّبوا القرى، وأحرقوا، وأسروا، وقتلوا، فلما سمع العسكر المقيم بحماة ساروا إليهم، وهم قليل، متوكّلين على الله تعالى، فالتقوا واقتتلوا، وصدق المسلمون القتال، فنصرهم الله تعالى، وانهزم الفرنج، وكثر القتل والأسر فيهم، واستردّوا منهم ما غنموه من السواد.

وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام في شوّال من السنة المتقدّمة، وهو نازل بظاهر حمص، فحُملت الرؤوس والأسرى والأسلاب إليه، فأمر بقتل الأسرى فقُتلوا[1].

ذكر عصيان ابن المقدّم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه

في هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدّم على صلاح الدين ببعلبك، وكانت له قد سلّمها إليه صلاح الدين لما فتحها جزاءً له حيث سلّم إليه ابن المقدم دمشق، على ما سبق ذكره، فلم تزل بيده إلى الآن، فطلب شمس الدولة بن أيّوب أخو صلاح الدين منه بعلبك، وألحّ عليه في طلبها لأن تربيته ومنشأه كان بها، وكان يحبّها، ويختارها على غيرها من البلاد، وكان الأكبر، فلم يمكن صلاح الدين مخالفته، فأمر شمس الدين بتسليمها إلى أخيه ليعوضه عنها، فلم يُجب إلى ذلك،

---

(١) البرق الشامي ٣/١٢٨ ـ ١٣٠، سنا البرق الشامي ١/٣٠٦ ـ ٣٠٨، الروضتين ج ٢/٥، مفرّج الكروب ٢/٧٠ ـ ٧١، عقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١٤ ب.

وذكّره العهود التي له، وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه، فلم يُصغِ إليه ولجَّ عليه في أخذها، وسار ابن المقدّم إليها، واعتصم بها، فتوجه إليه صلاح الدين، وحصره بها مدة[1]، ثم رحل عنها من غير أن يأخذها، وترك عليه عسكراً يحصره، فلما طال عليه الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلّمها إليه، فعوّضه عنها وسلّمها، فأقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة[2].

ذكر الغلاء والوباء العام

في هذه السنة انقطعت الأمطار بالكلية في سائر البلاد الشامية والجزيرة والبلاد العراقيّة، والديار بكريّة، والموصل وبلاد الجبل، وخلاط، وغير ذلك، واشتدّ الغلاء، وكان عامّاً في سائر البلاد، فبيعت غرارة الحنطة بدمشق، وهي اثنا عشر مكّوكاً بالموصلي، بعشرين ديناراً صُورَيّة عُتقاً[3]، وكان الشعير بالموصل كلّ ثلاثة[4]، مكاكي بدينارٍ أميري، وفي سائر البلاد ما يناسب ذلك[5].

واستسقى الناس في أقطار الأرض، فلم يُسْقوا، وتعذّرت الأقوات، وأكلت الناس الميتة وما ناسبها، ودام كذلك إلى آخر سنة خمس وسبعين [وخمسمائة]، ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضاً، كثر فيه الموت، وكان مرض الناس شيئاً واحداً، وهو السرسام، وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى، إلا أن بعض البلاد كان أشد من البعض.

ثم إن الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الأمطار، وأرخص الأسعار.

ومن عجيب ما رأيت أنّني قصدتُ رجلاً من العلماء الصالحين بالجزيرة لأسمع عليه شيئاً من حديث النبي عليه السلام، في شهر رمضان سنة خمسٍ وسبعين

---

(1) في الأصل زيادة: «فلم».

(2) البرق الشامي ٣/ ٩٢ ـ ٩٤ و٩٥ و١٣٢ و١٣٤ ـ ١٤٠، سنا البرق الشامي ١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٤، مفرّج الكروب ٢/ ٢٩٨، تاريخ الزمان ٩٤، الأعلاق الخطيرة ٢/ ٤٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦١، دول الإسلام ٢/ ٨٧، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٨٨، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٩، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٣، السلوك ج ١ ق ١/ ٦٥، تاريخ ابن سباط ١/ ١٥٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٤ هـ) ص ٢٦.

(3) في الأوربية: «عتق».

(4) في الأوربية: «ثلاث».

(5) انظر: المنتظم ١٠/ ٢٨٥ (١٨/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

[وخمسمائة]، والناس في أشد ما كانوا غلاءً وقُنوطاً من الأمطار، وقد توسّط الربيع ولم تجىء قطرةً واحدة من المطر، فبينا أنا جالس ومعي جماعة ننتظر الشيخ، إذ أقبل إنسان تُركمانيّ قد أثّر عليه الجوع، وكأنّه قد أُخرج من قبر، فبكى وشكا الجوع، فأرسلتُ من يشتري له خبزاً، فتأخّر إحضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرّغ على الأرض ويشكو الجوع، فلم يبق فينا إلا من بكى رحمةً له وللناس، ففي الحال تغيّمت السماء وجاءت نُقَطٌ من المطر متفرّقة، فضجّ الناس واستغاثوا، ثم جاء الخبز، فأكل التركماني بعضه، وأخذ الباقي ومشى واشتدّ المطر ودام المطر من تلك الساعة.

ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين

في هذه السنة، في ذي القعدة، اجتمع الفرنج وساروا إلى بلد دمشق مع ملكهم، فأغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا، فأرسل صلاح الدين فرخشاه، ولد أخيه، في جمع من العسكر إليهم، وأمره أنّه إذا قاربهم يرسل إليه يُخبره على جناح طائر ليسير إليه، وتقدم إليه أن يأمر أهل البلاد بالانتزاح من بين يدي الفرنج، فسار فَرُّخْشاه في عسكره يطلبهم، فلم يشعر إلا والفرنج قد خالطوه، فاضطرّ إلى القتال، فاقتتلوا أشدّ قتال رآه الناس، وألقى فَرُّخْشاه نفسه عليهم، وغشي الحرب ولم يَكِلْها إلى سواه، فانهزم الفرنج ونُصر المسلمون عليهم، وقُتل من مقدّميهم جماعة ومنهم هنْفري[1]، وما أدراك ما هنفري؟ به كان يُضرب المثل في الشجاعة والرأي في الحرب، وكان بلاء صبّه الله على المسلمين، فأراح الله من شرّه، وقُتل غيره من أضرابه، ولم يبلغ عسكر فَرُّخشاه ألف فارس[2].

وفيها أيضاً أغار البرنس صاحب أنطاكية ولاذقيّة على جشير المسلمين بشيْزَر وأخذه[3].

---

(١) هو في المراجع الأجنبية «Hanfroi» أو «Humphrey of Toron» صاحب حصن بانياس وتبنين.

(٢) البرق الشامي ٣/١٤٩، سنا البرق الشامي ١/٣١٧، مرآة الزمان ج٨ ق ١/٣٥١، الروضتين ٢/٦، مفرّج الكروب ٢/ ٧٢ ـ ٧٣، العبر ٤/٢١٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٤ هـ) ص ٢٧، مرآة الجنان ٣/٣٩٩، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٠، السلوك ج ١ ق ١/٦٧، عقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١٣ أ، ب، شذرات الذهب ٤/ ٢٦٤.

(٣) البرق الشامي ٣/ ١٥٥، سنا البرق الشامي ١/ ٣٢٢، الروضتين ٢/٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٤ هـ) ص ٢٧، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٠، السلوك ج ١ ق ١/٦٧، عقد الجمان ١٢/ ٢١٣ ب.

وأغار صاحب طرابلس على جَمْعٍ كثيرٍ من التُّركمان، فاحتجف أموالهم[1].

وكان صلاح الدين على بانياس، على ما نذكره إن شاء الله، فسيّر ولد أخيه تقيّ الدين عُمر إلى حماة وابن عمّه ناصر الدين محمد بن شيركوه إلى مصر، وأمرهما بحفظ البلاد، وحياطة أطرافها من العدو، دمرهم الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر نحو ثلث اللّيل الأخير وغاب منكسفاً[2].

وفيها أيضاً، في التاسع والعشرين، انكسفت الشمس وقت العصر، فغربت منكسفة[3].

[الوَفَيات]

وفي هذه السنة، في شعبان، تُوفّي الحَيْص بَيْص[4] الشاعر، واسمه سعد بن محمّد بن سعد أبو الفوارس، وكان قد سمع الحديث، ومدح الخلفاء والسلاطين والأكابر. وشعره مشهور، فمنه قوله:

كُلّما أوسَعتُ حلْمي جاهلاً ... أوْسع الفُحشَ لهُ فُحشُ المَقال

وإذا شارِدَةٌ فُهتُ بِهَا ... سَبَقَتْ مرَّ النّعامَى والشّمال

لا تَلُمْني في شقائي بالعُلَى ... رَغَدُ العَيشِ لرَبّاتِ الحِجَال

سَيفُ عِزٍّ زانَهُ رَوْنَقُهُ ... فَهْوَ بالطّبعِ غنيٌّ عن صِقال

وفي المحرّم ماتت شُهْدة بنت أحمد بن عمر بن الإبَريّ الكاتبة، وسمعت الحديث من السرّاج وطرّاد وغيرهما، وعمّرت حتى قاربت مائة سنة، وسمع عليها خلق كثير الحديث لعُلوّ إسنادها.

---

(١) البرق الشامي ٣/١٥٨، سنا البرق الشامي ١/٣٢٢، السلوك ج ١ ق ١/٦٧، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري (تأليفنا) ج ١/٥٢٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٤ هـ) ص ٢٧.

(٢) في الأوربية: «مكسفاً».

(٣) المنتظم ١٠/٢٨٣ (١٨/٢٤٨)، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٤ هـ) ص ٢٣.

(٤) انظر عن (الحيص بيص) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٧٤ هـ)، وتاريخ ابن سباط ١/١٥٢ (بتحقيقنا) وقد حشدت فيهما مصادر ترجمته.

٥٧٥

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

ذكر تخريب الحصن الذي بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان

كان الفرنج قد بنوا حصناً منيعاً يقارب بانياس، عند بيت يعقوب، عليه السلام، بمكان يُعرف بمخاضة الأحزان؛ فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس، وأقام بها، وبثّ الغارات على بلاد الفرنج، ثم سار إلى الحصن وحصره ليخرّبه[١] ثمّ يعود إليه عند اجتماع العساكر، فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج، ثمّ عاد عنه؛ فلما دخلت سنة خمسٍ وسبعين لم يفارق بانياس بل أقام بها وخيله تغير على بلاد العدوّ.

وأرسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة، فلم تشعر إلا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم، فأرسلوا إلى صلاح الدين يُعرّفونه الخبر [فسار][٢] في العساكر مُجِداً [حتى][٣] وافاهم وهم في القتال، فقاتل الفرنج قتالاً شديداً، وحملوا على المسلمين عدّة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم، ثمّ أنزل الله نصره على المسلمين، وهزم المشركين، وقُتلت منهم مقتلة كثيرة، ونجا ملكهم فريداً، وأُسر منهم كثير، منهم ابن بيرزان[٤] صاحب الرملة ونابلس، وهو أعظم الفرنج محلاً بعد الملك، وأسروا أيضاً أخا صاحب جُبيل، وصاحب طَبرِيّة، ومقدّم الدّاوية، ومقدم الاسباتارية، وصاحب جِينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم، فأما ابن بيرزان فإنه فدى[٥]

---

(١) في طبعة صادر ١١/ ٤٥٥ «ليخبره».

(٢) من الباريسية.

(٣) من الباريسية: «فوافاهم».

(٤) في (أ): «بيران»، وفي (ب): «سردان»، وفي المصادر: «بارزان».

(٥) في الأوربية: «فدا».

نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صُورَيّة، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان أكثر العمل في هذا اليوم لعز الدين فَرُّخشاه ابن أخي صلاح الدين؛ وحكي عنه أنه قال: ذكرتُ في تلك الحال بيتي المتنبيّ وهما:

فإنْ تكُنِ الدّولاتُ قِسماً فإنها لمن يَرِدُ المَوْتَ الزّؤامَ تؤولُ
ومن هوّنَ الدّنيا على النّفسِ ساعةً وللبِيضِ في هامِ الكُماةِ صَليلُ[1]

فهان الموت في عيني، فألقيتُ نفسي إليه، وكان ذلك سبب الظّفر؛ ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة، وتجهّز للدخول إلى ذلك الحصن ومحاصرته، فسار إليه في ربيع الأوّل، وأحاط به، وقوّى طمعه بالهزيمة المذكورة في فتحه، وبثّ العساكر في بلد الفرنج للإغارة، ففعلوا ذلك، وجمعوا من الأخشاب والزّرَجون شيئاً كثيراً ليجعله متارس للمجانيق، فقال له جاولي الأسديّ، وهو مقدّم الأسديّة وأكابر الأمراء: الرأي أنّنا نجرّبهم بالزحف أوّل مرّة، ونذوق قتال من به، وننظر الحال معهم، فإن استضعفناهم، وإلا فنصب المجانيق ما يفوت.

فقبل رأيه، وأمر فنودي بالزحف إليه، والجدُ في[2] قتاله، فزحفوا واشتدّ القتال، وعظُم الأمر، فصعِد إنسانٌ من العامة بقميصٍ خَلِق في باشورة الحصن وقاتل على[3] السور لمّا علاه وتبِعه غيره من أضرابه، ولحِق بهم الجُنْد فملكوا الباشورة، فصعِد الفرنج حينئذٍ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد.

وكان الفرنج قد جمعوا بطبَريّة، فألحّ المسلمون في قتال الحصن، خوفاً من وصول الفرنج إليهم وإزاحتهم عنه، وأدركهم الليل، فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد، ففعلوا، فلمّا كان الغد أصبحوا وقد نقبوا الحصن، وعمّقوا النقب، وأشعلوا النيران فيه، وانتظروا سقوط السور، فلم يسقط لعرضه، فإنه كان تسعة أذرع بالنُجّاري، يكون الذراع ذراعاً ونصفاً، فانتظروه يومين فلم يسقط، فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التي في النقب، فحمل الماء وألقي عليها فطفئت، وعاد

---

(١) ديوان المتنبي، بشرح العكبري ٣/ ١١٠ ـ ١١١.
(٢) في (ب): «إليه واتخذ في».
(٣) في (ب): «وتبعه غيره من أعلى الصور وقاتل».

النقابون فنقبوا، وخرّقوا السور، وألقوا فيه النار، فسقط يوم الخميس لستٍّ بقين من ربيع الأول، ودخل المسلمون الحصن عَنوةً وأسروا كل من فيه، وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين؛ وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الفرنج، وأدخل الباقين إلى دمشق، وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن، وعفّى أثره، وألحقه بالأرض، وكان قد بذل الفرنج ستّين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال، فلم يفعلوا ظنّاً منهم أنه إذا بقي بناؤه[1] تمكّنوا به من كثير من بلاد الإسلام، وأما الفرنج فاجتمعوا بطبريّة ليحموا الحصن، فلما أتاهم الخبر بأخْذه فُتّ في أعضادهم، فتفرّقوا إلى بلادهم[2].

وأكثر الشعراء فيه، فمن ذلك قول صديقنا النّشْو بن نُفاذة[3]، رحمه الله:

هَـلاكُ الفـرنـجِ أتَـى عـاجِـلاً   وَقـد آنَ تكسيـرُ صُلبـانِهـا
وَلـوْ لـم يَكُـن قـد دَنـا حتفُهـا   لمـا عَمّـرتْ بيـتَ أحـزانِهـا[4]

وقول عليّ بن محمّد الساعاتي الدّمشقيّ:

أتسكُـنُ أوْطـانَ النّبِيّيـن عُصبَـةٌ   تَمِينُ[5] لَدَى أيمانِها[6] وَهيَ تحلِفُ
نَصَحتُكُمُ والنّصْحُ للدّينِ واجبٌ   ذَرُوا بيتَ يَعقوبِ فقد جاء يوسُفُ[7]

ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج أرسلان

في هذه السنة كانت الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومقدّمهم

---

(١) في الأوربية: «فرغوا بناه».

(٢) البرق الشامي ٣/١٦٢ ـ ١٦٩، سنا البرق الشامي ١/٣٢٦ ـ ٣٢٨، مفرّج الكروب ٢/ ٧٥ ـ ٧٦، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥، مضمار الحقائق ١٦ ـ ١٨ و٢٠، دول الإسلام ٢٢/ ٨٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٥ هـ) ص ٢٩ ـ ٣٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٢، السلوك ج ١ ق ١/ ٦٨، عقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١٣ ب، ٢١٤ أ، النجوم الزاهرة ٥/ ١٥٢، تاريخ ابن سباط ١/ ١٥٥ ـ ١٥٦، الإعلام والتبيين ٣٢، شذرات الذهب ٤/ ٢٤٩.

(٣) في الباريسية: «يعادة» وهو: أحمد بن عبد الله بن نفاذة الدمشقي المتوفى سنة ٦٠١ هـ.

(٤) البيتان في سنا البرق الشامي ١/ ٣٣٨، ومرآة الزمان ١٤/ ورقة ١٣٠ ب، وبغية الطلب ١/ ورقة ١٦٢ أ، والبداية والنهاية ١٢/ ٣٠٣، وعقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١٤ أ.

(٥) في الأوربية: «تميز».

(٦) في الباريسية: «يمين أرى أيمانها».

(٧) البيتان في سنا البرق الشامي ١/ ٣٣٨، والروضتين ٢/ ١١ ـ ١٢، ومفرّج الكروب ٢/ ٨٣، ومسالك الأبصار ٢٧/ ورقة ٣٧ أ.

ابن أخيه تقيّ الدين عُمر بن شاهنشاه بن أيّوب، وبين عسكر الملك قلِج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، صاحب بلاد قُونيَة، وأقصَرا.

وسببها أن نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر، رحمه الله، كان قد أخذ قديماً من قلج أرسلان حصن رَعْبَان، وكان بيد شمس الدين بن المقدّم إلى الآن، فطمع فيه قلج أرسلان بسبب أنّ الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين، فأرسل إليه من يحصره، فاجتمع عليه جمعٌ كثير، يقال: كانوا عشرين ألفاً، فأرسل إليهم صلاح الدين تقيّ الدين في ألف فارس، فواقعهم وقاتلهم وهزمهم، وأصلح حال تلك الولاية، وعاد إلى صلاح الدين، ولم يحضر معه تخريب حصن الأحزان، فكان يفتخر ويقول: هزمتُ بألف مقاتل عشرين ألفاً[1].

ذكر وفاة المستضيء بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله

في هذه السنة، في ثاني ذي القعدة، تُوفي الإمام المستضيء بأمر الله[2] أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف[3] المستنجد، رضي الله عنه، وأمه أم ولد أرمنيّة تُدعَى غضّة؛ وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر؛ وكان مولده سنة ستّ وثلاثين وخمسمائة، وكان عادلاً حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه؛ وكان الناس معه في أمنٍ عام وإحسان شامل، وطمأنينة وسكون، لم يروا مثله، وكان حليماً، قليل المعاقبة على الذنب، مُحِبّاً للعفو والصفح عن المذنبين، فعاش حميداً، ومات سعيداً، رضي الله عنه، فلقد كانت أيامه كما قيل:

كأنّ أيّامَهُ مِن حُسنِ سِيرتِهِ ... مَواسِمُ الحَجّ والأعيادُ وَالجُمَعُ

ووزر له عضُد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء[4] إلى أن قُتل في ذي القعدة

---

(١) سنا البرق الشامي ١/٣٣١، النوادر السلطانية ٥٣، تاريخ الزمان ١٩٥، الروضتين ٢/٩، المختصر في أخبار البشر ٣/٦١، العبر ٤/٢٢٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٥ هـ) ص ٣٠ ـ ٣١، تاريخ ابن الوردي ٢/٨٩، مرآة الجنان ٣/ ٤١٠، البداية والنهاية ١٢/٣٠٢ ـ ٣٠٣، تاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٤، السلوك ج ١ ق ١/٦٨ ـ ٦٩، شفاء القلوب ٩٧، تاريخ ابن سباط ١/١٥٣.

(٢) انظر عن (المستضيء بأمر الله) في تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٥٧٥ هـ) ص ٣٣ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٣) في (ب): «يوسف بن أبي نصر».

(٤) الفخري ٣١٩، مختصر التاريخ لابن الكازروني ٢٤٠، خلاصة الذهب المسبوك للإربلي ٢٧٩.

سنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة، ولما قُتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطّار[1]، وكان خيّراً، حسن السيرة، كثير العطاء، وتمكّن تمكّناً كثيراً، فلما مات المستضيء شرع ظهير الدين ابن العطار في أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله، أمير المؤمنين، فلما تمت البيعة صار الحاكم في الدولة أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب.

وفي سابع ذي القعدة قبض على ابن العطّار ظهير الدين، ووُكل عليه في داره، ثم نُقل إلى التاج، وقُيّد ووُكّل به، وطُلبت ودائعه وأمواله، وفي ليلة الأربعاء ثامن عشر ذي القعدة أُخرج ميّتاً على رأس حمّال سرّاً، فغمز به بعض الناس، فثار به العامّة، فألقوه عن رأس الحمّال، وكشفوا سَوْأته، وشدّوا في ذَكَره حبلاً وسحبوه في البلد، وكانوا يضعون[2] بيده مغرفة يعني أنّها قلم وقد غمسوها في العذرة ويقولون[3]: وَقعْ لنا يا مولانا، إلى غير هذا من الأفعال الشنيعة، ثمّ خُلّص من أيديهم ودُفن.

هذا فِعلهم به مع حُسن سيرته فيهم وكفّه عن أموالهم وأعراضهم[4].

وسُيّرت الرُّسل إلى الآفاق لأخذ البيعة، فسيّر صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان، صاحب همذان وأصفهان والرَّيّ وغيرها، فامتنع من البيعة، فراجعه صدر الدين، وأغلظ له في القول، حتى إنّه قال لعسكره في حضرته: [ليس] لهذا عليكم طاعة ما لم يبايع أمير المؤمنين، بل يجب عليكم أن تخلعوه من الإمارة، وتقاتلوه، فاضطرّ إلى البيعة والخطبة، وأرسل إلى رضيّ الدين القزوينيّ مدرّس النظاميّة إلى الموصل لأخذ البيعة، فبايع صاحبها، وخطب للخليفة النّاصر لدين الله أمير المؤمنين.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة هبّت ريح سوداء مظلمة بالدّيار الجزَريّة والعراق وغيرها، وعمّت

---

(١) الفخري ٣٢١ و٣٢٣.

(٢) في الأوربية: «يضعوا».

(٣) في الأوربية: «ويقول».

(٤) تاريخ الزمان ١٩٥ ـ ١٩٦، تاريخ مختصر الدول ٢١٧ ـ ٢١٨، الفخري ٣٢٣، مضمار الحقائق ١١ ـ ١٢، المختصر في أخبار البشر ٦٢/٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٥ هـ) ص ٣٤ ـ ٣٥، تاريخ ابن الوردي ٨٩/٢ ـ ٩٠، البداية والنهاية ٣٠٥/١٢، مآثر الإنافة ٥٧/٢، العسجد المسبوك ١٧٤ ـ ١٧٥، النجوم الزاهرة ٨٥/٦، تاريخ ابن سباط ١٥٤/١ ـ ١٥٥.

أكثر البلاد من الظهر إلى أن مضى من الليل ربعه، وبقيت الدنيا مظلمة يكاد الإنسان لا يبصر صاحبه، وكنتُ حينئذٍ بالموصل، فصلّينا العصر والمغرب والعشاء الآخرة على الظُّنّ والتّخمين، وأقبل الناس على التضرّع والتوبة والاستغفار، وظنّوا أنّ القيامة قد قامت، فلمّا مضى مقدار ربع الليل زال ذلك الظلام والعتمة التي غطّت السماء، فنظرنا فرأينا النجوم، فعلمنا مقدار ما مضى من الليل، لأن الظلام لم يزدَدْ بدخول الليل، وكان كلّ من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك.

وفيها، في ذي القعدة، نزل شمس الدولة أخو صلاح الدين عن بعلبكّ، وطلب عوضاً عنها الإسكندريّة، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وأقطع بعلبك لعزّ الدين فَرُّخْشاه ابن أخيه، فسار إليها، وجمع أصحابه، وأغار على بلاد الفرنج، حتى وصل إلى قلعة صفد، وهي مطلّة على طبريّة، فسبَى وأسر وغنم وخرّب وفعل في الفرنج أفاعيل عظيمة.

وأما شمس الدولة فإنه سار إلى مصر وأقام بالإسكندرية. وإذا أراد الله أن يقبض رجلاً بأرض جعل له إليها حاجة، فإنه أقام بها إلى أن مات بها[1].

وفيها قارب الجامع الذي بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ، وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة، وهو من أحسن الجوامع.

[الوفيات]

وفيها تُوفي أحمد بن عبد الرحمن الصوفي شيخ رباط الزوزَنيّ، وسمع الحديث وكان يصوم الدهر.

وعبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف، سمع الحديث ورواه، وهو من بيت الحديث.

والقاضي عمر بن علي بن الخضر أبو الحسن الدمشقي، سمع الحديث ورواه، وولي قضاء الحريم.

وعليُّ بن أحمد الزيدي، سمع الحديث الكثير، وله وقف كُتُب كثيرة ببغداد،

---

(١) سنا البرق الشامي ١/٣٤١ ـ ٣٤٢، المختصر في أخبار البشر ٣/٦٢، تاريخ ابن الوردي ٢/٩٠، البداية والنهاية ١٢/٣٠٣، العسجد المسبوك ٢/١٧٦، تاريخ ابن سباط ١/١٥٦.

وكان زاهداً، خيّراً، صالحاً.

ومحمّد بن علي بن حمزة أبو علي الأقساسيّ نقيب العلويّين بالكوفة، وكان ينشد كثيراً:

رَبَّ قَــوْمٍ فــي خَــلائِقِهِــمْ　　عُــرَرٌ قــد صُيّــرُوا غُــرَرَا
سَتَــرَ المــالُ القبيــحَ لَهُــمْ　　سَتَــرَى إنْ زالَ مــا سَتَــرَا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن سديد الدولة الأنباري، كاتب الإنشاء بعد أبيه.

وأبو الفتوح نصر بن عبد الرحمن الدامغاني الفقيه، كان مناظراً أحسن المناظرة، كثير العبادة، ودُفن عند قبر أبي حنيفة.

٥٧٦

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عزّ الدين بعده

في هذه السنة، ثالث صفر، تُوفي سيف الدين غازي بن مودود[1] بن زنكي، صاحب الموصل وديار الجزيرة، وكان مرضه السلّ، وطال به، ثم أدركه في آخره سرسام، ومات.

ومن عجيب ما يُحكى أن الناس خرجوا سنة خمسٍ وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدّة الغلاء، وخرج سيف الدين في موكبه، فثار به الناس وقصدوه بالاستغاثة، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمّارين، وخرّبوا أبوابها، ودخلوها، ونهبوها، وأراقوا ما بها من خمور، وكسروا الظروف، وعملوا ما لا يحلّ، فاستغاث أصحاب الدُّور إلى نوّاب السلطان، وخصّوا بالشكوى رجلاً من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق، ولم يكن له يدٌ في الذي فعله العامة من النهب، وما لا يجوز فعله، إنما هو أراق الخمور، ونهى العامة عن الذي يفعلونه، فلم يسمعوا منه، فلما شكا الخمّارون منه أُحضر بالقلعة، وضُرب على رأسه، فسقطت عمامته، فلما أُطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس، فأرادوا تغطيته بعمامته، فلم يفعل، وقال: والله لا غطيّتُ رأسي حتى ينتقم الله لي ممّن ظلمني! فلم يمضِ غير أيام حتى تُوفي الدِّزدار[2] الذي تولى أذاه، ثم بعقِبه مرض سيف الدين، واستمر إلى أن مات، وعُمره حينئذٍ نحو ثلاثين سنة. وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر، وكان حسن الصورة، مليح الشباب، تامّ القامة، أبيض اللّون، وكان عاقلاً وقوراً، قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس، عفيفاً لم يُذكر عنه ما يُنافي العفّة.

---

(١) انظر عن (غازي بن مودود) في تاريخ ابن سباط ١٥٧/١ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

(٢) الدِّزدار: المحافظ.

وكان غيوراً شديد الغيرة لا يدخل دُوره غيرُ الخَدَم الصغار، فإذا كبر أحدهم منعه، وكان لا يحبّ سفك الدماء، ولا أخذ الأموال على شحّ فيه وجُبن.

ولما اشتد مرضُه أراد أن يعهد بالملك لابنه معزّ الدين سَنجَر شاه، وكان عمره حينئذٍ اثنتي عشرة[1] سنة، فخاف على الدولة من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيّوب كان قد تمكّن بالشام، وقوي أمره، وامتنع أخوه عزّ الدين مسعود بن مودود من الإذعان لذلك والإجابة إليه، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل المُلْك بعده في عز الدين أخيه، لما هو عليه من كِبَر السن والشجاعة والعقل وقوّة النفس، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد، ويكون مرجعهما إلى عزّ الدين عمّهما والمتولّي لأمرهما مجاهد الدين قايماز، ففعل ذلك، وجعل المُلك في أخيه، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سَنجَر شاه، وقلعة عَقْر الحُمَيْدِيّة لولده الصغير ناصر الدين كسك[2].

فلما توفي سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد أخوه عز الدين، وكان المدبّر للدولة مجاهد الدين، وهو الحاكم في الجميع، واستقرّت الأمور ولم يختلف اثنان.

ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج أرسلان

في هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيّوب من الشام إلى بلاد قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان، وهي مَلَطْية وسِيواس وما بينهما، وقُونية ليحاربه.

وسبب ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود، صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر، كان قد تزوّج ابنة قِلج أرسلان المذكور، وبقيت عنده مدّة، ثمّ إنه أحب مغنية، فتزوّجها، ومال إليها، وحكمت في بلاده وخزائنه، وأعرض عن ابنة قلج أرسلان، وتركها نَسْياً مَنْسِياً، فبلغ أباها الخبر، فعزم على قصد نور الدين وأخذ بلاده، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستجير به ويسأله كفّ يد قلج أرسلان عنه، فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان في المعنى، فأعاد الجواب: إنّني كنتُ قد سلّمتُ إلى نور الدين عدّة حصون مجاورة بلاده لما تزوج ابنتي، فحيث آل الأمر معه إلى ما

(١) في الأوربية: «اثني عشر».
(٢) في الباريسية: «كشك».

تعلمه[1]، فأنا أريد أن يعيد إليّ ما أخذه منّي.

وتردّدت الرسل بينهما، فلم يستقرّ حال فيها، فهادن صلاح الدين الفرنج، وسار في عساكره، وكان الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها، فتركها ذات اليسار، وسار على تلّ باشِر إلى رعبان، فأتاه بها نور الدين محمد وأقام عنده، فلما سمع قلج أرسلان بقربه منه أرسل إليه أكبر أمير عنده، ويقول له: إنّ هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا، ولا بُدّ من قصد بلاده، وتعريفه محلّ نفسه، فلمّا وصل الرسول، واجتمع بصلاح الدين، وأدّى الرسالة، امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ، وقال للرسول: قُل لصاحبك والله الذي لا إله إلاّ هو لئن لم يرجع لأسيرنّ إلى مَلَطْيَة وبيني وبينها يومان، ولا أنزل عن فرسي إلاّ في البلد، ثمّ أقصد جميع بلاده وآخذها منه.

فرأى الرسول أمراً شديداً، فقام من عنده، وكان قد رأى العسكر وما هو عليه من القوّة والتجمّل، وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك، وليس عنده ما يقاربه، فعلم أنه إن قصدهم أخذ بلادهم، فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به، فأحضره فقال له: أريد أن أقول شيئاً من عندي ليس رسالة عن صاحبي، وأُحب أن تنصفني. فقال له: قُلْ! قال: يا مولانا ما هو قبيح بمثلك، وأنت من أعظم السلاطين وأكبرهم شأناً، أن تسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج، وتركت الغزو ومصالح المملكة، وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة، وسِرْت وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل قَحْبة مُغنية؟ ما يكون عذرك عند الله تعالى، ثمّ عند الخليفة وملوك الإسلام والعالم كافّة؟ واحسِب أن أحداً ما يواجهك بهذا، أما يعلمون[2] أن الأمر هكذا؟ ثم احسب أن قلج أرسلان مات، وهذه ابنته قد أرسلتني إليك تستجير بك، وتسألك أن تُنصفها من زوجها، فإن فعلت، فهو الظن بك أن لا تردها.

فقال: واللّهِ الحقُّ بيدك، وإن الأمر لكما تقول، ولكن هذا الرجل دخل عليّ وتمسّك بي ويقبُح بي تَرْكه، لكنّك أنت اجتمع به، وأصلح الحال بينكم على ما

---

(١) في الأوربية: «يعلمه».

(٢) في (أ): «تعلمون» وفي (ب): «وما يعلم».

تحبّوه، وأنا أعينكم عليه وأقبح فعله عنده؛ ووعد من نفسه بكلّ جميل، فاجتمع الرسول بصاحب الحصن، وتردّد القول بينهم، فاستقرّ أن صاحب الحصن يخرج المغنيّة عنه بعد سنة، وإن كان لا يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته، ويكون هو وقلج أرسلان عليه، واصطلحوا على ذلك، وعاد صلاح الدين عنه إلى الشام، وعاد نور الدين إلى بلاده، فلما انقضت المدة أخرج نور الدين المغنية عنه، فتوجهت إلى بغداد، وأقامت بها إلى أن ماتت[1].

ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون[2] الأرمنيّ

وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمني بعد فراغه من أمر قلج أرسلان، وسبب ذلك أنّ ابن ليون الأرمنيّ كان قد استمال قوماً من التركمان وبذل لهم الأمان، فأمرهم أن يرعوا مواشيهم في بلاده، وهي بلاد حصينة كلّها حصون منيعة، والدخول إليها صعب، لأنها مضايق وجبال وعرة، ثم غدر بهم وسبى[3] حريمهم، وأخذ أموالهم، وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله.

ونزل صلاح الدين على النهر الأسود، وبثّ الغارات على بلاده، فخاف ابن ليون على حصنٍ له على رأس جبل أن يؤخذ فخرّبه وأحرقه، فسمع صلاح الدين بذلك، فأسرع السير إليه، فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات، فغنمها، وانتفع المسلمون بما غنموه، فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق من عنده من الأسرى والسبي وإعادة أموالهم على أن يعودوا عن بلاده، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك واستقرّ الحال، وأطلق الأسرى وأعيدت أموالهم، وعاد صلاح الدين عنه في جمادى الآخرة[4].

---

(١) النوادر السلطانية ٥٤، مضمار الحقائق ١٨ ـ ١٩، تاريخ الزمان ١٩٦، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٢، العبر ٤/ ٢٢٧، دول الإسلام ٢/ ٨٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٦) ص ٣٧ ـ ٣٨، سنا البرق الشامي ١/ ٣٤٤، الروضتين ٢/ ١٦، مفرّج الكروب ٢/ ٩٨ ـ ٩٩، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٩٦، مرآة الزمان ٨/ ٣٦٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٠، مرآة الجنان ٣/ ٤٠٢، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٥، شفاء القلوب ٩٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٠ ـ ٧١، عقد الجمان ١٢/ ورقة ٢١٧ ب، ٢١٨ أ، تاريخ ابن سباط ١/ ١٥٧، شذرات الذهب ٤/ ٢٥٤.

(٢) في (أ): «لاون».

(٣) في الأوربية: «وسبا».

(٤) انظر مصادر الخبر السابق.

ذكر مُلك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قَفْصَة بعد خلاف صاحبها عليه

في هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى إفريقية، وملك قَفْصَة.

وكان سبب ذلك أن صاحبها عليّ بن المعز بن المعتزّ لما رأى دخول الترك إلى إفريقية واستيلاءهم على بعضها، وانقياد العرب إليهم، طمع أيضاً في الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان في طاعته، فأظهر ما في نفسه وخالفه وأظهر العصيان، ووافقه أهل قَفْصة، فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين أصحاب أبي يعقوب، وكان ذلك في شوّال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، فأرسل والي بجاية إلى يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطّراب أمور البلاد، واجتماع كثير من العرب إلى قراقوش التركيّ الذي دخل إلى إفريقية، وقد تقدم ذكر ذلك وما جرى في قفصة من قتل الموحّدين، ومساعدة أهل قفصة صاحبهم على ذلك، فشرع في سدّ الثغور التي يخافها بعد مسيره، فلما فرغ من جميع ذلك تجهز العسكر وسار إلى إفريقية سنة خمسٍ وسبعين، ونزل على مدينة قَفْصة وحصرها ثلاثة أشهر، وهي بلدة[1] حصينة، وأهلها أنجادٌ، وقطع شجرها.

فلما اشتدّ الأمر على صاحبها وأهلها، خرج منها مستخفياً لم يعرف به أحدٌ من أهل قفصة ولا من عسكره، وسار إلى خيمة يوسف، وعرّف حاجبه أنه قد حضر إلى أمير المؤمنين يوسف، فدخل الحاجب وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة إلى باب خيمته، فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد، وأمر بإدخاله عليه، فدخل وقبّل يده، وقال: قد حضرتُ أطلب عفو أمير المؤمنين عني وعن أهل بلدي، وأن يفعل ما هو أهله؛ واعتذر، فرق له يوسف فعفا[2] عنه وعن أهل البلد، وتسلّم المدينة أول سنة ستّ وسبعين وسيّر عليّ بن المعزّ صاحبها إلى بلاد المغرب، فكان فيها مكرّماً عزيزاً، وأقطعه ولاية كبيرة، ورتّب يوسف لقفصة طائفة من أصحابه الموحّدين، وحضر مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أيضاً، فعفا عنه وسيّره إلى مُرّاكِش، وسار يوسف إلى المهديّة، فأتاه بها رسول ملك الفرنج، صاحب صَقَلّيَة،

(١) في الأوربية: «بلد».
(٢) في الأوربية: «فعفى».

يلتمس منه الصلح، فهادنه عشر سنين، وكانت بلاد إفريقية مُجدِبة[١] فتعذّر على العسكر القُوت وعلف الدوابّ، فسار إلى المغرب مسرعاً، والله أعلم[٢].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة تُوفي شمس الدولة تورانشاه بن أيّوب[٣]، أخو صلاح الدين الأكبر، بالإسكندرية، وكان قد أخذها من أخيه إقطاعاً، فأقام بها فتُوفي، وكان له أكثر بلاد اليمن، ونوّابه هنالك يحملون إليه الأموال من زَبيد، وعدن، وما بينهما من البلاد والمعاقل؛ وكان أجود الناس وأسخاهم كفّاً يُخرج كلّ ما يحمل إليه من أموال اليمن، ودخل الإسكندرية، وحُكمه في بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله نافذ، ومع هذا، فلما مات كان عليه نحو مائتي ألف دينار مصريّة ديناً، فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما دخل إلى مصر، فإنه لما بلغه خبر وفاته سار إلى مصر في شعبان من السنة، واستخلف بالشام عز الدين فَرُّخشاه ابن أخيه شاهنشاه، وكان عاقلاً حازماً شجاعاً.

[الوفيات]

وفيها تُوفي الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصفهانيّ بالإسكندرية، وكان حافظ الحديث وعالماً به سافر في طلب الكثير.

وتوفي أيضاً في المحرم عليُّ بن عبد الرحيم المعروف بابن العصار اللُّغَوي ببغداد، وسمع الحديث وكان من أصحاب ابن الجواليقيّ.

---

(١) في الأوربية: «مجذبة».

(٢) نهاية الأرب ٢٤/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦، تاريخ ابن خلدون ٦/ ١٦٦، الاستقصا ٢/ ١٣٦.

(٣) انظر عن (توران شاه بن أيوب) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٧٦ هـ) ص ٢٠٨ وتاريخ ابن سباط ١/ ١٥٨ وفيهما حشدت مصادر ترجمته.

٥٧٧
ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

ذكر غَزاة إلى بلد الكرك من الشام

في هذه السنة سار فَرُّخشاه نائب صلاح الدين بدمشق إلى أعمال كرك ونهبها.

وسبب ذلك أن البرنس أرناط[١]، صاحب الكَرَك، كان من شياطين الفرنج ومردتهم، وأشدّهم عداوةً للمسلمين، فتجهّز، وجمع عسكره ومن أمكنه الجمع، وعزم على المسير في البرّ إلى تَيْماء، ومنها إلى مدينة النبيّ ﷺ، للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة، فسمع عز الدين فَرُّخشاه ذلك، فجمع العساكر الدمشقيّة وسار إلى بلده ونهبه وخرّبه، وعاد إلى طرف بلادهم، وأقام بها ليمنع البرنس من بلاد الإسلام، فامتنع بسببه من مقصده؛ فلما طال مُقام كلّ واحدٍ منهما في مقابلة الآخر علم البرنس أن المسلمين لا يعودون حتى يفرّق جمعه، ففرّقهم وانقطع طمعه من الحركة، فعاد فَرُّخشاه إلى دمشق، وكفى الله المؤمنين شرّ الكفّار[٢].

ذكر تلبيس ينبغي أن يحتاط من مثله

كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكناني ينوب عن شمس الدولة أخي صلاح الدين باليمن وتحكم في الأموال والبلاد بعد أن فارقها شمس الدولة، كما ذكرنا، وكان هواه بالشام لأنه وطنه، فأرسل إلى شمس الدولة يطلب الإذن له في المجيء إليه، فأذن له في المجيء، فاستناب بزبيد أخاه حِطان بن كامل بن مُنقذ الكِناني، وعاد إلى شمس الدولة، وكان معه بمصر، فمات شمس الدولة، وبقي مع

---

(١) في (أ) و(ب): «أرباط».

(٢) الأعلاق الخطيرة ٢/ ٧٠ ـ ٧١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٧ هـ) ص ٤٢، دول الإسلام ٢/ ٨٩، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٠، البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٩، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٢، تاريخ ابن سباط ١/ ١٥٨ ـ ١٥٩.

صلاح الدين فقيل عنه: إنه أخذ أموال اليمن وادّخرها، وسعى به أعداؤه، فلم يعارضه صلاح الدين.

فلما كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعاماً وعمل دعوة كبيرة، ودعا[1] إليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمّى العدوية، وأرسل أصحابه يتجهّزون من البلد، ويشترون ما يحتاجون إليه من الأطعمة وغيرها، فقيل لصلاح الدين إن ابن منقذ يريد الهرب، وأصحابه يتزوّدون له، ومتى دخل اليمن أخرجه عن طاعتك؛ فأرسل صلاح الدين فأخذه والناس عنده وحبسه، فلما سمع صلاح الدين جليّة الحال علم أن الحيلة تمّت لأعدائه في قبضه، فخفّف[2] ما كان عنده عليه، وسهّل أمره وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية، سوى ما لحقها من الحمل لإخوة صلاح الدين وأصحابه وأطلقه وأعاده إلى منزلته، وكان أديباً شاعراً.

ذكر إرسال صلاح الدين العساكر إلى اليمن

في هذه السنة سير صلاح الدين جماعة من أمرائه منهم صارم الدين قُتْلُغ[3] أبَه، والي مصر، إلى اليمن، للاختلاف الواقع بها بين نواب أخيه شمس الدولة، وهم عز الدين عثمان بن الزنجيلي، والي عدن، وحطان بن منقذ [والي][4] زبيد وغيرهما، فإنهم لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا وجرت بين عزّ الدين عثمان وبين حِطّان حرب، وكلّ واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على ما بيده، واشتدّ الأمر، فخاف صلاح الدين أن يطمع أهل البلاد فيها بسبب الاختلاف بين أصحابه وأن يخرجوهم من البلاد، فأرسل هؤلاء الأمراء إليها، واستولى قُتْلُغ أبَه على زبيد وأزال حِطّان عنها.

ثم مات قُتلُغ أبَه، فعاد حِطّان إلى إمارة زبيد، وأطاعه الناس لجوده وشجاعته[5].

---

(١) في الأوربية: «ودعى».

(٢) في الأوربية: «فخفف».

(٣) في (ب): «صارم الدين إبراهيم بن حمزة قتلغ».

(٤) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٥) مضمار الحقائق ٦٦، الدر المطلوب ٧١، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٣، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٠، مآثر الإنافة ٢/ ٦٨، تاريخ ابن سباط ١/ ١٥٩.

[ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمّه عز الدين مسعود مدينة حلب[(١)]

في هذه السنة في رجب، تُوفي الملك الصالح إسماعيل[(٢)] بن نور الدين محمود صاحب حلب بها، وعمره نحو تسع عشرة سنة، ولما اشتدّ مرضه وصف له الأطبّاء شرب الخمر للتداوي، فقال: لا أفعل حتى أستفتي الفقهاء؛ فاستفتى، فأفتاه فقيه من مدرّسي الحنفية بجواز ذلك، فقال له: أرأيت إن قدّر الله تعالى بقُرب[(٣)] الأجل أيؤخّره شرب الخمر؟ فقال [له][(٤)] الفقيه: لا! فقال: والله لا لقيتُ الله سبحانه وقد استعملت ما حرّمه علي؛ ولم يشربها.

فلما أيس من نفسه، أحضر الأمراء، وسائر الأجناد، ووصّاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عزّ الدين مسعود بن مودود بن زنكي، واستحلفهم على ذلك، فقال له بعضهم: إن عماد [الدين] ابن عمك أيضاً، وهو زوج أختك، وكان والدك يحبّه ويؤثره، وهو تولى تربيته، وليس له غير سِنْجار، فلو أعطيته البلد لكان أصلح، وعز الدين له [من البلاد][(٥)] من الفرات إلى هَمَذان، ولا حاجة به إلى بلدك؛ فقال له: إن هذا لم يغب عنّي، ولكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تغلّب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي، ومتى سلّمتُ حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها وإن[(٦)] ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام، وإن[(٧)] سلّمتها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده.

فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنته[(٨)] مع شدّة مرضه وصِغر سنّه.

ثم مات، وكان حليماً[(٩)] كريماً، عفيف اليد والفَرْج واللّسان، ملازماً للدين، لا

---

(١) العنوان والخبر بكامله ورد في النسخة الباريسية والنسخة قم ٧٤٠.

(٢) انظر عن (الملك الصالح إسماعيل) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٧٧ هـ) وتاريخ ابن سباط ١/١٥٩ وفيهما حشدت مصادر ترجمته.

(٣) في الأوربية: «يقرب».

(٤) من النسخة رقم ٧٤٠.

(٥) من النسخة رقم ٧٤٠.

(٦) في النسخة رقم ٧٤٠ «ومتى».

(٧) في النسخة رقم ٧٤٠ «ومتى».

(٨) في النسخة رقم ٧٤٠ «رأيه».

(٩) في النسخة رقم ٧٤٠ «جواداً».

يُعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب من شُرب خمرٍ أو غيره، حسن السيرة في رعيته عادلاً فيهم.

ولما قضى[1] نحبه أرسل الأمراء إلى أتابك عز الدين يستدعونه إلى حلب، فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات، وأرسل فأحضر الأمراء عنده من حلب، فحضروا، وساروا جميعاً إلى حلب، ودخلها في العشرين من شعبان، وكان صلاح الدين حينئذٍ بمصر، ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم، فلمّا اجتاز في طريقه إليها من الفرات كان تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين بمدينة مَنبج، فسار عنها هارباً[2] إلى حماة، وثار أهل حماة، ونادوا بشعار عز الدين، فأشار عسكر حلب على عزّ الدين بقصد دمشق، وأطمعوه فيها وفي غيرها من بلاد الشام، وأعلموه محبة أهلها له ولأهل بيته، فلم يفعل، وقال: بيننا يمين فلا نغدر به؛ وأقام بحلب عدّة شهور، ثم سار عنها إلى الرَّقة][3].

ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سِنجار عوضاً عنها

لما وصل عز الدين الرَّقّة جاءته رسل أخيه عماد الدين، صاحب سنجار، يطلب أن يسلّم إليه حلب ويأخذ عوضاً عنها مدينة سِنجار، فلم يُجبه إلى ذلك؛ ولجّ عماد الدين، وقال: إن سلّمتم[4] إليّ حلب، وإلا سلّمتُ أنا سِنجار إلى صلاح الدين؛ فأشار حينئذٍ جماعة من الأمراء بتسليمها إليه، وكان أشدّهم في ذلك مجاهد الدين قايماز، فلم يمكن عز الدين مخالفته لتمكّنه في الدولة، وكثرة عساكره وبلاده، وإنما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين، لأنه عظم في نفسه، وكثُر معه العسكر.

وكان الأمراء الحلبيّون لا يلتفتون إلى مجاهد الدين، ولا يسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل، فاستقرّ الأمر على تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سِنجار عوضاً

---

(١) في الأوربية: «قضا».

(٢) في النسخة رقم ٧٤٠ «مقارناً».

(٣) إلى هنا ينتهي الخبر في الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٤) في الأوربية: «سلتم».

عنها، فسار عماد الدين فتسلّمها[1]، وسلّم سنجار إلى أخيه[2]، وعاد إلى الموصل.

وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر مُلك عز الدين حلب، فعظُم الأمر عليه، وخاف أن يسير منها إلى دمشق وغيرها، ويملك الجميع، وأيس من حلب[3]، فلما بلغه خبر مُلك عماد الدين لها برز من يومه وسار إلى الشام، وكان من الوهن على دولة عز الدين ما نذكره إن شاء الله[4].

ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومصير صاحبها مع صلاح الدين

كانت قلعة البيرة، وهي مطلّة على الفرات[5] من أرض الجزيرة، لشهاب الدين الأرتقي، وهو ابن عم قُطْب الدين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وكان في طاعة نور الدين محمود بن زنكي، صاحب الشام، فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده[6] وصار في طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل.

فلما كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين يطلب منه أن يأذن له في حصر البيرة وأخذها، فأذِن له في ذلك، فسار في عسكره إلى قلعة سُمَيْساط، وهي له، ونزل بها وسيّر العسكر إلى البيرة، فحصرها، فلم يظفر منها بطائل، إلا أنهم لازموا الحصار؛ فأرسل صاحبها إلى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر، على ما نذكره، يطلب منه أن ينجده ويرحل العسكر المارديني عنه، ويكون هو في خدمته، كما كان أبوه في خدمة نور الدين، فأجابه إلى ذلك، وأرسل رسولاً إلى صاحب ماردين يشفع فيه، ويطلب أن يرحل عسكره عنه، فلم يقبل شفاعته.

واشتغل صلاح الدين بما نذكره من الفرنج، فلما رأى صاحب ماردين طول مُقام

---

(١) في (أ): «فسار عماد الدين إلى حلب».

(٢) في (ب): «إلى ابن أخيه». وزاد في (أ): «عز الدين».

(٣) في (أ): «الموصل».

(٤) مرآة الزمان ج ٨ ق ٣٦٧/١، زبدة الحلب ٥٦/٣ ـ ٥٧، المغرب في حلى المغرب ١٤٨ ـ ١٤٩، المختصر في أخبار البشر ٦٣/٣، السلوك ج ١ ق ٧٧/١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٧ هـ) ص ٤٣، النوادر السلطانية ٥٥ ـ ٥٦.

(٥) في الأوربية: «الفراة».

(٦) في الأصل: «اسمه»، والتصحيح من النسخة رقم ٧٤٠.

عسكره على البيرة، ولم يبلغوا منها غرضاً، أمرهم بالرحيل عنها، وعاد إلى ماردين، فسار صاحبها إلى صلاح الدين، وكان معه حتى عبر معه الفرات[١]، على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كثُرت المنكرات ببغداد فأقام حاجب الباب جماعة لإراقة الخمور، وأخذ المفسدات، فبينما امرأة منهنّ في موضع، علمت بمجيء أصحاب حاجب الباب، فاضطّجعت، وأظهرت أنها مريضة، وارتفع أنينها، فرأوها على تلك الحال، فتركوها وانصرفوا، فاجتهدت بعدهم أن تقوم، فلم تقدر، وجعلت[٢] تصيح: الكرب الكرب، إلى أن ماتت. وهذا من أعجب ما يُحْكَى.

[الوفيات]

وفيها، عاشر ذي الحجّة، تُوفي الأمير هُمام الدين تتر[٣]، صاحب قلعة تكريت بالمُزدلفة، كان قد استخلف الأمير عيسى ابن أخي مودود وحجّ، فتُوفي، ودُفن بالمُعَلَّى مقبرة مكة.

وفيها، في شعبان، تُوفي عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد أبو البركات النحوي المعروف بابن الأنباري[٤] ببغداد، وله تصانيف حَسَنة في النحْو، وكان فقيهاً صالحاً.

وفيها توفي إبراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعي بجزيرة ابن عمر، وكان فاضلاً كثير الورع.

---

(١) في الأوربية: «الفراة».

(٢) في الأوربية: «وحملت».

(٣) في النسخة رقم ٧٤٠ «سر».

(٤) انظر عن (ابن الأنباري) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٧٧ هـ) وتاريخ ابن سباط ١/ ١٦٠ وفيهما حشدت مصادر ترجمته.

٥٧٨
ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

ذكر مسير صلاح الدين إلى الشام وإغارته على الفرنج

في هذه السنة، خامس المحرّم سار صلاح الدين عن مصر إلى الشام؛ ومن عجيب ما يُحْكى من التطيّر أنه لما برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر والناس عنده، وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب، فمن بين مودّعٍ له وسائرٍ معه، وكلّ منهم يقول شيئاً في الوداع والفراق، وما هم بصدده من السفر، وفي الحاضرين معلّم لبعض أولاده، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد:

تَمَتّبعْ مـن شَميـمِ عَـرارِ نَجـدٍ   فَمـا بعـدَ العشيّـةِ مـن عَـرارِ[1]

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطيّر، وتنكّد المجلس على الحاضرين، فلم يَعُد إليها إلى أن مات مع طول المدّة.

ثم سار عن مصر وتبعه من التجار وأهل البلاد، ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره، عالم كثير، فلما سار جعل طريقه على أيْلَة فسمع أن الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدّوه عن المسير، فلما قارب بلادهم سيّر الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق، وبقي هو في العساكر المقاتلة لا غير، فشنّ الغارات بأطرف بلادهم، وأكثر ذلك ببلد الكرَك والشَّوبك، فلم يخرج إليه منهم أحد، ولا أقدم[2] على الدُّنُوّ منه، ثم سار فأتى دمشق، فوصلها حادي عشر صفر من السنة[3].

---

(١) البيت للصمّة بن عبد الله القشيري المتوفى سنة ٩٥ هـ. وهو في ديوان الحماسة، بشرح المرزوقي ١٢٤٠، وزهر الأداب للحصري ٦٨٥، ولسان العرب لابن منظور ٤/ ٥٦٠، وغيره.

(٢) في الأوربية: «قدم».

(٣) النوادر السلطانية ٥٤، التاريخ الباهر ١٨٣، تاريخ الزمان ١٩٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٣ =

ذكر مُلك المسلمين شقيفاً من الفرنج

في هذه السنة أيضاً، في صفر، فتح المسلمون بالشام شقيفاً من الفرنج، يُعرف بحبس جلدك[1]، وهو من أعمال طبريّة، مُطِلّ على السواد.

وسبب فتحه أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له، وحشدوا الفارس والراجل، واجتمعوا بالكَرَك، بالقرب من الطريق، لعلّهم ينتهزون فرصةً، أو يظفرون بنصرة[2]، وربّما عاقوا المسلمين عن المسير بأن يقفوا على بعض المضايق؛ فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام، فسمع فَرُّخْشاه الخبر، فجمع من عنده من عساكر الشام، ثم قصد بلاد الفرنج وأغار عليها، ونهب دبورية وما يجاورها من القرى، وأسر الرجال وقتل فيهم وأكثر وسبَى النساء، وغنم الأموال، وفتح منهم الشقيف، وكان على المسلمين منه أذًى شديد، ففرح المسلمون بفتحه فرحاً عظيماً، وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة، فلقِيه في الطريق، ففتّ ذلك في عضُد الفرنج، وانكسرت شوكتهم[3].

ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن وتغلّبه عليه

في هذه السنة سيّر صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طُغدُكين إلى بلاد اليمن، وأمره بتملّكها وقطع الفِتَن بها، وفوّض إليه أمرها، وكان بها حِطّان بن منقذ، كما ذكرناه قبلُ. وكتب عز الدين عثمان الزنجيلي متولي عدن إلى صلاح الدين يعرّفه باختلال البلاد، ويشير بإرسال بعض أهله إليها، لأن حطان كان قوي عليه، فخافه عثمان، فجهّز صلاح الدين أخاه سيف الإسلام وسيّره إلى بلاد اليمن، فوصل إلى

= ـ ٦٤، زبدة الحلب ٣/ ٥٥ ـ ٥٦، مضمار الحقائق ٣٠ و٩٣ ـ ٩٦، الدر المطلوب ٧١، مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٦٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٥، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩١، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٠، العسجد المسبوك ٢/ ١٨٦، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٧، شفاء القلوب ٩٨ ـ ٩٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٠.

(١) في طبعة صادر ١١/ ٤٧٩ «حبس»، والتصويب من (أ) والمصادر. وفي (ب): «بحس خلدك».

(٢) في (أ): «بمصره».

(٣) مضمار الحقائق ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩١، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٧، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٠، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٧، شفاء القلوب ٩٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦١.

زبيد، فخافه حِطّان بن منقذ واستشعر منه، وتحصّن في بعض القلاع، فلم يزل به سيف الإسلام يؤمّنه ويُهدي إليه ويتلطّفه حتى نزل إليه، فأحسن صُحبته، واعتمد معه ما لم يكن يتوقعه من الإحسان؛ فلم يثق حِطّان به، وطلب منه دستوراً ليقصد الشام، فامتنع من إجابته إظهاراً للرغبة في كونه عنده، فلم يزل حِطان يراجعه حتى أذِن له، فأخرج أثقاله، وأمواله، ودوابه، وأهله، وأصحابه، وكلّ ما له، وسيّر الجميع بين يديه.

فلما كان الغد دخل على سيف الإسلام ليودّعه، فقبض عليه واسترجع جميع ماله فأخذه عن آخره لم يسلم منه قليل ولا كثير، ثم سجنه في بعض القلاع، وكان آخر العهد به، فقيل إنه قتله، وكان في جملة ما أخذ منه من الأموال الذَّهب العين في سبعين غلافاً[1] زرديّة مملوءة عيناً.

وأما عز الدين عثمان الزنجيليّ فإنه لما سمع ما جرى على حِطّان خاف فسار نحو الشام خائفاً يترقّب، وسيّر معظم أمواله في البحر، فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام، فأخذوا كل ما لعز الدين، ولم يبق له إلا ما صَحِبه في الطريق، وصفَت زبيد وعدن وما معهما من البلاد لسيف الإسلام[2].

ذكر إغارة صلاح الدين على الغَور وغيره من بلاد الفرنج

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق، كما ذكرناه، أقام أياماً يُريح ويستريح هو وجُنده، ثم سار إلى بلاد الفرنج في ربيع الأول، فقصد طبرية، فنزل بالقرب منها، وخيّم في الأقحوانة من الأردن، وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت بطبرية، فسيّر صلاح الدين فَرُّخْشاه ابن أخيه إلى بَيسان، فدخلها قهراً، وغنم ما فيها، وقتل وسبى، وجحف الغَور غارةً شعواء، فعمّ أهله قتلاً وأسراً، وجاءت العرب فأغارت على جينين واللّجون وتلك الولاية، حتى قاربوا مرج عكّا.

وسار الفرنج من طبريّة، فنزلوا تحت جبل كوكب، فتقدم صلاح الدين إليهم،

---

(١) في الأوربية: «غلاف».

(٢) مرآة الزمان ج ٨ ق ٣٦٨/١، مفرّج الكروب ١٠٤/٢ ـ ١٠٥، تاريخ مختصر الدول ٢١٨، مضمار الحقائق ٦٦، الدر المطلوب ٧٠ (حوادث ٥٧٧هـ) و٧٣ (حوادث ٥٧٨ هـ) المختصر في أخبار البشر ٦٤/٣، العسجد المسبوك ١٨٦/٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٦، العبر ٢٣٢/٤ ـ ٢٣٣، مرآة الجنان ٤٠٩/٣، النجوم الزاهرة ٩١/٦.

وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشّاب، فلم يبرحوا، ولم يتحركوا لقتال، فأمر ابنَيْ أخيه تقيّ الدين عمر وعزّ الدين فَرُّخشاه، فحملا على الفرنج فيمن معهما، فقاتلوا قتالاً شديداً، ثمّ إن الفرنج انحازوا على حاميتهم[١]، فنزلوا غفربلا[٢]؛ فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق[٣].

ذكر حصر بيروت

ثم إنه سار عن دمشق إلى بيروت، فنهب بلدها، وكان قد أمر الأسطول المصري بالمجيء في البحر إليها، فساروا ونازلوها، وأغاروا عليها وعلى بلدها، وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب ما لم يصل الأسطول إليه، وحصرها عدّة أيام. وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها، فأتاه الخبر وهو عليها أن البحر قد ألقى بُطسة للفرنج فيها جمع عظيم منهم إلى دِمياط، كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدّس، فأسروا من بها إلى أن غرق منهم كثير فكان عدّة الأسرى ألفاً وستّمائة وستة[٤] وسبعين أسيراً، فضُربت بذلك البشائر[٥].

ذكر عبور صلاح الدين الفرات[٦] ومُلكه ديار الجزيرة

في هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات إلى الديار الجزرية[٧] وملكها.

---

(١) في النسخة رقم ٧٤٠ «حامتهم».

(٢) هكذا في الأصل وطبعة صادر والأوربية. وفي الباريسية: «عقربلا»، وفي النسخة رقم ٧٤٠ «عفربلا».

(٣) مضمار الحقائق ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٤، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩١، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٧، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٠، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٧، شفاء القلوب ٩٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦١.

(٤) في الأوربية: «وست».

(٥) النوادر السلطانية ٥٦، مفرّج الكروب ٢/ ١١٥، التاريخ الباهر ١٨٢، تاريخ مختصر الدول ٢١٨، تاريخ الزمان ١٩٨، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ١٠٧، زبدة الحلب ٣/ ٥٦، مضمار الحقائق ٩٥، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٤، دول الإسلام ٢/ ٨٩، العبر ٤/ ٢٣٢، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩١، مرآة الجنان ٣/ ٤٠٩، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٠ ـ ٣١١، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٢٩٧، السلوك ج ١ ق ١/ ٧٨، العسجد المسبوك ٢/ ١٨٦، المغرب في حلى المغرب ١٤٨، شفاء القلوب ٩٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٢.

(٦) في الأوربية: «الفراة».

(٧) في الأوربية: «الجرزية».

وسبب ذلك أن مظفّر الدين كوكبري بن زين الدين عليّ بن بُكْتُكين[1]، وهو مقطع حَرّان كان قد أقطعه إياها عز الدين أتابك، المدينة والقلعة، ثقةً به واعتماداً عليه، أرسل إلى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يُعلمه أنه معه مُحِبّ لدولته، ووعده النصرة له إذا عبر الفرات[2]، ويُطْمعه في البلاد ويحثّه على الوصول إليها، فسار صلاح الدين عن بيروت، ورُسُل مظفر الدين تترى إليه يحثّه على المجيء، فجدّ صلاح الدين السير مظهراً أنه يريد حصر حلب ستراً للحال.

فلما قارب الفرات[3] سار إليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به وعاد معه فقصد البيرة، وهي قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزريّ، وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين، وفي طاعته، وقد ذكرنا سبب ذلك قبلُ، فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذي عند البيرة.

وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أُهْبَة واجتماع لئلا يتعرّض صلاح الدين إلى حلب، ثم تقدّما إلى دارا، فنزلا عندها، فجاءهما أمر لم يكن في الحساب، فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا إلى الموصل وأرسلا إلى الرُّها عسكراً يحميها ويمنعها، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوي طمعه في البلاد؛ ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك أصحاب الأطراف ووعدهم، وبذل لهم البذول على نصرته، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان، صاحب الحصن، إلى ما طلب منه، لقاعدة كانت استقرّت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام، فإنه استقرّ الحال أن صلاح الدين يحصر آمد ويملكها، ويسلّمها إليه.

وسار صلاح الدين إلى مدينة الرُّها، فحصرها، في جُمادى الأولى، وقاتلها أشدّ قتال. فحدّثني بعض من كان بها من الجُند أنه عد في غلاف رمح أربعة عشر خرقاً وقد خرقته السهام.

ووالى الزحف عليها، وكان بها حينئذٍ مقطعها، وهو الأمير فخر الدين مسعود

---

(١) في (أ): «بلتكين».

(٢) في الأوربية: «الفراة».

(٣) في الأوربية: «الفراة».

ابن الزعفراني، فحيث رأى شدّة القتال أذعن إلى التسليم، وطلب الأمان وسلم البلد، وصار في خدمة صلاح الدين، فلما ملك المدينة زحف إلى القلعة، فسلّمها إليه الدَّزدار الذي بها على مالٍ أخذه، فلما ملكها سلمها إلى مظفر الدين مع حران، ثم سار عنها، على حران، إلى الرَّقّة، فلما وصل إليها كان بها مقطعها قُطْب الدين ينال بن حسّان المنبِجي، فسار عنها إلى عز الدين أتابك، وملكها صلاح الدين، وسار إلى الخابور، قرقيسيا، وماكِسين وعُرايان، فملك جميع ذلك.

فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين، فملك المدينة لوقتها، وبقيت القلعة، فحصرها عدّة أيام، فملكها أيضاً، وأقام بها ليصلح شأنها، ثم أقطعها أميراً كان معه يقال له أبو الهَيجاء السمين، وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن.

وأتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق، ونهبوا القرى، ووصلوا إلى داريا، وأرادوا تخريب جامعها، فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى يقول لهم: إذا خرّبتم الجامع جدّدنا عمارته، وخرّبنا كل بيعة لكم في بلادنا، ولا نمكّن أحداً من عمارتها؛ فتركوه. ولما وصل الخبر إلى صلاح الدين بذلك أشار عليه من يتعصب لعز الدين بالعود، فقال: يُخرّبون قُرًى ونملك عِوَضها بلاداً، ونعود نعمرها، ونقوى على قصد بلادهم؛ ولم يرجع، فكان كما قال[1].

ذكر حصر صلاح الدين الموصل

لما ملك صلاح الدين نصيبين، جمع أمراءه وأرباب المشورة عنده، واستشارهم بأي البلاد يبدأ، وأيها يقصد، بالموصل أم بسنجار أم بجزيرة ابن عمر، فاختلفت آراؤهم، فقال له مظفّر الدين كوكبري بن زين الدين: لا ينبغي أن يُبدأ بغير الموصل، فإنها في أيدينا لا مانع لها، فإن عز الدين ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا إليها

---

(١) التاريخ الباهر ١٨٢، النوادر السلطانية ٥٦، الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١٠٧/١، زبدة الحلب ٥٧/٣، مفرّج الكروب ١١٦/٢ ـ ١١٧، تاريخ مختصر الدول ٢١٨، تاريخ الزمان ١٩٨، المختصر في أخبار البشر ٦٤/٣، مضمار الحقائق ٩٦، المغرب ١٤٨، دول الإسلام ٨٩/٢، العبر ٢٣٢/٤، تاريخ ابن الوردي ٩١/٢، مرآة الجنان ٤٠٩/٣، البداية والنهاية ٣١٠/١، تاريخ ابن خلدون ٢٩٧/٥، السلوك ج ١ ق ٧٨/١، شفاء القلوب ٩٩ ـ ١٠٠، تاريخ ابن سباط ١٦٢/١.

تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبليّة.

ووافقه ناصر الدين محمد بن عمه شيركوه، وكان قد بذل لصلاح الدين مالاً كثيراً ليقطعه الموصل إذا ملكها، وقد أجابه صلاح الدين إلى ذلك، فأشار بهذا الرأي لهواه، فسار صلاح الدين إلى الموصل، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل، وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار، وبذلا الأموال الكثيرة، وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيراً، واصطلى الأمور بنفسه، فأحسن تدبيرها، وشحنوا ما بقي بأيديهم من البلاد، كالجزيرة وسِنجار وإربل وغيرها من البلاد، بالرجال والسلاح والأموال.

وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل وترك عسكره، وانفرد هو ومظفّر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه، ومعهما نفر من أعيان دولته، وقربوا من البلد، فلما قربوا رآه وحققه، فرأى ما هاله وملأ صدره وصدور أصحابه، فإنه رأى بلداً عظيماً كبيراً، ورأى السور والفصيل قد مُلئا من الرجال، وليس فيه شُرّافة إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرّجين؛ فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه، وأنه يعود خائباً، فقال لناصر الدين ابن عمه: إذا رجعنا إلى المعسكر فاحمل ما بذلت من المال فنحن معك على القول. فقال ناصر الدين: قد رجعتُ عما بذلت من المال، فإن هذا البلد لا يرام. فقال له ولمظفر الدين: غررتُماني وأطمعتُماني في غير مطمع، ولو قصدتُ غيره قبله لكان أسهل أخذاً بالاسم والهيبة التي حصلت لنا، ومتى نازلناه، وعُدْنا منه، ينكسر ناموسنا ويفّل حدّنا وشوكتنا.

ثم رجع إلى معسكره وصبّح البلد، وكان نزوله عليه في رجب، فنازله وضايقه، ونزل محاذي باب كِندة، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادي، وأنشب القتال، فلم يظفر، وخرج إليه يوماً بعض العامة، فنالوا منه، ولم يُمكّن عز الدين ومجاهدالدين أحداً من العسكر [أن] يخرجوا لقتال بل أُلزموا الأسوار؛ ثم إن تقي الدين أشار على عمّه صلاح الدين بنصب منجنيق، فقال: مثل هذا البلد لا يُنصب عليه منجنيق، ومتى نصبناه أخذوه، ولو خرّبنا بُرجاً وبدنة من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير؟ فألحّ تقي الدين وقال: نجرّبهم به؛ فنصب منجنيقاً، فنُصب عليه من البلد تسعة مجانيق، وخرج جماعة من العامة فأخذوه وجرى عنده قتال كثير، فأخذ بعض العامة لالكة من رِجليه، فيها المسامير الكثيرة، ورمى بها

أميراً يقال له جاوُلي الأسديّ، مقدّم الأسديّة وكبيرهم، فأصاب صدره، فوجد لذلك ألماً شديداً، وأخذ اللالكة وعاد عن القتال إلى صلاح الدين وقال: قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعدُ مثلها؛ وألقى اللالكة، وحلف أنه لا يعود يقاتل عليها أنفةً حيث ضُرب بهذه.

ثم إن صلاح الدين رحل من قرب البلد، ونزل متأخّراً، خوفاً من البيات، فإنه لقربه كان لا يأمن ذلك؛ وكان سببه أيضاً أن مجاهد الدين أخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر الذي للقلعة، ومعهم المشاعل، فكان أحدهم يخرج من الباب وينزل إلى دجلة، مما يلي عين الكبريت، ويُطفىء المشعل، فرأى العسكر الناس يخرجون، فلم يشكوا في الكبسة، فحملهم ذلك على الرحيل والتأخّر ليتعذّر البيات على أهل الموصل.

وكان صدر الدين شيخ الشيوخ، رحمه الله، قد وصل إليه، قبل نزوله على الموصل، ومعه بشير الخادم، وهو من خواصّ الخليفة الناصر لدين الله، في الصلح، فأقاما معه على الموصل، وتردّدت الرسل إلى عزّ الدين ومجاهد الدين في الصلح، فطلب عز الدين إعادة البلاد التي أُخذت منهم، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تُسلّم إليه حلب، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ثم نزل عن ذلك، وأجاب إلى تسليم البلادِ بشرط أن يتركوا إنجاد صاحب حلب عليه، فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً، وقال عز الدين: هو أخي وله العهود والمواثيق ولا يسعني نكثها.

ووصلت أيضاً رُسل قَزل أرسلان صاحب أذربيجان، ورُسل شاه أرمن صاحب خِلاط، في المعنى، فلم ينتظم أمرٌ ولا تمّ صلحٌ؛ فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً، ولا يحصل على غير العناء والتعب، وأن من بسنجار من العساكر الموصليّة يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه، سار من الموصل إليها[1].

---

(١) النوادر السلطانية ٥٧، زبدة الحلب ٥٨/٣، مضمار الحقائق ٩٨، مفرّج الكروب ١١٨/٢، التاريخ الباهر ١٨٣، تاريخ مختصر الدول ٢١٩، تاريخ الزمان ١٩٩، الدر المطلوب ٧٣، المختصر ٦٥/٣، المغرب ١٤٨، العبر ٢٣٢/٤، دول الإسلام ٩٠/٢، تاريخ ابن الوردي ٩١/٢، مرآة الجنان ٤٠٩/٣، البداية والنهاية ٣١١/١٢، العسجد المسبوك ١٨٦/٢، تاريخ ابن خلدون ٢٩٨/٥، السلوك ج ١ ق ٧٨/١، شفاء القلوب ١٠٠، تاريخ ابن سباط ١٦٢/١.

ذكر مُلكه مدينة سنجار

لما سار صلاح الدين عن الموصل إلى سِنجار، سير مجاهد الدين إليها عسكراً قوّةً لها ونجدةً، فسمع بهم صلاح الدين، فمنعهم من الوصول إليها، وأوقع بهم، وأخذ سلاحهم ودوابهم وسار إليها ونازلها، وكان بها شرف الدين أمير أميران هندوا أخو عز الدين، صاحب الموصل، في عسكر معه، فحصر البلد وضايقه، وألح في قتاله، فكاتبه بعض أمراء الأكراد الذين به من الزَّرْزاريّة، وخامر معه، وأشار بقصده من الناحية التي هو بها ليسلّم إليه البلد، فطرقه صلاح الدين ليلاً، فسلّم إليه ناحيته، فملك الباشورة لا غير. فلما سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع، وطلب الأمان، فأُمّن، ولو قاتل على تلك الناحية لأخرج العسكر الصلاحيّ عنها، ولو امتنع بالقلعة لحفِظَها ومنعها، ولكنه عجز، فلما طلب الأمان أجابه صلاح الدين إليه، فأمنه وملك البلد.

وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل، واستقرّ جميع ما ملكه صلاح الدين بملك سنجار، فإنه كان قصد أن يسترده المواصلة إذا فارقه، لأنه لم يكن فيه حصن غير الرُّها، فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين أنز[1]، وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى[2].

ذكر عود صلاح الدين إلى حرّان

لما ملك صلاح الدين سِنجار وقرّر قواعدها سار إلى نصيبين، فلقيه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين، باكين من ظُلمه، متأسّفين على دولة عز الدين وعدله فيهم، فلما سمع ذلك أنكر على أبي الهيجاء ظلمه، وعزله عنهم، وأخذه معه، وسار إلى حران، وفرق عساكره ليستريحوا، وبقي جريدة في خواصه وثقات أصحابه، وكان وصوله إليها أوائل ذي القعدة من السنة[3].

---

(١) في الباريسية: «أنر»، ويرد على الوجهين في المصادر.

(٢) النوادر السلطانية ٥٧، مفرّج الكروب ٢/ ١٢٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٤، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٢.

(٣) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٤، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٢.

ذكر اجتماع عز الدين وشاه أرمن

في هذه السنة، في ذي الحجة، اجتمع أتابك عز الدين، صاحب الموصل، وشاه أرمن صاحب خِلاط، على قتال صلاح الدين.

وسبب ذلك أن رسل عز الدين تردّدت إلى شاه أرمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدّة رُسل في الشفاعة إليه بالكفّ عن الموصل وما يتعلق بعز الدين، فلم يُجبه إلى ذلك، وغالطه، فأرسل إليه أخيراً مملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خِلاط بعد شاه أرمن، فأتاه وهو يحاصر سِنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها، وقال له: إنْ رحل عنها وإلا فتهدّده بقصده ومحاربته؛ فأبلغه بكتمر الشفاعة، فسوّفه في الجواب رجاء أن يفتحها، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة الثانية بالتهديد، وفارقه غضبان، ولم يقبل منه خلعة ولا صلة، وأخبر صاحبه الخبر، وخوّفه عاقبة الإهمال والتواني عن صلاح الدين، فسار شاه أرمن من خلاط، وكان مخيماً بظاهرها، وسار إلى ماردين، وصاحبها حينئذٍ قُطب الدين بن نجم الدين ألْبي[1]، وهو ابن أخت شاه أرمن، وابن خال عز الدين وحموه، لأن عز الدين كان قد زوّج ابنته[2] قُطب الدين، وحضر مع شاه أرمن دولة شاه صاحب بَدْليس وأرْزَن، وسار أتابك عز الدين من الموصل في عسكره جريدة من الأثقال.

وكان صلاح الدين قد ملك سِنجار، وسار عنها إلى حَرّان، وفرّق عساكره، فلما سمع باجتماعهم سيّر إلى تقيّ الدين ابن أخيه، وهو بحماة، يستدعيه، فوصل إليه مُسْرعاً، وأشار عليه بالرحيل[3] وحذّره منه آخرون، وكان هوى صلاح الدين في الرحيل، فرحل إلى رأس عينٍ، فلما سمعوا برحيله تفرّقوا، فعاد شاه أرمن إلى خِلاط، واعتذر بأنّني أجمع العساكر وأعود؛ ورجع عز الدين إلى الموصل، وأقام قُطب الدين بماردين، وسار صلاح الدين فنزل بحرزم تحت ماردين عدّة أيام[4].

---

(١) في (أ): «فخر الدين بن النبي».

(٢) في الأوربية: «ابنة».

(٣) في (ب): «بالرحيل إليهم».

(٤) النوادر السلطانية ٥٨، مضمار الحقائق ١١٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٥.

ذكر الظفر بالفرنج في بحر عيذاب

في هذه السنة عمل البرنس صاحب الكَرَك أسطولاً، وفرغ منه بالكَرَك، ولم يبق إلا جمْع قِطَعِهِ بعضها إلى بعض، وحملها إلى بحر أيْلَة، وجمعها في أسرع وقت.

وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيّرها، فساروا في البحر، وافترقوا فرقتين: فرقة أقامت على حصن أيْلة وهو للمسلمين يحصرونه، ويمنع أهله من وُرُود الماء، فنال أهله شدّة شديدة وضيق عظيم؛ أما الفرقة الثانية فإنهم ساروا نحو عَيْذاب، وأفسدوا في السواحل، ونهبوا، وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التُّجّار، وبغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيّاً قَطُّ لا تاجراً ولا محارباً.

وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين، فعمر أسطولاً وسيّره، وفيه جمع كثير من المسلمين، ومقدّمهم حسام الدين لؤلؤ، وهو متولي الأسطول بديار مصر، وكان مظفّراً فيه، شجاعاً، كريماً، فسار لؤلؤ مُجِداً في طلبهم، فابتدأ بالذين على أيْلة فانقضّ عليهم انقضاض العُقاب على صيدها، فقاتلهم، فقتل بعضهم، وأسر الباقي؛ وسار من وقته بعد الظفر يقصّ أثر الذين قصدوا عَيْذاب، فلم يرهم، وكانوا قد أغاروا على ما وجدوه بها، وقتلوا من لقوه عندها، وساروا إلى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه؛ وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة، حرسهما الله تعالى، وأخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام، والدخول بعد ذلك إلى اليمن.

فلما وصل لؤلؤ إلى عَيْذاب ولم يرهم سار يقفو أثرهم، فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وغيرهما، فأدركهم بساحل الجوزاء، فأوقع بهم هناك، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البرّ، واعتصموا ببعض تلك الشعاب[1]، فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم، وقاتلهم أشدّ قتال، وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك، فركبها، وقاتلهم فرساناً ورجّالة، فظفر بهم وقتل أكثرهم، وأخذ الباقين أسرى، وأرسل بعضهم

---

(١) في (أ): «الشعاري».

إلى مِنى لينحروا بها عقوبةً لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله ﷺ، وعاد بالباقين إلى مصر، فقُتلوا جميعهم[1].

ذكر عدّة حوادث

[الوفيات]

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، تُوفّي عز الدين فَرُّخْشاه[2] ابن أخي صلاح الدين، وكان ينوب عنه بدمشق، وهو ثقته من أهله، وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه، وكان شجاعاً، كريماً، فاضلاً، عالماً بالأدب وغيره، وله شِعر جيّد من بين أشعار الملوك.

وكان ابتداء مرضه أنه خرج من دمشق إلى غزو الفرنج، فمرض، وعاد مريضاً، فمات، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين، وقد عبر الفرات[3] إلى الديار الجزرية، فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق ليكون مقدماً على عسكرها.

وفيها مات فخر الدولة أبو المظفر الحسن[4] بن هبة الله بن المطّلب. كان أبوه وزير الخليفة، وأخوه أستاذ الدار، فتصوّف هو من زمن الصبا، وبنى مدرسة ورباطاً ببغداد عند عقد المصطنع، وبنى جامعاً بالجانب الغربيّ منها.

وفيها تُوفي الأمير أبو منصور هاشم ولد المستضيء بأمر الله ودُفن عند أبيه.

وفيها توفي أبو العباس أحمد بن علي بن الرفيعي من سواد واسط، وكان صالحاً ذا قبول عظيم عند الناس، وله من التلامذة ما لا يُحصى.

---

(١) البرق الشامي ٥/ ٧٣، مفرّج الكروب ٢/ ١٢٧ ـ ١٣٢، الروضتين ٢/ ٣٧، شفاء القلوب ١٠٣، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٩ هـ) ص ٤٨ ـ ٥٠، سنا البرق الشامي ٢/ ٥٤، نهاية الأرب ٢٨/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨، مضمار الحقائق ١٤٤ و١٤٦ ـ ١٥١، الدرّ المطلوب ٧١ ـ ٧٢، دول الإسلام ٢/ ٩٠.

(٢) انظر عن (فرُّخشاه) في تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٨ هـ) ص ٤٦ وفيه مصادر ترجمته، وكذا في تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٣.

(٣) في الأوربية: «الفراة».

(٤) في طبعة صادر ١١/ ٤٩١ «فخر الدولة بن الحسن» وهو غلط، والتصويب من تاريخ الإسلام وفيات (٥٧٨ هـ) رقم الترجمة ٢٦٩ وفيه حشدت مصادر ترجمته.

٥٧٩

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

ذكر مُلك صلاح الدين آمِد وتسليمها إلى صاحب الحصن

قد ذكرنا نزول صلاح الدين بحَرْزَم[1]، تحت ماردين، فلم ير لطمعه وجهاً، وسار عنها إلى آمد، على طريق البارعيّة، وكان نور الدين محمد بن قُرا أرسلان يطالبه في كلّ وقتٍ بقصدها وأخذها وتسليمها إليه، على ما استقرّت القاعدة بينهما، فوصل إلى آمد سابع عشر ذي الحجة من سنة ثمان وسبعين ونازلها، وأقام يحاصرها.

وكان المتولي لأمرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نَيسان؛ وكان صاحبها ليس له من الأمر شيء مع ابن نيسان، فلما نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير، ولم يُعط الناس من الذخائر شيئاً، ولا فرّق فيهم ديناراً ولا قوتاً، وقال لأهل البلد: قاتلوا عن نفوسكم. فقال له بعض أصحابه: ليس العدوّ بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم. فلم يفعل شيئاً. وقاتلهم صلاح الدين، ونصب المجانيق، وزحف إليها، وهي الغاية في الحصانة والمنعة، بها وبسورها يُضرب المثل، وابن نيسان على حاله من الشُحّ بالمال، وتصرّفُه تصرُّف من ولّت سعادته وأدبرت دولته؛ فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال، وجنحوا إلى السلامة.

وكانت أيام ابن نيسان قد طالت، وثقُلت على أهل البلد لسوء صنيعهم وملكتهم وتضييقهم عليهم في مكاسبهم، فالناس كارهون لها، محبون لانقراضها. وأمر صلاح الدين أن يُكتب على السهام إلى أهل البلد يعِدهم الخير والإحسان إن أطاعوه، ويتهدّدهم إن قاتلوه، فزادهم ذلك تقاعُداً وتخاذلاً، وأحبّوا مُلكه وتركوا القتال؛ فوصل النقّابون إلى السور، فنقبوه وعلّقوه، فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا

---

(١) حَرْزَم: بلد في وادٍ ذات نهر جار وبساتين بين ماردين ودنيسر من أعمال الجزيرة. وأكثر أهلها أرمن نصارى. (معجم البلدان).

في ابن نيسان واشتطوا في المطالب.

فحين صارت الحال كذلك أخرج ابن نيسان نساءه إلى القاضي الفاضل، وزير صلاح الدين، يسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله وماله، وأن يؤخّره ثلاثة أيام حتى ينقل ما له بالبلد من الأموال والذخائر؛ فسعى له الفاضل في ذلك، فأجابه صلاح الدين إليه، فسلّم البلد في العشر الأول من المحرّم هذه السنة، وأخرج خِيمَه إلى ظاهر البلد، ورام نقل ماله، فتعذّر ذلك عليه لزوال حكمه عن أصحابه، واطراحهم أمره ونهيه، فأرسل إلى صلاح الدين يُعرّفه الحال، ويسأله مساعدته على ذلك، فأمدّه بالدواب والرجال، فنُقل البعض وسُرق البعض وانقضت الأيام الثلاثة[1] قبل الفراغ فمُنع من الباقي.

وكانت أبراج المدينة مملوءة من أنواع الذخائر، فتركها بحالها، ولو أخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نِعَمه وأمواله، لكن إذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه؛ فلما تسلمها صلاح الدين سلمها نور الدين إلى صاحب الحصن، فقيل له قبل تسليمها: إن هذه المدينة فيها من الذخائر ما يزيد على ألف ألف دينار، فلو أخذت ذلك وأعطيته جُندَك وأصحابك، وسلّمتَ البلد إليه فارغاً، لكان راضياً، فإنه لا يطمع في غيره. فامتنع من ذلك، وقال: ما كنتُ لأعطيه الأصل وأبخل بالفرع؛ فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوةً عظيمة، ودعا إليها صلاح الدين وأمراءه، ولم يكن دخل البلد، وقدّم له ولأصحابه من التُّحَف والهدايا أشياء كثيرة[2].

ذكر ملك صلاح الدين تلّ خالد وعين تاب من أعمال الشام

لما فرغ صلاح الدين من أمر آمِد سار إلى الشام، وقصد تلّ خالد، وهي من أعمال حلب، فحصرها، ورماها بالمنجنيق، فنزل أهلها وطلبوا الأمان فأمّنهم، وتسلّمها في المحرم أيضاً[3].

ثم سار منها إلى عين تاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد، وهو أخو الشيخ

---

(1) في الأوربية: «الثلاث».
(2) الأعلاق الخطيرة ج ٣ ق ١/ ١٨٠ ـ ١٨١، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٥، النوادر السلطانية ٥٨.
(3) النوادر السلطانية ٥٩، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٥.

إسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن زنكي وصاحبه، وكان قد سلّمها إليه نور الدين، فبقيت معه إلى الآن. فلما نازله صلاح الدين أرسل إليه يطلب أن يُقرّ الحصن بيده، وينزل إلى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك، وحلف له عليه، فنزل إليه، وصار في خدمته؛ وكان أيضاً في المحرّم من هذه السنة[١].

ذكر وقعتين مع الفرنج في البحر والشام

في هذه السنة، في العاشر من المحرم، سار أسطول المسلمين من مصر في البحر، فلقوا بُطسةً فيها نحو ثلاثمائة من الفرنج بالسلاح التامّ، ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل، فقاتلوهم، وصبر الفريقان، وكان الظفر للمسلمين، وأخذوا الفرنج أسرى، فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى، وغنموا ما معهم وعادوا إلى مصر سالمين.

وفيها أيضاً سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحي الداروم إلى نواحي مصر ليغيروا وينهبوا، فسمع بهم المسلمون، فخرجوا إليهم على طريق (صَدَر)[٢] وأيلة، فانتزح الفرنج من بين أيديهم فنزلوا بماء يقال له العُسيلة، وسبقوا المسلمين إليه، فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء، فأنشأ الله، سبحانه وتعالى، بلطفه سحابة عظيمة، فمُطروا منها حتى رووا، وكان الزمان قَيظاً، والحر شديداً[٣] في برٍّ مُهلك، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم، ووثقوا بنصر الله لهم، وقاتلوا الفرنج، فنصرهم الله عليهم فقتلوهم، ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودوابّ، وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله.

ذكر مُلك صلاح الدين حلب

وفي هذه السنة سار صلاح الدين من عين تاب إلى حلب، فنزل عليها في المحرم أيضاً، في الميدان الأخر، وأقام به عدة أيام، ثم انتقل إلى جبل جَوْشَن فنزل

---

(١) تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٥.
(٢) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.
(٣) في الأوربية: «شديد».

بأعلاه، وأظهر أنه يريد [أن] يبني مساكن له ولأصحابه وعساكره، وأقام عليها أيّاماً والقتال بين العسكرين كل يوم.

وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، ومعه العسكر النُّوري، وهم مُجِدّون في القتال، فلما رأى كثرة الخرج، كأنه شحّ بالمال، فحضر يوماً عنده بعض أجناده، وطلبوا منه شيئاً، فاعتذر بقلّة المال عنده، فقال له بعضهم: من يريد [أن] يحفظ مثل حلب يخرج الأموال، ولو باع حليّ نسائه؛ فمال حينئذٍ إلى تسليم حلب وأخذ العوض منها، وأرسل مع الأمير طُمان الياروقيّ، وكان يميل إلى صلاح الدين وهواه معه، فلهذا أرسله فقرّر قاعدة الصُّلح على أن يُسلم عماد الدين حلب إلى صلاح الدين ويأخذ عوضها سِنجار، ونصيبين، والخابور، والرّقّة، وسروج، وجرت اليمين على ذلك وباعها بأَوْكَس الأثمان، أعطى حصناً مثل حلب، وأخذ عَوضها قُرًى ومزارع، فنزل عنها ثامن عشر صفر، وتسلّمها صلاح الدين، فعجب الناس كلهم من ذلك، وقبحوا ما أتى، حتى إن بعض عامة حلب أحضر أُجانةً وماء وناداه: أنت لا يصلح لك الملك، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب؛ وأسمعوه المكروه.

واستقرّ مُلك صلاح الدين بملكها، وكان مزلزلاً، فثبت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرفٍ هارٍ، وإذا أراد الله أمراً فلا مَرَدّ له.

وسار عماد الدين إلى البلاد التي أُعطيها عوضاً عن حلب فتسلّمها، وأخذ صلاح الدين حلب، واستقرّ الحال بينهما: إن عماد الدين يحضر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره، إذا استدعاه لا يحتجّ[1] بحجّة.

ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزنكي، قاضي دمشق، مدح صلاح الدين بقصيدة منها:

وفَتحُكُم حلَباً بالسّيفِ في صَفَرٍ مُبشّرٌ بفُتوح القُدس في رَجَبِ

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاثٍ وثمانين وخمسمائة، على ما نذكره إن شاء الله تعالى[2].

---

(١) في الأوربية: «يحتاج».

(٢) النوادر السلطانية ٥٩ ـ ٦٠، مفرّج الكروب ٢/ ١٤١ ـ ١٤٧، زبدة الحلب ٣/ ٦٣ ـ ٧٢، تاريخ مختصر الدول ٢١٩، تاريخ الزمان ٢٠٠ ـ ٢٠١، الأعلاق الخطيرة ٢/ ٧١ و٢٠٣ و٣/ ق ١/ ١٣٤ =

ومما كتبه القاضي الفاضل في المعنى عن صلاح الدين: «فأعطيناه عن حلب كذا وكذا، وهو صَرف على الحقيقة أخذنا فيه الدنانير وأعطيناه الدراهم، ونزلنا عن القُرى، وأحرزنا العواصم».

وكتب أيضاً: «أعطيناه ما لم يخرج عن اليد، يعني أنه متى شاء أخذه لعدم حصانته».

وكان في جُملة من قُتل على حلب تاج الملوك بوري[1]، أخو صلاح الدين الأصغر، وكان فارساً شجاعاً، كريماً حليماً، جامعاً لخصال الخير، ومحاسن الأخلاق، طُعن في رُكبته فانفكّت، فمات منها بعد أن استقرّ الصلح بين عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين، فلما استقر أمر الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده، وقال له: هذه حلب قد أخذناها، وهي لك؛ فقال: ذلك لو كان وأنا حيّ. ووالله لقد أخذتها غاليةً حيث تفقد مثلي. فبكى صلاح الدين وأبكى.

ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين، وقد عمل له دعوة احتفل فيها، فبينما هم في سرور إذ جاء إنسان فأسرّ إلى صلاح الدين بموت أخيه، فلم يُظهر هلعاً، ولا جزعاً، وأمر بتجهيزه سراً، ولم يعلم عماد الدين ومن معه في الدعوة، واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكّر ما هم فيه، وكان هذا من الصبر الجميل.

ذكر فتح صلاح الدين حارم

لما ملك صلاح الدين حلب[2] كان بقلعة حارم، وهي من أعمال حلب، بعض المماليك النورية، واسمه سَرْخَك، وولاّه عليها الملك الصالح (عماد الدين)[3]،

= و١٨٠ ـ ١٨١، مرآة الزمان ج ٨ ق ٣٧٦/١، مضمار الحقائق ١٤٤ و١٤٦ ـ ١٥١، المختصر في أخبار البشر ٦٦/٣، الدر المطلوب ٧٥ ـ ٧٦، نهاية الأرب ٣٨٤/٢٨ ـ ٣٨٥، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٩ هـ) ص ٥١، العبر ٢٣٧/٤، تاريخ ابن الوردي ٩٣/٢، البداية والنهاية ٣١٣/١٢ ـ ٣١٤، تاريخ ابن خلدون ٣٠١/٥ ـ ٣٠٢، شفاء القلوب ١٠٥ ـ ١٠٨، النجوم الزاهرة ٩٥/٦، تاريخ ابن سباط ١٦٥/١ ـ ١٦٦.

(١) انظر عن (تاج الملوك بوري) في تاريخ الإسلام (وفيات ٥٧٩ هـ).

(٢) في الباريسية: «حارم» وهو وهم.

(٣) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

فامتنع من تسليمها إلى صلاح الدين، فراسله صلاح الدين في التسليم، وقال له: اطلب من الإقطاع ما أردت؛ ووعده الإحسان، فاشتطّ في الطلب، وتردّدت الرسل بينهما[1]، فراسل الفرنج ليحتمي بهم، فسمع من معه من الأجناد، أنه يراسل الفرنج، فخافوا أن يسلمها إليهم، فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه، وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإنعام، فأجابهم إلى ما طلبوا، وسلّموا إليه الحصن فرتّب به دَزْداراً بعض خواصّه.

وأما باقي قلاع حلب، فإن صلاح الدين أقرّ عين تاب بيد صاحبها، كما تقدم، وأقطع تل خالد لأمير يقال له داروم الياروقيّ، وهو صاحب تلّ باشر.

وأما قلعة إعزاز، فإن عماد الدين إسماعيل كان قد خرّبها، فأقطعها صلاح الدين لأمير يقال له دلدرم سليمان بن جَندر، فعمرها. وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن فرغ من تقرير قواعدها وأحوالها وديوانها، وأقطع أعماها، وأرسل منها[2] فجمع العساكر من جميع بلاده[3].

ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك

في هذه السنة، في جُمادى الأولى، قبض عز الدين مسعود، صاحب الموصل[4]، على نائبه مجاهد الدين قايماز، وكان إليه الحكم في جميع البلاد، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة[5] لنفسه، ولم ينظر في مضرّة صاحبه.

وكان الذي أشار بذلك عز الدين محمود زلفندار[6]، وشرف الدين أحمد بن أبي

---

(١) في الأوربية: «بينهم».
(٢) في (أ): «إليها».
(٣) مفرّج الكروب ٢/١٤١ ـ ١٤٧، النوادر السلطانية ٥٩ ـ ٦٠، تاريخ الزمان ٢٠٠ ـ ٢٠١، تاريخ مختصر الدول ٢١٩، زبدة الحلب ٣/٦٣ ـ ٧٢، مضمار الحقائق ٣٦ ـ ١٥٤، المختصر في أخبار البشر ٣/٦٦، العبر ٤/٢٣٧، تاريخ ابن الوردي ٢/٩٣، البداية والنهاية ١٢/٣١٣ ـ ٣١٤، تاريخ ابن خلدون ٥/٣٠١ ـ ٣٠٢، الدر المطلوب ٧٥ ـ ٧٦، شفاء القلوب ١٠٥ ـ ١٠٨، الأعلاق الخطيرة ٢/٧١ و٢٠٣ وج ٣ ق ١/١٣٤ و١٨٠ ـ ١٨١، الأنس الجليل ١/٢٩٣، تاريخ ابن سباط ١/١٦٦.
(٤) في (ب): «صاحب العراق».
(٥) في (ب): «في مصلحة صاحبه».
(٦) في (أ): «زلف اندار».

الخير[1] الذي كان أبوه صاحب الغرّاف، وهما من أكابر الأمراء، فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوّة مجاهد الدين، فأظهر أنه مريض، وانقطع عن الركوب عدة أيام، فدخل إليه مجاهد الدين وحده، وكان خصيّاً لا يمتنع من الدخول على النساء، فلما دخل عليه قبض عليه، وركب لوقته إلى القلعة، فاحتوى على الأموال التي لمجاهد الدين وخزائنه، وولّى زلفندار قلعة الموصل بعد مجاهد الدين، وجعل ابن صاحب الغرّاف أمير حاجب وحكّمهما في دولته.

وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذٍ إربل وأعمالها، ومعه فيها زين الدين يوسف بن زين الدين علي، وهو صبي صغير ليس له من الحكم شيء والحكم والعسكر إلى مجاهد الدين، وتحت حكمه أيضاً جزيرة ابن عمر، وهي لمعزّ الدين سَنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود، وهو أيضاً صبيّ، والحكم والنواب والعسكر لمجاهد الدين، وبيده أيضاً شَهْرَزُور وأعمالها، ونوابه فيها، ودَقُوها، ونائبه فيها، وقلعة عُقْر الحُمَيْديّة، ونائبه فيها، ولم يبق لعز الدين مسعود بعد أن أخذ صلاح الدين [البلاد] الجزرية سوى الموصل وقلعتها بيد مجاهد الدين، وهو على الحقيقة الملك واسمه لعز الدين، فلما قبض عليه امتنع صاحب إربل من طاعة عز الدين، واستبدّ، وكذلك أيضاً صاحب جزيرة ابن عمر، وأرسل الخليفة إلى دقوقا فحصرها وأخذها، ولم يحصل لعز الدين مسعود غير شهرزور والعُقر، وصارت إربل والجزيرة أضرّ شيء على صاحب الموصل، وأرسل صاحبها إلى صلاح الدين بالطاعة له، والكون في خدمته.

وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ الشيوخ، ومعه بشير الخادم الخاص، إلى صلاح الدين في الصلح مع عز الدين، صاحب الموصل، وسيّر عز الدين معه القاضي محيي الدين أبا حامد بن الشّهرزوريّ في المعنى، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك وقال: ليس لكم مع الجزيرة وإربل حديث؛ فامتنع محيي الدين عن ذلك وقال: هما لنا؛ فلم يجب صلاح الدين إلى الصلح إلا بأن تكون إربل والجزيرة معه، فلم يتم أمره، وقوي طمع صلاح الدين في الموصل بقبض مجاهد الدين، فلما رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين

(١) في الباريسية: «الجبر».

أحمد بن صاحب الغرّاف[1] وزلفندار، عقوبة لهما، ثم أخرج مجاهد الدين، على ما نذكره إن شاء الله[2].

ذكر غزو بَيْسان

لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازي، وهو صبيّ، وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج[3]، وكان أكبر الأمراء الأسدية، وسار إلى دمشق، وتجهّز للغزو، ومعه عساكر الشام والجزيرة، وديار بكر، وسار إلى بلد الفرنج، فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من السنة، فرأى أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً، فقصد بَيسان فأحرقها وخرّبها، وأغار على ما هناك، فاجتمع الفرنج، وجاءوا إلى قبالته، فحين رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه، فأقام عليهم، وقد استندوا إلى جبل هناك، وخندقوا عليهم، فأحاط بهم، وعساكر الإسلام ترميهم بالسهام، وتناوشهم القتال، فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام، وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر، لعلّ الفرنج يطمعون ويخرجون، فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضاً، فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم في غير السلامة.

وأغار المسلمون على تلك الأعمال يميناً وشمالاً، ووصلوا فيها إلى ما لم يكونوا يطمعون في الوصول إليه والإقدام عليه، فلما كثُرت الغنائم معهم رأوا العود إلى بلادهم بما غنموا مع الظَّفَر أولى، فعادوا إلى بلادهم على عزم الغزو[4].

ذكر غزو الكرك ومُلك العادل حلب

لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهزوا لغزو الكَرَك، فسار إليه

---

(١) في (ب): «صاحب العراق».
(٢) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٩ هـ) ص ٤٧.
(٣) في (ب): «يازكوخ».
(٤) في (أ): «عزم العود». والخبر في مفرّج الكروب ٢/ ١٤٥ ـ ١٤٧، والنوادر السلطانية ٦٠، وزبدة الحلب ٣/ ٧١، ومضمار الحقائق ١٥٠، وتاريخ مختصر الدول ٢١٩، وتاريخ الزمان ٢٠٠ ـ ٢٠١، والمختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٦، والدر المطلوب ٧٥ ـ ٧٦، والعبر ٤/ ٢٣٧، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٥٣، والبداية والنهاية ١٢/ ٣١٣ ـ ٣١٤، والأعلاق الخطيرة ٢/ ٧١ و٢٠٣ وج ٣ ق / ١٣٤ و١٨٠ ـ ١٨١، وتاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٠١ ـ ٣٠٢، والسلوك ج ١ ق ١/ ٨١، وشفاء القلوب ١٠٧ ـ ١٠٨، والأنس الجليل ١/ ٢٩٣، وتاريخ ابن سباط ١/ ١٦٦.

في العساكر، وكتب إلى أخيه العادل أبي بكر بن أيوب، وهو نائبه بمصر، يأمره بالخروج بجميع العساكر إلى الكَرَك. وكان العادل قد أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يخرج معه بأهله وماله، فوصل صلاح الدين إلى الكَرَك في رجب، ووافاه أخوه العادل في العسكر المصري، وكثُر جَمْعه، وتمكّن من حصره، [وصعِد][1] المسلمون إلى رَبضه ومَلَكه، وحصر الحصن من الربض، وتحكم عليه في القتال، ونصب عليه سبعة[2] مجانيق لا تزال ترمي بالحجارة ليلاً ونهاراً.

وكان صلاح الدين يظنُّ أن الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك، وأنهم يبذلون جهدهم في رده عنهم، فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفي لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع، فرحل عنه منتصف شعبان، وسيّر[3] تقي الدين ابن أخيه إلى مصر نائباً عنه ليتولى ما كان أخوه العادل يتولاّه، واستصحب أخاه العادل معه إلى دمشق، وأعطاه مدينة حلب وقلعتها وأعمالها ومدينة مَنبِج وما يتعلق بها، وسيّره إليها في شهر رمضان من السنة، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق[4].

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة فُتح الرباط الذي بنته أمّ الخلفية بالمأمونيّة[5].

[الوفيات]

وفيها، في ذي الحجة، توفي مكرم بن بختيار أبو الخير الزّاهد ببغداد. روى الحديث، وكان كثير البكاء.

وفي جُمادى الآخرة توفي محمد بن بختيار بن عبد الله أبو عبد المولد الشاعر ويُعرف بالأبله، فمن جملة شِعره:

---

(١) من الباريسية والنسخة رقم ٧٤٠.

(٢) في الأوربية: «سبع».

(٣) في (ب): «وكان قد سيّر».

(٤) المصادر السابقة، والبرق الشامي ١٥٣/٥، وسنا البرق الشامي ١٥١/٢، وتاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٩ هـ) ص ٥٣ ـ ٥٤.

(٥) تاريخ الإسلام (حوادث ٥٧٩ هـ) ص ٤٨.

أراقَ دَمْعـي لا بـل أراق دَمـي | ظُلمـاً بظلـمٍ مـن ريقِـه الشَّبِـمِ
ذُو قـامَـةٍ كـالقضيـبِ نـاضِـرَةٍ | ونـاظـرٍ مـن سَقـامِـه سَقَمـي
حصلتُ من وعده على أصدقِ الـ | ـوَعْـدِ ومـن وَصلِـهِ علـى التّهَـمِ

٥٨٠

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة

ذكر إطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم

في هذه السنة، في المحرم، أطلق أتابك عز الدين، صاحب الموصل، مجاهد الدين قايماز من الحبس بشفاعة شمس الدين البهلوان، صاحب هَمَذان وبلاد الجبل، وسيّره إلى البهلوان وأخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين، فسار إلى قزل أوّلاً، وهو صاحب أَذَرْبيجان، فلم يمكنه من المُضِيّ إلى البهلوان، وقال: ما تختاره أنا أفعله؛ وجهّز معه عسكراً كثيراً نحو ثلاثة آلاف فارس، وساروا نحو إربل ليحصروها، فلما قاربوها أفسدوا[1] في البلاد وخرّبوها، ونهبوا وسبوا، وأخذوا النساء قهراً، ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم، فسار إليهم زين الدين يوسف، صاحب إربل، في عسكره، فلقيهم وهم متفرّقون في القرى ينهبون ويحرقون، فانتهز الفرصة فيهم بتفرّقهم، وألقى بنفسه وعسكره على أول من لقيه منهم، فهزمهم، وتمت الهزيمة على الجميع، وغنم الإربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم، وعاد العجم إلى بلادهم منهزمين، وعاد صاحب إربل إلى بلده مظفراً غانماً، وعاد مجاهد الدين إلى الموصل، فكان يحكي: إنني ما زلتُ أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء أفعال العجم، فإنني رأيت منهم ما لم أكن أظنّه يفعله مسلم بمسلم، وكنتُ أنهاهم فلا يسمعون، حتى كان من الهزيمة ما كان.

ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب

في هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى بلاد الأندلس، وجاز البحر إليها في جمْعٍ عظيم من عساكر المغرب، فإنه جمع وحشد الفارس والراجل؛ فلما عبر الخليج قَصد غربي البلاد، فحصر مدينة شَنْتَرين، وهي للفرنج، شهراً،

(١) في الأوربية: «فسدوا».

فأصابه بها مرض فمات منه في ربيع الأول، وحُمل في تابوت إلى مدينة إشبِيلية من الأندلس.

وكانت مدة مُلكه اثنتين وعشرين سنة وشهراً، ومات عن غير وصيّة بالملك لأحدٍ من أولاده، فاتفق رأي قوّاد الموحدين وأولاد عبد المؤمن [على تمليك ولده أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن][1] فملكوه من الوقت الذي مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو، فقام في ذلك أحسن قيام، وأقام راية الجهاد، وأحسن السيرة في الناس. وكان ديناً مقيماً للحدود في الخاص والعام، فاستقامت له الدولة وانقادت إليه بأسرها مع سعة أقطارها، ورتّب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال، ورتّب المقاتلة في سائر بلادها، وأصلح أحوالها وعاد إلى مرّاكش.

وكان أبوه يوسف حسن السيرة، وكان طريقه ألْين من طريق أبيه مع الناس، يحبّ العلماء ويقرّبهم ويشاورهم، وهم أهل خدمته وخاصته. وأحبه الناس ومالوا إليه، وأطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه، وسلك في جباية الأموال ما كان أبوه يأخذه، ولم يتعدّه إلى غيره، واستقامت له البلاد بحسن فعله مع أهلها، ولم يزل كذلك إلى أن توفي، رحمه الله تعالى[2].

ذكر غزو صلاح الدين الكَرَك

في هذه السنة، في ربيع الآخر، سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو، وجمع عساكره، فأتته من كل ناحية، وممن أتاه نور الدين محمد بن قُرا أرسلان، صاحب الحصن. وكتب إلى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكَرَك، فنازل الكَرَك وحصره، وضيّق على من به، وأمر بنصب المجانيق على ربَضه، واشتدّ القتال، فملك المسلمون الربض، وبقي الحصن، وهو والرَّبَض على سطح جبل واحد، إلا أن بينهما خندقاً

---

(١) ما بين الحاصرتين من الباريسية.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ٢٣٦ ـ ٢٦٠، مضمار الحقائق ٢٠١، وفيات الأعيان ٧/١٣٠ ـ ١٣٨، رقم ٨٤٥، المختصر في أخبار البشر ٣/٦٧، العبر ٤/٢٣٩ ـ ٢٤١، دول الإسلام ٢/٩١، تاريخ ابن الوردي ٢/٩٣، البداية والنهاية ١٢/٣١٥، سير أعلام النبلاء ٢١/٨٩ ـ ١٠٣ رقم ٤٦، مرآة الجنان ٣/٤١٧ ـ ٤١٨، مآثر الإنافة ٢/٧٢، صبح الأعشى ٥/١٩٢، السلوك ج ١ ق ١/٨٦، العسجد المسبوك ٢/١٩٣، تاريخ ابن سباط ١/١٦٧، شذرات الذهب ٤/٢٦٤.

عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً، فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه، فلم يقدر أحد على الدُّنو منه لكثرة الرمي عليهم بالسهام من الجرخ والقوس والأحجار من المجانيق، فأمر أن يُبْنى بالأخشاب واللّبن ما يمكن الرجال يمشون تحته إلى الخندق ولا يصل إليهم شيء من السهام والأحجار، ففعل ذلك، فصاروا يمشون تحت السقائف ويلقون في الخندق ما يطمّه، ومجانيق المسلمين مع ذلك ترمي الحصن ليلاً ونهاراً.

وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم وفرسانهم يستمدّونهم ويعرّفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن، فاجتمعت الفرنج عن آخرها، وساروا إلى نجدتهم عَجِلين، فلما بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين رحل عن الكَرَك إلى طريقهم ليلقاهم ويصافقهم، ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكَرَك، فقرب منهم وخيّم ونزل، ولم يمكنه الدُّنُوّ منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسلك إليهم وضيقه، فأقام أياماً ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكّن منهم، فلم يبرحوا منه خوفاً على نفوسهم، فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ، وجعل بإزائهم من يُعلمه بمسيرهم، فساروا ليلاً إلى الكَرَك، فلما علم صلاح الدين ذلك علم أنه لا يتمكّن حينئذٍ ولا يبلغ غرضه، فسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل إلى نابلس أحرقها وخربها ونهبها، وقتل فيها وأسر وسبَى فأكثر، وسار عنها إلى سَبَسْطِيَةَ، وبها مشهد زكريّاء، عليه السلام، وبها كنيسة، وبها جماعة أسرى من المسلمين، فاستنقذهم، ورحل إلى جِينِين فنهبها وخرّبها، وعاد إلى دمشق ونهب ما على طريقه وخرّبه، وبثّ السرايا في طريقه يميناً وشمالاً يغنمون ويخرّبون، ووصل إلى دمشق[1].

ذكر مُلك الملثّمين بجابة وعودها إلى أولاد عبد المؤمن

في هذه السنة، في شعبان، خرج علي بن إسحاق المعروف بابن غانية وهو من أعيان الملثّمين الذين كانوا ملوك المغرب، وهو حينئذٍ صاحب جزيرة ميورقة، إلى

---

(١) النوادر السلطانية ٦٣ ـ ٦٦ ـ ٦٧، زبدة الحلب ٣/ ٧٤ و٧٨ ـ ٧٩، مفرّج الكروب ٢/ ١٥٧ ـ ١٥٨، تاريخ الزمان ٢٠٢، الأعلاق الخطيرة ٢/ ٧١ ـ ٧٢، المغرب ١٥١، مضمار الحقائق ١٨٨ ـ ١٩٠، الدر المطلوب ٧٨، المختصر في أخبار البشر ٣/ ٦٨، العبر ٤/ ٢٣٩، دول الإسلام ٢/ ٩١، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٠ هـ) ص ٥٩ ـ ٦٠، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٤، مرآة الجنان ٤/ ٤١٧، البداية والنهاية ١٢/ ٣١٥، تاريخ ابن خلدون ٥/ ٣٠٢ العسجد المسبوك ٢/ ١٩٠، شفاء القلوب ١١٤، السلوك ج ١ ق ١/ ٨٣ ـ ٨٤، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

بجاية فملكها، وسبب ذلك أنه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر أسطوله فكان عشرين قطعة وسار في جموعه فأرْسَى في ساحل بجاية، وخرجت خيله ورجاله من الشواني فكانوا نحو مائتي فارس من الملثّمين وأربعة آلاف راجل، فدخل مدينة بجاية بغير قتال لأنه اتفق أن واليها سار عنها قبل ذلك بأيام إلى مرّاكش ولم يترك فيها جيشاً ولا ممانعاً لعدم عدو يحفظها منه، فجاء الملثّم ولم يكن في حسابهم أنه يحدث نفسه بذلك، فأرسى بها، ووافقه جماعة من بقايا دولة بني حماد وصاروا معه، فكثُر جَمْعه بهم وقويت نفسه، فسمع خبره والي بجاية فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلاثمائة فارس، فجمع من العرب والقبائل الذين في تلك الجهات نحو ألف فارس، فسمع بهم الملثّم وبقربهم منه، فخرج إليهم وقد صار معه قدر ألف فارس، وتواقفوا ساعة فانضاف جميع الجموع التي كانت مع والي بجاية إلى الملثّم، فانهزم حينئذٍ والي بجاية ومن معه من الموحدين وساروا إلى مراكش، وعاد الملثم إلى بجاية فجمع جيشه وخرج إلى أعمال بجاية فأطاعه جميعها إلا قسنطينة الهوى فحصرها إلى أن جاء جيش من الموحّدين من مراكش في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة إلى بجاية في البرّ والبحر، وكان بها يحيى وعبد الله أخوا علي بن إسحاق الملثّم، فخرجا منها هاربين ولحِقا بأخيهما فرحل عن قُسَنْطِينة وسار إلى إفريقية.

وكان سبب إرسال الجيش من مرّاكش أن والي بجاية وصل إلى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب وعرّفه ما جرى ببجاية واستيلاء الملثّمين عليها، وخوّفه عاقبة التواني، فجهز العساكر في البر عشرين ألف فارس، وجهّز الأسطول في البحر في خلقٍ كثير واستعادوها[1].

ذكر وفاة صاحب ماردين ومُلك ولده

في هذه السنة مات قُطْب الدين إيلغازي بن نجم الدين بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين، وملك بعده[2] ابنه حسام الدين بولق أرسلان وهو طفل، وقام بتربيته وتدبير مملكته نظام الدين البُقش مملوك أبيه، وكان شاه أرمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم في دولته، وهو رتّب البقش مع ولده، وكان

---

(١) نهاية الأرب ٢٤/ ٣٧١ ـ ٣٧٢، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٠ هـ) ص ٥٨.

(٢) في الأوربية: «بعد».

البقش ديناً خيّراً عادلاً، حسن السيرة، حليماً، فأحسن تربيته وتزوّج أمه، فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبطٍ وهوج فيه، وكان لنظام الدين هذا مملوك اسمه لؤلؤ[1] قد تحكم في دولته وحكم فيها، فكان يحمل النظام على ما يفعله مع الولد، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن مات الولد وله أخ أصغر منه لَقَبُه قُطْب الدين، فرتّبه النظام في المُلك وليس له منه إلا الاسم، والحكم إلى النظام ولؤلؤ، فبقي كذلك إلى سنة إحدى وستمائة، فمرض النظام البقش فأتاه قُطْب الدين يعوده، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ وضربه قُطب الدين بسكّين معه فقتله، ثم دخل إلى النظام وبيده السكّين فقتله أيضاً، وخرج وحده ومعه غلام له، وألقى الرأسين إلى الأجناد، وكانوا كلّهم قد أنشأهم النظام ولؤلؤ، فأذعنوا له بالطاعة، فلما تمكن أخرج من أراد وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين وأعمالها وقلعة البارعية وصور وهو إلى الآن حاكمٌ فيها حازمٌ في أفعاله[2].

ذكر عدّة حوادث

[الوَفَيَات]

في هذه السنة توفي صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن شيخ الشيوخ إسماعيل بن شيخ الشيوخ أبي سعيد أحمد في شعبان، وكان قد سار في ديوان الخلافة رسولاً إلى صلاح الدين ومعه شهاب الدين بشيرٌ الخادم في معنى الصلح بينه وبين عزّ الدين صاحب الموصل، فوصلا إلى دمشق وصلاح الدين يحصر الكَرَك، فأقاما إلى أن عاد فلم يستقرّ في الصلح أمرٌ، ومرضا وطلبا العودة إلى العراق، فأشار عليهما صلاح الدين بالمُقام إلى أن يصطلحا، فلم يفعلا وسارا في الحَرِّ فمات بشير بالسّخنة[3].

ومات صدر الدين بالرحبة، ودُفن بمشهد البوق، وكان واحد زمانه، قد جمع

---

(١) في الأوربية: «لؤلؤاً».

(٢) مرآة الزمان ج ٨ ق ١/ ٣٨٣، الروضتين ٢/ ١٦٠، (طبعة وادي النيل)، تاريخ الزمان ٢٠٢، تاريخ مختصر الدول ٢١٩، تلخيص مجمع الآداب ج ٤ ق ٤/ ٦٢٠، وفيات الأعيان ١/ ١٩١ و٢/ ٢٦٥ و٤٥١، الدر المطلوب ٧٨، المختصر ٣/ ٦٨، العبر ٤/ ٢٣٩، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٠ هـ) ص ٦١، تاريخ ابن الوردي ٢/ ٩٤، الوافي بالوفيات ١٠/ ٢٦ ـ ٢٧ رقم ٤٤٦٩، السلوك ج ١ ق ١/ ٨٦، العسجد المسبوك ٢/ ١٩١، النجوم الزاهرة ٦/ ٩٧، تاريخ ابن سباط ١/ ١٦٨، شذرات الذهب ٤/ ٢٦٨.

(٣) في طبعة صادر ١١/ ٥٠٩، «السحنة»، والتصحيح من المصادر.

بين رياسة الدين والدنيا، وكان ملجأ لكل خائف، صالحاً، كريماً، حليماً، وله مناقب كثيرة، ولم يستعملَ في مرضه هذا دواء توكّلاً على الله تعالى[1].

وفيها توفي عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف الخُجَنديّ الفقيه الشافعيّ، رئيس أصفهان، وكان موته بباب همذان وقد عاد من الحَجّ، وله شعر فمنه:

بـالحِمَـى دارٌ سَقـاهـا مَـدمَعـي	يـا سقَـى الله الحِمـى مـن مَـربـعِ
لَيـتَ شِعـري والأمـانـي ضَلّـةٌ	هل إلى وادي الغَضَى من مَرجعِ
أذِنَـتْ عَلـوَةُ للـواشـي بِنـا	مـا علـى عَلـوةَ لـو لـم تَسْمَـعِ
أو تحَـرّتْ رَشَـداً فيمـا وَشَـى	أو عَفَـتْ عنـي فَمـا قلبـي مَعـي

رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه.

حتى هنا نهاية الجزء التاسع

ويليه الجزء العاشر

(١) مضمار الحقائق ١٦٢ و٢٠٠، المختصر في أخبار البشر ٣/٦٨، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٨٠ هـ) ص ٦٠.

(بعون الله وتوفيقه تمّ التصحيح والتعليق على المجلّد التاسع من الكامل في التاريخ لابن الأثير، على يد طالب العلم «عمر بن عبد السلام تدمري» الطرابلسي المولد والوطن، الأستاذ الدكتور في الجامعة اللبنانية، وذلك مساء يوم الجمعة ٤ من ربيع الأول ١٤١٦ هـ/ ١٩ تموز (يوليو) ١٩٩٦ م).

الفهرس العام
للمجلّد التاسع من «الكامل في التاريخ»

(سنة ٥٢١ هـ)

(سنة ٥٢٢ هـ)

(سنة ٥٢٣ هـ)

(سنة ٥٢٤ هـ)

(سنة ٥٢٩ هـ)

(سنة ٥٣٠ هـ)

(سنة ٥٣١ هـ)

(سنة ٥٣٢ هـ)

(سنة ٥٣٣ هـ)

(سنة ٥٣٤ هـ)

(سنة ٥٣٥ هـ)

(سنة ٥٣٦ هـ)

(سنة ٥٣٧ هـ)

(سنة ٥٣٨ هـ)

(سنة ٥٣٩ هـ)

(سنة ٥٤٠ هـ)

(سنة ٥٤١ هـ)

(سنة ٥٤٢ هـ)

(سنة ٥٤٣ هـ)

(سنة ٥٤٤ هـ)

(سنة ٥٤٥ هـ)

(سنة ٥٤٦ هـ)

(سنة ٥٤٧ هـ)

(سنة ٥٤٨ هـ)

(سنة ٥٤٩ هـ)

(سنة ٥٥٠ هـ)

(سنة ٥٥١ هـ)

(سنة ٥٥٢ هـ)

(سنة ٥٥٣ هـ)

(سنة ٥٥٤ هـ)

(سنة ٥٥٥ هـ)

(سنة ٥٥٦ هـ)

(سنة ٥٥٧ هـ)

(سنة ٥٦٥ هـ)

(سنة ٥٦٦ هـ)

(سنة ٥٦٧ هـ)

(سنة ٥٦٨ هـ)

(سنة ٥٦٩ هـ)

(سنة ٥٧٠ هـ)

(سنة ٥٧١ هـ)

(سنة ٥٧٢ هـ)

(سنة ٥٧٣ هـ)

(سنة ٥٧٤ هـ)

(سنة ٥٧٥ هـ)

(سنة ٥٧٦ هـ)

(سنة ٥٧٧ هـ)

(سنة ٥٧٨ هـ)

(سنة ٥٧٩ هـ)

(سنة ٥٨٠ هـ)